# الجريمة والعقاب

# الجريمة والعقاب

## فيدور دوستويفسكي

رواية في مجلدين

ترجمة نسيم واكيم يازجي

مراجعة:

الأستاذ الدكتور ممدوح أبو الوي

رئيس قسم اللغة الروسية و آدابها

في جامعة دمشق

اسم الكتاب: الجريمة والعقاب

المؤلف: فيدور دوستويفسكي

ترجمة: نسيم يازجي

مراجعة: الأستاذ الدكتور ممدوح أبو الوي

سنة الطباعة: 2015

عدد النسخ: 1000

الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-22-086-0

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في :

دار مؤسسة رسلان للطباعة و النشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق – جرمانا – الآس الشرقي

هاتف: 00963115627060

هاتف: 00963115637060

فاكس: 00963115632860

ص .ب : جرمانا 259

www.darrislan.com

# كلمة في الكاتب

احتفل العالم قاطبة، في 9 شباط 1981م بالذكرى المئوية لوفاة فيدور ميخايلوفيتش دوستويفسكي . وقد رحلت بصيرة وبصر عشرات آلاف الناس في جامعات أستراليا وإنكلترا واليابان والسويد وتشيكوسلوفاكيا إلى إحدى حارات لينيغراد (كان اسمها بطرسبورغ في أيام دستويفسكي ثم عادت مؤخراً إلى الاسم عينه) والتي شهدت في العام 1881 رحيل الكاتب العظيم. كانت حياة دوستويفسكي في بطرسبورغ مرتبطة كلها بأحياء صغار الموظفين والغرف المأجورة الضيقة للطلاب وسواهم، وبالأسواق والحانات وبشؤون الشريحة الوسطى ذات الدخل المحدود.

إن القرن الذي انصرم منذئذ غيّر أشياء كثيرة في حافظة البشرية، لكن روائع دوستويفسكي كانت أقوى من التحولات والمحن، وخرجت بأبهى حُلَّة، واكتسبت طابعاً عصرياً ملحقاً به بعض الغرابة. وربما قرأنا تحت شق قلمه ما يشبه التنبؤات بخاصة في "الشياطين" و"الأخوة كرامازوف"، ولم تكن قليلة بل كثرتها ترشح من نظرة حدسية، ما ليس غريباً على عبقرية هذا الكاتب القدير.

قادني مرة حفيد دوستويفسكي أندريه في شوارع المدينة، فكُنّا نرى أماكن أحداًث رواية "الجريمة والعقاب" مما وضح لنا كل شيء واكتسب مغزىً تاريخياً، فهنا كان يعيش الكاتب وكذلك آل مارملادوف.

نلاحظ في بعض الكتب دقة الوصف للأماكن كما هو واضح لدى بوشكين مثلاً في ميخائيلو فسكوية، ولدى ديكنز في لندن، ولدى بونين في روسيا، من خلال وصف المناظر الطبيعية ووصف ديكورات الأحداث الجارية.

لكنَّ الأمر مختلف لدى دوستويفسكي، إذ أنَّه يَعدُّ الخطوات من دار راسكولنيكوف إلى دارِ العجوزِ المرابية، وهو يعثر على تلك الدار، وعلى

الشقة المطلية وعلى السُّلَّم، فيبدو كمن يُخرِجُ مسرحية، أي يقوم بدور كاتب مسرحية ومُخرجها.

وهو لا غنى له أن يرى ما يحدث بعينيه، وأن يفهم. والفهم هو الأمر المدهش حقاً. لأن راسكولنيكوف يبقى لغزاً عنده إلى مدى بعيد، فيحاول دوستويفسكي أن يفهمه، لذا يقدم عدة تعقيبات. هو لا يتظاهر بعدم الفهم، إن ما يعرفه عن راسكولنيكوف ليس قليلاً، أفكاره، أحاسيسه، كلامه وسلوكه، لكن ذلك لا يكفي لجلي البواعث الكامنة في اللاوعي والتي دفعت راسكولنيكوف للتصرف بعكس المنطق. فيدهش هذا الأمر دوستويفسكي. أنَّه ينظر إلى أبطاله نظرته إلى سر، الأمير ميشكن، بطل "الأبله"، وسرٌّ إيفان كرامازوف بطل "الأخوة كرامازوف" وستافروجين بطل "الشياطين".

فينبري "تولستوي" إلى المؤازرة في إدراك الإنسان، ويطلعنا على تطور شخصيته، ومنابع أفكاره، ويرشدنا إلى أعماقه الروحية.

أما دوستويفسكي فيساعدنا على إدراك استحالة معرفة الإنسان، ووعي لا محدوديته، وفوضى مشاعره، وهنا فسحة احترام الإنسان، وهذا درس يقدمه دوستويفسكي لكلِّ كاتب، فماذا نفعل نحن؟ في أدبنا الكثير من الأبطال، وهم واضحون حتى الأعماق وقد عكس ذلك عصرنا، عصر الثورة العلمية التقنية، لأن الأفعال تكون عادة ذات طابع نفعي، تخضع للمصلحة والمنطق والظروف، ويبدو هؤلاء الأشخاص وكأنَّهم مطلوبون، لأنَّهم مريحون وملائمون... وهنا يتضح أن دوستويفسكي يحمينا من هذا الشخص - المنفعة - أي النفعي، الشخص الوظيفة، يقي كرامة السر، والغاية السامية لوجود الإنسان.

والسيكولوجيا عند دوستويفسكي أداة لدراسة أهم قضايا الحياة، ولدراسة القضية التي ربَّما كانت الأولى بينها، وهي قضية الإيمان بما يؤمن

الإنسان؟ وهل يمكن أن يوجد الله؟ لعلَّ من السذاجة الظنَّ أنَّ الإلحاد يقضي على مشكلة الإيمان، الإيمان بالإنسجام، بالسعادة العامة، بالغاية الدقيقة لوجود الإنسان.

وإذا ما تحدثنا عن دروس دستويفسكي بالنسبة لعصرنا، أعتقد أنَّها ليست الأسئلة الجريئة التي يطرحها - في دائرة القضايا التي يثيرها - عن الأحداث الجارية، على الرغم من معاناة دوستويفسكي ومعايشته لكل الهموم السياسية والشعبية لذلك العصر... كلا، بل هي الأسئلة الأكثرُ إلحاحاً وأزلية. ولعلَّهُ من المفيد أن نرى كيف كانت القضايا اليومية الملحة تنصهر وتصفي في روايات دوستويفسكي لتخرج منها أفكاراً حيَّة، لا تهويمات مجردة، أفكاراً مضرجة بدم، ودموع نفس حيَّة.

يصور دستويفسكي بجرأة بالغة أُناساً فقدوا الإيمان... تخلى الإيمان عنهم وتركتهم الآلهة وماتت. والسؤال الذي تشق على الكاتب معاناته هو:

ماذا سيحدث إذا لم يكن ثمَّة إله؟ وإذا ما حل محل الإله شخص قوي النزعة وراح يتصرف على هواه؟ كيف نعالج هذا وندفعه عنا؟ وما يجوز للإنسان أن يفعله؟ هل له أن يتصرف بأقدار الآخرين وحياتهم من أجل مصلحة الآخرين؟ من يقتل فيدرو دويستوفسكي؟ كيف يدور الصراع بين الخير والشر في النفس البشرية؟ أثمَّت خلود؟ أنَّه يدرس قضايا الوجود، العذاب، الحب، الجريمة، الجنونْ، والأهواء.

فقد تميز نبوغ دوستويفسكي الغني بطاقة فلسفية هائلة. كان أبداً مهموماً بالإشكالات الجذرية والحاسمة. وكان الأدب عنده وسيلة تفكير، وكاتبه غير موهوب فقط بالقدرة على ملاحظة تفاصيل الحياة بألوانها ومداها في الحياة. تلك هي قوة دوستويفسكي، وهذا هو المثل الذي يقدمه للأدب المعاصر.

ومؤلفاته خالية أو تكاد من الشؤون العادية، فهو صاحب رؤية الحياة

الروسية تخيلاً.

كل ما يحدث يشابه ويحاكي الواقع، إذا صح التعبير، مع أن كل ما يحكيه من نسج الخيال. ليس ثمة شياطين مرعبة، ولكن الواقع يهتز قليلاً، فتولد إمكانية ظهور فجاج ومهاوي لا تخطر على بال أحد.

قراءة دوستويفسكي أمرٌ صعب، وأحياناً تثير النفور، ما السبب؟!

إن روايته لا تقرب الأمور العادية المبتذلة، ولا تستحلي وصف الأشياء المرعبة، ولا أعمال العنف المنفردة المقززة، لكن هذا الأمر صعب ولا يمكنني التصدي له، ويطيب لي فقط أن ألفت النظر إلى واحدة من خصائصه، بل إلى جانب من جوانب ألمعيته فيبدو كإنما يكشف قضية ما. وقد أذكر مثلاً قوله: "الإحساس الإنساني البسيط ببعض السرور عندما يصاب الغير بمكروه، أي عندما تُكسَر ساق أحدهم، أو يتأذى وجدانه...الخ" "المراهق" - إحدى روائع دستويفسكي وهي كثيرة وتعليّقه على ما أصاب آل مأرملادوف في هذه الرواية: "ها هم سكان البيت يتجهون نحو الباب واحداً واحداً، وهم يحملون ذاك الشعور الغريب، شعور التظلُّم الدائم لدى أقرب الأقرباء حين يحل شقاء بقريبهم وهو إحساس لا يتبرأ منه أحد مهما كان أسفه صادقاً..."

طبعاً، لا يحب أحد أن يحمل أو يكمن هذا الشعور. لكنَّ دوستويفسكي يُكرِهَنا بطريقةٍ ما على أن نجد في نفوسنا الشيء السيء، ونعثر فيها على أهواء تعصف بأبطال الرواية. وعلى هذا نصبح شركاء مذنبين وقد فُضحنا، فلسنا أفضل من هؤلاء الأبطال، بل نحن مستعدون لارتكاب ما اقترفوه. وفي رواية "المراهق" يتحدث عن قدرة الإنسان على أن يدخر وينمي في حناياه أمثل المثل إلى جانب أحط التفاهات، وبصدق خالص... فهل هذا الكلام يخص أناس الماضي فقط؟

حينما تقرأ دوستويفسكي يعتريك الخجل... وهذه أثمن سمة من سمات أستاذيَّته. ويجب أن نتعلمها إن أمكن. تخجل ويتلبسك تأنيب الضمير، ولذلك

تتشوش القراءة. أنَّه يُلزمُك بالخجل والحياء، ويقضي على كل جهود التهرب وتبرير الشر والانحطاط الخلقي. وما أبرعه في تصوير الدناءة والنفاق والرياء والقسوة! لا، لا، هذه ليست براعة مرضيَّة، بل الأصوب هي موهبة شافية، غير فظة بل إنسانية. أليس جائز أن جهادنا في الحديث عن مظاهر الطيبة والجمال والسمو وحدها؟ وعندما نختار ونمدح أفضل النماذج وأكثرها مثالية فحسب، نكون بهذا قد صفعنا يقظة الضمير وكسرنا القدرة على التصدي لأهوال الحياة وفي مقدمتها التضحية الوطنية. إن المكانة التي تبوأها الأدب الروسي والأدب الغربي، في عصر النهضة، إنما تعززت أساساً بفضل ما قاما به من فضح لا يكل، للرذائل، والضلالات. وبالرغم من وجود الكثير من العقبات استطاع دوستويفسكي ما لم يستطعه غيره من كسر للحواجز وهو في ذلك واحدٌ من أكثر الكتَّاب معاصرة لنا.

وإبداع دوستويفسكي يُحفِّز الفكر، وقد أثَّر على أكبر الفلاسفة وعلماء النفس، يقول فرويد: "من دوستويفسكي تعلمت علم النفس" والكتب التي وضعت عن هذا العالم - الأديب تتميز بقيمتها الفلسفية والعلمية.

والفنان وحده، والكاتب في المقام الأول، هو الأقدر على مساعدة الناس لكشف حقائق جديدة عن أنفسهم. وبهذا المعنى كان دوستويفسكي وسيبقى مفخرة لروسيا وللأدب الروسي وللعالم. ولتاريخ الفنون الطويل كله.

أنا لا أدري سبباً لتأليف الكتب. وقال بوشكين ذات مرة: "إن غاية الشعر هي الشعر". فما هو الباعث وما الدافع المحرك للفنان ولأي هدف يعمل؟ أمن أجل المتعة، أم التربية، أم البحث؟ لست أدري!! غير أن ذلك كُلَّه وبأسمى تقدير وبألمعية، تقدمه لنا كتب دوستويفسكي. وفيها علاوة على ذلك، الإحساس بالمعجزة التي تشدُّ إليها مشاعرنا وأفكارنا أكثر فأكثر، وتسمو بأفكارنا فتمكننا من رؤية أنفسنا وعالمنا بكل بؤسه وعظمته بكل جدارته وقيمه، عالمنا كله بروعة جماله واستحالة إدراكه.

كلمة بسيطة قد لا تليق بدوستويفسكي وردت على قلمي تعقيباً على ترجمتي لكتاب دَوستُويفسكي "الجريمة و العقاب"

**مقدمة المترجم**

# المجلد الأول

# الجزء الأول

## الفصل الأول

في طالع شهر تموز، في أثناء حرارة قائظة، خرج شاب في وقت المغيب من غرفة صغيرة كان يستأجرها بالوساطة في زقاق نحو الشارع إلى جسر بطيء الخطى كأنَّه كان متردداً.

لقد واتاه الحظ فأفلح في أثناء هبوطه السلم أن يتحاشى لقاء صاحبة الشقة التي يسكن عندها. تقع الغرفة تحت السقف من بناء عالٍ مؤلف من خمسة طوابق. كانت أقرب إلى شكل الخزانة منها إلى مسكن، وكانت صاحبة الشقة تؤجرها مع الطعام والخدمة و تقطن في الطابق الأدنى، إذْ كان عليه كلما خرج، أن يمر أمام مطبخها مفتوح الباب أبداً فيشرف على السلم.

كلما خرج كان يشعر بضيق وحرج وجبن فيحس بالخجل من هذا الشعور ويتقلص محياه. كان مديناً لصاحبة الشقة بكل شيء فيخشى أن يلتقيها.

لا يصدر جبنه من جبن يتولاَّه، أو ذعر يتلبسهُ، بالعكس، إنما كان يعاني منذ حين من بعض التوتر والعصبية توشك أن تكون مرض الكآبة. فقد بلغت حياته من الانعزال والانطواء أنَّه يخشى أن يلقي أياً كان، ناهيك عن لقاء صاحبة الغرفة.

كان يعيش فقراً أسود وبؤساً شديداً، ولكن العوز نفسهُ أصبح في الآونة الأخيرة لا يشق عليه، وأفضى به الأمر ألا يهتم بشؤونه بل لا يريدها فعلاً، كانت صاحبة الدار لا تخيفه، مهما رسمت من مكائد ضده ولكن وقوفها في فسحة السلم وثرثرتها التي لا تعنيه أبداً، واحتمال تذكيره باستمرار بضرورة المبادرة لدفع الأجرة، واضطراره إلى اختلاق الأعذار وتلفيق الكذب.

لقد ضاق ذرعاً بكل هذا، لذا أصبح يفضل أن يتسلل تسلل هرة فلا يراها.

إلا على أن الخوف الذي أحس به هذه المرة من احتمال أن تراه هذه الشمطاء أدهشه، و ما أن وصل مركز الشارع، خاطب نفسه وقال وقد ارتسمت على محياه ابتسامة غريبة: أنوي التهور والإقدام على ذلك العمل، ثم أضاف لأمر تافه!؟ نعم إن كل شيء ممكن على الإنسان، ومع ذلك ييسر أن يمر كل شيء تحت منخريه... وما ذلك إلا لأنَّه جبان... نعم، هذه بديهية... لذيذ جداً أن نعرف ماذا يخاف الناس أكثر من سواهم ... إلا أن ما يخافونه كثيراً هو أن يخطوا خطوة واحدة إلى الأمام، هو أن يقولوا كلمة شخصية. بيد أنني أثرثر كثيراً و أهذر، وإذا كنت لا أقوم بأي عمل ذلك لأنني أهذر، أو قل بعبارة أدق: إن كنت أبربر كثيراً لأنني لا أعمل، ومع هذا تعلمت في الشهر الأخير هذه الثرثرة بينما قبعت في زاويتي أفكر... أتملي كل شيء ولا أتملى شيئاً.؟

مثلاً: لن أذهب الآن إلى هناك؟ أأنا قادر أن أفعل هذا؟ هل هو جادٌ حقاً؟ أبداً، ليس جاداً البتة! إنما هو نزوة خيال، ليس إلا أنني أدغدغ نفسي ملتمساً تسلية. نعم، أظن أنني ألتمس تسلية...

الحر في الشارع ما يزال قائظاً. فضلاً عن نقص الهواء، والازدحام، والكلس المنتشر حيثما توجهت، والثقالات، الآجر، الغبار، ثم هذا النتن الصيفي الغريب الذي يعيشه كل أبناء بطرسبورغ الذين لا يستطيعون استئجار مرقد استجمام في الضواحي. إن تواكب كل هذا أثار أعصاب الشاب الذي اهتزت أعصابه من قبل فألبسه مزيداً من الضيق، وهذه روائح تنشرها خمارات عديدة في هذا الحيِّز من المدينة، وهؤلاء سكارى يتعثر بهم المرء بكل خطوة، رغم أننا لسنا في يوم الأحد، بل هذا يوم عمل!! فتصبح اللوحة بلون كريه مقيت. كان شعور عميق بالاشمئزاز يرتسم على محياه وقسماته، وهو حَسَنُ

الصـورة وسـيمٌ، ذو عيـنين داكنـتين رائعـتين، وشـعر أشـقر ضـارب إلى لـون الرماد، وقامة أكثر من الوسط طولاً، نحيلة ممشوقة، لكنه لا يلبث أن يبدو عليه الاسترسال العميق بالتفكير، أو قل الانحدار إلى نوع من الغيبوبة. وظل يسير لا يلمح شيئاً مما حوله ولا يرغب في أن يرى أمراً، كل ما هنالك أنَّه كان بين الفينة والأخرى يستأنف محاورة ذاته، متبنياً عادة إلقاء الحوارات تلك العادة التي اعترف بها لنفسه الآن. وأدرك في تلك اللحظة نفسها أن خواطرهُ وأفكارهُ تختلط وتتشوش من حين إلى آخر، وهو شديد الهزال: إذ ربما لم يبتلع لقمة منذُ يومين.

وكان يرتدي ثياباً رثة تجعل غيره يشعر بالضيق والمهانة، مهما تكن عاداته المكتسبة إذا هو خرج في الضحى بمثل هذه الأسمال. الحق أن هذا الحي ليس من الأحياء التي تقف عند الرداء. إن هذا المكان القريب من "سوق العلف" الذي تكثر فيه زوايا من نوع خاص، ويتألف سكانه أساساً من صناع وحرفيين مكدسين في هذه الشوارع والأزقة من وسط بطرسبورغ، يشتمل على تنوع كبير في الأفراد، يجلب الدهشة إن ظهر التفرد لدى أحد. على أن نفس الشاب قد بلغت من الإمتلاء بالاحتقار أنَّه رغم ما يتصف به طبعه من شدة التأذي الذي يميز الشباب أحياناً، لم يكن يشعر بخجل واضح من عرض أسماله في الشارع، وكذلك إذاً هو التقى أشخاصاً يعرفهم أو رفاقاً سالفين لا يُحبُّ على وجه العموم أن يختلف إليهم، ومع ذلك حين أعولَ سكِّير كان يقود (لا ندري إلى أين ولا لماذا) عربة كبيرة يجرها حصان قوي حين أعول هذا السكير على حين غرة قائلاً بصوت مجلجل وهو يومي إليه بيده: "هيه، أنت يا معتمر القبعة الألمانية!" توقف الشاب بغتة، وأخذ قبعته بحركة عصبية، هي قبعة مشتراة من زاوية تسيمرمان لكنها إهترأت تماماً، وحال لونها إلى الإحمرار، وشوهتها البقع واللطخات ومزقتها الثقوب، وزال طنفها، وانطوى أحد طرفيها حتى صار رأساً حاداً كريهاً. على أن الشاب لم يشعر بخجل،

إنما استولت عليه عاطفة أخرى تشبه الهلع.

ولجلج باضطراب:

"كنت أعرف هذا منذ زمن، وقومته من قبل!... وهذا أسوأ ما في الأمر! تكفي ترهة سخيفة من هذا النوع، يكفي شيء زهيد كهذا، حتى يتعرض الوضع كله للخطر. نعم، أنَّها قبعة غير عادية، هي مضحكة، ولذلك هي صارخة... ما زلت ألبس هذه الرقع لا بد لي من قلنسوة، أو أي كمة عتيقة. أما هذه القبعة الفظيعة فلا! لا أحد يلبس مثلها. أنَّها تُرى من مسافة ميل كامل.... إنَّ من يراها مرة يتذكرها أبداً وإلى ما شاء الله، فتكون هي الدليل القاطع.... إني بحاجة الآن لأن يكف الآخرون عن النظر إلي! فالأشياء الصغيرة هي التي لها أكبر شأن وأضخم خطر! إنَّ أشياء صغيرة كهذه القبعة هي التي تفسد كل شيء في نهاية الشوط دائماً.... "

لم يكن طريقه طويلاً، بل كان يعرف عدد الخطوات التي يجب أن يقطعها منذ اجتياز باب المنزل : إنَّها سبعمائة وثلاثون خطوة تماماً . لقد عدَّ هذه الخطوات ذات يوم بعد أن أفرط في الاستسلام لأحلامه، في تلك الأوقات لم يكن يصدق بعد أن هذه الأحلام واقعية، وإنما كان يروح عن نفسه بما تشتمل عليه تلك الأحلام من تهورٍ مقيت وفتّانٍ في آن. أما الآن بعد أن انصرم ذاك وولّى، صار يرى الأمور رؤية مختلفة، ورغم جميع المحاورات المتأججة التي كانت تجري بينه وبين نفسه، والتي كان في أثنائها يعيب على نفسه ضعفه وتردده، اعتاد، رغم إرادته تقريباً، أن ينظر إلى هذا " الحلم الدنيء " نظرته إلى مشروع عليه أن ينفذه، دون أن تزداد ثقته بنفسه في كل حال. وهو الآن يقصد إجراء تمرين على ذلك الفعل الدنيء، واضطرابه يربو شدة مع كل خطوة.

وفيما هو منهار القلب والأعصاب تتلبسه رجفة عصبية، اقترب من مبنى ضخم يطل من أحد ضلعيه على القنال ومن الضلع الآخر على شارع (يـ....)، إنَّ

هـذه الـدارة المقسـمة إلى مـآوي صـغيرة، يسـكنها نـاس مـن كـل الشـرائح: خيـاطون، قفـالون، طبـاخون، وألمـان مختلفـوا الأثنيـات، وشـابات يعشـن علـى جمـالهن، وموظفـون صـغار، وسـوى ذلـك.... إن الـذهاب والإيـاب تحـت قوسـي مدخليـه الهائلين، لا ينقطـع في فنائـه الواسـع. وكـان ثمـة ثلاثـة بـوابين أو أربعـة يتولون أمره.

فما كان أعظم سرور الفتى حين لم يلتقِ بأحد منهم. ولما تخطى المدخل انزلق إلى سلم اليمين دون أن يلحظه أحد. أنّه سُلمٌ محصورٌ، مظلمٌ، "أسود"، ولكـن الشـاب يعرفـه فقـد سـبق لـه ودرسـه، ثـم إن هـذا الجـو يطيـب للفتـى ويرضيه، فهو في ظلام كهذا لا يخشى أن تقع عليه نظرة فضولية، ومع ذلك قال الفتى لنفسه رغماً عنه حين وصل إلى الطابق الرابع: "إذا كنت أشعر الآن بهذا القدْرِ من الخوف، فما هو شعوري إذا مضيت إلى نهاية الشوط؟"... وهنا كان جنود سابقون يسدون عليه طريقه، كانوا يفرغون أحد المآوي من متاعه. كان الشاب يعرف مسبقاً أن موظفاً ألمانياً، رب الأسرة. كان يقيم هنا حتى ذلك الحين. فهمس: " إن هذا الألماني مسافر الآن، فلن يبقى على كرسي الدرج الرابعة، خلال بعض الوقت، إلا مسكن واحد مشغول هو مسكن المرأة العجوز. هذا أمر تسر معرفته... حين تأذن السائحة". ضغط على جرس باب شقة العجوز، جر الجرس رنيناً أخرس كأنَّه من حديد أبيض لا من نحاس. هذه هي الأجراس المستخدمة في المساكن الصغيرة التي تكون في عمارة من هذا الطراز. كان الشاب قد نسي رنة ذلك الجرس، فإذا به يحس هذا الرنين الآن تذكيراً مفاجئاً بشيء تخيله واضحاً... فارتعش بعنف. كانت أعصابه الآن منهكة. وبعد دقيقة انفرج الباب زاويةً، وراحت ساكنة البيت تتفحص القادم الجديد، من خلال هذه الفتحة، بشَكٍ واضحٍ وارتيابٍ جلي. إن المرء لا يرى في هذا الظلام، إلا عينيها اللامعتين. ولكنها حين أبصرت على فسحة السُّلَم جَمهرةٌ من الناس، اطمأنت، ففتحت الباب مشرعاً. اجتاز الشاب العتبة، انزلق

إلى المدخل المظلم الذي يفصله عائق هو مطبخ متواضع. وقفت العجوز قبالته صامتة تحدق به بنظرة مستفهمة؟ كانت سيدة مسنة، ربعة، نحيلة، في دوار الستين من عمرها. لها عينان حادتان شريرتان، وأنف منمنم مدبب. كانت حاسرة الرأس، ذات شعر نادر الشيب دهنته بالزيت ليلمع ويزهو. كانت تلتف حول عنقها الطويل الهزيل، كما ساق دجاجة، قطعة من نسيج "الغلانيل" وتتدلى على كتفها، رغم الحر القاسي، فروة حال لونها وتوارى وبرها، كانت العجوز تسعل وتتأوه باستمرار. أغلب الظن أن الشاب رماها بلمحة ذات معنى، لأن الشك رجع إلى باصرتيها.

تذكر الفتى على حين غرة أن عليه أن يكون لطيفاً شفوقاً، فأسرع يجمجم ليعرف بنفسه وهو ينحني نصف إنحناءه:

ـ راسكولنيكوف، طالب. أتيتك منذ شهر...

ـ أتذكر يا ابني جيداً أنك قدمت....

تابع راسكولنيكوف كلامه مندهشاً مرتبكاً إذ لاحظ ريبة المرأة:

ـ ها أنا مرة ثانية... لأمر صغير من ذاك النوع....

وحدث نفسه قائلا وهو يشعر بضيق: "الحقيقة أنَّها هكذا دوماً ولكني لم ألاحظ فيما سبق".

وصمتت العجوز كأنما لتتأمل، ثم تنحت بعض الشيء، وقالت للزائر الطارئ هو ذا باب الغرفة ادخل، تفضل يا ولدي!

لمح الشاب غرفة صغيرة مفروشة بورق الجدران، الأصفر، وفي زاوية أصيص لزهرة جيرانيوم، وعلى نوافذها ستائر من قماش الموسلين.

كانت الغرفة في تلك اللحظة منارة بأشعة الشمس الغاربة. همس الفتى في صدره: "ستكون الشمس متلألئة هنا حينئذ أيضاً".

اخترقت هذه الفكرة عقل راسكولنيكوف دونما علم منه، فراح يطوف نظره في أركان الغرفة بسرعة ليدرس ترتيبها، وليحفظه إن أمكن ذلك.

ولكن الغرفة لم تكن تتميز بكثير من الأمور فيها. أثاثها المقدود من خشب أصفر قديم الطراز، يتكون من مرتبة ذات مسند مقوس ضخم خشبي، ومنضدة بيضاوية الشكل أمام المرتبة، وخوان بمرآة صغيرة موضوع بين نافذتين وكراسي مصفوفة على طول الحيطان، ولوحتين أو ثلاث لا قيمة لها تذكر، في أطر باهتة، تمثل آنسات ألمانيات في أيديهن طيور. هذا كل الأثاث. وفي ركن يسطع سراج صغير أمام أيقونة. وتسود المكان كله نظافة مبالغة. فالأثاث وأرض الغرفة دلكت بالشمع لتلمع. قال الفتى همساً: "هذا من عمل إليزافيتا!" ما كان لأحد أن يعثر على ذرة غبار في الشقة كلها. وهنا عاد الشاب يحدث نفسه: "لا يجد المرء كهذه النظافة سوى عند الأرامل العجائز الشريرات". قال هذا والتفت بعينيه خلسة يستطلع ستارة من قماش قطني تحجب باباً يصل هذه الغرفة بغرفة صغيرة فيها سرير العجوز وخزانتها وهي غرفة لم يسبق له أن وصلها قط، هذه فقط أجزاء الشقة.

سألته العجوز بقسوة وهي تدخل الغرفة وراءه لتتفحصه وجهاً إلى وجه:

ـ أية خدمة؟

ـ جئتك بشيء أريد رهنه. ها هو ذا...

قال هذا وأخرج من جيبه ساعة عتيقة مصنوعة من فضة، رسمت على غطائها الكرة الأرضية ولها سلسلة فولاذية.

قالت المرأة:

ـ ولكن مدة رهنك الأول انتهت. انقضى على الرهن الأول شهر منذ أمس الأول.

ـ سأدفع لك الفائدة عن شهر آخر، اصبري عليَّ.

ـ أنا من يفصل بالأمر، أصبر أم أتخلص من المرهون، هذا حقي أنا يا ولدي.

ـ هل تقرضينني مبلغاً كبيراً على رهن هذه الساعة يا ألينا إيفانوفنا؟

ـ أنت تأتيني دائماً بشيء تافه. لقد أقرضتك في المرة الماضية ورقتين صغيرتين على رهن خاتمك، مع أنَّه يمكن شراء خاتم جديد من محل الصائغ بروبل ونصف روبل.

ـ أقرضيني أربع روبلات الآن. سأفك الرهن قريباً... هي تركة من أبي. سيصلني مبلغ من المال بعد فترة قليلة.

ـ أقرضك على رهنها روبلاً ونصف والفائدة مقدماً.

صاح الفتى مندهشاً.

ـ روبل ونصف ؟!!

ـ لا مساومة ولا جدل. إقبل أو أُرفض. وأردفت ومدت الساعة، تناولها الفتى غاضباً وهم أن ينصرف. لكنه عدل إذ تذكر أن ليس ثمة مكان آخر يلبي طلبه وهو قد أتى لغرض آخر أيضاً.

قال بلكنة صارمة:

ـ هاتي.

فدست العجوز يمينها إلى جيبها لتخرج المفاتيح، ومضت إلى الحجرة الأخرى. ولما صار الفتى وحده، أصاغ بسمعه مستطلعاً، وأطلق العنان لخياله. سمع صوت فتح الخزانة. فهمس: "أغلب الظن أنَّه الدرج الأعلى، فهي تحمل المفاتيح في الجيب الأيمن... والمفاتيح كلها كتلة واحدة تضمها حلقة فولاذية.... وبين المفاتيح مفتاح مسنن الرأس أكبر من سائرها ثلاث مرات، ولكن من الثابت أنَّه ليس مفتاح الخزانة.... إذ لها هناك أيضاً علبة أو صندوق متواضع.... هذا أمر هام. إن جميع الصناديق لها مفاتيح من هذا النوع.... على كل حال، هذا كله كريه بشع...."

عادت العجوز.

.. خذ يا بني. إذا كانت الفائدة عشرة كوبيكات على كل روبل في الشهر تقتطع سلفاً، فالفائدة عن روبل ونصف هي خمسة عشر كوبيكاً.

يضاف إلى ذلك عشرون كوبيكاً عن الروبلين اللذين اقترضتهما في المرة الماضية على أساس تلك الفائدة نفسها، فيكون مجموع ما يجب اقتطاعه خمسة وثلاثين كوبيكاً، ويبقى لك رهن الساعة روبل وخمسة عشر كوبيكاً. إليك المبلغ.

ـ كيف؟ ألم يبق لي إلا روبل وخمسة عشر كوبيكاً؟

ـ تماماً.

لم يجادل الشاب، وتناول المال، كان ينظر إلى العجوز ولا يريد الخروج، كأنما كان يريد أن يقول شيئاً، أو أن يفعل شيئاً، دون أن يدري ما هو هذا الشيء بالتحديد...

وبعد لأي قال لها:

ربما جئتك بشيء آخر في الأيام القليلة الوافدة يا ألينا إيفانوفنا.... هو شيء من فضة..... شيء ذو قيمة.... علبة سجائر.... نعم، سأجيئكِ بعلبة سجائر متى يردها لي صديقي.

ارتبك الفتى وصمت.

فقالت العجوز:

ـ حسناً يا بني.... سنتكلم بالأمر في حينه .

أردف الفتى بلهجة منطلقة على قدر المستطاع، وهو يتجه نحو حجرة المدخل:

ـ استودعك الله.... أأنت إذاً وحيدة في البيت دائماً دون أن تكون أختك معك؟

ـ فيما يعنيك هذا الوضع يا بني؟

ـ لا يعنيني في شيء... هكذا... دونما هدف... استودعك الله ألينا إيفانوفنا.

خرج الفتى وهو ضحية اضطراب هائل وكانت حالة الاضطراب هذه تتزايد باستمرار، حتى أنَّه توقف عدة مرات مذهولاً في أثناء هبوطه السلم، وما

أن صار في الشارع حتى صرخ يقول "آه... رباه! ما أمقت هذا! هل يمكنني، هل أقدر حقاً أن..." ثم أضاف يقول بقناعة:

"لا... هذه حماقة... هذه سخافة... أيمكن حقاً وفعلاً أن تكون فكرة شيطانية كهذه الفكرة قد خطرت لي؟ ما أفدح إذاً ما تكوَّم في قلبي من أقذار! نعم، إن هذا مقزز جداً، شنيع جداً! كيف تمكنت خلال شهر كامل، أن..."

لكن الشاب لم يعثر على العبارات، أو على هتافات التعجب التي قد تغطي حالته العصبية الرهيبة. إن الإحساس باشمئزاز شيطاني راح ينيخ على حناياه ويتشبث بحلقه، بل كاد يخنقه في أثناء ذهابه إلى دار العجوز، لقد تخطى هذا الإحساس الآن مسافات ضخمة، وأخذ يُبَرر بعنف قاتل، حتى صار الفتى لا يعرف كيف ينجو من هذه الآلام التي تلبسته، وهذا الأسى الذي حطم مشاعره. كان يمشي على الرصيف كالسكران، لا يرى حتى المارة الذين يصطدم بهم، ولم يستعد وعيه إلا في الشارع التالي، فلما تأمل حواليه لمح أنَّه أمام خمارة ينزل إليها الزبون بواسطة سلم يصل الرصيف بالقبو، وفي اللحظة عينها كان يخرج من الحانة مخموران يستند كل واحد إلى الآخر، ويتبادلان الشتائم أثناء صعودهما السلم، فلم يلبث راسكولنيكوف أن هبط إلى الخمارة دون تردد. لم يسبق له أن وطئت قدمه هذه الأمكنة، كما أن ظمأً لا يطاق كان يعذبه. اشتهى أن يشرب بيرة باردة، لاسيما وأنَّه كان يعزو ضعفه المفاجئ إلى الجوع أيضاً. جلس في ركن معتم وسخ أمام منضدة متواضعة دبقة، طلب بيرة، واحتسى الكأس الأولى بشراهة، فلم يلبث أن شعر بشيء من التحسن والراحة، وعادت أفكاره أجلى. قال لنفسه بعد أن عاد إليه الأمل: "ذلك كله لا يدعو للقلق إنَّه سخافات! هو اضطراب جسدي عابر. فبعد كأس من المشروب الروحي الهادئ وأكل قطعة من اللحم المقدد اشتدت عزيمته وصفى ذهنه. أف! كل هذا باطل!..." ولكن رغم بادرة الاستخفاف هذه كان

راسكولنيكوف كمن تحرر الآن فجأة من حمل ثقيل، ها هو ذا شيء من فرح يتجلى منذ الآن في نظرته التي أخذت تطوف على الحضور بمودة وصداقة، ومع ذلك أحس، وحتى في تلك الدقيقة، إحساساً غامضاً، بأن حالة التفاؤل التي صارت إليها نفسه حالة مرضية هي الأخرى.

لم يكن قد بقي في الحانة في تلك الساعة سوى عدد قليل، فبعد السكرانين اللذين التقاهما على السلم، خرجت دفعة واحدة، عصبة من خمسة شبان معهم فتاة وأكورديون. فما أن انصرفوا حتى عاد الهدوء إلى الخمارة، وأصبح المكان أوسع، لم يبق في القاعة إلا شخص كهل بعض الشيء، جالس أمام كأس البيرة، أغلب الظن أنَّه تاجر، ومعه رفيقه وهو رجل طويل ضخم يرتدي قفطاناً قصيراً ذو لحية شائبة، كان قد أخذه السكر إلى حيث لا يريد، كان مستلقيا فوق دكة، ويصفق بأصابعه من حين إلى حين كأنَّه يستفيق من نوم على حين غرة، ويبدأ توسيع يديه و يأرجح القسم الأعلى من جسمه، دون أن ينهض من مقامه، مجمجماً كلاماً تافهاً، محاولاً أن يتذكر أبياتاً من الشعر من نوع:

لاطفت زوجتي طيلة العام

لاطفت زوجي طوال السنة

أو قائلا بعد أن يستيقظ من جديد:

حين مررت بشارع بوديا تشكايا

التقيت صديقتي القديمة

ولكنَّ أحداً لم يشاركه فرحته، بل كان رفيقه الصمت يرد على هذه الانفجارات باتخاذ وضع عدائي مريب. وكان هناك رجل ثالث يدل مظهره على أنَّه موظف متواضع محال على المعاش، كان هذا الرجل منزوياً أمام كأسه، يشرب من حين إلى حين ويطوف ببصره فيما حوله، ويبدو عليه أنَّه يعاني هو أيضاً حالة عصبية.

# الفصل الثاني

لم يكـن راسـكولنيكوف معتـاداً صـحبة النـاس، وكـان كمـا أشـرنا يتحاشى كل مجتمع ولاسيما منذ بعض الوقت. غير أن أمراً ما كان يشده الآن إلى البشر بغتة، بل كان شيئاً جديداً طرأ عليه وكـان في الوقت عينـه يشـعر ببعض الشغف إلى عقد الوشائج بينه وبين أحدٍ مـا . إن ذلـك الشـهر الـذي قضـاه في غمٍّ ثقيلٍ قد جعلـه متعبـاً، حتـى راح يشـتهي الآن اسـترداد أنفاسـه ولـو لـبعض الوقت، في عالم آخر، في أي عالم آخر. لـذلك شـعر بـأن بقـاءه الآن في الخمـارة يلذ له رغم رداءة المكان.

وكـان صـاحب الحانـة يجلـس في غرفـة مجـاورة، ولـكنـه يظهـر في البهـو الرئيسـي بـين سـاعة وسـاعة، وكـان يـأتي هـذه القاعـة هابطـاً عـدة درجـات في خطوة، فكان الجالس هنا يرى، أول ما يـرى، جزمتيـه اللامعتين واللتين لهمـا كُفتـان حمـراوان مقلوبتـان. وكـان دائمـاً مـن دون ربطـة عنـق، يرتـدي سـترة مشدودة إلى الخاصرة وصدرية سوداء من قماش الأطلس بلغت من الاتساخ حـداً لا يُطاق.

أما قسمات سحنته فكانت تلمع مـن الـدهن كقفـل حديـدي مـدهون بـالزيـت. ووراء البسطة كان يجلس صبي آخر أصغرُ سناً، يخدم الزبائن.

كانت البسطة تعرض شطرات من الخيار، و قطعاً من الخبز الأسـود المجفـف، و شرائح سمك، وكان ذلك ينشر رائحة مقيتة.

الجو كان خانقاً لا يطـاق، والهواء مشبع برائحـة المسـكرات، فتكـاد خمـس دقائق هنا تكفي لكي يثمل أي شخص لمجرد استنشاقه لرائحة الخمور.

يحدث للمرء أحيانا أن يصادف بشراً لا يعرفهم أبداً، فإذا بـه ينكـب علـى الاهتمام بهم من أول نظرة قبل تبادل أي كلمة.

ذاك هـو الشـعور الـذي تركـه في راسـكولنيكوف ذاك الزبـون المتفـرد، الـذي

يرشح من شكله وقيافته أنَّه متقاعد. تذكر الفتى مراراً كثيرة، فيما بعد، ذلك الإحساس الأول و عزَّاه إلى نوع من الحدس. لم يحول راسكولنيكوف نظره عن الموظف، ربما لأنَّ ذلك الموظف كان يلح كثيراً في تأمل راسكولنيكوف.

وكان واضحاً أنَّه راغبٌ رغبةً قوية في عقد حديث معه، أما الباقون، ومنهم صاحب الحانة، فقد كان الموظف ينظر إليهم نظرةَ اعتياد و ملل، مع قرفٍ منهم وبعض الاحتقار لهم والتعالي عليهم في نفس الوقت، كمن يعتبرهم أدنى منه من حيث منزلتهم الاجتماعية أو ثقافتهم أو أدبهم وسلوكهم، فليس عليه أن يباشرهم الحديث. كان رجلاً تخطى الخمسين من عمره، رَبعَ القد ممتلىء البنية، يكسو رأسه بعض شعرات بيضاء مع صلعة كبيرة، وهو ذو سيماء صفراء، أو ربما ضاربة إلى الخضرة، قد نفخه الشراب، تبرق في أعلى جبهته تحت جفنين منتفخين عينان صغيرتان محمرتان حادتان. ومع ذلك كان في هذا الوجه شيءٌ غريبٌ جداً.

تلتمع تطليعته بنوع من الحماس، بل ولا تخلو من ذكاءٍ، ولكن تلم بها ومضات جنون في بعض الأحيان.

وكان يرتدي "فراكا" عتيقاً رثاً سقطت أزرارُه وضاعت، إلا زراً وأحداً ما يزال في مكانه مهلهلاً يوشك أن يقع. لكن الرجل أدخله في العروة حتى لا يجافي آداب اللياقة. ومن صدريته المصنوعة من قماش قطني أصفر كانت تخرج حافة قميص جعدة متسخة وملطخة.

كان حليق الذقن، كما يليق بموظف في ستينات القرن التاسع عشر في روسيا ـ حيث لا لحى، لا شوارب، بل سوالف فقط ـ وكان واضحاً أنَّه لم يحلق ذقنه منذ مدة طويلة، فشعرها القاسي بدأ يزرّقُ خديه. هذا عدا أن وضعه يكشف عن شيء من وقار هو ما يتميز به الموظفون. لكنه كان يبدو قلقاً، يُشعثُ شعره، يضغط رأسه بيديه، حزيناً يائساً، واضعاً مرفقيه المهترئتين على المائدة

الرطبة واللزجة. وفي النهاية نظر إلى راسكولنيكوف محدقاً في عينيه، ومخاطباً إياه بثبات و رنة عالية:

ـ هل أتجرأ، أيها السيد الكريم، أنْ أوجه لك بضع كلماتٍ باحترام؟ إنّ خبرتي تكتشف فيك، رغم مظهرك البسيط المتواضع، عن إنسان رفيع الثقافة لم يألف الشراب. كنت أنا مدى حياتي احترم الثقافة حين تقترن بعواطف القلب. وإذا كنيتي: مارميلادوف عدا ذلك فإنني أحمل لقب مستشار اعتباري، أأجرؤ أن أسألك هل أنت موظف؟

أجاب الشاب وقد أدهشته هذه اللهجة المنتفخة في كلام الرجل، وأدهشه أن يخاطبه بشكل مباشر:

ـ بل أنا أتابع دراستي.

وشعر راسكولنيكوف، رغم ما أحسه منذ قليل من رغبة في صحبة أي إنسان، شعر بغتة منذ الكلمات الأولى بذلك النفور الأليف الأليم الذي كان يشعر به كلما قاربه إنسان مجهول أو حاول أن يدخل في عالمه الشخصي.

ـ أنت إذاً طالب، أو طالب سابق... ذلك ما قدرته! هي الخبرة يا سيدي الكريم، خبرة طويلة متوالية!

وكي يعبر عن احترامه لنفاذ بصيرته و وجاهة رأيه، وضع إصبعاً على جبهته. وأردف يقول:

لقد كنت طالباً، إلا أنك قد حضرت عدداً محدوداً من الدروس ليس إلا... ولكن اسمح لي...

ونهض مترنحاً، تناول كوبه وقنينته وجاء يقعد جانب راسكولنيكوف قعدة مواربة بعض الشيء. كان سكراناً. لكنه يتكلم بوضوح وطلاقة وحماس. كل ما هنالك أنَّه كانَ يفقد حبل الحديث من حين إلى حين، فيبطؤ تدفق كلامه. وقد هجم على الشاب هجوماً يبلغ من الشراهة كما لو أنَّه لم يكلم أحداً منذ شهرٍ كاملٍ هو أيضاً.

شرع يقول بلهجة توشك أن تكون ذات أُبَّهة:

ـ أيها السيد الكريم، ليس الفقر رذيلة، أنا أعرف هذا. ولا الإدمان على السكر فضيلة، أنا أعرف هذا أيضاً. ولكن البؤس[1] رذيلة أيها السيد الكريم، البؤس رذيلة. يستطيع المرء الفقير أن يظل محافظاً على نبل عواطفه الفطرية، لكن البائس لا يستطيع هذا أبداً، ولا أحد يستطيعه قط. إذا كنت من البائسين فإنك لا تطرد من المجتمع البشري ضرباً بالعصى، بل تطرد منه ضرباً بالمكنسة، بغية إذلالك كلياً. والناس على حق بذلك، لأنك في البؤس أول من يريد هذا الذل لذاته بذاته. وهذا سبب إدمانك على السكر! أيها السيد الكريم، منذ شهر، ضرب السيد ليبزياتنيكوف زوجتي، وهي تختلف عني كلياً! هل تفهم؟ اسمح لي أيضاً أن ألقي عليَّك سؤالاً، هكذا، ولو من باب الفضول: هل حدث لك أن قضيت الليل في مركب علف على نهر النيفا[2]؟

أجاب راسكولنيكوف:

ـ لا لم يحدث لي هذا... ما هذا؟

ـ أما أنا فإنني آتٍ من هناك، من مركب العلف... وهذه هي الليلة الخامسة...

قال الرجل ذلك وصب قدحاً ثم أفرغه في جوفه وشرع يفكر. وكان يُرى من هنا وهناك، على ملابسه، وحتى على شعره، قشٌ ما زال عالقاً.

أغلب الظن أنَّه لم يخلع ثيابه ولا غسل وجهه منذ خمسة أيام. وكانت يداه بخاصة قذرتين حمراوين بأظافر طويلة قذرة.

يبدو أن كلامه أيقظ في نفوس الحضور اهتماماً عاماً، وإن كان هذا الاهتمام ممزوجاً بالإهمال، أخذ الصبيَّان ـ من وراء البسطة ـ يضحكان. ونزل

---

1 - يقصد الملف بكلمة بؤس ( الفقر المدقع )

2 - مراكب علف: كانت معروفة في ستينات القرن العشرين أماكن لنوم الفقراء والمشردين.

صاحب الخمارة من الطابق الأعلى خصّيصاً، كي يستمع للرجل "المازح"، فجلس منزوياً بعض الشيء، وراح يتثاءب بكسل، إنما بكثير من الفخار والوقار. لا شك أن مارميلادوف معروفٌ هنا منذ زمن طويل، وفي الأرجح من جهة أخرى أنَّه قد اعتاد حب الكلام المزوق في أعقاب أحاديث كثيرة اعتاد أن يجريها في الحانة مع أناس لم يعرفهم، أنَّها لعادة تغدو حاجة قوية لدى نفر من السكيرين، لاسيما أولئك الذين يعاملون معاملة خشنة ظالمة في كل مكان، لذلك يحاولون متى سكروا في صحبة الناس أن يدافعوا عن أنفسهم بخطب وكأنَّهم يبرؤون أنفسهم، وأن يكسبوا اعتبار الآخرين إذا استطاعوا تحقيق ذلك.

أردف صاحب الخمارة بصوت عال:

ـ ما أنت إلا صاحب طرفة! لماذا لا تعمل؟ ولم لا تثابر على عملك ما دمت موظفاً.

أجاب مارميلادوف مخاطباً راسكولنيكوف وحده، كأن راسكولنيكوف هو الذي سأل:

ـ لماذا لا أواظب على عملي أيها السيد الكريم؟ لم لا جلد لي على العمل؟ ولكن هل تظن أن قلبي لا ينكسر لدى تأمل خستي حين أرى أنني امرؤٌ لا نفع فيه، ولا جدوى منه؟ حدث منذ شهر أن ضرب ليبزياتنيكوف زوجتي، وكنت أنا راقداً من فرط السكر، أتظن أنني لم أتألم؟ اسمح لي أيها الشاب، هل اتفق لك... هم... نعم... هل اتفق لك مثلاً أن طلبت من أحدْ أن يقرضك مالاً من دون أن يكون عندك أي أملٍ بذلك ؟

ـ وقع لي هذا... ولكن ماذا تعني بقولك: دونما أن يكون عندك أمل؟

ـ أعني بقولي لا أمل لديك، أنك تعلم سلفاً أن طلبك لا جدوى منه!... مثلاً: أنت تعلم بيقين أن هذا المواطن مهما كان صالحاً وحسن النية، لن يعطيك مالاً... ولماذا عساه يعطيك ما تطلب، ما دام يعرف أنك لن ترده؟ أمن باب

الشفقة؟ إن السيد ليبزياتنيكوف، وهو مطَّلِع على الأفكار الجديدة والآراء الحديثة، قد أوضح منذ أيام أن الشفقة في أيامنا هذه يحظرها العلم، وأن الأمور تجري على هذا القياس منذ الآن في بلاد الإنكليز التي يسودها الاقتصاد السياسي. فلماذا يعطيك مالاً؟ ومع ذلك، رغم علمك سلفاً أنَّه لن يعطيك بغيتك، فأنت تمضي إليه، و...

أردف راسكولنيكوف:

ـ ولم تمضي إليه؟

ـ كيف لا أمضي إليه إذا لم يكن ثمة أحدٌ غيره، وإذا لم يكن هناك مكانٌ آخر أذهب إليه! لا بد لكل إنسان من أن يجد ولو مكاناً يذهب إليه، لأن المرء تمرُّ به أوقاتٌ تفرض عليه الذهاب إلى مكان ما، إلى أي مكان! حين ذهبت ابنتي الوحيدة، أول مرة، إلى الشارع مع بطاقتها الصفراء ذهبت أنا أيضاً. وأضاف مارديلادوف شارحاً وهو ينظر إلى الفتى بشيء من القلق:

ـ ذلك أن ابنتي خُصصت ببطاقةٍ صفراء.

وضَج الصبيان بالضحك من خلف البسطة، وابتسم صاحب الحانة، فسارع مارميلادوف يقول على الفور وهو يصطنع الرضى:

ـ لا بأس يا سيدي الكريم، لا بأس... لا بأس... إن هزوا رؤوسهم لا شأن لي، لأن الأمر أصبح معروفاً شائعاً. نعم: كل سرٍ مآله إلى كشف. وأنا لا أتعامل مع هذه الأشياء بازدراء، بل بامتهان لشخصي. حسناً... حسناً... "هوذا الإنسان!"... اسمح لي أيها الشاب: هل تقدر... لا.... يجب أن القي عليَّك هذا السؤال باهتمام، ببلاغة وصدق. عليَّ أن أقول: أتقدر؟! بل عليَّ ان أقول أتجرؤ أن تؤكد حين تتأملني في هذه اللحظة، أنني لست خنزيراً؟!!

لم يرد الفتى.

وتابع الخطيب كلامه برصانة جلية، بعد أن انتظر انتهاء القهقهات التي أثارتها عباراته الأخيرة، تابع حديثه قال:

ـ طيب... لنسلم أنني خنزير، أما هي سيدة! حقاً أنني أشبه "الوحش" كثيراً، ولكن زوجتي كاترينا إيفانوفنا امرأة تملك سهماً عالياً من الثقافة، عدا أنَّها ابنة ضابط رفيع المستوى. لنسلم، لنسلم أنني وغد، أما هي ذات نفس عالية وروح ودود، ولها بموجب نشأتها عواطفُ نبيلة ومشاعرُ كريمة، فضلاً عن أنني أتمنى أن ترحمني! سيدي الكريم، سيدي الكريم، لا بد لكل فرد من أن يجد أيضاً، في مكان على الأقل، شخصاً يشفق عليه! ولكن كاترينا إيفانوفنا ظالمة، رغم أنَّها سيدة تفيض نفسها سماحة. ورغم أنني أنا نفسي أفهم، حين تشدني من شعري، أنَّها تفعل هذا رأفة بي وحنواً. أنا لا أستحي من أن أكرر عزيزي الشاب أنَّها تشدني من شعري.

(أكد مارميلادوف بكل رزانة حين سمع انفجار القهقهات مجدداً) فإنني أتمنى ـ يارب ـ أن يتفق لها مرة واحدة أن... إنما لا، لا، هذا كله لا طائل منه ولا ينفع ولا يستحق التكرار!... فقد أشفقت عليَّ غير مرة، وتحقق ما رغبته مرة ومرة. ولكن هذا طبعي، نعم، أنا امرؤ رُبِّيَ على الجحود.

ـ "بكل ثقة!!" قال الخمار متثائباً

ضرب مارميلادوف المنضدة بجمع يده ضربةَ عاتية، و ردد:

ـ هذا ما فطرت عليه! هل تعلم، هل تعلم أيها السيد أنني شربت خمراً حتى بثمن جواربها؟ لا بثمن حذائيها، فهذا يمكن أن يتم تفهمه قليلاً، ولكني أنا اخترت الحال الأكثر فظاظةً، بثمن الجوربين! لا بل بثمن نقابها المصنوع من شعر الماعز شربت خمراً. وكان هدية، فهو يخصها، يخصها وحدها. ونحن نعيش في غرفة واحدة وباردة، وقد لَزِمت الفراش هذا الشتاء مريضةً، وشرعت تسعل، وتبصق دماً... وعندنا ثلاثة أولاد، إن كاترينا إيفانوفنا تعمل من الصباح إلى المساء: تمسح وتغسل وتعتني بالأولاد! ذلك أنَّها اعتادت النظافة منذ نعومة أظافرها. رئتاها ضعيفتان، وهي قريبة من داء الصدر، أنا أحس هذا، أأنا لا أحس هذا؟ وبالعكس، أكثرت من الخمرة، كواني الإحساس به،

نعم، إذا كنت أشرب فإنما أشرب رغبة بالشفقة، والعاطفة. أنا أدمن على الشرب لأتألم ألماً مزدوجاً.

قال مارميلادوف هذا، وأسند رأسه إلى المنضدة وقد ارتسم على محياه الحزن والأسى. ثم عاد يقف ليتابع كلامه هاتفاً:

- أيها الشاب، أشعر أنني أقرأ الحزن على فمك. وقد قرأته منذ ما دخلت، لذا سارعت إلى مخاطبتك. فإذا كنت أسرد عليك نتفاً من عمري، لا أفعل هذا لأذل ذاتي على مرأى هؤلاء الكسالى الذين يعرفونها معرفة وافية، إنما لأنني أفتش عن إنسان نبيه طيب النفس ودود. أنا أعلم أن زوجتي تعلمت في مدرسة أرستقراطية داخلية في الأقاليم، وأنَّها حين تخرجها من ذلك المعهد رقصت رقصة الشال أمام الحاكم وشخصيات أخرى، ونالت مكافأة ميدالية من ذهب وشهادة فخرية... أما الوسام فقد بعته أيضاً منذ ردّحٍ من الزمن... هَمْ... أما الشهادة الفخرية فهي مخبأة حتى اليوم في صندوق، وقد اهتمت كاترينا أن تطلع صاحبة البيت عليها... نعم... فرغم المشاجرات بين الاثنين، فقد رغبت أن تفخر أمام شخص ما. أن تُذَكِّرَ امرأً ما بأيامها الحلوة الرغيدة. لست مستاءً من هذا، لا، لأن هذه الذكرى هي كل ما تملك الآن، أما الباقي فقد طار! نعم... إن امرأتي سريعة الغضب، عنيفة الكبرياء، و الآن فإنها تنظف الأرض بيديها، وتكتفي بخبز أسود، إنما لا تسمح لأحدٍ المساس بكرامتها. هذا هو السبب في أنَّها لم تشأ أن تسكت للسيد ليبزياتنيكوف عن فظاظته، فلمَّا ضربها، لم تمرض بسبب الصفع بل بسبب الإساءة إلى كرامتها. لقد تزوجتها أرملةً ذات أولاد ثلاثة هم جميعاً صغار. كانت قد تزوجت مرةً أولى عن حب، تزوجت من ضابط مشاة هربت معه من دار والدها. كانت تحب زوجها بل تعبده، لكن زوجها أدمن القمار، أحيل إلى المحكمة ومات. كان في آخر أيامه يضربها، ورغم أنَّها لم تكن تسكت له عن شيء - وهذا أعرفه من وثائق مفصلة يُركن إليها - فإنها ما تزال تبكي حين تتذكره، وتُعيّرني بالمقارنة

بيني وبينه. وأنا أغتبط بهذا، أغتبط، فبهذه الطريقة تعتقد على الأقل أنَّها كانت سعيدة في يوم من الأيام. وبعد وفاة زوجها بقيت وحيدة مع أولادها الثلاثة في مقاطعة نائية مُتخلفةٍ جداً كنت أحيا فيها في ذلك الحين. كانت في بؤس هائل لن أقدر أن أصفه لك إذا حاولت، رغم أنني عانيت أنا نفسي ألواناً كثيرة من البؤس والشقاء. أدار لها جميع أقربائها ظهورهم. وكانت هي عالية الكبرياء... وفي ذلك الوقت، يا سيدي الكريم، إنما التمست ودها، كنت أرملاً أيضاً، لي من زوجتي الأولى بنت في ربيعها الرابع عشر، وددت القربى منها لأنني لم أكن أستطيع أن أحتمل عذاباً كذلك العذاب. في وسعك أن تتخيل حد البؤس الذي لا بد أنَّها كانت تعانيه حينما قبلت، هي المرأة المثقفة التي تربت أحسن تربية والتي تنتمي إلى أسرة محترمة، حين ارتضت أن تتزوجني! صحيح أنَّها وافقت على ذلك باكيةً منتحبةً عاقفةً يديها من الحسرة والأسى، ولكنها تزوجتني، لأنَّه لم يكن لها حيز تأوي إليه! لا، إنَّكَ عاجزٌ بَعدْ عن إدراك هذا... وخلالَ عامٍ كاملٍ ظللت أقوم بواجبي بشرفٍ وأمانةٍ وإخلاص، دون أن أقارب هذه (هنا أشار مارميلادوف بأصبعه إلى قارورة الخمر)، لأنني إنسان عطوف، ولكن لم يتسنى لي أن أنال رضاها. فقدت في تلك الأثناء وظيفتي أيضاً، دون أن يكون لي ذنبٌ في ذلك على كل حال، وإنما كان هذا الحدث نتيجة لتبديلات في هيئة الموظفين، فقد شرعت ألمس هذا!... إنما ومنذ سنة ونصف استقرّينا، بعد ترحالٍ كثيرٍ ومصائب لا حصر لها. في هذه العاصمة البهية المزينة بالأوابد الجميلة، وهنا وجدت وظيفة. عثرت عليها ثم فقدتها ثانية. هل تعي الأمر؟ كنت أنا المذنب هذه المرَّة، لأن طبيعتي الحقيقية هي التي انتصرت. ونحن نقيم الآن في ركن من بيت امرأة اسمها أماليا فيودوروفنا ليبفكسل، أما مما نعيش وكيف نؤدي أجرة سكننا،

فذلك لا أعرف عنه شيئاً! ففي العمارة يقطن الكثير غيرنا... نحن في سدوم[1] فظيعة هائلة... هَم... نعم!... وفي أثناء ذلك كانت ابنتي من زوجتي الأولى تكبر. لن أحدثك عن المعاملة التي تحملتها ابنتي من زوجة أبيها. كانت كاترينا سريعةُ وشديدةُ الغضب، متهورة، عنيفةٌ رغم السماحة الكامنة في حناياها. نعم! دعنا من هذا من فضلك. ما فائدة تذكر هذه الأمور الآن! لك طبعاً أن تتخيل أن ابنتي سونيا لم تصب حظاً من التعليم، صحيح أنني حاولت، منذ أربع سنين، أن أعلمها الجغرافيا والتاريخ العام، ولكنني لم أكن قوياً في هذا الميدان. وكانت تعوزني الكتب المناسبة من جهة أخرى، فإن الكتب التي كانت أملكها... هَم... أضحيت لا أملكها... لذلك توقفت دراسة ابنتي.... وصلنا إلى الحديث عن كسرى، ملك الفرس... وبعد ذلك، حين بلغت ابنتي سن الرشد قرأت بعض الكتب الروائية، ثم قرأت في الفترة الأخيرة، بواسطة السيد ليبزياتنيكوف، كتاب للكاتب ليوس[2] "الفيزيولوجيا"، هل تعرف هذا الكتاب؟ أطلعت عليه ابنتي بل درسته بكثير من الاهتمام، حتى لقد قرأت لنا فقرات منه بصوت عال. ذلك كل ما حصلته ابنتي سونيا من تعليم. والآن أتوجه إليك يا سيدي الكريم، فألقي عليك هذا السؤال بصفة شخصية تماماً : هل تتمكن صبية فقيرة لكنها شريفة، هل يتيسر لها حسب رأيك أن تكسب ما يكفيها من المرتب بالعمل الشريف؟ إنها لن تتقاضى خمسة عشر كوبيكاً في اليوم، إذا هي كانت شريفة وعدا ذلك هي لا تملك أية موهبةٍ خاصة، وهذا على شرط ألا تترك العمل دقيقة واحدة. ثم إن مستشار الدولة كلوبشتوك، إيفان ايفانوفتش كلوبشتوك - هل سمعت به - لم يكتف أنَّه لم يدفع لها أجر نصف دزينة قمصان خاطتها له من قماش هولندي، بل زاد على

1- مدينة سدوم التوراتية ترمز إلى خليط من الأجناس ذي دلالة سلبية (المدقق).
2 - فيلسوف انكليزي، ألف كتاباً في "فيزيولوجيا الحياة العامة" وطارت شهرته في جميع الأصقاع.

ذلك فطردها شر طردة، وهو يقرع الأرض بقدمه ويصفها بأبشع النعوت، بحجة أن إحدى الياقات، لم تكن على قياس عنقه، وأنَّها قصتها بشكل معكوس. والصغار في تلك الأثناء يجوعون. وكاترينا تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، عاقفة يديها، وقد بدأت البقع الحمراء تظهر على خديها، كما يحدث دائماً للمصابين بهذا المرض. قالت كاترينا لابنتي سونيا: "يا عالة، إنك تسكنين في غرفة دافئة ولا تزيدين هنا على أن تملئي بطنك طعاماً وشراباً!" كأن قد أتيح للمسكينة أن تأكل وأن تشرب في حين لم يأكل الصغار قطعة خبزٍ منذ ثلاثة أيام! وكنت أنا راقداً، نعم... فعلاً... كنت مطروحاً سكران... وها أنا ذا أسمع ابنتي سونيا تتكلم (أنَّها عزلاء، لا تملك عن نفسها دفاعاً... ما أعذب صوتها... هي شقراء فاتحة، ووجهها شديد الشحوب والهزل دائماً) قالت: أحقاً يا كاترينا إيفانوفنا، أحقاً تريدين أن أعد نفسي لمثل هذا الأمر؟" والموضوع أن داريا فرانتسوفنا، وهي سيدة سيئة النيات تعرفها الشرطة جيداً. وكانت قد استعلمت عن سونيا ثلاث مرات عن طريق صاحبة الشقة. أجابت كاترينا وهي تضحك ساخرة: "هه! إن كنزاً كهذا يَسْتَحِقُ أن تُحافظ عليه!" ولكن لا تتهمها يا سيدي الكريم، لا تتهمها! لم تكن تتكلم هادئة الأعصاب مالكةً وعيها....

لقد كانت منهارة الأعضاء وصغارها يفحون جوعاً. ثم ليس لنا أن نفهمها بمعناها الحقيقي على أنَّها إهانةً فحسب... ذلك هو طبع كاترينا: حين يبكي أولادها، ولو من الجوع، تشرع بضربهم على الفور. وها أنا ذا، قبل الساعة السادسة بقليل، أرى سونيتشكا[1] تنهض، تتناول شالها وعباءتها وتخرج، ثم تعود قبل التاسعة. لما دخلت توجهت إلى كاترينا قدماً، وضعت أمامها ثلاثين قطعة نقد من فئة الروبل على المائدة، ثم لم تزد، حتى دون أن تنظر إليها،

---

1 - لفظة تدليع لاسم سونيا (المدقق)

ودون أن تتفوه بكلمة واحدة، لم تزد على تناول الوشاح الكبير الأخضر المصنوع من صوف خفيف (نعم، عندنا وشاح من هذا النوع نستعمله جميعاً)، غطت به وجهها تماماً، ورقدت على السرير متجهة بوجهها إلى الجدار، فلا نرى منها إلا رعشة كتفيها وجسدها... وكنت ما أزال على حالتي تلك نفسها... فرأيت عندئذٍ، أيها الفتى، رأيت كاترينا تقترب، دون أن تنبس ببنت شفة هي الأخرى، من سرير ابنتي، وتظل هناك طوال السهرة راكعة عند قدميها تقبلها ولا تريد النهوض. وبعد ذلك، بعد ذلك، رأيتهما تنامان معاً متعانقتين.... معاً... كلتيهما... وكنت أنا راقداً منطرحاً في العتبة، على تلك الحالة لم أتغير. صمت مارميلادوف كمن انقطعت أنفاسه، ثم ملأ كوبه بغتة بسرعة وأفرغه في جوفه، ودلك حلقه، وعاد يقول بعد لحظة صمت:

ـ ومنذ ذلك الحين يا سيدي، على إثر ظرف حديث تعيس ونتيجة وشاية أُناس أشرار، ولاسيما داريا فرانتسوفنا، بحجة أننا لم نراعيها، اضطرت ابنتي سونيا أن تحصل على بطاقة صفراء وتتركنا تبعاً لذلك، لأن صاحبة البيت، أماليا، لم تشأ أن تحتمل هذا الوضع (ومع أنَّها كانت قد ساعدت داريا في ذلك الأمر في (الماضي)، وكذلك السيد ليبزياتنيكوف... وحول موضوع سونيا هذا إنما جرت تلك الحكاية بينه وبين كاترينا. ففي البداية كان هو نفسه قد حاول التقرب من سونيتشكا والتمسا الحظوة لديها، ثم ها هو ذا يثور قائلاً: "كيف يمكنني، أنا الرجل المستنير، أن أعيش في ذات المسكن الذي تقطن فيه هذه الـ..." لكن كاترينا لم تستسلم، بل تدخلت... فحدث ما حدث. والآن تزورنا سونيتشكا من حين إلى آخر (بعد هبوط الليل)، فتساعد كاترينا وتمدها بما تحتاج... هي تقطن في شقة الخياط كابرناؤموف الذي اكترت غرفة عنده. وكابرناؤموف، عدا أنَّه يعرج ويتأتئ، له أولاد كثر يتأتئون مثله كلهم وأمرأته تتأتئ أيضاً. إنَّهم يسكنون جميعاً في غرفة واحدة. ولكن سونيا لها حجرة خاصة بها وراء حاجز... هم... نعم... ورفعت ذراعي نحو

السماء مبتهلاً، ثم ذهبت إلى عند صاحب السعادة ايفان آفاناسيفتش؟ لا تعرفه؟ إذاً أنت لا تعرف شخصاً قلبه لله، هذا رجل نقي نقاء الشمع، نقاء شم بكر أمام الله... والشمع يذوب.... وقد ذاب هو دموعاً بعد أن تفضل فأصغى إلى كلامي حتى النهاية. فلما انتهى حديثي قال لي: اسمع يا مارميلادوف، لقد خيبت ظني مرة... إنما سأوظفك هذه المرة أيضاً، على مسؤوليتي ـ هذا ما ذكر ـ لا تنسى هذا. والآن بوسعك أن تتصرف". قبلت موطئ كعبيه ـ بالخيال طبعاً، لأن هذا الموظف الكبير الذي اعتنق الآراء الجديدة على مستوى الدولة والثقافة ما كان له أن يسمح لي بأن ألثم موضع قدميه فعلاً. وعدت إلى مسكني، فلما نقلت لهم الخبر الرائع في أنني سأعود إلى وظيفتي وأنا سأتقاضى راتباً... يا إلهي... لا أستطيع أن أصف لك ما حدث.

سكت مارميلادوف ثانية، مضطرباً حتى التخمة، وفي تلك اللحظة دخلت شريحة عديدة من السكارى من الشارع، وفي عتبة الحانة دوت ألحان أرغن مستأجر لهذه المناسبة، كما حلّ صوتٌ دقيق هو صوت طفل في السابعة من العمر كان يغني أغنية "القرية الحبيبة". ضجت القاعة. فأسرع صاحب الخمارة والخدم يرحبون بالوافدين، ولكن مارميلادوف أتم سرد قصته من غير أن يبالي بأحد. كان يبدو كمن أنهكه الكلام، إنما كلما استمر في الشرب ازداد تدفق حديثه. إن ذكرى النجاح الأخير الذي حققه مسعاه قد أنعشته قليلاً، بل أرسلت إلى محياه شيئاً من الإشراق. وكان راسكولنيكوف ينصت إليه بنباهة.

حدث هذا من خمسة أسابيع يا سيدي... نعم... فما أن علمت كاترينا إيفانوفنا وسونيتشكا بالنبأ حتى حدث ـ يا إلهي! ـ ما يشبه أن أكون كمن انتقل إلى السماء. قبل ذلك كنت أظلُّ راقداً على الأرض كدابةٍ وابتلع الشتائم. أما الآن تسيران على رؤوس الأصابع، وتهش على الصِّغار: "صه!صه! لقد تعب سيمون زاخاروفتس اليوم كثيراً في دائرته، فيحتاج إلى الهدوء!"

وصرت قبل أن أذهب إلى عملي، يقدمان لي القهوة والقشدة الساخنة؟ من أين لهما أن يجلبا القشدة...الحقيقية... أتصغي إلي؟ وأين وجدتا أحد عشر روبلاً وخمسين كوبيك لتعتنيا بي عناية لائقة؟ ذلك أمر لم أفهمه أبداً. حذاء، بزة رسمية، قمصان ممتازة... لقد اشترتا هذه الأشياء كلها بأحد عشر روبلاً وخمسين كوبيك، وجعلتاها حسنة المظهر أنيقة. ماذا رأيت عند أول صباح عدت فيه من المكتب؟ هيأت كاترينا طبختين، حساء ولحم بقر مملحاً مع فجل حد، ولم يحصل ذلك سابقاً أبداً. ثم هي لم تملك ما تدثر به ظهرها... لم تكن تملك أي شيء يمكن أن يسمى لباساً للظهر... وها هي في ذلك الصباح مرتدية أجمل حلة، كمن يتهيأ ليقوم بزيارة. ما كان اللباس جديداً لكنها تقدر أن تبدع شيئاً من العدم. كانت بعد أن صففت شعرها بشكل جذاب ولفت عنقها بربطة بيضاء، حلوة، وكست ذراعيها بكمين شفافين، قد أصبحت شخصاً آخر أفتى وأكثر أناقةً ووداً! أما سونيتشكا، يمامتي المعبودة، اكتفت بالمحث عن المال، وبادرت: "ولكنني أنا لن أستطيع أن أجيء إليكم إلا عند هبوط الليل، كي أعبر خلسة". أتسمع؟ أتسمع؟ وبعد الغداء مضيت أرقد على السرير. هل تصدق؟ كاترينا لم تطق صبراً. لم يكن انقضى على شجارها مع آماليا صاحبة البيت سوى أسبوع، ومع ذلك دعتها إلى احتساء قهوتها. وأمضتا ساعتين كاملتين تتسامران دون صمت. قالت لها: "إن سيميون زخارتش[1] صاحب مقام اليوم، يتقاضى راتباً.

لقد أتى بنفسه إلى صاحب السعادة، وهبَّ صاحب السعادة بالذات لاستقباله؛ جميع الناس ينتظرون، وأمام الكل تناول يد زخارتش وقاده إلى مكتبه -(هل تصغي، أم تنصت ؟ -وخاطبه صاحب السعادة: أنا أتذكر

---

1 - زخارتش: تخفيف اسم زخاروفتش. يلجأ الشعب إلى هذا التخفيف مستغنيا عن "فتش" بـ "تش" ولسوف يرد في النص على راسكولنكوف بـ روديون روما نوفتش أو روديون روما نتش. وسنقع على بروكوفتش وبروكوفيوتش اسما لشخص واحد وهكذا دواليك.

بالطبع خدماتك الطيبة يا سيميون زخارتش، ورغم تشبثك بهواك الطائش، أنا آمل، ما دمت تَعِدُ بألا تنقاد بعد اليوم لذلك الهوى الجارف، وما دام كل شيء، من جهة أخرى، وقد جرى هنا في أثناء غيابك مقلوباً - (هل تسمع؟ أتسمع؟) -فأنا أتطلع أن تفي بوعدك وألا تخون العهد الذي أخذت نفسك به" الحق أنني اخترعت كل هذا وارتجلته - أنا أقول لك الآن ذلك - ولكنها لم تعمد إلى هذا الاختراع والتلفيق انسجاماً مع ميول صبيانية، ولا حباً في إظهار قيمتها. بالعكس: لقد صدقت هي نفسها كل توقعاته، وما كان ألذه لديها... قسماً بالرب العظيم! وأنا لا ألومها... لا... أنا لا ألومها على هذا.... وحين أتيتها براتبي الأول كاملاً منذ ستة أيام - ثلاثة وعشرين روبلاً وأربعين كوبيك - هتفت لي: حبيبي... ما أجملك يا حبيبي!" قالت لي هذا ونحن في خلوة، هل تفهم؟ وهل أنا كَيِّسٌ، وهل أنا زوج في آخر المطاف؟ ولكنها قرصت خدي وقالت: ما أجملك يا حبيبي!"

توقف مارميلادوف عن الكلام، وأراد أن يبتسم، ولكن ذقنه ارتعشت بغتة. ومع ذلك كبح الجماح. وها هي ذي الخمارة، وسقوط هذا الرجل وحبه الكبير لأمرأته وأسرته كلها، والليالي الخمس التي قضاها على العوامات ناقلات العلف، ومنظر الزجاجة، ها هي تلك الأمور تُغرِق راسكولنيكوف بالذهول. كان يصغي بانتباه خالص، لكنه شعر بضيق شديد. ولام نفسه لأنَّه جاء إلى هذا المكان.

صاح مارميلادوف يقول وهو مرتاح:

- أيها السيد الكريم، أيها السيد الكريم، ربما كانت هذه القصة تضحك الآخرين، ولعليَّ لا أزيد على أن أضايقك بهذا العرض الغبي الأبله لتفاصيلٍ تافهة من تفاصيل حياتي المنزلية. ولكن هذا كله لا يضحكني أنا، لأن هذا كله إنما أحسه أنا بكل جوارحي. لقد قضيت ذلك النهار كلَّهُ وتلك السهرة كلَّها وكأني في الجنَّة، أطير على أجنحة أحلامي. كنت أفكر

بالطريقة التي سأدبر الأمور بها: من أين لي أن أكسو الأولاد، كيف سأُهيئُ لها الطمأنينة والهدوء، كيف سأنتزع ابنتي الوحيدة من وحدة العار وأردها إلى أحضان الأسرة... وكنت أحلم بأشياء أخرى أيضاً، بأشياءٍ كثيرةٍ جداً. كان هذا ممنوحاً لي يا سيدي. وبعد ذلك أيُّها السَّيد، (هنا ارتعش مارميلادوف فجأةً، ورفع رأسهُ وحدقَ إلى محدثهِ) بعد جميع تلك الأحلام الجميلة (رأى منذ خمسة أيامٍ على وجه الدقة) في مساء اليوم التالي عَمدتُ إلى ألوان من الحيل والأكاذيب، وسرقت من كاترينا مفتاح صندوقها، كلص الليل، أخذت ما كان قد بقي من أجري الذي أعطيتها إياه... لا أدري كم كان المبلغ تماماً... نعم، ذلك ما حدث... وانظر أين أنا الآن... انظروا إلي أنتم جميعاً!... تركت البيت منذ خمسة أيام. وهم هناك يبحثون عني. ولقد فقدت وظيفتي، وبقيت بزتي الرسمية مرهونة في خمارةٍ، على مقربةٍ من الجسر المصري، فحصلت على هذه الثياب... وكل شيءٍ انتهى!

لطم مارميلادوف جبهته بجماع يده، كز أسنانه، ثم أغمض عينيه واستند بكوعه إلى المائدة استناداً كاملاً. ولكنّ وجهه تغير بعد دقيقةٍ تغيراً مفاجئاً، فإذا هو بنوع من المكر الوقح الموصوف ينظر الآن إلى راسكولنيكوف. ثم راح يضحك وأردف:

ـ وذهبت اليوم إلى سونيا أطلب منها مالاً... لأشرب قليلاً من أجل تخفيف وجع رأسي... هأ هأ هأ!

هتف يسأله أحد القادمين الجدد وهو يضحك ملئ شدقيه:

ـ وهل أعطتك مالاً؟

ردّ مارميلادوف متجهاً بكلامه إلى راسكولنيكوف وحده:

ـ بما اشتريت أعطيته هذه القارورة. لقد جاءتني سونيا بثلاثين كوبيك، قدمتها لي بيدها بالذات. كان هذا المبلغ كلُّ ما بقي لها... رأيت ذلك بنفسي. لم تعلق أبداً، اكتفت بنظرةٍ صامتة باتجاهي.. حدقت إليَّ ليس كما يكون

النظر في هذه الحياة الدنيا، بل في الحياة الآخرة، في السماء، حيث لا يوقظ الأشقياء في القلوب إلا عاطفة الشفقة، حيث يبكي الناس على هؤلاء البؤساء، دون أن يوجهوا إليهم كلمة عتب جارح! وحين لا يقرِّعُك أحد فأنت تشعر بألم أشد وعذاب أعنف! ثلاثون كوبيك... نعم.. ولكنها كانت في حاجة إلى هذه النقود الزهيدة. ها؟ أليس كذلك يا سيدي الكريم؟ عليها الآن أن تعتني بمظهرها، وأن تتصرف إلى نظافتها، والنظافة، تلك النظافة، تكلف نفقات باهظة، هل تفهم؟ هل تفهم؟ هناك دهون يجب أن تشتريها لتتطبب بها... يستحيل عليها أن لا تفعل ذلك! وهناك الفساتين المتصلبة، والأحذية الأنيقة التي تسمح بإظهار القدم الصغيرة عند تجاوز بركة ماء بخطوة كبيرة! هل تفهم يا سيدي ماذا تعني نظافة كتلك النظافة؟ وها أنا ذا، أنا أبوها، أختلس الكوبيكات الثلاثين التي لا تملك إلاها لأحتسي بنت الكرمة. وأنفقت ذلك المبلغ فعلاً على الشرب! فمن ذا الذي يستطيع أن يكترث إلى حال رجل مثلي؟ أترثي لحالي أنت الآن يا سيدي؟ تكلم يا سيدي، تكلم: أترثي لحالي أم لا؟ هيء هيء هيء هيء!

قال مارميلادوف هذا وأراد أن يصب في قدحه خمراً، ولكن هذه المرة كانت قد نفذت... كانت الزجاجة فارغة!

وكان صاحب الخمارة قد اقترب مرة ثانية، فهتف يسأله:

ـ فيما عسى أن يرثى الناس لحالك؟

وسمعت ضحكات وشتائم. كان يطلق الضحك والشتم أولئك الذين سمعوا القصة كلها، وأولئك الذين لم يسمعوا شيئاً البتة ولكنهم ينظرون إلى الرجل الذي كان موظفاً.

زأر مارميلادوف بغتة من معدته، وهو ينهض، ماداً ذراعيه إلى الأمام، وقد وافاه إلهام حقيقي، كأنَّه لم يسمع إلا تلك الكلمات، زأر يقول:

ـ لم عسى أن يُرثى لحالي؟ أهذا ما تقوله؟ نعم، ليس ثمة ما يدعو إلى

الرثـاء لحـالي! وإنمـا ينبغـي أن أُصـلب، أيهـا القاضـي، ثـم أرثِ لحالـه بعـد أن تصلبه. وعندئذ سأمضي إليك بنفسـي أواجـه العـذاب مواجهـةً لأنـي ظمـآن لـيس إلى فـرح، بـل إلى حـزنٍ ودمـوع! أتـراك تظـن أيهـا البـائع أن هـذه القنينـة الـتي اشتريتها منك قد جاءتني بالغبطة وحملت إلي الحبور؟ إلا أن الألم هو ما كنت أنشده وأُصر عليه في قراءة تلك الزجاجة... نعم... الألم والأسى! ولقد ذقت فيها الوجـع، ووجـدت فيهـا مـا ابتغيـت. ولكـن ذاك الـذي يشـفق علـى كـل النـاس ويـرأف بكـل البشـر، سيشـفق علينّـا، لأنّـه يُـدرِكُ كـل شـيءٍ، أنّـه هـو الواحـد الأحد. أنّه هو القاضي الأعلى. سيظهر في يوم الحساب الأخير فيسأل" "أين هـي تلك البنت المسكينة التي ضحت بنفسها في سبيل حربـاءَ شـريرةٍ مصدورةٍ، في سبيل صغار امرأة أخـرى؟ أيـن هـي تلـك الشـابة البائسـة الـتي عطفـت علـى أبيهـا الأرضي، السكير الذي لا شفاء له، دون أن تدع نفسها تشمئز مـن حيوانيتـه؟" سـوف يقـول لهـا: تعـالي! لقـد سـبق وغفـرت لـك مـرة... والآن أعفـو عـن جميـع خطاياك، لأنك أحببت كثيراً"... وسيمحو كل ذنب سجل لك، وسيرقن لابنتي الوردة سونيا... أنا أعلم أنّه سيغفر لها... شعر فؤادي بهذا عندما كنت عندها منذ برهة... سيحاكم الجميع، سيبرئ الأخيار والأشرار، الحكماء والبسطاء على السواء. حتى إذا فرغ من هـذه الدينونـة الأبديـة، خاطبنـا نحـن أيضـاً فقـال: "تعالوا، تعالوا أنتم، تعالوا أيضاً أيهـا السـكيرون، أيهـا الضـعفاء، الفاسـقون!" وسندنو منه جميعاً، دونما شعور بـالخزي والعـار وسـنقف أمامـهُ، وسـيقول لنـا: "أنـتم خنـازير! خلقـتم علـى صـورة الـوحش، ودمغـتم بخاتمـه! ومـع ذلـك تعـالوا!" عندئذ سيقول العقلاء والحكماء "كيف يارب؟ كيـف تسـتقبلهم هـم أيضـاً؟" وسـوف يفـتح لنـا ذراعيـه ونحـن نلـوذ بهمـا. وسـوف نبكـي ونـئن، وسـوف نـدرك كل شيء، وسوف تفهم كاترينا هي نفسها... فليأت ملكوتك يارب!

انهارت قوى مارميلادوف، فتهاوى عن المصطبة، دونمـا أن ينظـر إلى أحـد، كمن غرق في أحلام عميقة فنسي كل ما كان حوله، وتركـت كلماتـه أثـراً

ملحوظاً. ساد الصمت المكان دقيقة. ولكن القهقهات والإهانات لم تلبث أن عادت تقذع.

- هكذا يكون الكلام!

- هو يثرثر!

- موظف

الخ، الخ.....

وقال مارميلادوف فجأة وهو يرفع رأسه مخاطباً راسكولنيكوف:

هيا بنا يا سيدي. رافقني إلى عمارة كوزيل... إلى الغناء... لقد آن الآوان... خذني إلى كاترينا إيفانوفنا!

كان راسكولنيكوف يتمنى منذ فترة طويلة أن ينصرف. وخطر بباله من تلقاء نفسه أن يؤازر مارميلادوف وقد ظهر مارميلادوف أشدَّ وهناً وأضعف انتصاباً على ساقيه مما كان في خطابه. اتكأ مارميلادوف بغلظةٍ على الشاب، وكان عليهم قطع مسافة مائتي خطوة أو ثلاثمائة. إن القلق والخوف يجتاحا السكير كلما اقترب من بيته أكثر مما يتلبسا غير السكير.

ودمدم يقول منفعلاً:

ليس خوفي من كاترينا إيفانوفنا، لست خائفاً، ستشدني من شعري. ما قيمة شعري؟ ما قيمة شعري؟ قيمة تافهة. أنا أقول لك هذا والأفضل أن تشدني من شعري.... لا... ليس هذا ما يخيفني... إنما أنا خائف من عينيها... نعم... من عينيها، وبقع خديها الحمراء، أخاف منها وأخاف من تنفسها أيضاً... هل لاحظت كيف يتنفس المصابون بذاك المرض حين تثور ثائرتهم؟!. وأخاف أيضاً من الأولاد حين يبكون، ذلك أنه من الجائز أن لا تكون سونيا قد هيأت لهم الطعام... لست أدري الآن. أما الضربات... فلا أخافها... اعلم أيُّها السَّيد أن هذه الضربات لا تقتصر على أنَّها تؤلمني، وإنما هي تهيء لي لذَّةً في بعض الأحيان، لأنني لا أقدر أن أستغني عنها. ذلك أفضل! هيا اضربيني! ألا فلتخفف عن

نفسها، ذلك أفضل! ألا فلتضربيني هذه هي العمارة، عمارة كوزيل... هو قفال، قفال ألماني موثر جداً. ادخل معي!

اجتازا الفناء وصعدا إلى الطابق الرابع. وكانت ظلمة السلم تزداد حلكةً كلّما تقدما في الصعود. الساعة لاحت عند الحادية عشرة، ورغم أن مدينة بطرسبورغ ليس لها ليل حقيقي في مثل هذه الفترة من العام، فقد كانت العتمة شديدة في آخر السُّلَم.

في أعلى السلم كان باب صغير مُدْخنٌ مشرعاً. وكان هناك بقية شمعة تضيء أفقر غرفة في الشقة. طولها عشرة أقدام. إن المرء يرى الغرفة كلها من فسحة السلم. وفوضى مُنفِّرة تسودها، وأشياء عديدة الأشكال والأغراض ملقاة على الأرض، لاسيما أسمال الأطفال، وفي ركن من الغرفة وهو آخرها، نصبت ستارة رثة لعلَّ وراءها سريراً، ولم يكن في الغرفة نفسها إلا كرسيان، وأريكة منجدة بقماش مُلمَّع، بالٍ، رث، أمامها مائدة مطبخ عتيقة من خشب الصنوبر غير مدهونة ومن دون غطاء. وفي طرف المائدة كانت بقية شمعة توشك أن تذوب كلها، قد غرسها في شمعدان حديدي، وجميع المظاهر تشير إلى أن مارميلادوف بالحقيقة لا يحتل في هذا المسكن ركناً من أركانِّه، بل غرفة مستقلة هي بالفعل ممرٌ أو دهليز. وكان الباب الذي يفضي إلى الغرفة الأخرى، أو قُل إلى العِلَب الأُخرى التي يتألف منها بيت أماليا، مشقوقاً، وكان مصدرُ جلبةٍ وصياحٍ. كان الموجودون هناك يضحكون قهقهةً. يبدو أنَّهم يلعبون بالورق وهم يحتسون الشاي. وكان الفرد يقدر أحيانا أن يلتقط وسط الصخب ألفاظاً ليس فيها كثيراً من الأدب.

لم يلبث راسكولنيكوف أن تعرف على كاترينا. إنَّها امرأة هزيلةٌ جداً، مديدةُ العودِ، ممشوقةً، شعرها كستنائي ما يزال رائع اللون، وكان على خديها بقعتان حمراوان فعلاً. كانت تسير في الغرفة الصغيرة ذهاباً ورجوعاً. وقد شدت يديها إلى صدرها تضغطه بهما، وكانت شفتاها يابستان وأنفاسها

قصيرة متقطعة، وكانت عيناها تسطعان ببريق محموم، ولكن نظرتها حادة ثابتة. كان هذا الوجه المنفعل الذي التهمه داء الصدر يحدث مرآه على ضوء الشمعة الصغيرة الذائبة المتراقص. أثراً أليماً في النفس. قدَّر راسكولنيكوف أنَّها في الثلاثين من العمر. ما هي في الحق امرأة لمارميلادوف. لم تنتبه إلى وصولهما ولا سمعت وقع خطاهما، كانت متلبسة نوعاً من الخبال، لا ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً. حرٌّ شديدٌ يسودُ جو الغرفة. وعلى ذلك لم تفتح المرأة الشباك. ومن أسفل السُّلَّم كانت تعلو رائحة كريهة، ومع ذلك لم تغلق الباب المشرف على السُّلَّم. وعبر الباب الآخر كانت تصل سحائب من دخان التبغ، فتسعل ومع هذا لم ترد الباب الثاني. كانت البنت الصغرى، في ربيعها السادس، نائمة على الأرض قعوداً وقد انطوت على نفسها وأسندت رأسها إلى المرتبة. والصبي الصغير وهو في السابعة من عمره، يرتعش ويبكي في إحدى زوايا الغرفة. لاشك أنَّه ضُرب منذ قليل. وكانت البنت وهي في تاسع ربيع، طويلة نحيلة كعود ثقاب، يكسوها قميص رديء تمزَّقَ وتخرَّقَ حتى ضاع أصلهُ، ورداءٌ عتيقٌ من خفيفِ الصوف، ألقي على كتفيها العاريين، ولعله يكافئ حجم جسمها من سنتين، أما الآن يكاد لا يغطي أكثر من الركبتين. وكانت البنت واقفة في الركن تضم إلى صدرها أخاها الصغير وتحيط عنقه بذراعها الطويل النحيل. يبدو أنَّها كانت تحاول تهدئته، فتحاكيه بصوت خافت جداً، رجاء ألا يستأنف البكاء، وكانت هي في الوقت نفسه تتابع أمها، وقد امتلأت خوفاً، بعينيها الواسعتين القاتمتين اللتين تبدوان أوسع من المعتاد في هذا المحيا الهزيل المروِّعْ. لم يدخل مارميلادوف الغرفة، بل ركع في العتبة، ودفع راسكولنيكوف إلى أمامه. لما رأت المرأة هذا الشاب الغريب وقفت أمامه مندهشة، ثم خرجت من تأملاتها لحظة، ربما لتحاول أن توضِّح لنفسها علَّة قدومه. لكن بالتأكيد ما لبثت أن ظنت أنَّه يقصد أناساً آخرين من العمارة، لأن الحجرة ممرٌّ إلى سواها. فلما وصلت إلى

هذا ، اتجهت إلى باب الدهليز تريد أن تغلقه دونما أن تبالي بالشخص المجهول لديها ، فإذا بها تهتف بغتة ، لأنَّها اكتشفت زوجها المرمى في الأرض.

صاحت تقول وقد بلغت ذروة الغضب:

ـ آ... هاأنت ذا عدت! يا لص، يا شيطان، يا مَسِخ! أين المال؟ ما في جيبك؟ أرني!... وهذا اللباس الذي ترتديه ليس لباسك، فأين رداؤك إذاً؟ أين المال؟ تكلم!

قالت ذلك وهجمت لتنبش جيوبه. سرعان ما باعد مارميلادوف ذراعيه خاضعاً طيعاً بغية أن يسهل عليها تفتيش الجيوب. لم يكن في جيوبه كوبيكاً واحد.

هتفت تقول:

ـ أين المال؟ آه... يارب!.... هل يمكن أن يكون قد شرب خمراً بالمال كله؟ كان ما يزال في الصندوق اثنا عشر روبلاً مع ذلك...

وألمت بها سورة مسعورة من الغضب على حين غرة، فأمسكت بشعره، وجرته إلى الحجرة. وسهل هو عليها هذا العمل، كان يزحف على ركبتيه وراءها مطيعاً مزدرى.

صرخ بينما كان يجر من رأسه لتصطدم جبهته بأرض الغرفة:

ـ هذه لذة بالنسبة لي! ليس هذا مؤلماً يا سيدي الكريم. إنما حلاوة! استيقظت الفتاة النائمة في الأرض، وأَجْهَشَتْ. ولم يتمالك الصغير نفسه فجعل يرتجف ويهتف، وهرع إلى اخته فزعاً يكاد يقع في نوبة عصبية. وكانت البنت الكبرى ترتجف بعد النوم كورقة في مهب الريح.

صاحت المرأة المسكينة:

ـ شرب بكل المال، شرب بالمال كله. حتى رداؤه قد تبدل! إنَّهم يعانون الجوع والسغب، أمعاؤهم خاوية.

قالت هذا وهي تلوي يديها وتشير إلى الصغار، ثم أردفت:

ـ لعن اللّه هذه الحياة، بل لعن اللّه الفقر! وزأرت كما اللبؤة تخاطب راسكولنيكوف وترتمي عليه بغتة:

ـ وأنت أيضاً قادم من الحانة! ألا تخجل!؟ شربت معه، أليس كذلك؟ أنت أيضاً... شربت معه... برة، أُخرج!

فأسرع الشاب يخرج دون أن يتفوه بكلمة. وفي أثناء ذلك كان الباب قد فتح، بَلْ شُرِّعَ، وظهر في فرجته عدد من الفضوليين. كانوا يمدون رؤوسهم الوقحة الساخرة. وقد اغمروا طاقياتهم الفضفاضة، وهم يدخنون سجائر أو بايب. وكانت ترى أمامها قامات ترتدي معاطف المنازل متروكة بدون أزرار أو ملابس غير محتشمة مطلقاً. كان بين الجمهور من في يده ورق قمار، وقد ضحكوا كثيراً بخاصة حين جُرَّ مارميلادوف من شعره، وصرخ أن هذا يلذُّ لهُ. حتى ولقد دخلوا الحجرة وسمعت بعد حين وعوعة غاضبة: إنَّها ليغكسل بنفسها قد شقت معبراً بين الحشد لتعيد الهدوء، بطريقتها غير اللائقة، وترهب المرأة المسكينة بإبلاغها، للمرة المئة، أن لا مهرب لها من مغادرة المسكن في الغداة. اتسع وقت راسكولنيكوف، قبل أن ينصرف، لأن يدس يده في جيبه فيخرج منه جميع النقود النحاسية التي بقيت له من الروبل الذي صرفه في الحانة. وأن يضع هذه النقود خفية على حافة النافذة. فلما صار في السلم عدل عن رأيه وتمنى أن يعود أدراجه.

قال: حماقة ما فعلت!... هم، لهما سونيا وأنا بحاجة المال، ولكنه رأى استحالة استرداد الصدقة التي قدمها، وهو لن يستردها ولو لم يكن استردادها محالاً. فأشاح بيده واتجه إلى مسكنه. وتابع حديثه في أثناء سيره مع نفسه في الشارع وهو يبتسم بسخرية. "حقاً إن عليَّ سونيا أن تشتري عطوراً لترشها على جيدها وأمكنة أخرى... كانت العطور رفيعة السعر، هذا ثمن النظافة... أف... إنما من الجائز جداً أن تصاب اليوم بالإفلاس. إن هذه المهنة لمعرضة لمخاطر جمّة، كصيد الوحوش ذات الفراء الثمين، والبحث عن مناجم

الذهب كيلاً بكيل... فبدون هذا المال الذي منحته لهم يمكن أن يجدوا أنفسهم في يوم غد بلا كوبيك واحد. آه... يالك من سونيا!... يالك من منجم اكتشفوه! ويا لها من فوائد جنوها منه! ذلك أنَّهم يجنون من هذا المنجم. لقد اعتادوا أن يفيدوا منه وأن ينفقوا به! بكوا في بادئ الأمر، ثم اعتادوه. الاعتياد على كل شيء. يا له من حقارة!"

ثم فكر. فإذا به يصرخ رغم إرادته وفجأة:

ماذا لو كنت ضالاً! ماذا لو لم يكن الإنسان في حقيقة الأمر حقيراً.... أعني الإنسان عامة، أعني النوع الإنساني.... سيكون معنى هذا أن ما بقي كلَّهُ ليس إلا أوهاماً، ليس سوى مخاوف خيالية باطلة، وأن ليس ثمة امرؤٌ ينبغي أن نقيم له وزناً. نعم، هذا ما يجب.

# الفصل الثالث

استيقظ في الغد متأخراً، بعد نوم مضطرب لم يرَ فيه الراحة. وشعر حين فتح عينيه بأنَّه متعكر المزاج، سريع البلبلة، خبيث النفس، ونظر إلى حجرته نظرة مقت، إنَّها غرفةٌ أشبهُ بقفصٍ صغيرٍ طولهُ ستْ خطوات، يدل مظهرها على أشدِّ الفاقة، جُدرانها مغطاةٌ بورقٍ حائلٍ إلى الصفرة تراكم عليه الغبار وتمزَّق في أكثر من بقعة. منخفضة السقف بحيث يحس ساكنها رَبِعَ القامة بأنَّهُ سمكة سردين. لا بد له أن يخشى اصطدام رأسه بخشب السقف، وأثاث الحجرة يناسبها حقارة وبهدلة: كان فيها ثلاثة كراسي عتيقة تعرج قليلاً. وكان في أحد أركانَّها مائدة مدهونة عليها دفاتر وبضعة كتب ( يكفي المرء أن يرى طبقة الغبار التي تغطي هذه الكتب حتى يدرك أنَّها منذ مدة طويلة لم تدنو إليها اليد. وكان فيها أخيراً ديوان ضخم بَشِعٌ يشغل طول الحجرة، ويشغل نصف عرضها تقريباً، ديوان كان في الماضي منجَّداً بقماش هندي ولكن القماش قد أصبح الآن خِرَقاً رثة ومِزقاً بالية. إن هذا الديوان هو سرير راسكولنيكوف. وكثيراً ما كان يتفق راسكولنيكوف أن يرقد عليه مرتدياً جميع ثيابه بلا ملايات، غير ملتحف إلا بمعطفه العتيق الرث، معطف الطالب، واضعاً رأسه على مخدة صغيرة كان يسمكها فيدس تحتها جميع ما عنده من ملابس نظيفة كانت أو متسخة. وأمام الديوان وضعت منضدة صغيرة.

إنه لمن الصعب أن يهمل المرء نفسه إهمالاً أمرَّ من هذا الضنْك. ولكن منظر مسكنه هذا، وهو في هذه الحال، من البلبلة المحافظة، كان ينساق إلى أن يولد له شيئاً من اللذة. كان قد انفصل عن العالم انفصالاً تاماً، وكان يعيش كالسلحفاة المحبوسة في قوقعتها، وحتى منظر الخادمة، التي تقوم على تدبير شؤونه الخدمية والتي كانت تظهر كل برهة زمنية لترى ما يجري، كان يبعث في نفسه كرهاً محموماً. هكذا شأن بعض الموسوسين الذين

تحاصرهم فكرة واحدة، ويصرف ذهنه في التركيز على نقطة بعينها. لقد كفت صاحبة البيت منذ أسبوعين عن أن تبعث له بوجبات طعامه، ورغم أنَّه أصبح مضطراً للصيام عن الطعام، فإنَّه لم يخطر بباله بعد أن يذهب إليها ليناقشها في الأمر. كانت ناستاسيا، الطباخة، وهي الشغالة الوحيدة لدى صاحبة المنزل، كانت بمعنى ما، غير مستاءة من الحالة النفسية التي كان عليها المستأجر، وكانت قد انقطعت عن خدمة غرفته نهائياً، اللهم إلاَّ من وقت إلى الآخر، أو مرة في الأسبوع، وكانت في هذه المرة تكتفي بأن تكنس الغرفة كنساً كيفما اتفق. وهي التي أيقظته الآن. صرخت وهي تنحني قربه:

ـ انهض. ما بك حتى تنام هذا النوم؟ لقد دقت الساعة السادسة. ها أنا ذا أتيتك بشيء من الشاي، هل تريد؟ أعتقد أنك جائع. أليس صحيح؟

فتح الشاب عينيه، وارتجف، وتعرف ناستاسيا. سألها وهو ينهض ببطء عن ديوانه وقد بدا عليه الألم:

ـ هل صاحبة المنزل هي التي أرسلت الشاي؟

قالت الشغالة:

ـ صاحبة البيت؟ هه!....

ووضعت أمامه إبريقها الخاص، المتصدع الذي يضم بقية باردة من الشاي، وتركت له قطعتي سكر مصفر تماماً.

قال لها بعد أن قلب جيبه (كان قد نام لابساً ثيابه)، فأخرج عدة قطع نقدية نحاسية:

ـ خذي ناستاسيا، خذي هذا أرجوك... واذهبي واشتري لي رغيفاً صغيراً من الخبز، واشتري لي أيضاً من عند البقال سجقاً زهيد الثمن...

ـ سأتيك بالخبز في الحال، ولكن ألا تريد، بدلا من السجق، أن تصيب شيئاً من حساء الكرنب؟ حساء صنعناه البارحة، وادخرته لك مساءً، لكنك رجعت إلى البيت متأخراً. هو حساء بالكرنب طيب.

وحين جاءت ناستاسيا بحساء الكرنب، وراح يأكل، جلست إلى جانبه على الديوان وشرعت تثرثر. أنَّها سيدة قروية ثرثارة مهذارة. قالت له:

ـ إن براسكوفيا بافلوفنا تريد أن تشكوك لدى الشرطة فاكمد وجهه وسأل:

ـ تشكوني إلى الشرطة؟ ما لها عندي؟

ـ أنت لا تدفع أجر الغرفة، وترفض أن تخليها. هذا ما لها عندك!

جمجم وهو يصرف بأسنانه:

ـ ما كان ينقصني إلا هذا! حقاً إن الأمر لا يلائمني الآن.

ثم أضاف بصوت عال:

ـ يا للحمقاء! سأمر بها اليوم ونتحدث.

قالت:

أما أنَّها حمقاء فهي كذلك فعلاً، مثلي أنا تماماً... ولكن... ما بالك أنت، وأنت بهذا الذكاء الحاد، تبقى راقداً طول الوقت كصرة؟ لا يستطيع أحد أن يحملك على شيء! تقول إنك كنت في الماضي تعطي الأولاد درساً خاصاً، فلماذا تركت هذا؟

ـ بل أقوم...

كذلك رد راسكولنيكوف رغم إرادته، بلهجة جافة.

سألته:

ـ ما الذي تقوم به؟

ـ أقوم بعمل...

ـ أي عمل؟

أجابها جادًّاً بعد صمت:

ـ أُفكر...

انتابت ناستاسيا نوبة ضحك. هي دوماً جاهزة لأن تنفجر ضَحِكاً. ويكفي

أن تمازحها بأقل مسامرة حتى تروح تضحك، ولكنَّ ضحكها صامت، فهي لا تزيد على أن تحرك وترجح جسمها كُلَّهُ، إلى أن تملَّ وتَضجَر!...

وأفلحت أخيرا بأن تقول:

ـ وهل جنيت من التفكير شيئاً؟

قال:

ـ كيف يقدر المرء أن يَمضي لإعطاءِ دروس وهو لا يملك حذائين؟ على أنني أبصق على هذا.

ـ لا تبصق على ما ينفعك.

يجني المرء من تعليم الأطفال كوبيكات، ماذا يستطيع الفرد أن يفعل ببضع كوبيكات؟

كذلك تابع يقول بغير إرادة، كأنَّهُ يجيب عما يدور في رأسه هُوَ مِن خواطرٍ وأفكار.

سألته:

ـ أتراك تريد الحصول على ثروة طائلة دفعة واحدة

نظر إليها نظرة غريبة ثم أجابها بصوت حازم بعد صمت قصير:

ـ نعم، ثروة طائلة...

ـ هيه.... رفقاً رفقاً! إنك تخيفني. ما تقوله أمرٌ فظيع. أأمضي لشراء الرغيف الصغير؟

ـ إفعلي ما تشائين.

ـ ها... نسيت... معي رسالة لك وصلت أمس في أثناء غيابك.

ـ رسالة؟! لي؟! ممن؟!

ـ لا أدري ممن. وقد نقدت ساعي البريد ثلاثة كوبيكات من جيبي. ستردها إلي، أليس كذلك؟

صرخ راسكولنيكوف يقول وقد بلغ ذروة الاضطراب:

ـ هاتي الرسالة! هاتيها ناشدتك اللّه... آه.... يارب!

بعد دقيقة جاءت الرسالة. صَدَقَ ما كان يُقدِّرُهُ: إن الرسالة آتية من أمه التي تقيم في اقليم... اصّفرَّ وجههُ وهو يتناول الرسالة. لقد أصبح لا يتلقى أية رسالة منذ مدة طويلة. ولكنَّ شيئاً آخر يقبض الآن قلبه ويجثم على صدره.

قال:

ـ ناستاسيا ، اذهبي.... ناشدتك اللّه... انصرفي. خذي كوبيكاتك الثلاثة... اخرجي بسرعة.... بسرعة!

كانت الرسالة ترتعش بين يديه ، لم يشأ أن يفضها أمام الشغَّالة. كان يحرص على أن يظلَّ وحده مع هذه الرسالة. فما أن خرجت ناستاسيا حتى رفع الرسالة إلى شفتيه بحركة سريعة وقبلها. ثم لبث مدة يُمعن النظر في خط العنوان، الخط العزيز الغالي الذي يعرفه حق المعرفة ، الخط الصغير المائل بعض الشيء ، خطُّ أمِّه التي علَّمته القراءة والكتابة في الماضي منذ زمن بعيد. أحجم عن فكِّ الغلاف بعض الوقت ، حتى كأنَّه خشي شيئاً ما. ثم فضها أخيراً. الرسالة طويلة كثيفة ثقيلة الوزن لويتين بل أكثر: صحيفتان كبيرتان من ورق تغطيهما كتابة مرصوصة وجهاً و قفاً. وهذا ما كتبته أمه:

"عزيزي روديا! انقضى أكثر من شهرين دون أن أتحدث إليك كتابة ، وهذا أمر عذبني كثيراً ، حتى لقد حرمني من النوم ذات يوم من فرط تفكيري فيه. ولكنني على يقينٍ من أنك لن تلومني على هذا الصمت الطويل المقيت الذي لست مسؤولة عنه ، أنت تعلم كم أحبك! ليس لنا في هذه الحياة ، أنا ودونيا ، سواك. أنت عندنا كل شيء. أنت كل أملنا في المستقبل! ليتك تعلم الحالة التي صرت إليها حين علمت أنك تركت الجامعة منذ بضعة أشهر لعجزك عن الوفاء بسد حاجاتك ، وأنك أضعت الدروس التي كنت تعطيها ، وفقدت سائر الموارد الأخرى! كيف كان يمكنني أن أساعدك وأنا لا أقبض إلا مائة وعشرين روبلاً في السنة هي معاش التقاعد! أنت تعلم أن الخمسة عشر

روبلاً التي أرسلتها إليك منذ أربعة أشهر، إنما كنت قد اقترضتها سلفة على معاشي من تاجر في بلدتنا هو فاسيلي ايفانوفتش فاخروسين.. إنه رجل طيب كان صديق والدك. ولكنني قد خولته حق قبض المعاش نيابة عني فقد اضطررت أن أنتظر إلى أن ينتهي سداد الدين كاملاً. ولم يتم ذلك إلا منذ برهة قصيرة. هذا هو السبب في أنني لم أستطع أن أرسل إليك شيئاً طوال ذلك الوقت. أما الآن فقد اعتقدت أنني سأستطيع، ولله الحمد، أن أستأنف إرسال شيء من المال إليك. ثم إننا في وسعنا، على وجه أعم أن نغبط أنفسنا على أن الحظ قد وافانا قليلاً، وهذا ما أسارع إلى ذكره، يا عزيزي روديا أن تحزر أن أختك تقيم معي منذ شهر ونصف شهر، وأننا لم نفترق بعد اليوم أبداً؟ لقد انتهت الآن جميع آمالها بفضل الله، ولكن ينبغي أن أقص عليك كل شيء مرتباً متسلسلاً، حتى تعرف كيف جرت الأمور، وماذا كتمنا عنك إلى الآن! لقد كتبت إلي منذ شهرين قائلاً إنَّك علمت من أحد الناس أن أختك دونيا تتألم كثيراً من سوء المعاملة في منزل الأسرة التي تعمل عندها، وهي أسرة السادة سفدريجايلوف، وسألتني أن أبعث إليك بشروح دقيقة وتفاصيل وافية عن هذا الأمر. فما كان من تصرفي أن لا أجيبك في ذاك الحين؟ فلم أستطيع أن أجيبك بصدقٍ فلو كتبت إليك الحقيقة كاملة، تيسر لك أن تترك كل شيء وتأتينا سيراً على الأقدام، أنا أعرف ما تنطوي حناياك، فما كان لك أن تسمح لأحد أن يعتدي على أختك أو أن يهين كرامتها. ولقد بلغت أنا نفسي آنئذٍ غاية الضنك والبلبلة. ولكن ما كان عليَّ أن أفعل؟ ثم أنا ما كنت أعرف الحقيقة كلها حينذاك. ولقد جاء البلاء أساساً من أن أختك دونيتشيكا، حين أخذت تعمل مربية في كنف آل سفيدريجايلوف، في العام الفائت، قبضت منهم سلفة قدرها مائة روبل يستعيدونها من أجورها شهراً شهراً، لذلك كان من المحال عليها أن تكون قد سددت ما لهم عليها من دين. وذلك المبلغ الذي تقاضته ( أستطيع الآن أن أعترف لك بذلك يا بني العزيز ) إنما أخذته خاصة

لتبعث إليك الستين روبلاً التي كنت أنت يومئذ بحاجة حرجة لها والتي تلقيتها منا في العام المنصرم. لقد خدعناك كلتانا حين كتبنا لك حينئذ أن ذلك المال هو حصيلة مدخرات قديمة جمعتها دونيتشكا، ولم يكن الأمر كذلك. وإنما أنا أقول لك الحقيقة كلها الآن لأن الله قد أراد أن يبدل كل شيء وأن نصير إلى حال أفضل ولأن من الواجب أن تعلم مدى ما تحمله لك دونيا من حب، وأن تعرف ما يتصف به قلبها من نبل لا يُضارَع! بالفعل إن السيد سفيدريجايلوف كان في أول الأمر يعاملها بغلظة وكان يوجه إليها في أثناء الجلوس إلى المائدة أنواعاً شتى من الكلام القاسي والحكي الهازئ.... على أنني لا أريد أن أبالغ فيما أقول فأصل إلى تفاصيل أليمة، حتى لا أُعذِّبكَ في غير طائل، بعد أن انتهى كله الآن. المهم أن وضع دونيتشكا كان شاقاً جداً رغم أن مارفا بتروفنا، زوجة السيد سفيدريجايلوف وسائر أفراد البيت قد عاملوها معاملة فيها كثير من الرعاية والعطف. وكان وضعها يربو ويربو مشقةً حين يصبح السيد سفيدريجايلوف تحت سيطرة ما ألف من عادة ترسخت فيه منذ كان في الجيش. إنما ما الذي حدث بعد ذلك؟ تصور أن هذا الرجل المأفون كان منذ أمدٍ مديدٍ يهيم بأختك دونيا هياماً يخفيه تحت ستار موقف من الفظاظة والاحتقار يصطنعه اصطناعاً. ولعله كان يشعر بالخزي في نفسه، أو لعله كان يحس بارتياع حين يرى أنَّه في هذه السن، هو رب الأسرة، تراوده آمال هذا المبلغ من الطيش. فإذا هو يحقد على دونيا رغم إرادته، أو لعلَّه بفظاظة موقفه إنما كان يريد أن يخفي الحقيقة عن الآخرين لا أكثر. المهم أنَّه أصبح في نهاية الأمر لا يطيق صبراً، فإذا هو يتجرأ ويتجاسر فيعرض على دونيا عروضاً صريحةً دنيئةً. المهم أنَّهُ أصبح في نهاية الأمر باذلاً لها وعوداً بفوائد شتى ومنافع كثيرة. مقترحاً عليها فوق ذلك كله أن يترك كل شيء ليسافر معها على قرية أخرى من القرى التي يملكها أو إلى الخارج. في وسعك أن تتخيل الآلام التي قاستها أختك! كان عليها أن لا تفكر في ترك وظيفتها فوراً، لا

بسبب ما عليها من دين فحسب، بل أيضاً من باب المراعاة والمداراة لمارفنا بتروفنا التي كان يمكن أن تساورها شكوكٌ كثيرةٌ على حين بغتةٍ، فيحدث في الأسرة شقاق يمزقها شر تمزيق. ذلك عدا أن تركها لوظيفتها فوراً يمكن أن يكون لها فضيحة مجلجلة لا يمكن تحاشيها، وثمة أسباب أخرى كثيرة تجعل دونيا ذليلة قبل انقضائها بستة أسابيع. لا شك في أنك تعرف دونيا وتعرف ما تتصف به من تعقُّلٍ راجح مهما تكن الظروف حرجة، وأن دونيتشكا تستطيع أن تتحمل أشياء كثيرة، وأن تجد في نفسها مهما تكن الظروف خانقة، قدراً من رفعة الروح ونبل القلب حتى لا تفقد رباطة جأشها وَثَباتَ جِنانها، لذلك لم تكتب إليَّ شيئاً عن كل ذلك، حتى توفر عليَّ شيئاً من المعاناة، مع أنَّنا كنا نتراسلُ كثيراً. وقد حدثت خاتمة القصة على نحوٍ لم يكن في الحسبان: إن مارفا بتروفنا سمعت زوجها في الحديقة، بمحض الصدفة، يتكلم إلى دونيتشكا حاراً مبتهلاً، ففهمت الأمر فهماً لا يتفق مع الحقيقة واتهمت دونيتشكا إذ أنَّها ظنت أن دونيتشكا سبب كل شيء، فإذا بمشهد رهيب يحدث عندئذ في الحديقة نفسها: لم تشأ مارفا بتروفنا أن تسمع أي قول، حتى لقد ضربت دونيا، وظلت تصرخ ساعة كاملة، ثم أصدرت أمرها بنقلها إليَّ في المدينة على عربة حقيرة من عربات الفلاحين، رُميت فيها جميع أشياء دونيا من ملابس وأثواب، رُميت فوضى بغير نظام، حتى دون أن تُربط أو تُحزم. وقد أخذ المطر يهطل عندئذٍ هطولاً أشبه بالطوفان، فاضطرت أختك دونيا أن تقطع مع الفلاح في عربته المكشوفة مسافة سبعة عشر فرسخاً على تلك الحال من المذلة والهوان. إنك لترى الآن أنني لم أكن أستطيع أن أجيب بشيء على الرسالة التي بعثتَ بها إليَّ منذ شهرين: عمَّ إذا كان يمكن أن أحكي لك وفيما أقدر أن أُكلِمك؟ لقد كنت أنتَ نفسكَ في غاية الكرب وذروة الكمد. ما كنت أجرؤ أن أكتب لك الحقيقة. فلو فعلت ذلك لشقيت أنت شقاء مشهوداً، ولأحسست بغضب شديدٍ واضطرابٍ هائلٍ. وما الذي كان

بوسعك أن تفعله؟ لا شيء، إلا أن تفاقم آلامكَ، ثم إن دونيا قد حظرت عليَّ أن أفعل. وأما أن أملأ رسالتي إليك بترهات وسفاسف، بينما أنا مثقلة القلب بالحزن والأسى، فذلك ما شعرت بأني لا أقدر أن أقوم به. وعلى مدى شهر كامل جرت في المدينة عن تلك القصة شائعات وأقاويل ونميمة. حتى لقد بلغت الأمور حداً أصبحتُ لا أستطيع مَعَهُ ان أصحب دونيا معي إلى الكنيسة، وذلك بسبب نظرات الازدراء التي يلقيها علينا الناس، وبسبب الهمسات الإباحية التي يتبادلونها عند مرورنا، حتى إنَّهم كانوا لا يتحرجون من إبداء ملاحظات خبيثة بصوت مجلجل في حضورنا. وصار جميع من يعرفوننا، لا يتحرجون من إبداء مثل هذه الملاحظات. وعرفت من مصدر مطَّلع أنَّ عدداً من مستخدمي الدكاكين وصغار موظفي المكاتب أرادوا أن يرتكبوا في حقنا سفالة ودناءات، هي أن يلطخوا باب منزلنا بالقطران، فأخذ أصحاب الدار الذي نسكنه يطالبون بإخلائهِ. وكانت مارفا بتروفنا سبب ذلك كُلَّهُ، فقد اتسع وقتها لأن تذهب إلى جميع البيوت، تتهم دونيا وتوسِّخَ سُمعتها. إنَّها تعرف جميع الناس في بلدتنا. وقضت هذا الشهر في زيارات مستمرة. ولما كانت أميل إلى الثرثرة، وتهوى الحديث عن شؤونها المنزلية على كل زائر، وأن تشكو زوجها خاصة، وهذا ليس أمراً محبوباً، فقد نشرت القصة خلال برهة وجيزة من الزمن، لا في المدينة وحدها، بل في المقاطعة كلِّها. وقد مرضتُ أنا جراء ذلك. ولكن دونتيشكا كانت أقوى مني عوداً وأصلب شكيمةً، وأشدُّ بأساً. ليتك رأيت كيف استطاعت أن تحتمل ذلك كله بجأشٍ رابطٍ وجنانٍ ثابتٍ حتى كانت هي التي تعزيني وتواسيني، وتَشدَّ عزيمتي، وتدفعني إلى الحلبة كمغوار! إنها ملاك! ولكنَّ رحمة الله اختصرت عذابنا. فإن السيد سفيدريجايلوف قد تراجع عن رأيه، وندم على ما بدر منه، وربما شعر بشفقة نحو دونيا، فقدم لامرأته مارفا بتروفنا الدليل القاطع والحجة الدامغة على براءة دونيا: كان هذا الدليل القاطع رسالة كانت دونيا، قبل أن تفاجئاهما

مارفا بتروفنا في الحديقة بفترة مديدة، قد اضطرت أن تكتبها وأن تعطيها للسيد سفيدريجايلوف لترفض جميع شروحه وعروضه، ولترفض جميع المواعيد السرية التي كان يضرع إليها أن تضربها لهُ. وقد بقيت هذه الرسالة بين يدي السيد سفيدريجايلوف بعد رحيل دونيا. وفي هذهِ الرسالة كانت دونيا تعيب عليه بلهجةٍ عميقة ثائرة عارمة ما يتصف بهِ سلوكهِ نحو مارفا بتروفنا من جَورٍ وظُلمٍ وعَسفٍ، وتُذَكِّرهُ بأنَّه زوج، وبأنَّه أبٌ لأسرةٍ، وتصور له في آخر الأمر مدى ما يشتمل عليه سلوكه من خسَّة إذ هو يعذِّبُ ويشقي فتاة صغيرة عزلاء تذوق ما يكفي من المعاناة. الخلاصة يا بني العزيز روديا، أن تلك الرسالة تبلغ من علو النبل وشدة التأثير أنني أجهشت بالبكاء والنحيب حين قرأتها، وما أزال حتى الآن لا أعيد قراءتها إلا وتترقرق في عيني الدموع. وجاءت شهادات الشغالات والشغالين تبرئ دونيا من كل ما يشين! والخدم كما يحدث أبداً في مثل هذه الحالات قد عرفوا من الأمر ورأوا من المشاهد أكثر كثيراً مما ظن السيد سفيدريجايلوف. ذُهلت مارفا بتروفنا أشد الذهول، بل "صعقت من جديد" كما اعترفت لنا هي نفسها بذلك. إنَّما لم يبق في نفسها أي شك في أن دونيتشكا بريئة كل البراءة، لذا بادرت منذ الغد، وكان يوم أحد، فذهبت رأساً إلى الكنيسة حيث جثت على ركبتيها باكيةً، وضرعت لدى السيدة العذراء أن تهب لها من القوة ما يكفيها لاحتمال هذا الإغواء الجديد، وما يمكِّنها من القيام بواجبها على خير وجه. ثم مضت قُدُماً من الكنيسة إلى منزلنا، دون أن تُعَرِّج على أحد، فقصَّت علينا كل شيء، وسكبت دموعاً حارة، وعانقت دونيا عامرة النفس بالندم، مبتهلةً إليها أن تغفر لها وتعفو عنها. ومن منزلنا ذهبت رأساً دون أن تخسر لحظة واحدة، إلى جميع بيوت المدينة، تسكبُ سيلاً عارماً من الدموع، وتكيل الثناء لابنتي، دونيا، وتشهد ببراءتها، وتمدح نبل عواطفها وتشيد بحسن سلوكها. وأرادت أن تفعل خيراً من ذلك أيضاً، فأطلعت كل الناس على الرسالة التي كتبتها دونيا

إلى السيد سفيدريجايلوف بخط يدها، حتى لقد قرأت عليهم تلك الرسالة بصوت عالٍ، بل وأذنت لهم بأن ينسخوها (وهذا أمر آخر يبدو لي فيه بعض الغلو). وقد اضطرت أن تقضي عدة أيام متتالية تزور جميع من عرفتهم من أبناء المدينة، لأن بعضهم شكوا من إهمالها زيارتهم، وساءهم أن تؤْثر عليهم غيرهم. على هذا المنوال تتالت زياراتها وتعاقبت، حتى صار الناس ينتظرونها في كل منزل، وحتى أصبح يعرف أن مارفا بتروفنا ستقرأ الرسالة يوم كذا وفي مكان كذا، فكان يحضر قراءة الرسالة في كل مرة حتى أولئك الذي سبق لهم أن سمعوها مراراً سواء في بيوتهم هم أم في بيوت أناس آخرين يعرفونهم. في رأيي أن ذلك كان شيئاً من المغالاة، بل كثيراً منها، ولكن هذا هو طبع مارفا بتروفنا. مهما يكن من أمر، فإن هذه الأخيرة ردت إلى دونيتشكا اعتبارها كاملاً، فإذا بعار هذه القضية يرتد إلى زوجها بخزي لا يمحى ولا يندثر، ويجعله المجرم الأول حتى أخذتني شفقة عليه. لقد أسرفوا في القسوة على ذلك المأفون المسكين. بعد ذلك أسرعت عائلات كثيرة تعرض على دونيا أن تعطي أولادها دروساً، ولكن دونيا رفضت جميع هذه المكرمات. وبوجه عام شرع جميع الناس يوَلونها احتراماً خاصاً على حين غرة. وقد سهل ذلك كله جداً حدوث ما لم يكن في الحسبان، والذي أسمح لنفسي أن أعتبره علة لتغير مصيرنا بمعنى الكلمة الواسع. اعلم يا بني العزيز روديا أن خطيباً تقدم لأختك دونيا، وأنَّها أعلنت لهُ موافقتها، وذلك ما أسارع فأنقله لك الآن. أغلب الظن أنك لن تؤاخذنا، لا أنا ولا أختك، على أن الأمر تم دون الحصول على موافقتك، فلسوف ترى بنفسك أن كان محالاً علينا أن ننتظر، وأن نرجئ اتخاذ القرار إلى حين وصول ردك إلينا. هذا عدا أنَّه ما كان لك أن تقدر، من بعد، أن تحكم في الأمر حكم العارف المطلع. وإليك تفصيل ما حدث: الرجل مستشار قضائي، اسمه بيوتر بتروفتش لوجين. وهو يمت بقربى بعيدة إلى مارفا بتروفنا التي شاركت في الأمر بشكل فعَّال. لقد بدأ الشاب بأن أظهر لمارفا

بتروفنا رغبته بالتعرف علينا. فاستقبلناه كما ينبغي أن يستقبل، فشرب عندنا القهوة، فما أن جاء الغد حتى بعث إلينا برسالة يعرض فيها طلبة بكياسة جمّة، ويلتمس رداً سريعاً قاطعاً. إنّه أحد رجال الأعمال، وهو مشغول جداً، ولمّا كان عليه أن يسافر إلى بطرسبورغ قريباً، فإن لكل دقيقة قيمة عنده. طبيعي أننا دهشنا في بادئ الأمر: لقد حدث ذلك كله بسرعة غير متوقعة، بطريقة لم تكن بالحسبان! بعد ذلك لبثنا معاً طوال النهار نفكر في الأمر ونزن في الأشياء. هو في مركز هام رفيع. يشغل وظيفتين في آن ويملك منذ الآن رأس مال له. الحق أنّه يبلغ الخامسة والأربعين من العمر، لكن مظهره لطيف، ومازال يرضي النساء. وهو عدا ذلك رجل رزين لائق جداً. كل ما هنالك أنّه متجهم المزاج قليلاً، متعالٍ بعض الشيء، لكن ربما كانت هذه نظرة أولية ساورتنا لما رأيناه، ولهذا أحذرك يا بني العزيز روديا من أن تحكم عليه بسرعة واندفاع حين ستلقاه في بطرسبرغ قريباً (على عادتك في سرعة الحكم وعنف السلوك) إذا أنت رأيت فيه للوهلة الأولى شيئاً ينفرك. أقول هذا من باب الاحتياط لكن مصادفة، رغم يقيني من أنّه سيترك لديك أجمل الأثر. أضف أن على المرء، إذا هو ودَّ أن يصل إلى معرفة فرد من الناس أياً كان، أن يسلك معه بكثير من التروي والتعقل والحكمة والحذر، وإلا فقد يقع الخطأ وقد ينحرف إلى التمييز، فيصعب عليه كثيراً بعد ذلك أن يصحح ذلك السلوك، ومهما يكن من الأمر فإن قرائن كثيرة تحمل على الاعتقاد أن بيوتر بتروفتش رجل خليق بالاحترام. لقد أعلن منذ أول زيارة أنّه امرؤ وضعي عملي، ولكنه في كثير من الأمور يساهم مع " أجيالنا الجديدة في آرائها " على حدِّ تعبيره، وأنَّه عدو لجميع ألوان النظرة المسبقة، ولقد قال أموراً كثيرة أخرى، فهو رجل لا يخلو من بعض الغرور وهو يحب أن ينصت الناس إلى كلامه وأن يسمعوا حديثه، ولكن ذلك ليس آفة كأداء. أنا لم أفهم من حديثه أشياء كثيرة بطبيعة الحال، ولكن دونيا شرحت لي أنّه على نقص ثقافته إنسان ذكي،

وهو طيب فيما يبدو. أنت تعرف طبيعة أختك، يا بني العزيز روديا. هي صبية ثابتة صلبة، عاقلة، صابرة، كريمة، رغم أن لها قلباً حاراً وشعوراً متقداً، وهذا أمرٌ استطعتُ أن أدركه فيها. طبعاً لا مجال للحديث عن حبٍّ حقيقي، من جانبه. ولكن دونيا، عدا أنَّها فتاة ذكية، هي في الوقت نفسه نبيلة كملاك. لا بد أن تلزم نفسها بإسعاد زوجها الذي لن يسعه إلا أن يسعدها هو أيضاً. فحول هذه النقطة الأخيرة ليس لدينا حتى الآن أي سبب جدي يدعو إلى الشك، رغم أن الأمر قد تمَّ بشيءٍ من السرعة، كما ينبغي أن نعترف بذلك. يضاف إلى هذا أن الرجل إنسان حَصيفُ الفكر، سديدُ الرأي، فلا رَيب في أنه سيرى بنفسه أن سعادته الزوجية نفسها ستكون مضمونةً جداً إذا اغتبطت دونيا به ومعه غبطة غامرة. أما عمَّا هنالك من شبح النفور في المزاج والعادات القديمة وحتى من بعض النزاعات في الآراء ( وهذا لا يمكن تحاشيه حتى في أكثر حالات الزواج توفيقاً) فدونيا كما قالت لي سوف تأخذ على كاهلها هذا الأمر. حيثُ أكدت أن لا داعي للقلق، وأنَّها تقدر أن تضطلع بأشياء كثيرة شرط أن تبقى علاقتهما على الدوام هنيئة مريئة عادلة قائمة على المساواة والعدل. يجب أن أقول لك إن الرجل بدا لي أنا أيضاً مسرفاً في الصراحة بعض الإسراف. ولكن ذلك قد يكون ناشئاً عن أنَّه شخصٌ صريح، بل إن الأمر كذلك حتماً. مثال: أنَّه في أثناء زيارته الثانية، بعد حصوله على الموافقة، قد أعلن عبر ذلك الحديث أنَّه حتى قبل أن يعرف دونيا كان قد قرر ألا يتزوج إلا فتاة شريفة لا تملك مهراً، فتاة عرفت تجربة الفقر وعانت حنظلة البؤس، لأن الزوج يجب أن لا يشعر بأن لزوجته عليه فضلاً، وإنما يجب أن تشعر المرأة أن زوجها هو المحسن إليها والراعي. يجب أن أورد هنا أنَّه قد عبَّر عن هذا تعبيرا أكثر رقة ووداداً، وأقرب إلى الهناءة والهيام من الكلمات التي كتبتها أنا الآن هنا، لأنني نسيت الألفاظ التي أستخدمها، وأصبحت لا أتذكر إلا الفكرة التي أفصح عنها. ثم أنَّه لم يكن هيأ أقواله وحَضَّرَ

عباراته، فلا شكَّ أن ذلك الكلام قد أفلت منه واستحوذ عليه الحديث. لذلك حاول بعدئذ أن يتدارك الأمر، وأن يلطف الأثر الذي في كلماته، ومع ذلك استثقلتُ كلامه قليلاً ثم فاتحت دونيا في هذا، فأجابتني دونيا، وفي نفسها شيء من الغضب والحزن، بأن " الأقوال لا تطابق الأفعال دائماً" ، وواضح أن كلام دونيا صادق. يجدر أن أدون هنا أن دونيا، قبل اتخاذ قرارها، لم يغمض لها جَفنٌ طوال الليل، وأنَّها حينها ظنت أنني غفوت، قد نهضت من فراشها وأخذت تمشي في الغرفة طولاً وعرضاً إلى أن بزغ الفجر، ثم ركعت على ركبتيها، ولبثت جاثية أمام الأيقونة تصلي صلاة مُسهَبة بكثير من المهابة والتأثر، حتى إذا طلع النهار أَنبأت أنَّها قد قررت.

سبق أن قُلت أن بيوتر بيتروفتش سيسافر الآن إلى بطرسبرغ. إن له هناك أعمالاً كبيرة: أنَّه يرغب في أن يفتح مكتباً للمحاماة. هو يُعنى بذلك النوع من الشؤون من زمن بعيد. وقد انتصر في دعوى هامة في الآونة الأخيرة. ويجب أن يسافر إلى بطرسبرغ حتماً لداع آخر هو أنَّه سيترافع هنالك أمام السينات في قضية خطرة. وهكذا ترى يا بني العزيز روديا، أنَّه سيكون بوسعه أن يفيدك كثيراً. ولقد رأينا أنا ودونيا أنك ستستطيع منذ اليوم أن تبدأ مهنتك وأن تُعِدَّ مستقبلك مضموناً نهائياً. آه! ما أجمل أن يتحقق هذا! سيكون علينا عندئذ أن نحسب الأمر أثراً من آثار نعمة اللّه علينا. إن دونيا أصبحت لا تفكر إلا بهذا. ولقد جازفنا أنا ودونيا، فأسمعنا بيوتر بتروفتش كلمة حول هذا الموضوع، فتكلم عندئذ بشيء من التروي والتعقل فأعلن أنَّه، بطبيعة الحال، ما دام لا يستطيع أن يستغني عن معاون له في عمله، ما يقال له " سكرتير"، سيفضل أن يدفع أجوراً لأحد أعضاء الأسرة، على أن يدفع مرتباً لشخص غريب، شريطة أن يبرهن القريب على أنَّه قادر على القيام بهذه الوظيفة وعلى أداء هذه المهمة (كأنك أنت عاجز عن ذلك!). ولكنه لم يلبث أن ساوره شك أفصح عنه فقال أنَّه يخشى أن لا تدع لك دراستك في الجامعة متسعاً من الوقت للعمل معه. وقد

وقف حديثنا عند هذا الحد ولكن دونيا لا يشغل بالها الآن أمر غير هذا، وهي منذ عدة أيام فريسة حُمَّى حقيقية، حتى لقد بنت لمستقبلك في خيالها مشروعاً ضخماً: إنها تُقدِّر أنك تستطيع في المستقبل أن تصبح مساعداً، بل وشريكاً لبيوتر بتروفتش في أعمال المرافعات التي يقوم بها، لا سيما وأنك تدرس القانون. أما أنا، يا روديا، فإنني متفقة معها، يا روديا، كلياً، أشاركها آراءها وأشاطرها آمالها، وأرى أن ذلك ليس محالاً أبداً. ورغم ما يبرز الآن على بتروفتش من تلكؤ وهو تلكؤ قد يُفسَرَ جيداً (لأنَّه لا يعرفك حتى الآن)، فإن دونيا مقتنعة جزماً أنَّها ستحقق مراميها بفضل تأثيرها الطيب عند زوجها المقبل. ولقد تجنبنا حتماً أن نكشف أمام بيوتر، ولو بكلمة فريدة، عن أحلامنا البعيدة، بخاصة الحلم البعيد بأن نراك شريكاً له في المستقبل. هو رجل عملي، ربما يسيء النظرة إلى هذا الأمر، لأنَّه لا يراه سوى أضغاث. وأيضاً لم نُدلِ، أنا ودونيا، بأية دلالة إلى أن يساعدنا في إرسال ما أنت بحاجة له من نقود خلال دراستك. لم نتكلم بهذا، بداية لأنَّه سيكون حتماً، ولأن بيوتر سيعرض عليَّك ما نحن فيه من دون قول زائد أو ناقص (لا ينقصنا إلا أن يمنع دونيا من هذا الواجب!) خاصة وأنك أهل لأنّ تكون ساعده الأقوى في المكتب، وأن الأمر لن يكون إذاً أمرُ نجدة أو هبة بل مساهمة تقدمها له بجدارتك وجهدك. على هذا الشكل تريد دونيتشكا أن ترتب الأمور. وأنا متفقة معها على كل التفاصيل. ثانياً: لم نتكلم بهذا لأنني حرصت خاصة على أن أضعك في موقف المساواة عند لقائكما القادم. وحينما حدثته دونيا عنك بحماسة أجاب إن على المرء إذا هو أراد أن يحكم على رجل ما أن يراه ويلتقي به عن كثب، وقال إنَّه يحتفظ لنفسه بحق تكوين رأيَّ حولك بعد التعرف إليك. هل تعرف يا روديا، يا كنزي ما هو شعوري الآن؟ يخيل إليَّ، استناداً إلى بعض الخواطر التي تراودني (وهي لا تخص بيوتر بتروفتش، ولا تتخطى أهواء سيدة مسنة)، يخيل أنني سوف أحسن صنعاً إذا لم أعش معهما

بعد القران، بل أنفصل عنهما مثلما أعيش الآن. إنني واثقة ثقة مطلقة بأنَّه يملك من الكرم واللطف ما يكفي لأن يدعوني من تلقاء خاطره، وأن يعرض عليَّ أن لا أنفصل عن ابنتي. وإذا كان سكت عن هذه الزاوية حتى الآن، فلأنَّه أمر مفروغ منه. ولكني سأعتذر. لقد أمكنني أن ألاحظ غير مرة خلال حياتي أن الأصهار لا يفضلون حمواتهم كثيراً. وأنا لا أرغب بإزعاج أي إنسان، بل أود فضلاً عن هذا أن أبقى حُرةَ ما ملكت ولو بحتة خبز، وما بقي لي أولاد مثلك وأختك. سأقيم غير بعيد عنكما إن أمكن. ها أنا ذا احتفظت حتى نهاية رسالتي بأجمل شيء يمكن أن أزفه إليك يا روديا. اعلم يا بني الحبيب أننا ربما اجتمع شملنا كلنا ثانية في القريب، وأننا قد نتعانق نحن الثلاثة بعد هذا الفراق الذي دام قرابة ثلاثة أعوام. نعم، فقد تأكد أننا سنسافر أنا ودونيا إلى بطرسبورغ، دون تحديد اليوم، إنما قريباً، ربما خلال أسبوع. إن كل شيء مرهون بما يتيسر لدى بيوتر بتروفتش، وسوف يبلغنا ما يعزم عليه. إنَّه حريص أن يتم الفرح في القريب العاجل ويتمنى لويتم الإحتفال مباشرة بعد انتهاء الصيام إذا أُمكن، أو بعد عيد رفع السيدة العذراء إذا لم يتسع الوقت. آه! ما أعظم البهجة التي ستشملني حين سآخذك إلى صدري، إلى قلبي! إن دونيا تضطرب كل الاضطراب حين تتصور أنَّها ستسعد بلقائك. حتى لقد قالت مرة من باب المزاح أنَّها على استعداد لأن تتزوج بيوتر بتروفتش لا لشيء إلا هذا! أنَّها لملاك، ملاكٌ فعلاً! لن تضيف دونيا شيئاً، ترجوني فقط أن أقول إن هناك أموراً كثيراً تريد أن تتداولها معك، أشياء تبلغ من الكثرة أنَّها لا تقدر أن تعزم أمرها على تناول القلم، لأن المرء لا يتسنى له أن يقول الكثير عبر أسطر، فلو حاول لما زاد على أن يثير أعصابه. وهي تكلفني كذلك بأن أعانقك عناقاً من العمق وقبلات لا يحصيها عدد. ولكن رغم أننا سنلتقي قريباً فإن ذلك لن يمنعني من أن أرسل لك بعض النقود في الأيام الدانية. سأرسل حسب قدرتي. فالآن وقد علم الجميع أن دونيتشكا ستتزوج من بيوتر

بتروفـتش قريبـاً صـار يتسـنى لـي فجـأة أن أسـتدين مبلغـاً أكـبر ممـا كنـت أسـتطيعه قبـل ذلـك، ولقـد علمـت يقينـاً أن آفاناسـي ايفـانوفتش سـوف يثـق بـي ليقرضني سلفة على مرتبي سلفة تبلغ خمسة وسبعين روبلاً، فأستطيع أن أرسل منها خمسة وعشـرين وربمـا ثلاثـين. كـان بإمكـاني أن أبعـث أكـثر لـولا أنـني أخشى نفقـات الطريـق بعـض الشـيء. فـرغم أن بيـوتر بتروفـتش رجـل طيـب وأنَّـه سيتحمل جزءاً من المصـروف في أثنـاء السـفر إلى العاصـمة، أي رغـم أنَّـه عـرض عليَّنا أن يتولى الإنفـاق علـى شـحن أمتعتنـا وصـندوقنا الـكبير (بفضـل مالـه مـن علاقات) فعليَّنا أن نحسب حساب وصولنا إلى بطرسبورغ، فالمرء لا يسـتطيع أن يجيء إلى هذه المدينة خـالي الجيـب، بخاصـة في الأيـام الأولى. علـى كـل حـال، لقد أجرينا أنا ودونيـا حسـابات دقيقـة، وظهـر لنـا أن رحلتنـا لـن تكلـف نفقـات باهظة. إن المسافة بين بلدتنا وبين محطة السكة الحديدية لا تزيـد علـى تسـعين فرسخاً، وقد اتفقنا منذ الآن مع فلاح نعرفه على أن نقطع هذه المسـافة بعربتـه. ومن هناك سنسافر سفراً مريحاً جداً في الدرجة الثالثة من القطار. هـكذا تـرى أنَّـي قـد أسـتطيع أن أرسـل إليـك لا خمسـة وعشـرين روبـلاً فحسـب بـل ثلاثـين... ولكـن حسـبي هـذا الآن! لقـد سـودت ورقـتين كـبيرتين وجهـاً لوجـه، ولم يبـق فيهما متسع لمزيد من الكلام. ثم إنك قد عرفـت الآن قصـتنا كلـها... الله يعلـم كمـا جـرى لنـا مـن أحـداث! والآن يـا روديـا، يـا أَلقـي... أُقبلـكَ بانتظـار لقائنـا القريب، وأبعث إليك ببركات الأم! أحبب أختك دونيا، يا روديا... أحببها كما تحبك... وأعلم يقيناً أنَّها تحبك حباً لا حدود له، أنَّها تحبـك أكـثر كـثيراً ممـا تحب نفسها! هي ملاك يا روديا!... وأنت كل شيء عندنا يا روديـا.... أنـت أملنـا كله، وأنت مستقبلنا كلـه! حسـبنا أن تبـتهج أنـت لنبـتهج نحـن! هـل تصـلي لله أبداً كما كنت تصلي له يا روديا؟ أمـا زلـت تـؤمن برحمـة خالقنـا وفادينـا؟ أنـا أخشـى في سـويداء قلـبي أن تكـون الزندقـة الرائجـة في هـذا الزمـان قـد سـرت عدواها إليك! فإذا كـان الأمر كـذلك، فأنـا أصـلي لأجلـك، واسـتغفره لأجلـك.

تذكر يا بني الحبيب كيف كنت في طفولتك في أيام أبيك، تذكر كيف كنت تتمتم صلواتك قاعداً على ركبتي، وتذكر كم كنا سعداء في تلك الأيام!... استودعك الله يا روديا، بل إلى اللقاء! أضمك بكل قوة ذراعي، أعانقك، وأطبع على وجهك قبلات لا حصر لها...

لك حتى الممات

"بولخيريا راسكولينكوفا"

مذ أن بدأ راسكولنيكوف تلاوة الرسالة، لم تنقطع الدموع عن السيلان على خديه، ولكنه حين فرغ من قراءتها ارتعش وجهه الذي اصفر فجأة، وطافت به ابتسامة أليمة حانقة خبيثة شنجت شفتيه. وتهاوى برأسه على وسادته الهزيلة القذرة، وراح يفكر.... راح يفكر ملياً..... كان قلبه يخفق خفقاناً قوياً، وكانت أفكارهُ مضطربة أشد الاضطراب وأحس أخيراً باختناق في هذه الحجرة الصفراء التي تشبه أن تكون خزانة أو صندوقاً. إن نظراته وأفكاره تحتاج إلى صفاء واسع. فتناول قبعته وخرج.... خرج دون أن يخشى في هذه المرة أن يلتقي بأحد على السُّلَّم. أصبح لا يفكر في هذا الأمر. ومضى في اتجاه جزيرة فاسيلفسكي سالكاً شارع (فـ....) كان أمراً مُلحَّاً مستعجلاً كان يناديه إلى هناك. ولكنَّهُ كان، على عادته، يسير دون أن يلاحظ أي شيء في أثناء الطريق، وكان يدمدم بكلام بينه وبين نفسه، بل كان يتكلَّم أيضاً بصوتٍ عالٍ، فيثير بذلك دهشة المارَّة، حتى حسبه كثيرٌ من الناس سكراناً.

# الفصل الرابع

أرهقته رسالة والدته أيَّ إرهاق. لكنَّه فيما يتعلق بالنقطة الجوهرية لم يباغته أي ريبٍ لحظةً واحدةً، حتى عند الإطلاع الأول. كان قد اتخذ في أساس القضية قراراً لا عودة عنه " لن يتم هذا الزواج ماحييت. فليرحل السيد لوجين إلى إبليس! "

فكان يبرطم مع نفسه وعلى ثغره ابتسامة هازئة ويتلذذ منذ الآن بخبث و يمج سيف قراره: الأمر واضح. لا يا حنون، لا لك ولابنتك، لن تداهماني بخديعة... وتطلب العذر عن عدم استشارتي وأنَّها رتبت الأمر دون الأصول! ذلك عادي! هما تصورتا غياب كل معبر إلى شق ما تم. طيب! سوف نرى نفاذ خطتكما من عدمها! يا لها من حجة مهمة تتذرعان بها: " إنَّه رجل أعمال بيوتر هذا. فليس له إلا أن يعتزم الزواج السريع، حتى كأنَّه يتمنى أن تتم العملية في عربة تجرها خيول مطهمة إن لم يكن فوق قضبان الحديد ! " لا، لا، يادوينتشكا... و أنا أعرف مدى تراكم الأمور التي سنتداولها، و أعلم أيضاً ما جال في ذهنك أثناء الليل و أنت تذرعين الحجرة ذهاباً و عودة، وماذا طلبت من العذراء، " عذراء قازان " التي ركزت لها أيقونة في غرفة النوم. ما أشدَّ وعورة طريق الجلجلة... هم... هكذا إذاً... كل أمر قد تقرر نهائياً... تبغين الإقتران برجل أعمال، رجل وضيع، يتمتع بمال ملك يمينه (فهذا أكثر مهابة و تقديراً ) يغطي عملين في آن و يشارك شبيبتنا أفكارها ( كما قالت الأم ) رجلاً هو " كما يظهر طيب " (هذه ملاحظة دونيا ). ما أفصح هذه العبارة: فيما يبدو! ستتزوج دونيتشكا هذه رجل أعمال تحتضنه الطيبة كما رأوا ! رائع ! بديع! مع أن ما يهمني أن أعرف لماذا حدثتني أمي في كتابها عن " الشبيبة الصاعدة"؟ ترى فعلت هذا لكي تصف طبع الرجل أم لتهيئني لكي أُكوِّنَ حكماً حسناً عن السيد لوجين؟ آه... سحقاً لك أيها الماكر! وأن أطَّلِعُ

حقاً على هم ثانٍ.

ما مدى صراحتهما مع بعضهما في طالع النهار وفي أفول شمسه؟ هل أتوا بكل الكلام، أم أن كُلاً منهما وعت ما يدور في نفس الأخرى فلا حاجة للتبسط و التطويل اللذان لا داعي لهما؟ لعلَّ الأمر كان كذلك. في أغلبه على الأرجح... هذا ما يدرك حقاً من الرسالة: فالرجل ظهر لأمي عميق الحسم بعض الشيء، ولا منأى من أن تكون أمي ببساطتها وسذاجتها قد همست في إذاً دونيا ملاحظتها إلماماً و تلميحاً، و لا بد أن تكون الأخرى قد اغتاظت فأجابت " غاضبة حزينة . هذا طبيعي! من لا يغضب عندما يكون الأمر جلياً يفقأ الباصرة و البصيرة ، وحين يكون الأمر قد دقق فلا داعي إلى الكلام، فما موجب الأخذ و العطاء؟ ولم تكتب لي أمي: " أحبب دونيا يا روديا. إنها تحبك أكثر بكثيرٍ من نفسها؟ " أليس مرجع هذا إلى تيقُظ الضمير، الذي يعكر صفوها ، لأنَّها ضحت بابنتها في سبيل ابنها؟ " أنت أملنا كلهُ. أنت عندنا كل شيء " آه يا أُماه – إن غضبها ما ينفك يشتد ويقوى، فلو ظهر له لوجين في تلك اللحظة ، إذن لقتله في بليغ الظن!

واصل يقول متابعاً إعصار أفكاره العاصفة في رأسه: هم... هذا حق ... هذا حق... من أراد أن يعرف أحداً كان عليه أن يتصرف إزاءه تصرفاً مضمخاً بالتروي والتعقل والحكمة والحذر". ولكن السيد لوجين واضح شفاف. هو قبل أي شيء "رجل أعمال" وهو "طيب فيما يبدو". ألا نرى أنَّه يتولى شحن أمتعتهما وصندوقهما الكبير على نفقته؟ فكيف لا يكون طيباً؟ والخطيبة والأم كلتاهما تستأجران فلاحاً يملك عربة ذات غطاء من قماش خشن (أنا أعرف ما هذا ، فقد بلوته ، وقطعت هذه المسافة بتلك الطريقة). ما الضير؟ إن المسافة لا تزيد على 90 فرسخاً ، ومن هناك نسافر سفراً مريحاً جداً في الدرجة الثالثة من القطار". ألف فرسخ في الدرجة الثالثة (معقول جداً: إن كل إنسان ينفق ما تسمح له موارده بإنفاقه! ولكن ما رأيك أنت؟ الفتاة خطيبتك...

ولابد أنك تعلم أن الأم ستقترض لك بسلفة على معاشها لتستطيع سد نفقات الرحلة! عقلك عقل تجاري محض طبعاً... أنت تنظر إلى مشروع تجاري يشترك فيه طرفان يقتسمان أرباحه نصيبين متساويين، فلا مهرب أن يسهم كل منهما في نفقاته بنصيبه كاملاً. بشأن حالك يقول ما يقوله المثل السائر "الخبز والملح لك ولي، أما التبغ فلكل تبغه الخاصُّ به. ولكن رجل الأعمال قد غشهما في هذه النقطة أيضاً: نفقات شحن الأمتعة أقل من نفقات السفر، وقد يقدر رجل الأعمال هذا أن يشحن الأمتعة بالمجان. أهما لا تريان هذا أم هما لا تريدان أن ترياه؟ والعجيب أنَّهما راضيتان، راضيتان! وما هذه إلا الزهور، أما الثمار فستأتي بعد ذلك! وأخطر من هذا وذاك ليس هو البخل، ليس هو الشح، وإنما هو هذا الطابع العام الذي يمهر العمل كله مؤذنا بما ستصير عليه الأحوال بعد الزواج... وأمي: ما بالها تودُّ ارتكاب حماقات؟ بماذا ستصل إلى بطرسبورغ؟ بثلاثة روبلات في جيبها، أو بورقتين صغيرتين، كما قالت تلك العجوز المرابية. هم... وعلى أي حال تعود من أجل أن تعيش بعد ذلك في بطرسبورغ؟ بناء على بعض القرائن استطاعت مع ذلك أن تدرك أنَّه يستحيل عليها أن تعيش مع دونيا حتى أثناء الآونة الأولى من الزواج. لا شك أن الرجل العزيز قد كشف القناع عن نفسه بطريقة أو بأُخرى، لا ريب أن هذا قد أفلت من لسانه، رغم استبعاد أمي هذا الافتراض بكلتا يديها قائلة: "أنا سأرفض". فعلى أي شيء تعوِّلُ إذاً؟ أهي تتكل على معاشها الذي يبلغ 120 روبلاً!! سيقتطع منها الدين المقترض من أفناسي ايفانوفتش؟ إنها تقضي الوقت كله في حياكة مناديل شتوية وتطريز أكمام، فترهق بذلك عينيها المتعبتين. ولكن حياكة المناديل وغيرها لا يضيفان إلى 120 روبلاً في السنة كلها سوى عشرين أخرى. أنا أعلم هذا! هي إذاً تعتمد رغم كل شيء على أريحية السيد لوجين وكرمه ونبل نفسه:

سيعرض عليها من تلقاء نفسه أن يساعدني، وسيلح... لقد أتاه ظنها فلن تنال ما تتمناه! هكذا هي حال نفوس شيللر[1] الطيبة أبداً: تظل حتى آخر لحظة تزين الناس بريش الطاؤوس، تظل حتى آخر لحظة تفترض الخير لا الشر، ورغم تصورها وجود الشر فإنها لا يمكن أن تعترف بذلك لنفسها بحال من الأحوال: إن تصور هذا وحده يصدمها ويهزها هزاً قوياً. فهي بيديها تحجب وجهها حتى لا ترى الحقيقة، إلى أن يأتي الإنسان الذين زينته بريش ملون من خيالها، فيصفع وجهها، ويدمي أنفها بيده نفسها. ليتني أعرف هل يملك السيد لوجين أوسمة؟ إنني أراهن على أنَّه يملك وسام القديسة آنا، وأنَّه يزين به سترته حين يذهب إلى حفلة عشاء يقيمها أحد من المقاولين أو التجار، ولن ينسى أن يفعل ذلك أيضاً يوم زفافه! على كل حال... فليأخذه الشيطان! .... والله.... أنني لأسامح أمي، فهي كما هي، كان الله في عونها! ولكن ماذا أقول عن دونيا؟ إنني أعرفك يا عزيزتي دونيتشكا! كنت قد بلغت العشرين من عمرك حين التقينا آخر مرة. وقد تفهمت طبعك ووعيت مناقبك مذ تلك اللحظة. أمي تقول "إن دونيتشكا تقدر على احتمال أشياء جمة"... نعم... هذا أمر أعرفه، منذ سنين أعرفه... وأنا منذ عامين وستة أشهر، لا أفكر إلا بهذا، في هذا وحده... وهو أن دونيتشكا تستطيع النهوض بأشياء تقاس بمناقبيتها العالية لئن اطلعت بمطالب سفيدر يجايلوف الفظة، وأن تحتمل كل الأحمال، بل الأحمال المنبعثة من سلوكه المشين، فهذا دليل على أنَّها كفء لاحتمال أصعب شروط الحياة... وها هما الآن، هي وأمي، قد تخيلتا أنه بالإمكان احتمال رجل مثل السيد لوجين، لا يتحرج من شرح مزايا زواج الرجل بامرأة فقيرة لتشعر بفضله عليها، ولا يتحرج من شرح هذه النظرية لدى أول لقاء! طيب.... لنسلم أن ذلك قد "أفلت" من لسانه على غير إرادة منه، رغم أنَّه رجل وضعي عملي (فمن

1- هو الكاتب والمسرحي الشهير الألماني العظيم يوهان فريديخ (1759- 1805) الذي تغنى بالحرية وأشاد بالمشاعر النبيلة.

الجائز أن شيئاً لم يفلت من لسانه إفلاتاً وإنما هو أراد عامداً أن يوضح الأمور دون أن يضيع وقتاً).

ولكن ماذا أقول في دونيا؟ ماذا أقول في أختي، شقيقتي؟ لا ريب أنَّها كشفت الرجل وأزاحت القناع عن وجهه وعرفت حقيقته، ثم تقبل هي أن تعيش معه! أنَّها تفضل أن تأكل خبزاً جافراً، وأن لا تشرب إلا ماء، على أن تبيع روحها!... أنَّها لا يمكن في سبيل الحصول على الرخاء أن تفقد حريتها الأخلاقية! أنَّها تأبى أن تتنازل عن هذه الحرية في سبيل دوقيتي شفلفسيخ وهولشتاين، فكيف تتخلى عنها كرمى للسيد لوجين؟... لا! إن دونيا التي أعرفها لم تكن هكذا... بل من المؤكد أن طبعها لم يتغير حتى الآن.... فماذا أقول؟ صحيح أنَّه أمرٌ شاقٌ عليها أن تحتمل أمثال آل سفيدريجايلوف، وأن تظل عمرها تمضي من صقع إلى آخر تعمل مربية تجني مائتي روبل، ولكني أعلم أن أختي تفضل أن تتردى معاملتها كما يساء إلى مزارع زنجي أو ألماني من مقاطعات البلطيق معاملة رجل لا تفي[1] على أن تدنس روحها وتفسد حسها الأخلاقي بالارتباط إلى الأبد ومن أجل مصلحتها الشخصية فقط برجل لا تحبه ولا يجمعها إليه أي جامع! ولابد من أن ترفض أن تصبح خليلةً شرعية للسيد "لوجين" ولو كان هذا ذهباً أو ماساً كله! فلماذا تقبل الزواج الآن؟ ما السبب؟ ما مفتاح السر المخبأ؟ الأمر واضح! لو كانت تنشد مصلحتها هي ورخاءها هي، لرفضت أن تبيع نفسها ولو لتجنب الموت. أما في سبيل شخص آخر فإنها على استعداد لأن تبيع ذاتها! نعم إنَّها في سبيل شخص محبوب، شخص معبود، مستعدة لأن تبيع نفسها! ذلك هو مفتاح اللغز، أنَّها في سبيل أخيها وأمها قادرة على بيع أغلى ما تملك! آه... نعم إنَّنا نستطيع عند اللزوم أن نخنق حتى

1 - كانت الصحف الروسية تتحدث كثيرا آنذاك عن سوء معاملة الزنوج في أمريكا بسبب حرب الانفصال 1861- 1865، وكان معروفا أن البارونات الألمان في مقاطعات البلطيق يسومون الليتوانيين سوء العذاب [المترجم]

إحساسنا الأخلاقي! إنَّنا نستطيع عند الضرورة أن نحمل إلى السوق كل شيء فنبيعه فيها: الحرية، الطمأنينة وحتى راحة الضمير! ألا فلتتحطم حياتنا إذا كان في ذلك سعادة لأولئك الذين نحبهم! وأكثر من ذلك أنَّنا نُلَفِّقُ لأنفُسنا عندئذ سفسطة خاصة نتعلمها من اليسوعيين فنريح ضمائرنا إلى حين، مسوغين أعمالنا قائلين لأنفسناً: إن ما فعلناه هو ما كان ينبغي لنا أن نفعله ما دمنا نعمل في سبيل هدف نبيل وغاية شريفة! نحن جميعاً هكذا. كل شيء واضح الآن وضوح الصباح، لا ريب في أن روديون روما نوفتش راسكولنيكوف، ولا أحد سواه، قد احتل المقام الأول من الاعتبار في هذه القصة، كيف لا؟ إن من الواجب أن نعمل لتوفير السعادة لهُ، وأن نعيله ما دام في الجامعة وأن نجعله في المستقبل شريكاً لرجل من رجال الأعمال، أي أن نؤمِّن مصيره، فيغنى ويصبح محترماً مهيباً لا بل يصل في أواخر أيامه إلى المجد. والأمر؟ ما قولنا في الأمر؟ ولكن الأمر هنا هو أمر ولدها الأول، أمر ابنها روديون، أمر ابنها الغالي روديا! فكيف لا تضحي في سبيل مثل هذا الولد الأول بمثل هذه البنت؟ يا لظلمك أيتها القلوب العزيزة! أتجهلين إذاً ان المرء قد تدفعه نية كهذه ليشاطر سونيا مصيرها؟ نعم سونيا، سونيتشكا مارميلادوفا، سونيتشكا الخالدة خلود العالم! ولكن هل تصورتما كلتاكما مدى هذه التضحية؟ هل هذه التضحية هي حقاً ما تفكران به؟ هل تملكان القدرة على القيام بهذه التضحية؟ وهل هذه التضحية مفيدة فعلاً؟ وهل هي معقولة؟ هل تعلمين يا دونيتشكا أن مصير سونيا ليس أفظعَ من مصير امرأةٍ قضي عليها أن تعيش مع السيد لوجين؟ إن أمي تقول "لا مجال للكلام عن حبٍّ حقيقي" ولكن ما عسى أن يحدث حتى يصرف النظر عن قضية الحب هذه كلها، إذا لم يكن هنالك أيضاً شيء من الإحترام والإعتبار، بل كان هناك منذ الآن نفور واحتقار واشمئزاز؟ ما عسى يحدث عند ذلك سيكون عندئذ مرة أخرى... "مراعاة النظافة". أليس الأمر كذلك؟

هل تفهمان حق الفهم ماذا تعنيه هذه النظافة؟ هل تدركان أن هذه النظافة لا تختلف عن نظافة سونيتشكا، بل من الممكن أن تكون أحقر منها وأدنى وأسفل، لأنك يا دونيتشكا تستهدفين مزيداً من الرخاء، أما هنالك فالأمر لا يزيد على الرغبة في تحاشي الموت جوعاً. "إنها تكلف ثمناً باهظاً، باهظاً جداً يا دونيتشكا، تلك النظافة"! وماذا إذا أصبح الحِمُل في المستقبل أثقل من أن تطيقيه، فاستبدت بك الندامة؟ ما أشد ما ستشعرين به عندئذ من حزن وأذى، وما أكثر ما سيلاحق ضميرك عندئذٍ من لعن، وما أكثر ما ستذرفين عندئذ من دموع تخفيها عن أعين الناس، لأنك لست امرأة مثل مارفا بتروفنا على كل حال؟ وما عسى تصير إليه أمنا حينذاك؟ إنها منذ الآن قلقة معذبة، فكيف تكون حالها في المستقبل حين ترى كل شيء رؤية واضحة؟ وأنا؟... ما الذي تظنينه في أنا إذاً؟ إنني لا أُريد هذه التضحية يا دونيتشكا! أنني راغب عنها يا أماه! لا، لن يتم هذا الأمر ما حييت، لن يتم، لن يتم! أنا أرفضه!"

هنا عاد راسكولنيكوف إلى رشده على حين غرة، توقف عن المشي، ثم واصل يخاطب نفسه:

"لن يتم هذا الزواج؟ ولكن ما عساك تفعل حتى تحول دون وقوعه؟ أتمنعها؟ ولكن بأي حق تمنعها؟ أن تقف عليهما حياتك كلها ومستقبلك كله متى أنَّهيت دراستك ووجدت عملاً؟ أغنية معروفة!... ذلك كله هو المستقبل، فماذا عن الحاضر؟ يجب عليَّك إذاً أن تعمل شيئاً منذ الآن، هل تفهم؟ فماذا أنت فاعل الآن؟ إنك تعيش عليهما عالة، والمال الذي ينفقانه عليَّك إنما تقترضانه سلفة على معاش التقاعد وعلى أجورٍ من أمثال السيد سفيدريجايلوف! وكيف عساك تحميهما من أمثال سفيدريجايلوف وأفناس فاخروشين؟ أنت مليونير المستقبل، أنت يا إله الأولمب الذي يتحكم بمصيرهما، أبعد عشر سنين تفعل لهما شيئاً؟ ولكنَّ أُمَّك ستكون بعد عشر سنوات قد فقدت بصرها من فرط انكبابها على نسيج المناديل، وربما من

فرط ذرفها الدموع، وسيكون تكرر الصيام عن الطعام، والحرمان من الغذاء قد انتصر عليها، فهدم جسمها!... أما أختك... فهيا تخيل قليلاً ما تصير إليه بعد عشر سنين، هلا تخيلت قليلاً ما ستؤول إليه حالها بعد عشر سنين! هل قدرت؟ هكذا بهذه الأسئلة، كان راسكولنيكوف يعذب نفسه، فكان التسعر الذي كان يشعر به يستحيل إلى صنف من راحةٍ وتلذذ. مع أن هذه الاستفهامات لا تلبس رداء غير متوقع، جديدة عليه، بل كانت تقضُّ مضجعه، ويعاني من أصواتها منذ زمن غير قصير. نضج هذا القلق في الآونة الأخيرة، وتراكم فإذا به يجيء بصورة سؤال رهيب، سؤال وحشي، يفتت قلبه ويشتت تأملاته. كان ينشب في حناياه ويتراكم في العمق. وراح يطلب جواباً لا سبيل للهرب منه. وها هي رسالة الوالدة تنقضُّ عليه بغتة كما تنقضُّ الصاعقة. أصبح واضحاً أن الواجب الذي يضطلع به الآن ليس أن يقلق وأن يتألم قاعداً لا يعمل، معتقداً أن المسألة اصطدمت بالجدار، فعليه الآن أن ينهض بأي مهمة وبأقصى سرعة، بل وينبغي له أن يتحرك فوراً. إن من واجبه أن يشرع بقرارٍ مهما كلف، أيا كان القرار، أو أن...

ثم هتف فجأة بأعلى صوته وقد خرج عن طوره:

"... أو أن أرحل عن هذه الدنيا النكد، فأقبل مصيري طائعاً إلى الأبد، وأخنق في نفسي كلَّ شيء، وأتنازل عن حقي في أن أعمل، وأن أعيش، وأن أحب!"

وتذكر السؤال الذي ألقاه عليه بالأمس مارميلادوف: "هل تدرك، يا سيدي الكريم، ما معنى أن لا يكون للإنسان مكان يؤوب إليه؟ ذلك أن لا بدَّ لكل منا من أن يعثر على حيز يأويه..."

وارتعش راسكولنيكوف فجأة. وافته فكرة البارحة التي ومضت ثانيةً. لكنه ارتعش، لم يرتعش لأن هذه الفكرة انطلقت من جديد إذ كان يعلم، كان يحدس أن هذه الفكرة ليست هي الآن ما كانت بالأمس. كان الفرق

بينهما أنَّها لم تكن منذ شهر، ولا في البارحة، إلا حلماً؛ أما الآن لا تأتيه في صورة حلم، بل هي بصورة جديدة، في صورة رهيبة، لا عهد له بها من قبل... أدرك هذا بغتةً... فأخذ الدم يتدفق إلى جبهته، وأسوَّدَ كل شيء في عينيه، ألقى على المحيط نظرة سريعة. كان يبحث عن شيء ما. كان يتمنى أن يقعد، فراح يسعى إلى موطئ قدم. هو الآن في شارع (كـ....) وعلى مسافة مئة خطوة في الأمام ثمة حافة. اتجه راسكولنيكوف إليها بأسرع ما يقدر، غير أن حادثاً صغيراً وقع له في الطريق، شدَّ انتباهه كُلَّهُ خلال بضعة دقائق.

لمح، وهو يبحث بنظرة عن مستراحه، طرف امرأة كانت تسير أمامه على عشرين خطوة تقريباً، بدايةً لم يولها اهتماماً، كما لم ينتبه إلى كل شيء رآه حتى الآن. اتفق له، مراراً أن رجع إلى منزله دون يتذكر السبيل الذي اجتازه. تلك عادةً ترسخت عنده. لكن المرأة التي أمامه الآن برزت شيئاً من الغرابة والشذوذ ومن القدرة على لفت النظر وخطف البصر، تركز انتباهه عليها شيئاً بعد شيء، رغم إرادته وعلى ما يشبه المقت في أول الأمر، ثم بقوة راحت تربو. واستبدت به رغبة مفاجئة في أن يعرف ما هو الشيء الذي يحيط بهذه المرأة، ويبلغ هذا المبلغ كله من الغرابة. وسرعان ما أدرك أنَّها بالتأكيد فتاة في مقتبل العمر. كانت، رغم الحر الكاوي، تسير مكشوفة الرأس بلا مظلة ولا قفَّازين، وتأرجح يديها بحركاتٍ تثير الضحك. وكانت ترتدي ثوباً صغيراً من حرير خفيف، لا بحيث يدعو إلى التساؤل، من دون إزار، وقد نتأ من الخلف - إلى الخصر - فتمزق جزء كبير منه وتهدل. وكان منديل يتطاير حول عنقها لُفَّ مقلوباً. وكانت الفتاة، إلى هذا، تمشي مشية مضطربة، تتعثر فتترنح يميناً ويساراً. إن هذا اللقاء أثار كل اهتمام راسكولنيكوف آخر الأمر. وقد أدركها لحظة اقترابها من الدفة. لكنَّها ما أن وصلت إليها حتى تهالكت تقعد في أحد جهتيها، وتقلب رأسها إلى وراء فتسنده إلى ظهرها، وتغمض عينيها وقد ظهر عليها أنَّها محطمة من النصب. فلما تأملها لم يلبث أن

لاحظ أنَّها ثملة تَعْتعها السكر. وكان ظهورها هكذا يبلغ من الغرابة أن تساءل راسكولنيكوف أتصدقه عيناه؟ كان أمامه وجه بائس في ميعة الصبا، وجه لا يزيد عمره على ستة عشر عاماً، وربما لا يزيد عن عقد ونصف، دقيق نحيل يحيطُ به شعرٌ أشقر، جميل إنما محتقن حتى لكأنَّه متورم. وكانت الفتاة كمن لا تعي شيئاً. لقد رفعت ساقاً على ساق فانكشف من ساقها ما لا يليق أن ينكشف، وأغلب الظن أنَّها كانت لا تدرك أنَّها في الشارع.

لم يجلس راسكولنيكوف، ولكنه لم يشأ أيضاً أن ينصرف، فبقي واقفاً أمامها وقد استولت عليه الحيرة واستبد به الاضطراب. كان الشارع الرئيسي خالياً أبداً، أما الآن بعد الساعة الواحدة بعد ظهر ذاك اليوم، في أثناء ذاك الحر القائظ، لم يكد يمر به أحد. ومع ذلك على بعد خمس عشرة خطوة كان قد وقف سَيِّدٌ عند نهاية الشارع الفسيح بدا واضحاً أنَّه يود الاقتراب من الفتاة لغاية مكشوفة. لا ريب أنَّه هو أيضاً قد لمحها من بعيد فتبعها. ولكن راسكولنيكوف يضايقه الآن ويزعجه. ألقى السيد على راسكولنيكوف نظرات فيها بغض، محاولاً أن لا يراها راسكولنيكوف، وشرع ينتظر، بفارغِ صبرٍ، انصرف هذا المشرد الذي جاءنا في غير وقته ليحتل مكاننا. كان الأمر واضحاً إذاً. والسيد امرؤٌ في عقده الثالث، بدين، لحيم، نضر، يعلو شفتيه شاربان منمنمان، يرتدي ثياباً أنيقة حتى المبالغة. غضب راسكولنيكوف غضباً أزرق، وامتلكته رغبةٌ آسرة في أن لا يهيمن هنا هذا السيد اللحيم الأنيق القيافة بطريقة أو أخرى، فأهمل الفتاة برهة، واقترب من مثيله. وهتف يقول وهو يشُّد على قبضتي يديه ضاحكاً مزبداً، ناقماً عليه:

- هيه! يا أنت! سفيدريجايلوف! ماذا تريد هنا؟

فسأله الرجل بلهجة قاسية مغالية متكبرة وقد قطب حاجبيه وظهرت عليه الدهشة:

ما عناك معناه يا هذا!!!! أغرب من وجهي.

ـ كيف تجرؤ أيُّها الرجل بل أيُّها الوغد أن تقول هذا؟ قال الرجل هذا ورفع سوطه يلوح به. فما كان من راسكولنيكوف إلا أن هجم عليه بجمع كفيه، حتى قبل أن يسأل نفسه: ألا يستطيع هذا الدب بسهولة أن يجهز على شخصين مثلي؟ ولكن أحداً أمسكه من خلف في تلك اللحظة نفسها مسكاً قوياً: كان هذا رجل شرطة يتدخل في مشاجرة.

هيه! ما بالكما أيها الرجلاًن؟ هلا امتنعتما عن الاقتتال في الطريق العام؟

ثم خاطب راسكولنيكوف بلهجةٍ صارمة بعد أن رأى أسماله المهلهلة.

ـ ماذا تريد؟ من أنت؟

تفرس فيه راسكولنيكوف بانتباه، إن للرجل وجه جندي شجاع طيب، مع شاربين وسالفين وقد خطها الشيب كلها، وإن له نظرةً تعبر عن الحس السليم والعقل الرجيح.

هتف راسكولنيكوف وأمسك ذراع الشرطي.

ـ أنت أنت من أحتاج! اسمي راسكولنيكوف... طالب سابق....

والتفت إلى السيد:

ـ هذا ما يمكن أن تعرفه أنت. وعاد إلى الشرطي:

ـ تعال معي سأريك شيئاً! وأخذ الشرطي إلى الحافة من يده، وراح يحكي:

ـ انظر إنها سكرى تماماً.. كانت مارة في الشارع الرئيس منذ قليل... لا يعرف أحد من أين وفدت... إنما لا يبدو عليها أنَّها محترمة.... أغلب الظن أنَّهم أسكروها في مكان ما، ثم عبثوا بها، لأول مرة في حياتها... هل تفهم؟

ثم رموها في الشارع... انظر إلى ثوبها كيف تمزق... انظر إليها كيف تلبس... إنها لم تلبس ثيابها بنفسها، بل ألبستها إياها يد غريبة، يد رجل... ذلك واضح! ثم تطلع الآن هناك، إلى ذلك الرجل المتأنق، الذي أردت أنا أن أصفعه منذ لحظة... إنني لا أعرفه... ما رأيته في حياتي قبل اليوم! لكنه لاحظها هو

الآخر أيضاً في الطريق، فأدرك أنَّها ثملة، فاقدة الشعور كله. وهو الآن تحرقه رغبة رهيبة في أن يقترب منها ويقودها إلى مكان ما وهي على هذه الحالة... ذلك هو ما يبغيه حتماً... صدق أني لستُ على خطأ... لقد رأيت بعيني كيف رصدها وتبعها... ولكن وصولي أفسد عليه خطته، فكان ينتظر أن أنصرف، وما يزال ينتظر... انظر إليه... ابتعد قليلاً... وها هو ذا يقف متظاهراً بأنَّه يحضّر لفافة... ماذا نفعل حتى لا نمكنه من تملكها؟ ليتنا نقدر أن نقودها إلى منزلها... ما رأيك؟

أدرك الشرطي الموقف في الحال. إن حالة الرجل المنتفخ دسماً ولحماً واضحة لا سبيل إلى الريبة بها. بقي أن تعرف حالة الفتاة. مال الشرطي عليها ليراها من قرب، فارتسمت على محياه عاصفة شفقة صادقة.

قال وهو يهز رأسه:

ـ آه! يا للمسكينة! ما تزال طفلة زهرة! لا شك أنهم آذوها!

ثم أردف يناديها:

ـ اسمعي يا آنسة! أين تقطنين؟

فتحت الآنسة عينيها المكدودتين الوسنى، وتأملت الرجلين المزعجين، وأجرت يدها بحركة كمن يبغي طردهما.

هتف راسكولنيكوف وهو ينبش جيبه فيخرج منها عشرين كوبيك كانت ما تزال فيها:

ـ اسمع خذ هذه النقود، وناد حوذياً، وأمرهُ أن يقودها إلى بيتها. ليتنا نقدر أن نعرف عنوانها!

عاد الشرطي يقول وهو يتناول النقود:

ـ يا آنسة! هيه! يا آنسة! سأنادي عربة على الفور وأعود بك إلى منزلك بنفسي! إلى أين يجب ان نغادر؟ قولي! أين تسكنين؟

فغمغمت البنت تعقب وهي تجري يدها بتلك الحركة نفسها:

ـ دعوني وشأنني! لا تتشبثوا بي

ـ آه! ليس هذا لصالحك! هذا عيب. هذا عيب حقاً.

وهز رأسه من جديد، معبراً عن العتاب والشفقة والاستنكار في آن، ثم تابع كلامه يخاطب راسكولنيكوف وهو يزوره مرة أخرى من الرأس إلى القدمين. أغلب الظن أنَّه بدا له غريباً أيضاً: يهب المرء النقود ثم هو يرتدي كهذه الخرق:

ـ نعم... العنوان... تلك هي المسألة!....

وأردف يسأل:

ـ هل التقيتها في مكان بعيد من هنا؟

ـ سبق أن قلت لك: كانت تسير أمامي مترنحة، هناك في الشارع الرئيس فما أن وصلت إلى الدكة حتى أنَّهارت!

ـ آه! ما أكثر العار الذي سقط على العالم يارب! أطفلة وثملة؟ لا ريب أنَّهم عبثوا بها! ذلك واضح... أنظر ثوبها إلى أي حدٍّ تمزق... هه... إن الدعارة تمشي قدماً في هذه الأيام!... ومن يدري؟ لعلَّها من أسرةٍ طيبة جار عليها الدهر فأصابها بالدمار... أمثال هذه الحالات كثيرة في هذه الأيام... إن المرء حين يراها لطيفة كل هذا اللطف مرهفة كل هذه الرهافة يمكن أن يحسبها آنسة من أسرة كريمة.

قال الشرطي هذا ومال عليها من جديد لعلَّ له هو أيضاً بنات "تبلغ عن اللطف والرهافة، إن المرء يمكن أن يعدهن آنسات بنات عائلات نبيلة"، يتصنعن آداب الفتيات الراقيات ويرتدين حسب الدرجة.

قال راسكولنيكوف:

الأمر الأساس هو أن لا نتركها لهذا الوغد! إن من الممكن أن يلحق بها إيذاءات جديدة. نواياه واضحة وضوح النهار! يا للدنيء! أنَّه لم ينصرف. كان راسكولنيكوف يتكلم بثقة وهو يومئ إلى السَّيد بإصرار عنيد. سمعه الرجل

فأوشك أن يغضب من جديد ، ولكنه لم يلبث أن تراجع واكتفى بأن ألقى عليه نظرة احتقار، ثم ابتعد ببطء قيد خطوات، وتوقف مرة أخرى.

أجاب الشرطي واجماً متأملاً، يقول:

ـ أن لا ندعها له فهذا أمر سهل إذا نحن عرفنا المكان الذي يجب أن نقولها إليه، ولكن...

قال الشرطي ما أَسلفنا ومال على الفتاة مرةً أخرى وشرع يناديها:

ـ يا آنسة! هيه! يا آنسة!

فتحت الفتاة عينيها محملقة، ونظرت بانتباه كإنما هي فهمت شيئاً ما، ثم نهضت عن الدكة واستأنفت سيرها في الاتجاه الذي كانت آتية منه.

وجمجمت تقول وهي تجري يدها بتلك الحركة نفسها كأن لتتخلص من الرجلين:

ـ آه! أنَّهم لا يتحرجون ولا ينفكون يتشبثون.

كانت تمشي مسرعة، ولكنَّها تترنح كترنحها منذ قليل. تبعها السيد الأنيق دون أن يحول نظرهُ عنها، قاصداً السبيل الآخر.

وسارع الشرطي ذو الشاربين الكثين يمشي وراءهما قائلاً لراسكولنيكوف بلهجة جازمة:

لا تخف، لن أتركها.

وكرر متنهداً:

ـ رباه! ما هذا الفسق الذي نراه في هذا الزمان!

في تلك اللحظة بالذات أحس راسكولنيكوف في داخله بما يشبه أن يكون وخزة، فإذا بكل شيء في نفسه ينقلب رأساً على عقب، وإذا هو ينادي الشرطي صائحاً:

ـ هيه! اسمع!

التفت الشرطي فقال له راسكولنيكوف:

ـ دعهما! ما شأنك أنت؟ دع الأمور تجري على أعنتها! دع الرجل يلهو! (قال هذا وهو يشير بيده إلى السيد الأنيق). ما شأنك أنت وكل هذا؟ لم يفهم الشرطي شيئاً وحملق متعجباً. وأخذ راسكولنيكوف يضحك. قال الشرطي وهو يحرك يده:

ـ إيه! إيه!

وعاد يلاحق السيد الأنيق والفتاة الصغيرة. أغلب الظن أنَّه كان يعد راسكولنيكوف مجنوناً أو شراً من ذلك.

فلمَّا أصبح راسكولنيكوف وحيداً، دمدم يقول بخبث: "أخذ مني عشرين كوبكا، وسوف يأخذ من السيد الأنيق مبلغاً آخر فيترك له المسكينة. هكذا ستنتهي الأمور.... لماذا أقحمت نفسي في أمور لا تعنيني؟ لماذا توسطت بغية أن أحميها؟ هل عليَّ أن أُعيِّنَ نفسي حامياً؟ هل من حقي أن أذود أحداً أياً كان؟ ألا فليلتهم بعضهم بعضاً أحياء .... مالي ولهذا؟ وكيف تجاسرت ووهبت تلك الكوبكات العشرين؟ أهي ملكي؟"

ورغم هذه الأقوال الغربية، كان راسكولنيكوف يحس بقلبه ثقيلاً ثقيلاً. قعد على الحفة المهجورة وشردت أفكاره.... كان يصعب عليه في تلك اللحظة أن يفكر بأي شيء. ودَّ لو يغيب عنه وعيه.... ودَّ لو ينسى كل شيء فما يشعر بشيء.... ثم يستيقظ بعد ذلك فيستأنف حياة جديدة. قال وهو يتطلع إلى طرف الحفة الذي أصبح الآن خاليا:

ـ يا للصغيرة المسكينة! سوف تصحو وهي تبكي، وسوف تعلم أُمَّها بكل شيء.... فتضربها أولاً، ثم تسوطها سياطاً أليمة فيها أبلغ الإذلال والإهانة.... وقد تطردها من البيت... وحبها لم تطردها، فلا بد أن تعلم الإشكال امرأة من أمثال داريا فرانتسوفنا.... وستأخذ الفتاة تجري هنا وهناك، ستأخذ تتدحرج من هنا إلى هناك.... ثم سرعان ما تنقل إلى المشفى (تلك دائماً حال البنات اللواتي يعشن مع أمهات شريفات جداً ويتعاطين الفحش خفيةً) .... ثم تنتقل إلى

العيادة الطبية من جديد... شراب وحانات ثم كشف طبي دائماً.... وما أن تنقضي سنتان أو ثلاث حتى تصير حطاماً... ما أن تبلغ الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة حتى تنتهي! ... ألم أر فتيات كثيرات في مثل حالها؟ كيف كُنَّ يصلن إلى ذلك المصير؟ بهذه الطريقة نفسها! آه... لا ضير!.... يقال إن الأمور يجب أن تجري هكذا... يقال إن هناك نسبة مئوية لا بد أن يضحي بها كل عام... للشيطان في أغلب الظن... وذلك في سبيل ضمانة راحتِ الأخريات نسبة مئوية! إن لهم مصطلحات تلبس كثيراً من الكياسة فعلاً... وهي فوق ذلك عبارات مطمئنة جداً، علمية جداً! ما كفوا يتحدثون عن نسبة مئوية، فلا داع ليصدع المرء نفسه....آه... لو قد استعملوا كلمة أخرى، فمن الجائز... عندئذ... أن يكون الأمر أدعى إلى القلق...هكذا!.... وماذا لو كان على دونيا أن تدخل في النسبة المئوية، بطريقة أو بأخرى.... فإن لم تدخل في هذه النسبة دخلت في أخرى على الأقل؟ وتسائل راسكولنيكوف فجأة: ولكن إلى أين أنا ذاهب؟ ألا أنَّه لأمر غريب! لقد كان لي هدفٌ حين خرجت إلى الشارع..... نزلت أريد الذهاب إلى رازو ميخين، في جزيرة فاسيلفسكي .... نعم، ذلك هو المكان الذي كنت مسافراً إليه لا سواه، في تلك الآونة لا غيرها؟ يا للعجب العجاب! "

أدهشته قراراته. رازو ميخين أحد رفاقه القدامى في الجامعة، لم يكن ذا أصدقاء تقريباً، وما كان يعاشر أحداً من زملائه. لا يزور أحداً منهم ولا يستقبل أحداً. ثم إن جميع رفاقه كانوا قد تحولوا عنه بسرعة. كان لا يشارك بالاجتماعات، ولا في المناقشات، ولا في المتع والمباهج، ولا في أي شيء آخر. وكان يعمل بجد واجتهاد، دون أن يوفر نفسه، وبذلك استطاع أن يحصل على احترام جميع رفاقه. ومع ذلك لم يكن يحبه أحدٌ منهم. وكان راسكولنيكوف فقيراً فقراً مُدقعاً وأبيّاً. وفي إبائه شيء من الغطرسة وكان متزمتاً قليل الكلام، حتى لكأنَّه كان يريد أن يخفي شيئاً في نفسه. وقد رأى بعض رفاقه أنَّه ينظر إليهم من علِ، كما ينظر المرء إلى الأطفال تقريباً،

وكما لو كان يفوقهم ذكاءً ونضجاً وفكراً وثقافة ورأياً وأنَّه يعتقد أن قناعاتهم واهتماماتهم دون مستواه كثيراً.

ومع ذلك ربطته صداقة برفيقه رازوميخين، مهما يكن مصدر هذه الصداقة. على الأقل، كان مع رازوميخين أقل امتناعاً عن الكلام، وأكثر صراحة مما كان مع أي صديق آخر. وكان من المستحيل على كل حال أن يتصرف المرء مع رازوميخين غير هذا التصرف. كان رازوميخين فتى شديد المرح حلو المعشر، ولكن إلى ذلك طيب القلب إلى حد السذاجة، لكنها سذاجة عمقٍ صادقٍ وكرامةٌ لا سبيل إلى جحودها، وكان خير رفاقه يعترفون له بذلك ويحبونه. ولم يكن رازوميخين غبياً، رغم أنَّه كان يبدي في بعض الأحيان بعض البساطة، وكان مظهره يخطف الانتباه: كان طويلاً، نحيلاً، أسود الشعر، قليل العناية بحلاقته دائماً. وكان يتفق له أن يحدث شغبا، وكان يعتبر أشبه بهرقل، نوعاً ما. ففي ذات ليلة، في أثناء جولة مع الرفاق جندل بضربة واحدة أحد رجال الشرطة طوله مترين تقريباً. وكان يستطيع أن يشرب بلا نهاية، ولكنه كان يستطيع كذلك أن لا يشرب البتة. وكان في بعض الأحيان يدبر لغيره المكائد التي تتجاوز كل الحدود، ولكنه كان يستطيع أن لا يعربد قط. وكان رازوميخين يتصف أيضاً بهذه الصفة البارزة: ما من خيبة تقدر أن تثبط عزيمته وتفك شجاعته أبداً. وما من ظرف سيء من الظروف يمكن أن يحمله على الانهيار. وكان يستطيع أن يسكن في أي مكان، ولو تحت السقف، وأن يتحمل أهوال الجوع والبرد. كان فقيراً جداً، فكان ينفق من عرقه، حاصلاً على المال من تعاطي شتى صنوف الأعمال الصغيرة. كان يجيد تدبير شؤونه فيفي بحاجاته، على شرط أن يعمل طبعاً. وقد اتفق له أن قضى شتاءً بكامله دون أن يدفء غرفته، حتى لقد أكد أن في فقدان التدفئة مزايا وفوائد. لأن المرء ينام في الجو البارد نوماً أفضل. وقد اضطر رازوميخين، في ذاك الأوان أن يترك الجامعة هو أيضاً... ولكن إلى

حين، فيما كان يعتقد. فكان يحاول، بكل ما يملك من قوة، أن يجمع المال بغية أن يستطيع مواصلة دراسته. إن راسكولنيكوف لم يذهب إليه منذ أربعة أشهر. وكان رازوميخين يجهل حتى عنوان راسكولنيكوف مرة واحدة، منذ شهرين، التقيا في الشارع مصادفة، ولكن راسكولنوف أشاح بوجهه، حتى لقد انتقل إلى الرصيف المقابل لكي لا يرى. أما رازوميخين فإنه مضى في طريقه رغم أنَّه لمح راسكولنيكوف، وذلك لأنَّه لا يريد أن يزعج صديقه.

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: "فعلاً، لقد كنت منذ مدة وجيزة أريد أن أطلب من رازوميخين أن يجد لي عملاً، أن أعطي دروساً، أو أي شيء آخر... ولكن فيم يمكن أن يفيدني الآن؟ هبه وجد لي قاسمني آخر كوبك معه، إذا كان ما يزال يملك كوبيكاً، بحيث أستطيع أن أشتري حذائين وأن أصلح ملابسي، فأتمكن من إعطاء الدروس... هم... عظيم... ولكن ماذا بعد ذلك؟ ما عساني صانعاً بقروش قليلة؟ أهذا ما أنا في حاجة له الآن؟ حقاً إنها لفكرة سخيفة مضحكة أن أذهب إلى رازوميخين..."

لماذا يذهب الآن إلى ارزميخين؟ ذلك سؤال أصبح يقلقه أكثر مما كان يتراءى له أنَّه يقلقه. كان يتساءل بكثير من الهم والغم ومن الخوف والقلق ما هو المعنى الغيبي الشرير الذي يكمن وراء هذه الخطوة التي أراد القيام بها، والتي تبدو مع ذلك بسيطة عادية تافهة!...

أيمكن حقاً أن لا أكون قد أردت إلا أن أدبِّرَ جميع الأمور وأرتب كل الأشياء بفضل رازوميخين وحده! وأن لا أكون قد اهتديت إلى حل إلا الاستعانة برازوميخين؟"! هكذا كان يتساءل مدهوشاً.

وكان يفكر ويفكر، ويَحُكّ جبينهُ، فإذا بفكرةٍ غريبة تومض في ذهنه فجأة، بما يشبه الصدفة. أمر عجيب! قال بلهجة هادئة كلياً، وكأني به قد اتخذ في تلك اللحظة قراراً حاسماً: "هم... إلى رازوميخين! نعم سأذهب إليه حتماً... ولكن ليس الآن.... بل في يوم آخر، بعد أن أكون قد أتممت القيام

بذلك الأمر، أن يكون ذلك الأمر، قد انتهى، بعد أن يبدأ كل شيء على أسس جديدة..." ثم رجع إلى وعيه فجأة، فقال صائحاً وهو ينتزع نفسه من الحافة انتزاعاً: "بعد أن يكون ذلك الأمر قد انتهى؟ ولكن أيتحقق ذلك الأمر؟ أمن الممكن أن يتحقق ذلك الأمر؟ "

وغادر الدكة، مسرعاً كمن يركض. تمنى أن يعود أدراجه، ويرجع إلى البيت، ولكنَّه حين تصور نفسه راجعاً إلى مسكنه، شعر بنفور شديد: فهناك، في ذلك خير لنفسه، في ركنه ذاك، في تلك الحجرة الكريهة الرهيبة، إنما نضجت فكرة ذلك الأمر، منذ أكثر من شهر. ومضى راسكولنيكوف يمشي قدماً على غير هدى. لقد تحول اضطرابه العصبي إلى ارتعاشات محمومة، حتى لقد أحس أنَّه يرتجف من البرد. إنه يشعر ببرد تحت ذلك القيظ. وراح يتفحص جميع الأشياء التي يلقاها في طريقه، باذلاً في ذلك جهداً كبيراً، ولكن على غير شعور منه تقريباً، مدفوعاً إلى ذلك بضرورة داخلية. لكأنَّه إنما يحاول بأية وسيلة من الوسائل أن يسلو، ولكن سعيه هذا إلى السلوى لم ينجح كثيراً، فهو لم يلبث في كل لحظة أن يعود إلى الاسترسال في أحلامه، فما إن تهزته رعشة جديدة، حتى يرفع رأسه وينظر فيما حوله، فينسى على الفور ما كان يفكر به، بل وينسي الطريق الذي كان قد سلكه. على هذا النحو إنما قطع جزيرة فاسيلفسكي كلها، ووصل إلى نهر "نيفا الصغير"، فعبر الجسر واستدار إلى جهة الجزر. إن الخضرة وطراوة الهواء قد أراحتا في أول الأمر عينيه التعبتين اللتين ألفتا غبار المدينة، والكلس، والمباني الضخمة المرهقة. هنا لا اختناق، لا عفن، ولا خمارات. ولكن هذه الإحساسات الجديدة الممتعة سرعان ما صارت مرضيةً تثير الأعصاب. كان في بعض الأحيان يقف أمام دار صيفيةٍ مغمورة بالخضرة فينظر من خلال السياج، فيرى من بُعد، فوق الشرفات، نساء يرتدين أجمل الحُلل، ويرى أولاداً يركضون. وكانت الأزهار تجذبه على الأخص، فكان

يجمد أمامها ويروح يتأملها. وكان يلتقي بين الفينة والفينة بعربات أنيقة ويبصر رجالاً يمتطون صهوات الخيول ونساء على ظهر الأفراس فكان يتبعهم بنظرة، ولكنه ما يلبث أن ينساهم حتى قبل أن يغيبوا. وفي ذات مرة توقف ليعُدَّ نقوده فعرف أنَّه لم يكن قد بقي معه إلا نحو ثلاثين كوبيكاً. قال لنفسه: "أعطيت الشرطي 20 كوبيكاً، وأعطيت ناستاسيا ثلاثة كوبيكات مكافأة لها على أنَّها جاءتني برسالة أمي، معنى ذلك إذاً أني أعطيت بالأمس أسرة مارميلادوف سبعة وأربعين أو خمسين". لا شك أن ثمة سبباً يدفعه إلى أن يحصي ما معه من نقود على هذا النحو، ولكنه سرعان ما نسي هذا الأمر، حتى لقد نسي لماذا ولأي سبب أخرج النقود وأحصاها. ثم تذكر النقود حين مرَّ أمام مطعم رخيص. لقد أحس عندئذٍ أنه جائع، فدخل المطعم، فشرب قدحاً من الفودكا، وأخذ فطيرة محشوة، فبدأ أكلها في المطعم ثم أنهاها في الشارع. أنَّه لم يشرب فودكا مذ زمن قصي، لذلك أثرت فيه الفودكا فوراً رغم أنه لم يشرب إلا كأساً صغيرة. وتراخت ساقاه وثقلتا على حين غرَّة، وأحس برغبة قوية في النوم. فعادَ يتجه نحو مسكنه، ولكنه ما أن وصل إلى جزيرة بتروفسكي حتى توقف خائر القوى تماماً فترك الطريق، ودخل في الأدغال وتهاوى على العشب، ونام للحظته.

في حالات المرض، تتميز الأحلام في أحيان كثيرة ببروز قوى وشدة خارقة، وتتميز كذلك بتشابه كبير في الواقع. قد يكون مجمل اللوحة عجيباً شاذاً، ولكن الجو وكل تسلسل التصور يكونان في وقت واحد على درجة عالية من المعقولية ويشتملان على تفاصيل مرهفة جداً، تفاصيل غير متوقعة، تبلغ من حسن المساهمة في كمال المجموع أن الحالم لا يستطيع أن يبتكرها في حالة اليقظة ولو كان فناناً كبيراً مثل بوشكين أو تورغينيف. وهذه الأحلام، أعني الأحلام المرَضِية، تخلّف أبداً ذكرى باقية، وتُحدِثُ أثراً قوياً في الجسم المضعضع المهتز.

كـان حُلُمـاً مرعبـاً، ذلـك الحلـم الـذي رآه راسـكولنيكوف. لقـد حلـم بطفولته، هناك، في مدينتهم الصغيرة. إن عمره سبع سنين. وهـا هـو ذا، في يوم عيد، يتنـزه في المسـاء مـع أبيـه في ظـاهر المدينـة. الجـو داكـن، والهـواء خـانق، والمكـان هـو المكـان الـذي انطبعـت ذاكـرة في خيالـه تمامـاً ولكنـه يبـدو في الحلم أشـدُّ وضوحـاً وأكثـر تميـزاً ممـا هـو في الـذاكرة. المدينـة الصـغيرة تمتـد مكشـوفةً وكأنهـا مبسـوطة علـى راحـة الكـف، فليسـت تـرى حواليهـا حتـى صفصافة بيضاء واحدة، وفي مكـان ما، مكـان بعيـدٍ جـداً، عنـد آخـر الأفـق، تلـوح بقعـة سـوداء هـي غابـة صـغيرة. وعلـى بضـعة خطـوات مـن آخـر بسـتان مـن بساتين الخضار التي تحيط بالمدينة، توجد حانةً كبيرةً كانت دائماً تحـدث في نفسه أثراً أليماً، حتى لتخيفه حين يَمرُ بها متنزِّهاً مع أبيه. كان في هذه الحانة دائماً جمهور كبير، وصياح وضحك مجلجل، والناس يتشـاتمون هنـاك ويغنـون بأصوات جشَّاء، أغاني قبيحة بذيئة، وهم خاصة يتشاجرون ويقتتلون في أحيـانٍ عديدةٍ، وحول الخمارة يتجول دائمـاً أفـراد مخمـورون ذووا وجـوهٍ مرعبـة، مـا أن يصـادفهم الطفـل في طريقـه حتـى يلتصـق بأبيـه ويشـدُّ جسـمهُ إليـه وقـد أخـذت أعضـاؤه كلها تـرتعش... وفي مكـان غير بعيـد عـن الحانـة توجـد طريـق ترابيـة كثيرة الغبار الأسود، تستمر متعرجة ملتوية، وتنعطف يمنة بعد ثلاثمائـة مـترٍ، فتحيط بمقبرة المدينة. وفي وسط المقبرة تنتصب كنيسة مبنية بالحجر، لها قبـة خضراء، كـان الطفل يذهب إليها للصلاة مع أبيه وأمه مرة أو مرتين في السنة، وذلك حين إقامة قداس على روح جدته التي ماتت منـذ مـدة طويلـة، ولم يعرفهـا في يوم من الأيام. وكانوا في تلك السـانحة يحملـون الحلـوى التقليديـة علـى طبـقٍ أبيضٍ ملفـوف بمنشـفة، إنهـا حلـوى مـن الأرزِّ والزبيـب المجفـف المغـروز في الأرزِّ على شكل صليب. كان الصبي يُحِبُّ تلك الكنيسة ويُحب أيقوناتها التي يخلو أكثرهـا مـن الأطـر، ويحـبُّ أيضـاً ذلـك الكـاهن العجـوز الـذي كـان يـرتعش رأسه. وإلى جانب قبر جدته الذي تغطيه بلاطةٌ كبيرةٌ، كـان يوجـد قـبرُ أخيـه

الأصغر الذي مات في الشهر السادس من عمرهِ، والذي لم يعرفه أيضاً فلا يستطيع إذن أن يتذكره، غير أن أهله قد ذكروا لهُ أنَّهُ كان له أخٌ صغيرٌ، فكان كلما زار المقبرة يرسم على نفسه إشارة الصليب في كثير من الورع والخشوع، وينحني أمام القبر ويقبله. وإليكم الآن الحلم الذي رآه: رأى نفسه يسير مع أبيه في الطريق المؤدية إلى المقبرة، فيمران أمام الخمَّارة. إنه إنسان يمسك يد أبيه، ينظر إلى الحانة مذعوراً. إنَّ هنالك أمراً خاصاً يجذب انتباهه! لكأنَّ ثمة عيداً شعبياً كبيراً يحتفل فيه الناس. كان عددٌ غفيرٌ من أهل المدينة بملابس العيد، وفلاحات مع أزواجهنَّ وخليطٌ محتشد من البشر. هم جميعاً سكارى، وهم جميعاً يغنون وأمام باب الحانة ترابط عربة، ولكنَّها عربةٌ عجيبةٌ غريبةٌ، هي عربةٌ من تِلكَ العربات الكبيرة التي تَجُرُّها في العادة خيولٌ ضخمةٌ قويةٌ، والتي تنقل أنواعاً كثيرةً من البضاعة وبراميل الخمور. كان الصبي ينظرُ بكثيرٍ من اللذَّة والحُبور إلى تلكَ الخيولِ الضخمةِ ذات الأعراف الطويلة والسيقان القوية، التي تسير بخُطى هادئة موزونة، جارَّة وراءها حِملاً كأنَّه الجبلُ ضخامةً، دون أن يظهر عليها أنَّها تشعر بوجود هذا الحمل، حتى لكأن الحِملَ يَجعلُ سيرها أسهلُ وأيسرُ. أما الآن فإن الشيء الغريب، هو أنَّ هذه العربةَ الكبيرة قد اقترنت بها فرس ضعيفة واهنة شبيهة بتلك الأفراس التي كثيراً ما رآها تضنى بجرِّ حِملٍ باهظٍ من الخشب أو العلف على طرق محفَّرةٍ موحلةٍ، تغوص فيها عجلاتها إلى المحاور، ويضربها الفلاحون بسياطهم على خطمها بل وعلى عيونها ضرباً قوياً مبرحاً. لقد كان قلبُهُ ينقبضُ انقباضاً شديداً حين يرى تلك الأفراس على تلك الحال من الشقاء، حتى ليكاد يبكي حزناً وألماً. وكانت أمُّهُ تضطر عندئذٍ إلى إقصائه عن النافذة. وها هي ذي جلبة كبيرة تنفجر: إن عدداً من الفلاحين الأقوياء السكارى يخرجون من الحانة صارخين، منشدين، عازفين على البلالايكا، مرتدين قمصاناً حمراء وزرقاء، معلقين معاطفهم على أكتافهم. وهذا واحد

منهم، وهو رجل ما يزال في شرخ الشباب سميك الرقبة، لحيم الوجه، أحمر اللون كجزرة، يصرخ في وجههم: "اركبوا، اقطعوا جميعاً! سأنقل الجميع، هيا اصعدوا!" وسرعان ما تجيبه قهقهات وصيحات تقول:

- أبفرس ضعيفة كهذه الفرس تحملنا جميعاً؟

- هه! ماذا دهاك يا ميكولكا؟ أتقرن دابة صغيرة هذا الصغر بعربة ضخمة كهذه؟

- يميناً إن الدابة تبلغ من العمر عشرين عاماً يا أخي!

- اجلسوا! سأنقل الجميع!

كذلك صاح يقول ميكولكا من جديد، وهو يثب إلى العربة أول الواثبين، فيمسك بزمام الفرس، وينتصب في الأمام بقامته كلها، ثم يردف قائلا وهو في العربة:

- لقد سافر الكمَيتُ منذ هنيهة مع ماتفي. وهذه الفرس يا أخوتي تغيظني كثيراً، وتحطم قلبي تحطيماً. إنني مستعد لأن أقتلها، إنها لا تستحق ما تأكله من العلف. أقول لكم: اركبوا! اجلسوا! سأجعلها تعدو ولسوف تعدو! وأمسك بسوطه وهو يتلمظ سلفاً بالمتعة التي سيذوقها حين يأخذ بضربها.

قال بعضهم ضاحكاً:

- طيب! اصعدوا ألم تسمعوا؟ سوف تعدو الفرس.

- إنها لم تعرف العدو من عشر سنين!

- بل لسوف تخب!

- لا تأخذكم شفقة أيُّها الأخوة! فليتناول كل منكم سوطاً وليتهيأ!

- هيا بنا! هلموا! اضربوا.

ركب الجميع عربة ميكولكا مقهقهين بصخب. صعد ستة رجال وما يزال في المكان متسع. ومع امرأة سمينة حمراء الوجه. ترتدي فسطاناً من قماش أحمر، وتنتعل حذائين ساقاهما طويلتان، وتضع على رأسها قلنسوة

مزدانة بخرزات زجاجية، وتقضم حبات بندق، وتَنفَجرُ ضاحكةً من حين إلى آخر، والجمهور من حولها كذلك يضحكون. وكيف لا يضحكون؟ كيف تستطيع فرسٌ ضعيفةٌ ضامرةٌ هزيلةٌ أن تَجُرَّ مثل هذا الحمل عدواً؟ وسرعان ما تناول صبيان في العربة سوطين لمساعدة ميكولكا. ودوت في الجو صيحات تهيب بالفرس أن تسير. أخذت الفرس تبذل جهداً. ولكنَّ أنى لها أن تخب. أنَّها لا تكاد تقوى على التَّحرُكِ من مَكانِها. فهي تراوح وتئن وتنوء تحت ضربات سياط ثلاثة تهوي عليها. تضاعف الضحك في العربة وفي الجمهور. ولكن ميكولكا غَضِب. وها هو ذا من شدة حَنقهِ يَجلِدُ الفرسَ بكُل قوته كأنَّما هو يعتقد حقاً أن بوسع دابته أن تجري خَبباً.

صاح شابٌّ من قلبِ الجمهورِ وقد فتنه هذا المشهد:

ـ هل تسمحون لي بأن أجيء معكم؟

فصرخ ميكولكا يجيبه بقوله:

ـ اركب! اصعدوا جميعاً! سوف تحملنا جميعاً. بل سأضربها حتى الموت! وأخذ يضرب ويضرب، وقد استبد به حنقٌ بلغ من الشدة أنَّهُ لم يلبثَ أن أصبح لا يعرفُ بماذا يَضرب.

صاح الطفل يسأل أباه.

ـ أبتي! ماذا يفعلون؟ أبتي! لماذا يضربون الفرس المسكينة؟

قال الأب:

ـ تعال، تعال، إنَّهم ثملون يرتكبون حماقات. تعال لا تنظر إليهم.

وتمنى الأبُ أن يقتاد طفلهُ، لكنه أفلت منه، ثمَّ لم يُطِق صبراً فركض نحو الفرس الشقيَّة. كانت الفرس المسكينة قد ساءت حالها وخارت قواها.

إنها تلهث وتتوقف لحظة ثم تستأنف بذل ما تستطيعُ بَذلهُ من جُهدٍ لتجُرَّ العربة، فتترنح وتكاد تنهار.

هتف ميكولكا يقول:

ـ اجلدوها إلى أن تفطس ما دام الأمر هكذا. سأضربها حتى تنفق.

هتف عجوز من بين الحشد يسأله:

ـ ما هذا؟ أأنت مسيحي؟ يا لك من وحش! وأضاف آخر يقول:

ـ هل رأى أحداً في حياتهِ دابةً هزيلةً كهذه الفرس تَجرُّ حملاً ثقيلاً كهذا؟

وصاح ثالث، يقول:

ـ سوف تقتل الدابة خلال لحظات

قال ميكولكا:

ـ ما تدخلك أنت؟ الدابة دابتي! ما أريدهُ أفعلهُ، اركبوا جميعاً! أريد حتماً أن تجري الفرس عدواً.

وفجأة انفجر ضحكٌ عريضٌ غطى كُلَّ شيءٍ. لم تستطع المطية أن تحتمل الضربات المتكررة، فإذا بها تأخذ ترفس وتلبط. حتى الشيخ نفسه لم يستطع أن يمتنع عن التبسم. حقّاً إنَّ ثمَّة ما يدعو إلى الضحك: كيف تلبط وترفس فرس هزيلة كهذه!

خرج من الجمهور شابان تناولا سوطين، وعاجَلا الفرسَ ليسوطاها من الجهتين.

هتف ميكولكا:

ـ على الخطم ، على العينين، على العينين!

وواكبه واحد من رُكَّاب العربة:

ـ أغنية أيها الأخوة!

وراح جميع من في العربة يغنون بصوت واحد. أغنية مسعورة تصدح بها الحناجر، وتصاحبها قرعات طبل، ويتخللها صغير عند تكرر اللازمة، والمرأة السمينة تقضم البندق وتتفجر بالضحك.

ركض الطفل إلى جانب الحصان، وأسرع إلى الأمام. رأى كيف كانت الدابةُ تُجلدُ على عينيها تماماً! فشرع يبكي. انقبض قلبه وسالت دموعه. لامس

أحد الضاربين وجهه بكرباج. ولكنه لم يشعر بشيء. لوى يديه ألماً. فصرخ، واندفع نحو الشيخ ذي اللحية الشيباء الذي كان يهز رأسه مستنكراً هذا كله. أمسكت يده فلاحة، وأرادت أن تبعده. لكنه تملص منها، وركض إلى الفرس ثانية.

انهارت قوى الدابة، ومع ذلك حاولت أن ترفس وترفس مجدداً.

صاح ميكولكا وقد استولى عليه حنق شديد:

ـ شيطان يأخذك!

ورمى سوطه، وانحنى إلى تحت، فتناول من قاع العربة خشبة طويلة ثقيلة، قبضها من طرفها بيديه، وأشهرها فوق ظهر الفرس بجهد. صاح بعضهم:

ـ سوف يقتل الحصان!

ـ سوف يهشمه!

أردف ميكولكا:

ـ هي ملكي، لا شأن لأحد بها!

وَهوى بالخشبة على المطية بكل ماله من قوة. فدوى في الجو صوت أصم.

صرخ بعضهم:

ـ اجلدوها! اجلدوها! ما لكم توقفتم عن جلدها؟

فاشتعلت حماسة ميكولكا مزيداً من الاشتعال، وهوى على ظهر الفرس المسكينة بضربة قوية جديدة. تهاوت الفرس من مؤخرتها، ولكنها سرعان ما نهضت، وحاولت أن تجرَّ بكلِّ ما تملك من عزيمة. شرعت تَجرُّ في كل اتجاه عسى أن تتحرك العربة. غير أن ستة سياط هاجمتها من كل جانب، ارتفعت الخشبة من جديد فهوت عليها بضربة ثالثة ثم برابعة. وتتالت الضربات قوية مُطَّرِدة. لقد عنف حَنَكُ الحوذي لأنَّه لم يقتل فرسه بضربةٍ واحدةٍ.

صاح بعضهم:

ـ عمرها بقي!

ومن الجمع:

ـ ستسقط في الحال يا أخوة! نهايتها قريبة!

وهتف ثالث:

ـ فلتضرب بفأس! فلننته منها دفعة واحدة!

صرخ ميكولكا مهتاجاً:

ـ كلكم إلى الشيطان! تفرقوا!

ورمى الخشبة، ثم انحنى مرة أخرى إلى تحت، فتناول من قاع العربة قضيباً من حديد وصرخ مخاطباً الناس:

ـ احترسوا! ـ ثم هوى بقضيب الحديد على الفرس المسكينة، بكل ما أوتي من قوة، فترنحت الذبيحة من شدة الضربة، وتهالكت، وحاولت أن تجر العربة مرة ثالثة، ولكن قضيب الحديد هوى على ظهرها من جديد، فسقطت على الأرض كأن قوائمها الأربع قد قطعت.

صاح ميكولكا يقول:

ـ أجهزوا عليها!

ووثب إلى الأرض كمن فقد السيطرة على قواه. وها هم أولاء فتيان حمر سكارى يمسكون بكل ما يقع تحت أيديهم من سياط أو عصي أو أخشاب، ويهرعون نحو الفرس المحتضرة. وقف ميكولكا إلى جانب الدابة الصريعة، وجعل يضربها بقضيب الحديد على ظهرها. فمدت الفرس خطمها، وزفرت زفرةً عميقةً، وكان نَفسُها الأخير.

صاح الجمهور:

ـ قد رحلت!

ـ لماذا لم تشأ أن تعدو؟

قال ميكولكا صارخاً محتقن العينين بالدم، ماسكا قضيب الحديد بيديه:

- هي ملكي!

وكان واقفاً منتصب القامة كأنَّه يأسف على أنه أصبح لا يعرف من ذا يضرب!

من الحشد خرجت أصوات:

- يبدو أنك لست مسيحياً!

ولكن الطفل المسكين أصبح لا يسيطر على معاشره، وها هو يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور وهو يصرخ صراخاً شديداً، حتى إذا وصل إلى الدابة أحاط بذراعيه خطمها الميت الدامي، وراح يُقبِّلُها من عينيها وعلى شفتيها.... ثم اجتاحه حنقٌ قويٌّ، فنهض واثباً وهجم على ميكولكا شاداً على قبضتيه الصغيرتين. ولكنَّ أباهُ الذي كان يلاحقه مِنذُ مدة، أدركهُ في تلك اللحظة، فأمسك به وحمله بين ذراعيه إلى خارج الحضور قائلاً له

- هيا! نعد إلى البيت.

دمدم الطفل بين شهقتين سائلاً أباهُ

- أبتي..... لماذا.... الحصان المسكين.... فعلوا به؟ ....

ولكنَّ أنفاسه تقطَّعت، والكلمات تتدفق من صَدرهِ المحتقن مع صرخات! قال الأبُ:

- هم ثملون يرتكبون حماقات. ليس هذا شأننا. لنذهب!

أحاطَ الطفل أباه بذراعيه، ولكن كان صدره ما يزال مخنوقاً.... اختناقاً شديداً...

حاول أن يسترد أنفاسه، ويطلق صرخة قوية. واستيقظ راسكولنيكوف من النوم. استيقظ من النوم مبتلاً بالعرق مخضلَّ الشَّعرِ لاهثاً. ونهض مذعوراً.

قال وهو يجلس تحت الشجرة ويتنفس ملءَ رئتيه:

- الحمد لله على أن هذا لم يكن إلا حلماً! ولكن ما حدث؟ أيكون هذا بداية حمى؟

يا له من حلم رهيب!

كان جسمه كلَّه محطماً، وكانت نفسه لا تضُمُّ إلا ظلاماً واضطراباً وإبهاماً. وضع مرفقيه على ركبتيه، وهتف يقول مخاطباً نفسه:

ـ ربَّاه! أَمِنَ الممكن، حقاً، أن أتناول فأساً فأضرب بها رأسها وأحطم جمجمتها؟ ....

أنزلق في الدم اللزج الدامي، .... أكسر القفل.... أسرق..... ارتعش..... أختبئ ملطخاً بالدم.... حاملاً فأساً بيدي.... ربَّاه أممكن هذا؟

كان راسكولنيكوف يرتعش كورقة في حين كان يخاطب نفسه بهذا الكلام.... وتابع يقول محدثاً نفسهُ كأنَّما استبد به تعجبٌ عميقٌ وهو مطرقُ الرأس:

ولكن ماذا دهاني؟ كنت أعلم جيداً أنني لم أُطق ذلك، فلماذا عَذَّبتُ نفسي هكذا حتى الآن؟ بالأمس، بالأمس.... حين مضيت إليها، لا تمرَّن على فعلتي، عليَّ أن أتمرس، أدركت كلياً، بعمق، أنني لن أتحمل الآن؟ بالأمس، حين كنت أهبط السُّلَّم، قلت لنفسي إنَّها فعلت ذاك الأمر حتى ينقبض صدري وأشعر بذُعر شديدِ الوطأةِ وأنا يقظ...

ـ لا، لن أقوى على ذلك، لست له، أنا جبان، رعديد، ولو كانت تقديراتي كلُّها مضبوطة كالزئبق، ولو كان كل ما قررت في هذه البرهة دقيقاً واضحاً كما الرياضيات.... ربَّاه! على ذلك، لن أقدر، لن أتحمل.... فمَ بالي حتى الآن....

نهض راسكولنيكوف، تأمل حولَهُ ذاهلاً. يبدو عليه الاندهاش من وجوده في هذا المكان. واتجه نحو جسر "تـ..." كان شاحب الوجه، وكانت عيناه تحترقان، والضنك في كل مفاصله، في كل أعضائه، ومع ذلك لم يأبه، أخذ يتنفس تَنَفُساً حرَّاً طليقاً على حين غرة. شَعَرَ أنَّهُ أزاح الحمل الرهيب الذي كان يسحقه منذ فترةٍ طويلةٍ، فهدأت نفسه واطمأنت روحه، وعادت إليه

السكينة. قال يدعو اللّه مُبتهلاً: أرني طريقي يا رب، فأعدل عن تلك الفكرة اللعينة! " وفيما كان يَعبرُ الجسر، نظر إلى نهر نيفا نظرة هادئة، وإلى حمرة الشمس الغاربة، شعر انفقأ بغتة. الحرية! الطمأنينة! تخلص الآن من السحر، من الرقية، انعتق من كل ما يكدر بل يسحق.

في المقابل، حين سيذكر راسكولنيكوف هذه الفترة، ويستعرض كل ما قاله في تلك الأُوَيقات لحظةً فلحظة، فإن ظرفاً معيناً يظلُّ يحتدى به، ويأسر مداركه، ويُكوِّن له معنى الخرافة. إن ذلك الظرف، رُغمَ أنَّه لا يشتمل في ذاته على أي شيء خارق، سيصبح في نظر راسكولنيكوف نوعاً من نبوءة ترسُمُ مصيرهُ وتحدِّد إلى ما آل إليه الأمر: لم يستطع راسكولنيكوف أن يجلو لنفسه قط علة رجوعه إلى بيته في ذلك اليوم عبر "سوق العلف" دون أي سبب يحضُّهُ على الذهاب إلى هناك، ورغم أنَّه، هو المرهق التَعب، كان في حاجةٍ إلى أن يسلُك للعودة إلى بيته أقصر طريق دون تعرج. صحيح أن الدورة التي دارها ما كانت طويلة، إنَّما من الواضح أن لا داعي لها البتة. وأكيد أنَّه اتفق له عشرات المرات أن رجع إلى مسكنه دون أن يتذكَّر الشوارع التي سلكها. ولكنَّه ظلَّ يتساءلُ أبداً: لم كان ذلك اللقاء في ميدان "سوق العلف" (الذي لم يكن أي أمر يحرضه على الذهاب إليه) لماذا وقع له ذلك اللقاء الذي يبلغ ذلك المبلغ من خطورة الشأن والذي كان له ذلك التأثير الحاسم في حياته، وكان في ذات الوقت عرضاً طارئاً، لماذا وقع له ذلك اللقاء في تلك اللحظة نفسها؟! في تلك الدقيقة التي كان يمكن أن لا تؤثر في مصيره ذلك التأثير الضاغط؟ سيبدو لهُ ذلك اللقاء مكيدةٌ رصدت لَهُ الشَر.

في حوالي الساعة التاسعة اجتاز راسكولنيكوف "سوق العلف". كان كل التجار والباعة المتجولين وأصحاب الدكاكين يغلقون محالَّهم، ويجمعون بضائعهم، ليعودوا إلى منازلهم، وكذلك كان يفعل زبائنهم. بالقرب من المطاعم الحقيرة الواقعة في الأقبية القذرة المنتنة من منازل "سوق العلف" ولا

سيما أنه بالقرب من الحانات كانت تتكاثر أنواع شتى من أفقر الناس وصغار الكسبة. كان راسكولنيكوف يحب التردد على هذه الأماكن كثيراً كما يحب ارتياد جميع الأزقة المجاورة حين كان يخرج من بيته لغير هدف محدد. فهناك كانت أسماله لا تلفت الانتباه ولا تثير الاستهجان. إن المرء يستطيع أن يسير في هذه الأماكن مرتدياً ملابس على ما يشاء له هواه، دون أن يتعرض لاستهزاء أحد، فلمَّا وصلَ راسكولنيكوف إلى ناصية زقاق....، رأى بائعاً وامرأته يبيعان، كل ما على البسطة خاصٌ به، خيوطاً، وأشرطة، ومناديل قطنية، وما إلى ذلك....

كان الزوجان يستعدان هما أيضاً للعودة إلى المنزل، ولكنَّهما ما يزالان يثرثران مع امرأة كانت قد اقتربت منهما. إن هذه المرأة هي ألزافيتا إيفانوفنا أو قل باختصار هي "ألزافيتا" كما كان يسميها كُلَّ النَّاس. إنَّها الأخت الصغرى لتلك العجوز نفسها أليونا إيفانوفنا، أرملة الموظف المرابية، التي ذهب إليها راسكولنيكوف أمس ليرهن عندها ساعته ويتمرن على فعلته .... كان راسكولنيكوف يعرف منذ مدَّةٍ طويلة أموراً كثيرة عن ألزافيتا هذه التي كانت تعرفه هي أيضاً معرفة بسيطة. إنَّها بنتٌ في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها، طويلة القامة، خرقاء السلوك، خجولة الطبع، وجلة وديعة، يعدها الناس شبه بلهاء، قد استبعدتها أختها استبعاداً كاملاً، فهي تعمل لديها ليل نهار، وترتجف أمامها خوفاً، حتى لتحتمل منها أن تضربها أحياناً. كانت ألزافيتا في تلك الآونة قد وقفت مفكرة أمام البائع وامرأته، وفي يدها صُرَّة، وكانت تصغي إليهما بانتباه شديد. إن الرجل وامرأته يقصان عليها أمراً من الأمور بكثير من الحرارة والحماس، فلما لمحها راسكولنيكوف بغتة اجتاحه إحساس غريب هو نوع من الاندهاش الشديد رغم أن اللقاء لا يشتمل في ذاته على أي شيء يدعو إلى الذهول.

قال لها البائع بصوت عالٍ:

ـ ستحسمين أمرك بنفسك يا ألزافيتا إيفانوفنا. تعالي غداً، في حوالي الساعة السابعة. سيحضرون هم أيضاً.

ـ غداً؟

قالت الزافيتا بصوت بطيء، وكانت واجمة مفكِّرة، وكأنَّها عاجزة على أن تَحسم أمرها.

وردَّت زوجة البائع المرأة الفطنة بلهجة مرحة صريحة:

ـ إنَّها لتخيفك كثيراً، أليونا إيفانوفنا هذه! حين يراك ويسمعك، يحسبك طفلة صغيرة. هذا مع أنَّها ليست أختاً شقيقة وإنَّما من أم أخرى ولكنَّها مسيطرة عليَّك، مستبدة بك.

قاطع الرجل زوجته قائلاً لالزافيتا:

ـ ليس عليَّك إلا أن لا تذكري لألينا إيفانوفنا هذا المجيء أبداً. ذلك ما أنصحك به! تعالي إلينا دون أن تستأذنيها! الصفقة رابحة. وستدرك أختك هذا فيما بعد.

ـ حقاً.... قد آتي؟

ـ نعم... غداً..... في حوالي الساعة السابعة. وسيحضر أحد من عندهم أيضاً. دبري شأنك بنفسك.

وأردفت زوجة البائع:

ـ وسنشعل السماور.

قالت الزافيتا بتردد:

ـ طيب، سآتي.....

وانصرفت بخطى وئيدة.

إن راسكولنيكوف الذي في تلك اللحظة لم يسمع أكثر من ذلك. مرَّ صامتاً ساكناً دون أن يلفت إليه الانتباه، ولكنَّه حاول أن لا تفوته من الحديث كلمة واحدة. وشيئاً فشيئاً، حلَّ الذعر في نفسه محل الاندهاش، وأحسَّ

بقشعريرة باردة تجري في ظهره. لقد علم فجأة، على نحوٍ لم يكن في الحسبان، أن الزافيتا، أخت العجوز ورفيقتها الوحيدة في دارها، ستغيب عن البيت غداً في الساعة السابعة تماماً، وأنَّ العجوز ستكون إذاً في الساعة السابعة تماماً وحيدة في مسكنها.

لم يكن قد بقي عليه إلا أن يسير عدَّة خطوات حتى يصل إلى مسكنه.

عادَ كإنسانٍ حُكِمَ عليه بالموت. لقد أصبح لا يفكر، بل صار عاجزاً عن التفكير، ولكنه كان يحس، بكل كيانه، أنَّهُ صار محروماً من حرية الرأي مجرداً من الإرادة وأن كلَّ شيء قُرر فجأة بحسمٍ لا عودةَ عنهُ.

يقيناً، لو كان عليه في سبيل تنفيذ مشروعه أن ينتظر سنين طويلة، لما كان في قدرته أن يتكل على ظرف يناسب نجاح مشروعه أكثر من هذا الظرف الذي يعرض له الآن. وما كان ليُسهِّل عليه في كل حال أن يعلم بهذا بمثل تلك الدقة، ومن دون مخاطر يشتمل عليها اضطراره إلى السؤال والتقصي، إن العجوز التي كان قد قرر أن يقتلها ستكون غداً وحدها في الدار، وحيدةً تماماً.

# الفصل السادس

لقد أتيح لراسكولنيكوف فيما بعد أن يعرف السبب الذي حمل البائع وزوجته أن يدعو الزافيتا إيفانوفنا إلى دارهما. إن الأمر العادي بسيط شامل لا يشتمل على أي شيء خاص: هناك أسرة وفدت من الأقاليم منذ مدة قصيرة، فأصبحت في حالة عوزٍ مُدقع. فراحت تبيع بعض ما تملك من ملابس النساء. ولما كان عرض هذه الملابس للبيع في السوق يؤدي إلى خسارة كبيرة، فقد سأل هؤلاء الناس عن امرأةٍ تكون وسيطة بينهم وبين الراغبين في الشراء. وكانت ألزافيتا تقوم بمثل هذا الدور، وكان لها زبائن كثيرون لأنَّها امرأة مستقيمة، فهي تحدد السعر العادل دائماً، ولا تدع محلاً للمساومة مهما يكن، فما للمشتري إلا أن يوافق أو يدع. وكانت قليلة الكلام عامةً، وكانت تبدو، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وجلة وديعة.

ولكن راسكولنيكوف كان قد صار في الآونة الأخيرة يؤمن بالخرافات ويتأثر بالأوهام، وقد خلف هذا الوهم في نفسه آثاراً خلال مدة مديدة. ثم إنَّه ظلَّ يميل دائماً إلى أن يرى في هذا الأمر كلَّه شيئاً غريباً سرياً، وسلسلة من المؤثرات والمصادفات العجيبة الخاصة. كان طالبٌ من معارفه اسمه بوكوريف، قد وهبه في الشتاء الماضي في أثناء حديث عارض جرى بينهما قبيل سفره إلى خاركوف، عنوان العجوز أليونا إيفانوفنا، ليجأ إليها إذا هو احتاج إلى اقتراض مبلغ من المال على رهن. وخلال مدة طويلة لم يذهب راسكولنيكوف إلى العجوز، لأنَّه كان في ذلك القت يعطي دروسا، وكان يدبر أموره بطريقة أو بأخرى. ثم تذكر العنوان بعد شهر ونصف الشهر. كان يملك شيئين يمكن رهنهما: الساعة الفضية القديمة التي ورثها عن أبيه، وخاتما ذهبيا صغيرا يزدان بثلاثة أحجار حمراء كانت أخته أعطته إياه تذكارا حين افترقا. قرر راسكولنيكوف أن يرهن الخاتم، فما أن رأى

العجوز حتى شعر نحوها من أول نظرة، ودون أن يعرف أي شيء خاص عنها، بكره لا سبيل إلى التغلُّب عليه، وتلقى منها "ورقتين صغيرتين". وبينما كان راجعاً إلى بيته دخل في الطريق حانة صغيرة زَرِيَّة، فطلب شاياً، وقعد، واسترسل في أحلامٍ عميقة. إن فكرة غريبة كانت تحاول أن تنقف في رأسه كما ينقف الفرخ في البيضة، وكانت تشغل باله كثيراً.

على مقربة منهُ، إلى جانبه تقريباً، كان يجلس إلى مائدة أخرى، ضابط شاب وطالب لم يكن يعرفهُ ولا يتذكر أنَّه رآه يوماً. كان الشابان قد لعبا البليارد قليلاً، الآن يحتسيان الشاي. وها هو راسكولنيكوف يسمع الطالب محدثاً الضابط عن مرابية اسمها ألينا إيفانوفنا هي أرملة موظف، ثم يَذكُرُ لَهُ عنوانها آخر الأمر. إن هذه الحادثة وحدها قد بدت لراسكولنيكوف غريبة بعض الشيء: لقد كان عند العجوز منذ هنيهة، إذاً بشخص غير عادي يعزز في نفسه هذا الشعور كأنَّما على عمد: لقد أخذ الطالب يذكر لرفيقه فجأة، بعض التفاصيل عن ألينا إيفانوفنا. قال:

ـ هي عظيمة..... يستطيع المرء في كل لحظة أن يحصل منها على مالٍ. ... غنية كيهودي! قادرة أن تقرضك خمسة آلاف روبل دفعة واحدة، ولكنَّها لا تحتقر رهناً قيمته روبل واحد. كثيرون منَّا مرَّوُا بها. ولكنَّها سافلة.

وطفق الطالب يتكلم عن العجوز. وصفها بأنَّها شريرة خبيثة، وقال أنَّها صاحبة نزوات: يكفي أن يتأخر المدين عن سداد الدين في الموعد المضروب يوماً واحداً حتى يفقد الرهن.

لا تقرض إلا ربع قيمة الرهن. تتقاضى فائدة شهرية مقدارها خمسة بالمائة بل وسبعة، الخ....

كان الطالب يندفق بالكلام في هذا الموضوع ويفيض فيه إفاضة لا ينضب معينها، وقد أضاف إلى أن للعجوز أختاً اسمها إليزافيتا، تضربها العجوز في كل مناسبة، رغم أن العجوز ضئيلة هزيلة هي نفسها، فإنَّها تستعبد إليزافيتا

استعباداً تاماً، كطفلةٍ صغيرةٍ، رغم أن إليزافيتا لا يقل طولها عن متر وثمانين سم لا بل يزيد.

وصاح الطالب يقول مقهقهاً:

ـ وهذه أيضاً امرأة عجيبة!

جرى الحديث عندئذٍ عن ألزافيتا. كان الطالب يشعر من الكلام عنها بلذَّةٍ خاصة فهو لا يكفُّ عن الضحك. أما الضابط فكان يصغي إلى رفيقه بكثير من الإهتمام، حتى لقد طلب منه أن يرسل إليه ألزافيتا، لترفو لهُ ملابسهُ. لم يفوت راسكولنيكوف كلمة واحدة من هذا الحديث، عرف كل شيء دفعة واحدة: عرف أن ألزافيتا هي الأخت الصغرى لألينا إيفانوفنا، ليست شقيقتها ـ من أمها وأبيها، وعرف أنَّها بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها. عرف أنَّها تعمل في سبيل أختها نهاراً وليلاً، تنهض في المنزل بأعباء الطباخة والغسالة، وتقوم في الوقت نفسه بأعمال الخياطة للزبائن، حتى أنَّها قد تتولى مسح الأرض في منازل مأجورة. وعرف أنَّ كل ما تجنيه يذهب إلى أختها، وهي لا تجرؤ على قبول أي تكليف أو القيام بأي عمل دون إذن العجوز. وكانت العجوز قد كتبت وصيتها، وكانت ألزافيتا تعرف أن هذه الوصية تنص نصاً صريحاً على أنَّها لن ترث شيئاً، اللهم إلا عدداً من قطع الأثاث والكراسي وما إلى ذلك. أما المال كله موقوف على دير بمقاطعة ني....، للصلوات الدائمة على روح ألينا إيفانوفنا. إن ألزافيتا تنتمي إلى طبقة التجار لا إلى طبقة الموظفين وهي غير متزوجة، بشعة القوام جداً، يزيد طولها على متوسط الطول كثيراً، لها قدمان كبيرتان تبدوان معقوفتين وتنتعلان دائماً حذائين باليي الكعبين. ولكنَّها تعنى بنظافتها أكبر العناية. والأمر الذي كان يدهش الطالب ويفجِّرُ ضحكهُ هو أن ألزافيتا حُبلى دائماً....

قال الضابط:

ـ ولكن ألم تقل أنَّها قبيحة؟

أجاب الطالب:

ـ نعم لها بشرةٌ مسودَّةٌ دائماً، حتى كأنَّها جندي متنكر، ولكنَّها ليست قبيحة البته!... إن وجهها لطيف جداً، وإن عينيها خاصة طيبتان حلوتان! الدليل على أنَّها تَعجِبُ كثيراً من الناس، وهي هادئة، مسالمة، وديعة مستعدة لأن تقنع بأي شيء. وأن لها ابتسامة يمكن أن توصف حتى بأنَّها فاتنة!

سأل الضابط ضاحكاً:

ـ أهي إذاً تعجبك أيضاً؟

قال الطالب:

ـ نعم لأنَّ فيها غرابة! واسمع الآن ما أقوله لك: يميناً أني مستعد لأن أقتل أختها، تلك العجوز اللعينة، وأن أسرق مالها طائعاً مختاراً، مرتاح البال هادئ الخاطر والضمير!...

ذلك ما أضافه الطالب متكلماً بحماسةٍ وعنف

انفجر الضابط يضحك ضحكاً ارتعش له راسكولنيكوف. ما أغرب هذا!

قال الطالب وقد ازدادت حرارته:

ـ إذا أذنت لي ألقي عليَّك سؤالاً جاداً: أنا إنَّما قلت ذلك كلَّه من قبيل المزاج طبعاً ولكن فكر قليلاً: هناك من جهة أولى امرأةً عجوز. غبية، سخيفة شريرة، خبيثة، مريضة، لا قيمة لها ولا فائدة منها لأحد بل هي ضارة لجميع الناس، لا تعرف حتى لماذا تعيش وستموت في القريب ميتتها الطبيعية، هل تفهم ؟ أتفهم ؟

أجاب الضابط وهو يحدق بانتباه شديد على رفيقه الذي كانت حماسته ما تنفك تتأجج:

ـ طبعاً أفهم!

واصل الطالب كلامه فقال:

ـ فاسمع التتمة إذاً: هناك تلك المرأة من جهة أولى، وهناك من جهة ثانية قوى فتية شابة نضرة، تضيع لأنَّها محرومةٌ من المساعدة، وتعد بالألوف في كل مكان. إن ثمة مائة أو ألف عمل خير أو مبادرة رائعة يمكن التحريض عليها أو إصلاح حالها بمال العجوز، بهذا المال الموقوف على دير! إن ثمة مئات وربما ألوفاً من الأفراد الذين يمكن وضعهم بهذا المال على الطريق القويم. إن ثمة عشرات من الأسر يمكن إنقاذها بهذا المال من الفقر المدقع، والتحلل الأخلاقي، والدمار والفساد، ومستشفيات الأمراض التناسلية! فماذا لو قتلت هذه العجوز، وأخذ مالها ثم وقف على خدمة الإنسانية بأسرها، على خدمة قضية جميع البشر؟ ماذا؟ ألا تعتقد أن جريمة طفيفة كهذه الجريمة ستمحوها ألوف الأعمال الخيِّرة؟ إننا بقتل فرد واحد نستطيع أن ننقذ حياة ألوف غيره من العفن والفساد والانحلال! يموت واحد ليعيش مئات. مسألة حسابية! وأي وزن في ميزان الحياة العام يمكن أن يكون لتلك العجوز الشقية المصدورة الغبية الشريرة؟ ألا أنَّها ليس لها من الوزن أكثر مما لقملة أو لخنفساء. لا بل إن وزنها أقل من ذلك، لأن هذه العجوز ضارة. أنَّها تمتص حياة الآخرين. إنَّها شريرة. منذ مدة قصيرة عضت أختها ألزافيتا من إصبعها، وكادوا أن يقطعوا الإصبع!

قال الضابط:

ـ ما هي جديرة بالحياة، ولكن هذا هو نظام الطبيعة....

قال الطالب:

ـ نظام الطبيعة، يا أخي، يمكن تقويمه وتوجيهه، وإلا غرقنا بالأوهام والأوحال. ثم أنَّه من دون ذلك لا يكون ثمَّة إنسان عظيم واحد. يقولون: "الواجب، الضمير" وأنا لا أعترض بشيء على الواجب والضمير، ولكن يجب أولاً أن نتفق على معاني الألفاظ. اسمع: سألقي سؤالا آخر، هل تصغي إلي؟

قال الضابط:

ـ بل أنا الذي سألقي عليَّك سؤالاً، اصغ إلي!

ـ هيه!

ـ أنت الآن تتكلم وتتحدث، ولكن قُل لي: أأنت مستعد لأن تقتل العجوز بنفسك؟

ـ لا طبعاً! فإنما أنا أتكلم من وجهة نظر العدالة، ولست أتحدث عن نفسي....

ـ في رأيي ليس هنالك ظل من عدالة، ما دمت غير مستعد لأن تقرر تنفيذ هذا الفعل بنفسك. والآن هيا بنا نلعب البليياردو! ....

كان راسكولنيكوف مضطرباً أشد اضطراب. إن الأحاديث التي سمعها لم تكن إلا أحاديث عادية، كثيراً ما سمع شباباً يتبادلونها بصورة متباينة بعض الشيء بصدد موضوعات شتى. ولكن لم يتوقع أن يسمع هذه المناقشة وأن يسمع هذه الآراء في ذات اللحظة التي كانت هذه الآراء نفسها تنبُتُ في ذهنه هُوَ؟ لماذا حدث لهُ أن سَمِعَ. في نفس اللحظة التي ركّز فيها فكره على العجوز، حديثاً عن تلك العجوز نفسها؟ لقد بقيت المصادفة تبدو له غريبة. وكان لهذه الثرثرة العابرة التافهة التي جرت في الحانة، تأثيراً عميقاً عنده أثناء تتمة الأحداث، فكأن ذلك كان نبوءة ونذيراً بِقَدَرٍ محتوم....

عاد راسكولنيكوف من "سوق العلف" إلى بيته، فارتمى على أريكيته، ولبث ساعة بأكملها لم يتحرك. هبط الظلام في أثناء ذلك. ولم يكن عنده شمعة ولا خطر بباله أن يشغل شمعة على كل حال. لم يستطع راسكولنيكوف في يوم من الأيام أن يعرف أفكر في شيء من الأشياء في أثناء ذلك الوقت. وأخيراً أحس بقشعريرة الحمى تلك نفسها التي أحسها في النهار، وأفرحه أن يعرف أن بإمكانه أن يرقد على الأريكة. وسرعان ما استبد به نعاس ثقيل كالرصاص، فنام.

نام راسكولنيكوف أكثر مما اعتاد أن ينام، نام بغير أحلام. وحين دخلت عليه ناستاسيا في الساعة العاشرة من صباح الغد، بذلت كثيراً من

الجهد ولقيت كثيراً من العناء في سبيل إيقاظه. كان تحمل له شاياً وخبزاً، وكان الشاي في هذه المرة أيضاً بقية شاي، وفي هذه المرة أيضاً كان الإبريق إبريقها هي.

هتفت ناستاسيا تقول بحنق:

ـ ما أكثر ما يستطيع أن ينام! نعم أنَّه لا ينقطع عن النوم!.....

نهض راسكولنيكوف بجهد مضن. كان يشعر بصداع في رأسه. انصب وسار بضع خطوات، ثم لم يلبث أن تهالك على الأريكة ثانية.

هتفت ناستاسيا:

ـ ماذا؟ أتريد أن تنام أيضاً؟ أتراك مريضاً؟

لم يجب راسكولنكوف.

ـ هل تريد شاياً؟

قال بجهد وهو يغمض عينيه من جديد ويستدير نحو الحائط:

ـ ليس الآن.

لبثت ناستاسيا مائلة عليه لحظة ثم قالت:

ـ ربما كان مريضاً!

واستدارت وخرجت.

وعادت عليه في الساعة الثانية تحمل حساء. كان ما يزال راقداً، حتى أنَّه لم يكن قد مس الشاي. اغتاظت ناستاسيا، فهزته غاضبة ونهرته قائلة له وهي تنظر إليه باشمئزاز:

ـ ما بالك تبقى غافياً على هذه الحال؟

فنهض وقعد، ولكنه لم يجب، وكان يحدق على الأرض.

سألته ناستاسيا

ـ أمريض أنت؟

ولكنها في هذه المرة أيضاً لم تتلق جوابا. فاستأنفت تقول:

ـ حقاً إن عليَّك أن تخرج قليلاً إلى الشارع! سينفعك الهواء الطلق! هلا طعمت شيئاً؟

أجاب بصوت خائر:

ـ ليس الآن.... اذهبي.

قال لها هذا وصرف بحركة من يده.

بقيت لحظة قصيرة أخرى تتأمله بشفقة ثم خرجت.

وبعد بضع دقائق، رفع عينيه، نظر إلى الشاي والحساء مليا، ثم تناول الخبز والملعقة وشرع يأكل.

بلع ثلاث ملاعق أو أربعاً دون رغبة، بطريقة شبه آلية. خف ألم رأسه. حتى إذا فرغ من الطعام استلقى على الأريكة من جديد، لكنه لم يستطع أن ينام مرة أخرى. لبث جامداً، مضجعاً على بطنه، دافناً وجهه بالوسادة. وأنهارت عليه الأحلام. كانت أحلامه كلها غريبة جداً، ها هو يرى نفسه في مكان لا يعرفه في إفريقيا، بمصر، في إحدى الواحات. القافلة تستريح، الجمال راقدة بهدوء، وحوله حلقة من أشجار النخيل. جميع الناس يأكلون. أما هو فلا يزيد على أن يشرب ماء من جدول يجري هناك على مقربة منه مصطخباً. ما أعظم الانتعاش الذي يشعر به المرء حين يشرب هذا الماء الأزرق البارد العجيب الذي يسيل بين الحصى المتعدد الألوان فوق الرمل الملتمع بلمعان الذهب! ولكنه ها هو يسمع فجأة دقات ساعة حائط، واضحة متميزة. ارتعش وثاب إلى الوعي، فلما رفع رأسه، ونظر من النافذة، عرف الساعة التي لعله فيها، فإذا هو يثب إلى الأرض كما لو رفعته قوة مجهولة، صاحي الذهن، ثم يتجه إلى الباب، على رؤوس أصابعه، فيشق الباب قليلاً، ويصيخ بسمعه إلى الصخب القادم من السلم. كان قلبه يخفق بشدة، ولكن كل شيء كان في جهة السلم هادئا، حتى لكأن جميع الناس قد ناموا.... بدا له أمراً عجيبا وشاذا في آن أن يكون قد استطاع أن ينام على هذا النحو منذ البارحة، وأن يكون قد استمر على

هذه الحال من الخدر، بينما هناك أشياء متوجبة عليه. لعل الساعة التي سمع رنينها منذ هنيهة قد أعلنت السادسة...... وهذا تعجل محموم مضطرب يستولي عليه بعد النوم والخدر والتواني. على أن الاستعدادات ليست كثيرة. جهد راسكولنيكوف أن ينتبه في كل شيء وأن لا ينسى شيئاً. إلا أن قلبه قد بلغ من شدة الخفقان أنَّه كان يتنفس بكثير من العناء. كان عليه قبل كل شيء أن يصنع علاقة وأن يخيط العلاقة إلى المعطف: ذلك عمل يستغرق دقيقة. نبش صرة الملابس الموجودة تحت وسادته عادة، نسل منها قميصا عتيقاً، قذرا مهترئا، غير صالح للاستعمال، فانتزع من خرقة عصابة عرضها خمسة سم وعرضها أربعون. حتى إذا ثنى العصابة ثنيتين، خلع معطفه الصيفي الواسع المصنوع من نسيج قطني سميك متين (وهو الرداء الوحيد الذي كان يرتديه فوق ثيابه) وأخذ يخيط إليه طرفي العصابة من الداخل تحت الإبط الأيسر. كانت يداه ترتجفان وهو يخيط. لكنه قد أحس القيام بهذه المهمة على خير وجه، فلما عاد يرتدي معطفه كانت العلاقة غير ظاهرة من الخارج. أعد راسكولنيكوف الإبرة والخيط منذ مدة طويلة: لفهما بالورق وأودعهما درج منضدته الصغيرة. أما العلاقة فكانت اختراعا بارعا جداً اخترعه خياله هو: كان على العلاقة أن تحمل الفأس. عن من المستحيل عليه أن يتجول في الشوارع وهو يحمل بيده فأسا. ولو أخفى الفأس تحت المعطف لكان مضطرا إلى أن يسندها، وهذا يشد انتباه الناس إليه. أما الآن فليس عليه أن لا يدخل نصل الفأس بالعلاقة. فتبقى الفأس طوال الطريق معلقة بالعلاقة من داخل المعطف تحت الإبط بهدوء، عدا أن في وسع راسكولنيكوف حين يغمد يده في جيب المعطف من خارج، أن يسند طرف المقبض لمنع الفأس من التأرجح. ولما كان المعطف واسعا جداً حتى لكأنَّه كيس، لن يستطيع الناظر أن يلاحظ من الخارج أن راسكولنيكوف يسند شيئاً من خلال جيبه. عن فكرة صنع هذه العلاقة قد وافت ذهن راسكولنيكوف منذ اسبوعين.

فلما انتهى راسكولنيكوف من عمله هذا دس أصابعه في الفراغ الضيق الذي يفصل الأريكة "التركية" عن أرض الحجرة، وأخذ بتلمس الزاوية اليسرى من هذا المكان، فأخرج الرهن الذي كان قد هيأه وخبأه هناك منذ مدة طويلة. الحق أن هذا الرهن لم يكن رهنا، وإنما هو شريحة ملساء من خشب، بحجم علبة فضية للسجائر. كان راسكولنيكوف قد عثر على هذه الشريحة الخشبية عرضا في أثناء إحدى جولاته، وذلك في باحة المنزل كانت تشغل أحد أجنحته ورشة ما وقد ضم الشريحة فيما بعد صفيحة من حديد، رقيقة ملساء، ـ أغلب الظن أن هذه الصحيفة كانت كسرة من شيء ما ـ التقطها من الشارع آنذاك أيضاً. حتى إذا شد هذين الشيئين المتفاوتين حجما ـ وكانت صفيحة الحديد أصغر من الشريحة الخشبية ـ، أحدهما إلى الآخر، عني بربطهما بخيط متصالب بشدة، ثم لفها لفا أنيقاً بورقة بيضاء نظيفة، ثم عقد الخيط على اللفة عقدا محكما يجعل فكها أمراً صعبا، وذلك بغية أن يحول انتباه العجوز برهة من الزمن ـ لأن العجوز ستتهمك في حل هذا العقد ـ فيجتاز هو اللحظة المواتية. لقد كان هدفه من إضافة الصفيحة الحديد هو أن يزيد وزن اللفة فيمنع العجوز من أن تكتشف، في الوهلة الأولى على الأقل، أن الشيء ليس إلا قطعة خشب. كان الرهن مخبأ تحت الأريكة منذ مدة. فما أن أخرج راسكولنيكوف الرهن حتى سمع صياحا في الفناء يقول:

ـ دقت الساعة السادسة منذ مدة طويلة!

فقال راسكولنيكوف يخاطب نفسه:

منذ مدة مديدة! رباه!...

واندفع نحو الباب، وأصغى، ثم تناول كمته، وراح ينزل درجات السلم الثلاث عشرة، كقطة، محاذراً، ولم يند صوت عن وقع قدميه. ما يزال عليه ان يفعل أهم شيء: أن يسرق الفأس من المطبخ. فأما أن يستعمل فأسا فهذا شيء قد قرره منذ زمن. وكان راسكولنيكوف يملك أيضاً سكينا مطوية

تستعمل في الحدائق ولكنه كان غير واثق بالسكين، ولكن غير واثق بقواه خاصة. لذلك وقع اختياره على الفأس نهائيا. ولنذكر بهذه المناسبة صفة غريبة تميزت بها جميع القرارات القاطعة التي اتخذها راسكولنيكوف لإنفاذ خطته: كانت هذه القرارات تبدو له سخيفة مستحيلة بمقدار ما كانت تصبح حاسمة. إن راسكولنيكوف، رغم الصراع المضني الذي كان يجري في نفسه لم يستطع قط أن يصدق أن مشاريعه يمكن أن توضع في التنفيذ في أحد الأيام.

ولو قد اتفق له أن توصيل يوما إلى أن يحسم جميع تلك المسائل، فيبدد جميع الشكوك ويمهد جميع العقبات لكان من المحتمل أن يعدل فورا عن مشروعه ذاك، عدوله عن شيء مستحيل عجيب سخيف! ولكن الواقع أنّه كان ما يزال هنالك عدد كبير من المسائل التي يجب جلها ومن الشكوك التي يجب تدبيرها. أما طريقة الحصول على فأس فذلك أمر تفصيلي تافه لا يشغل باله كثيراً، إذ لا شيء أسهل منه. ذلك أن ناستاسيا كانت تتغيب كثيراً عن البيت، ولاسيما في المساء: فهي تذهب إلى الجيران تارة وتمضي إلى الدكاكين تارة أخرى، وتترك الباب مفتوحا في أثناء ذلك، وهذا بعينه هو السبب فيما كان يقع بينها وبين مولاتها من شجار. كان يكفي إذاً أن يدخل راسكولنيكوف المطبخ بهدوء ورفق، وأن يأخذ الفأس متى أزفت الساعة، ثم أن يرجع بعد ساعة (متى أنّهى كل شيء)، فيعيد الفأس إلى مكانها. غبر أن شكوكا كثيرة كانت تنبجس في ذهن راسكولنيكوف: ماذا لو رجع بعد ساعة ليرد الفأس إلى مكانها فكانت ناستاسيا قد عادت إلى البيت مصادفة في أثناء غيابه؟ سيكون عليه طبعاً أن يستمر في طريقه، وأن ينتظر خروجها من جديد. فماذا لو احتاجت في أثناء ذلك الفأس فأخذت تبحث عنها، وراحت تصيح وتصرخ؟ إن ذلك سيولد شبهة أو هو سيولد فرصة لشبهة في اقل تقدير:

على أن هذه الأمور كلها تفاصيل لم يكن راسكولنيكوف قد فكر

فيهـا فعـلاً بعـد. لم يكـن عنـده متسـع مـن الوقـت أيضـاً. لقـد كـان راسكولنيكوف يفكر بالشيء الأساس، ويرجيء التفكير في التفاصيل إلى اللحظة التي يكتمل فيها اقتناعه. إنما كان يلوح له أن هذه اللحظة لن تجيء قط، أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف في قرارة نفسه. كان لا يتخيل مثلاً أن في لحظة معينة سوف يكف عن التفكير، وسوف ينهض، وسوف يذهب إلى هناك، بكل بساطة!... فحتى زيارته الأخيرة للعجوز (وهي الزيارة التي استهدف منها دراسة المكان وقام بها على سبيل التمرين)، حتى هذه الزيارة لم تكن في الواقع إلا محاولة، ولم يكن فيها جد. كل ما هنالك أنَّه قال لنفسه: "والله... سأذهب، وسأحاول، سأحقق ما أحمل به على الأقل"، ثم لم يسعه بعد ذلك فولا إلا أن يبصق ويولي هاربا وقد امتلأ اشمئزاز أمام نفسه. ولكن كان يبدو أنَّه قد أوغل في التحليل إلى النهاية، وأنَّه حل المشكلة الأخلاقية التي تطرحها هذه القضية. كان منطقه حاداً قاطعاً كنصل مسنون، ولم يبق لتفكيره أي اعتراض واعٍ يمكن أن يقدمه. غير أنَّه لم يكن واثقاً بنفسه فكان يلتمس اعتراضات من الخارج، على نحو عنيد وبخنوع، كان شخصاً يدفعه في ذلك ويلزمه به. وهذا يوم الأمس الذي جاء على غير توقع وكان يوما حاسما قد أثر فيه تأثيرا يشبه أن يكون آليا: لكأن شخصاً قد أمسكه من يده وأخذ يجره، معصوب العينين، بقوة خارقة، جرا لا فكاك له منه، ولا سبيل إلى الاعتراض عليه! أو كأن آلة قد التقطت طرف ثوبه فدارت به عجلاتها، وأخذت تجذبه إليها جذبا لا حيلة له في دفعه!

في أول الأمر (منذ مدة طويلة) كان ثمة سؤال يشغل باله كثيراً، وهو: لماذا تتكشف جميع الجرائم بسهولة ويسر؟ لماذا يعثر على آثار جميع المجرمين تقريباً في غير عناء؟ وقد توصل راسكولنيكوف رويدا رويدا إلى نتائج متنوعة شائقة. قال لنفسه أن السبب الأساس في ذلك لا يرجع إلى استحالة إخفاء الجريمة استحالة مادية بقدر ما يرجع إلى المجرم نفسه. فجميع المجرمين إنما

يشعرون، لحظة تنفيذهم جريمتهم، بنوع من انهيار الإرادة وفقدان الرأي السديد، فإذا بالإرادة والرأي يحل محلها طيش صبياني تماماً، في الوقت الذي يكون فيه الأمر أحوج ما يكون إلى العقل والحكمة والحذر. كان راسكولنيكوف مقتنعا أن غياب الرأي السديد وانهيار الإرادة الصلبة يستوليان على الإنسان كما يستولي عليه مرض من الأمراض وينموان شيئاً بعد شيء ثم يبلغان ذروتهما قبيل تنفيذ الجريمة. وكان مقتنعا بأنَّهما يلبثان على هذه المرحلة عند ارتكاب الجريمة، ويلبثان عليها بعد ارتكاب الجريمة بزمن يختلف طوله باختلاف الأفراد، ثم يزولان كما تزول كل الأمراض. أما هذا السؤال: "هل المرض هو الذي يولد الجريمة، أم أن الجريمة يصاحبها دائماً، بحكم طبيعتها، شيء من مرض؟" فتلك مسألة لم يشعر راسكولنيكوف أنَّه قادر على حلها.

فلما انتهى إلى هذه النتائج ارتأى أن أمثال هذه الاضطرابات المرضية لا يمكن أن تعتريه هو، واعتقد أنَّه سيظل محافظاً على سلامة الرأي وقوة الإرادة طوال فترة تنفيذ خطته، وذلك لسبب وحيد هو أن ما ينوي القيام به "ليس جريمة"... لندع جانباً طريقة وصوله إلى هذه النتيجة فلقد استبقنا مذ الآن أشياء كثيرة... وحسبنا أن نضيف إلى ما ذكرناه أن المصاعب الواقعية والعقبات المادية لم يكن لها في ذهنه إلا دور ثانوي. كان يقول لنفسه: "سوف يكفيني أن أظلَّ مسيطراً على إرادتي، وعلى فكري، حتى تذلل كل هذه الصعوبات متى آن الأوان فأصبح عليَّ أن أدقق في أيسر تفاصيل القضية..." ولكنَّ القضية لم تبدأ، فكان إقتناع راسكولنيكوف بأن قراراته حاسمة يضعف شيئاً فشيئاً. حتى إذا أزنت الساعة، جرت الأمور على غير ما تنبأ به، بل بصورة غير مقصودة وحتى تكاد تكون مفاجئة. ثمة ظرف من أبسط الظروف أذهله حتى قبل أن يهبط السلم: إنَّهُ حين وصل إلى فسحة المطبخ الذي كان بابه مفتوحاً كما يكون كذلك دائماً، قد ألقى على داخل المطبخ نظرة

محـاذرة مواربـة ليتأكـد أن صـاحبة البيـت ليسـت في المطـبخ في أثنـاء غيـاب ناستاسيا، وليتأكَّد من أن باب غرفتها مغلقاً تماماً بحيث لا تستطيع أن تَلمحهُ حـين يـدخل إلى المطـبخ لأخـذ الفـأس، فمـا كـان أشـدَّ ذهولـهُ حـين رأى أن ناستاسيا لم تكـن حاضـرة فحسـب بـل كانـت مشـغولة كـذلك، فهـي تخـرج الغسيل من سلة وتنشره على حبـال! فلمَّـا رأتـه قطعـت عملـها والتفـت إليـه ثـم لم تحـول بصـرها عنـه إلى أن غـاب.. وقـد أشـاح راسـكولنيكوف عينيـه وابتعـد كـأنَّـه لم يلاحـظ شـيئاً، ولكـن مهمتـه كانـت قـد أخفقـت: مـا مـن فـأس! واسودت الدنيا في عينيه.

قال يحدث نفسه وهو يتخطى باب المنزل: "من أين جئت بهذه الفكـرة وهـي أن ناستاسـيا لا بـد أن تكـون في هـذه اللحظـة غائبـة حتمـاً؟ لمـاذا اتخـذت هـذا القرار موقناً هذا اليقين كله؟" وشعر بأنَّه مسحوق مُذل. كان من شدَّة غضبه يشتهي أن يسخر من نفسه... إن حنقاً غبياً حيوانياً أخذ يغلـي في أعماقـه. توقـف تحت باب المنزل حائراً متردداً. إنَّهُ يَكـرهُ أن يمضـي إلى الشـارع هكـذا، تقيـداً بالشكـل، ولكنَّه يكره أكثر من ذلك أيضاً أن يعود إلى غرفته. جمجم يقـول "يا لها من فرصة أضعتها، أضعتها إلى الأبد!" قال ذلـك وهـو تحـت قبـة المـدخل، ولكن ها هو ذا الآن أمام حجرة البواب الصغيرة التي كان بابها مفتوحا أيضاً. ارتعش راسـكولنيكوف بغتـة. كـان لمـح في هـذه الحجـرة، علـى بعـد خطـوتين منه، تحت دكـة، إلى اليمين، شيئاً يسطع... نظر حوله: لم ير أحداً. اقتـرب مـن الحجرة سائراً على رؤوس أصابع قدميه، وهبط درجتين، ونادى البواب بصـوت هزيل. لم يجبـه أحـد. قـال لنفسـه: "نعـم! البـواب غائـب. علـى كـل حـال، أغلـب الظن أنَّه في مكـان مـا بالفنـاء مـا دام البـاب مشـرعاً". وانـدفع نحـو الفـأس بوثبـة واحـدة (إن الشـيء الـذي يسـطع كـان فأسـاً). سـحب الفـأس مـن تحـت الدكـة حيث كانت موضوعة بين حطبتين، وقبل أن يغادر الحجـرة أسـرع يضـع الفـأس في العلاَّقة داخل المعطف، ودس يديه في جيبيه وخـرج. لم يـره أحـد! قـال لنفسـه

وهو يبتسم ابتسامة غريبة: "لأنك محروم من العقل أعانك الشيطان!" وشجعته هذه الصدفة كثيراً.

سارع في الشارع بهدوء ووقار ورصافة دون عجلة، وذلك حتى لا يوقظ حوله شبهات. كان لا يكاد ينظر إلى المارة، حتى لقد كان يجهد أن لا يرفع عينيه، بغية أن لا يلفت انتباه أحد. وتذكر عندئذٍ قبعته فقال همساً: "ما أغباني! كان معي مال أول، ثم لم أشتر عمرة!" وانطلقت منه سبة.

وألقى نظرة على داخل أحد الدكاكين عرضاً فلمح ساعة معلقة في الجدار تشير إلى السابعة وعشر دقائق. كان عليه أن يحث الخطى، ولكن كان عليه أن لا يمضي إلى منزل العجوز رأساً، وإنَّما ينبغي لهُ أن يدور دورة. إن من الأفضل أن يدخل إلى المنزل من الباب الآخر في الجهة الثانية.

في الماضي، حين كان يتفق لهُ أن يتصور هذا كلَّه، كان يُقدِّر أحياناً أنَّه سيشعر بخوفٍ شديدٍ. ولكنَّهُ الآن لا يشعر بهذا الخوفِ العميقِ بل لا يشعر بخوفٍ مطلقاً. الآن تشغلهُ أفكارٌ ليس لها أيُّ شأنٍ بالموضوع، وما أكثر ما تتبدل وتتغير! فحين اجتاز حديقة يوسوبوف مثلاً انبثقت في ذهنه فكرةٌ توقَّفَ عليها ملياً، هي أنَّ من الواجب وضع نوافير مياه من شأنَّها أن ترطب الهواء ترطيباً لذيذاً في الميادين العامة. وشيئاً فشيئاً انتهى إلى الاعتقاد أنَّه إذا وسِّعت "حديقة الصيف" بحيث تشمل كل "ساحة آذار" وإذا ضمت هذه الحديقة إلى حديقة "قصر ميخائيل"، فسيكون هذا تجديداً في المدينة ممتعاً ومفيداً في آن. وهذا سؤال آخر يشدَّه إليه بقوة. تساءلَ راسكولنيكوف: لماذا يحب الإنسان في المدن الكبرى، لا بحكم الضرورة بل بدافع الميل، أن يعيش في الأحياء التي ليس فيها حدائق، ولا نوافير مياه، ولا يسودها إلا الحمئ، والعفن، والقذارات؟ وتذكر حينئذٍ جولاته خلال "سوق العلف"، فارتد لحظة إلى الشعور بالوضع الذي هو فيه، فقال يحدث نفسه : "يا للسخف! إن من الأفضل أن لا أفكر البتة. وومضت في ذهنه هذه الفكرة: "لا ريب أن الذين يقادون إلى

المقصلة يتشبث فكرهم هذا التشبث بجميع الأشياء التي يصادفونها في طريقهم". ولكنَّ هذه الفكرة التي ومضت في ذهنه بسرعة البرق، لم تلبث أن اختفت بسرعة البرق أيضاً. لقد استطاع هو نفسه أن يحملها على الاختفاء... ولكن ها هو ذا قد اقترب، هذا هو المنزل... هذا مدخل العمارة! وفي مكان ما، رنت ساعة حائط على حين فجأة. قال راسكولنيكوف لنفسه متسائلاً: "ماذا؟ أتكون هي السابعة والنصف؟ أهذا ممكن؟ مستحيل... لا شك أن هذه الساعة متقدمة!...."

وابتسم الحظ لهُ مرةً أخرى حين تخطى المدخل. إن عربة ضخمة محملة بالعلف، في تلك اللحظة نفسها كما لو عمداً، أمامه تماماً، فتخفيه إخفاءً ناجزاً طوال مدة مروره. فما أن نفذت العربة إلى الفناء حتى كان هو قد استطاع أن يتسلل يمنة. وسمع عدة أصوات آتية من الجهة الأخرى وراء العربة. كان هناك أناس يصرخون ويتشاجرون. ولكنَّ أحداً لم يلاحظهُ، ولم يلتقِ بأحدٍ مطلقاً. وكانت نوافذ كثيرة مطلة على الفناء المربع الواسع مفتوحة في تلك اللحظة. لكن راسكولنيكوف لم يرفع رأسه. لقد كان لا يملك من القوة ما يمكنه من رفع رأسه. والسُّلَّم الذي يفضي إلى بيت العجوز يقع على اليمين قرب المدخل، فسرعان ما كان راسكولنيكوف على ذلك السلم... استرد راسكولنيكوف أنفاسه، وضغط بإحدى يديه خفقات قلبه، بينما كانت الأخرى تلمس الفأس وتعدِّلُ وضعها. وأخذ يصعد محاذراً هادئاً مصغياً في كل لحظة. ولكن السُّلَّم كان خالياً كل الخلوِّ هو أيضاً. إن جميع الأبواب مغلقة. لم يلتقِ راسكولنيكوف بأحد. صحيح أن باب شقة غير مسكونة في الطابق الثاني، كان مفتوحاً. إن عدداً من الدهانين يعملون في تلك الشقة، ولكنَّهم لم يلاحظوه. توقف راسكولنيكوف لحظة، وفكَّر، ثم تابع الطريق وهو يحدث نفسه قائلاً: "طبعاً... من الأفضل أن لا يوجدوا هنا... ولكن... ما يزال ثمة طابقان".

هذا هو الطابق الرابع أخيراً... هذا هو الباب... هذه هي الشقة المقابلة... إنها ما تزال خالية... وأغلب الظنِّ أنَّ الشقة التي تقع تحت مسكن العجوز في الطابق الثالث خالية أيضاً. إن البطاقة المسمَّرة على الباب قد زالت... معنى ذلك أن سكَّانها قد رحلوا... كان راسكولنيكوف يشعر باختناق. وومضت في ذهنه فكرة سريعة سرعة البرق: ماذا لو انصرفت؟" ولكنَّهُ لم يجب عن هذا السؤال، وأنصت يصغي إلى ما يجري في بيت العجوز: لا شيء إلا الصمت... صمت كصمت القبور. واستدار مرة أخرى نحو السُّلَّم، وتسمَّع مدة طويلة بانتباه شديد... وبعد ذلك، ألقى على ما حوله نظرة أخيرة، وتهيأ، وعدل مقبض الفأس في العلاقة مرة أخرى. تساءل بينه وبين نفسه: "ألست مسرفاً في الشحوب، مسرفاً في توتر الأعصاب؟ إنَّها شكاكةٌ ريَّابة... أفلا ينبغي لي والحالة هذه أن أنتظر... إلى أن يهدأ قلبي ويسكن وعيي؟"

ولكن قلبه لم يهدأ. بالعكس: أخذ قلبه، كأنما عن عمد، يدق عمداً أقوى فأقوى. لم يطق صبراً، فمد يده ببطء، إلى حبل الجرس، وشده، وبعد نصف دقيقة قرع الجرس مرة أخرى بقوة أكبر.

ما من جواب. فيم قرع الجرس بغير طائل؟ ثم إن هذا ليس مستحسناً. لاشك أن العجوز في منزلها، ولكنَّها الآن وحيدة وشكَّاكة. كان راسكولنيكوف يعرف بعض طباعها. وها هو ذا يضع أذنه على الباب مرة أخرى. أكانت حواسه مشحوذة شحذاً قوياً إلى هذا الحد.. وذلك ما يصعب أن يسلِّم به الناس عامة - أم أن الضجة كانت مسموعةً حقاً؟ المهم أنَّه قد ميز، على حين فجأة، خشخشت يد محاذرة على مقبض الباب وحفيف ثوب يلامسه. لا شك أن أحداً يختبئ وراء هذا الباب، ويصغي من الداخل، مثلما ينصت من الخارج، حابساً أنفاسه مثله... تعمد راسكولنيكوف أن يتحرك، ودمدم بصوت عالٍ بغية أن لا تحس العجوز أنَّه يختبئ، ثم قرع الجرس مرة ثالثة، ولكنَّه قرعه بهدوء هذه المرة ورصانة، بغير تعجل يدل على نفاد الصبر. إن

ذكرى هذه اللحظة ستعاوده في المستقبل واضحةً مضيئةً، لأنَّها قد انطبعت في ذهنه إلى الأبد. إن راسكولنيكوف لم يقدر أن يفهم أبداً بعد ذلك، من أين جاءه ذلك المكر كُلُّه، بخاصة أن فكره كان يُظلِمُ بين حين وحين، وأنَّه أصبح لا يكاد يشعر بجسمه... وبعد لحظة سمع صوت المزلاج يسحب لفتح الباب.

# الفصل السابع

شق الباب كما حدث في المرة السابقة، وحدقت إلى راسكولنيكوف من عمق الظلمة عينان ريابتان. هنا فقد راسكولنيكوف هدوءه، فارتكب خطيئة كبيرة كادت تفوت عليه كل ما خطط.

خاف راسكولنيكوف من أن تفزع العجوز من وجودها وحدها معه، وكان لا يأمل أن يرد لها مظهرة سكينتها، فأمسك الباب بعنف فلا يخطر ببالها أن تُغلقه، فلما رأت العجوز هذا لم تردَّ عليه لكنَّها لم تترك القبضة، فكادت تُسحب إلى قرب السلم. وحين رآها راسكولنيكوف ما تزال واقفة في العتبة لتسد الطريق، مشى باتجاهها، فإذا بذعر جديد يتلبسها، وتتقهقر إلى الوراء بوثبة واحدة. وتحاول ان تقول شيئاً فلا تستطيع، وتحملق إليه بكلتا عينيها.

قال لها وهو يصطنع هيئة طلقة بقدر ما يستطيع:

ـ نهارك سعيد ألينا إيفانوفنا.

ولكن صوته لم يكن متجاوباً، كان الكلام تأتأة، وتابع:

ـ جئتك بالرهن... إنما لنمض إلى حيث النور...

ولم ينتظر أن تدعوه إلى الدخول بل نفذ إلى الغرفة بخطى حازمة. جرت العجوز وراءه. انحلت عقدة لسانها، فقالت:

ـ رباه! ما هذا؟ من أنت؟ ماذا تريد؟

ـ عجيب ألينا إيفانوفنا... أنا راسكولنيكوف... تعرفينني منذ زمن... خذي... جئتك بالرهن الذي وعدتك به المرة الأخيرة.

قال هذا وقدم الرهن.

أخذت العجوز تتفحص الرهن، ولكنَّ سرعان ما عادت عيناها تحدقان إلى عيني الزائر الغريب. كانت تتملاه بانتباه وخشية. انقضت لحظة، حتى

خيل إلى راسكولنيكوف أنَّه يرى في عينيها نوعاً من السخرية، كمن أدرك كل شيء. شعر راسكولنيكوف بأنَّه يفقد تملكه نفسه. وبأن فزعاً يغزوه، خوفاً شديداً قد يدفعه إلى الهرب إذا ثابرت على هذا التحديق دون أن ترد.

قال فجأة وبخبث:

ـ مالك تنظرين إليَّ هكذا كمن لم يعرفني؟ خذي الرهن إذا شئت... وإلا لجأت إلى سواك! الوقت ضيق...

لم يشاء راسكولنيكوف أن ينطق بهذه الكلام، ولكنَّها خرجت دونما تفكير.

استردت العجوز الطمأنينة تقريباً. فهذه النبرة الحازمة أزالت فوفها.

سألته وهي تتطلع إلى الرهن:

ـ ولكن يا سيد، لِمَ تفاجئني هكذا؟ وما هذا الذي في يدك؟

قال راسكولنيكوف:

ـ هو علبة سجائر مصنوعة من فضة. حدثتك عنها سابقاً.

مدت العجوز يدها وقالت:

ـ ولكن ما أشد شحوبك! ويداك ما بالهما ترتجفان! هلا أخذت حمَّاماً، هه؟ بصوت متقطع:

أنا محموم!

وبعناء قال:

ـ وحين لا يجد الإنسان ما يأكله يشحب لونه.

لقد تركته قواه من جديد. ولكنَّ جوابه كان معقولاً. تناولت العجوز الرهن. وسألت راسكولنيكوف، وهي تتفحص الرهن مرة أخرى:

ـ ما هذا؟

ـ علبة سجائر.... فضة...... انظري.

ـ لا يبدو أنَّها من فضة!.... لكنك لففتها لفاً زاد من بريقها.

قالت هذا وأخذت تحاول حل عقدة الخيط وتقترب من النافذة حيث الضوء أقوى. كانت جميع نوافذ البيت مغلقة رغم شدة الحرارة. تركت راسكولنيكوف لحظات، وأدارت لهُ ظهرها. فك الرجل أزرار معطفه وأخرج الفأس من العلاقة بعض الشيء، فهو ما يزال يُمسكها بيده اليمنى تحت المعطف. لقد أصاب ذراعيه وهنٌ شديد، وأحس أنَّهما تزدادان خدراً وتوانياً لحظة إثر لحظة، وتصيران أشبه بقطعتين من خشب. خشي أن يرخي سلاحه أو تركها تسقط..... وأخذ رأسه يدور فجأة..... هتفت العجوز تقول بزعل وهي تنوي أن تتقدم نحوه:

ـ من ذا يخطر بباله حقَّاً أن يربط صُرةً ما هكذا؟

لم يبق في وقت راسكولنيكوف متسع للحظة واحدة يضيعها. وها هو ذا يخرج الفأس، ويرفعها بكلتا يديه، وينهال بها على رأسها وهو لا يكاد يعي ماذا يفعل. ولم يكد يبذل جهداً، حتى لتوشك أن تكون الحركة التي قام بها حركة آلية. لقد تمت هذه الحركة كما لو من تلقاء ذاتها ودن أن تتدخل قواه فيها، ولكنه ما أن أسقط الفأس حتى عادت إليه قواه.

كانت العجوز على عادتها عارية الرأس، وكان شعرها الشائب، الخفيف، المدهون، بكثير من الزيت، المجدول على شكل ذيل فأرة، المشدود ببقية مشط، كان ناتئاً على قفا رقبتها. ولأن قامتها قصيرة كانت ضربة الرأس قد سقطت على قمة جمجمتها. أطلقت العجوز صرخة، ولكنَّها صرخة خائرة جداً. ومال جسمها إلى الأرض ولكنها استطاعت أن ترفع يديها إلى رأسها. وكانت ما تزال تمسك "الرهن" بإحدى يديها. هوى راسكولنيكوف على رأسها بضربة أخرى، ثم بضربة أيضاً، وعلى قمة الجمجمة كذلك. انبجس الدم من الرأس كأنَّه ينسكب من كأس مقلوبة، وتهاوى الجسم إلى وراء. تراجع راسكولنيكوف ليخلي لها مكاناً، ثم أسرع يميل على وجهها: كانت العجوز قد ماتت. لكأن عينيها المحملقتين تريدان أن تَخرُجا من

حُجاجيهما. والوجه كلُّه، ولاسيما الجبين، تبدو عليه علامات الانقباض والتشنج التي ترافق الاحتضار.

وضع راسكولنيكوف الفأس على أرض الغرفة قرب الميتة، وأسرع يدس يده في جيبها متحاشياً أن تتسخ يداه بملامسة الدم. دس يده في ذلك الجيب الأيمن الذي أخرجت منه العجوز مفاتيحها في المرة الماضية. كان راسكولنيكوف محتفظاً بصحو ذهنه. كان لا يشعر بظلام فكره أو بدوار في رأسه. إن يديه وحدهما ما تزالان ترتجفان. سوف يتذكر راسكولنيكوف في المستقبل أنَّهُ كان في تلك اللحظة شديد الانتباه كثير الحذر، وأنَّه قد عرف كيف يتجنب أن يُلطخ يديه بالدم... سرعان ما أخرج المفاتيح كانت كما سابقاً، مجمعة في حزمة واحدة تضمها بعضها إلى بعض حلقة فولاذية. حمل راسكولنيكوف المفاتيح بيديه وهرول مسرعاً إلى غرفة النوم لا يضيع ثانية واحدة. إنَّها حجرة وضيعة جداً خزنتها عامرة بأيقونات كبيرة ذات زجاج. وأمام الحائط المقابل يقوم سرير كبير، نظيف جداً، لهُ غطاء من حرير، مبطن بالقطن ومصنوع من عدة أقمشة مجتمعة. وعند الجدار الثالث توجد خزانة ذات أدراج. شيء غريب: ما أن أخذ راسكولنيكوف يدخل أحد المفاتيح في قفل الخزانة، وما أن سمع صرير المفاتيح، حتى سرى في كيانه كلِّه نوع من قشعريرة أو رعدة. وتمنى فجأة من جديد أن يدع كل شيء وينصرف. ولكن ذلك لم يدم سوى لحظة. لقد فات الأوان. وسخر راسكولنيكوف من نفسه حين وافته فكرة أخرى تنبهه إلى الخطر. خيل إليه بغتة أن العجوز ربما كانت ما تزال حية وربما تصحو من غيبوبتها. فإذا به يترك المفاتيح والخزانة، ويعود إلى الجثمان ركضاً، ويتناول الفأس ويشهرها فوق العجوز مرةً أخرى. ولكنَّه لم يفعل. كانت قد توفيت. لا مجال للريبة. وحين مال راسكولنيكوف عليها ليدقق النظر فيها عن كثب، رأى رؤية واضحة أن الجمجمة انكسرت وأن قمتها انحرفت قليلاً. اشتهى أن يضع هنالك إصبعه،

ولكنَّه امتنع: يكفيه أن يرى. وكان الدم قد شكل على أرض الحجرة بركة واسعة. ولمح راسكولنيكوف، على حين فجأة حبلاً صغيراً في عنق العجوز، فشده، ولكن الحبل كان متيناً فلم ينقطع، وكان إلى ذلك مُشرباً بالدم. حاول راسكولنيكوف أن ينزع الحبل ولكن شيئاً ما كان يمسكه. ثارت ثائرة راسكولنيكوف، فرفع الرأس من جديد عازماً أن يقطع الحبل فوق جسد العجوز، لكنَّه لم يجرؤ أن يفعل، واستطاع، بعد دقيقتين من الجهد أن يقطع الحبل دون أن يحز الجثمان، ملطخاً يديه بالدم والفأس معاً. وسحب الحبل. لم يخطئ ما توقع: هي صُرة مال. لقد عُلق بالحبل صليبان، أحدهما من خشب السرو، والثاني من نحاس، وعلقت به أيقونة صغيرة مطلية بالمينا وحافظة نقود من جلد شامواه، صغيرة متسخة جداً، ولها إطار وحلقة من فولاذ. كانت حافظة النقود تبدو محشوة حشواً. وضعها راسكولنيكوف في جيبه دون أن ينبشها. ثم ألقى الصليبين على صدر العجوز، وركض إلى غرفة النوم من جديد حاملاً الفأس هذه المرة.

وبسرعة محمومة، أمسك المفاتيح، وعاد ينهمك في معالجتها، ولكن دون أن يفلح أيضاً. فما من مفتاح من هذه المفاتيح كان يبدو ملائماً للقفل. لا يرجع ذلك إلى اتساخ يديه، بل إلى أنَّه كان يخطئ في كل مرة. كان يدرك أن هذا المفتاح من المفاتيح ليس هو المفتاح المطلوب. وأنَّه يدخل في القفل.

ومع ذلك كان يستمر في محاولة إدخاله. وفجأة تذكَّر ووعى أن المفتاح الكبير المسنن المتأرجح الآن بين سائر المفاتيح الصغيرة، لا يناسب الخزانة ذات الأدراج حتماً (وذلك ما قال لنفسه في المرة السالفة)، بل يناسب صندوقاً ما، وأن كلَّ شيء ربما كان مودعاً مخبأً في ذلك الصندوق. ترك راسكولنيكوف الخزانة ذات الأدراج، وأسرع يندس تحت التخت، لعلمه أن النساء من عاداتهن أن يخفين صندوقهن في هذا المكان. ولم يخطئ ظنه إذ كان يوجد تحت السرير فعلاً صندوقٌ كبير، يزيد طوله على أرشين، وله

غطاء محدوب منجد بجلدٍ رقيق أحمر تُزينه مسامير صغيرة من فولاذ. انطبق المفتاح المسنن على القفل انطباقاً تاماً، وفتح الصندوق. هذا معطف من فرو الأرنب، مبطن بحرير أحمر، يعلو سائر الأشياء التي يضمها الصندوق، ويحميه شرشف أبيض يوجد تحته فستان من الحرير ثم شال. وكان أسفل الصندوق يبدو فارغاً من كل ما يهم. راح راسكولنيكوف يمسح بالبطانة الحمراء يديه الملطختين بالدم، قائلاً لنفسه: "هي حمراء والدم لا يرى على قماش أحمر كما يرى على غيره"، ولكنَّه سرعان ما عدل عن ذلك، وتساءل مذعوراً: "رباه! أنا بسبيل أن أصير مجنوناً؟"

غير أنَّه ما كان يحرك الخُرق الموجودة في أسفل الصندوق حتى انزلقت من تحت المعطف، على حين فجأة، ساعة ذهبية. فقلب راسكولنيكوف عندئذٍ كل ما يضمه الصندوق. كان بين الخرق، فعلاً، أنواع عديدة من أشياء ذهبية (لعلها أشياء رهنها أصحابها عند أليونا إيفانوفنا ثم لم يستردوها): كان ثمة أساور وسلاسل وأقراط ودبابيس لربطة العنق وغير ذلك. إن بعض هذه الأشياء موضوع في علب، وبعضها ملفوف بورق جرائد لا أكثر، ولكن ورقة الجريدة مزدوجة ومربوطة بخيط في عناية وحرص. أسرع راسكولنيكوف يحشو بهذه الأشياء جيوب سرواله ومعطفه، مهملاً حتى أن يفض الصُرر ويفتح العلب. ولكن وقته لم يتسع لأخذ مقدار كبير من هذه الأشياء...

ذلك أنَّه سمع على حين فجأة أصوات وقع أقدام في الغرفة التي يرقد فيها جثمان العجوز. فجمد وانشلَّ حتى لكأنَّه ميت. ولكن السكون لم يلبث أن عاد يخيم. فظَّن أنَّه كان ألعوبة وهمٌ من أوهام الخيال. وما هي إلا برهة وجيزة حتى سمع صرخة ضعيفة تنطلق على حين بغتة، كانت تلك الصرخة أشبه بأنة خافتة متقطعة، ثم عاد الصمت يخيم من جديد. إن صمتاً كصمت الموت قد ساد الجو خلال دقيقة أو دقيقتين. قرفص راسكولنيكوف قرب الصندوق ينتظر وهو لا يتنفس إلا بكثير من العناء. ثم نهض بوثبة واحدة. فأمسك الفأس

واندفع يخرج من غرفة النوم.

في وسط الغرفة كانت ألزافيتا واقفة وفي يدها سلة كبيرة. كانت تنظر إلى أختها الميتة مذعورة مصعوقة. كان وجهها شاحباً شحوباً قاسياً، وكانت كأنَّها لا تملك من القوة ما يمكنها من أن تصرخ. فلما رأت راسكولنيكوف أخذت ترتعش كورقة في مهب الريح. وسرت في جسمها كله رعدة قصيرة متقطعة. وتقبَّض وجهها بتشنجات. رفعت ذراعها، وفتحت فمها، دون أن تصرخ مع ذلك، وأخذت تتقهقر إلى الوراء بخطى بطيئة أمام راسكولنيكوف، محاولةً أن تلجأ إلى ركن من الأركان. وكانت في أثناء ذلك تحدق إليه تتفرس فيه، ولكنها ما تزال خرساء لا تنطق، كأنما انقطعت أنفاسها. هجم راسكولنيكوف عليها مسلحاً بفأسه. تقلصت شفتا ألزافيتا من الألم، وكأنها طفل من أولئك الأطفال الصغار جداً الذين إذا رأوا الشيء الذي يخيفهم، همُّوا أن يصرخوا دون أن يحوِّلوا نظراتهم عن الشيء الذي يثير خوفهم. مسكينة ألزافيتا! فكانت تبلغ من السذاجة والبساطة، ومن فرط ما عانته من اضطهاد ورعب في حياتها أنَّها لم ترفع حتى ذراعها لتحمي وجهها، مع أن هذه الحركة هي الحركة الطبيعية في مثل تلك اللحظة، لأن الفأس إنَّما كانت مصوبة إلى رأسها. اكتفت ألزافيتا بأن رفعت قليلاً يدها اليسرى التي لا تحمل شيئاً، فمدت ببطء نحو راسكولنيكوف كأنَّما لتدفعه عنها. هوى راسكولنيكوف عليها بحدِّ الفأس، فأصابت الضربة جمجمتها، وشقت أعلى جبينها حتى اليافوخ تقريباً. سقطت ألزافيتا على الأرض كتلة واحدة، فتناول راسكولنيكوف سلتها، وقد طار صوابه، فرماها وأسرع راكضاً إلى حجرة المدخل.

كان الذعر يتلبسه أكثر فأكثر، لاسيما بعد الجريمة الثانية هذه التي لم تدخل في الحساب قط. هو الآن يتعجل المغادرة بكل سرعة. ولو كان عندئذٍ في حالة تمكنه من أن يرى رؤية أوضح وأن يفكر تفكيراً أسلم، لو

استطاع أن يدرك صعوبة وضعه اليائس الفظيع مستحيل، لو استطاع أن يتصور، عدا ذلك، العقبات العديدة التي يجب أن يتخطاها، وربما الجرائم الجمة التي سيرتكبها لانتزاع نفسه من هذا البيت والعودة إلى مسكنه، إذاً لكان من الجائز جداً أن يترك كل شيء، وأن يبادر فوراً إلى تسليم نفسه، لا عن خوف، بل عن شعور بالهول والقرف مما فعل. لقد كان المقت، خاصة، يزداد دقيقة بعد دقيقة. ما كان له الآن، بأي حال، أن يدنو من الصندوق، أو حتى من الغرفة.

ولكن نوعاً من الذهول، بل ومن الحلم، قد استولى عليه شيئاً بعد شيء، حتى لكأنَّه في بعض اللحظات قد نسي نفسه، أو قل نسي الأمر الأساسي وتشبث بالتفاصيل وحدها. ثم أنَّه حين ألقى نظرة على المطبخ لمح دلواً موضوعاً على حافة، وممتلئاً بالماء نصفه. فارتأى أن يغسل فيه يديه والفأس. كانت يداه الملطختان بالدم لزجتين. غمر حد الفأس بالماء، وتناول من حافة النافذة قطعة صغيرة من صابون كانت موضوعة في صحن متثلم، وأخذ يغسل يديه داخل الدلو. فلما انتهى من غسلهما، سحب الفأس، فنظم نصلها، ثم لبث ثلاث دقائق كاملة يدلك مقبضها حيث لطخها بالدم، حتى لقد استعمل في تنظيفه الصابون. وبعد ذلك مسح الفأس كلها بخرقة كانت تجف على مقربة منه فوق حبلٍ مشدود في المطبخ. ثم اقترب من النافذة وراح يتفحص الفأس، ولكن مقبضها ما يزال رطباً. دس راسكولنيكوف الفأس في العلاَّقة التي خاطها في داخل معطفه، ثم أخذ يفحص المعطف، والسروال والحذائين، بالقدر الذي أتاحه له النور الضعيف. لا شيء، من النظرة الأولى، يبدو على مظهره من خارج. على الحذائين فقط كان يُمكن أن يرى الناظرُ بضعة بقع. بلل راسكولنيكوف خرقة ومسح الحذائين. على أنَّه كان يعرف أنَّه لا يفحص نفسه جيداً، وأنَّه ربما كان هناك شيء يلفت الأبصار ولكنه لم يلاحظه. وقف في وسط الحجرة حائراً. وهذه فكرة مظلمة قاتمة تغزوه. وهي أنَّه

يتصرف تصرف مجنون، وأنَّه لا يملك في هذه اللحظة القدرة على التفكير أو الدفاع عن نفسه، وأن ما يجب أن يفعل قد يكون غير ما يفعله الآن. دمدم يقول: "رباه! إن عليَّ أن أهرب، أن أهرب!" واندفع نحو حجرة المدخل. ولكن هناك إنما كان ينتظره رعبٌ لم يشعر بمثله في حياته.

لبث راسكولنيكوف جامداً بلا حركة، وأخذ ينظرُ فلا يصدِّق عينيه: إن الباب الذي يفضي إلى فسحة السُّلَّم، هذا الباب الذي قرع جرسه ودخله منذ قليل، هو الآن مفتوح، موارب بعرض راحة يد كاملة. لا مفتاح ولا مزلاج إذاً، طوال الوقت الذي انقضى! إن العجوز لم تغلق إذاً بعد دخوله، ربما من باب الاحتياط بعد دخوله، ربما من باب الاحتياط والحذر! ولكن ما هذه الخواطر؟ ألم ير ألزافيتا بعد ذلك؟ فكيف يخطر بباله أنَّها لا بد أن تكون قد دخلت من مكان ما؟ إنها لم تخترق الجدران على أي حال!

وأسرع راسكولنيكوف إلى الباب فأوصد المزلاج.

ثم على عجل قال يحدث ذاته:

ـ لا، لأن ليس هذا ما يجب أن أفعل. ينبغي أن أنصرف، أن أنصرف... وسحب المزلاج، وفتح الباب، وراح يصغي إلى ضجة السُّلَّم متجسساً.

لبث هكذا مدة غير قصيرة. هناك، في بعيد، ربما عند باب العمارة، أصوات رجلين صارخين معولين، يتشاجران. تساءل راسكولنيكوف: "ما بالهما؟" وانتظر صابراً. وصمت كل شيء في آخر الأمر دفعة واحدة: افترق الرجلان. استعد راسكولنيكوف للخروج، فإذا بباب في الطابق الأسفل على حين فجأة صاخباً، فيخرج منه أحد ويأخذ يهبط درجات السلم وهو يدندن لحناً من الألحان. قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: "ولكن ما بالهم يحدثون مثل هذا الصخب الشديد؟" وعاد يغلق الباب عليه من جديد، وانتظر. وأخيراً انقطعت كل ضجة فما من حركة أو نأمة. خرج راسكولنيكوف، ولكنه ما أن وضع قدمه على أول درجة من السلم حتى سمع مرة أخرى أصوات وقع

أقدام.

كانت أصواتاً من بعيد، من أسفل السُّلَّم، ولكن راسكولنيكوف تذكر فيما بعد، تذكراً واضحاً جداً، أنَّه منذ سمع صدى أول خطوة، أوجس فوراً لسبب ما أن ذلك آت إلى هنا حتماً، إلى الطابق الرابع، إلى مسكن العجوز. لماذا؟ ماذا كان في تلك الضجة من شيء خاص ذي دلالة إلى هذا الحد؟ فكانت الخطوات ثقيلة، موزونة، أميل إلى البطء. هاهو ذا القادم يجتاز الطابق الأول، ها هو ذا يستمر بالصعود، إن صوت وقع خطاه يزداد عنفاً، وما ينفك! راسكولنيكوف يسمع الآن لهاثه. ها هو ذا يبلغ الطابق الثالث...هو قادم إلى هنا! أحس راسكولنيكوف فجأة بتجمد في جسمه. إن الأمور تجري كما تجري في الأحلام تماماً، حين يرى النائم نفسه ملاحقاً مطارداً، فيقترب منه خصمه ويريد قتله، فيظل متسمراً في مكانه إن صح التعبير، عاجزاً عن تحريك زراعة ولم يتب راسكنولنكوف إلى رشده إلا حين أخذ القادم يعبر إلى الطابق الرابع. فاستطاع عندئذٍ أن يرجع إلى البيت مسرعاً مما ذرا، أغلق على نفسه الباب، ثم أمسك المزلاج فدفعه دفعاً رفيقاً بلا ضجة، تقوده في ذلك غريزته، ثم التصق بالباب حابساً أنفاسه. فكان القادم المجهول قريباً من الباب هو أيضاً. إن كلاً من الرجلين يقف الآن أمام الآخر على نحو ما كان يقف راسكولنيكوف والعجوز منذ بعض الوقت، حين لم يكن يفصلهما إلا سُمك الباب، وحين كان راسكولنيكوف يصغي بكل انتباه وحذر.

تنفس الزائر مراراً بمشقة. قال راسكولنيكوف يحدث نفسه وقد تقلصت يده على الفأس: " لابد أنَّه طويل " ضخم". حقاً إن ذلك يشبه الأحلام كثيراً. أمسك الزائر حبل الجرس، وشده بعنف.

ما أن دوى رنين الجرس حتى أحسَّ راسكولنيكوف بأنَّه يسمع ضجة خفيفة في الغرفة كأن أحداً قد تحرك، حتى لقد أنصت جاهداً خلال بضع ثوانٍ، وقرع الزائر المجهول الجرس مرة أخرى وانتظر ثم إذا هو يثور على حين

غرة ويروح يهز قبضة الباب بكل ما أوتي من قوة. فكان راسكولنيكوف ينظر مذعوراً إلى المزلاج الذي بدأ يتهزز بالرزة. راسكولنيكوف يتوقع وقد شلَّه الرعب، أن يرى المزلاج ينخلع بين لحظة ولحظة. والحق إن انخلاع المزلاج لم يكن مستحيلاً. فقد كان الرجل يهز الباب هزاً قوياً يمكن أن يخلع المزلاج. خطر على بال راسكولنيكوف في إحدى اللحظات أن يسند المزلاج بيده. لكنَّه أمسك عن ذلك، لأن الرجل كان سيلاحظ هذه الحركة. أخذ راسكولنيكوف يشعر بدوار، وقال يحدِّث نفسه: "ها أنا ذا أوشك أن أقع" ولكن الزائر المجهول أخذ يتكلم، وسرعان ما عاد الوعي إلى راسكولنيكوف.

زأر الرجل المجهول يقول بصوت أجش:

- هيه! ماذا؟ هل هما نائمتان هناك أم أن أحداً خنقهما؟ اللعنة عليكما! هيه! أنت أليونا إيفانوفنا! يا عجوز الشؤم! وأنت الزافيتا إيفانوفنا، يا جمالاً لا يضارع! افتحا الباب! آه... إلى جهنم! أهما نائمتان فعلاً؟

وجن من الغضب مرة أخرى فشد حبل الجرس بكل قواه عشر مرات متتالية.

لا شك أنَّه رجل خطير الشأن، وهو فوق ذلك من روَّاد هذا المنزل.

وفي تلك اللحظة نفسها سمع صوت وقع خطوات صغيرة متعجلة على درجات السُّلَّم. كان شخص آخر يقترب. ولم يسمع راسكولنيكوف ضجة مجيئه في أول الأمر.

صاح القادم الجديد بصوت رنان مرح مخاطباً الزائر الأول الذي كان لا يزال يشد الحبل:

- أيمكن ألا يكون في البيت أحد؟ نهارك سعيد يا كوخ!

أردف راسكولنيكوف: "صوته يدل على أنَّه شاب في مقتبل العمر".

أجاب كوخ

ـ لا يعلم إلا الشيطان ماذا جرى! لقد أوشكت أن أكسر القفل. ولكن من أين تعرفني أنت؟

ـ ما هذا الكلام؟ ألم أغلبك أمس الأول ثلاث مرات متوالية بالبلياردو في مقهى "جامبرينوس"؟

ـ آ....

ـ أليستا إذاً في البيت؟ الأمر غريب! وفوق ذلك! أمر مزعج! أين عساها تذهب، هذه الشمطاء؟ أتيتها لأعمال...

ـ أنا أيضاً قادم إليها لذات الغرض، يا سيدي!....

صاح الشاب يقول:

ـ ماذا نفعل إذاً؟ يا لسوء الحظ! كنت أحسب أنني سأحصل على بعض المال.

ـ طبعاً لم يبق لنا إلا أن ننصرف، ولكن نحن على موعد؟ تباً لها من مخاتلة! هي التي حددت لي هذا الموعد! ثم أنا اضطررت من أجل الوصول أن أدور دورة طويلة. إلى أين عساها غادرت؟ لا أفهم! إنَّها تقبع في بيتها طوال العام. هذه الغادرة... وتتعفن في حيزها لا تبارحهُ... لأنَّها تشكو من أوجاع ساقيها فما بالها تمضي تتجول الآن على حين فجأة؟

ـ ما رأيك الآن أن نسأل البواب؟

ـ عم نسأله؟

ـ عن المكان الذي ذهبت إليه، وعن الوقت الذي ستعود فيه!

ـ هم... نسأل؟ ولكن كيف نسأل عن المكان الذي ذهبت إليه وهي لا تذهب إلى أيَّ مكان في يوم من الأيام؟

قال الرجل ما قال وشدَّ قبضة الباب مرة أخرى، ثم أضاف:

ـ لا فائدة! لم يبق إلا الرحيل.

هتف الشاب على حين بغتة:

ـ انتظر! أنظر... إن الباب يتحرك حين يهزّ.

ـ وماذا في هذا؟

ـ هذا يعني أن الباب ليس مقفلاً بالمفتاح، وإنما هو موصد بالمزلاج وحده. ألا تسمع صرير المزلاج؟

ـ وماذا في هذا؟

ـ كيف لا تفهم؟ معنى ذلك أن إحداهما، في اقل تقدير، موجودة في البيت، فلو أنَّهما خرجتا كلتاهما لأغلقتا الباب بالمفتاح من الخارج، لا بالمزلاج من الداخل. إنَّكَ تسمع صرير المزلاج... ألا تسمعه؟ ومن أجل إغلاق الباب بالمزلاج من الداخل لا بد أن يكون في البيت أحد. هل فهمت؟ هما إذاً في بيتهما، ولكنهما لا تريدان أن تفتحا.

هتف كوخ مدهوشاً:

ـ حقاً... حقاً! ترى ماذا تصنعان؟

وراح يهزُّ الباب غاضباً من جديد.

رد الشاب مرةً أخرى:

ـ انتظر! كفاك هزَّ الباب! إن لفي الأمر سراً! لقد قرعت الجرس وهززت الباب فلم تفتحا! معنى هذا: إما أنَّهما مغشى عليهما، وإما أنَّهما...

ـ وإما أنَّهما ماذا؟

ـ هلم نستدعي البوَّاب. الأفضل أن يتولى هو إيقاظهما!

ـ موافق.

وبدأ الرجلان النزول. ولكن الشاب ما لبث أن قال:

ـ انتظر! ابق أنت هنا، وأنا أستدعي البواب.

ـ أبقى هنا؟ لم؟

ـ لا يدري أحد ماذا يمكن أن يحدث.

ـ لك ما تشاء...

عقب الشاب بلهجة متحمسة.

ـ أرأيت؟ إنني أهيء نفسي لوظيفة قاضي تحقيق! الأمر واضح، وا...ضح إلا شك أن ثمة سراً.

واندفع الشاب ركضاً.

فلما أصبح كوخ وحيداً شد حبل الجرس برفق، فرن الجرس رنة واحدة، ثم هزَّ قبضة الباب مرة أخرى ببطء، كمن يفكر أو يحاذر، فهو يشدها إليه ويرخيها ليتأكد من أن الباب ليس موصدا إلا بالمزلاج. ثم مال إلى تحت لاهثاً، ونظر من ثقب القفل، ولكن المفتاح كان مدسوساً فيه من الداخل، فلا يمكن أن يرى شيء.

لبث راسكولنيكوف ساكناً جامداً، قابضاً على فأسه. كان في حالة قريبة من الهذيان. بل كان يتهيأ لأن يقاتلهما إن دخل أحد. وخطر بباله مراراً حين كانا يقرعان ويتشاوران أن يحسم الأمر دفعة واحدة فيناديهما من خلال الباب. واستبدت به ببعض الثواني رغبة مجنونة رعناء في أن يسخر منهما، وأن يستهزئ بهما، وأن يمطرهما بوابل من الشتائم قبل أن يفتحا الباب. ولقد ومضت له هذه الخاطرة بسرعة البرق: "الأفضل أن يتم الأمر بأقصى سرعة". قال الزائر:

ـ اللعنة! ولكنَّه....

وكان الوقت ينصرم. مضت دقيقة، وتلتها أخرى... دون أن يرجع أحد. أخذ كوخ يضطرب.

وها هو ذا يهتف فجأة.

ـ اللعنة!

ونفذ صبره، فترك مكانه، ونزل بسرعة هو الآخر. إن أصوات وقع حذاءيه تدوي على السُّلَّم. ثم انقطعت هذه الأصوات.

ـ ما العمل يارب؟

قال راسكولنيكوف هذا ثم سحب المزلاج وشق الباب. لم يسمع أية نأمة. ومن دون أن يتدفق فكره، خرج بغتة وأغلق الباب وراءه بقدر ما يستطيع من أحكام، واندفع يهبط السلم.

حتى إذا اجتاز ثلاثاً من فسحات السلم سمع صخباً شديداً يدوي تحت. أين يختبئ؟ لم يعرف أين يستطيع أن يختبئ. حتى لقد تهيأ لأن يقفل راجعاً وأن يعود إلى بيت العجوز هرولة.

ـ هيه، لعنة الله عليك! يا للشيطان! أوقفوه!

إن الشخص الذي أطلق هذه الصرخات قد وثب من شقة في أسفل، وراح ينزل السلم دحرجة إن صح التعبير، صائحاً بأعلى صوته:

ـ ميتكا! ميتكا! ميتكا! ميتكا[1]! شيطان يقشر بدنك!

انتهى الصياح بعويل حاد، فكانت أصداؤه تترجع في باحة المنزل ثم صمت كل شيء. ولكن في تلك اللحظة أخذ عدة رجال يصعدون السلم محدثين ضجة ضخمة وهم يتكلمون كثيراً بصوت عال. لعل عددهم ثلاثة أو أربعة. وميز راسكولنيكوف ذلك الصوت الرنان، صوت الشاب الذي كان يرابط في الباب مع كوخ منذ قليل. قال لنفسه: "أنَّهم هم!"

شعر راسكولنيكوف بيأس مطلق فمضى إلى لقائهم قدماً قائلاً لنفسه: "ليكن ما يكون!". لقد ضاع كل شيء: إذا أوقفوه فقد ضاع كل شيء، وإذا تركوه يمر فقد ضاع كل شيء لأنَّهم سيتذكرونه... أوشكوا أن يلتقوا. ليس يفصلهم الآن إلا طابق واحد! وإذ بالنجاة تواتيه فجأة. فبعد بضع درجات، على اليمين، كانت هناك شقة خالية مفتوح بابها، هي تلك الشقة نفسها التي تقع في الطابق الثاني التي كان يعمل فيها الدهانون. لقد غادرها الدهانون منذ قليل، بمصادفة تشبه ان تكون عمداً. لا شك أنَّهم هم الذين خرجوا منذ قليل

1- تصغير دمتري

محدثين صخباً شديداً. إن خشب الأرض في هذه الشقة ما يزال طلاؤه غضاً. وفي وسط الغرفة الأولى طشت ووعاء مملوء دهاناً وفرشاة كبيرة. تسلل راسكولنيكوف إلى الشقة من الباب المفتوح في مثل لمح البصر سرعة، واستند إلى الحائط. وحسن ما فعل لأن الرجال كانوا قد وصلوا إلى فسحة السلم، فداروا وصعدوا إلى الطابق الرابع، وهم ما يزالون يتكلمون بصوت عال. انتظر راسكولنيكوف بضع لحظات ثم خرج سائراً على رؤوس الأصابع وأنشأ يهبط السلم راكضاً.

ما من أحد كان على السُّلَّم! وما من أحد كان تحت قبة مدخل العمارة! اجتاز العتبة مسرعاً، حتى إذا سار في الشارع، التفت يسرة.

كان يعلم حق العلم، كان يعلم علم اليقين إنَّهم في هذه اللحظة موجودون في بيت العجوز، وأنَّهم قد دهشوا كثيراً حين رأوا الباب مفتوحاً بعد أن كان مغلقا منذ قليل، وأنَّهم ينظرون إلى الجثتين، وأنَّهم لن يحتاجوا إلى أكثر من دقيقة واحدة من أجل أن يدركوا حق الإدراك أن القاتل قد بارح المكان مُنذُ برهةٍ جديدة، وأنَّه أفلح في الاختباء بمكان ما، وأنَّه قد تسلل من بين أصابعهم إن صح التعبير. ولعلهم قدَّروا أيضاً أن هذا القاتل قد اعتصم بالشقة الفارغة بينما كانوا يصعدون السُّلَّم. ومع ذلك لم يجرؤ راسكولنيكوف أن يحث خطوته، رغم أنَّه ما يزال هناك مائة خطوة عليه أن يقطعها حتى يصل إلى المنعطف التالي. تساءل: "ماذا لو تسللت فاختبأت تحت أحد الأبواب؟ ماذا لو انتظرت فترة ما في سلم منزل مجهول؟" ثم أجاب على سؤاله بالقول: "لا، هذا رأي خاطئ!" وتساءل أيضاً: "ماذا لو رميت الفأس في مكان ما؟ ماذا لو ركبت عربة؟" ثم أجاب نفسه: "لا، هذا رأي خاطئ، خاطئ!"

ها هو ذا يصل أخيراً إلى زقاق، فيدخل فيه وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. ولكنه فَهم أنَّه الآن تملَّص من الورطة أو يكاد إذ أنَّه في هذا الزقاق لا يثير حوله الشبهات كما يمكن أن يثيرها هناك. ثم إن الناس يذهبون ويغدون

هنا كثيراً فضاع راسكولنيكوف في الجمهور كحبة رمل. ولكن تلك المحن كلها كانت قد هدت قواه، فهو لا يكاد يستطيع أن يسير. كان العرق يسيل منه، وكانت عنقه مبتلة مخضلة، حتى إن أحد المارة صرخ يقول حين وصل راسكولنيكوف إلى القناة: "ما أكثر ما شربتَ!"

أصبح راسكولنيكوف لا يعي نفسه كثيراً، وكانت حاله تزداد سوءاً عند كل خطوة جديدة. إن اللحظة الوحيدة التي بقيت في ذاكرته هي اللحظة التي وصل فيها إلى رصيف القناة، فأرعبه أن يرى أن الناس هناك قليل، فمن الممكن أن يُلاحظ. فأوشك عندئذ أن يعود أدراجه إلى الزقاق. ومع ذلك، ورغم أنَّه قد بلغ من الضعف أنَّه لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه، فقد دار دورة طويلة، ورجع إلى بيته من جهة أخرى تماماً.

وحين اجتاز مدخل العمارة التي فيها غرفته، لم يكن قد استرد صحو ذهنه بعد. ومهما يكن من أمر فإنَّه لم يتذكر الفأس إلا حين صار في السلم، مع أن هذه المسألة هي من أخطر المسائل التي كان أن يَحُلَّها. لقد كان عليه أن يعيد الفأس إلى مكانها مهما كلف الأمر، وذلك على أخفى نحو ممكن. يجب أن نذكر أنَّه كان بطبيعة الحال عاجزاً حتى أن يتصور أن من الأفضل له، بدلاً من إعادة الفأس إلى مكانها، أن يرميها، ولو بعد مدة، في أي مكان، في فناء عمارة من العمارات.

جرى كل شيء على خير وجه. كان باب غرفة البواب مغلقاً، ولكنَّهُ ليس مقفلاً بالمفتاح. معنى ذلك أن البواب لا بدَّ أن يكون في غرفته. ولكن راسكولنيكوف كان قد بلغ في العجز عن التفكير في أي شيء أنَّه أقبل على غرفة البواب بخطى حاسمة، وفتح الباب. ولو قد سأله البواب عندئذٍ: "ماذا تريد؟" إذاً لكان من الممكن ألا يزيد على أن يمد إليه الفأس. ولكن البواب كان غائباً في هذه المرة أيضاً، واتسع وقت راسكولنيكوف لأن يعيد الفأس إلى مكانها تحت الدكة، حتى أنَّه لم يفته أن يضع فوقها الحطبة التي كانت

موضوعة عليها حين أخذها.

واستطاع بعد ذلك أن يبلغ غرفته دون أن يصادف في طريقه أي مخلوق. وكان باب صاحبة البيت مغلقاً. حين دخل راسكولنيكوف حجرته ارتمى على الأريكة دون أن يخلع ملابسه. ولم ينم، وكان في حالة تشبه التحذر، فلو دخل عليه أحد في ذلك الوقت، لأسرع يثب عن سريره واقفاً، ولأخذ يصرخ. إن شزرات من أفكار تتصادم في رأسه، ولكنَّهُ، رغم الجهود التي بذلها، لم يستطيع أن يقبض على أية فكرة من تلك الأفكار، ولم يستطع أن يتلبث على واحدة منها...

# الجزء الثاني

## الفصل الأول

لبث راسكولنيكوف راقداً هذا الرُقاد برهة مديدة. وكان يحدث له أن يستيقظ نصف يقظة، فيلاحظ في أثناء تلك الدقائق المعدودة أن الليل قد حل منذ وقت بعيد، ولكن لم يخطر له قط أن ينهض. ورأى أخيراً أن النور قد انتشر فكأنَّه النهار. كان مستلقياً على ظهره، وهو ما يزال على تلك الحال من الحذر. ومن الشارع كانت تصل إليه أصوات عويل رهيبة، وهي أصوات كان يسمعها كل ليلة تحت نافذته بعد الساعة الثانية من الصباح، وكانت هي التي توقظه من نومه. قال راسكولنيكوف لنفسه: "آ... ها هم السكارى يخرجون من خماراتهم. لا شك أن الساعة تجاوزت الثانية!" وبوثبة واحدة، نهض على حين فجأة عن الأريكة وقال يخاطب نفسه: "ماذا؟ أتكون هي الساعة تخطت الثانية؟" ثم عاد يقعد على الأريكة، وسرعان ما عاد إلى ذهنه كل شيء، فإذا به يتذكر كل ما حدث، دفعة واحدة في لحظة قصيرة.

اعتقد في أول الأمر أنَّه فقد عقله. وها هي ذي رعدة باردة تسري في جسمه. ولكنها رعدة ناشئة أيضاً عن الحمى التي انتابته منذ مدة بينما كان نائماً، وهي ترجه الآن رجا تجعل أسنانَّه تصطك. فتح الباب وأدار إذنه: كان كل شيء في المنزل راقداً هادئاً. دهش، وألقى نظرة على نفسه وعلى ما حوله. لم يستطع أن يفهم كيف أمكنه، في ليلة أمس، حين ولج حجرته، أن لا يوصدها بالكلابة، وأن يرتمي على أريكته دون أن ينزع ثيابه، ولا قبعته. كانت القبعة قد تدحرجت على الأرض فهي ترقد الآن قرب الوسادة. تساءل راسكولنيكوف: "لو دخل عليَّ أحد، ماذا له أن يظن؟ أله أن يظن أنني

سكران، ولكن..." وهرع إلى النافذة. كان الضوء منتشراً. وأسرع يتفحص نفسه من الرأس إلى القدمين ليرى ألا يزال على ثيابه آثار. ولكنَّه لم يلبث أن قال لنفسه أن هذه الطريقة ليست هي الطريقة التي يجب عليه أن يتبعها، ثم خلع عنه ثيابه، وراح يفتشها وهو يرتجف من الحمى ارتجافاً شديداً. قلب ثيابه ثم قلبها منقباً في كل درزة ثم لم يثق بحسن ملاحظته، فأعاد التدقيق ثالثة. ولم يعثر على شيء. كان يبدو فعلاً أن كل أثر قد أمحى، سوى بعض قطرات من دم جامد في أسفل سرواله المهترئ. تناول سكيناً كبيرة فقص بها حاشية السروال. كان يبدو حقاً أن ليس ثمة آثار غير هذه. وتذكر بغتة أن حافظة النقود والأشياء التي أخرجها من صندوق العجوز ما تزال حتى الآن في جيبه. لم يكن قد خطر بباله أن يخرجها من الجيب وأن يخبئها، لا ولا فكَّر فيها منذ قليل، حين كان يفتش ثيابه. ما معنى هذا؟ وها هو ذا قد أخذ يسلها من الجيوب بمثل لمح البصر سرعة، ثم يرميها على المنضدة. حتى فرغ من إخراج كل شيء، ثم قلب الجيوب ليتأكد أكثر أنَّه لم يبق شيء في الجيوب، مضى بوضعها جميعاً في زاوية ما. ففي عمق هذه الزاوية يوجد ثقب تحت الورق الممزق الذي يغطي الجدار. فما هي إلا لحظات حتى دسَّ جميع الأشياء في الثقب تحت الورق، وقال يحدث نفسه: حسناً! تخبأ كل أمر! لا أحد رأى ولا أحد عرف! حتى حافظة النقود اختفت!" قال ذلك فرحاً وهو ينهض عن الأرض وينظر ببلادة إلى الركن الذي أصبح ورق الحائط فيه منتفخاً بارزاً. ولكنَّه ما لبث أن ارتعش من الرعب فجأة. ودمدم بائساً: "ربَّاه ماذا فعلت؟ أهكذا يُخبَّأُ شيءٌ ما؟"

الحق أن راسكولنيكوف لم يكن يقدِّرُ أنَّهُ سيأخذ من عند العجوز أشياء، بل كان يتصور أن لا يجد إلا مالاً، لذلك لم يهيئ مخبأ لما قد يأخذ من أشياء. قال يسأل نفسه: ولكن هل هناك الآن ما يدعو إلى الحبور؟ أهكذا يخبأ شيء ما؟ حقاً لقد ذهب عقلي" وانطرح فوق الأريكة مهدود القوى خائر

العزيمة، وسرعان ما عادت إليه تلك الرعدة التي لا تحتمل، وها هو ذا يشدُّ إليه، بشكل آلي، معطفه القديم الذي كان يرتديه طالباً، والذي يوجد الآن على كرسي، وهو معطف شتوي دافئ، لكنه قد أصبح منذ الآن أشبه بخرقة بالية. شد راسكولنيكوف المعطف، وغطَّى به جسمه. فاستولى عليه النعاس والهذيان من جديد، وغاب عن شعوره.

فما أن انقضت خمس دقائق حتى وثب عن ديوانه مرة أخرى، وعاد مسرعاً إلى ثيابه سائلاً نفسه: "كيف أمكنني أن أنام بينما لم أفعل شيئاً بعد؟ نعم، لم أفعل شيئاً بعد! حتى العلاقة لم أنزعها من تحت الإبط حتى الآن! كيف كان لي أن تغيب عن بالي أمر هام كهذا، كيف أمكنني أن أنسى قرينة خطيرة كهذه القرينة؟" وانتزع العلاقة، ثم أسرع يقطِّعها قطعاً صغيرة ويرميها واحدة إثر واحدة تحت الوسادة بين الغسيل: "إن قطعاً ممزقة من قماش لا يمكن أن تثير الشبهات بأي حال، أو هذا ما يخيَّل لي....." ذلك ما كان يردده راسكولنيكوف واقفاً في وسط الغرفة. ثم أخذ يجيل بصره حواليه، على أرض الغرفة، في جميع الجهات، ليرى هل أغفل شيئاً. فعل ذلك باهتمام يثير الضيق. كان على يقين من أن كل شيء يفارقه، حتى ذاكرته، وحتى أي قدرة على التأمل، فكان يعاني عذاباً لا طاقة له به. قال لنفسه سائلاً: "ماذا؟ أيكون الأمر قد بدأ منذ الآن؟ أهذا هو العقاب؟ نعم، نعم، هذا هو العقاب!" وعثر فعلاً على بقايا من قصاصات السروال كانت ملقاة على الأرض يستطيع أن يراها أول زائر. فصاح يقول وقد تاه عقله من جديد: "ماذا فعلت؟"

هنا راودته فكرة غريبة: ربما كانت ثيابه نفسها مغطاة بالدم، ربما كان ثمة بقع كثيرة ولكنَّه لا يراها ولا يلحظها، لأن رأيه قد فسد ولأن فكره قد أظلم!..... وتذكر فجأة أن حافظة النقود أيضاً قد تلطخت بالدم فقال: "معنى هذا أنَّه لا مهرب أن يكون في الجيب دم، لأنني دسست حافظة النقود في الجيب رطبة مخضلة". وقلب جيبه في مثل لمح البصر سرعة، فتحقق من صدق

ظنَّه: كان في بطانة الجيب بقايا دم فعلاً! قال لنفسه: "إذاً لم يذهب عقلي ذهاباً تاماً، إذاً مازلت أحتفظ بفكري وذاكرتي.... ولولا ذلك لما تذكرت، ولما كنت قادراً على استنتاج تلك النتيجة!" قال هذا وهو يشعر بالنصر، حتى أفلتت من فيه تنهيدة فرح. وأردف: "لم يكن ذلك إذاً إلا غيبوبة عابرة، لم يكن إلا وهناً ناشئاً عن الحمى!" وانتزع من سرواله كل بطانة الجيب الأيسر. وفي تلك اللحظة نفسها سقط شعاع شمس على حذائه الأيسر فأناره، فرأى راسكولنيكوف على الجوارب الذي كان خارجاً من الحذاء، آثار دم. هكذا بدا له فخلع حذاءه. "نعم، هي آثار دم. إن كل طرف الجوارب مرتو بالدم!" أغلب الظن أنَّه لم يحاذر فمشى عبر بركة الدم، وكان حذاءاه مثقوبين... تساءل راسكولنيكوف: "ولكن ما العمل بهذا، الآن؟ أين أضع هذا الجورب، وقصاصات حافة السروال وبطانة الجيب؟"

جمع كل شيء، أخذه بيده، ولبث واقفاً جامداً في وسط الغرفة. قال يحدث نفسه: "أأرميه في المدفأة؟ لا... فإنَّهم سيفتشون المدفأة قبل أن يفتشوا أي مكان آخر! أأحرقه؟ ولكن بماذا أحرقه؟ ما عندي عيدان كبريت. خير من ذلك أن أخرج فأمضي أرمي هذا كُلَّه في مكان ما! نعم، الأفضل أن أرمي هذا كله!" ذلك ما ردده راسكولنيكوف وهو يقعد على الأريكة مجدداً. وأضاف: "ويجب أن أرميه فوراً، بأقصى سرعة، في هذه الدقيقة نفسها!.... ولكن رأسه هوى على الوسادة من جديد، ومن جديد عاودته الرعدة الباردة التي لا تطاق، ومن جديد شد إليه معطفه يغطي به جسمه. وقد ظلت هذه الفكرة الواخزة توافيه مدَّةً طويلة، خلال ساعات عدة، وهي أن عليه فوراً، بلا إبطاء، أن يخرج فيرمي هذا كُلَّهُ في مكان ما، حتى لا يراه أحد، وعليه أن يفعل ذلك على عجل فوري!" وحاول عدة مرات أن ينهض عن الديوان. ولكنه أصبح الآن لا يقوى على النهوض. وهذه ضربة قاسية على الباب ترد إليه شعوره.

ـ هلاَّ فتحت الباب أخيراً! أأنت حيٌّ أم لا؟ أنَّه لا يفعل شيئاً سوى النوم. نعم،

إنَّهُ ينام أياماً كاملة، مثل كلب. يا لهذا الكلب! افتح! هلاَّ فتحت! لقد دقت الساعة العاشرة!

كذلك كانت تصيح ناستاسيا وهي تقرع الباب بقبضة يدها.

قال صوت رجل:

ـ قد لا يكون في غرفته!

قال راسكولنيكوف لنفسه: "عجيب! هذا صوت البوَّاب... ماذا يريد مني؟"

وانتفض واثباً، وجلس على الأريكة. كان قلبه يدق دقاً أليماً.

قامت ناستاسيا ترد على الرجل:

ـ لولا أنَّه في غرفته فمن عسى يوصد الباب بالكلابة؟ عجيب! هو الآن يحبس نفسه! أهو يخاف أن يُخطَف؟ افتح يا نوَّام! استيقظ يا كسلان!

ردَّ راسكولنيكوف: "ماذا يريد مني؟ لماذا يجيء البواب؟ اكتشف كل شيء إذاً! أأقاوم أم أفتح؟ سأضيع....."

وأنهض جسمه، ومال إلى أمام، وسحب الكلابة. كانت حجرته صغيرة بحيث يمكن أن يسحب الكلابة دون أن يغادر سريره.

صدق ظنه: كان البواب وناستاسيا واقفين في عتبة الباب.

ألقت عليه ناستاسيا نظرة غريبة، وَشَخَصَ هو ببصره إلى البواب وقد بدا عليه التحدي واليأس. مد إليه البواب ورقة سمراء مطوية مختومة بالشمع، وقال له وهو يناوله الورقة:

ـ استدعاء من المكتب!

ـ أي مكتب؟

ـ الشرطة تدعوك إلى المكتب...... ما أحد يجهل ما المكتب!........

ـ الشرطة؟..... لماذا؟

ـ أأنا أعلم؟ هم يستدعونك، فاذهب إليهم!

قال البواب ذلك، وتغرس في وجه راسكولنيكوف، وألقى نظره حوله، ثم استدار لينصرف.

كانت ناستاسيا تنظر إلى راسكولنيكوف، ولا تحول بصرها عنه، وها هي ذي تسأله الآن:

ـ أحسب أنَّكَ مريضٌ جداً أليس كذلك؟

التفت البواب. وأضافت ناستاسيا

ـ إن بِكَ حُمَّى مذ أمس!...

لم يجب راسكولنيكوف، وما يزال يمسك الورقة التي لم يفضّها بعد...... واصلت ناستاسيا كلامها مشفقة عليه حين رأته يهُمَّ أن ينزل عن التخت.

ـ لا تنهض! أنت مريض! لا تذهب إلى الشرطة اليوم؟..... ما من أمر خطير يدعو إلى العجلة. ما هذا في يدك؟

نظر راسكولنيكوف إلى يده. كان لا يزال ممسكاً قصاصات حافة السروال، والجورب، وبطانة الجيب المنزوعة. لقد نام وهو يمسك بهذا كُلَّهُ بيده اليمنى. سوف يتذكر في المستقبل، حينما سيفكر في هذا الأمر، أنَّه استيقظ شبه يقظة في أثناء نوبة الحمى، فضغط على هذه الأشياء بيده ضغطاً قوياً، وعاد ينام وهو على هذه الحال.

ـ عجيب أمره! لمَّ هذه الخرق من الأرض، ثم نام معها كأنَّها كنز السلطان.

قالت ناسناًسيا ذلك وانفجرت بقهقهة عصبية مرضية معروفة بها. أسرع راسكولنيكوف يدس الأشياء كلها تحت معطفه، وحدق إلى الخادمة بنظرة نافذة، فشعر، رغم أنَّه لم يكن في تلك اللحظة قادراً على أن يحكم على الأمور حكماً عادلاً، شعر بأن من سَيقْبَضُ عليه، ويُعتَقل لا يعامل هذه المعاملة. ومع ذلك تساءل: "ولكن لم تستدعيني الشرطة؟"

قالت له ناستاسيا:

ـ أتشرب شاياً؟ هل تريد؟ في وسعي أن أجيئك بشاي. ما يزال عندنا بقية!

دمدم راسكولنيكوف مجيباً وهو يقف:

ـ لا بل سأذهب إلى الشرطة... سأذهب إليهم فوراً.

أردفت ناستاسيا:

ـ لن تقوى حتى على هبوط الدرج!

ـ سأذهب!

ـ افعل ما تشاء!

قالت هذا وانصرفت في إثر البوَّاب. فلم يلبث راسكولنيكوف أن أسرع يفحص الجورب وحافة السروال في الضوء، ثم قال لنفسه: "هناك بقع، لكنها لا تكاد ترى، فكل شيء متسخ متآكل ممحو. فمن لا يعرف شيئاً لا يرى شيئاً. الحمد لله على أن ناستاسيا لم تستطع أن تلاحظ شيئاً البته". قال هذا ثم فض الورقة وهو مرتبك ارتباكاً شديداً وأخذ يقرأ. لبث يقرأ مدة طويلة، ثم فهم أخيراً أنَّه استدعاء عادي من قسم الشرطة في الحي، يطلب منه أن يحضر إلى مكتب المفوض في الساعة التاسعة من هذا اليوم.

تساءل راسكولنيكوف وهو يعاني حيرة أليمة: "أمعقول هذا؟ أنا لا شأن لي بالشرطة شخصيا! ولماذا في هذا اليوم ذاته؟ ربَّاه! ألا فلينته هذا كلَّه بأسرع ما يمكن!" قال هذا وهم أن يركع ليصلي، ولكنه ما عتم أن عدل عن رأيه وقهقه ساخراً، ليس من الصلاة بل من نفسه. وشرع يلبس ثيابه مسرعاً، مخاطباً نفسه: "إن كنت قد هلكت فالأهلك! يستوي عندي كل شيء! ولكن يجب أن ألبس الجورب (هذا ما خطر بباله فجأة). سوف يتسخ في الطريق ويختفي ما عليه من آثار تثير الشبهة. ولكنَّه ما أن لبس الجورب حتى انتزعه على الفور مشمئزاً مذعوراً. ثم تذكر أنَّه لا يملك جوارب أخرى، فعاد يلبسه. ومرة أخرى انفجر يضحك مقهقهاً. "ما هذا كله إلا مواضعات شكلية! كل شيء نسبي!" قال وهو يفكر بجزء من عقله، ولكنه يرتعش بكل

جسمه، وأردف ثانية: "لقد نسيت مع ذلك الجورب. ومع ذلك لبسته أخيراً مع ذلك!" وحين قال هذا الكلام، كان ضحكه يتحول إلى يأس. وأضاف: "لا، إن هذا فوق طاقة قواي ...." كانت ساقاه تصطكان. فدمدم: "هو الخوف!" وألمٌ به دوار، وأخذ يشعر بصداع من شدة الحر. وتابع كلامه وهو يتجه نحو السلم: هذه حيلة! أنَّهم يريدون استدراجي إلى هناك بالحيلة، ليواجهوني بعد ذلك بالواقعات دفعة واحدة. المصيبة أنني في حالة تشبه الهذيان..... فتفلت مني حماقة ما....."

وفيما كان يهبط الدرج تذكر أنَّه ترك جميع الأشياء في الثقب وراء ورق الجدران فتساءل: "ماذا لو فتشوا الغرفة في أثناء غيابي؟" وتوقف عن السير. ولكَّن اليأس والاستهتار - إن صح التعبير اللذين كانا يستوليان عليه حين يتصور أنَّه هالك قد بلغا من القوة أنَّه لم يزد عندئذٍ على أنْ حرك يده بإشارة تدل على اللامبالاة وتابع سيره قائلاً: "فلينته هذا الأمر بأقصى سرعة ممكنة!"

كان الحر في الخارج شديداً لا يطاق. ما من قطرة مطر هطلت منذ أيام. هو جو الغبار والآجر والكلس مرة أخرى، هو جو الدكاكين العفنة والخمارات الكريهة من جديد. وها هم أولئك السكارى يطالعونه عند كل خطوة يخطوها والسعاة والحوذيون المكدودون. وانبهرت عيناه من أشعة الشمس حتى أوجعتاه. وأخذ يحس بدوار في رأسه، كما يحدث هذا للمرء حين يخرج في أثناء الحمى فجأة في يوم شديد القيظ.

فلمَّا بلغ منعطف شارع ليلة البارحة، نظر إلى تلك العمارة بقلق وألم، ثم لم يلبث أن حوَّل عنها عيناهُ فوراً.

وحين دنا من قسم الشرطة قال لنفسه: "إذا استجوبت فقد أعترف!" يقع قسم الشرطة على بعد مائتين وخمسون مترا من بيته تقريباً. لقد نقل قسم الشرطة هذا منذ مدة وجيزة إلى مقر جديد يقع في الطابق الرابع من عمارة بنيت حديثا. كان راسكولنيكوف قد ذهب مرة إلى المقر القديم، ولكن

هذا حدث منذ مدة طويلة جداً. حين اجتاز داخل العمارة لمح على اليمين سلما كان ينزله رجل يحمل بيده سجلا فقال لنفسه: "لا بد أنَّه بواب ولا بد إذاً أن يكون قسم الشرطة في هذه الجهة. وصعد السلم على غير هوى. كان لا يريد أن يسأل أحداً عن شيء.

وقال لنفسه وهو يصعد إلى الطابق الرابع: سأدخل فأجثو على ركبتي وأروي كل شيء.

السلم ضيق، شديد الانحدار يعج بالأقذار. مطابخ جميع الشقق في كل الطوابق تشرف على هذا السلم. وابوابها تظل مفتوحة طوال النهار تقريباً. لذلك يكون الجو في السلم خانقا جداً. بوابون يحملون سجلات تحت الأبط، وسعاة شرطة وزوار كثيرون من الجنسين يصعدون وينزلون بغير انقطاع. باب المكتب مفتوح على مصراعيه هو أيضاً. دخل راسكولنيكوف، ووقف في حجرة المدخل. الحجرة مزدحمة بأناس من سواد الشعب ينتظرون دورهم. الحر خانق هنا أيضاً. تضاف إلى ذلك رائحة الدهان (أعيد دهن الغرف وما يزال الدهان طريا) التي تبعث في النفس شعورا بالغثيان. انتظر راسكولنيكوف هنيهة ثم قرر أن يمضي إلى المكتب التالي. جميع الغرف صغيرة، سقفها واطيء جداً. كان راسكولنيكوف نافذ الصبر إلى درجة رهيبة وكان نفاذ صبره هذا يدفعه إلى أن يوغل أكثر. لميلاحظ أحد. في المكتب التالي كان يكتب كتاب لا يكادون يرتدون ثيابا خيرا من ثيابه، ولا يوصف مظهرهم إلا بأنَّه مظهر غريب عجيب في أقل تقدير. اتجه راسكولنيكوف إلى أحدهم. سأله هذا:

- ماذا تريد؟

أبرز راسكولنيكوف الاستدعاء الذي تلقاه من مكتب الشرطة.

قال الموظف بعد أن ألقى نظرة على الورقة:

هل أنت طالب ؟

فأجاب، نعم طالب سابقاً.

تفرس فيه الموظف. ولكن من دون أي فضول. هو رجل مشعث الشعر توحي نظرته أن هناك فكرة ثابتة تحاصر ذهنه.

قال راسكولنيكوف يحدِّثُ نفسه: "من هذا الرجل لن أعرف شيئاً فجميع الأمور عنده سواء".

هتف الموظف وهو يشير بإصبعه إلى الباب التالي:

ـ اذهب إلى أمين السر!

دخل الشاب الغرفة التي دلَّه عليها الرجل (هي الرابعة في صف الغرف). صغيرة جداً أيضاً، تزدحم بأُناسٍ ثيابهم تقريباً خير من الجالسين في المكاتب السابقة. وبينهم سيدتان. فأمَّا الأولى وهي ترتدي ملابس حداد فقيرة، كانت جالسة أمام منضدة قبالة أمين سر يملي عليها فتكتب. وأما الثانية فهي امرأة ضخمة الجسم حمراء الوجه، صارخة الزينة، مترفة التبرج، على صدرها حلية كبيرة كأنَّها صحن. وكانت هذه المرأة الثانية واقفة، متنحية بعض التنحي، يبدو عليها أنَّها تنتظر شيئاً. مدَّ راسكولنيكوف ورقته إلى أمين السر، الذي ألقى عليه نظرة سريعة وقال لهُ: "انتظر" وواصل اهتمامه بالسيدة التي ترتدي ثياب الحداد.

تنهد راسكولنيكوف متخففاً من قلقه وقال يحدث ذاته: "لم أستدع إذاً من أجل ذلك الأمر". وبدأ يسترد جرأته، ويحاول أن يستعيد هدوءه وطمأنينته. وأردف:

ـ "إن أيسر حماقة أرتكبها وأبسط زلَّة أقع فيها. يمكن أن تفضحني فضحاً رهيبا" ثم أضاف: "هم!.... خسارة! كيف يختفي الهواء من هنا... الجو خانق... إن رأسي أخذ يدور بمزيد من الشدَّة... وفكري أيضاً..."

شعر راسكولنيكوف بتشوُّشٍ رهيبٍ يغزو كيانه كُلَّه. خشي أن لا يستطيع السيطرة على نفسه. حاول أن يتشبث بأي شيء لا علاقة له بهمومه

ويفكر فيه، ولكنه لم يفلح.

كان أمين السر يشغل باله كثيراً: إن راسكولنيكوف ما ينفكُّ يحاول أن يقرأ في وجهه شيئاً، أن يوجس في محياه أمراً. هو شاب في نحو الثانية والعشرين من عمره، له وجهٌ مسمرٌّ، كثير الحركة، يوهم مظهره أنه أكبر من عمره، واضح العناية بقيافته، يحترم الموضة بجلاء، مدهون الشعر، وفرق يهبط حتى النقرة، في أصابعه البيضاء المؤنقة تسطع خواتم عديدة، وصدريتهُ تزدان بسلاسل من ذهب. حتى لقد خاطب أجنبياً كان هناك، ببضع عبارات بالفرنسية، فكان حديثه جيداً.

قال الشاب للمرأة السمينة ذات الوجه الأحمر والهندام الصارخ التي كانت ما تزال واقفة كأنَّها لا تجرؤ أن تقعد من تلقاء ذاتها رغم أن كرسياً كان وضع إلى جانبها، قال:

ـ اجلسي يا لويزا إيفانوفنا!

ردت السيدة:

ـ شكراً، وجلست، خشخش ثوبها الحرير. انتشر فستانها الأزرق كزرقة السماء المزدان بتخاريم بيضاء، المنتفخ كمنطاد، حول الكرسي. فشغل نصف الغرفة تقريباً، وانتشرت منه روائح عطر، ولكن السيدة أظهرت وجلها من احتلال كل تلك السعة، ومن نشر كل ذلك الأريج، فكان في ابتسامتها التي ظاهرها القحة كثيرٌ من القلق والجبن.

انتهت المرأة اللابسة ثوب الحداد، ونهضت بعد لأي. فإذا بضابط يدخل بصخب فجأة، ضابط ينم مظهره عن حماسة ونشاط ويرنح كتفه مع خطاه. ألقى الضابط على المنضدة قبعته المزدانة بشارة رسمية، وجلس على مقعد. ووثبت السيدة ذات الثوب المخشخش عن كرسيها مذ لمحته، وانحنت تحييه تحية عميقة لإيماءه إعجاب، لكن الضابط لم يولها أي اهتمام. ومع ذلك لم تجرؤ أن تعود إلى الجلوس بحضوره. لم يكن هذا الضابط إلا مساعد مفوض

الشرطة. كان له شاربان أحمران مدببان يستويان أفقياً على جانبي وجهه، هو وجه لا تُعبِّرُ قسماته الدقيقة عن شيء إلا الغطرسة. ألقى الضابط على راسكولنيكوف نظرة شزراء فيها استياء: ذلك أن ملابس راسكولنيكوف كانت زرية حقاً، وكانت هيئته، رغم حالة الانهيار التي هو فيها. لا تتفق وهذه الملابس، حتى لقد تجرأ فرشق الضابط بنظرة متأملة بعض الشيء، مدققة قليلاً، فازوَرَّ الضابط وصرخ يسأل راسكولنيكوف:

ـ وأنت ماذا تريد؟

لا شك أنَّه قد أدهشه أن لا يخطر على بال شخص يرتدي مثل هذه الأسمال أن يغض طرفه ويرتبك أمام نظرته الجارحة.

أجابه راسكولنيكوف مضطرباً:

ـ استدعيت إلى هنا، هو مجرد استدعاء...

فأسرع الأمين يتدخل تاركاً أوراقهُ:

ـ بشأن المطالبة بدفع مال. هذا هو الطالب!

تمتم الضابط بهذا ودفع إلى راسكولنيكوف دفتراً وهو يشير إلى موضع محدد، وأضاف:

ـ اقرأ.

تساءل راسكولنيكوف: "بشأن المطالبة بدفع مال؟ أي مال؟ إذاً ليس الأمر ذلك الأمر!" وارتعش فرحاً. وشعر بغتة بتخفف وراحة عميقين. إن حملاً ثقيلاً قد سقط عن هامته.

هتف الضابط يسأل:

ـ قيل لك أن تحضر في أية ساعة أيها السيد؟ لقد ورد في ورقة استدعائك أن تحضر في الساعة التاسعة، والساعة الآن الحادية عشر، أليس كذلك؟

لا يدري إلا الله لماذا كان الضابط يشعر بمزيد من الاستياء رويداً رويداً.

أجابه راسكولنيكوف بصوت عال، ومن فوق كتفه:

ـ لم أستلم ورقة الاستدعاء إلا منذ ربع ساعة. أحسب أنَّني يكفيني أن أجيء رغم الحمى....

إن راسكولنيكوف أيضاً قد اعتراه غضبٌ مفاجئ لم يكن في الحسبان، ولكنَّه يجد في هذا الغضب لذَّة ومتعة.

ـ لا تصرخ، أرجوك.

لست أصرخ بالعكس: أنا أتكلم بكثير من الرصانة والرزانة، وأنت تصرخ. ولما كنتُ طالباً، فإنني لا أسمح أن تتكلموا معي بهذه اللهجة.

بلغ غضب مساعد مفوض الشرطة من الشدَّة أنَّه لبث دقيقة بكاملها لا يستطيع أن ينطق كلمة واحدة، فلم يزد على أن يرغي ويزبد. ثم إذا به ينهض بوثبة واحدة كمن وُخِزَ، ويصيح قائلاً لراسكولنيكوف:

ـ اسكت. أنت هنا في مكتب رسمي. لا تكن فظاً أيُّها السيد!

فصرخ راسكولنيكوف:

ـ وأنت أيضاً في مكتب رسمي، ومع ذلك تصرخ، بل وتدخن سيجارة، وهذا دليل على أنك لا تولينا جميعاً أي اعتبار!

وشعر راسكولنيكوف، حين قال هذه الكلمات، بلذَّةٍ لا توصف.

وكان الأمين ينظر عليهما مبتسماً. واضح أن الضابط الذي كان يغلي ويفور قد أُفحم.

وأخيراً صرخ الضابط يقول بصوت بلغ من العلوِّ أنَّه كان لا يبدو طبيعياً:

ـ ليس هذا شأنك. تفضل بالإدلاء بالإفادة المطلوبة منك. أره الشكوى يا الكسندر غريغوريفتش. أنت مطالب بمال تتهرب من دفعه. يا للشاطر!...

ولكن راسكولنيكوف كان قد انقطع عن الإصغاء إليه:

أمسك الورقة بشراهة، محاولاً أن يكتشف اللغز بأقصى سرعة.

قرأ الورقة مرة أولى، ثم ثانية، ولكنَّه ظل لم يفهم شيئاً. فقال للضابط المعاون يسأله: ما الموضوع؟

ـ مدين أنت بمال عليك أن تؤديه. هناك سند يتعهد فيه بسداد الدين عند المطالبة به. وعليك الآن إما أن تدفع كل الدين، بما في ذلك النفقات والغرامات، الخ، وإما أن تحدد، كتابة، الموعد الذي ستكون فيه قادراً على أداء المال، وأن تتعهد بألا تغادر العاصمة، وألا تبيع أمتعتك وألا تخفيها قبل سداد الدين. أمَّا الدائن ففي سعته أن يبيع أمتعتك، وأن يلاحقك وفقاً للقانون.

ـ ولكن.... ولكنني لست مديناً لأحد بشيء!

ـ ذلك أمر ليس من شأننا. نحن تلقينا سنداً بمبلغ مائة وخمسة عشر روبلاً مستحق الدفع وفقاً للقانون، كنت أنت وقعته منذ تسعة أشهر باسم السيدة زارنتسينا، أرملة موظف من الدرجة الثامنة، ثم انتهى هذا السند إلى يدي المستشار تشيباروف، ومن أجل هذا إنما استدعيناك، وعليك الآن أن تدلي بإفادتك.

ـ ولكن هذه السيدة هي صاحبة البيت الذي أقيم فيه.........

ـ هل يغير هذا الأمر شيئاً؟

كان السكرتير ينظر إليه وهم يبسم بسمة تسامح توشك أن تشمل على شفقة، ولكنَّها شملت أيضاً شعوراً بالانتصار مردَّهُ إلى أن أمامه شاباً غراً قد وقع في الورطة لأول مرة وكأنَّه يقول له: "هيه! كيف حالك الآن؟" ولكن راسكولنيكوف لم يهتم أبداً بالسند أو تحصيله! حقاً إن هذا لا يستحق الآن، أي قلق، ولا أتفه انتباه! لَبِثَ راسكولنيكوف واقفاً يقرأ أو يجيب أو حتى يسأل، ولكنَّه يفعل ذلك كُلُّهُ على نحو آلي. إن فرحة الناشئ عن شعوره بأنَّه في أمان، وأنَّه قد نجا من الخطر الرهيب الذي كان يتربَّص به، هو ما كان يملأ عليه كيانه في هذه اللحظة. لم يبق في نفسه مكان للتبصر، للتحليل، وللاحتياط الواجب اتخاذها في المستقبل. هذه دقيقة فرح مليء، فرح مباشر، فرح غريزي صَرفْ. ولكن في تلك الدقيقة نفسها دوي في المكتب ما يشبه أن يكون رعداً وصاعقة. إن الضابط الذي كان ما يزال يغلي ويفور من الإهانة

التي ألحقت به منذ قليل، قد انفجر انفجار الرعد والصاعقة في محاولة لإثبات عظمته المنهارة على السيدة الضخمة الجسم التي كانت تتأمله منذ دخل، وعلى شفتيها ابتسامة بلهاء.

صرخ يقول لها فجأة بصوت عال (وكانت السيدة اللابسة ثياب الحداد قد خرجت):

ـ أ....... هاأنتِ يا........ ماذا جرى عندك في الليلة الفائتة، هه؟ لقد عُدّتِ تثيرين الفضائح، وتعرضين دعارتك في عرض الشارع! عُدّتِ إلى خلق المشاجرات وتشجعين السكر! أتراك تحلمين بأن تقضي أيامك في أحد السجون؟ سبق أن قلت لكِ، أن نبهتك غير مرة إلى أنني سأكون في المرة الحادية عشرة من دون رحمة ولا رأفة أو شفقة، وهاأنتِ تستأنفين...... تستأنفين....يا.... يا..... وقعت الورقة التي يحملها راسكولنيكوف من يديه. نظر مبهوراً إلى السيدة المخشخشة التي تعامل بمثل هذه الفظاظة. ولكنَّه سرعان ما فهم الموضوع، وسرعان ما أخذت القصة تُسليه، فكان يصغي متلذذاً، حتى لقد أحس برغبة في أن يضحك، مقهقهاً، فإلى هذا الحد كانت أعصابه مهتزة!

بدأ الأمين المعاون يتكلم فقال بلهجة تفيض توسلاً:

ـ إيليا بتروفتش......

ولكنَّه توقف عن الكلام، لأنَّه رأى أنَّه من الأفضل أن ينتظر لحظة مناسبة أكثر من هذه اللحظة، لأنَّه كان يعرف بالتجربة أن من المستحيل كبح جماح الضابط العنيف، اللهم إلا باللجوء إلى القوة.

أما السيدة المخشخشة قد أخذت ترتعش منذ انطلق الرعد، وعصفت العاصفة. ولكنَّ الشيء الغريب هو أن تعبير وجهها كان يزداد ترققاً وتلطفاً، وابتسامتها للضابط الرهيب كانت تزداد حسناً وظرفاً على قدر ما كانت الشتائم الموجهة إليها تزداد كثرة وشدَّة. كانت تراوح في مكانها، ولا تنحني

احتراماً للضابط، منتظرة مع ذلك، بصبر نافد، أن يتيح لها أن تقول كلمة. وكوفئ صبرها فعلاً، فما أن سكت الضابط حتى أسرعت تقول بنبرة ألمانية ظاهرة، رغم أنها تكلمت الروسية بطلاقة:

ـ لم يحدث في بيتي عربدة ولا مشاجرة، يا سيدي النقيب، ولا تمت فضيحة! كل ما في الأمر أنَّه جاء ثملاً....... سأقص عليك كل هذا يا سيدي قائد السرية........ حقاً أنا لست مذنبة......إن بيتي لائق يا سيدي الضابط الأمير، والسلوك فيه سلوك رصين..... وأنا نفسي، أنا بالذات لن أتوانى عن كبح أي أمر مشين، وفي أي يوم. ولكنَّه جاء سكران ثم طلب ثلاث زجاجات، ثم رفع قدمه في الهواء وأخذ يعزف بها في الهواء على البيانو.... ذلك أمر مهين غير مقبول أبداً في بيت كريم. ثم أعطب لي البيانو. قلت له: هذه أخلاق غير ظريفة..... فتناول زجاجة وراح يضرب بها جميع الناس على مؤخراتهم.... عندئذٍ ناديت البواب....... جاء كارل..... وحين جاء كارل ورَّم الرجل عين كارل، وورَّم أيضاً عين هنريت. وصفعني أنا نفسي، خمس صفعات!... ليس من الظرف في شيء أن يفعل أحد ذلك في بيت محترم يا سيدي الضابط الرئيس. عندئذٍ صرخت..... ولكنه مضى عندئذٍ إلى النافذة المطلة على القناة ففتحها، وشرع ينخر نخير خنزير صغير، وذلك عيب وشنار حقاً..... كيف يرضى أن يقف إلى النافذة فيروح ينخر نخير خنزير صغير؟ هذا معيب، مخل بآداب الكرام! شده كارل من رداء "الغزال" الذي كان يرتديه، شده ليبعده عن النافذة.... وعندئذ يا سيدي المكرم ـ أعترف لك بذلك، نعم أعترف لك بذلك ـ مزق له كارل رداءه..... ولكنه أخذ عندئذ يصيح قائلاً أنَّه يطالب بخمسة عشر روبلاً، لأن رداءه تمزق. فدفعت له يا سيدي النقيب، دفعت له خمس روبلات، تعويضاً له عن ردائه. ما هو زائر كريم يا سيدي النقيب هو الذي قام بهذه الخسة! وقد قال لي صلات بجميع الصحف، وأستطيع أن أقول فيها عنكم ما أشاء! أهذا كلام يقال لي؟

ـ آ..... هو إذاً كاتب ؟

ـ نعم يا سيدي الكابتن، وهو أيضاً زائر غير لائق، لأنَّه لم يتورع، في منزل لائق، أن....

ـ كفى، كفى، سبق أن قلت لك وكررت أن......

عاد الأمين المعاون فقال بلهجة ذات مغزى:

ـ إيليا بتروفتش

رشقه الضابط بنظرة سريعة فهز الأمين رأسه بحركة خفيفة:

وتابع كلامه ليقول:

ـ اسمعي أيتها المحترمة لويزا إيفانوفنا! إليك كلمتي الأخيرة! أقول لك آخر مرة: إذا حدثت في بيتك المهيب، بعد الآن، فضيحة واحدة، سأتولى بنفسي وضعك في سلة سلطة، كما يقال بالأسلوب الرفيع. مفهوم؟..... إذاً هكذا..... أديب..... كاتب...... أخذ في "منزلك اللائق" خمسة روبلات تعويضاً عن تمزيق ردائه. آ..... هؤلاء هم المؤلفون! (قال الضابط ذلك وهو يرمي راسكولنيكوف بنظرة احتقار). وأمس الأول، في إحدى الحانات، حدثت حكاية أخرى. تغدى واحد من هؤلاء المؤلفين، ورفض أن يدفع النفقة التي أصابها، وقال لصاحب الحانة: "سأكتب مقالة أهجوك فيها هجاء لاذعاً". وفي الأسبوع الماضي، على ظهر سفينة من السفن، قال كاتب آخر بقذف أسرة مستشار من مستشاري الدولة بأشنع الشتائم، وتناول بالشتم امرأته وابنته خاصة. ومؤلف ثالث، طرد ورفض من أحد محال بيع الحلوى إلا دفعاً في ظهره. هؤلاء هم الأدباء، هؤلاء هم الكتاب، والطلاب والدعاة! أف! .... أما أنتِ فانصرفي الآن، ولكن اعلمي أنني سأزورك، فإياك ثم إياك... مفهوم؟

أخذت لويزا إيفانوفنا، وقد ازدادت تلطفاً وتودداً عن ذي قبل، أخذت تنحني انحناء الاحترام في جميع الاتجاهات، وما زالت تتقهقر إلى وراء حتى بلغت الباب. ولكنها حين وصلت الباب صدمت بمؤخرتها ضابطاً قائداً يزدان

وجهه النضر المتفتح بسالفين أشقرين رائعين كثيفي الشعر. هو نيكوديم فومتش، مفوض الشرطة بعينه. أسرعت لويزا إيفانوفنا تنحني احتراماً له، حتى كادت تلامس الأرض من شدة الانحناء، ثم ولت هاربة من المكتب بخطوات صغيرة متواثبة.

قال نيكوديم فومتش يخاطب ايليا بتروفتش، بلهجة محببة ودود:

ـ ماذا؟ أعاد هزيم الرعد، أرجع قصف الصاعقة، والعاصفة، والإعصار؟ هل أغضبوك مرة أخرى فاستسلمت للغضب؟ لقد سمعت كل شيء وأنا أصعد السلم! قال إيليا بتروفتش بلا مبالاة نبيل وهو ينتقل من منضدة إلى منضدة، مثقل الذراعين بأوراق، مرنحاً عطفيه ترنيحاً جميلاً، عند كل خطوة، على عادته: ـ وكيف لا! أنظر أرجوك إلى هذا السيد مثلاً: هو كاتب، هو طالب أو طالب سابق، يرفض أن يدفع ما عليه من ديون، يوقع سندات، يرفض إخلاء المسكن، أودعت ضده شكاوى عديدة، وهو مع ذلك ينزعج لأنني دخنت سيجارة بحضوره. هو نفسه يتصرف بغير لباقة فانظر إليه ما أجمل مظهره!

قال نيكوديم فومتش:

ـ ليس الفقر عاراً يا صديقي. ونحن نعلم أنَّك مثل بارود ولا تطيق احتمال أي إزعاج... ثم اتجه إلى راسكولنيكوف فقال له بكثير من اللطف والمودة:

ـ أغلب الظن أنك توهمت أنَّه أراد الإساءة إلى شعورك، فلم تقدر أن تسيطر على نفسك. ولكنك أخطأت: ثق أن هذا الرجل من أنبل الناس. ولكنني أعترف لك بأنَّهُ عنيف، عنيف كالبارود، كالبارود... يشتعل، يفرقع، ينفجر، ولكنَّ كل شيء ينتهي بعد ذلك! ولا يبقى إلا قلبه الذي هو من ذهب!... حتى لقد أطلق عليه لقب الضابط بارود منذ كان يخدم في الكتيبة.

صاح إيليا بتروفتش يقول وقد أرضت هذه الكلمات غروره، ولكن هياجه ما يزال:

ـ ويا لها من كتيبة!

شعر راسكولنيكوف برغبة مفاجئة في أن يخاطبهم جميعاً بكلام لطيف ودود للغاية. فبدأ يقول بلهجة طلقة، موجهاً كلامه إلى نيكوديم فومتش:

ـ انظر يا كابتن، ضع نفسك في مكاني... أنا مستعد لأن أعتذر إلى السيد، إذا كنت أخطأت بحقه. أنا طالب فقير، مريض، مرهق (هذا ما قاله: مرهق) بالبؤس أو قل إنني كنت طالباً في الماضي، ثم أصبحت عاجزاً عن سد حاجاتي فتركت الدراسة. ولكنني سأتلقى مالاً بعد قليل. أمي وأختي تعيشان في إقليم س... وسوف ترسلان لي مالاً فأدفع ما عليَّ. إن لصاحبة البيت الذي أسكنه قلبا طيباً كريماً، ولكنها غضبت كثيراً، لأنني فقدت موردي من إعطاء دروس خاصة، فأصبحت لا أدفع لها أجر سكني منذ أربعة أشهر تقريباً، حتى لقد بلغ الغضب بها أنَّها أصبحت لا تبعث إلى بوجبات الطعام... لذلك تراني لا أفهم من أمر هذا السند شيئاً. هي تطالبني بمال مستعينة بهذا السند الذي وقعته لها ولكن من أين أجيء بمال أدفعه؟ احكموا في الأمر بأنفسكم!

عاد الأمين يقول من جديد:

ـ هذا أمر ليس من شأننا!

فاستأنف راسكولنيكوف كلامه مخاطباً نيكوديم فومتش، لا السكرتير، ومحاولا أن يخاطب في الوقت نفسه إيليا بتروفتش، رغم أن هذا كان يتظاهر بأنَّه منهمك بأوراقه، وكان يقابله بقلة الاكتراث وبالاحتقار، قال:

ـ اسمح لي، اسمح لي، أنا أوافقك تماماً، إنما اسمح لي أيضاً أن أشرح ظروفي، أن أذكر لك من جهتي أنني أسكن عندها منذ ما يقرب من ثلاث سنين، منذ وصلت من الإقليم، وإنني قبل كل شيء، قبل كل شيء... نعم، لماذا لا أعترف أنا أيضاً بأنني منذ البداية قد وعدتُها بأن أتزوج ابنتها؟ نعم لقد وعدتها بذلك كلاماً... كلاماً فقط... وكانت ابنتها فتاة... أعجبتني على كل

حال، وإن كنت لم أتوله بها! هو الشباب، باختصار! فكانت صاحبة البيت تمهلني في الدفع كثيراً... وكنت أعيش حياة تتصف بكثير من الطيش...

قاطعه إيليا بتروفتش بفظاظة، شاعراً بالانتصار:

ـ ما من أحد يسألك أن تذكر تفاصيل من هذا النوع عن حياتك الخاصة أيها السيد، ثم إن وقتنا ليس فيه متسع للإصغاء إليك...

ولكنَّ راسكولنيكوف سارع يقاطعه بعنف، رغم أنَّه أصبح يشق عليه إلى أبعد حدود المشقة أن يقول أي شيء. قال يرد:

ـ لا ، اسمح لي، اسمح لي أن أروي لكم من جهتي كيف جرت الأمور... وان أرويها مرتبة، رغم إني أوافقك على أنَّه ليس من المفيد أن أقص عليَّكم هذا كله... إليكم ما حدث: منذ سنة، ماتت تلك الفتاة بمرض التيفوس، وبقيت أنا مستأجراً عندهم المسكن الذي أقيم فيه، فلما جاءت صاحبة البيت تقيم حيث تقيم الآن قالت لي (بصداقة ومودة). بمودة وصداقة جيران: أنَّها تثق بي ثقة مطلقة، لكنها سألتني ألا أستطيع أن أوقع لها سندا بمبلغ مائة وخمسة عشر روبلاً، هو المبلغ الذي تعتقد أنني مدين لها به؟ اسمح لي.... لقد قالت بالحرف الواحد أنَّها ستظل تمهلني بعد تسليمها هذا السند، في الدفع ما شئت، وإنَّها لن تستخدم هذا السند إذا لم أدفع لها من تلقاء نفسي. وها هي ذي الآن، بعد أن فقدتُ موردي من الدروس، وبعد أن أصبحت لا أملك ما أقتات به، تقدم السند للسلطات من أجل تحصيله. فما رأيكم في هذا؟

قال لها إيليا بتروفتش بوقاحة:

ـ إن هذه التفاصيل المؤثرة لا تعنينا في شيء أيُّها السيد! عليَّك أن توقع الإفادة والتعهد... أما أنك كنت مولهاً بحب الفتاة أو أنك لم تكن مولها بحبها، وأما الظروف المحزنة التي أعقبت ذلك... فهذا كله لا شأن لنا به البتة!

دمدم نيكوديم فومتش يقول لصاحبه الضابط وهو يجلس إلى مكتبه ويمضي يوقع بعض الأوراق:

ـ أحسبُ أنَّك تقسو كثيراً!

لقد شعر نيكوديم فومتش بشيء من الحرج.

قال الأمين لراسكولنيكوف بلهجة فظة:

ـ ماذا أكتب؟

ـ سأملي عليَّك...

خيل إلى راسكولنيكوف أنَّ المفوض أصبح يعاملهُ بمزيدٍ من الازدراء بعد تلك الاعترافات التي أوردها. ولكن الشيء الغريب هو أن راسكولنيكوف قد أصبح فجأة لا يبالي بالرأي الذي قد يراه غيره فيه، وقد حدث له هذا الانقلاب بمثل لمح البصر، حدث له في ثانية واحدة، فلو شاء أن يفكر لحظة واحدة لأدهشه في أغلب الظن أن يكون قد حدث هؤلاء الموظفين على هذا النحو، وأن يكون قد أجبرهم على سماع مساراته. من أين جاءته هذه الاعترافات؟ لو امتلأت الغرفة الآن لا برجال شرطة بل أصدقاء حميمين لكان عاجزاً عن أن يوجه لهم كلمة فيها شيء من مودة وصدق، وذلك من فرط الفراغ الذي أصيب به قلبه. إن إحساساً غامضاً بالوحدة، إحساساً مبهماً بعزلة أليمة لا نهاية لها، قد اجتاح شعوره فجأة. لا، ليس صغار اعترافاته العاطفية أمام إيليا بتروفتش لا ولا صغار انتصار الضابط عليه هو الذي هز قلبه هزا يبلغ عمق العمق. آه... أنَّه ليس يعنيه الآن أن يكون فيه صغار، وأن يكون صغار في الآخرين، وليست تعنيه المطامح، ولا الضباط، ولا النساء الألمانيات، ولا تحصيل السندات، ولا المكاتب، ولا سوى ذلك!... أنَّه لو حكم عليه بالحرق حياً في هذه اللحظة، لما قام بحركة واحدة، ولما زاد على أن يصغي إلى الحكم الذي صدر بحقه، إذا هو أصغى. إن شيئاً جديداً كل الجدة قد تحقق الآن في كيانه، شيئاً لم يعرفه حتى ذاك الحين، شيئاً هو حادث لا يتنبأ به ولا سابقة عليه. إن راسكولنيكوف لم يدرك ذلك الشيء. ولكنه كان يحس إحساساً واضحاً بأنَّه أصبح لا يستطيع أن يخاطب هؤلاء الناس، هؤلاء الموظفين في قسم

الشرطة بالحي، لا يستطيع أن يخاطبهم بأي كلام فضلاً عن الإفضاء إليهم بعواطفه الشخصية ومشاعره الحميمة كما فعل منذ قليل. بل لقد أحس راسكولنيكوف أنَّه أصبح لا يستطيع أن يخاطب أقرب أقربائه بحال من الأحوال، ولو كانوا أخوة وأخوات. إن راسكولنيكوف لم يكن قد شعر حتى تلك الدقيقة، في يوم من الأيام، بإحساس يبلغ هذا المبلغ من الهول والغرابة. والأمر الذي كان يؤلمه كثيراً هو أن ما يشعر به كان إحساساً ولم يكن فكرة. نعم، كان إحساساً مباشراً، كان إحساساً أشد إيلاماً من جميع الأحاسيس التي شعر بها طوال حياته.

أملى عليه الأمين صيغة الإقرار المستعملة في هذه الحالة: لا أستطيع أن أدفع. أتعهد بالدفع بتاريخ كذا. لن أغادر المدينة. لن أبيع أشيائي، ولن أتنازل عنها لأحد، الخ. قال له الأمين ـ المفوض وهو ينظر إليه باهتمام:

ـ أرى انك لا تستطيع الكتابة، وأن القلم يسقط من يدك. هل أنت مريض؟

ـ نعم، أشعر بدوار في رأسي... ولكن أكمل مع ذلك!

ـ انتهى! لم يبق عليّك إلا أن توقع.

وقع راسكولنيكوف الإقرار، فتناول المفوض الورقة وانصرف عنه إلى الاهتمام بأشخاص آخرين.

رد راسكولنيكوف الريشة إلى مكانها. ولكنَّه بدلاً أن ينهض ويذهب، وضع كوعيه على المنضدة، وضغط رأسه بين يديه. كان يشعر كأن مسماراً قد دق في قمة جمجمته. ووافته فكرة غريبة على حين فجأة: أن ينهض فوراً فيقترب من نيكوديم فوميتش ويقص عليه كل ما حدث في ليلة أمس، كل ما حدث، حتى أيسر التفصيلات، وأن يقوده بعد ذلك إلى غرفته، فيريه الأشياء هناك، عند الركن، في الثقب. وبلغت رغبته بذلك قوة جعلته ينهض ليضع مشروعه موضع التنفيذ. لكنه لم يلبث أن قال لنفسه: "ربما كان عليَّ أولاً أن أفكر لحظة". ثم سرعان ما أضاف يقول: "لا بل الأفضل أن لا أفكر

البتة وأن أتخلص من كل شيء دفعة واحدة". وها هو ذا يتوقف فجأة كمن تسمر في مكانه: كان نيكوديم فوميتش يتحدث بحرارة على إيليا بتروفيتش، فاستطاع راسكولنيكوف أن يلتقط من حديثهما هذه الجمل:

ـ لا، مستحيل، سوف يخلى سبيلهما كليهما! أولاً، هناك تناقض. أحكم بالأمر في نفسك: لو كانا هما القاتلين لماذا يستدعيان البواب؟ أليفضحا أمرهما وليشيا بنفسيهما؟ أم تراهما استدعياه من باب المكر؟ ألا إن هذا سيكون إسرافاً في المكر! ثم إن الطالب بسترياكوف قد رآه البوابان ورأته امرأة قرب باب العمارة لحظة دخوله. وكان في صحبة ثلاثة أصدقاء ودَّعهم عند المدخل. وبحضور أصدقائه هؤلاء إنما سأل البوابين أين هو مسكن العجوز. فكَّر قليلاً: أكان يلقي هذا السؤال لو أنَّه جاء لهدف كهدف؟ أما كوخ فقد قضى نصف ساعة تحت، عند بائع الجواهر، قبل أن يصعد إلى بيت العجوز، وهكذا يكون قد ترك بائع الجواهر وصعد إلى بيت العجوز في الساعة الثامنة إلا ربعاً على وجه التحديد... ففكر الآن....

ـ اسمح لي! فكيف نفسر هذا التناقض الشديد في أقوالهما؟ هما يؤكدان أنَّهما قرعا الباب، والباب كان مغلقاً، ثم يؤكدان أن الباب كان مفتوحاً بعد ثلاث دقائق حين عادا يصعدان في صحبة البوَّاب. فما تفسير هذا التناقض؟

ـ هنا إنَّما يكمن سر القضية: كان القاتل في داخل البيت حتماً، وكان قد أوصد الباب بالمزلاج، ولا بد أننا كنا سنكتشفه لولا أن كوخ قد ارتكب تلك الحماقة فمضى يبحث عن البواب هو أيضاً. ففي تلك الفترة بعينها، أعني الفترة التي انقضت بين نزول كوخ وصعود الثلاثة إنما تمكن القاتل من هبوط السُّلَّم، واستطاع أن يتسلل من بين أيديهم بطريقة أو بأخرى. إن كوخ يرسم الآن على صدره إشارة الصليب بكلتا يديه قائلاً: "لو لبثت فوق، إذاً لوثب عليَّ وقتلني بفأسه!" إن كوخ ينوي أن تقام بإسمه كنيسة صلاة شكر لله على ما خصَّهُ به من نعمة النجاة! هيء هيء!...

ـ والقاتل ألم يره أحد؟

ـ كيف يمكن أن يراه أحد؟ إن المنزل أشبه بسفينة نوح

بهذا عقب المفوض الذي كان يصغي إلى الحديث من مكأنَّه. وكرر نيكوديم فوميتش يقول بحرارة شديدة:

ـ لا ليست واضحة أبداً.

رفع راسكولنيكوف قبعته، اتجه نحو الباب ولكنَّه لم يبلغه... فلما أفاق من غيبوبته رأى نفسه جالساً على كرسي، ورأى رجلاً يسنده من يمين، وآخر يقف وهو يحمل بيده كأساً مملوءة بماءٍ أصفر، ورأى نيكوديم فوميتش واقفاً أمامه يحدق إليه ويتفرس فيه. نهض راسكولنيكوف عن كرسيه فسأله بلهجة خشنة:

ـ ماذا بك؟ أأنت مريض؟

قال السكرتير وهو يرجع على منضدته ويرتد على أوراقه:

ـ إنَّه فمنذ كان يكتب الإقرار كان لا يكاد يستطيع تحريك قلمه!

وصاح إيليا بتروفيتش من مكانه وقد عاد يرتب أوراقه هو أيضاً، صاح يسأله:

ـ أأنت مريض منذُ مدة طويلة؟

كان إيليا بتروفيتش قد لاحظ المريض طبعاً في أثناء إغماءته، ولكنه ابتعد عنه فوراً منذ رآه يفيق. لم يزد راسكولنيكوف في الإجابة عن سؤال إيليا بتروفيتش على أن يدمدم قائلاً:

ـ منذ أمس...

ـ وهل خرجت أمس؟

نعم خرجت.

ـ مريضاً؟

ـ مريضاً.

ـ في أية ساعة؟

ـ بعد السابعة مساء.

ـ إلى أين ذهبت؟ اسمح لي أن ألقي عليك هذا السؤال.

ـ إلى الشارع.

ـ مختصر مفيد!

كان راسكولنيكوف شاحباً شحوباً شديداً. وقد أجاب عن تلك الأسئلة بصوت خشن متقطع دون أن يغض عينيه السوداوين المشتعلتين أمام نظرات إيليا بتروفيتش.

قال نيكوديم فوميتش: هو لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه، وأنت...

أجابه إيليا بتروفيتش بنبرة غريبة قليلاً.

ـ لا... بأ... س!...

أراد نيكوديم فوميتش أن يضيف شيئاً آخر، ولكنه أمسك عن الكلام حين ألقى نظرة على السكرتير الذي كان يحدق إليه من مكانه. وصمت الجميع فجأة. شيء غير.

ثم قال إيليا بتروفيتش مسك الختام.

طيب! بوسعك أن تنصرف.

خرج راسكولنيكوف. ولكنه استطاع في أثناء خروجه أن يسمع استئناف الحديث حاراً محتدماً. وبين جميع الأصوات كان صوت نيكوديم فوميتش، المتسائل المستفسر، أكثرها وضوحاً وتميزاً... حتى إذا صار راسكولنيكوف في الشارع ثاب إليه كل وعيه وعاد إليه كل شعوره.

ـ تفتيش! تفتيش! سيقومون بتفتيش فوري! يا للصوص! إنهم يشتبهون بي!...

كذلك كان يردد راسكولنيكوف بينه وبين نفسه مغذاً خطاه للرجوع إلى بيته.

لقد عاد الخوف يستبد به من أخمص قدميه إلى قمة رأسه.

# الفصل الثاني

خاطب راسكولنيكوف نفسه، قال: "وماذا لو كان التفتيش قد تم؟ ماذا لو كانوا الآن في بيتي؟"

ولكن راسكولنيكوف رجع إلى مسكنه ولم يجد فيه أحداً، ولا قدم أحد وفتش. حتى ناستاسيا لم تلمس شيئاً. ولكن إلهي! كيف أمكنه أن يدع هذه الأشياء في الثقب منذ قليل ؟

أسرع راسكولنيكوف إلى الزاوية، دسَّ يده، وراح يخرج الأشياء فيدسها في جيوبه واحداً بعد الآخر. عرف أن مجموع الأشياء ثمانية: علبتان صغيرتان تضمان أقراطاً أو ما يشبه ذلك (لم يدقق كثيراً)، ثم أربع علب صغيرة من الجلد، فيها جواهر، ثم سلسلة كانت مغلفة بورقة من ورق الصحف، ثم شيء آخر مغطى بخرقة من ورق الجرائد، أغلب الظن أنَّه وسام.....

وزع هذه الأشياء على مختلف جيوب معطفه، وضع بعضها في الجيب الأيسر من سرواله، وهو الوحيد الذي ظل خالياً، وشرع يدسها كيفما اتفق على أن لا يظهر منها شيء. وتناول حافظة النقود أيضاً. ثم ظهر من الحجرة، ترك بابها مفتوحاً تماماً.

جعل يسير بخطوات سريعة ثابتة. ورغم انهدام جسده كان وعيه تاماً. كان يخشى الملاحقة، صدور قرار بمراقبته بعد نصف ساعة، أو ربع ساعة. لا هروب إذاً، مهما كلَّف الأمر، أن يغيب هذه الأشياء القرينة الأكيدة على جريمته. وبعد تفكير: إلى أين ؟

حزم أمره وقرر: "إلقاء هذه الثروة في القناة، لتسقط القرائن إلى جهنم، ومعها القضية!" هذا ما عزم عليه في الليلة السابقة، في أثناء شبه الضياع، تذكر محاولات الخروج ومخاطبة الذات: هلم، أسرع، تخلص من كل ما علق بك.

ظل راسكولنيكوف يتسكع بعض الوقت على طول قناة كاترين، وتأمل مراراً السلالم الهابطة إلى المياه السائبة، فعدل عما قرر، إذ ثمة أطواف في الأسفل وعليها نساء يغسلن، أو مراكب راسية وكل الأمكنة تغص بالبشر. كان ثمة إمكانية أن يرى من أرصفة الشط. أليس غريباً أن ينزل رجل إلى هنا، قصداً، ليكب ما في جيوبه؟ وإذا طفت العلب؟ هذا مؤكد، وسيراها الآخرون، الذي مر بهم طيلة هذا المشوار وفيه يتفرسون، ألا هم لهم سواي! بالله عليكم لماذا هذا التدقيق بل الاستقصاء؟ لكن ماذا إذا كان كل هذا أوهاماً وتخيلات ليس إلا!"

وخطر بباله الذهاب إلى نهر نيفا، أليس هذا أفضل. فثمة الناس قليل وإمكانية الملاحظة أقل، وإمكانية رمي الكنز اللعين أكبر. ونهر نيفا بعيد جداً عن مسرح المذبحة. نعم هذا خاصة، إنما سرعان ما دهش من قدرته على كل هذا المشوار غريب الشأن ولينفذ مشروعاً تصوره فقط في نومه أثناء الهذيان؟ إذاً لقد تم الذهول، وصار شديد النسيان! هو الآن يعي هذه الحقيقة! لا ريب في ضرورة الإسراع، الإسراع حتماً!

توجَّهَ إلى نهر نيفا عن طريق شارع "ف....." وفي هذه الأثناء خطرت له فكرة: "لماذا نهر نيفا؟ لماذا الماء؟ إذاً بفضل الذهاب إلى مكان قصي، قصي جداً، ولو إلى الجزر ثانية، حيث اختار مكاناً في الغابة غير مطروق أو يكاد، وتحت الأشجار ترقد الجواهر بثقلها وهمومها. وبسهولة أضع نقطة علام تهديني إليه حينما أقصده. كان بوضوح عاجزاً عن تقليب الفكرة كفاية، لكنَّها كانت سليمة قولاً واحداً.

لكنَّه لم يصل الجزر، لأن الأمور جرت باتجاه آخر. فما أن خرج من شارع "ف....." إلى أحد الميادين، حتى رأى على يساره فجأة مدخل فناء محاط بجدران كبيرة من جميع الجهات وفي اليمين رأى سوراً استنادياً لعمارة من أربع طوابق، وفي اليسار، حاجزاً من خشب يوازي السور، طوله حوالي 20 خطوة. حسناً،

إنَّها أرض خلاء تتكدس فيها أشياء مرمية. ويرى الناظر في آخر الفناء بعد الحاجز ركن سقيفة من حجر، واطئة، مشحَّرة بالدخان، علها جزء من ورشة أو مصنع عربات أو الأقفال لأن الأرض سوداء. قال راسكولنيكوف لنفسه فجأة: "هذا ما ابتغيت! ارمي كل شيء هنا وانصرف!" كان الفناء خالياً من الناس، فسارع لتخطي الباب، فإذا به أمام مزراب مثبت بالحاجز الخشبي بمثابة مبولة . يوضع مثله في بعض المحال الميتة كتبت قريباً منها عبارات مناسبة مشوهة لا تبولن هنا" قال راسكولنيكوف ببهجة: "يمتاز هذا المكان بالنأي عن الشبهة" وأردف: هنا يرشق كل شيء، دفعة واحدة، رزمة واحدة، ثم الإياب!"

وألقى حوله نظرة أخرى، وفيما كان يدخل يده في جيبه إذا هو، إزاء الجدار، في المسافة الفاصلة بين الباب والمبولة ولا يزيد طولها عن خطوتين، صخرة كبيرة غير منحوتة يمكن أن يكون وزنها نحو عشرين كغ. كان الرصيف يقع خلف الجداًر الحجري في الشارع. وكان وقع أقدام المارة، وهم كثر دائماً في هذا المكان، يسمع في الداخل. لكن أحداً لا يستطيع أن يراه في هذه الجهة من الباب إلا إذا دخل، وهذا أمر يمكن أن يحدث، فلا بد لراسكولنيكوف إذاً أن يسرع.

مال راسكولنيكوف على الصخرة فأمسك أعلاها بيديه كليتهما إمساكاً قوياً، واستجمع قواه كُلَّها، فزحزح الصخرة من مكانها. إن حفرة صغيرة كانت قد تشكلت تحت الصخرة. وبدأ راسكولنيكوف يرمي في هذه الحفرة كل ما كان في جيوبه، وكانت حافظة النقود آخر شيء رماه، فكان مكانها فوق سائر الأشياء الأخرى وبقي في الحفرة متسع. ثم أمسك بالصخرة من جديد وأعادها إلى وضعها السابق دفعة واحدة. فلا يكاد يبدو أنَّها تحركت عن وضعها الأصلي إلا قليلاً. ولكن راسكولنيكوف نبش الأرض، وكوم قليلاً من التراب حول الصخرة وعجنه بقدمه. وأصبح من

المستحيل أن يلاحظ أي تغير.

وبعد ذلك خرج واتجه نحو الميدان، فإذا به مرةً أخرى، كما حدث له في مكتب الشرطة منذ قليل، يشعر بفرح قوي جارف يستبد به لحظة. قال يحدث نفسه: ها هي ذي الاثباتات قد دفنت في باطن الأرض! من ذا الذي يخطر على باله أن يشتبه بي؟ انتهى الأمر! لا براهين بعد الآن" وراح يضحك. سوف يتذكر في المستقبل أنَّه ضحك ضحكاً عصبياً صغيراً أخرس متصلاً، وأنَّه كان ما يزال يضحك حين تخطى الميدان. ولكنه ما أن دخل الشارع الرئيس ل.... الذي التقى فيه ليلة أمس الأول بالفتاة، حتى انقطع ضحكه فجأة. وخواطر أخرى راحت تتمسك بوعيه الآن. بدا له حين أحسَّ أنَّه سيشعر باشمئزاز لا سبيل إلى التغلب عليه حين يمرُّ قُربَ الدكة التي قعد عليها غارقاً في أفكاره بعد انصراف الفتاة، وأنَّه سيؤلمه أشد المعاناة أن يصادف، من جديد، الشرطي ذا الشاربين الذي أعطاه حينذاك عشرين كوبيكاً ودمدم يقول: "شيطان يأخذه!"

كان يسير وهو يرمق ما حوله بنظرة ذاهلة خبيثة. إن جميع أفكاره تدور الآن حول نقطة واحدة يحس هو نفسه أنَّها النقطة الرئيسة، وأنَّه الآن، الآن على وجه التحديد، يقف أمام هذه النقطة الرئيسة، وذلك لأول مرة منذ شهرين.

ثم إذا هو يقول لنفسه فجأة وقد اعتراه حنق غريب: "إلى الشيطان هذه القصة. دعنا! ما دامت القصة قد بدأت فلتذهب إلى الشيطان.... هي و"الحياة الجديدة"! آه، ما أغباني! ما أكثر ما فبركت اليوم من أكاذيب! ما أكثر ما ارتكبت اليوم من حقارات! ما أمقت ما أظهرت من مراءات وصغار، منذ قليل، أمام ذلك التافه إيليا بتروفتش!..... على كل حال..... لا ضير....

إنني لا أكترث بهم ولا بأني أظهرت لهم تزلفاً وحقارة! ليس هذا هو الهام..... ليس هذا هو المهم البته!"

وتوقف بغتة. إن سؤالاً جديداً لم يكن في حسابه قط، سؤالاً بسيطاً غاية

البساطة، يحيره الآن ويصفعه. قال:

"لو كنت نفذت هذا الأمر وأنا واع حقاً، فقد تلبستني البلاهة، لو كانت لك غاية محددة تماماً مرسومة تماماً، كيف تفسر أنك إلى هذه اللحظة لم تلق نظرة واحدة على ما تحويه حافظة النقود، وأنَّك لم تعرف ما أردت أن تجنيه ولا تدرك الغرض الذي ارتضيت في سبيل أن تحمل كل هذا العذاب وارتضيت في سبيله عامداً أن ترتكب عملاً حقيراً خسيساً ودنيئاً إلى هذا الحد؟ ألم تكن تريد منذ لحظة أن ترمي في الماء حافظة النقود هذه وجميع تلك الأشياء التي لم تكلف نفسك حتى عناء النظر إليها؟ كيف تفسر كل هذا؟"

نعم هذه هي الحقيقة! هذه هي الحقيقة تماماً! وكان هو يعلم هذه الحقيقة منذ مدة. إن هذا السؤال ليس جديداً عليه. أنَّه حين قرر في الليل أن يرمي كل شيء في الماء، إنما قرر هذا القرار من دون أي تردد، وأية مماحكة، كما لو كان ينبغي له أن يفعل هذا نفسه لا أي شيء سواه...... نعم أنَّه يعلم كل هذا، ويتذكر كل هذا، حتى ليكاد يكون قد اتخذ قراره ذاك منذ البارحة، لحظة كان ينبش صندوق العجوز ويخرج منه العلب ..... نعم هذه هي الحقيقة.

"السبب هو أنني مريضٌ جداً (إلى هذه النتيجة وصل راسكولنيكوف عابساً في نهاية المطاف). لقد عذبت نفسي، ومزقت نفسي، وصرت أنا نفسي لا أعرف ماذا أفعل..... وأمس، وأمس الأول، وفي جميع تلك الأيام الأخيرة، كنت أمزق نفسي من دون انقطاع. حين سأشفى من مرضي، فلن... لن أمزق نفسي بعد ذلك.... ولكن ماذا..... ماذا إذا لم يكتب لي الشفاء؟ يا رب! مللت هذا كُلَّهُ!" كان راسكولنيكوف يسير دون أن يتوقف. كان يرغب رغبة رهيبة في أن يسلو على أي نحو من الأنحاء، ولكنَّه لا يعرف ماذا يعمل من أجل أن يسلو. وهذا إحساس جديد لا يستطيع التغلب عليه يجتاح نفسه شيئاً فشيئاً في كل دقيقة. هو نوع من تقزز لا حد له، تقزز يشبه أن يكون جسيماً، من

نوع ما يحيط به ومن كل ما يراه في طريقه، اشمئزاز عنيد، شرسٌ، حاقدٌ، بغيضٌ. إن جميع الذين يمرُّ بهم يلقاهم كريهين، كريهي الوجوه، والحركات، بل حتى مشيتهم كريهة. لو توجه أحد إليه بكلام في هذه اللحظة، لما زاد على أن يبصق في وجهه، ولربَّما عضَّهُ....

وتوقف عن السير بغتة، لحظة صار على رصيف "نيفا الصغير" في جزيرة فاسيلفسكي قرب الجسر. قال لنفسه: "إنه يسكن هنا في هذا البيت! ما معنى هذا؟ لقد جئت إذاً إلى رازوميخين عامداً! ها قد تكرر اليوم ذات ما حدث في ذلك اليوم..... ولكن هذا عجيبٌ جداً: أأنا جئت إلى هنا واعياً عامداً أم أني مشيت على غير هدى فإذا بي أصل إلى هذا المكان بمحض الصدفة؟ ... لا بأس كنت أقول..... أمس الأسول..... إنني سأذهب إليه غداة قيامي بذلك العمل.... طيب..... أي ضير في هذا الحد؟ سأذهب إليه! ماذا جرى؟ لكأنني الآن لا أجرؤ أن أذهب إليه...."

وصعد إلى الطابق الخامس حيث يسكن رازوميخين

كان رازوميخين في بيته، في حجرته الوضيعة، يعمل، يكتب. فتح الباب بنفسه. إنَّهما لم يلتقيا منذ أربعة أشهر. كان رازوميخين يرتدي ثوباً منزلياً مهترئاً يكاد يكون خرقة بالية، وكان عاري القدمين ألا من بابوج؟!

ولم يكن قد حلق ذقنه ولا غسل وجهه، ولا مشَّطَ شعره. ارتسم على وجهه تعبير عن الدهشة والاستغراب حين رأى رفيقه داخلاً عليه، فهتف يقول وهو يتفرس فيه من قمة الرأس إلى أخمص القدمين:

ـ ماذا؟ أأنت؟

ثم صمت وصفر، ثم أردف يقول وهو ينظر إلى أسمال راسكولنيكوف الرثة:

ـ أمن الممكن أن تكون أحوالك سيئة إلى هذا الحد؟ لقد تفوقت عليَّ في هذا المجال كثيراً. اجلس، اجلس! لابد أنك متعب!

وحين تهالك راسكولنيكوف على الأريكة التركية المنجدة بقماش مشمع، وهي أسوأ حالا من أريكته، أدرك رازوميخين فجأة أن رفيقه مريض فقال له:

ـ هيئَتُكَ تدل أنَّك مريضٌ جداً. هل تعلم هذا؟

وجسَّ نبضه، فسحب راسكولنيكوف يده بحركة حادة، وقال له:

ـ لا داعي إلى ذلك. لقد جئت... إليك السبب الذي دفعني إلى المجيء: فقدت جميع الدروس التي كنت أعطيها... أود أن أحصل... ولو على... لكن لا داعي إلى ذلك... لست بحاجة للدروس... قال رازوميخين وهو يتفرس فيه بانتباه:

ـ أنت تهذي! أتدري؟

ـ لا... لست أهذي.

قال راسكولنيكوف هذا ونهض عن الأريكة. أنَّه حين صعد إلى رازوميخين لم يخطر بباله أنَّه سيكون عليه أن يراه وجهاً لوجه. وها هو ذا يدرك الآن على حين غرة أنَّه لا شيء يضايقه أكثر من أن يرى الآن أي إنسان وجهاً لوجه. إن كل ما في نفسه من كراهية قد ثار الآن. ولقد أوشك أن يختنق غضباً من نفسه منذ أن اجتاز عتبة بيت رازوميخين.

قال فجأة:

ـ وداعاً!

واتجه نحو الباب.

ـ ولكن انتظر! انتظر، يالك من غريب الأطوار!

عاد راسكولنيكوف يقول وهو يسحب يده من جديد:

ـ لا داعي!

سأله رازوميخين:

ـ لماذا جئت إذاً؟ أتراك جننت؟ إن في سلوكك هذا ما يشبه أن يكون إهانة لي. لن أدعك تتصرف وأنت على هذا الحال.

ـ إذاً فاسمع! لقد جئتك لأنني لا أعرف أحداً غيرك قد يساعدني أن أبداً... نعم جئتك لأنَّك أفضل منهم جميعاً، لأنك أذكى منهم جميعاً، ولأنك حصيف الرأي، سديد الحكم. ولكنني أرى الآن أنني لست في حاجة إلى شيء. هل تسمع. هل تسمع؟ لست في حاجة إلى شيء إطلاقا... لا إلى خدماًت أحد ولا إلى عطف أحد... سأدبر أموري.... بنفسي، وحدي. نعم... يكفي هذا.

دعوني وشأني أنتم جميعاً!

ـ ولكن انتظر لحظة يا سخيف! أنت مجنون، مجنون تماماً! اعمل ما تشاء! ولكن اسمع قليلاً: أما الدروس فأنا نفسي لا أعطي الآن دروساً، لا ولا أكترث بها! غير أن عندي في السوق صاحب مكتبة اسمه خيروفيموف، هو في رأيي خير درس، ولو ساومني تجار على أن أعدل عنه في مقابل خمسة دروس لما فعلت! هو ينشر كتباً عن العلوم الطبيعية! ليس بإمكانك أنْ تتخيل مدى رواج هذا النوع من الكتب. الناس يتخاطفونها! العناوين وحدها تساوي وزنها ذهباً! أنت تدعي دوماً أنني غبي، فاعلم يا عزيزي أن ثمة أناساً أغبى مني، أقسم لك على ذلك! لقد أخذ هو أيضاً يجاري التيار، ويتبع الاتجاهات الحديثة. هو شخصياً لا يفهم شيئاً البتة، ولكنني أشجعه طبعاً على السير في هذه السبيل. انظر عندي ما يزيد على الملزمتين المطبوعتين باللغة الألمانية. في رأيي أن الكلام الوارد فيهما ليس إلا دجلاً وشعوذة. إن الكاتب يطرح هذا السؤال: هل المرأة إنسان أم هي ليست إنساناً[1]. وقد انتهى إلى إثبات بفخامة وإكبار أن المرأة إنسان... إن خيروفيموف يهيء هذه المقولات لعلاقتها بقضية المرأة، وأنا أتولى الترجمة... وسوف نطور النص الألماني المؤلف من ملزمتين ونصف فنجعله ست ملازم، ونعطيه عنواناً فخماً يملأ نصف صفحة، ثم نحدد ثمن سعر النسخة الواحدة من الكتاب بخمسين كوبيكاً. طيب! وأنا أتقاضى عن

1 ـ تسمع في هذا السؤال ردتهكي على قضية تحرير المرأة (مساواتها بالرجل) التي أثارت المجتمع الروسي في ستينات القرن التاسع عشر ت المترجم.

ترجمة الملزمة الواحدة ستة روبلات، أي خمسة عشر روبلاً عن هذا الكتاب ولكنني أخذت منه ستة روبلات سلفة. ومتى انتهينا منه. نترجم كتاباً آخر عن الحيتان. وقد اخترنا من كتاب "الاعترافات" عدداً من النمائم سنترجمها أيضاً. لقد قال أحدهم لخيروفيموف إن روسو يشبه راديشيف وأنا أتحاشى طبعاً أن أعارضه... شيطان يأخذه!... ها نحن إذاً نصل إلى الأمر الأساس: هل تريد أن تترجم الملزمة الثانية من كتاب هل المرأة إنسان؟" إن أردت، فخذ النص على الفور، وخذ مع النص أقلاماً وورقاً - كل ذلك على نفقة الناشر - وأقبل هذه الروبلات الثلاثة، فتكون هذه الروبلات الثلاثة من حقك. وفاقاً لما جرى بيني وبين الناشر. حتى إذا ما فرغت من ترجمة ملزمتك، قبضت ثلاثة روبلات أخرى. وأنا أرجوك بخاصة أن لا تتصور ان هذا العرض هو خدمة خاصة أقدمها لك.

بالعكس: فإنني ما أن رأيتك داخلاً عليَّ حتى قلت لنفسي: سوف يفيدني كثيراً فأنا أول ضعيف في الإملاء، وأنا ثانياً أقرب إلى الضعف في اللغة الألمانية، لذلك تراني في أكثر الأحيان أُلفِّقُ وأخترع، وأُعزِّي نفسي قائلاً إن النتيجة تكون هكذا أفضل. ولكن من يدري ؟ قد لا تجيء أفضل بل أسوأ!... هيه، أتقبل أم لا؟

تناول راسكولنيكوف النص الألماني صامتاً، وأخذ الروبلات الثلاثة أيضاً، ثم خرج وهو ما يزال ساكتاً لا ينطق بكلمة واحدة. وتابعه رازوميخين بنظرته مدهوشاً. ولكن ما أن وصل راسكولنيكوف إلى ناصية الشارع الأول حتى قفل راجعاً، وصعد ثانية إلى بيت رازوميخين، فبعد أن وضع الملزمة والروبلات الثلاثة على المنضدة، خرج مرة أخرى دون أن يفوه بحرفٍ واحد أيضاً.

زأر رازوميخين بعد أن ثارت ثائرته بعد صبر:

- لا شك أنَّك مصاب بحمى حادة! ما هذه المهزلة التي تمثلها؟ إنك تفقدني

صوابي. لماذا جئت إذاً يا أحمق ؟

دمدم راسكولنيكوف وقد بدأ يهبط السُّلَّم:

ـ لست بحاجة إلى ... ترجمة!....

فصرخ رازوميخين من فوق:

ـ أنت في حاجة إلى ماذا إذاً؟

تابع راسكولنيكوف هبوطه بصمت.

ـ اسمع! أين تسكن الآن؟

لم يجب راسكولنيكوف.

ـ شيطان أزرق يأخذك.

لكن راسكولنيكوف قد صار في الشارع. وعلى جسر نيقولاي، اضطر أن يثوب إلى رشده مرة أخرى، بسبب حادث مؤلم وقع له: لقد هوى حوذي على ظهره بضربة سوط موجعة، لأن راسكولنيكوف لم ينتبه إلى تحذيراته التي كررها ثلاث مرات أو أربعاً فكادت تدوسه خيول العربة. وقد أخرجته هذه الضربة عن طوره، فغضب غضباً بلغ من الشِّدة أنَّه صرف بأسنانه، ووثب إلى الأفريز (كان يمشي في وسط الجسر لا حيث يمشي المارة، لا يدري المرء لماذا!) فانطلقت من حوله الضحكات والتعليقات:

ـ نال عقابه.

ـ محتال!

ـ حيلة مكشوفة: يتظاهرون وبالسكر ويرتمون عامدين تحت العجلات ليبتزوا تعويضاً!

ـ من هذا يعيشون يا أصدقاء، هذا مصدر رزقهم...

ولكن تلك اللحظة التي رأى راسكولنيكوف نفسه قرب الأفريز آخذاً بحك ظهره، متابعاً بنظرته المشدوهة الحانقة، ابتعاد العربة، أحسَّ فجأة أن أحداً يدس مالاً في يده. فنظر فرأى أمامه امرأة متقدمة في السن ـ لا ريب أنَّها

زوجة تاجر - على رأسها قلنسوة من نسيج، وقدماها في حذائين من الجلد الرقيق، ومعها فتاة تلبس قبعة، وتحمل بيدها شمسية خضراء، ومعها ابنتها. قالت له السيدة وهي تدسّ المال في يده: "خذ هذا يا صاحبي لأجل الله". أخذ راسكولنيكوف الصدقة، وتابعت المرأتان دربهما. كانت الصدقة قطعة نقود فضية قيمتها عشرون كوبيكاً. لا ريب أنَّهما ظنتا من زيه الغريب ومظهره الزري أنَّه شحاد محترف. أما العشرون كوبيكاً - وهي مبلغ ضخم بالقياس إلى صدقة - فأغلب الظن أنَّهما أنعمتا بها عليه بسببه ضربة السوط التي آثارت شفقتهما. قبض راسكولنيكوف على قطعة النقد بيده، سار عشر خطوات، ثم التفت يواجه نهر نيفا في اتجاه "القصر".

كانت السماء صافية لا يعكر صفوها سحاب، وكانت زرقاء اللون تقريباً، وذلك ما لا يحدث إلا في القليل النادر. وكانت قبة الكاتدرائية[1]، التي لا تبرز هذا البروز إلا عند النظر إليها من هذا المكان من الجسر على بعد عشرين خطوة تقريباً من برج صلاة صغير، كانت متألقة ساطعة، وكان الناظر إليها يستطيع، بفضل شفافية الهواء، أن يميز أدقَّ زخارفها. هدأ ألم راسكولنيكوف، ونسي ضربة السوط، إن فكرة مقلقة مشوشة تشغل الآن ذهنه كلَّهُ. حدق ملياً إلى هذه الأماكن التي كانت مألوفة لديه. لقد حدث له في الماضي، حين كان ما يزال يتردد إلى الجامعة، مراراً كثيرة ربَّما كانت بالمئات، لاسيما في أثناء عودته إلى بيته، أن وقف في هذا المكان نفسه، فأخذ يتأمل المشهد الرائع، كان يدهش دائماً من الأثر المبهم الذي يحدثه هذا المشهد في نفسه. كان هذا المشهد المتألق يبدو له أفرس عقيماً بارداً برودا غريباً... وكان راسكولنيكوف يُدهش في كل مرة من الإحساس القاتم الملغز الذي يشعر به، وكان لارتيابه بنفسه يرجئ دائماً شرح أسباب ذلك في نفسه. وقد تذكر الآن فجأة، بدقة حادة، جميع المسائل التي هاجمته وحاصرته، فبدا لهُ أنَّه لا يتذكر هذا كُلَّهُ بمحض الصدفة. إن مجرد توقفه

في هذا المكان ذاته الذي كان يتوقف فيه سابقاً قد بدا له غريباً شاذاً كما لو ظن حقاً أنَّه ما يزال يستطيع أن يفكر في نفس الأمور وأن يهتم بذات الأمور، وذات المشاهد، وأن يعني بنفس الموضوعات التي كانت تستهويه في الماضي... وفي الآونة الأخيرة أيضاً. أوشك راسكولنيكوف أن ينفجر ضاحكاً. ولكن قلبه انقبض في الوقت نفسه انقباضاً يبلغ درجة العذاب. بدا له أن ماضيه كله، وأفكاره كلها، وجميع المسائل والعواطف التي كان يعالجها في الماضي، وهذا المشهد نفسه، وهو ذاته، وكل شيء... كل شيء يرقد الآن في أسفل، تحت قدميه، في غور هوة سحيقة لا نهاية لها... كان يبدو له أنَّه يطير إلى مكان ما في الأعالي وأن كل شيء يختفي ويزول ويغيب... وعلى أثر حركة غير إرادية من يده أحس بقطعة النقد الفضية مشدودة بقبضته، فبسط يده وتأمل قطعة النقد ملياً، ثم رماها إلى الماء بحركة يسيرة، واستدار على عقبيه وعاد يسير في طريق بيته إلا عن هبوط الليل، أي أنَّه ظل يسير ست ساعات كاملة. ولو سألته عن الطريق التي سلكها لما قدر أن يجيبك بشيء. خلع ثيابه وهو يرتجف رجفة حصان خائر ثم انطرح على أريكته، غطى جسده بمعطفه، فلم يعتم أن غاب عن الدنيا...

وأفاق في وسط عتمة حالكة، آن أيقظته صرخة كريهة. ما هذه الصرخة يارب! لم يسبق له في يوم من الأيام أن سمع جلبة رهيبة بشعة إلى هذا الحد: عويل ونشيج، وصريف أسنان، وصرخات، وشتائم لا يتصورها عقل! ما كان له أن يتخيل همجية كهذه، ووحشية تماثلها! انتصب على أريكته مروعاً مهدود القلب. ولكن الشجار والصخب والمسبات ما انفكت تشتدُّ وتشتدُّ، وها هو ذا يتعرف صوت صاحبة البيت بغتة، فيصاب بدهشة عميقة وذهول عنيف. كانت تعول وتئن وتصيح وتتضرع، وتُشوه الألفاظ من فرط سرعتها حتى ليستحيل على المرء أن يُدرك جملةً واحدةً من كلامها. لعلَّها كانت تلتمس إلى من يضربها أن يكف ويرعوي، ذلك أن أحداً كان يضربها على السلم، نعم...

إن أحداً يضربها هناك ضرباً شرساً لا شفقة ولا رأفة.

وها هو صوت الرجل الذي يضربها قد بلغ من شدَّة الغضب والهول أنَّه أصبح نوعاً من صراخ أبح. كان هذا الرجل يرشق كلاماً، ولكن كلامه أيضاً ما كان مفهوماً من فرط سرعته واختناقه!... وأخذ راسكولنيكوف يرتجف فجأة كورقة في باب الهواء: تعرف إلى صوت الرجل. كان صوت إيليا بتروفيتش. ماذا؟ إيليا بتروفيتش هنا! يضرب صاحبة البيت؟ نعم، هو يضربها بقدمه، ويطرق برأسها درجة السلم: هذا واضح، تدل عليه الضجيج والصخب والضرب، ولا تخطئ في الدلالة عليه. ماذا جرى إذاً؟ هل انقلب العالم عاليه سافله؟ وهذا راسكولنيكوف يسمع في جميع الطوابق، ومن أعلى السُّلَّم إلى أدناه، أصوات جمهرة من الناس تتحشَّدُ، تصرخ وتصيح. أناس يصعدون وآخرون ينزلون مسرعين. "لماذا؟ لماذا؟ أهذا ممكن؟" هكذا كان راسكولنيكوف يتساءل ويعقب صادقاً أنَّه جن، ولكن لا، أنَّه ما يزال يسمع ذلك كله واضحاً كل الوضوح... لا بد إذاً أنَّهم آتون إليه أيضاً، "لأن... نعم.... لأن كل شيء يرجع... إلى أنني... بالأمس... قد... رباه!". أراد أن يغلق الباب بالكلابة، لكن يده لم تطاوعه، ولو أغلق الباب بالكلابة لما أجداه ذلك فتيلاً من جهة أخرى. كان الخوف يسكن روحه كدرع جليدي، ويعذبه ويشله... ولكن ها هي ذي الجلبة كلها تهدأ رويداً رويداً بعد أن دامت عشر دقائق مديدة.... إن صاحبة البيت تئن الآن وتتأوه. أما إيليا بتروفيتش استمر يهدد ويتوعد ويشتم... وبدا أخيراً أنَّه هدأ هو الآخر. ثم صار صوته غير مسموع البتة. "أتراه انصرف؟ يارب!".

نعم ، لقد انصرف. وهذه صاحبة البيت انصرفت أيضاً وهي ما تزال تئن وتبكي. هذا بابها يغلق مقرقعاً... هؤلاء هم الناس يتفرقون جميعاً فيعود كل منهم إلى مسكنة... أنَّهم يتأوهون ويتناقشون ويستوضحون تارة بأصوات قوية جداً (توشك أن تكون صراخاً) وتارةً بأصوات خافتة جداً (توشك أن تكون

همساً).... لا شك أن عددهم كبير جداً يكاد يضم جميع سكان المنزل. تساءل راسكولنيكوف: "رباه! أهذا كله ممكن؟ ولماذا، لماذا جاء إلى هنا؟"

تهالك راسكولنيكوف مهدود القوى على أريكته من جديد، ولكن جفنه لم يعرف إلى الغمض سبيلاً بعد ذلك. ولبث راقداً هذا الرقاد مدة نصف ساعة وهو يعاني عذاباً ورعباً أكبر من كل ما عرف في حياته من عذاب ورعب. وهذا ضياء جديد قوي ينير غرفته بغتة. لقد دخلت عليه ناستاسيا مع شمعة وطبق حساء.

فلما نظرت إليه ملياً فعرفت أنَّه ليس نائماً، وضعت الشمعة على المنضدة، وأخذت ترتب على المائدة ما كانت تحمله إليه: خبزاً، وملحاً، وصحناً، وملعقة.

قالت:

ـ لم تأكل شيئاً منذ أمس! ظللت تتسكع هنا وهناك طول النهار، وهذه هي حُمَّى شديدة تنتابك الآن!

قال راسكولنيكوف لناستاسيا:

ـ ناستاسيا، لماذا ضربوا صاحبة البيت؟

أجابته وهي تنظر إليه ملياً.

ـ من ضرب صاحبة البيت؟

ـ منذ قليل، منذ نصف ساعة... ضربها إيليا بتروفيتش مساعد مفوض الشرطة، هنا، في السلم... لماذا ضربها؟ ولماذا جاء؟....

تفرست فيه ناستاسيا صامتة مقطبة مدة طويلة. لقد آلمه هذا، ثم شعر بخوف.

سألها راسكولنيكوف وجلاً، بصوت واهن:

ـ ناستاسيا، لماذا تصمتين؟ فقالت تجيبه بعد لحظة بصوت خافت كأنَّها تكلم نفسها:

ـ هو الدم.

ـ الدم؟ أي دم؟

كذلك تمتم وقد اصفر وجهه وأخذ يتقهقر فيلتصق بالحائط. ما تزال ناستاسيا تنظر إليه صامتة. ثم قالت بعد لحظة بلهجة قاسية واثقة:

ـ لم يضرب أحد صاحبة البيت.

فنظر إليها وهو لا يكاد يتنفس، وقال لها بمزيد من الوجل:

ـ سمعت الجلبة بنفسي... لم أكن نائماً... جلست هنا... وسمعت كل هذا مدة طويلة... جاء مساعد مفوض الشرطة... وخرج الجميع من شققهم، وهرعوا إلى السلم...

ـ لم يجيء أحد. الدم هو الذي يصرخ فيه. حين لا يجد الدم مخرجاً فيأخذ يتكثر ويسد الكبد، تتراءى للمرء عندئذ رؤى... أتريد أن تأكل أم لا؟

لم يجب راسكولنيكوف. وظلت ناستاسيا واقفة إلى جانبه، لا تتكلم، وما تزال تتفرس فيه.

ـ اسقيني ناستاسيا...

نزلت ناستاسيا، ثم عادت بعد دقيقتين تحمل جرة صغيرة من الفخار الأبيض فيها ماء. لا يتذكر راسكولنيكوف ما جرى بعد ذلك. كل ما يتذكره هو أنَّه شرب جرعة من ماء بارد، وأنَّه قلب ماء الجرة على صدره. ثم أغمي عليه.

**الفصل الثالث**

ولكنه لم يفقد وعيه طوال مدة مرضه. كان يعاني حالة مصحوبة بهذيان، ولكن هذه الحالة تركت له نصف وعي. وقد تذكر بعد ذلك أشياء كثيرة. كان يتراءى له تارة أنَّ أناساً كثيرين قد احتشدوا حوله، وهم يريدون أن يأخذوه، أن ينقلوه إلى مكان ما، وهم يتناقشون ويتشاجرون في أمره. وكان تارة أخرى يجد نفسه وحيداً في غرفته وبغتة: ذهب الناس جميعاً لأنَّهم

خافوه، يفتحون جزءاً من الباب من حين إلى آخر لينظروا إليه، وليهددوه، وهم يتآمرون عليه، ويسخرون منه، ويزدرونه، ويستفزونه. وقد تذكر راسكولنيكوف أنَّه رأى ناستاسيا ساهرة عليه قرب سريره مراراً. واستطاع كذلك أن يميز رجلاً لا بد أنَّه كان يعرفه جيداً، ولكنه لا يملك أن يقول من هو هذا الرجل على وجه الخصوص. وكان ذلك يؤلمه، حتى لقد كان يبكي. وكان يتراءى له في بعض الأحيان أنَّه مستلق في سريره منذ شهر، وكان يتراءى له في أحيان أخرى أن هذه المدة كلها يوم واحد متصل ومستمر. ولكن ما باله من ذلك الأمر، ما باله نسي ذلك الأمر تماماً! على أنَّه كان يتذكر في كل لحظة أنَّه قد نسي شيئاً لا يجوز له أن ينساه. وكان عندئذٍ يبذل جهداً مضنياً لكي يستعيد الأمر، ويتعذب ويئن، ثم إذا هو يستولي عليه حنق مسعور أو يستبد به ذعر شديد، فينهض عن أريكته، ويحاول أن يهرب، غير أن أحد يمنعه من ذلك بالقوة، فيهوى إلى ضعفه من جديد، ويغيب عنه شعوره مرة أخرى. ثم عاد إليه وعيه تماماً.

حدث ذلك في الساعة العاشرة من أحد الأصباح. كانت الشمس في مثل تلك الساعة من أيام الصحو يسقط منها شعاعٌ طويلٌ على الجدار الأيمن من غرفته، الركن القريب من الباب. هذه ناستاسيا واقفة قرب سريره، وهذا شخص آخر يتفرس فيه بكثير من الاستطلاع، رجل لا يتذكر راسكولنيكوف أنَّه رآه قبل اليوم قطعاً. هو فتى يرتدي قفطاناً، وذو لحية زغب، وهيئته تشير على أنَّه مستخدم في محل تجاري. ومن خلال الباب الموارب، تنظر صاحبة البيت.

رفع راسكولنيكوف جسمه قليلاً، وسأل وهو يومئ إلى الشاب:

ـ من هذا يا ناستاسيا؟

ردت:

ـ صحا من غيبوبته.

صادق المستخدم كلامها:

ـ نعم، صحا.

وفهمت صاحبة البيت التي كانت تنظر من خلال شق الباب، إن راسكولنيكوف صحت من غيبوبته. فأغلقت الباب مسرعة وغابت. كانت هذه المرأة أبداً خجولاً، لا تطيق النقاش والعتاب. هي في حوالي الأربعين ربيعاً. لها حاجبان سوداوان، وعينان سوداوان، وهي بدينة لحيمة، كستها السمنة والكسل طيباً، وهي تتماز بكثير من البشاشة، ولكنها مفرطة بالعفة.

عاد راسكولنيكوف يسأل من جديد، اتجه بسؤاله إلى المستخدم مباشرة:

ـ من أنت؟

ولكن الباب في تلك اللحظة بمصراعيه، ودخل رازوميخين منحنياً بسبب طول قامته. وهتف يقول وهو يدخل:

ـ يشبه سكنك هذا حجرة في سفينة. أهذا مسكن؟ لا يدخله المرء مرة إلا ويصطدم جبينه! إذاً أفقت من غيبوبتك يا صاحبي، هه؟ لقد أعلمتني باشنكا. أردفت ناستاسيا:

نعم أفاق الآن.

وردد المستخدم وقد رسم على فمه ابتسامة.

ـ نعم، أفاق الآن

سأل رازوميخين المستخدم بغتة:

ـ ولكن... من أنت؟ أنا، مثلاً، اسمي فرازوميخين، لا رازوميخين حسب تسمية الناس لي... بل فرازوميخين. وأنا طالب، ابن رجل من السادة النبلاء، وهذا هو صاحبي. ولكن، أنت، من أنت؟

ـ أنا مستخدم في محل التاجر شيلوبايف، وقد جئت هنا لأعمال.

ـ هلا تفضلت فجلست على هذا الكرسي!

قال رازوميخين ذلك وقعد على مقعد آخر في الجهة الأخرى من المائدة. وتابع كلامه يخاطب راسكولنيكوف:

ـ أحسنت صنعا يا عزيزي بالصحو من غيبوبتك. فإنك منذ أربعة أيام لم تطعم شيئاً، سوى قليل من الشاي جرعته بالملعقة. وقد جئتك بزوسيموف مرتين. هل تتذكر زوسيموف؟ فحصك بكثير من الاهتمام والانتباه، ثم قال إنك سليم معافى، إلا من ضربة أصابت رأسك. وأضاف إن الأمر لا يعدو أن يكون انزعاجاً عصبياً بسيطاً مرده إلى سوء التغذية. فقد كنت بحاجة إلى بيره وفجل، فلما حرمت منهما مرضت. ولكنَّه يؤكد أن ذلك كُلَّهُ سينقضي بسرعة، بل ستبرأ قريباً. يا له من رجل لامع، زوسيموف هذا. لقد نجح نجاحاً فائقاً في الطب منذ الآن.

ثم أضاف رازوميخين يخاطب المستخدم من جديد:

لا نريد أن نؤخرك. هلاَّ تفضلت فذكرت لنا غرضك من هذه الزيارة!

وتابع يكلم راسكولنيكوف:

ـ لاحظ يا روديا أنَّها المرة الثانية التي يوفد فيها مكتبهم مندوباً. ولكن مندوبهم في المرة السالفة لم يكن هذا الشاب، بل كان رجلاً آخر، ومع ذلك الرجل الآخر تباحثنا.

وعاد يسأل المستخدم:

ـ من ذاك الذي جاء إلينا في المرة السابقة؟

ـ لا ريب أنك تقصد الذي جاء مذ ثلاثة أيام. هو ألكسي سيمبوفتش. هو يعمل في المحل أيضاً.

ـ أرى أنَّه أبرع منك. ما رأيك؟

ـ نعم أنَّه أكثر وقاراً.

ـ أُهنئُكَ، طيِّب، وتابع!

بدأ المستخدم كلامه مخاطباً راسكولنيكوف مباشرة:

ـ إليـك الموضـوع: بوسـاطة أفاتاسـي ايفـانوفتش فاخروشـين الـذي أرجـو أن تكـون قد سمعت بـه، ويطلـب مـن السـيدة والـدتك، وصلت إلى مكـتبنـا حوالـة ماليـة لـك، فـإذا كنـت في حالـة تمكنـك مـن الـوعي، فسـوف أدفـع لـك مبلـغ خمسة وثلاثين روبلاً تلقاها سيمون سـيميونوفتش مـن أفاناسـي ايفـانوفتش بنـاء على طلب من السيدة الوالدة. هل أبلغت هذا الأمر؟

أردف راسكولنكوف، حالماً مفكراً:

نعم، أذكر... فاخروشين.

هتف رازوميخين يقول:

ـ هـل سمعـت؟ إنَّـه يعـرف التـاجر فاخروشـين، فكيـف لا يكـون في حالـة تمكنه من الفهم؟ ثم انا ألاحظ أنك رجل عاقل، هيا أكمل حديثك. أنَّه ليحلـو للمرء دائماً أن يسمع أقوال رجل عاقل.

وتابع المستخدم كلامه:

ـ نعـم، إن فاخروشـين هـذا نفسـه، أفاناسـي ايفـانوفتش فاخروشـين، لم يتردد، حين طلبت السيدة والدتك ذلك ـ وهـي الـتي أوصلت إليـك بوسـاطته، في مرة سابقة، مبلغاً من المال ـ لم يتردد في هذه المرة أيضـاً أن يكتـب إلى سـيميون سـيميونوفتش طالبـاً منـه أن يـدفع لـك مبلـغ خمسـة وثلاثـين روبـلاً، بانتظـار أن يدفع لك أكثر من ذلك في المستقبل.

يميناً إن قولك "بانتظار أن يدفع لك أكثر مـن ذلـك في المسـتقبل" هـي خير ما خرج من فمك. ولا بأس أيضاً في قولك "السيدة والدتك". ما رأيك الآن؟

أهو يملك شعوره كاملاً أم لا؟

ـ أتمنى ذلك... كل ما أريده هو أن يعطيني إيصـالاً صـغيراً يشـهد باسـتلامه المبلغ.

ـ سيكتب لك الإيصال فوراً. ما هذا الذي معك؟ أهو سجل؟

ـ نعم، سجل.

ـ هاته. هيا يا روديا! انهَض قليلاً. سأسندك. وقع له اسمك دفعة واحدة، خذ القلم يا صاحبي، لأن حاجتنا إلى المال ماسة، ماسة جداً...

قال راسكولنيكوف وهو يدفع القلم:

ـ لست في حاجة...

ـ لست بحاجة إلى ماذا؟

ـ لن أوقع.

ـ ولكن كيف يمكن أن... بغير توقيع... اللعنة!

ـ لست في حاجة إلى مال...

ـ لست في حاجة إلى مال؟ ألا إنَّك تكذب يا عزيزي. أنا شاهد على أنك تكذب.

قال رازوميخين ذلك، والتفت يخاطب الشاب:

ـ لا تقلق، أرجوك... هو يقول هذا، ولكنه يهذي. من جديد. ثم أنَّه يتفق له أن يهذي في الحالة الطبيعية. أنا أعرفه. وأنت رجل عاقل. ليس علينا إذاً إلا أن نرشده، أو قل أن نرشد يده، فيوقع. هيا، ساعدني!

ـ يمكنني أن أعود مرة أخرى.

ـ لا، لا، لماذا تزعج نفسك مرة أخرى؟ أنت رجل عاقل... هلم يا روديا، لا تؤخر ضيفنا... أنت تراه ينتظر منذ مدة.

قال رازوميخين هذا وتهيأ، جاداً كل الجد، لأن يقود يد راسكولنيكوف. فقال له راسكولنيكوف:

ـ دع عنك. سأوقع بنفسي وخاطري.

وتناول القلم ووقع.

فدفع له المال المستخدم، وخرج.

ـ نعم سآكل!...

قال رازوميخين يسأل ناستاسيا التي ظلت هناك طوال تلك المدة:

ـ أعندكم حساء؟

ـ نعم، عندنا حساء من البارحة.

ـ أهو حساء بالرز والبطاطا؟

ـ بالرز والبطاطس.

ـ قدرت ذلك. هات الحساء وأتنا بشاي!

حالاً.

نظر راسكولنيكوف حواليه مدهوشاً مخبولاً شاعراً بذعر أخرس. لقد قرر. لقد قرر أن يصمت وأن ينتظر تتمة الأحداث. قال يحدث نفسه: يخيل إلى أنني لا أهذي.... يخيل لي أن هذا كله واقع وليس أضغاث أحلام!"

وبعد دقيقتين عادت ناستاسيا بالحساء، وأعلنت أن الشاي سيكون مهيأً بعد قليل. من أجل الحساء ظهرت ملعقتان وصحنان وجميع أدوات المائدة:

وعاء ملح، وعاء الفلفل، وعاء خردل لتطييب اللحم، الخ. إن مثل هذا الترتيب الدقيق لم يراع منذ مدة طويلة. وكان غطاء المائدة نظيفاً.

قال رازوميخين:

ـ لا بأس يانا ستاسيوشكا، في أن ترسل إلينا براسكوفيا بافلوفنا زجاجتين صغيرتين من البيرة. سوف يسرنا أن نشربهما.

دمدمت ناستاسيا وهي تمضي لتنفيذ الأوامر.

ـ إنك لشاطر!

وكان راسكولنيكوف ما يزال ينظر حواليه زائغ الهيئة مشدود الانتباه. وفي أثناء ذلك الوقت قعد رازوميخين إلى جانبه على الأريكة، وينهض رأسه بيده اليسرى، بخراقة كخراقة الدب، رغم أن راسكولنيكوف كان في وسعه أن يهم بجسمه قليلاً، ويحمل إلى فمه باليد اليمنى ملعقة من الحساء بعد أن ينفخ عليها عدة مرات حتى لا يحترق بها فم صاحبه. وكان الحساء بالواقع فاتراً غير ساخن. التهم راسكولنيكوف ملعقة أولى، فثانية، فثالثة بشراهة

ونهم. فلم يلبث رازوميخين أن توقف عن إطعامه قائلاً إن من الواجب أن يُستشار في ذلك زوفيموف أولاً.

ودخلت ناستاسيا تحمل زجاجتي بيرة.

ـ أتريد شيئاً من الشاي؟

ـ نعم.

ـ هاتي لنا شاياً يا ناستاسيا، فنحن بخصوص هذا الشراب، أعني الشاي نستطيع أن نستغني عن صفات كلية الطب! آ... هذه هي البيرة!

قال رازوميخين هذا وعاد إلى كرسيه، جذب إليه الحساء، واللحم المسلوق، وراح يلتهم كل هذا كأنَّه لم يأكل منذ ثلاثة أيام. ودمدم يقول بمقدار ما يتيح له فمه المملوء لحماً أن يتكلم.

ـ نعم يا روديا، نعم يا صديقي القديم، على هذا النحو إنَّما أصبحت أكل الآن كل يوم في منزلكم. إن صاحبة البيت باشنكا هي التي تكرمنا هذا التكريم. إنَّها تحيطني بكل أنواع العناية والرعاية. طبعاً أنا لا اطلب شيئاً، ولكنني لا أرفض شيئاً أيضاً... هذه ناستاسيا وشأنها! هي الريح نفسها في صورة امرأة أتريد شيئاً من البيرة يا ناستاسيا؟

ـ مهرج!

ـ وهل تريدين كوب شاي؟

ـ الشاي لا يرفض!...

ـ إذاً صبي لنفسك شاياً. لا بل انتظري! سأخدمك أنا بنفسي. اقعدي إلى المائدة.

قال رازوميخين ذلك وأسرع ينهمك بصب الشاي، فملأ فنجاناً ثانياً، ثم ترك غداءه، وعاد يجلس على الديوان. وكما فعل منذ قليل، دسَّ يده اليسرى تحت رأس المريض، فأنهضه قليلاً، وسقاه الشاي بالملعقة، نافخاً على كل ملعقة كثيراً من العناية، كأن سلامة المريض مرهونة بالنفخ. وكان

راسكولنيكوف صامتاً لا يقاومه أية مقاومة، رغم شعوره بأنَّه يملك من القوة ما يكفيه لأن يرفع جسمه، ولأن يبقى قاعداً من دون مساعدة من أحد، بل لأن يستعمل يديه أيضاً ليأخذ ملعقة أو فنجاناً، حتى مضى إلى درجة الاعتقاد أن في وسعه أن يمشي إذا شاء. ولكنه بنوع من مكرٍ غريب، مكر يكاد يكون غريزياً، خطر بباله فجأة أن يخفي قواه، بل وأن يتظاهر بغيبوبة تامة إذا لزم الأمر، من أجل أن يتجسس خلال ذلك على ما يجري حوله. غير أنَّه لم يستطع أن يتغلب على مقته: فبعد أن ابتلع نحو عشر ملاعق من الشاي، سحب رأسه، ودفع الملعقة بنزوة طارئة، وتهالك على الوسادة. إن رأسه يستريح على وسائد حقيقية من ريش، تجللها أغطية نظيفة. ولاحظ راسكولنيكوف ذلك وأدركه.

أعلن رازوميخين وهو يعود إلى مكانه ويهجم على حسائه وبيرته من جديد:

ـ يجب على باشنكا أن ترسل إلينا في هذا اليوم شيئاً من مربى التوت نصنع منه لمريضنا شراباً.

قالت ناستاسيا التي كانت تبسط صحن فنجانها على أصابعها الخمس المتباعدة، وترشف شايها فيرشح "من خلال السكر في فمها".

ـ ولكن من أين عساها تأتي الآن بالتوت؟

ـ التوت يا عزيزتي ستجده عند البقال. هل تعلم يا روديا؟ لقد جرت هنا حادثة لا تعرف عنها شيئاً! حين هربت من عندي هروب وغد من الأوغاد، دون أن تذكر لي عنوانك، غضبت غضباً شديداً جعلني قررت فوراً أن أعثر عليك... وأن أعاقبك! وأخذت في ذلك اليوم نفسه أبحث عنك.... يمكن أن يقال إنني ركضت وأزعجت الناس جميعاً لأهتدي إليك... كنت قد نسيت عنوانك الحالي، أو قُل إنني ما نسيته لأنَّي ما كنت أعرفهُ أصلاً. أما مسكنك القديم، إن كل ما أذكره عنه هو أنَّه يقع في مكان ما من "الأركان الخمسة" بعمارة تسمى "عمارة خارلاموف"... والحق أن ذلك السيد، صاحب

العمارة، لم يكن اسمه خارلاموف، بل بوخ. فانظر كيف يخطئ المرء بسبب التجانس اللفظي! الخلاصة أنني غضبت غضباً شديداً، بلغ من الشدة أنني ذهبت من الغد رأساً إلى مكتب تسجيل العناوين: فإذا أنا أعرف فهم عنوانك في غضون دقيقتين، نعم، نعم، إنك مسجل عندهم!

- مسجل!

نعم، نعم، مسجل. ومع ذلك لم يستطيعوا أن يعثروا على عنوان الجنرال كوبليف. لست أخترع شيئاً: لقد جرى هذا أمامي. هوة! ما لنا نتوه في التفاصيل! ... على كل حال، ما أن جئت إلى هنا، حتى كنت أعرف جميع شؤونك! يا صديقي أنا أعرف كل شيء. وناستاسيا شاهدة على ذلك. لقد أروني إيليا بتروفيتش. وتعارفت وتعارفت مع نيكوديم فومتش، والبواب، والسيد زاميتوف، سكرتير قسم الشرطة الحي، وعرفت أخيراً باشنكا... باشنكا... أنّها زهرة من عرفتهم. ناستاسيا تعرف ذلك.

تمتمت ناستاسيا تقول وهي تضحك ضحكة فيها شيء من مكر:

- عرف كيف يتملقها.

- عليّك أن تضعي السكر في فنجانك يا ناستاسيا نيكوفورفنا!

هتفت ناستاسيا وهي تنفجر ضاحكة:

- ياللكلب!

ثم أضافت بعد أن انتهت نوبة الضحك:

- ليس اسمي نيكوفورفنا بل بتروفنا.

قال لها رازوميخين:

- أحطنا علماً بذلك.

ثم استأنف كلامه مخاطباً راسكولنيكوف:

- هكذا يا صاحبي الخلاصة أنني أردت أن أستعمل سائلاً كهربائياً من أجل أن استأصل، دفعة واحدة، جميع الأوهام المعششة في هذه النواحي. ولكن

باشنكا غلبتني يا صديقي، ما كنت أتصور في يوم من الأيام أنَّه ما يزال يحدق إليه.

تابع رازوميخين كلامه دون أن يظهر عليه أي حرج من صمت راسكولنيكوف وكأنَّه يوافق على كلام صاحبه:

ـ نعم، أنَّها إنسانة ممتازة من جميع الجهات.

هتفت ناستاسيا تقول من جديد، وقد بدا عليها أن هذه المحادثة تسرها سروراً بالغاً:

ـ يا له من حيوان!

ـ المصيبة يا صديقي أنَّك لم تعرف كيف تتدبر أمرك منذ البداية. إن على المرء أن يتبع في معاملتها طريقة غير طريقتك. إن لها طبعاً... غريباً! سنتكلم عن طبعها فيما بعد. ولكن كيف استطعت أن تفسد أمورك معها إلى الحد الذي انقطعت معها عن إرسال طعامك إليك؟ وما قصة السند تلك؟ أأنت جننت؟ كيف ترضى أن توقع سندات؟ ومشروع الزواج ذاك، حين كانت ابنتها ناتاليا ياجورفنا ما تزال على قيد الحياة؟ أنا أعلم كل شيء! وأنا أدرك أنني هنا أمس الوتر الحساس، وأنني حمار. معذرة، معذرة. ولكن قل لي بمناسبة الحماقات ما رأيك: ليست براسكوفيا بافلوفنا حمقاء إلى الحد الذي قد يفترضه المرء من أول نظرة، أليس كذلك؟

قال راسكولنيكوف بأطراف شفتيه، مشيحاً بوجهه، مدركاً مع ذلك أن استمرار الحديث أفضل:

ـ نعم....

فهتف رازوميخين وقد أسعده بوضوح حصوله على جواب:

ـ أليس كذلك؟ ولكنَّها ليست ذكية أيضاً، هه؟ إن لها طبعاً لا يُتوقع أبداً. أنا بصراحة، يحيرني هذا الطبع يا صاحبي. لابد أنَّها في الأربعين من عمرها... هي تقول أنَّها لم تتجاوز السادسة والثلاثين. وهذا حقٌّ من حقوقها.

على أنني (أحلف لك!) لا أحكم عليها إلا من وجهة النظر الفكرية، من وجهة النظر الميتافيزيقية وحدها. إن ما يقع بيننا يدخل في نطاق الرمز. هو نوع من علم الجبر يا صاحبي... لست أفهم من ذلك شيئاً. كل هذا سخافات! ولكنها إذ رأت أنَّك لم تعد طالباً، إذ خسرت ما تتقاضى من إعطاء دروس، ليس عندك ما تغطي به ظهرك وأنَّها غدت منذ رحيل نجواها لا تستطيع أن تعدك عضوا في الأسرة، وقد انتابها ذعرٌ. وإذ ذاك من جهتك، انطويت على نفسك بدلاً من أن تعيش كما كنت في الماضي. فقد قام في ذهنها أن تطردك. وكانت تفكر في هذا المشروع منذ مدة، ولكن السند كان يقلقها كثيراً، ولما كنت قد أكدت لها أن أمك ستدفع...

ـ قلت لها إن هذا دناءة مني... إن أمي توشك أن تستجدي أكف الناس... لقد كذبت عليها لأجبرها على أن تحتفظ بي وأن تطعمني.

قال راسكولنيكوف ذلك بصوت عال واضح.

أردف رازوميخين:

ـ نعم، ولقد تصرفت عندئذ تصرفاً فيه تعقلٌ وحكمة. ولكن المشكلة هي أنَّهُ في تلك اللحظة ظهر السيد تشيباروف، وهو برتبة مستشار وأحد رجال الأعمال الوجهاء، فلولاه لما خطر ببال باشنكا، وهي المرأة الخجول، أن تتخذ أي إجراء. ولكن رجل الأعمال لا يملك هذا الخجل، فكان أول سؤال ألقاه طبعاً هو: هل هناك أمل في قبض قيمة السند؟ وكان الجواب ايجابياً، لأن ثمة أُمَّاً لها معاش مقداره مائة وخمسة وعشرون روبلاً. فلن تضن على ابنها رودنكا بإخراجه من المازق ولو اضطرها ذلك إلى حرمان نفسها من الطعام. ولأن هناك أختاً حنوناً سوف ترضى بأن تبيع نفسها عبدة في سبيل إنقاذ أخيها الحبيب. على هذا اعتمد الرجل. ما بالك تضطرب هكذا؟ ها أنت ذا يا صاحبي إنني أعرف الآن قصتك، أعرفها بالتفصيل. لم يذهب سدى ما أفضيت به إليَّ باشنكا من مسارات حين كُنت ما تزال تُعِدُّ نفسك من أقربائها، بصفة زوج

ابنتها المقبل... ولئن كُنتُ أقولُ لك هذا الكلام، فلأنني صديقك. اسمع إذاً ما حدث: حين يسترسل الإنسان الشريف الحسَّاس في مسارات حميمية، فإن رجل الأعمال يجلس إلى منضدته وينهمك في الحساب ليخرج بمنفعة. وهكذا تنازلت باشنكا عن السند لتشيباروف، فلم يتورع تشيباروف هذا عن المطالبة بقيمة السند، وحين عنيت أنا بهذا كُلِّهُ، أردت أن أتدخل في الأمر فأرسلت الكهربائي إليه هو أيضاً. ولكنَّ الإنسجام قام بيني وبين باشنكا أثناء ذلك، فأوقفت القضية برُمَّتِها، ودفنتها في مهدها، إذ كفلت أن تدفع المبلغ. لقد أصبحت كفيلك يا صاحبي، هل تسمع؟ واستدعينا تشيباروف، فدسسنا في فمه عشرة روبلات فرد السند الذي يشرفني، يا سيدي أن أقدمه إليك. لن تطالب بعد الآن بسند، بل ستصدق على عهد الشرف وحده. خذ السند. لقد تمزق بعض الشيء، كما يجب أن أفعل.

وضع رازوميخين السند على المائدة. فألقى راسكولنيكوف عليه نظرة سريعة ثم التفت إلى جهة الحائط دون أن يقول شيئاً، فاستاء رازوميخين من ذلك، وقال بعد دقيقة: أرى يا صاحبي أنني كنت غبياً مرة ثانية. فقد ظننت أني بثرثرتي سأسري عنك وأسليك، وها أنا ذا ألاحظ الآن أنني لم أزد على أن حركت غضبك!

أأنت الشخص الذي كنت في أثناء هذياني لا أتعرفه؟

هكذا بادر راسكولنيكوف بالسؤال بعد أن صمت لحظة هو الآخر، ودون أن يلتفت صوبه. فأجاب رازوميخين:

ـ نعم أنا، حتى إن حضوري قد سبب لك بعض نوبات الهياج، ولاسيما حين جئت إليك بزاميوتوف.

فالتفت راسكولنيكوف فجأة بعنف، وحدق إلى رازوميخين سائلاً:

زاميوتوف؟ سكرتير مفوض الشرطة؟ لم جاء؟

ـ ولكن ماذا دهاك؟ لماذا تضطرب هذا الاضطراب؟ لقد أراد أن يتعرف

إليك... وإنَّما أراد ذلك لأننا تحدثنا عنك كثيراً. وكيف كان يمكنني، لولاه، أن أعرف هذه الأشياء كلها عنك؟ إنَّه رجلٌ شهم، رائع... في نوعه طبعاً. ونحن الآن أصدقاء، نلتقي كل يوم تقريباً. ذلك أنني سكنت في مكان قريب. ألم تعرف ذلك بعد؟ نعم، انتقلت منذ برهة وجيزة، وقد ذهبنا معاً إلى لويزا مرة أو مرتين. أتتذكر لويزا إيفانوفنا؟

ـ أكنت أهذي؟

ـ أظن ذلك! كنت غير نفسك!

ـ وماذا كنت أقول؟

ـ ماذا كنت تقول؟ هه.... معروف ماذا يمكن أن يقول رجل يهذي. والآن، يا صاحبي، لم يبق متسع من الوقت نضيعه. إلى العمل.

نهض من الكرسي وتناول قبعته.

ـ ماذا كنت أقول ؟

ـ ما باله يُصِر؟ أتراه يخشى أن يكون قد فضح سراً من الأسرار؟ لا تقلق إذاً. لم يفلت منك الكلام في حق السيدة الكونتيسة. ولكنك تكلمت كثيراً عن كلب حراسة من نوع "البولدوج"، وتكلمت عن أقراط إذاً، وعن سلاسل ذهبية، وعن جزيرة كريستوفسكي، وعن بوَّاب ما، وتكلمت أيضاً عن نيكوديم بتروفيتش مساعد مفوض الشرطة. ثم إنَّك يا سيدي اهتممت اهتماماً واسعاً بجوربك، فكنت تتوسل ان نسرع ونعطيك جوربك فبادر زاميوتوف بنفسه يبحث لك عنه في كل الأركان، حتى إذا وجده، حمله إليك بيديه، بيديه البيضاوين المعطرتين المجللتين بالخواتم، عندئذٍ هدأ روعك، ثم ظللت قابضاً بيديك على تلك القاذورة يوماً كاملاً، لا يستطيع احد أن ينتزعها منك. لابد أنَّها ما تزال في مكان ما تحت غطائك! وكنت تطالب أيضاً بقصاصات سروالك، حتى لقد كنت تبكي وأنت تطالب بتلك القصاصات. تساءلنا أية قصاصات تعني، ولكن كان كلامك مشوشاً فلم نفهم منه شيئاً. والآن

كفى كلاماً، ولنبادر إلى العمل. هذه خمسة وثلاثون روبلاً. إنني آخذ منها عشرة، وسأعود إليك بالحساب بعد ساعتين. وفي أثناء هذا الوقت أكون قد أبلغت زوسيموف، الذي كان ينبغي أن يكون هنا منذ مدة طويلة، لأن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. وأنت يا ناستاسيا، أرجوك أن تعتني به في أثناء غيابي! أعطيه ما يشرب، أو أعطيه شيئاً آخر إذا هو رغب في ذلك. أما باشنكا فسوف أقول لها فوراً ما يجب قوله. إلى اللقاء!

قالت ناستاسيا منذ أن خرج.

ـ يدعوها باشنكا! آه! ياله من ماكر!

ثم فتحت الباب وأصغت، ثم لم تطق صبراً فهرولت تهبط. كانت تتحرق شوقاً إلى معرفة ما قد يقوله رازوميخين لمولاتها. وفي وسعنا أن نقول بوجه عام أنَّها كانت مفتتنة برازوميخين افتتاناً واضحاً.

فما أن أغلقت وراءها الباب حتى رمى المريض غطاءه، ووثب عن السرير كالمجنون. كان قد انتظر خروجهما نافد الصبر على حد الاحتراق والتشنج، ليباشر العمل بأقصى سرعة. ولكن ما هو هذا العمل الذي يريد أن يقوم به؟ ها هو ذا قد أصبح، كأنما على عمل، لا يعرف ماذا كان يريد أن يعمل! "رباه! قل لي شيئاً واحداً يارب: أهم يعرفون أم لا يعرفون بعد. أهم يعرفون منذ الآن كل شيء ولكنَّهم يتظاهرون أنَّهم لا يعرفون شيئاً؟ أكانوا يعبثون بي بينما أنا راقد هنا؟ أتراهم سيدخلون عليَّ فجأة ليقولوا أنَّهم يعرفون كل شيء منذ مدة طويلة، ولكنهم تظاهروا بالجهل عامدين ؟....

ما العمل الآن؟ ها أنا ذا نسيت ما يجب أن أعمل، كأنَّما عن عمد! مع أنني كنت أتذكره منذ قليل..."

ظل راسكولنيكوف واقفاً في وسط الغرفة ينظر فيما حوله حائراً حيرة أليمة. ثم اقترب من الباب، ففتحه وأخذ ينصت. لكن ليس هذا هو ما يريد. وكمن تذكر بغتة، فإذا هو يهرع إلى الزاوية، حيث ثقب تحت ورق الجدار.

راح يفتش هنا بانتباه، وأدخل يده في الثقب يتلمسه، إنما ليس هذا ما يريد أن يتحراه. فاتجه إلى المدفأة، فتحها، نبشها ورمادها، عند هذا فعثر على قصصات السروال ومزَّق الجيب المشقق كما كانت حين رماها في هذا المكان. إذاً لم ينظر أحد في المدفأة. وآنئذٍ تذكر الجورب الذي جاء رازوميخين على ذكره منذ قليل. إن ما قاله رازوميخين صحيح، إن الجورب موجود تحت الغطاء فعلاً، ولكنه بلغ من الاتساخ ومن الاهتراء بالحك أن زاميتوتوف لا يمكن أن يكون قد لاحظ فيه شيئاً البتة.

"هوة! زاميوتوف! قسم الشرطة! ولكن لماذا استدعي إلى قسم الشرطة؟ أين كتاب الاستدعاء؟ هوه! إنني أخلط! أدقق النظر في الجورب. والآن.... والآن.... لماذا جاء زاميوتوف إلى هنا؟ لماذا جلبه رازوميخين إلى هنا؟ لماذا أتى به رازوميخين إلى بيتي؟"

بهذا تمتم راسكولنيكوف مهدود القوى، وهو يعود إلى الجلوس على سريره، وتابع حديثه لنفسه:

"ماذا يحدث؟ أأنا ما أزال أهذي أم أن هذا كُلُّهُ الآن واقع لا شأن له بأخيلة الهذيان؟ يبدو لي أن هذا كُلُّهُ الآن واقع... آ... تذكرت: أهرب، يجب أن أهرب بأقصى سرعة، يجب أن أهرب حتماً. نعم، ولكن إلى أين؟ وأين ثيابي؟ لم يبق حذائي في مكانه، لقد آخذوه... أخفوها عني! فهمت! آ... هذا معطفي... لقد نسوه! وهذا هو المال على المائدة! الحمد لله! وهذا هو السند... سآخذ المال وأهرب. سأستأجر بيتاً آخر، لن يعثروا عليَّ! نعم، ولكن مكتب العناوين... آه.. سيكتشفوني! سيكتشفني رازوميخين! الأفضل مع ذلك أن أهرب... إلى مكان بعيد، إلى أمريكا، ثم أبصق عليهم... ويجب أن آخذ السند أيضاً... ربما نفعني هناك... ماذا آخذ معي؟

هم يعتقدون أنني مريض! لا يخطر ببالهم أن بإمكاني أن أمشي... هأ هأ هأ! قرأت في أعينهم أنَّهم يعرفون كل شيء! المهم أن أستطيع الهبوط على

السلم! ولكن ماذا لو كانوا قد وضعوا حراساً يحرسون العمارة! ماذا لو كان ثمة شرطة في الأسفل؟ ما هذا شاي؟ آ... ما تزال توجد بقية من بيرة، نصف زجاجة، باردة تماماً!"

أمسك الزجاجة الباقي فيها بعض الشراب ربما يملأ كوباً كبيرة، فأفرغها في جوفه دفعة واحدة، متلذذاً، كأنما ليطفئ النار التي تكوي صدره. وإنما قبل أن تنقضي دقيقة واحدة، كانت البيرة قد صعدت إلى رأسه، فإذا برعدة خفيفة تسري في ظهره، رعدة توشك أن تكون لذيذة، فاستلقى على سريره وسحب الغطاء يدثر بدنه. أخذت أفكاره المحمومة المضطربة تغلي مزيداً من الغليان، وسرعان ما استولى عليه نعاس لطيف. فاهتدى إلى مكان رأسه على الوسادة متلذذاً، وتَدَثَّر جيداً بالغطاء الرخو المحشو بالقطن الذي يقوم الآن مقام معطفه البالي، وزفر زفرة خفيفة، ثم نام نوماً عميقاً مريحاً.

استيقظ حين سمع أحداً يدخل عليه، فتح عليه، رأى رازوميخين. كان رازوميخين فتح الباب واسعاً، ووقف في العتبة متسائلاً أيدخل أم لا. أسرع راسكولنيكوف ينهض عن سريره ليقعد، نظر إلى صاحبه نظرة من يحاول أن يتذكر شيئاً ما.

قال رازوميخين:

- هه... أنت غير نائم؟ ها أنا ذا!

ثم صرخ ينادي ناستاسيا في السلم قائلاً:

- ناستاسيا، هات الصرة!

وعاد يقول لراسكولنيكوف:

سأقدم إليك الحساب فوراً.

سأل راسكولنيكوف وهو يلقي على ما حوله نظرة قلقة:

- كم الساعة الآن؟

- يمكننا أن نقول، أيُّها الأخ العزيز، إنَّك غير محروم من النوم. لقد حان

المساء. لابد أنَّ الساعة غير بعيدة عن السادسة. معنى ذلك أنَّك نمت ست ساعات أو أكثر.

ـ رباه! كيف أن...

ـ ماذا؟ إنك قد أحسنت. ما أحسب أنَّك مستعجل! ما أحسب أنَّك مرتبط بموعد! أليس كذلك؟ نحن نملك إذاً كل وقتنا. إنني منذ ثلاث ساعات أنتظر أن تفيق من نومك. جئتك مرتين، ولكنك كنت ما تزال نائماً. وقد ذهبت مرتين أيضاً إلى زوسيموف. ولكنني لم أجده. لا ضير! سوف يجيء... ثم أنني تغيبت لأمور شخصية صغيرة. أنت تعلم أنني قد انتقلت اليوم من مسكني، انتقلت منه مع عمي... إن لي عماً الآن. ولكن دعنا من هذا كُلُّهُ... سحقاً لهذا كله! هات الصرة يا ناستاسيا. سوف... فوراً... وكيف صحتك الآن يا صاحبي؟

قال راسكولنيكوف:

ـ قلت لك أنني أنتظرك منذ ثلاث ساعات.

ـ نعم، ولكن... قبل ذلك؟

ـ قبل ماذا؟

ـ منذ متى تأتي إلى هنا؟

ـ ألم أقص عليَّك ذلك؟ ألا تتذكر؟

شرد فكر راسكولنيكوف. إن ما جرى في هذه الفترة يبدو له حلماً. كان عاجزاً عن أن يتذكر عن أي شيء بعينه، وألقى على رازوميخين نظرة استفهام.

قال رازوميخين:

ـ آ... إذاً نسيت! لقد بدا لي في الصباح أن عقلك... أما الآن فقد أحسن إليك النوم وشفاك. حقاً إن هيأتك الآن أفضل كثيراً مما كانت. مرحى! إلى العمل إذاً!

وسوف تتذكر فوراً! أنظر إلى هنا، أيها السيد العزيز!

وأخذ رازوميخين يفض صرته التي كان يبدو أنَّه يوليها أكبر اهتمام.

ـ نعم يا عزيزي، هذا أمر يهمني كثيراً. ذلك أن عليَّ أن أجعلك رجلاً. هيا بنا! لنبدأ من فوق.

ثم قال وهو يسحب من الصرة قبعة جميلة وإن تكن من طراز عادي بخس الثمن:

ـ أترى هذه القبعة؟ سأجربها على رأسك، أتسمح لي؟

ـ لا الآن، إنَّما في وقت آجل.

ـ لا سبيل على التملص يا صاحبي. لا تُصر! في وقت آخر يكون الوقت قد فات لن أنام الليل إذا لم أُجربها، ذلك أنني اشتريتها كيفما اتفق، دون أن أعرف قياس رأسك.

وألبسه القبعة ثم قال بلهجة المنتصر:

إنها تناسبك... كثيراً. كأنَّها فصلت لك.

لباس الرأس يا عزيزي أهم جزء من أجزاء اللباس، فهو الذي يحدد مكانتك في المجتمع. إن تولستياكوف، وهو صديق قديم لي يضطر إلى خلع قبعته الرديئة كلما ظهر في مكان عام يحتفظ فيه الآخرون بقبعاتِ رؤوسهم، والناس يردون ذلك إلى مشاعر الاحترام مع أن الأمر لا يعدو أنَّه أحس بالخجل من قبعته الرديئة التي تشبه أن تكون عش عصفور. نعم، تلك هي أسباب حياء هذا الرجل! انظري يا ناستاسيا، انظري إلى هاتين القبعتين: انظري إلى قبعة بالمرستون هذه (قال ذلك ومضى يأتي من أحد الأركان بقبعة راسكولنيكوف المدورة المشوَّهة، التي لا يدري أحد لماذا سماها قبعة بالمرستون). ثم انظري إلى هذه الآية من آيات فن الجواهر، واحزر كم دفعت ثمنها؟ ما رأيك؟ وما رأيك أنت يا ناستاسيا؟ (لقد التفت رازوميخين إلى الخادمة يسألها، حين رأى راسكولنيكوف صامتاً لا يجيب).

قالت ناستاسيا تجيب عن سؤاله:

ـ عشرين كوبيكاً على الأقل!

ـ عشرين كوبيكاً يا غبية، حمقاء؟ بعشرين كوبيكاً لا يمكن شراؤك أنت في هذه الأيام! لقد دفعت ثمانين كوبيكاً، ولم يكن ثمنها قليلاً هذه القلة إلا لأنَّها مستعملة. ثُم إنني اشتريتها على شرط: في وسعك أن تذهبي إلى البائع في السنة القادمة، متى اهترأت هذه القبعة، فإذا هو يبدلها بقبعة جديدة مجاناً، أحلف لك!... والآن هلموا إلى الولايات المتحدة الأمريكية كما كنا نسميها في المدرسة. لكني أنبهك قبل كل شيء إلى أنِّي معتز جداً بهذا السروال (قال ذلك وبسط أمام راسكولنيكوف سروالاً رمادياً من نسيج صيفي خفيف: لا ثقب فيه، ولا بقعة، هو إذاً، رغم أنَّه لبس من قبل، سروال جيد، ناهيك عن الصدرية التي تناسبه على نحو ما توجب الدرجة. أما أنَّه لبس من قبل، فتلك مزية، إذا أصبح بذلك أكثر طراوة وأشد مرونة. اسمع يا روديا: لكي ينجح المرء في الحياة، يكفيه في رأيي أن يراعي الفصول: إذا لم تطالب بهليون في فصل كانون الثاني، فسيبقى لك دائماً بضعة روبلات في حافظة نقودك.ونفس الشيء يمكن القول عن هذا السروال. نحن الآن في منتصف فصل الصيف، لذلك اشتريت سروالاً صيفياً، صحيح أنك ستحتاج في فصل الخريف إلى قماش يضمن لك مزيداً من الدفء، وسيكون عليّك أن ترمي هذه الملابس، لاسيما أنَّها ستكون قد اهترأت، بسبب إهمالك طبعاً... ولكن لنعد إلى سؤالنا:

إحزر كم دفعت ثمن هذا السروال! روبلين وخمسة وعشرين كوبيكاً! لاحظ أنني اشتريته على ذلك الشرط نفسه في شراء القبعة: إن من حقك أن تستبدل به سروالاً بالمجان متى اهترأ. وعلى هذا النحو تتم الصفقات في دكان فديايف: يدفع المشتري مرة واحدة إلى الأبد، لأنَّه لن يضع قدميه مرة أخرى في هذا الدكان قط. ولننتقل الآن إلى الحذائين. كيف تجدهما؟ واضح أنَّهما مستعملان، ولكنهما ما يزالان يصلحان خلال شهرين، فهذه بضاعة أجنبية:

إن أمين سر سفارة إنكلترا قد باعهما في الأسبوع الفائت في السوق. لم يكن قد انتعلهما إلا ستة أيام، ولكنَّه كان في حاجة ماسة إلى المال. الثمن: روبل وخمسون كوبيكاً. صفقة رابحة، أليس كذلك؟

قالت ناستاسيا:

- ولكنَّهما قد لايكونان على قياس قدميه!

- قد لايكونان على قياس قدميه؟ فما الذي أخذته معي إذاً؟

قال رازوميخين واستل من جيبه حذاءً قديماً مهترئاً مثقباً متسخاً بوحل جاف هو أحد أحذية راسكولنيكوف. ثم أردف:

- لقد اتخذت الاحتياطات اللازمة! ماذا تظنين؟ عرفنا قياس قدميه من قياس هذا الحذاء العجيب! نعم لقد جرت الأمور كلها بدقة تامة وعناية محكمة. أما الملابس الداخلية فقد تفاهمت بشأنها مع صاحبة البيت. إليك ثلاثة قمصان من نسيج سميك، ولكن صدرها على آخر موضة. لنسحب الآن التكاليف كُلَّها. قبعة ثمانون كوبيكاً، ملابس أخرى: روبلان وخمسة وعشرون كوبيكاً، المجموع: ثلاثة روبلات وخمسة كوبيكات، الحذاءان: روبل وخمسون كوبيكاً، لأنَّهما في حالة جيدة جداً. المجموع أربع روبلات وخمسة وخمسون كوبيكاً. الباقي: خمسة وأربعون كوبيكاً. ها هي، خذيها. هكذا يا روديا تكون قد "تهندمت" الآن، لأنَّ معطفك برأيي ما يزال قابلاً للاستعمال، بل هو لا يخلو من وجاهة. أرأيت قيمة اختيار المرء ملابسه من محلات شارمر! أما الجوارب وما إلى ذلك، أنا أترك الأمر لك بشأنَّها. وأما المال فمازلنا نملك منه خمسة وعشرين كوبيكاً. وليس عليَّك بعد الآن أن يقلقك أجر المسكن. إن باشنكا ستمهلك إمهالاً غير محدود، كما قلت لك والآن ياعزيزي، اسمح لي أن أبدل لك قميصك لأنني لا استغرب أن يكون مرضك كله قد تسلل إليك من هنا....

قال راسكولنيكوف بعد أن يكون قد استمع مشمئزاً إلى الكلام

المسلي الذي تدفق من فم رازوميخين:

ـ دعني! لا أريد!

قال رازوميخين بإصرار:

ـ لا هروب يا عزيزي! لن يقول أحد إنني أبليت حذائي في غير طائل!

ثم التفت إلى ناستاسيا:

ـ هلمي يا ناستاسيا! لا تستحي! ساعديني! نعم... هكذا... استطاع رازوميخين وناستاسيا أن يبدلا قميص راسكولنيكوف رغم المقاومة التي أبداها. وعاد راسكولنيكوف يتهالك على وسادته، ولزم الصمت خلال دقيقتين قائلاً لنفسه: "سيلبثان مدة طويلة لا يتركاني وشأني" ثم سأل وهو ينظر إلى الجدار:

ـ بأي مال اشتريت هذه الأشياء كلها؟

أجابه رازوميخين متعجباً:

ـ بأي مال؟ عجيب! بمالك أنت. لقد جاء إلى هنا مستخدم من عند فاخروشين يحمل إليك مالاً أرسلته أمك. ألا تتذكر؟

قال راسكولنيكوف بعد تأمل طويل موجع:

ـ نعم، الآن تذكرت!

تأمله رازوميخين مقطبا قلقاً.

فتح الباب، دخل رجل طويل القامة قوي البنية. أحس راسكولنيكوف أنَّه سبق له أن رأى هذا الرجل.

هتف رازوميخين يقول بفرح بارز:

ـ زوسيموف أخيراً وصل!

# الفصل الرابع

زوسيموف رجل طويل القد، سمين الجسم، ممتلئ الوجه، شاحب اللون، حليق اللحية، يوشك شعره المسبل أن يكون من فرط شقرته ابيض. على عينيه نظارتان، وفي إحدى أصابعه السمينة المنتفخة خاتم كبير من ذهب. هو في السابعة والعشرين من عمره. يرتدي معطفاً أنيقاً واسعاً مصنوعاً من نسيج صوفي خفيف، وسروالاً صيفياً فاتح اللون، وبوجه عام كان لباسه واسعاً أنيقاً جديداً. إن قميصه الناصع البياض يتألق باهراً، وساعته تزدان بسلسلة سميكة. أما حركاته تظل بطيئة تقريباً، ثقيلة بعض الشيء، رغم أنَّها ليست خالية من انطلاق مصطنع. هذا إلى أن الإدعاء يظهر فيه واضحاً، رغم جميع الجهود التي يبذلها لإخفائه. كل الذين عرفوه لاحظوا أنَّه رجل صعب المراس قاسي الطبع، ويُجمعون أنَّه يعرف مهنته معرفة تبهر.

هتف به رازوميخين:

- ذهبت إليه مرتين يا صاحبي! ها هو أفاق من غيبوبته كما ترى.

رد زاسيموف:

- نعم! نعم!

ثم أردف يسأل راسكولنيكوف وهو يتأمله ويقعد عند قدميه على طرف السرير بغير حرج:

هيه! كيف حالنا اليوم.

أجاب رازوميخين:

- ما يزال مكتئب المزاج. بل كان يبكي منذ بعض الوقت حين بدلنا له قميصه!

ـ هذا طبيعي!... كان يمكنكم أن تؤجلوا هذا إلى وقت آخر ما دام يضايقه... النبض جيد. أمازلت تشكو الصداع؟

ردَّ راسكولنيكوف بحنق وإصرار:

ـ لا! صحتي طيبة! أنا معافى!

وكان راسكولنيكوف قد نهض لامع العينين متقد النظرات. ولكنَّهُ لم يلبث أن تهاوى على الوسادة واستدار إلى الجدار. كان زاسيموف يراقبه بانتباه فقال بلهجة ثقيلة:

ـ كل شيء بأحسن حال. هل أكل شيئاً؟

ذكر له ماذا أكل المريض ثم سئل عما يمكن أن يأكله.

قال الطبيب:

ـ يمكن إطعامه كل شيء! حساء، شاي... إنما لا فطر، ولا قثاء طبعاً. وقد لايناسبه لحم البقر كذلك. ولكن علام هذا الكلام كُلَّه؟ (وتبادل نظرة مع رازوميخين). ولا حاجة للدواء بعد الآن، لا حاجة لشيء بعد الآن.... غداً أرى... على أننا نستطيع اليوم فعلاً أن... ولكن...

قال رازوميخين:

سأصحبه معي مساء غدٍ في نزهة. نذهب إلى حديقة يوسوبوف، ثم نذهب بعد ذلك إلى قصر الكرستال[1].

ـ لو أنا مكانك لتركته حيث هو. قد أخرج معه لحظة قصيرة.... على كل حال سوف نرى.

ـ خسارة... ذلك أنني أحتفل اليوم بانتقالي إلى بيت آخر يقع على بعد خطوتين من هنا. ليته يقدر أن يشاركنا، ولو راقداً على أريكته! أما أنت فسوف تجيء، أليس كذلك؟ (قال رازوميخين هذا موجهاً الكلام فجأة إلى زوسيموف:

ـ قد آتي، ولكنِّي إذا ما جئت فسأتي متأخراً. ماذا أعددت للحفلة؟

1 ـ حانة قريبة من مركز بطرسبورغ. ذكرها دستوفسكي تهكما. تشبيها لها بعص كرستال حقيقي في لندن وذكره في (ذكريات شتاء عن مشاعر صيف).

ـ لم أهيء أشياء كثيرة! شاي، فودكا، سمك مجفف، فطائر أيضاً. ليس بيننا غُرباء.

ـ من سيحضر؟

ـ رفاق من هذا الحي، أكثرهم لا أعرفه من قبل. وسيحضر عَمٌّ لي جاء بالأمس إلى بطرسبورغ لأعمال، ولا أراه إلا مرة واحدة كل خمس سنين.

ـ من هو عمك هذا؟

ـ سلخ حياته في مقاطعة نائية مديراً لمركز بريد... وقد أُحيل على المعاش فهو يلتمس مرتباً أصغر. عمره خمسةٌ وستون عاماً... لا داعي للكلام عنه.... على أنني بالواقع أُحبُّه. سيشاركنا بورفيري بتروفتش أيضاً، قاضي تحقيق الحي. هو متخصص في القانون. ولكنك تعرفه.

ـ هل يمُتُّ إليك بقرابة ما؟

ـ قرابة بعيدة جداً! ولكن لماذا أراك معكراً؟ آمل أن لا تحملك المشاجرة التي وقعت بينك وبينه ذات يوم على أن تظنَّ أنَّك معفى من حضور الحفلة...

ـ هو! أنا لا أكترث به.

ـ أحسن، أحسن. وهكذا سيضم الحفل طلاباً، وأستاذاً، وموظفاً، وموسيقاراً، وضابطاً وزاميوتوف

ـ قل لي ما يجمع بينك أو قل بينه (هنا أومأ زوسيموف بإشارة من رأسه إلى راسكولنيكوف) وبين رجل مثل زاميتوتوف؟

ـ يا لهؤلاء المتذمرين! المبادئ طبعاً! يميناً أنك جالس على المبادئ كجلوسك على خاروف فلست تجرؤ أن تقوم بحركة واحدة على ما يشاء لك هواك. أما أنا في رأيي أن الإنسان الطيِّب الخير هو في ذاته مبدأ. ولا يهمني أي شيء آخر. وزاميتوتوف رجلٌ رائعٌ في نظري.

ـ هو على كل حال يعرف جيداً كيف يلعب على حبلين ويربح من طرفين.

صاح رازوميخين وقد ازداد استياؤه جداً:

ـ ما شأني أنا بهذا؟ وليست أبالي إن لعب على حبلين أو سبعة حبال. وليس هذا ما مدحته من أجله. فكل ما قلت لك هو أنَّهُ نوعيًا إنسانٌ جيد. وإذا نظرنا إلى كل الأنواع وقدَّرناهم من جميع الأضلاع لوجدنا أنَّ الطيبين والأخيار غير كُثُر. إني على يقين من أني أنا نفسي لا أستحق أن أُشترى ببصلة، ولو أُضفت أنتَ إليَّ.

ـ أنت تُخطئ! أنا مستعدٌ لأن أشتريك ببصلتين اثنتين!

ـ أما أنا فلا أَشتَرِكْ إلا ببصلة واحدة. ها... يا لك من فكاهي! ثم إن زاميوتوف ما يزال صبياً صغيراً. وله مناسبات مقبلة سأشد فيها أذنيه، ولكن يجب عليَّ بانتظار ذلك أن أداريه لا أن أَصِدَّهُ، فلا سبيل إلى إصلاح إنسان بسوء المعاملة، ولاسيما إذا كان صبياً، فإنما يجب على المرء أن يمكر ما استطاع حين يعامل صبياً صغيراً. ولكنكم، معشر التقدميين المتصلبين، لا تفهمون من هذا شيئاً ولا تحترمون الطبيعة البشرية إنَّما تسيئون إلى أنفسكم. وإذا كنت تحرص على أن تعرف كل شيء، فاعلم أن لنا أنا وهو قضية مشتركة.

أيمكننا أن نسألك عن هذه القضية المشتركة، وما هي؟

ـ هي قضية ذلك الدهان بالذات. نعم سوف ننقذه من تلك الورطة! على أنَّه أصبح الآن غير معرض لأيِّ خطر. لقد أصبحت القضية الآن واضحة، واضحةٌ جداً. وكل ما يقع على كاهلنا هو أن ندفعها إلى نهايتها بسرعة.

ـ من ذلك الدَّهان؟

ـ كيف؟ ألم أقص عليَّك قصته؟ ها... فعلاً... لم أقص عليَّك البداية... إن جريمة قتل العجوز المرابية، أرملة الموظف... أقصد أن الدَّهان أصبح الآن مقحماً في هذه القضية.

ـ سمعت عن جريمة القتل هذه من قبل... لا بل اهتممت بها إلى حدٍّ... لي مبرري... نعم، وقرأت أيضاً ما تقول عنها الصحف و...

وقد قتلت ألزافيتا أيضاً!

بـذلك نطقـت ناسـتاسـيا فجـأة، متوجهـة بـالـكلام إلى راسـكولنيكـوف. كانت بقيت في الغرفة طوال ذلك الوقت، مستندة إلى الباب، تتابع الحديث.

تمتم راسكولنيكوف يقول بصوت لا يكاد يسمع:

ـ أليزافيتا؟

قالت ناستاسيا:

ـ نعم أليزافيتا، السمسارة. ألا تعرفها؟ كانت تجيء إلى هنا، تحت، حتى لقد رقَّعت لَكَ قميصاً.

اتَّجه راسكولنيكوف صوب الجدار، حيث تتناثر على الورق الأصفر الوسخ رسوم أزهار صغيرة بيضاء، فاختار منها زهرة مخططة بلون بني ومرسومة من دون مبالاة. أخذ يتأملها محاولاً أن يحصي عدد تويجاتها وعدد الأسنان في حواف أوراقها. وشعر بأعضائه تتخدر، حتى بدا له أنَّها ليست أعضاءه، ولكنَّه لم يحاول أن يتحرك، وظل ينظر إلى الزهرة الصغيرة مصراً معانداً.

قال زوسيموف يسأل رازوميخين مقاطعاً ثرثرة ناستاسيا باستياء واضح:

ـ طيب، فماذا وقع لذلك الدَّهان؟

تنهدت ناستاسيا وكفت عن الكلام. وتابع رازوميخين حديثه قائلاً بحرارة.

ـ لقد أقحم هو أيضاً بجريمة القتل.

ـ هل هنا قرائن؟ وما هي؟

ـ قرائن. ليس ثمة أيَّ قرائن! والقرينة الوحيدة المقدمة في الدعوى ليست قرينة، هذا ما يجب البرهان عليه وإثباته!... المسألة بسيطة: أخذوا يكررون تلك الحماقات نفسها التي ارتكبوها حين اشتبهوا بالرجلين الآخرين فاعتقلوهما... أقصد كوخ وبسترياكوف! نعم لقد كرروا تلك الحماقات

نقطة نقطة. ما أغبى تصرفهم يارب! إن المرء ليشعر بالخزي من هـذا التصـرف، ولو لم يكن له شأن به! ربما أتى إلي بسترياكوف اليوم!... بالمناسبة ياروديا: عليَّك أن تعرف هذه القصة لأنَّها وقعت قُبيل مرضِكَ، تماماً عشية اليوم الذي فيه أضعت وعيك بقسم الشرطة... بينما كانوا يتحدثون في هذا الأمر هناك...

نظـر زوسـيموف إلى راسـكولنيكوف مسـتطلعاً، فلـم يحـرك راسكولنيكوف ساكناً.

قال زوسيموف:

ـ تريد ان تعرف رأيي يا رازوميخين؟ أنت تسرف بالحركة حول هـذه القضية حقاً!

فرد رازوميخين صارخاً وهو يضرب المائدة بجماع يده:

ـ لا ضير! سننقذه من تلك على كل حال! إن الأمر الذي يغيظني في كل هـذه أكثر مما يغيظني أي شيء ليس وقوعهم في الخطأ، فهذا يمكن التسامح به دوماً، لا بل يرى أحدهم أن الخطأ أمرٌ رائعٌ فعلاً، لأنَّهُ يؤدي إلى الحقيقة. فما يغيظني إذاً أنَّهم يبقون ممتلئين احتراماً للأخطاء التي يجترحونها. أنا أعتبر بورفيري، ولكن... اسمع، هل تعرف مثلاً ما حيَّرهم وأضلَّهم في بداية الأمر؟ أن الباب كان مغلقاً، فلما عاد الرجلان مع البواب كان الباب مفتوحاً، فاستنتجوا من ذلك أن كوخ ويسترياكوف هما القاتلان! أرأيت ما أعجب هذا المنطق!

ـ لا تتحمس كثيراً: أوقفوهما فحسب... لم يكن في وسعهم على كل حال... بالمناسبة: أتيح لي أن أتأمل كوخ. يظهر أنَّهُ كان يشتري من العجوز الأشياء المرهونة التي يتخلف أصحابها عن تجديد رهنها في الموعد المحدد. أليس هذا صحيحاً؟

ـ بلى، بلى، وغد حقير! وهو يشتري سندات أيضاً. وهو وغد حقير، هو محتال خطير... الشيطان ابتلع روحه. لكن ليس هذا ما يثير غضبي، بل أنَّهم

يتبعون روتيناً عتيقاً تراكم عليه الغبار. إن هذا الروتين هو الذي يثير سخطي! وما أسهل أن يكتشف المرء، في معالجة هذه القضية، طرقاً جديدةً تماماً! ففي وسعنا، إذا اعتمدنا على علم النفس وحده، أن نجد السبيل إلى معرفة الحقيقة. هم يقولون: "لدينا وقائع". ولكن الوقائع ليست كل شيء، ونصف القضية إنما يكمن في طريقة تأويل هذه الوقائع....

ـ وهل تستطيع تأويلها أنت؟

ـ عجيب أمرك! إن المرء لا يمكنه أن يسكت حين يحس بغريزته أن في وسعه تقديم خدمة إذا هو.... آه هل تعرف القضية تفصيلاً؟

ـ مازلت أنتظر أن تقص عليَّ حكاية الدَّهان.

ـ سأقص عليَّك حكايته اسمع: في اليوم الثالث من وقوع الجريمة، صباحاً، بينما كانوا يدققون في استجواب كوخ وبسترياكوف ـ مع أن هذين الرجلين كانا قد ذكرا جميع حركاتهما بالدقة، رغم أن كل شيء قد اتضح ـ حدث بغتة حادث غير متوقع إطلاقاً: إن فلاحاً اسمه دوشكين، وهو صاحب خمارة قائمة أمام العمارة التي احتضنت الجريمة جاء إلى قسم الشرطة حاملاً علبة مجوهرات فيها قرطان من ذهب، وأخذ يروي قصة عجيبة، قال: "أمس الأول، في المساء، بعد الساعة الثامنة بقليل، (لاحظ الوقت: اليوم والساعة). رأيت الدَّهان نيقولاي يهرع إلى خمارتي، وكان قد ارتادها مراراً قبل ذلك، حاملاً علبة فيها قرطان ذهبيان يزدانان بأحجارٍ صغيرة، راجياً أن أرهنهما لدي لقاء قرض قيمته روبلان. فلما استجوبته لأعرف من أين أتى بهما، قال أنَّه عثر بهما على رصيف، فلم أسأله غير ذلك، ونقدته ورقة صغيرة أي روبلاً واحداً، لأني قلت لنفسي: إذا لم يرهن هذين القرطين عندي سيرهنهما عند غيري ليشرب بالقرض خمرة، فالأولى أن يبقيا بين يدي أنا: بذلك أضمن على الأقل أن لايطوفا العالم كُلُّه، فإذا راجت شائعة تقول أنَّهما مسروقان، مضيت إلى قسم الشرطة لا بلغ عنهما". واضح أن هذه القصة التي

رواها دوشـكين سـخيفة. أنـا أعـرف دوشـكين هـذا: أنَّـه كـذاب كـبير، وهـو نفسه يقرض برهن ويخفي المرهونات عنده. فلأن أخذ من نيقولاي شيئاً تساوي قيمته ثلاثين روبلاً لا يفعل هذا لكي "يبلِّغ عنه". كل ما هنالك أنَّه خاف. دعنا مـن دوشـكين واسمـع التتمـة. قـال دوشـكين: "أمـا ذلـك الفـلاَّح، نيقـولاي ديمانتيف، أنا لا أعرفه منذ برهة، بل منذ الطفولة، فكلانا من إقليم واحد هو ريازان، وهو يحب أن يحتسي قليلاً، ولم يكن مدمناً. كنا نعلم أنَّه كان يعمل أيضاً، يدهن الجدران، مع ديمتري ابن بلده. لما نقدته الروبل، بدلها فوراً، وشرب كأسين، ثم تناول الباقي وانصرف. ما كان دمتري معه آنئذٍ. وفي الغد سمعنا أن ألينا إيفانوفنا وأختها إليزافيتا إيفانوفنا وجدتا قتيلتين بضربات فأس، ولَّما كُنَّا نعرفهما، راودني شكٌّ في أمر القرطين الذهبيين، لأننا كما سبق أن قلت، كنا نعرف أن ألينا إيفانوفنا تقرن على رهن. عندئذ ذهبت إلى العمارة، ورحت أتقصى الأمر لبعض الوقت. سألت أولاً عن نيقولاي، أجاب دمتري إنَّه غائب يقصف ويلهو، وقد عاد ثملاً في طالع الصباح، مكث دقائق، وخرج، ولم يره دمتري بعد ذلك. وطفق يتم تسكعه وحده. والشقة التي كانا يدهنانها تقع في الطابق الثاني، وتطل على نفس السلم الذي يطل على غرفة المرأتين الشقيقتين. عرفنا هذا وكتمناه. (دوشكين ما يزال يتكلم). تابعنا القضية، وحصلنا على معلومات، فأشبعت نفوسنا ريبة. وفي صباح غداة غد وقوع الجريمة، في الثامنة صبحاً، رأيت نيقولاي داخلاً الخمارة. احتس بعض الكؤوس لكنه لم يسكر، بل كان في حالة لبقة للتحدث. كان زبائن الخمارة آنئذ قلة، اثنان أو ثلاثة، عدا الصبيين العاملين. سألت نيقولاي:

- هل رأيت ميتكاً - دمتري - ؟

أجاب.

- لا، لم أره.

- هل كنت هنا.

ـ لم آت إلى هنا منذ أول أمس.

ـ وأين نمت الليلة؟

ـ في حي "الرمال"[1]، عند أهل كولومنا.

ـ ومن أين جئت بالقراطين في ذلك اليوم؟

ـ عثرت عليهما على الرصيف.

كان يقول هذا مشيئاً بوجهه عني. سألته:

ـ هل سمعت عن كذا وكذا؟

أجاب:

لا، لم أسمع شيئاً من هذا!

سمع ما أقوله فحملق، وأبيضَّ لونهُ حتى صار كقطعة حوارة. وفيما أنا أروي لهُ ما حدث، رأيته يتناول قبَّعتُهُ فجأةً، وينهض. حاولت أن أحبسه عن الخروج، فقلت له:

ـ انتظر يا نيقولاي! ألا تريد أن تشرب كأساً؟ وأومأت إلى أحد الصبيين أن يسد عليه الدرب، وتركت البسطة. لكن صاحبنا نيقولاي ولّى هارباً، فهو ينعطف عند ناصية الشارع، حتى إني لم أره بعد. لم يبق إذاً شك: أنَّه هو الذي ارتكب تلك الجريمة.

قال زوسيموف:

ـ واضح!

وأردف رازوميخين:

ـ انتظر! اسمع التتمة! مضت الشرطة كلها تبحث عن نيقولاي طبعاً: فتشوا خمارة دوشكين، وأوقفوه، ودمتري أيضاً، وقلبوا كل شيء رأساً على عقب عند أهل كولونيا، ثم لم يستطيعوا أن يضعوا أيديهم على نيقولاي إلا

1 - حيان يقعان في طرفي بطرسبورغ. أي لقد خلط نيقولاي الأمور ـ فهو غير صادق.

بعد ثلاثة أيام، أي أول أمس. قبضوا عليه في خان قرب حاجز "س...". يظهر أنَّه حين وصل إلى هناك استل صليبه الفضي، وطلب مقايضة هذا الصليب بزجاجة فودكا صغيرة، وأُجيب طلبه. وبعد بضع دقائق دخلت امرأة إلى الأسطبل، إليك ما رأته من شق الباب: رأت نيقولاي في الزريبة المجاورة، ربط حزامه بوتد وجعل فيه عقدة منزلقة، وصعد على قطعة غليظة من خشب يريد أن ينتحر شنقاً. خطرت ببال المرأة هذه الفكرة الموفَّقة، وهي أن تصرخ فصرخت، فهرع الناس إلى المكان، وقالوا له:

ـ آ... أهكذا أنت إذاً؟

فقال لهم:

ـ نعم... خذوني على قسم الشرطة في حي كذا، وسأعترف هناك بكل شيء!

اقتادوه محاطاً بكل ما يجب لشخصه الكريم من احترام، إلى قسم الشرطة الذي حدده، أي إلى قسم الشرطة في حينا، وسرعان ما بدأت الأسئلة تنهمر عليه انْهمار المطر: كيف، ماذا، لماذا، أين، ومن أنت، ما سنك ـ "عمري اثنتان وعشرون سنة" ـ وهلم جرا!

سؤال:

ـ بينما كنت تعمل مع دمتري، ألم ترَ أحداً على السُّلَّم في ساعة كذا؟

ـ مرت جمهرة من الناس طبعاً، ولكن ليست مهمتي أن ألاحظهم...

ـ ألم تسمع شيئاً البته، ولا أي ضجة؟

ـ لا، لم أسمع شيئاً يلفت الانتباه!

ـ وأنت يا نيقولاي، أكنت تعلم في ذلك اليوم أن الأرملة س قد قُتلت وسُرقت وأختها، في يوم س، ساعة س؟

ـ ما علمت شيئاً ولا رأيت. علمت بالأمر أول مرة من أفاناسي بافلوفتش منذ يومين، في الخمارة.

ـ ومن أين جئت بالقرطين؟

ـ عثرت بهما على الرصيف.

ـ لم لم تجئ إلى العمل مع دمتري غداة ذلك اليوم؟

ـ لأني قصفت ولهوت في ذاك اليوم.

ـ أين قصفت ولهوت؟

ـ في مكان س

ـ لم هربت من عند دوشكين؟

ـ لأنني خفت خوفاً رهيباً

ـ من أي شيء خفت؟

ـ أن أحال أمام القضاء

ـ إنما كيف يمكن أن تخاف من أمر كهذا، ما دمت لم تقترف جرماً؟

وعقب رازوميخين على ذلك:

ـ نعم زوسيموف، بهذه الكلمات أنَّما أُلقي عليه هذا السؤال، بهذه الكلمات نفسها، صدقت أم لا تصدق! نعم، بهذه الكلمات نفسها..... أعلم ذلك يقيناً، نقل إليَّ السؤال نفسه، كلمة كلمة.... ما رأيك؟ ما رأيك؟

ـ نعم، نعم، ولكن هناك قرائن على كل حال.....

ـ لا أتكلم الآن عن القرائن، وأنما أتكلم عن السؤال الذي أُلقي عليه، عن طريقة هؤلاء الناس في فهم الأمور ومهمتهم. ولكن دعنا من هذا الآن، ولنكمل وصف ما جرى بينهم وبين نيقولاي. ضيقوا عليه الخناق كثيراً ومراراً، فاعترف. قال:

ـ لم أعثر بالقرطين على الرصيف. إنَّما في الشقة التي كُنَّا ندهنها أنا ودمتري.

ـ كيف عثرت عليهما؟

كيف؟ هكذا: كنا قد علمنا سوية طول النهار حتى الثامنة بعد الظهر،

وكنا نستعد للانصراف، ولكن ها هو دمتري يتناول فرشاة ويأخذ يلطخ لي وجهي.

لما لطخ وجهي، ولى هاربا، ركضت وراءه مطارداً. كنت أركض وأطلق صراخاً وحشياً ولكن حينما خرجت من السُّلَّم ووصلت إلى فناء المنزل، رأيت نفسي أسقط على البوّاب الذي كان معه عندئذ بعض السادة. أما عددهم لا أذكره الآن. راح البواب يسبني أيضاً، وخرجت امرأة البوَّاب الأول من مسكنها وشرعت تشتمنا كلينا، وفي تلك اللحظة كان يمرُّ تحت باب الدخول سيد تصحبه سيدة، جعل يشتمنا هو الآخر، لأننا كنت أنا ودمتري، قد انبطحنا فسددنا عليه المرور. كنت أمسك دمتري، من شعره، رميته أرضاً وشرعت أهوي عليه بوابل من اللكمات، وكان دمتري، قد أمسك شعري وانهارت كلماته ولكماته عليَّ أيضاً - ولكن ذلك كله لم يكن دافعه الخبث والشر، بل المودة والمحبة، فهو نوع من التسلية. ثم تخلص دمتري، وولَّى هارباً إلى الشارع، ركضت وراءه ولكني ما استطعت إدراكه. عندئذ عدت إلى الشقة وحدي لأرتب أشيائي. وفيما أنا أرتبها، منتظراً دمتري، إذا أدوس على علبة صغيرة، قرب الباب، في زاوية الدهليز، نظرت، رأيت لفة من ورق، نزعت الورق رأيت كلابتين، صغيرتين، جداً، شددتهما فخرج القرطان....."

هتف راسكولنيكوف يسأل بغتة، وهو يحدق إلى رازوميخين بنظرة مضطربة مروعة، بينما هو ينهض جسمه ببطء، ويسند يده إلى السرير:

- وراء الباب؟ كانت العلبة وراء الباب؟

- نعم، ولكن ما بك؟ ما دهاك؟

وكان رازوميخين قد نهض هو أيضاً عن قعده.

أجاب راسكولنيكوف بصوت يكاد لا يسمع، وهو يتهالك على وسادته من جديد، ويعود يلتفت نحو الحائط:

- لا شيء

ولبث الجميع صامتين برهة وجيزة.

مال رازوميخين أخيراً وهو يلقي على زوسيموف نظرة سائلة مستفهمة:

ـ لا شك أنَّه كان غفا، وما يزال يحلم، أليس كذلك؟

فحرك زوسيموف رأسه بإيماءة خفيفة تعني النفي وقال:

ـ أكمل قصتك. ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ بعد ذلك، بعد ذلك! نعم... ما أن رأى القرطين، حتى نسي عمله ونسي دمتري، وتناول قبعته وركض إلى خمّارة دوشكين، فأخذ منه روبلاً، كما أسلفنا، وكذب عليه حين زعم له أنَّه عثر بالعلبة على الرصيف، ثم طفق يقصف ويلهو، كما أسلفنا أيضاً، أما عن جريمة القتل، فإنَّه ما يزال يصرُّ على أقواله:

ـ لا علمت شيئاً ولا رأيت شيئاً. علمت بالأمر منذ يومين.

ـ لماذا اختفيت إذاً حتى الآن؟

ـ خفت.

ـ ولم أردت أن تنتحر شنقاً؟

ـ لأني قدَّرت أن أمراً سيحدث لي.

ـ ما هو الأمر الذي قدَّرت أنَّهُ سيحدث لك؟

ـ قدَّرت أني سأحال إلى المحكمة.

وعقب رازوميخين على ذلك سائلاً زوسيموف:

ـ هذه هي القصة كاملة. فما الذي تظنُّ أنَّهم استنتجوه من كل ذلك؟

ـ ما عسى أظن؟ هناك قرائن. ومهما تكن هذه القرائن، فإنَّها تبقى قرائن. الواقعة قائمة. ليس يتسنى لهم أن يخلو سبيل صاحبك الدَّهان، رغم كل شيء.

ـ لكنَّهم حشروه في زمرة القتلة وانتهى الأمر. إذ لم يبقى عندهم حبة شك.

ـ أنت تخطئ... أنت تتحمس وتندفع.... يجب أن تنظر إلى واقعة وجود القرطين مع نيقولاي. لابد لك من التسليم أن هذين القرطين إذا كانا انتقلا

رأساً في اليوم نفسه في تلك الساعة بالذات، من صندوق المرأة العجوز إلى يدي نيقولاي، فقد انتقلا بطريقة ما. هذا أمر له خطورته في التحقيق.

هتف رازوميخين:

ـ أتقصد طريقة انتقالهما إلى يدي نيقولاي؟ ألا إن أمرك لعجيب! هل يمكنك حقاً، وأنت طبيب يفرض فيه أن يعرف الإنسان، وأتيح له عدا ذلك أن يسبر الطبيعة البشرية، هل يمكنك ألا ترى من خلال جميع هذه المعلومات طبيعة نيقولاي هذه؟ أيمكن ألا ترى منذ البداية أن كل ما صرح به نيقولاي في أثناء تلك الاستجوابات جميعاً إنما كان الحقيقة خالصة صافية؟ لقد وصل القرطان إلى يديه على النحو الذي ذكره تماماً. داس على العلبة فتناولها.

ـ الحقيقة خالصة!!.... ولكنه اعترف هو نفسه بأنَّه كذب في المرة الأولى. أليس كذلك؟

ـ إصغ إليَّ بانتباه! إن البوَّاب، وكوخ، وبسترياكوف، والبواب الثاني، وامرأة البواب الأول، والبائعة التي كانت في مسكنها حينذاك، والمستشار القضائي كريوكوف الذي نزل من مركبة في تلك اللحظة نفسها وكان يجتاز عتبة المدخل متأبطاً ذراع سيدة، إن هؤلاء جميعاً، أي ثمانية شهود أو عشرة، أجمعوا في أقوالهم على أن نيقولاي قد بطح دمتري أيضاً، وجثم عليه، راح يمطره بوابل من اللكمات، وأن ديمتري كان من جهة ممسكاً بشعره يكيل له اللكمات هو أيضاً، وأنَّهما تدحرجا كليهما بالعرض فسدَّا الطريق، وأن الشتائم كانت تنهال عليهما من كل صوب، وأنَّهما كانا "أشبه بالصبية الصغار"، على حد تعبير الشهود نصاً، يولولان ويتضاربان وينفجران ضاحكين ويتسابقان في القهقهة ويطارد كل منهما الآخر في الشارع كالصبيان وقد ظهر في وجهيهما من هزل الأطفال أشدَّه! هل سمعت هذا كلَّه؟ فاسمع الآن البقية: كانت الجثتان، فوق، في ذلك الوقت نفسه، ما تزالان ساخنتين حين اُكتشفتا. فلو كان نيقولاي ودمتري هما القاتلين، أو

كان نيقولاي وحده هو القاتل، وكانا في الوقت نفسه قد سرقا العجوز أو لم يزيدا على أن شاركا في السرقة مشاركة فحسب، لكان من حقي أن ألقي عليك هذا السؤال: هل تلك الحالة النفسية ( أعني الولولة، والضحك، والتشاجر الصبياني تحت باب الدخول) تتفق والفأس، والدم والمكر الوحشي والحذر، والسلب، والنهب؟ أيكونان قد قتلا منذ برهة قصيرة، منذ خمس دقائق، أو عشر في أكثر تقدير. وهذه نتيجة مستخلصة من سخونة الجثتين. ثم هما يمضيان فجأة، تاركين الجثتين والباب مفتوح، مع علمهما بأن أناساً سيصلون من لحظة إلى أخرى؟ أيقتلان منذ برهة وجيزة، ثم يتركان غنيمتهما، ويمضيان يتدحرجان في الشارع "كالصبية الصغار"، ويضحكان ضحكاً صاخباً، ويلفتان إليهما انتباه الناس جميعاً، وهذا ما يؤكده عشرة شهود بصوت واحد؟

ـ هذا غريب فعلاً، ذلك مستحيل طبعاً، ولكن...

ـ يا أخي، لا داعي إلى "ولكن" هذه. إذا كان وجود القرطين بين يدي نيقولاي، في ذلك اليوم نفسه، وفي تلك الساعة ذاتها، واقعة مادية هامة تشهد عليه. وهي مع ذلك واقعة تفسرها أقوال المتهم نفسه تفسيراً كاملاً، يمكن إذاً دحضها. أقول إذا كان كذلك فيجب أن ندخل في الحساب وقائع أخرى لمصلحة المتهم لا ضِدَّه، وتؤكد براءته، لاسيَّما أنَّها وقائع ثابتة لا سبيل إلى نفيها. ولكن ماذا تظن؟ هل تعتقد أن قضاءنا، وهو على ما هو عليه، يمكن أن يُسلِّم بأن واقعة قائمة على غير الممكن السيكولوجي وحده، واقعة مبنية على الحالة النفسية فحسب، يمكن أن تُعدُّ واقعةً ثابتةً لا تقبل الدَّحض، واقعة قادرة بمفردها على أن تهدم جميع وقائع آلاتها المادية أياً كانت؟ لا، إن قضاءنا لن يُسلِّم بهذا أبداً، وذلك بحجة أن العملية قد وجدت، وأن الرجل أراد أن يشنق نفسه، وأنَّه "ما كان ليفعل ذلك لولا شعوره بجرمه!" تلك المسألة الرئيسة، ذلك هو السبب الذي يدفعني على التمسك المتحمِّس، هل فهمت؟ ـ

أراك مندفعاً فعلاً. انتظر! نسيت أن ألقي عليّك سؤالاً: ما هو الدليل الذي بيدنا على أن العلبة التي تحوي القرطين مصدرها صندوق العجوز حقاً؟

أجاب رازوميخين على مضض، وقد قطّب حاجبيه:

ـ ذلك ثابت. فقد تعرَّف كوخ العلبة، وحدد الشخص الذي رهنها عند العجوز، وبرهن ذلك الشخص برهاناً قاطعاً أنَّها علبته.

ـ هذا مؤسف. والآن ألقي عليّك سؤالاً آخر: ألم يلمح أحد" نيقولاي" لحظة كان كوخ وبسترياكوف يصعدان السُّلَّم؟ أفلا يمكن إثبات ذلك بطريقة مِنَ الطُرق؟

ردَّ رازوميخين متحسراً:

ـ لا، لم يره أحد، وهذا أمرٌ محزن. إن كوخ وبسترياكوف نفسيهما لم يلاحظا العمال في أثناء صعودهما. صحيح أن شهادتهما الآن لا تتسم بأهمية كبيرة... هما يقولان: "رأينا في أثناء مرورنا، ولا نتذكر أكان فيها عمال أم لا".

إن التفسير الوحيد القابل للاعتماد إذاً، للتدليل على براءتهما، هو أنَّهما كانا يتضاربان كصديقين يلعبان ويضحكان قهقهة. طيب! هذا دليل قوي ولكن... اسمح لي: كيف تفسر أنت الواقعة؟ كيف تفسر العثور على القرطين إذا كان قد وجدهما على نحو ما صرَّحَ؟

ـ كيف أفسرها؟ ليس ثمة شيء يحتاج إلى التفسير: الأمر واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، أو قل إن الطريق المفروض على القضاء للتحقيق مرسوم بشكلٍ ناتئ. والعلبة هي التي تؤكد هذا. إن القرطين سقطا من القاتل الحقيقي. كان هو في أعلى، موصداً عليه الباب بالمزلاج، حين رابط كوخ وبسترياكوف على الباب. وقد ارتكب كوخ حماقة واسعة الدلالة، حين نزل في إثر صاحبه، انتهز القاتل السانحة، وهرب من الشقة، ونزل أيضاً، إذ لم يكن له مخرجاً آخر. وفيما كان على السلم، اختبأ عن أعين كوخ

وبستریاکوف والبواب بدخوله إلى المسكن الخالي الذي تركه دمتري ونيقولاي منذ لحظة قصيرة، فظلَّ متخفياً وراء الباب بينما كان البوَّاب والرجلان الآخران يصعدون. حتى إذا انقطعت ضجة وقع أقدامهم نزل بهدوء، وذلك في اللحظة التي كان فيها دمتري ونيقولاي يطارد كل منهما الآخر صاحبه في الشارع، أي في اللحظة التي كان قد تفرق فيها الجميع، فلم يبق أحد في مدخل العمارة، بل من المقبول أن يكون أحدهم قد رآه، ولكنه لم يلاحظه: إن شرائح عديدة من البشر تَمرُّ. أما العلبة فلا مَهرب من أنَّها قد سقطت من جيبه لحظة كان واقفاً وراء الباب، فلم ينتبه على ذلك، لأن ذهنه كان مشغولاً آنئذٍ بهمومٍ عديدةٍ أخرى. نعم، إن العلبة تبرهن قطعاً على أن القاتل قد رابط هناك. تلك هي القصة كلها.

قال زوسيموف:

ـ هذا تفسير بارع! نعم... حقاً هذا تفسير بارع جداً يا صاحبي... بارع جداً جداً...

ـ ولكن لماذا؟ لماذا تقول؟....

ـ لأن كل شيء مرتَّبٌ بحذَقٍ ومركَّبُ بإحكام... لكأننا في مسرح!...

همَّ رازوميخين أن يتكلم فقال:

ـ هيه...

ولكن الباب فتح في تلك اللحظة بالذات، وخرج منه زبون جديد لم يكن يعرفه أحد من الموجودين.

# الفصل الخامس

هو سيد ليس في ريِّق الشباب، سيد متكلف، متصنع، ذو أبهة وجلال، تعبر هيئته عن التعالي والتحفظ، وقف في العتبة يلقي على ما حوله نظرات استطلاع فيها دهشة لا تخفي حتى الأسف وكأن عينيه تلقيان هذا السؤال: "أتراني ضللت السبيل؟" كان يتفحَّصُ "حجرة" راسكولنيكوف الواطئة الضيقة وهو يشعر بشيء من الشك ويبدي نوعاً من الخوف بل ويظهر شيئاً من الأسف والمضض. وبمثل هذه الدهشة نفسها وجَّه بَصَرَهُ إلى راسكولنيكوف، ثم ثبته عليه، فرأى راسكولنيكوف الذي لم يكن مرتدياً ثيابه ولا حلق ذقنه، والذي كان مشعث الشعر راقداً على أريكته الوسخة الحقيرة، رآه يتفحَّصهُ من جهته دون أن يتحرك. وبهذا البطء نفسه أخذ يتأمل رازوميخين الذي لم يكن مسرح الشعر ولا حليق الذقن وكان هو أيضاً يتفرس فيه باستطلاع مستهتر وقح دون أن يتحرك. خيم صمت متوتر خلال دقيقة تقريباً، ثم لم يلبث المشهد أن تغير تغيراً طفيفاً كما ينبغي أن نتوقع. ذلك أن القادم الجديد قد أدرك أن بعض العلاقات، وهي إشارات واضحة جداً، أن هيئته المسرفة في الصرامة لن تنفعه كثيراً في هذه الحجرة، فلطف هيئته بعض الشيء، واتجه إلى زوسيموف يسأله بأدب وكياسة، مع احتفاظه بشيء من الجمود والصلابة قائلاً بلهجة تبرز مقاطع الكلام جيداً.

- روديون روما نوفتش راسكولنيكوف، طالبٌ أو طالبٌ سابق؟

تحرك زوسيموف ببطء، ولعلَّه كان سيجيب، لم يسارع رازوميخين الذي لم يسأله أحد شيئاً إلى الجواب:

- هو ذا... راقد على السرير... ماذا تريد أنت؟

إن هذا السؤال الذي ليس فيه شيء من حرج: "ماذا تريد أنت؟"

قد بلبل السيد المتصنع فأوشك أن يلتفت نحو رازوميخين، ولكنَّه استطاع

أن يسيطر على نفسه، فاتجه مرة أخرى بسرعة كبيرة إلى زوسيموف.

ـ نعم، هذا راسكولنيكوف!

رد زوسيموف بإهمال وتثاقل، وهو يشير إلى المريض بإيماءة من رأسه، ثم تثاءب ففتح فماً واسعاً غير مألوف أيضاً وظلَّ فمه مفتوحاً مدة طويلة. ثم أغطس يده في جيب صدريته ببطء فاستل منه ساعة ذهبية كبيرة محدبة الشكل، فتحها ونظر فيها، ثم أعادها إلى جيبه بذلك البطء وبذلك التواني.

وفي أثناء هذا الوقت، ظلَّ راسكولنيكوف راقداً على ظهره، وظلَّ صامتاً لا يقول كلمة، وكان يلقي على الزائر نظرة ثابتة عنيدة، وإن كانت لا تعبر عن أي فكرة. كان، وقد تحوَّل عن تلك الزهرة الرائعة الرسم على ورق الجدار، يبدو شاحباً بشدة، وتدل ملامحه على أنَّه يعاني ألماً هائلاً، حتى لكأنَّه خارج من عملية موجعة أو أطلق سراحه بعد تعذيب. ولكن القادم الجديد أخذ يثير فيه بعض الانتباه شيئاً فشيئاً، ثم أخذ يثير فيه شكاً وريبة، حتى أثار عنده بعد بعد لأيٍ نوعاً من خوف وخشية. فلمَّا قال زوسيموف وهو يومئ إليه: "نعم هذا راسكولنيكوف" انتفض فجأة كمن وخزته إبرة، وجلس على السرير، وقال بلهجة تكاد تكون تحدياً وإن يكن صوته ضعيفاً متقطعاً:

ـ نعم، أنا راسكولنيكوف! ماذا تريد؟

تأمَّله الزائر بانتباه وقال يُعرِّفُ بنفسه بلهجة رصينة وقورة:

ـ بيوتر بتروفتش لوجين. أحبُّ أن أظنَّ أن اسمي غير مجهول عندك تماماً.

ولكن راسكولنيكوف الذي توقع شيئاً آخر، نظر إليه دون أن يجيب، وكان زائغ البصر، شارد الفكر، كأنَّه يسمع هذا الأسم لأول مرة حقاً.

سأله بيوتر بتروفتش مرتبكاً بعض الشيء:

ـ كيف؟ أيمكن ألا تكون قد تلقيت أيَّ نبأ حتى الآن؟

لم يزد جواب راسكولنيكوف على أن راح ينزلق على الوسادة ببطء، ثم صالب يديه وراء رأسه، وأخذ ينظر إلى السقف. طاف بوجه لوجين تعبير عن

حزن، وأخذ زوسيموف ورازوميخين ينظران إليه بكثير من الفضول حتى بدا عليه الاضطراب في آخر الأمر. ودمدم يقول:

ـ كنت أفترض أن الرسالة، وقد أودعت في البريد منذ أكثر من عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً، لابد أن...

فقاطعه رازوميخين فجأة بقوله:

ـ اسمع! لماذا تبقى واقفاً هذه الوقفة في الباب؟ هلم اجلس إذا كان لديك شيء تريد أن تشرحه... العتبة لا تتسع لكما كليكما أنت وناستاسيا! يا ناستا سيوشكا، تنحي قليلاً، ودعيه يمر! تقدم! هذا كرسي! ادخل!.

أردف رازوميخين، وأبعد كرسيه عن المائدة، جاعلاً بينه وبين ركبتيه فراغاً صغيراً، ولَبِثَ على هذا الوضع، المزعج تقريباً، برهة من الوقت، ينتظر أن "يتسلل" الزائر من هذه الفرجة. اختار رازوميخين اللحظة الملائمة اختياراً حاسماً تمنع الزائر من الرفض، لذلك سارع هذا الأخير إلى الانسلال عبر الفراغ الضيق متعثراً. حتى إذا وصل إلى الكرسي قعد وألقى على رازوميخين نظرة ريبة.

قال رازوميخين من دون اكتراث:

ـ لا تتحرَّج! إن روديا مريض منذ خمسة أيام، وظل يهذي ثلاثة أيام، ولكنه عاد الآن إلى الحياة تماماً، لا بل صار يقبل الطعام نهماً. والجالس هناك، طبيبه فحصه منذ دقائق، أما أنا أحد رفاق روديا، كنت طالباً مثله وصرت الآن ممرضاً له. لا تنتبه إلينا ولا تحفل بنا، ولا تتحرج منا. أكمل كلامك وقل ما تريد!

رد بيوتر بتروفتش:

ـ شكراً.

ثم التفت يسأل زوسيموف:

ـ لكن ألا يزعج المريض وجودي وحديثي؟

فأجابه زوسيموف مغمغماً:

ـ لـ... لا...! بل يسليه قليلاً!

أردف زوسيموف:

ـ نعم، نعم! لقد أفاق من الغيبوبة منذ برهة غير قصيرة، منذ الصباح!

قال رازوميخين هذا بلهجة فيها من الألفة ورفع الكلفة والبساطة الساذجة ما جعل بيوتر بتروفتش يُغيِّرُ موقِفَهُ، فبدأ يشعر بشيء من الارتياح والانطلاق، ولعلَّ ذلك يرجع أيضاً إلى أن هذا الفقير الوقح قد أفلح رغم كل شيء في أن يعرِّف بنفسه على أنَّه طالب.

بدأ لوجين يتكلم:

ـ إن والدتك...

فإذا برازوميخين يهتف بصوت عالٍ:

ـ هم!

فرشقه لوجين بنظرة مستوضحة. فقال لهُ رازوميخين

ـ ليس هذا أمراً هاماً! لا تلق إلى هذا بالاً. هلم أتم كلامك.

رفع لوجيه كتفيه متعجباً، وواصل حديثه فقال:

ـ إن والدتك شرعت بكتابة رسالة لك حين كنت عندها. فلما وصلت إلى هنا تعمدت ألا أجيء لزيارتك قبل انقضاء بضعة أيام وهذا بغية أن أكون على يقين تام من أنَّك أطلعت على كل شيء. ولكنني أرى، مدهوشا كل الدهشة...

فقاطعه راسكولنيكوف بغتة، وظهرت في هيئته علامات نفاذ الصبر والزعل، قاطعه قائلاً:

ـ أعرف! أعرف! أنت الخطيب، أليس صحيحاً؟

أعرف ويكفيني هذا.

أحسَّ بيوتر بتروفيتش بأنَّهُ أهين فعلاً، ولكنَّه صمت. كان يحاول جاهداً

أن يفهم ما ربما عناه كلام راسكولنيكوف. واستمر الصمت قرابة دقيقة.

وفي خلال ذلك كان راسكولنيكوف الذي التفت إليه قليلاً ليجيبه، أخذ يتفرس فيه فجأة بعناد شديد، واستطلاع قوي، كأن وقته لم يتسع منذ قليل لأن يفحصه فحصاً دقيقاً أو كأن شيئاً جديداً فيه قد خطف بصره، حتى أنّهض رأسهُ عن الوسادة لهذا الغرض عمداً.

وكان ذلك الشيء في مظهر بيوتر بتروفيتش لا يخفى عن عين الناظر إليه فعلاً، إنَّه شيء خاص، شيء لا أدري ما هو، شيء يسوغ الصفة التي أطلقها عليه راسكولنيكوف بغير حرج حين سمَّاه "الخطيب". إن المرء يلاحظ قبل كل شيء - بوضوح شديد - أن بيوتر بتروفتش سارع إلى الإفادة من الأيام القليلة التي يعتزم قضاءها في العاصمة ليجعل نفسه ظريفاً وأنيقاً بانتظار وصول خطيبته، وذلك الأمر مشروع تماماً، بريء. حتى ليمكن أن يغفر المرء لهذا الرجل، بسبب لقب "الخطيب" الذي كسبه، ما كان يراه في نفسه من رأي لعلَّه مُسرِفٌ في التعظيم، بعد التَّبدُّل الموفق السعيد الذي طرأ عليه. كان يمكن أن تعد ثيابه كاملة، رائعة، لولا عيب واحد هو أنَّها خارجة من عند الخياط للتو لهدف محدد. حتى قبعته المستديرة حسنة الاختيار تدل على ذلك الهدف: أن بيوتر بتروفتش يغالي في العناية بها. وحتى القفازان الزاهيان البنفسجيان من محل جوفان الأشهر كانا يؤيدان هذا الهدف، على الأقل لأن لوجين كان يحاذر أن يلبسهما، فهو يحملها بيده بغية أن يكون لهما أثر في عيون الناظرين. إن ثياب بيوتر بتروفتش تتسم في الأغلب بالألوان الفرحة البهيجة كألوان المراهقين. وكان يرتدي في ذاك اليوم سترة صيفية جميلة بلون الكستناء، وسروالاً صيفياً هفهافاً، وصديرة ملائمة من القماش عينه، وقميصاً من نسيج رقيق جداً، اشتراه من عدة أيام، وربطة عنق من خيوط فاخرة الغزل والنوع، أقرب إلى لون الورد، وأحلى ما في كل هذا اتساقها كُلَّها وشخصَ بيوتر بتروفتش. لو نظرت إلى وجهة النظر الذي لا يخلو من

كياسة لا يمكنك من أن عمره خمس وأربعون سنة، وسالفان بلون الكستناء يشكلان حول محياه إطاراً رائعاً هما بشكل ضلعين، يتكاثفان حول الذقن تكاثفاً مَهيباً، وقد حُلقت الذقن بعناية نظيفة، فهي تلمع كما البرق، وشعره الذي لم يكد يشيب، والذي صففه وجعده الحلاق، خلا من المنظر المضحك الغبي الذي نراه عادة في الشعر الجعد لأنَّه يضفي على وجه المرء ذلك التعبير الأبله الذي يلاحظ في وجه ألماني يرتدي ثياب الزفاف. ولئن كان في هذا الوجه الرصين اللطيف شيء مزعج بل منفر، فمرد هذا إلى أسباب أخرى. تأمل راسكولنيكوف السيد لوجين يتفحصه من دون كلفة ثُمَّ ابتسم بغضب شديد، ثُمَّ استرخى إلى الوسادة، وعاد إلى السقف بنظرة جديدة. لكن السيد لوجين صمد، وقرر مذعناً ألا يلاحظ الآن هذه الحركات الغريبة.

وقال بجهد يوقف الصمت:

ـ يؤسفني أشدَّ الأسف، أن أراك وقد أضناك المرض، وإلا لأتيت قبل الآن. إنَّما تباً لتلك الأتعاب والمهام المتراكمة فوق كاهلي، تحول بيني وبين الواجب هذا عدا أن ثمَّة دعوى هامَّةً جداً تملي عليَّ وظائفي أن أرفعها، كمحامٍ، أم السينات؟

ناهيك عن المشاغل التي لابد تداركها... أنني انتظر وصول والدتك وأختك بين لحظة وأخرى...

تحرك راسكولنيكوف، وظهر عليه أنَّه يودُّ أن يقول شيئاً، وعبر وجهه عن قليل من الانفعال، فقطع بيوتر بتروفتش كلامه، وانتظر هنيهة، ولكنَّه عاد إلى حديثه حينما رأى راسكولنيكوف قد سكت قال:

ـ بين لحظة وأخرى وقد وجدت لهما مسكناً ينزلانه بداية.

سأله راسكولنيكوف بصوت واجف خائر:

ـ أين يقع هذا المسكن؟

ـ غير بعيد من هنا. في عمارة باكالايف...

قال رازوميخين مقاطعاً:

ـ في شارع" الصعود" في العمارة طابقان مفروشان يؤجرهما التاجر بوشين. فقد ذهبت إليه.

ـ نعم هي غرف مفروشة.

أردف رازوميخين:

ـ منزل حقير، فظيع، قذر، عفن، وهو فوق ذلك مشبوه، شاهد أحداثاً كارثية... لا يعلم سوى إبليس من هم نزلاؤه... زرته بنفسي على أثر فضيحة شائنة. مع امتيازه بقلة أجوره.

رد بيوتر بتروفتش بلهجة تتسم بالحساسية.

ـ لم أستطع حتماً أن أجمع هذه المعلومات، لأنني وصلت أخيراً. على أن ثمة غرفتين نظيفتين جداً، ونحن نعرف أن الإقامة فيه، كما أسلفنا، قصيرة.

وتابع كلامه ملتفتاً إلى راسكولنيكوف:

ـ وقد وجدتُ مسكناً لنا نحن منذ الآن، أعني البيت الذي سنسكنه في المستقبل، وقد باشروا بإعداده، وبانتظار هذا أقيم نفسي على مسافة خطوتين من هنا، وفي غرفة مفروشة كيفما اتفق، عند سيدة اسمها ليبفكسل، في شقة صديق لي هو آندري سيميونوفتش ليبزياتنكوف، وهو الذي دلني على عمارة باكالايف...

ـ ليبزياتنيكوف؟

سأل راسكولنيكوف ببطء، كان هذا الاسم يذكره بشيء ما.

ـ نعم، آندري سيميونوفتش ليبزياتنكوف، موظف بإحدى الوزارات. أتراك تعرفه؟

أجاب راسكولنيكوف:

ـ نعم.... لا...

ـ معذرة. لقد خيل إلي من سؤالك أنَّك... لقد كنت ولي أمره هو فتى

لطيف، مطلع على كل جديد.... أنا أحبُّ معاشرة الشباب. إن من يعرفهم يتعلم أشياء عديدة وجديدة.

قال بيوتر بتروفتش وهو يلف السامعين بنظرة شاملة. آملا أن يحظى كلامه بالقبول.

سأله رازوميخين:

ـ بأي معنى؟

فردَّ وقد أسعده السؤال:

ـ بالمعنى الجدي، الهام الأساسي... منذ عشر سنين كنت منقطعا عن زيارة بطرسبورغ. صحيح أن جميع هذه الأشياء الجديدة، هذه الإصلاحات وهذه الأفكار، قد وصلت إلى الأقاليم أيضاً. ولكن إذا أراد المرء أن يرى الأمور رؤية أشمل، فلا بُدَّ لهُ أن يكون ببطرسبورغ وعندي أن خير وسيلة للتعلم إنَّما هي ملاحظة أجيالنا الجديدة الفتية. وأنني لأعترف ببهجتي وحبوري.

ـ ما الذي ابتهجتَ لهُ بالتحديد؟

ـ سؤالك واسع قليلاً... ربما كنت مخطئاً، ولكن يُخيَّل لي أنني أجد الآن نظرة أوضح، وأجد قدراً من حسٍّ ناقدٍ أكبر، وأجد فكراً وضعياً أنمى وأوسع.

قال زوسيموف بلا مبالاة

ـ هذا صحيح.

وردَّ رازوميخين:

ـ أكاذيب! ليس ثمة أي فكر وضعي! إن الفكر الوضعي يتم اكتسابه بشق النفس والنصب، ولا يهبط من السماء. نحن أناس فقدنا عادة العمل والفعل منذ مائتي سنة أوأكثر من ذلك.

ثم أضاف موجهاً كلامه إلى بيوتر بتروفتش.

ـ صحيح أن الأفكار تختمر، وأن الرغبة في حسن العمل موجودة أيضاً

مهما تكن بسيطة، أولية، لا بل ثمت شكل من الاستقامة والشرف والأمانة، رغم أن عدد المحتالين لا يحصى. وأؤكد أن الفكر الوضعي لا وجود له. أما الذين يملكون الفكر الوضعي فهم التجار، وأغنياء المحترفين.

ردَّ بيوتر بتروفتش على رازوميخين وهو يشعر برضى واضح وارتياح:

ـ لا أشاطرك الرأي. صحيح أن هناك اندفاعات متطرفة، وأن هناك اختلافات عميقة، ولكن يجب أن نكون عادلين. إن هذه الاندفاعات المتطرفة تدل على أن أصحابها أناس مؤمنون صادقون، وتدل أيضاً على أن الظروف ليست الظروف التي يجب توافرها. ولئن لم يتحقق حتى الآن إلا القليل، ذلك لأنَّه لم يتهيأ حتى الآن إلا وقت قصير، ناهيك عن قلة الوسائل. وفي رأيي شخصيا أنَّه قد تحقق منذ الآن شيء ما: انتشرت الأفكار الجديدة، والأفكار المفيدة، وصدرت مؤلفات جديدة مفيدة بدلاً من المؤلفات الرومانسية الحالمة التي ذاعت في القديم. نضج الأدب، واستؤصلت أوهام كثيرة ضارة. بإيجاز: قطعنا الصلة بالماضي قطعاً حاسماً، وهذا وحده في رأيي أمر هام...

دمدم راسكولنيكوف:

ـ يردد أقوالاً محفوظةً حباً بالظهور!

لم يسمع بتروفيتش ما قاله راسكولنيكوف، فسأله مستوضحاً.

ـ نعم؟

ولكنَّه لم ينل رداً.

وعلى عجل قال زوسيموف:

ـ هذا كُلُّه صحيح جداً.

قال بيوتر بتروفتش وهو ينظر إلى زوسيموف نظرة فيها لطف ودعة:

ـ أليس كذلك؟

ثم اتجه إلى رازوميخين بلهجة تنم في هذه المرة عن الانتصار وتعبر عن الشعور بالتفوق، حتى ليكاد يخاطبه: "أيُّها الفتى":

ـ عليك أن تسلَّم أن ثمة سيراً إلى الأمام، أو أن هناك تقدماً على حدٍّ التعبير الرَّائج الآن، على الأقل باسم العلمِ والحقيقةِ الاقتصادية.

ـ كلامٌ مكرر!

ـ لا، ليس كلاماً مُعاداً.

قال بيوتر بتروفتش، ثم تابع بتعجل لعلَّ فيه إسرافاً:

ـ مثلاً، قالوا لنا حتى الآن: "أحب قريبك"....

لنفرض أنني أحببته، ما يترتب على ذلك؟ يترتب أن أشطر معطفي شطرين أعطيه أحدهما فنصبح كلانا عاريين نصف عرى، وفقاً لما يقوله المثل الروسي: "من طارد أرنبين خسر الاثنين". أما العلم يقول: أحب نفسك قبل سائر الناس، لأن كل شيء في العالم قائم على المنفعة الشخصية. فإذا لم تحب إلا نفسك صرفت شؤونك على نحو ما يجب أن تصرفها، فبقي معطفك سليما لم يمزق. وتضيف الحقيقة الاقتصادية إلى ذلك أنَّه كلَّما ازداد وجود الثروات الفردية في المجتمع، أي كلَّما كبر عدد المعاطف الكاملة، ازدادت الأسس التي تقوم عليها المجتمع متانة وصلابة. وازدادت ثروة المجتمع. معنى هذا أنني حين أجني خيراً لنفسي وحده، أحصل في نفس الوقت خيرا لجميع الناس. فينشأ من ذلك أن ينال قريبي أكثر من نصف معطف، ولا يتم ذلك بفضل كرم فردي، بل نتيجة رخاء عام. الفكرة بسيطة، ولكنها لم تفرض نفسها ـ وأسفاه ـ إلا بعد وقت طويل، لأنَّها ظلت محجوبة عن الأنظار بحماسة ساذجة وأحلام وهمية باطلة. ولم يكن المرء مع ذلك في حاجة إلى كثير من نفاذ البصيرة وقوة الذكاء كي يدرك أن....

قاطعه رازوميخين بخشونة:

ـ معذرة، أنا أيضاً لا أملك كثيراً من نفاذ البصيرة وقوة الذكاء، فلنقف إذاً عند هذا الحد، وحسبنا ما قلنا! أنا تكلمت لأنني قصدت هدفاً معيناً، أما هذه الثروة كُلُّها التي لا تفصح إلا عن إعجاب المرء بنفسه، وأما هذا الكلام

المعاد الذي لا ينفد مصدره، فذلك كله ما يزال يخلق في نفسي التقزز منذ ثلاث سنين حتى صرت أخجل، لا حين أقوله أنا فحسب، بل حين أسمع غيري يقوله أيضاً. لقد تسرعت كثيراً في إظهار ثقافتك. وذلك أمر يمكن أن يغفر لك، ولست عليه ملوماً. ولكني أردت أن أعرف من أنت، ذلك أن الذين تعلّقوا بالقضايا العامة من الأوغاد قد بلغوا من فرط الكثرة والتنوع، ومن شدة إفساد كل ما لمسوه، في سبيل مصالحهم، أنَّهم وسَّخوا كل شيء توسيخا لا خلاص فيه وكفى هذا!.....

أردف السيد لوجين بوقار:

ـ أتراك تُريدُ، أيَّها السَّيد الكريم، أن تشير بهذه الصراحة الصارخة الخالية من أي تحرج إلى أنني أيضاً.....

ـ رحماك، رحماك! كيف يمكنني أن.... والآن، كفى!....

كذلك قطع رازوميخين كلامه، والتفت إلى زوسيموف التفاتة حازمة، ليستأنف ما كان بينهما من حديث.

كان بيوتر بتروفتش على ذكاء جعله يقبل هذا الجواب فورا. وكان قرر أن ينصرف بعد دقيقتين.

قال يخاطب راسكولنيكوف:

ـ أرجو للعلاقات التي بدأت بيننا الآن أن تتوطد حين تبرأ من مرضك، وبفضل الظروف التي تعرفها..... إنني أتمنى لك تحسن الصحة قبل كل شيء..... لم يلتفت راسكولنيكوف إليه، وبيوتر بتروفتش همَّ أن ينهض.

قال زوسيموف يخاطب رازوميخين بلهجة قاطعة باتة:

ـ لا ريب أن أحد زبائنها قد قتلها.

أجابه رازوميخين موافقاً:

ـ لا ريب! لاريب! أنَّ أحد زبائنها هو الذي قتلها. إن بورفيري لا يطلع أحداً على خواطره، ولكنَّه يستجوب جميع الذين أودعوا عندها رهونا.....

سأل راسكولنيكوف بصوتٍ عالٍ جداً:

ـ يستجوبهم؟

ـ نعم، لماذا تسأل هذا السؤال؟

ـ لا لشيء!

وسأل زوسيموف:

ـ أين يمكنه أن يجدهم؟

سمى له كوخ بعضهم. وهناك أسماء أخرى مسجلة على الأوراق التي لفت بها الرهونات. وثمة آخرون جاؤوا من تلقاء أنفسهم منذ وصولهم الخبر.....

ـ يميناً إن الذي ضرب هذه الضربة لا بدَّ أن يكون وغداً جارحاً، محنكاً، ذا خبرة! يا له من جريء! يا لها من عزيمة!

قال رازوميخين مقاطعاً:

ـ لا، بالعكس! وذلك بعينه هو ما يَضلُّكم كلكم. أنا أزعم أن القاتل أخرق ليس ذا تجربة ولا خبرة، وهذه الجريمة هي خطوته الأولى على هذا الدرب. لو افترضناه بارعاً حاذقاً لغدت جميع الأمور سلسلة من وقائع لا يمكن تفسيرها. أما إذا نزعنا عنه صفة الخبرة والحنكة، تكون الصدفة هي التي أنقذته من هذه الورطة، وما أكثر ما تفعله المصادفات! لعله لم يتنبأ بالصعوبات التي قد تعترض سبيله، ولم يتصور الحواجز التي سيصطدم بها! انظر كيف تصرف:

أخذ أشياء لا تزيد قيمة منها على عشرة روبلات أو عشرين روبلاً، ملأ بها جيوبه، ونبش بين الخرق في صندوق العجوز، على حين أن الدرج الأعلى من الخزانة ذات الأدراج قد عثر فيها على علبة تحوي ألفاً وخمسمائة روبل عدا السندات. حتى السرقة لم يحسنها، لم يحسن سوى القتل!..... هذه خطوته على طريق الإجرام! نعم، لقد طاش عقله وذهب صوابه.... أؤكد لك أن ما أنقذه ليس هو الحساب بل هو المصادفة.

تدخل بيوتر بتروفتش في الحديث، فقال يسأل زوسيموف:

ـ أظن أنكم تتحدثون عن جريمة القتل التي وقعت مؤخراً وكانت ضحيتها تلك العجوز، أرملة الموظف، أليس كذلك؟

وكان بيوتر بتروفتش واقفاً يحمل بيده قبعته وقفازيه. غير أنَّه ما يزال يحب أن يرسل بعض الأقوال الملائمة الذكية قبل أن ينصرف. كان واضحاً أنَّه يهمه أن يخلف في نفوس سامعيه أثراً طيباً. فتغلب حب الظهور عنده على رجاحة العقل.

ـ أسمعتَ ما يدور حول الحادثة؟

ـ طبعاً، إن جميع الجيران....

ـ أتعرف التفاصيل؟

ـ لا أستطيع أن أزعم أني أعلم التفاصيل، غير ما يعنيني في هذه القضية إنما هو بعض ظروفها، أو بعض المشكلات التي تطرحها. لست أقصد أن عدد الجرائم التي ترتكب في الطبقات الدنيا قد نما وربى كثيراً في السنوات الخمس الأخيرة. لا ولا أتكلم عن حوادث السطو، وحوادث الحريق التي تتعاقب في كل مكان بغير انقطاع. لا، لا أتكلم عن هذا، وإنما الشيء الذي يبدو لي غريباً هو أن عدد الجرائم يتزايد في الطبقات المرفهة أيضاً. بنسبة طردية مع تزايده عند الطبقات المأزومة. هنا، طالب سابق يهاجم عربة بريد في الطريق الكبير، وهناك أناس يحتلون مركزاً اجتماعياً مرموقاً، يصنعون أوراقاً مالية مزورة، وهنالك أيضاً في موسكو فيها أستاذ من أساتذة التاريخ العام. وهناك أخيراً، يُقتل موظف في إحدى سفاراتنا ابتزازاً أو لغرض أخطر!... فإذا كان قاتل تلك العجوز واحداً من الشرائح الغنية، ولا بد أنَّه كذلك، لأن أبناء الشعب الفقراء، ما عندهم رهائن، فيما أعلم، فكيف تفسر إذاً هذا التحلل الذي يعبث فسادا في الناس المتمدنين المتحضرين من مجتمعنا؟

قال زوسيموف:

ـ للتبدلات الاقتصادية دخل هام في حدوث هذه الظاهرة.

وأردف رازوميخين مجيبا عن سؤال بيوتر بتروفتش:

ـ كيف نفسر هذا التحلل؟ الأمر بسيط: نفسره بفقدان الفكر الوضعي والروح العملية....

ـ أي؟

ـ قل لي: بماذا أجاب، في موسكو، أستاذ التاريخ العام ذاك حين سُئِل لماذا يزِّيف أوراق اليانصيب؟ أجاب بقوله: "جميع الناس يغتنون بأي وسيلة، لذا أردت أنا أن أثرى بأقصى سرعة. لا أتذكر الآن أقواله بِنَصَّها، لكن معناها هو أنَّه ابتغى أن يجمع ثروة بأقصى سرعة وأقل كلفة، دون أن يتحمل مشقة أو يبذل جهداً. نعم، اعتاد الناس أن يعيشوا عالة على الآخرين، دون أن يحفلوا بشيء، واعتادوا أن يقتصروا على القيام بأعمال سهلة، فمتى آن الآوان ظهر كل منا على حقيقته.....

إنَّما هناك أخلاق.... هنالك مبادئ رغما عنك وعني.

توسط راسكولنيكوف فجأة، قال:

ـ ما يقلقك؟ إن هذا هو النتيجة المترتبة على نظريتك بذاتها!

ـ نظريتي أنا؟

ـ استخرج النتائج التي تنتج عن المبدأ الذي وضعه منذ قليل، تجد أنَّه يخول الإنسان أن يقتل الغير.....

صاح لوجين:

ـ أرجوك!....

قال زوسيموف:

ـ لا، ليس هذا صحيحاً.

كان راسكولنيكوف ما يزال راقداً، وكان شاحب الوجهين، وشفته العليَّا ترتجف، ويتنفس بمشقةٍ وعُسر. وتابع لوجين كلامه متعالياً:

هناك حدود معقولة، حصينة. ليس الفكر الاقتصادي حضاً على القتل وإذا فرضنا أن....

فقاطعه راسكولنيكوف بغتة من جديد وسأله بصوت مرتعش غضباً، بجرس يشوبه نوع من حبور ماكر، ومن التلذذ بالاهانة.

ـ صحيح أنَّك قلت لخطيبتك، حين وافقت على الاقتران بك، أن يسعدك حتى الثمالة أنَّها فقيرة حتى الإدقاع.... لأنَّه مفيد، كما يقال، أن ينتشل الرجل امرأته من وهدة الفاقة، ليسيطر عليها بعدئذ ويكرمها.

فهتف لوجين بصوت شرير، وقد خرج عن طوره واحمرَّ:

ـ أيُّها السيد الكريم، أنت تشوه فكرتي. معذرة. غير أن من واجبي أن أبلغك أن الشائعات التي وصلتك أو نُقلت لك عمداً، لا تقوم على أي أساس.... وأنا أشك.... بالذي.... الخلاصة.... أشتبه أن هذا السهم..... الخلاصة..... إنما أرسلته أمه! في أي حال.... إني بغض النظر عن هذا.... قد لاحظت..... رغم مناقبية أمك السامية، لكني ما تصورت أن أتخيل أنَّها يمكن أن تنظر إلى الأمور هذه النظرة الشوهاء التي صورها خيالها..... لا بأس.... ربما.... صرخ راسكولنيكوف وهو ينهض عن وسادته ويحدق بعينه يتطاير الشرر من حدقتيهما:

ـ أتريد أن أقول لك؟

ـ ماذا؟ ماذا تقول لي؟

قال لوجين، وانتظر جواب راسكولنيكوف متحدياً بمظهر من أُهين، وخيَّم الصمت عدة ثواني. قال راسكولنيكوف:

ـ اعلم أنك.... إذا تجرأت مرة أخرى، فقلت بحق أمي كلمة واحدة، فلأنزلَنَّك دحرجةً على السُّلَّم.

هتف رازوميخين يقول لراسكولنيكوف:

ـ ماذا دهاك؟

اصفر لوجين، وعضَّ على شفتيه، ثم قال متمهلاً، محاولاً كبح نفسه، لأن الغضب كان يخنقه:

ـ هكذا إذاً! اسمع يا سيد، لم يفتني أن ألاحظ منذ قليل، حيث دخلت، الاستقبال شبه الزري الذي كرمتني به، ولكني قصدت أن أبقى لأرى إلى أي مدى سوف تمضي.... كان يمكن أن أعذر عدة أمور لإنسان سقيم تربطني به صلة قربى..... أما لك أنت، فلن أعذرك.... لا، لا أبداً.

رد راسكولنيكوف:

ـ لست سقيماً!

ـ فلذنب أدهى إذاً

ـ دونك جهنم!

لكن لوجين قد خرج دون أن يتابع الكلام. تسلل بين المائدة والكرسي ثانية، ونهض له رازوميخين في هذه المرة عن كرسيه ليفسح لهُ في المجال. خرج لوجين حتى دون أن ينظر إلى أحد ودون أن يرمي برأسه زوسيموف الذي كان منذ برهة طويلة يومئ إليه بأسه مهيباً به أن يدع المريض وشأنه، وقد خرج وهو يرفع قبعته إلى مستوى كتفه على سبيل الاحتياط، لحظة انحنى ليجتاز عتبة الباب. كان واضحاً من طريقة حنيه ظهره أنَّه انصرف وهو يحمل شعوراً بأنَّه أُهين إهانة فظيعة.

قال رازوميخين لراسكولنيكوف وهو يهزُّ رأسهُ محتاراً مرتبكاً.

ـ أيمكن أن يتصرف أحد هذا التصرف؟

فهتف راسكولنيكوف يقول خارجاً عن طوره:

دعوني، دعوني جميعاً! ألا تريدون أن تتركوني وشأني أيُّها الجلادون؟ أنا لست خائفاً منكم.... لست الآن خائفاً من أحد. اخرجوا من هنا! أريد أن أكون وحيداً، وحيداً، وحيداً.

أردف زوسيموف وهو يومئ لرازوميخين:

ـ لننصرف!

ـ ماذا؟ أيمكن أن نتركه وهو على هذه الحال؟

فكرر زوسيموف قوله جازماً:

ـ فلننصرف.

وخرج.

فكَّر رازوميخين لحظة، ثم مضى يلحق بصاحبه زوسيموف.

قال زوسيموف وقد صارا على السُّلَّم:

ـ لو لم نطعه لساءت صحته كثيراً. ما ينبغي أن نخنقه.

ما أصابه؟

ـ ليت هزَّةً سارةً تفرحه. نعم، ذلك ما هو بحاجة إليه. لقد استرد قواه منذ قليل، .... أظنُّ أن هناك أمراً يشغل باله، يخيل لي أن فكرة ما تثقل على صدره، وتحاصر فكره.... وهذا ما أخشاه! لا ريب أن هذا هو الحال.

ـ لعلَّ للسيد بتروفتش علاقة فيما هو فيه. إن الحديث الذي جرى بينهما يدل على أن بيوتر بتروفتش سيتزوج أخت روديا، وأن روديا أُبلغ هذا النبأ وصلت إليه قبيل مرضه ببرهة وجيزة.

ـ نعم، إن الشيطان هو الذي قاد هذا الرجل إليه، في هذا اليوم بالذات! لعلَّ هذا الرجل قد أفسد الآن كل شيء. ولكن قل لي: هل لاحظت أن روديا كان لا يبالي بشيء، ولا يخرج من صمته إلا لأمر واحد كان يخرجه عن طوره هو جريمة القتل تلك.

أجاب رازوميخين موافقاً:

ـ نعم، نعم، لاحظت ذلك واضحاً جداً. إن هذه الجريمة تهمه، بل وترعبه.... ولكنَّ مردَّ ذلك إلى أنَّه في ذلك اليوم نفسه الذي أسقمه فارتاع في مكتب رئيس الشرطة، حتى أغمي عليه.

ـ ستقص هذا عليَّ ذلك تفصيلاً في هذا المساء، وسأقول أنا لك شيئاً

حينذاك إن حالته تعنيني جداً. سآتي استطلع وضعه بعد نصف ساعة، مهما يكن من أمر، فلا خوف عليه من أن يصاب باحتقان.....

ـ شكراً لك، وفي أثناء هذا الوقت، سأنتظر أنا عند باشنكا، وسأكلف ناستاسيا بمراقبته....

نظر راسكولنيكوف إلى ناستاسيا ضجراً نافد الصبر. إن ناستاسيا لم تشأ أن تتصرف.

قالت له: هل لك بقليل من الشاي الآن؟

ـ بل فيما بعد. الآن أرغب في النوم، اتركيني!

قال راسكولنيكوف، واستدار نحو الحائط بحركة تشنجية. وخرجت ناستاسيا.

# الفصل السادس

ولكن ما أن خرجت حتى نهض فأوصد الباب بالكلابة وفض صرة الملابس التي أتى بها رازوميخين وأعاد ربطها، ثم بدأ يلبس. أمر غريب: لكأن راسكولنيكوف قد أصبح فجأة هادئاً تماماً. غادره كُلِّياً ذلك الهذيان الأشبه بالجنون، ولم يبق عنده شيء من ذلك الرعب الشديد الذي استولى عليه في الآونة الأخيرة. انقضت الدقيقة الأولى من الهدوء الغريب الذي تلبسه فجأة. إن حركاته الدقيقة الواضحة تدل على عزم قوي. وكان يدمدم قائلاً بينه وبين نفسه: "في هذا اليوم، في هذا اليوم نفسه". كان يدرك على ذلك أنَّه ما يزال ضعيفاً، غير أن توتراً نفسياً متملكاً يقارب العزيمة المتماسكة، والفكرة الثابتة كان يَهِبَهُ قوة وثقة. وكان من جهة أخرى يأمل أن لا يتهاوى في الشارع. فلمَّا انتهى من ارتداء ثيابه الجديدة، نظر إلى المال الموضوع على المائدة، فكر لحظة ثم دسَّه في جيبه. كان المبلغ خمسة وعشرون روبلاً. وتناول كذلك النقود النحاسية الصغيرة الباقية من الروبلات العشرة التي وقفها رازوميخين على شراء الملابس. ثم سحب الكلابة برفق، وخرج من الحجرة، وهبط السُّلَّم وهو يلقي نظرة على المطبخ الذي كان بابه مفتوحاً مشرعاً: كانت ناستاسيا تُدير لهُ ظهرها مائلة تنفخ على سماوار مولاتها. فلم تسمع شيئاً. ومن ذا الذي كان يمكن أن يفترض، مع هذا، أن راسكولنيكوف قد يخرج؟ وما انقضت دقيقة واحدة حتى كان راسكولنيكوف في الشارع.

الساعة تقارب الثامنة، الشمس تغرب، الجو خانق كما كان بالأمس، ولكن راسكولنيكوف كان يستنشق، بنهم شديد، هذا الهواء المعفر العفن الموبوء الذي تنشره المدينة الكبيرة. أخذ يشعر بدوار خفيف. وهذا نوع من طاقة وحشية يسطع بغتة في عينيه الملتهبتين، وينعكس على وجهه الهزيل المزرق. كان لا يعرف إلى أين يجب أن يذهب، لا ولا يخطر بباله أن يلقي على نفسه

هذا السؤال. كان يعرف شيئاً واحداً هو أن كل شيء يجب أن ينتهي في هذا اليوم بالذات، دفعة واحدة، وفوراً، وأنَّه من دون ذلك لن يعود إلى بيته، لأنَّه لا يريد أن يعيش هكذا. وأمَّا كيف ينتهي من ذلك كله، وأمَّا بأية وسيلة ينتهي من ذلك كله، فهو لا يعرف سبيلاً إلى هذا ولم يكن يريد أن يفكر في هذا! كان يدفع عن نفسه هذه المسألة الكاوية، غير أنَّه يحس ويعلم أن كل شيء يجب أن يتغير بطريقة أو بأخرى "مهما يكن من أمر، ومهما يحدث من حادث". هذا ما كان يكرره لنفسه بيأس، وثقة، وعناد.

وقادت خطاه عادة قديمة من عاداته، فسار في الطريق التي يسكنها في نزهاته الأليفة، واتجه رأساً نحو "سوق العلف". حتى إذا أوشك أن يصل إليه رأى في أرض الشارع شاباً أسمر يعزف على أرغن يدوي لحناً عاطفياً جداً وهو واقف أمام أحد الدكاكين. وكان الشاب يصاحب بالعزف غناء صبية في نحو الخامسة عشرة من عمرها، قد وقفت أمامه على الرصيف مرتدية ثياب فتاة من أسرة أسياد: تنورة منتفخة، وخماراً، وقفازين، وقبعة من قش تزينها ريشة حمراء بلون النار، ومجمل ثيابها يبدو عتيقاً. كانت الصبية تغني بصوت مغنية من مغنيات الشارع، بصوت مصدع لكنَّهُ ممتعٌ قوي، وما تزال تمعن في الغناء آملة أن يغنجها صاحب الدُّكان كوبكين. وقف راسكولنيكوف إلى جانب شخصين أو ثلاثة يصغون إلى الغناء، وهو أصغى كذلك، ثم أخرج قطعة نقدية قيمتها خمسة كوبكات فدسَّها في يد الصبية. فما كان من الصبية إلا أن توقفت عن الغناء عند النغمة التي وصلتها، وهي النغمة الأقوى علواً والأبلغ تأثيراً، ثم صرخت تقول للعازف بصوت جاف: "كفى"، واستأنف الاثنان سيرهما إلى الدكان التالي.

وجَّه راسكولنيكوف كلامه فجأة على رجل كهل كان قد سمع عزف الأرغن اليدوي إلى جانبه، وكان يبدو أنَّه متنزِّهٌ هائمٌ على وجهه، فقال له:

- هل تُحبُّ أغاني الشوارع؟

فنظر إليه الرجل مبهوتاً:

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال كأن الأمر لا شأن له بسؤاله البته:

ـ أنا أحبُّ أن أسمع الغناء على صوت أرغن يدوي، في ليلة من ليالي الخريف الحالكة، ليلة رطبة وفاردة، رطبة على وجه الخصوص، بينما المارة، قد ازرقت وجوههم جميعاً حتى لكأنَّهم مرضى، ولاسيما حينما ينهمر ثلج ذائب يتساقط قائماً لا تهب عليه نسمة من ريح، ....أرأيت هذا؟ .... فتسطع رؤوس مصابيح الغاز من خلال الثلج المنهمر....

قال السيد م مدمدماً وقد روَّعه السؤال مثلما روَّعهُ هذا المظهر الغريب في راسكولنيكوف:

ـ لا أدري! ..... معذرة.

ومضى يتنقل إلى الجهة الأخرى من الشارع.

سار راسكولنيكوف قُدُماً، فوصل إلى ناصية "سوق العلف"، إلى ذلك المكان نفسه الذي كان قد سمع فيه البائع وزوجته يحدثان ألزافيتا. ولكن البائع وزوجته لم يكونا هناك الآن. تعرَّف راسكولنيكوف المكان، وقف، ونظر حوله، ثم اتجه إلى شابٍّ يلبس قميصاً أحمر، كان يتثاءب عند مدخل دكان لبيع الدقيق، قال له:

ـ هنا، عند هذه الناصية، يعمل بائع وامرأته، هه؟

أجابه الفتى وهو يزوره بنظره:

ـ يجيء إلى هنا باعة كثيرون لا يحصى عددهم!

ـ ماذا يسمونه؟

ـ يسمونه باسمه

ــ وأنت، ألست زارايسك؟ من أي إقليم أنت؟ ألقى الفتى نظرةً إلى راسكولنيكوف ثم قال:

منطقتنا يا صاحب السعادة ليست إقليماً: وإنَّ أخي هو الذي يسافر، وأبقى

أنا بالدار، لا أعرف شيئاً. أرجو أن تعذرني يا صاحب السعادة!

ـ هل المحل الذي أراه في الطابق الأعلى مطعم؟

ـ بل هو حانة... وفيها بلياردو. وتجد فيه حتى أميرات... هو محل فريد.

مضى راسكولنيكوف ينتقل إلى جهة الميدان الأخرى، وهناك، عند الزاوية، كان يرابط جمهور كثيف ليس فيه إلا فلاحون. تسلل راسكولنيكوف إلى حيث يتكاثف الجمهور بل يحتشد، وشرع يتصفح الوجوه، كان يتمنى أن يكلِّم كل واحد من هؤلاء، لا يدري! ولكن الفلاحين لم يلتفتوا إليه. كانوا يتواكبون جمهرات تتحادث متصارخة. وقف راسكولنيكوف لحظة يفكر، ثم مضى يمنة ويسرى ثم مضى يمنة باتجاه شارع "ف..." حتى إذا غادر "سوق العلف" دخل في زقاق ضيق.

سبق لهُ كثيراً أن سلك هذا الزقاق القصير المتعرج الذي يصل بين الميدان وبين شارع سادوفا. كان يحب في البرهة الأخيرة، حين كان كل شيء يقرفه ويقززه، أن يتجول في هذه النواحي، "نشداناً لمزيد من الاشمئزاز ولكنَّه يسلك الآن هذا الزقاق دون أن يفكر في شيء. إن في هذا المكان عمارة كبيرة ليس فيها إلا خمارات، ومطاعم، ومقاهٍ، تخرج منها كل لحظة نساء حاسرات الرؤوس يرتدين ثياباً خفيفة كأنَّهن يخرجن "لزيارة جيرانهن زيارة قصيرة"، ويحتشدن جماعات في مكانين أو ثلاثة على الرصيف، ولاسيما قرب مداخل الأقبية، حيث يكفي المرء أن يهبط درجتين حتى يصل إلى بيت من بيوت اللذة. في أحد هذه البيوت الآن جلبة كبيرة تجتاح الشارع كله: فهناك عزف على القيثارة، وغناءٌ ومرحٌ بلغ ذروته، وعند المدخل تزدحم نساء كثيرات، وبعضهن جالسات على الدرجات، وبعضهن جالسات على الرصيف حتى، وبعضهن واقفات يثرثرن، وغير بعيد عنهن، يسير على أرض الشارع جندي سكران يترنح، وضع في يده سيجارة، وراح يشتم بصوتٍ عالٍ.

كان كمن يودُّ أن يدخل مكاناً ما، ولكنَّه صار لا يعرف أين. وهذا

رجلٌ يرتدي أسمالاً طفق يتبادل المسبات مع رجل آخر يرتدي أسمالاً رثة أيضاً. وهذا شخص قد بلغ السكر منهُ كل مبلغ، فاستلقى يرقد في عرض الشارع. وقف راسكولنيكوف قرب حشدٍ من النساء، كُنَّ يثرثرن بصوت أبح. جميعهن حاسرات الرؤوس، يلبسن فساتين مكن قماش خفيف مُشَجَّر، وينتعلن أحذية من جلد الماعز. منهنَّ من تجاوزن الأربعين عاماً غير أن منهنَّ صبايا في السابعة عشرة، وجميعهن تقريباً يحملن آثار كدمات.

جذبته الضوضاء والأغاني الصادرة عن القبو، دون أن يعرف لماذا، في وسط الضحك والصراخ، كان يُسمعُ صوت رجلٍ يغني بصوت نحيل حاد ويصاحبهُ عزفٌ على قيثارة. بينما أعقاب المقاعد تقرع الأوجع الأوجع، وألقى من على الرصيف نظرات مستطلعة، وراح يصغي مظلم النفس شارد الفكر. كانت الأغنية الآتية من صوت نحيل، تقول:

يا حارسي الجميل

لا تضربني بغير سبب.

شعر راسكولنيكوف برغبة جارفة لسماع هذه الأغنية، كأن المسألة كلها في نظره هذا هو مدارها!

قال يسأل نفسه: "ماذا لو دخلت؟ هم يضحكون مقهقهين. إنَّهم سكارى. ماذا لو سكرت أنا أيضاً؟"

سألته إحدى النساء بوضوح وبحة رخيمة:

ـ هلاَّ ولجت يا سيدي العزيز؟

كانت المرأة الشابة، بل كانت بين هذه الجماعة من النساء المرأة الوحيدة التي لا يبعث منظرها على النفور قطعاً.

قال وهو ينهض ويتملاها:

ـ ما أجملك!

تبسمت المرأة. أبهجها المديح بشكل عامر، وردت:

ـ أنت أيضاً شاب وسيم.

فأردفت امرأة أخرى معارضة بصوت أجح:

ـ لكنَّه نحيلٌ جداً. خارج من المستشفى، هه؟

وكان يمرُّ فلاح له وجه سكِّير مرحٌ ماكر، يرتدي سترة حلت أزرارها، فقال بغتة:

ـ يظهر أنَّهُنَّ بناتٌ من أعلى الشرائح. لكن هذا لا يغطي أنوفهن الفطحاء!

وأضاف:

ـ أرأيت هذا المرح ما أحلاه.

قالت له إحداهن:

ـ هيا ادخل ما دمت قد وصلت.

ـ فوراً، يا حلوة، يا غالية، فوراً.

أجابها الفلاح، وهرول يهبط الدرجات.

وأراد راسكولنيكوف أن يستأنف السير. ولما همَّ أن يستدير لينصرف، هتفت الصبية:

ـ اسمع يا سيدي!

ـ ماذا؟ ارتبكت وأردفت:

ـ سيسعدني جداً، أيها السيد، أن أقضي معك بضع ساعات، ولكنني... أشعر الآن بخجل غامر منك. هلا أهديتني ستة كوبيكات أشرب بها كاساً، أيها الفارس البارع!

أخرج راسكولنيكوف من جيبه ما وقع تحت يده: ثلاث قطع نقدية من فئة الخمسة كوبكات.

ـ آ... يا لك من سيد سخي!

ـ اسمك؟

ـ سل عن دوكليدا فقط، فتجاب.

وقالت امرأة من جماعة النساء، وهي تومئ على دوكليدا بإشارة من رأسها:

ـ ما أعجب هذه الأساليب! كيف ترضى هذه البنت أن تستعطي هكذا؟ لو كنت في مكانها لآثرت أن أدفن نفسي في التراب من شعوري بالخزي والعار!

نظر راسكولنيكوف إلى المرأة المتدخلة من دون لباقة، نظرة مستطلعة. هي مومس في نحو الثلاثين من العمر، مجدورة الوجه منتفخة الشفة العليَّا، تغطي بشرتها كدمات زرقاء. ولقد قالت عتابها بلهجة هادئة جادة.

تساءل راسكولنيكوف وهو يستأنف سيره: "تُرى أين قرأت أن رجلاً مداناً بالإعدام قد قال أو تخيل قبل إعدامه بساعة أنَّه لو اضطر أن يعيش في مكان ما، على قمة، فوق صخرة، في حيِّزٍ لا تربو مساحته على موطئ قدم، وكان كل ما حوله هوة سحيقة، خضماً كبيراً، ظلمات أبدية، عزلة خالدة، زوابع لا تهدأ، وكان عليه أن يبقى واقفاً على موطئ القدم هذا مدى الحياة، بل ألف سنة، بل أبد الدهر، لظل مع ذلك يؤثر أن يعيش هذه العيشة على أن يموت فوراً، أن يعيش فحسب، أن يعيش! أن يعيش أية عيشة، ولكن أن يعيش... ما أصدق هذا الكلام! ربَّاه. ما أصدق هذا الكلام!...."

قال راسكولنيكوف هذا، ثم أردف بعد لحظة:

ـ الإنسان سافل، ولكن سافل أيضاً ذلك الذي يصفه بالسفالة لهذا السبب! ودخل في شارع آخر. ما لبث أن خاطب نفسه: "هه! هذا "قصر الكريستال" تكلَّم عنه رازوميخين منذ بعض الوقت.... ماذا كنت أريد أن أعمل؟ نعم نعم كنت أريد أن أقرأ... ذكر زوسيموف أنَّه قرأ في الجرائد..."

ـ هل عندكم صحف؟

كذلك سأل راسكولنيكوف وهو يدخل حانة واسعة، نظيفة، من عدة قاعات، ومع ذلك خالية إلا من نفر قليل. كان ثمت شخصان أو ثلاثة يحتسون

الشاي، وفي قاعة أخرى، في طرف الحانة، جلست جماعة من أربعة أشخاص يشربون الشمبانيا، اعتقد راسكولنيكوف أن زاميوتوف أحدهم. ولكن المرء لا يمكن أن يكون واثقاً كل الثقة من صدق رؤيته، على مسافة بعيدة هذا البعد.

قال لنفسه: وأي ضررٍ في هذا؟.

سأله الخادم:

ـ هل تريد فودكا؟

ـ بل هات لي شاياً. وجئني بصحافة اليوم والقديمة. جرائد الأيام الخمسة الأخيرة. سوف أنفحك بقشيشاً سخياً.

ـ حاضر. إليك صحف اليوم. وهل تريد فودكا أيضاً؟

ووصلت الجرائد والشاي. جلس راسكولنيكوف وانكبَّ على الجرائد باحثاً منقباً: "ايسلر ـ الارتيكان ـ بارتولا ـ ماسيمو ـ إلى الشيطان كل هذا.... آ... أخيراً... هذه هي الأنباء المتفرقة... سقوط فوق السلم"، تاجر سكران يحترق حيا"، حريق في حي الرمال"، "حريق في حي بطرسبورجسكايا"، "حريق آخر في حي بطرسبورجسكايا، وحريق ثالث في نفس الحي"

آ... وصلنا...

وجد راسكولنيكوف أخيراً ما كان يبحث عنه، وراح يقرأ. إن الأسطر تتراقص أمام عينيه، ولكنَّه قرأ "النبأ" حتى نهايته، وطفق يبحث بشراهة ونهم، عن تفاصيل جديدة في الأعداد التالية، فكانت يداه ترتجفان من نفاذ الصبر وهو يتصفح الجرائد. وفجأة جاء أحد فجلس إلى منضدته، بقربه. رفع راسكولنيكوف عينيه. كان الجالس قربه زاميوتوف، زاميوتوف نفسه بلا تبدل ولا تغير، زاميوتوف، بخواتمه وسلاسله، والفرق الذي يشطر شعره الأسود العكف المطيب، والصدرية الأنيقة، والبدلة الخلقة إلى حد ما، والقميص الذي ذهب بعض رونقه. كان زاميوتوف مرحاً، أو قل على الأقل أنَّه

كان يبتسم بكثير من المرح والطيبة. وكان وجهه الأسمر يبدو ساخنا بعض السخونة من الشمبانيا التي شربها...

بدأ يتكلم مدهوشاً فقال مدهوشاً بلهجة من يعرفه منذ مُدَّةٍ طويلة:

ـ كيف؟ أأنت هنا؟ أمس قال لي رازوميخين أنَّك لم تفق من غيبوبتك. شيء عجيب. هل تعلم أنني زرتك في مرضك؟

كان راسكولنيكوف يعرف أن زاميوتوف سيتعرض له. فوضع الجرائد جانباً، والتفت إليه. إن ابتسامة ساخرة تطوف بشفتيه، ويرى المرء في هذه الابتسامة، منذ الآن، صبراً نافذاً وغيظاً شديداً.

أجابه يقول:

ـ أعرف أنَّك زرتني. حُكي لي هذا. حتى لقد بحثت عن جوربي. ولكن هل تعلم أن رازوميخين مجنون بك، قال لي إنَّكما ذهبتما معاً إلى لويزا إيفانوفنا... نعم، تلك التي حاولت أن تدافع عنها في ذلك اليوم، غامزاً الضابط بارود الذي لم يفهم من غمزك شيئاً. ألا تتذكر؟ كيف أمكن أن الإشارة كانت واضحة، هه؟

ـ يا له من رجل صخَّاب!

ـ من؟ الضابط بارود؟

بل صديقك رازوميخين.

ـ إنَّك تعيش حياة فرحة يا سيد زاميوتوف. تستطيع ان تذهب إلى الأماكن الممتعة اللذيذة دون أن تنفق قرشاً وأحداً. قل لي: من ذلك الذي أقراك الشامبانيا منذ قليل؟ نعم شربنا شمبانيا... أمعقول أنَّه أقرأني...

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ساخراً:

ـ أعرف هذه أرجوك. أنت تجني نفعاً من كل شيء. ثم أضاف وهو يربت على كتف زاميوتوف:

ـ لا ضير يا صاحبي، لا ضير... انا لم أقل ما قلت عن نية سيئة. وإنَّما عن

محبة ومودة، من باب التسلية"، كما قال الدَّهان حين كان يضرب ميتكا. أنت تعرف هذا في قضية مقتل العجوز...

ـ ولكن كيف تعرفه أنت؟

ـ أنا؟ ربما أعرف أكثر مما تعرف.

ـ أمرك عجيب... أغلب الظنِّ أنَّك ما تزال مريضاً. ما كان الخروج مقبولاً.

ـ أيبدو لك أمري عجيباً؟

ـ نعم.

ـ تتحدث الجرائد كثيراً عن حرائق.

ـ نعم، ولكن ليست الحرائق هي التي تهمني أنا!

قال ذلك ونظر إلى زاميوتوف نظرة ظلمية، وعادت بسمة ساخرة تعقف شفتيه، ثم أضاف وهو يغمز بعينيه:

ـ أيها الشاب اللطيف أنَّك تتحترق شوقاً إلى أن تعرف ماذا كنت أقرأ!

ـ غير صحيح! لقد ألقيت عليك ذلك السؤال كما يمكن أن ألقي عليك أي سؤال آخر. أليس من حق أحد أن يلقي سؤالا؟ ما تبلغ دائماً هذا الشطط من ...

ـ اسمع، أنت رجل متعلم، مثقف، هه؟

أجاب زاميوتوف بوقار:

قضيت في المدرسة الثانوية ست سنين.

ـ ست سنين؟ يا للفتى الظريف! وله إلى ذلك في شعره مزق، وله في أصابعه خواتم... هو رجل غني. يا للشاب اللطيف!

قال راسكولنيكوف ذلك وانفجر يضحك أمام أنف زاميوتوف ضحكة عصبية. فتراجع زاميوتوف إلى وراء لا لأنَّه انزعج بل لأنَّه دهش.

كرر يقول بلهجة الجد:

ـ حقاً عن أمرك لعجيب! كأنَّك ما تزال تهذي!

ـ أنا؟ أهذي؟ أخطأ ظَنُّكَ أيُّها الفتى الظريف! أمري عجيب، هه؟ أنا }أثير

فضولك، أليس كذلك؟ هه؟ أأثير فضولك؟

ـ نعم!

ـ الخلاصة... أنت تريد أن تعرف عمَّ كنت أبحث. تريد أن تعرف ماذا كنت أقرأ، أليس كذلك؟ انظر كم عددٍ من الجرائد طلبت! هذا يبعث على شبهة قوي، هه؟

ـ هلا قُلت إذاً!

ـ أتتوقع مفاجأة؟

ـ أي مفاجأة؟

ـ سأقول لك فيما بعد. أما الآن، يا صديقي العزيز، أنا أعلمك... عفواً... بل "أعترف" لك... لا ليس هذا هو التعبير الصحيح... فإنَّما التعبير الصحيح هو: "أدلي بإفادتي، وتسجل أنت". نعم هذا هو التعبير الصحيح. وها أنا ذا أدلي لك بإفادتي فأقول إنني أردت أن أقرأ، أنقب، وأن أمعن في التنقيب...

هنا زَرَ راسكولنيكوف عينيه وتوقف عن الكلام برهة ثم استأنف يقول همساً أو يكاد وهو يسرف في تقريب وجهه من وجه زاميوتوف:

ـ ان أمعن في التنقيب ـ وأنا ما جئت إلى هنا إلا لهذا الغرض ـ عن جميع الأخبار التي لها صلة بمقتل العجوز أرملة الموظف.

كان زاميوتوف يحدق إلى عيني راسكولنيكوف، دون أن يقوم بأية حركة، دون أن يبعد وجهه عن وجهه. إن الشيء الذي أثار دهشة زاميوتوف بعد ذلك أكثر من كل ما عداه، هو أن الصمت بينهما دام عندئذ دقيقة كاملة، دون أن يكف أحدهما عن التحديق إلى صاحبه والتفرس فيه.

صاح زاميوتوف بغتة وقد نفذ صبرهُ وأصبح لا يعرف ما يجب أن يظن:

ـ طيب! وهل يعنيني أنا أن تقرأ أنت هذا النبأ أو ذاك من الأنباء؟ فهمس راسكولنيكوف دون أن يحرك ساكناً بسبب صيحة زاميوتوف:

ـ الأمر يتعلق بتلك العجوز نفسها التي أغمي عليَّ في قسم الشرطة منذ ما

جرى الحديث بشأنَّها. أفهمت الآن؟

رد زاميوتوف وقد أوشك أن يتولاه القلق:

ـ ما يجب أن أفهم؟ ما الذي يجب أن أدركه؟

ما أن سمع راسكولنيكوف هذا حتى تبدل محياه الهادئ خلل ثانية واحدة، وإذا به ينفجر ضاحكاً بعصبية كما انفجر منذ قليل، حتى لكأنَّه لا يستطيع أن يمسك عن الضحك . وفي مثل وميض البرق سرعة، طافت في خياله بوضوح جبَّار ذكرى الإحساس الذي شعر به من قبل، حين كان واقفاً وراء الباب، ماسكاً فأسه، يرى المزلاج ينهز، بينما كان الرجلاًن، في الجهة الأخرى من الباب، يشتمان وهما يحاولان فتح الباب، فأحبَّ هو على حين بغتة أن يهينهما، وأن يقيء لهما سيلا من الشتائم، وأن يمد لهما لسانه، وأن يُصعِّرَ لها خده، وأن يضحك، أن يضحك ويضحك!...

قال زاميوتوف:

إما أنَّك مجنون، وإما أنَّك...

ولكنَّه لم يتمَّ الكلام، كأنَّما فكرة ومضت له على حين غرة:

ـ وأما ماذا.... إما ماذا؟ ماذا؟ هيَّا قل!

رد زاميوتوف غاضباً:

ـ لا، لا شيء، هذا سُخف!

وصمت الاثنان. ثم ظهر على براسكولنيكوف، بعد انفجاره المفاجئ وضحكته العصبية، أنَّهُ قد حزن حزناً مفاجئاً حالماً، وهو يضع كوعيه على المنضدة ويسند رأسه بيديه. قد بان عليه أنَّه نسي زاميوتوف نهائياً. ودام الصمت طويلاً.

قال زاميوتوف:

ـ لم لا تشرب الشاي؟ ها هو يبرد...

ـ ماذا؟ الشاي؟ نعم...

وحسا راسكولنيكوف الشاي، وابتلع شقفة خبز، حتى إذا ألقى بصره على زاميوتوف بدا عليه أنَّه تذكر كل شيء فجأة، وكمن يطرد عنه الخمود والخور. واستردَّ على الفور وجهه ما كان يعبر عنه منذ قليل من سخرية. وتابع احتساء الشاي.

قال زاميوتوف:

ـ مثل هذه السرقات تكثر اليوم. إليك هذا المثال: قرأت مؤخراً في مجلة "أخبار موسكو" أنَّه قبض هناك على عُصبَةٍ كاملة من مزيفي النقد. هم شَرِكة حقيقية تزيف الأوراق المالية.

أجابه راسكولنيكوف هادئاً.

ـ قرأت هذا منذ شهر. هذه حكاية قديمة. ثم أضاف مبتسماً:

ـ هم إذاً لصوص محتالون حسب رأيك؟

ـ لصوص محتالون لا بد!

ـ محتالون ولصوص؟ أرى أنا أنَّهم أطفال، أغرار سذَّج، لا لصوص محتالون أهو أمرٌ طبيعي أن يجتمع حوالي خمسين شخصاً لغاية كهذه؟ لو كانوا ثلاثة لكان عددهم هذا وحده كبيراً. وحتى في هذه الحالة يجب أن يثق كل منهم بغيره أكثر من ثقته بنفسه. إذ يكفي أن يزلَّ لسان أحد منهم أمام منضدة خمر، يثرثر قليلاً، حتى يتعطل الأمر كله. نعم، سُذَّج أغرار ولولا أنَّهم هكذا لما عهدوا إلى أناس لا يستحقون الثقة بأن يذهبوا إلى المصارف يبدلون أوراقهم النقدية المالية، هل يعهد بمهمة كهذه إلى أحد؟ ولنفرض الآن أن هؤلاء الأغرار قد نجحوا، فأصبح كل منهم يملك مليوناً. فماذا بعد ذلك؟ هل يمكن أن يستمر هذا إلى الأبد؟ أن يظلَّ كلُّ واحد رهناً بالآخرين مدى الحياة! إلا أن الانتحار شنقاً خيرٌ من هذا! ثم أن هؤلاء لم يحسنوا حتى تبديل أوراقهم المالية: الشخص الذي تقدَّم إلى شُباكِ الصرف قد ارتعشت يداه بعنف حين قبض الخمسة الآلاف روبل، هو لم يعد إلا أربعة منها وأخذ الخامس على الثقة،

قصد دسَّها في جيبه بسرعة والإدبار. لذلك أثار الشبهة. فسد الأمر كله بسبب ذاك الأبله. أممكن هذا فعلاً؟

ـ أن تكون يداه قد ارتجفتا؟ طبعاً..... هذا ما يمكن تصوره، بل طبيعي جداً. ثمت حالات تفقد المرء السيطرة على نفسه، حيثما يكون الأمر فوق طاقته

ـ أمعقول أن يكون هذا فوق الطاقة؟

ـ أتحافظ أنت على السيطرة على ذاتك في هذه الحال؟ أنا لن أتمكن من هذا! كيف يرضى إنسان أن يتعرض إلى هكذا خطر للحصول على مكافأة مائة روبل، مثلاً؟ كيف يمضي يبدل أوراقا مالية جزئية؟ وأين؟ في مصرف، حيث الموظفون مختصون بكشف التزوير! لا، لا، لو وقفت هذا الموقف لفقدت عقلي! وأنت؟ ألا تفقد في حالةٍ كهذه؟

شعر راسكولنيكوف فجأة، مرة أخرى، برغبة غريبة أن "يمدَّ لسانه" استهزاء! وكانت تتسرب في عروقه رعدات أحياناً.

ردَّ الرجل:

ـ لو كنت أنا مكان ذلك المسكين لتصرَّفت تصرفاً آخر. إليك ما أفعل: لرحت أعدُّ الألف الأولى مرة تلو أخرى أو أربعاً وأنا أقلب كل ورقة على جميع الوجوه وأتأملها من جميع ثناياها، ثم لسحبت ورقة من الحزمة من ذات الخمسين روبل أو كوبيك، ورحت ملء الضوء أقلبها وأقلبها كمن يخشى التزييف، ثم أروح أقص حكاية أخرى. حتى إذا وصلت إلى الألف الثالثة كررت العمل أو ما يشبهه، بالنظر والتأمل والاستشفاف، وهكذا دواليك إلى أن ينضح الرجل دماً وماء، أخيراً أتوجه إلى الباب، لا، عفواً، ليس بهذه البساطة.... نعم كذلك يمكن أن أتصرف.

عقب زاميوتوف، وهو يضحك:

ـ فعلاً إنَّك تأتي بأشياء مدهشة! مع أن هذا كله كلام. أما الواقع، لا

ريب أنَّك كنت ستَفضَحُ نفسك. هل لك أن تسمع رأيي؟ إليك إذاً: أرى أن أحداً لا يستطيع أن يسيطر على أعصابه. وليس يصدق هذا عليك وعليَّ ليس إلا، بل على أمهر سارق وأحقر وغد. اسمع التالي: قُتِلت في حين امرأة عجوز. أتخيل أنَّ الذي ذبحها سفاحٌ رهيب، لم يحجم عن ارتكاب ما ارتكب في وضح النهار، ثم تمكن أن ينجو بأعجوبة. ومع ذلك ارتجفت يدا ذلك القاتل: لم يحسن السرقة، لم يصمد. الوقائع تبرهن على ذلك؟ حاولوا إذاً أتقبضوا عليه!

هتف راسكولنكوف بلهجة تحدٍّ فيها شيء، من ابتهاج خبيث.

علَّق زاميوتوف.

- سنقبض عليه حتماً!

- من؟ أنتم؟ ستقبضون عليه أنتم؟ مستحيل! أليس الأمر الرئيس في نظركم هو أن تعرفوا هل الشخص الذي تشتبهون به ينفق مالاً أم هو لا ينفق؟ تقولون لأنفسكم: فلان ما كان يملك في السابق مالاً، وها هو ذا ينفق الكثير على حين بغتة. فكيف لا يكون هو الجاني؟ ألا إن طفلا يستطيع أن يضللكم حين يبغي!

أجاب زاميوتوف:

- كل ما في الأمر أنَّهم كُلُّهم يتصرفون تصرفات متشابهة. الجأنني يرتكب جريمته ببراعة وحذق ما استطاع، يعرِّضُ حياته للخطر، ثم يمكن من يتعقبه أن يقبض عليه في حانة. هو في أثناء بعثرة المال يقبض عليه... ليس كل الجناة ثعالب مثلك. أنتَ مثلاً، لا يمكن أن تذهب إلى حانة، وإذا كنت قد....

قطب راسكولنيكوف حاجبيه وحدق إلى زاميوتوف بطرفة عين حانقة، ثم قال متجهاً:

- يبدو أنَّك تموت شوقاً لمعرفة ما كان يمكن أن أفعله في مثل هذه الحالة.

فأجاب زاميوتوف برصانة:

ـ نعم، أتمنى هذا. وكان في صوت زاميوتوف نظرة جد مبالغ.

سأل راسكولنيكوف:

ـ هل تتمنى هذا من أعماقك؟

ـ نعم.

فشرع راسكولنيكوف يتكلم فقال لصاحبه وهو يدني وجهه مرة أخرى، ويحدق إليه بنظرة ثابتة من جديد، قال همساً، حتى إن صاحبه أحسَّ هذه المرة برعدة تسري في حناياه.

ـ اسمع إذاً ما كان في المجال أن أصنع! لو كنت أنا القاتل لأخذت المال والأشياء وخرجت من البيت، ومضيت فوراً دون أن أضيع دقيقة واحدة، ودون أن أدور وألف الشوارع دورة واحدة. إلى مكان منعزل هو حديقة محاطة بحاجز مثلاً، وأكون قد حددت سلفاً، وفي تلك الحديقة أو تلك العرصة، بالقرب من السياج الشائك، صخرة كبيرة وزنها 20كغ تقريباً أو أكثر، لعلَّها رميت هنا منذ أن بني البناء، وها أنا الآن أزحزحها فلابد أن تكون الأرض تحتها مقعرة وأدفن المال والأشياء في هذه الحفرة. حتى إذا انتهيت من مهمتي، انصرفت لا ألوي على شيء، ثم لبثت بعد ذلك سنة أو سنتين أو حتى ثلاث سنين أمتنع عن زيارة المكان وآخذ الغنيمة. هلمَّ فابحث إذاً وما رأيت ولا عرفت!

قال زاميوتوف الذي أخذ يهمس هو الآخر، دون أن يعرف السبب، قال وهو يبتعد بغتة عن راسكولنيكوف:

ـ أنت مجنون!

سطعت عينا راسكولنيكوف، واصفرَّ وجهه شحوباً، ارتجفت شفته العليا، ومال حتى اقترب من زاميوتوف، وحرك شفتيه دون أن ينطق كلمة واحدة. وانصرم نصف دقيقة. كان راسكولنيكوف يعرف ماذا يفعل، ولكنَّه لا يستطيع أن يتحكم بسلوكه. إن كلمة رهيبة كانت تحاول أن تنطلق من فيه، كما كان المزلاج، في ذلك اليوم، يهم أن يخرج من الرزة. كانت

الكلمة توشك أن تفلت بين لحظة وأخرى، كان راسكولنيكوف يوشك أن ينفثها، أن يزفرها.

فجأة هتف:

ـ ماذا لو كنتُ أنا من قتل العجوز وألزافيتا؟

لكنه رجع إلى وعيه وكبح لسانه.

تأمله زاميوتوف مرتاعاً، فانكفأ لونهُ حتى صار كغطاء المائدة بياضا، وتجعدت شفتاه عن ابتسامة، وسأله همساً:

أهذا ممكن؟

ألقى عليه راسكولنيكوف نظرة خبيثة، وقال له:

ـ اعترف بأنك صدقت، أليس كذلك؟ اعترف!

سارع زاميوتوف إلى الإدلاء:

ـ لا لم أصدق قط.... واستبعد الآن ذلك أكثر مما استبعدته في وقت مضى!

ـ وقعت أخيراً في الشبك! إذاً صدقت في أحد الأيام، ما دمت تقول أنَّك تستبعده الآن أكثر مما استبعدته في أي يوم مضى.

صاح زاميوتوف مرتبكاً بوضوح:

ـ لا... أبداً!... أمن أجل أن تصل إلى هذه النتيجة أخفتني؟

ـ أأنت لا تصدق إذاً؟ فيم تكلمتم، في ذلك اليوم، حين خرجت أنا من القسم؟ ولماذا أخذ الضابط "بارود" يستجوبني بعد أن صحوت من الإغماء؟

قال راسكولنيكوف ثُمَّ راح ينادي خادم الحانة وهو ينهض ويتناول قبعته:

ـ هيه! يا أنت! الحساب!

هرع الخادم إليه:

ـ ثلاثون كوبيكاً.

ـ خذ وهذه عشرون لك كرامة!

ثم قال لزاميوتوف وهو يمدُّ له يده مرتعشة بأوراق مالية:

- أرأيت؟ أوراق حمراء، وأوراق زرقاء! المجموع: خمسة وعشرون روبلاً! فمن أين جاءتني هذه الأوراق؟ ومن أين جاءني ثمن ثياب جديدة؟

أنت تعلم أنني لم أكن أملك كوبيكاً واحداً. أراهن أنك استجوبت صاحبة البيت الذي أقيم فيه! ولكن كفى الآن ثرثرة! إلى اللقاء. لك خالص تمنياتي!

وخرج راسكولنيكوف مختلجاً بنوع من إحساس غريب، إحساس هستيري، تخالطه مع ذلك لذَّةٌ عظيمة. ولكنَّه ظلَّ في الواقع معكراً خائر القوة. كان محياه مقلصا كأنَّه خارج من نوبة. وازداد بسرعة إعياؤه. هو الآن، لدى كل إحساس جديد، وعند كل صدمة جديدة، تستيقظ فيه قواه وتعود إليه، ولكن هذه القوى تخور بسرعة أيضاً، مع زوال الصدمة وإمحاء الإحساس.

وحين أصبح زامينوتوف وحيداً، لبث جالساً إلى تلك المنضدة نفسها مدة طويلة، غارقاً في تأمله. لقد قلب له راسكولنيكوف كل أفكاره فيما يخص نقطة معينة رأساً على عقب، دون أن يعرف ذلك، وجعل رأيه يستقر استقراراً متيناً لا عودة عنه، ويثبت لا يتزحزح. قال لنفسه جازما:

"إن إيليا بتروفتش غبي!"

ما كاد راسكولنيكوف يفتح باب الحانة المفضي إلى الشارع، حتى كان رازوميخين على درجات المدخل يهمُّ أن يدخل. إنَّما لم ير أحدهما الآخر، رغم قصر المسافة، حتى أوشك رأساهما أن يتصادماً. ولبثا لحظة يشمل كل منهما صاحبة بنظره. ولقد ذهل رازوميخين ذهولاً ما عرفه أحد. غير أن غضباً مباغتاً عنيفاً سرعان ما بدا في عينيه ببريق رهيب.

زأر يقول بصوت جهوري:

آه.... أهنا أنت؟ قام عن سريره، هرب من بيته! أتعرف أنني بحثت عنك

تحت السرير؟ بل لقد صعدنا إلى العليَّة نبحث عنك! وأوشكت بسببك أن أضرب ناستاسيا! انظروا أين هو! روديا، ما معنى هذا؟ قل لي الحقيقة كلها! اعترف! هل تسمع؟

رد راسكولنيكوف بهدوء:

- معناه أنني سئمتكم جميعاً إلى حدِّ الموت، وأريد أن أعيش وحدي.

- وحدك؟ بينما تكون عاجزاً حتى عن المشي، بينما شحب وجهك أشبه بالموت، بينما أنت تختنق طول الوقت؟ ألا أنَّه لأبله! ماذا جئت تعمل في "قصر الكرستال"؟ اعترف، اعترف فوراً.

- اتركني.

قال راسكولنيكوف، وأراد أن يمشي متخطياً رازوميخين فغضب غضباً شديداً، وخرج عن طوره، فأمسك صاحبه من كتفه إمساكا قوياً، وصاح يقول له:

- أتركك؟ أتجرؤ أن تقول: "اتركني"! اسمع إذاً: هل تعرف ما فاعل بك؟ سأقبض عليك، فأربطك كمصرة، ثم أنقلك إلى البيت فأحبسك فيه مقفلاً الباب بالمفتاح!

بدأ راسكولنيكوف يتكلم في رفق، فقال بلهجة تبدو هادئة جداً:

- اسمع يا رازوميخين! ألست أنت من يرى أنني لا أريد نعمك وأياديك علي؟ ما حاجتكم دائماً إلى أن تغمروا بالنعم أولئك الذين لا يعبأون بها، أولئك الذين لا يستطيعون حقاً أن يتحملوها؟ لماذا سعيت إليَّ في بداية مرضي؟ لعلَّه كان يسعدني جداً أن أموت. أفلم أفهمك اليوم بشكل كافٍ أنَّك تعذبني، .... وأنك تزعجني وتضايقني؟ لماذا تعذبون الناس دائماً؟ أؤكد لك أن هذا كله يؤخر شفائي، لأنَّه يضعني في حالة بلبلة مستمرة. انظر إلى زوسيموف: لقد انصرف حتى لا يهيجني، اتركني بسلام أنت أيضاً، ناشدتك الله! ثمَّ أي حق لك في أن تحتجزني؟ ألا ترى أنني أملك الرشد التام وأنا أكلمك الآن؟ قل لي:

بأية وسيلة أستطيع أن أمنعك بالتشبث بي بعد الآن، وأن أحملك على ألا تغدق عليَّ نعمك وآلاءك هذه؟ افترض أني عقوق، افترض أنني سافل، ولكن دعوني، لكم، كرمى للّه، اتركوني، انصرفوا عني!

كان راسكولنيكوف قد بدأ كلامه بصوت هادئ، متلذذاً منذئذٍ بالسم الذي سيبثه، ولكن أنهى حديثه مهتاجاً خارجاً عن ذاته محتبس الأنفاس مختنق الصدر، كما حدث له منذ بعض الوقت مع لوجين.

فكَّر رازوميخين لحظة ثم ترك ذراع صاحبه، وقال لهُ بهدوء، شارد الفكر تقريباً:

ـ اذهب إلى الشيطان.

فلما هم راسكولنيكوف أن ينصرف، زأر يقول له فجأة:

ـ انتظر! أصغ إلي! إنني أعلن أنَّكم جميعاً، لستم إلا ثرثارين صغاراً، ومتبجحين تافهين! إنَّكم ما أن تصابوا بشر حتى تتمسكوا به وتحتضنوه كما تحضن الدجاجة البيض. وحتى في هذا أنتم تسرقون الكتُّاب الأجانب! ليس فيكم ذرَّة من حياة، من حياة شخصية أصلية! ليس ما يجري في عروقكم دماً بل مصالة. وأجسامكم مصنوعة من مرهم ناعم. ما من أحد منكم يوحي بأي ثقة. همكم الأول في جميع الظروف ألا تسلكوا كما الرجال.

وهنا رأى أن الرجل يهُمُّ أن ينصرف مرة أخرى، فصرخ يقول وقد تضاعف غضبه:

ـ ف.... ف! أصغ لي حتى النهاية. أنت تعلم أنني أحتفل الليلة بانتقالي إلى المسكن الجديد. وربَّما كان ضيوفي قد وصلوا... على أنني تركت هناك عمي لاستقبالهم ( كنت أنا هناك للتو)... فإذا لم تكن أبله، كل البلاهة، مبتذلاً، إذا لم تكن ترجمة لأصل أجانبي... اسمع يا روديا، أنا أعلم أنك شاب ذكي، ولكن هذا لا يحول دون البلاهة.... فإذا لم تكن أبله، فإن مجيئك إلي لقضاء

السهرة عندي خير لك من أن تُبلي نعليَّ حذائيك متسكعاً في غير طائل، ما دمت خرجت... وسآتيك بمقعد مريح ... فعند أصحاب البيت الذي أقطن فيه مقعد من هذا النوع... وتشرب فنجاناً من الشاي، وتجالس الناس.... بل هناك ما هو خير من هذا:

سأرقدك على مضجع، وتكون بيننا على الأقل... وسيجيء زوسيموف أيضاً... سوف تأتي، هه؟

- لا.

هتف رازوميخين نافدُ الصبر:

- كذاب! من أين لك أن تعرف؟ أنت لا تعرف نفسك. كما أنك لا تعي من شؤون الدنيا شيئاً. لقد حدث وبصقت على الناس غير مرة، ثم سعيت وراءهم. سوف تخجل من هذه العواطف، وسوف تعود إلى البشر. تذكر عنواني إذاً: عمارة بوتشنكوف، الطابق3.

- يخيِّل لي حقاً يا سيد رازوميخين أنَّك مستعدٌّ لأن تُضرب كي يكون لك على أحد فضل أو منة.

- أنا؟ بل مستعدٌّ أن أجدع أنف من توسوس له نفسه بهذا! تذكر إذاً عمارة بوتشنكوف، رقم 47، بيت الموظف بابوشكين.

- لن أجيء يا رازوميخين.

هكذا أجاب راسكولنيكوف ثم دار وانصرف.

صرخ رازوميخين وراءه:

أراهن أنَّك ستجيء... وإلا أصمم ألا أراك ما حييت! اسمع:

زاميوتوف في الحانة؟

- نعم.

- رأيته؟

- رأيته.

ـ كلمته؟

ـ نعم.

ـ عمَّ تكلمتما؟ هيا، لا تقل إذاً كنت لا تريد. إلى جهنم! العنوان عمارة بوتشكنوف، 47، شقة بابوشكين. تذكر العنوان!

مضى راسكولنيكوف حتى شارع سادوفايا ثم انعطف وغاب. وقد تابعه رازوميخين بنظرة شارب اللب حالماً، ثم أشاح بيده تعبيراً عن عدم الاكتراث، ودخل لكنَّه لم يلبث أن توقف في وسط السُلَّم، وشرع يحدث نفسه بصوت مسموع:

"شيطان يخنقه! يتكلم كما يتكلم إنسان سليم العقل، ومع ذلك يشبه أن يكوف... ولكن ما أغباني! ألا يتكلم المجانين ما يعقل؟ ثم وهذا بهذا بذاته هو ما يخشاه زوسيموف حسبما أتخيل... وهنا لطم رازوميخين جبهة رأسه وتساءل:

ـ ما عسى يحدث لو... كيف أتركه وحده في هكذا لحظة؟ من الممكن جداً أن يلقي بنفسه في الماء. آه... هذه حماقة جسيمة! ما كان ينبغي لي أن أتركه ينصرف!" وسارع رازوميخين يتبع راسكولنيكوف، ولكن لم يكن قد بقي لراسكولنيكوف أثر. بصق رازوميخين على الأرض ورجع إلى "قصر الكريستال" بخطى واسعة ليسأل زاميتوف بأقصى سرعة.

مضى راسكولنيكوف قدماً إلى جسر "ص...."، توقف في مركزه، ووضع يديه على الأفريز، وشرع يرحل بنظره إلى بعيد. فبعد أن ودَّع رازوميحين قد بلغ من الخور والوهن أنَّه وصل إلى هنا بمشقة لا توصف، بل كان يجرُّ ساقيه. تمنى لو يرتاح في أي حيز، أن يضجع في عرض الشارع! مال على الماء، وبدأ يتأمل دونما قصد نهايات انعكاسات الشمس الغاربة الوردية. وإلى رتل المساكن الذي يتكاثف في الغسق شيئاً فشيئاً. هذه غرفة بعيدة من الغرف التي تقع تحت السقوف على الكورنيش إلى اليسار حيث تلمع نافذتها بعنف

فتشبه حريقاً، تحت شعاع الشمس الذي أنارها بقوة لحظة واحدة. وهذا ماء القناة يعتم أكثر فأكثر. بدا راسكولنيكوف كمن يتطلع إلى الماء بتأمل. ثم إذا بدوائر حمراء تروح تدور أمام عينيه، وإذا بكل شيء، المارة والأرصفة والمساكن والعربات تدور حواليه وتزيغ. وهنا ذا يرى منظراً رهيباً فإذا به يرتجف وينجو من إغماء. كان قد أحس أحداً وقف إلى يمينه، فنظر فرأى امرأة فارعة الطول، على رأسها نقاب، ذات وجه واه هزيل مستطيل، وعيناها كانتا غائرتين في المحجر. كانت السيدة تتملاه بإلحاح، إنَّما كان جلياً أنَّها لا تبصر ولا تميز شيئاً. وها هي تضع ساعدها الأيمن قائماً فوق الأفريز، ثم ترفع قدمها اليمنى فتخطو خطوة ثم بأخرى وإلى الماء. انشق الماء الموحل وأبتلع ضحية، لكن هذا الجسد الخائر ما لبث أن ظهر، ثم جرى مع التيار بكل بطء، ولقد انتفخ ثوبها كأنها وسادة.

صرخت عشرات الأصوات:

ـ إنَّها تغرق، إنَّها تغرق!

هرع الناس، وسرعان ما غص بهم الرصيفان واحتشد الجمهور فوق الجسر حول راسكولنيكوف يدمه ويعصره من الوراء.

وأردفت امرأة تقول، من مكان غير بعيد، بصوت نادب شاك:

ـ رباه هذه صاحبتنا أفرو سينوشنكا. أنقذوها أيَّها الأخيار الطيبون!

أخرجوها يا أيَّها المحترمون.

ـ هاتوا قارباً، عليَّنا بقارب

إنما لم يبق ثمة داع لقارب: فإن شرطياً من شرطة المدينة أسرع يهبط سلماً يفضي إلى القناة، ثم خلع معطفه وحذائيه، وألقى بنفسه في الماء، ولم يلق عناء كبيراً في اللحاق بالمرأة الغريقة، فإن تيار الماء قد حملها حتى صارت على بعد خطوتين من الضفة . قَبض على ثوبها بيده اليمنى، وأمسك باليد اليسرى عصا مدها إليه زميله، حتى أخرجت المرأة من الماء، وأضجعت على الدرجات

الصخرية، ولم تلبث أن عاد إليها وعيها، فنهضت وجلست، وأخذت تعطس وتشخر وتمسح بيديها ثيابها المبتلة بحركة لا إرادية. ولم تفه بكلمة.

ندبتها امرأة من الجوار، قالت:

- لقد ركبها ألف عفريت أيُّها الأخوة والخمر هي السبب. حاولت من مدة أن تشنق نفسها واخرجنا رأسها من الحبل. ومضيت واليوم إلى البقال بعد أن اوصيتُ ابنتي بمراقبتها، لكن المصيبة وقعت.

تفرق الحشد، وظلَّ الشرطيان منهمكين حول المرأة الغريقة. وإذا بصوت يصرخ متكلماً عن شيء يتصل بقسم الشرطة... إن راسكولنيكوف ينظر إلى هذا كله وهو يحس إحساساً غريباً بعدم الاهتمام وقلة الاكتراث. وها هو يشعر بنفور وتقزز، ثم يجمجم في صدره: "لا، لا، هذا شيء يدعو إلى الإشمئزاز.... الماء... لا فائدة منه.... لن يحدث شيء... ما فائدة الانتظار إذاً؟

أمَّا قسم الشرطة.... ولكن لماذا غاب زاميوتوف عن القسم؟ وأدار راسكولنيكوف ظهره للإفريز، وتأمل حواليه.

ثم قال بلهجة حاسمة: ولم لا؟ ليكن!" وغادر الجسر واتجه إلى قسم الشرطة. كان قلبه خالياً مغلقاً. كان لا يريد أن يفكر. حتى القلق تبدد. لم يبق في نفسه أثر من انتفاضة القوة التي أخرجته من غرفته "لينتهي من الأمر" وحل محل تلك القوة خمول وهدوء وتبلد.

قال لنفسه وهو يسير على الرصيف القناة بمللٍ وكسلٍ وتوانٍ: "نعم، هذا أيضاً حل. سأنتهي من الأمر مع ذلك، لأني أودُّ أن أنهيه. إنَّما هل هذا هو الحل حقاً؟ آه... لا ضير... سيبقى لي بقعة لقدمي من هذه اليابسة، أقف فيه. ولكن يا لها من نهاية. هل يمكن أن يكون هذا نهاية؟ أأقول لهم الأمر أم لا؟ ولكن دعنا من هذا! إنني متعب مكدود مرهق. يجب أن أضطجع في الحال. يجب أن أستريح في مكان ما. من أين للبعض كل هذا الغبار المعيب؟ هيا، ابصق على هذا أيضاً! آه.... ما أكثر الحماقات التي يمكن أن تساور فكرنا أحيانا.

كان على راسكولنيكوف، من أجل الوصول إلى قسم الشرطة، أن يمضي في أول الأمر قُدَماً. ثم أن يلتفت يسرة عند الشارع الثاني. وكان قسم الشرطة يقع على بعد خطوتين من هنا. ولكنَّه توقف قبل أن يصل إلى المنعطف الأول، وفكَّر، ودخل في زقاق ضيق، ثم قام بجولة عبر شارعين، ربما من دون نية محددة تماماً. ولكن ربَّما ليهب نفسه مهلة جديدة، ليكسب فسحة من الزمن. كان يسير مطرقاً في الأرض. وبغتة أحسَّ كأن أحداً يهمس في أذنه، فرفع رأسه، فوجد نفسه أمام تلك العمارة. أمام مدخلها تماماً. فهو منذ ذلك المساء لم يكن قد عاد إلى المكان.

وهذه رغبة لا سبيل لمقاومتها ولا يمكن تفسيرها، تسيطر عليه وتستبد به. دخل العمارة، ونفذ إلى الباب الأول، الباب الأيمن، وأخذ يصعد السُّلَّم الذي يعرفه جيداً، حتى وصل إلى الطابق الرابع. كان ظلام حالك يلف السلم الضيق شديد الانحدار. وقد توقف راسكولنيكوف على فسحة السلم عند كل دور، فكان ينظر حواليه مستطلعاً مشوقاً. هذا زجاج النافذة في الطابق الأول قد خُلِعَ. قال راسكولنيكوف محدثاً نفسه: "إنَّه لم يكن هكذا في ذلك اليوم" ثم وصل إلى الشقة التي تقع في الطابق الثاني حيث كان يسكن نيقولاي ودمتري. "البيت مغلق، وقد أعيد دهن الباب. معنى ذلك أن البيت معد للإيجار". وهو الآن أمام الدور الثالث، ثم هذا هو الدور الرابع. "هنا". توقف راسكولنيكوف مُسمراً: كان باب البيت مفتوحاً بل مشرعاً، وفي البيت ناس، الحديث مسموع. راسكولنيكوف لم يتوقع هذا، وبعد بعض التردد، صعد الدرجات الأخيرة، ودخل البيت.

إنَّه يجدد أيضاً. فيه عمال. بدا راسكولنيكوف مندهشاً. كان يتصور دون أن يدري السبب، أنَّه سيجد البيت كما تركه بالضبط، حتى الجثتين كان يتصور أنَّهُ سيجدهما راقدتين على أرض الغرفة في ذلك الموضع ذاته. فماذا يرى الآن: جدراناً عارية، وما من أثاث! ما أغرب هذا! تقدم نحو النافذة

وجلس على حافتها. ما كان ثمت سوى عاملان اثنان. هما شابان ولكن أحدهما أكبر سناً من الثاني بكثير. كانا يغطيان الجدران بورق أبيض ذي أزهار صغيرة بنفسجية، بدلاً من الورق القديم الأصفر الحائل الممزق. شعر راسكولنيكوف من ذلك بأسفٍ شديد. وراح ينظر إلى الورق الجديد بغيظ، كان يتحسر على أن تغيراً قد حدث. يبدو أن العاملين أطالا عملهما وتأخرا. وهما الآن يرتبان لفافات الورق، ويستعدان للعودة إلى المنزل. لم يلفت راسكولنيكوف انتباههما. كان يدور بينهما حديث حماسي. صالب راسكولنيكوف ذراعيه على صدره وراح يصغي إلى حديثهما.

قال الكهل للشاب:

ـ جاءتني منذ الفجر، لابسة أحلى ثياب. قلت لها: "ما لكي تغنجين كل هذا" ردت: "أريد بعد الآن ياتيت فاسلفتش أن أكون لك بدناً وروحاً!" سمعت؟ وليتك رأيت الثياب التي عليها. كأنَّها مجلَّةٌ، مجلةٌ فعلاً.

أردف الشاب:

ـ ما هي هذه المجلة يا خال؟

كان واضحاً أن الشاب يتتلمذ على الكهل.

ـ المجلة يا أخي واحدة من تلك الصور الملونة التي تصل إلى الخياطين المحليين بالبريد من الخارج كل سبت. والغاية منها أن ترى الناس كيف يجب أن يختاروا ألبستهم، رجالاً ونساء. هي رسوم. فأما الرجال فثيابهم هي المعاطف أساسا، ولكن يجب أن ترى قسم ثياب النساء.... هناك حَدِّث ولا حرج..... مهما تقل عنها فلن تفيها حقها!

هتف الشاب متحمساً:

ـ ما أكثر ما يراه المرء في "بيتر"[1] هذه! يرى فيها المرء كل شيء فعلاً،

---

1 - أحد أسماء مدينة بطرسبورغ.

عدا أُمَّه وأبيه تابع الكهل برصانة:

ـ نعم، يرى كل شيء عدا أُمَّه وأبيه!

نهض راسكولنيكوف ومضى إلى الغرفة الثانية التي كانت في الماضي تضم الصندوق والسرير والخزانة ذات الأدراج. فلما رآها خاوية من الأثاث بدت له صغيرة جداً. لم يُبدَّلُ ورق جدرانها. وفي الركن، يُرى على ورق الجدران بوضوح ذلك المكان الذي كانت فيه الأيقونات. نظر راسكولنيكوف حواليه، ثم عاد إلى النافذة يجلس في حافتها. رمقه الكهل نظرة شزراء، وسألهُ فجأة:

ـ ماذا تريد هنا؟

لكن راسكولنيكوف لم يجب، بل نهض وخرج إلى فسحة السلم، أمسك بحبل الجرس وشدَّه. هو ذلك الجرس نفسه، والرنين ذاته. شدَّ الحبل مرة أخرى فثالثة. كان يصغي ويتذكر. عاوده الإحساس الذي لازمه ذاك اليوم، ذاك الإحساس الكاوي، عاوده بحدِّه يتفاقم أبداً. وكان يرتعش كلَّما رن الجرس، وكانت لذَّته تربو.

صرخ العامل وهو يخرج إلى فسحة السُّلَّم:

ـ ماذا تريد؟ من أنت؟

عاد راسكولنيكوف إلى الغرفة، وقال:

ـ أنا أبحث عن شقة للأجرة، وقد وصلت إلى هذا.

قال العامل:

ـ ما أحد يزور مسكناً في الليل. ثم عليك أن تصطحب البوَّاب.

تابع راسكولنيكوف كلامه:

ـ أرى أن الأرض قد غُسلت. هل سيعاد دهنها؟

لم يبق دم، هه؟

ـ دم؟

ـ قُتلت العجوز وأختها. كان ههنا بركة دم....

هتف العامل قلقاً:

ـ ولكن من أنت ؟

ـ أنا؟

ـ نعم أنت.

ـ تريد أن تعرف؟ تعال معي إذاً إلى قسم الشرطة. هناك أقول لك من أنا....

تأمل العاملان راسكولنيكوف مبهوتين. وقال الأكبر للأصغر:

ـ هلمَّ.... لقد آن لنا أن ننصرف. لا بل تأخرنا. هيا ايليوشا! يجب أن نغلق....

أردف راسكولنيكوف بهدوء:

ـ هلموا ننصرف!

وخرج أول الخارجين، هبط السُّلَّم ببطء، حتى إذا وصل إلى الباب المطل على الشارع، هتف للبواب:

ـ هيه! يا بواب!

وكان يقف عند باب العمارة عدَّة أشخاص ينظرون إلى المارة هم البوابان وامرأة وتاجر يرتدي ثوباً من ثياب المنزل، وغيرهم. مضى راسكولنيكوف إليهم قدماً.

سأله أحد البوابين

ـ ماذا تريد؟

ـ هل ذهبت إلى قسم الشرطة؟

ـ عدت منهُ لتوي ماذا تريد؟

ـ أما يزالون هناك؟

ـ ما يزالون.

ـ وهل كان مساعد مفوض الشرطة هناك أيضاً؟

ـ وكان مساعد مفوض الشرطة هناك أيضاً. ماذا تريد؟

لم يرد راسكولنيكوف وتسمر بين الواقفين مبهوتاً

اقترب الكهل وقال

ـ جاء يرى الشقة.

ـ أي شقة؟

ـ حيث نعمل. سألنا: "لماذا غسل الدم؟" ثم قال: "ارتُكِبَت هنا جريمة قتل، وأنا أريد أن أستأجر الشقة". وبدأ يشدُّ حبل الجرس، حتى كاد أنْ يقطعه. ثم قال:"هَلِمُّوا إلى قسم الشرطة، فسأقول لكم هناك كل شيء" وتشبث بنا بعنف.

نظر البواب إلى راسكولنيكوف متحيراً عابساً.

ثمُّ هتف يسأل مهدداً:

ـ ولكن من أنت؟

روديون رومانوفنش راسكولنيكوف، طالب سابق. وأسكن قريب من هنا، في زقاق مجاور، عمارة شيل، شقة 14، سل عني بوَّاب العمارة. هو يعرفني. قال راسكولنيكوف ذلك كله بلهجة وانية، شارد الذهن، حتى دون أن يلتفت، فقد كان يحدِّق إلى الشارع الذي اجتاحه الظلام منذ الآن.

ـ ولماذا جئت إلى هذه الشقة؟

ـ لأراها

ـ ماذا تريد أن ترى هناك؟

ـ ما رأيك أن نقتادك إلى قسم الشرطة، هه؟ كذلك قال التاجر فجأة، ثم أسرع يصمت

تأمله راسكولنيكوف، من فوق كتفه، تفرَّس فيه بانتباه، ثم قال له بلهجة ما تزال وانية هادئة:

ـ موافق، هلموا بنا إلى قسم الشرطة!

استأنف التاجر كلامه فقال بثقة أكبر:

ـ نعم، يجب اقتياده إلى قسم الشرطة، لماذا جاء إلى هناك، فذلك يدل على أن هناك شيئاً يشغل باله، أليس كذلك؟

جمجم العامل:

ـ أهو ثمِل أم لا؟ الله وحده يعلم!

وعاد البوّاب يصرخ وقد ظهر عليه الغضب حقاً:

ـ ولكن ماذا تريد؟ ما مجيئك إلينا لتزعجنا؟

قال راسكولنيكوف ساخراً:

ـ ها.... إنّك تخاف الذهاب إلى قسم الشرطة!

ـ مما عساني أخاف؟ ولكن لماذا تأتي علينا فتزعجنا؟

صرخت المرأة

ـ هذا لص!

فقال البواب الآخر، وهو رجل ضخم يرتدي معطفاً مفتوحاً، يحمل سلسلة مفاتيح:

ـ علام نناقشه؟ أخرج من هنا! حقاً أنت محتال.... هيا انصرف. أقول لك انصرف!

ثم أمسك راسكولنيكوف من كتفه، ورماه إلى الخارج، فترنح راسكولنيكوف وكاد يهوي على الأرض ولكنّه لم يسقط، ثم انتصب ونظر إلى جميع المشاهدين صامتاً ثمَّ مضى.

قال العامل:

ـ إنسان عجيب!

فعقبت المرأة:

ـ جميع الناس عجيبون في هذه الأيام!

وأضاف التاجر يقول:

ـ كان ينبغي مع ذلك أن نقتاده إلى الشرطة.

فقال البوَّاب الكبير يحسم المناقشة:

ـ لا داعي لاقتياده إلى الشرطة. هو محتال مشاكس ما في ذلك ريب ولو اقتدناه إلى الشرطة لما عرفنا كيف نتخلص منه، أنا أعرف أمثال هؤلاء الناس!...

تساءل راسكولنيكوف وهو يقف في عرض الطريق عند أحد المفارق وينظر إلى ما حوله كأنَّه ينتظر أن يهديه أحد إلى الحل الحاسم والقول الفصل: "أأ ذهب إلى الشرطة أم لا أذهب؟ ولكن ما من جواب جاءه من أي مكان. كان كل شيء أصمَّ ميتاً كالحجارة التي كان يمشي فوقها.... ميتاً بالنسبة لهُ وحده. وها هو يلمح فجأة، من بعيد، على مسافة مائتي خطوة، في آخر الشارع، في العتمة المشرئبة، ها هو يلمح حشداً، ثُمَّ يسمع جلبة. وكانت عربة تقف في لُجَّة الجمهور المحتشد. وومض في الشارع ضوء مصباح. فكَّر راسكولنيكوف "ماذا حدث؟" دار يمنه واتجه نحو الحشد. كان يبدو حقاً أنَّه يريد أن يتشبث بأي شيء، فلمَّا أدرك هذا ضحك ضحكة فاترة، لأنَّه كان يعرف أن قراره فيما يتعلق بالشرطة اتخذ وانتهى الأمر. وكان يعلم علم اليقين أن كل شيء سيكون بعد قليل قد انتهى.

# الفصل السابع

كانت تقف في وسط الشارع عربة أنيقة من عربات السادة، قرنت إلى حصانين أشهبين قويين مطهمين جامحين، وكانت خالية نزل حوذيها عن مقعده ووقف إلى جانبها يشدُّ الحصانين باللِّجام، وقد تجمهر حولها حشد من البشر، وراء حاجز من رجال الشرطة. وكان أحد رجال هذا السلك يحمل بيده مصباحاً مشتعلاً قد مال به إلى تحت يطيء بنور شيئاً كان يوجد على أرض الشارع ملتصقاً بالعجلات وكان جميع الناس يتكلمون، يصرخون ويتأوهون، وكان الحوذي مضطرباً يردد بين برهة وأخرى:

ياللمصيبة! رباه! ياللمصيبة!

استطاع راسكولنيكوف أن يشق لنفسه معبراً، فأفلح أخيراً أن يرى ذلك الشيء الذي يثير هذا الاضطراب القوي الشديد. أنَّه رجل يرقد على الأرض دامياً مغشياً عليه يرتدي ثياباً فقيرة رثَّة لكنَّها من ثياب "السادة" قد داسه الحصانان، فالدم يسيل من جمجمته ومن وجههِ المثخن المهشم، كان واضحاً أن الإصابة خطيرة.

صاح الحوذي نادباً نائماً:

يا رب السماء! كيف كان يمكن أن أتفاداه! لا العربة كانت مسرعة ولا أنا أسكتُ ولم أنبه! كانت العربة تسير بتؤدة، بهدوء. جميع الناس رأوا ذلك. إن أكذب إذاً كذب جميع الناس. ولكن السكران لا يرى حتى والشمس ساطعة.... هذا معروف. أبصرته يتخطى الشارع مترنحاً حتى ليكاد يتهاوى على الأرض من شدة السكر. صرخت أنبهه، مرة، مرتين، ثلاثاً.... ولجمت الحصانين، لكنه هو ذا يمشي اليهما قدماً فيسقط بين حوافرهما... فإما هو فعل هذا عامداً، وإما أن العمل قد أخذه من أمام ومن دبر. وفرساي مهران كميتان شموساً، يجمحان، ها هو يصرخ، يزعق ويزداد الجموح ويحدث ما

حدث:

نعم، هذا ما جرى:

وأردف صوت آخر:

نعم، زعق الحوذي، بل ثلاث مرات.

وهتف ثالث مؤكداً:

نعم، مرات ثلاث، جميع الناس سمعوا.....

على أن هذا الأخير ما كان منهاراً ولا خائفاً. وكان واضحاً أن العربة يملكها شخص ثريٌّ لابد أنَّه كان ينتظر وصولهما في مكان ما. هذه حقيقة بارزة أبداً لدى الشرطة طبعاً، ولن يسقطوها من حسابهم. لم يبق إذاً الا أن ينقل المصاب إلى قسم الشرطة في مشفى. ما كان أحد يعرف عنه شيئاً.

في أثناء ذلك، كان راسكولنيكوف قد تسلل إلى وسط الحشد، مال إلى الارض، فإذا المصباح الصغير يضيء وجه المحظوظ فجأة، فيتعرفه راسكولنيكوف على الفور.

صرخ وهو يندفع إلى الصف الأول:

أنا أعرفه! أعرفه! موظف محال على المعاش، المستشار الاعتباري مارميلادوف يسكن هنا في الجوار، في عمارة كوسل.... أسرعوا، نادوا طبيباً! سأدفع ! خذ....

قال هذا وأخرج من جيبه مالاً عرضه على واحد من الشرطة. كان راسكولنيكوف في حالة بلبلة و تشوش تبعث على الدهشة.

سُرَّ رجال الشرطة بمعرفة الشخص المصاب. وأسرع راسكولنيكوف يعرف بنفسه أيضاً، ذكر اسمه، عنوانه، و ألح بشدَّة، كما لو أنَّ المصاب أبوه، على أن ينقل مارميلادوف إلى مسكنه بأقصى سرعة. وكان المصاب مازال خارج الوعي و الرشاد. قال صديقه:

بيته هناك: بعد ثلاث عمارات، عمارة كوسل، الألماني الغني.... لا ريب أنَّه

ثمل راجع إلى داره. أنا أعرفه. إنه سكير.... لـه أسـرة وزوجـة، وأولاد، وبنـت. لم المشفى؟ هذا يكلف وقتاً عابثاً، والأرجح في عمارته نعثر على مسعف. سوف أدفع، نعم أدفع. وهكذا تستلمه أسرته وتعنى به. وإلا تعرض إلى النزاع الأخير قبل أن يصل المشفى.

وأفلح راسكولنيكوف بأن دسَّ قطعة نقد في يد أحد الشرطيين. وكانت القضية من جهة أخرى واضحة مشروعة. وبدا على كل حال أن نقل الجريح إلى بيته ابسط وأيسر. رُفع المصاب حُمل، فالمؤازرون كُثُر. كانت عمارة كوسل على ثلاثين خطوة. وكان راسكولنيكوف يسير وراء الفضوليين يسند رأسه بكل عناية وهدوء، ويدل الآخرين إلى الطريق.

من هنا! من هنا! وحين ندخل السُّلَّم يجب أن يكون رأسه في المقدمة .... دوروا..... نعم، هنا...... سأدفع ..... شكراً لشهامتكم.......

كانت كاترينا إيفانوفنا، على عادتها كلَّما أتيحت لها دقيقة فراغ، تسير في غرفتها الصغيرة طولاً وعرضاً، فتروح بين النافذة والمدفأة وبالعكس، مصالبة ذراعيها على صدرها، مخاطبة حالها، وهي تسعل من وقت لوقت، ولقد اعتادت منذ زمن أن تحدث ابنتها بولينكا وبإسهاب وهي في ربيعها العاشر، لا تفهم كثيراً من الأشياء، إنَّما تعي جيداً أن والدتها بحاجة لها، فكانت تلاحقها بنظراتها الأريبة محملقة، وتبذل كل ما تملك من مكر لتتظاهر أنَّها تفهم كل ما يُحكى لها. وفي تلك اللحظة، كانت بولينكا تخلع عن أخيها الصغير ثيابه لتضعه في السرير بعد أن لازمهُ المرض طيلة النهار فكان الصبي مريض وبحاجة لإبدال قميصه الذي يجب أن يُغسَل في تلك الليلة، جالساً على كرسي، رزيناً صامتاً. كان منتصب الجسم، ساكناً، ملصقاً ساقيه ببعضهما وهو يرفعهما إلى أمام، موجهاً إبهاميه إلى الخارج، نافخاً خديه، محملقاً بعينيه، يصغي إلى ما كانت أمُّه تقول لأخته دون أن يتحرك كما ينبغي للصغار العقلاء حين تنزع عنهم ثيابهم للنوم، وكانت البنت

الثانية وهي أصغر منه سناً، وثيابها أسمال مهترئة، تنتظر دورها واقفة قرب الحاجز. وكان الباب المطل على فسحه السُّلَّم مشرعاً تماماً، لكي يهرب منه ولو جزء من دخان التبغ الآتي من الغرف المجاورة، ويسبب للمصدورة المسكينة نوبات سعال طويلة أليمة قاسية. لقد تخلَّت كاترينا إيفانوفنا كثيراً منذ أسبوع، وأصبحت البقع الحمراء على خديها مضطرمة جداً.

لا تستطيعين أن تعرفي، ولا أن تتخيلي، يا بولينكا، نوع الحياة البهيجة والباذخة التي كنا نحياها في دار بابا، ولا نوع الشقاء الذي نزل بي بسبب هذا السكير، والذي سينزل بكم جميعاً أيضاً. كان بابا برتبة تعدل رتبة كولونيل. كان يوشك أن يصير حاكماً، لم يبق عليه سوى أن يخطو خطوة واحدة حتى يصبح حاكماً، لذلك كان جميع الناس يجيئون إليه ويقولون له: "نحن نُعُدك حاكماً لنا منذ الآن يا ايفان ميخائيلتش". وحين...... كح كح كح ........ حين...... كح كح كح ........ لعن الله هذه الحياة..... صاحت هكذا وهي تبصق النخامة وتضغط صدرها نعم، حين ..... آه ..... حين رأتني الأميرة بيزيملنايا، في آخر حفلة رقص، عند رئيس مجلس النبلاء - وهذه الأميرة التي باركتني حين تزوجت أباك يا بوليا نعم..... حين رأتني أسرعت تسأل على الفور : "أليست هذه الفتاة الفنانة هي التي رقصت رقصة الشال حين تخرجت من المدرسة الداخلية؟" - يجب ترقيع هذا الثقب، عليّك أن تأخذي إبرة وخيطاً فترقعيه، كما علمتك. والا فأنَّه .... كح ..... غداً .... كح كح كح ... سيشع كثيراً (قالت هذا بلهجة من هدها وأضناها السعال) وفي ذلك الأوان وفد إلينا من بطرسبورغ شاب من الحاشية هو الامير ستشيجولسكي... ورقص معي رقصة نازوركا، وقال لي إنَّه سيأتي في الغد ليخطبني.... شكرته بألطف العبارات وصرفته قائلة له إن قلبي يملكه رجل آخر مذ مدة طويلة، وهذا الآخر هو أبوك يا بوليا. وغضب أبي مني غضباً شديداً. — هل أُعدَّ الماء؟ هيا ائتني بالقميص. والجوارب، أين هي؟ باليد يا (كذلك قالت لصغرى

بنيتها) ستنامين هذه الليلة من دون قميص..... دبري أمرك...... ودعي الجوربين جانباً كذلك.... سأغسلها في ذات الوقت...... ألن يعود هذا الرِّث السكران؟ لقد لبس قميصه حتى اتسخ كممسحة. ومزَّقه أيضاً أتمنى لو أغسل كل شيء دفعة واحدة. هكذا لا أتعذب ليلتين متتاليتين.... يارب! كح كح كح ...... ما هذا أيضاً؟ هتفت تسأل وهي ترى جمهوراً على فسحة السلَّم، وترى مع الجمهور أشخاصاً يحملون حملاً ويحاولون أن يشقوا طريقهم نحو الغرفة، ماذا جرى؟ ماذا يحملون؟ ربَّاه!

سأل الشرطي وهو ينظر حواليه بينما كان يحمل مارميلادوف إلى الغرفة دامياً مغشياً عليه:

أين نضعه؟

ردَّ راسكولنيكوف:

على الديوان، أضجعوه، واجعلوه رأسه إلى هذه الجهة.

وأردف أحد الناس من فسحة السلَّم:

داسته العربة في الشارع وهو سكران.

وقفت كاترينا إيفانوفنا جامدة، شاحبة الوجه، تتنفس بمشقة، وارتعب الأبناء، وأطلقت ليدوتشكا صرخة وهرعت إلى بولينكا، فعانقتها وهي ترتجف بجميع أعضاء جسمها.

حتى إذا أضجع المصاب على الديوان، هرع راسكولنيكوف إلى كاترينا إيفانوفنا، وقال لها على عجل:

اهدئي ناشدتك الله، لا تضطربي! .... كان يتخطى الشارع، فمرت عربة فوقه، لا تقلقي، سيصحو من إغمائه. أنا فضلت أن يجلب إلى هنا. لقد قدمت إليكم مرة ما، أتذكرين؟ سيفيق من غيبوبته، سوف أدفع!

صاحت كاترينا يائسةً وهي تندفع نحو زوجها: - نال ما كان يسعى اليه! لم يلبث راسكولنيكوف أن لاحظ أن هذه المرأة ليست من تلك النساء

اللائي يغمى عليهن لأيسر سبب. وبمثل لمح البصر وضعت وسادة تحت رأس المسكين: ما أحد خطرت بباله هذه الفكرة من قبل ثُمَّ راحت تخلع ثيابه، وتتفحصه كما يُعتني بالجريح مسيطرة على أعصابها، عاضة على شفتيها المرتعشتين، تكظم الصراخ الذي يحاول الخروج من صدرها.

في أثناء ذلك استطاع راسكولنيكوف أن يقنع أحد الحضور بأن يمضي يستدعي طبيباً. فثمة طبيب في عمارة مجاورة. وكرر يقول لكاترينا:

أرسلت في طلب طبيب. لا تقلقي. سوف أدفع، ما عندكم ماء؟ وهات أيضاً فوطة، أو سواها بسرعة! لا نعلم بعد خطورة جرحهِ ..... على كلٍّ، هو جريحاً وليس قتيلاً ..... ثقي بذلك. لننتظر ما سيقول الطبيب.

هرعت كاترينا إلى النافذة. كان قرب النافذة، في ركن، على كرسي مهترئ، طست كبير من فخار ممتلئ بالماء، قد هيأته لتغسل في الليل الملابس القذرة بيديها ليلاً، فهي تعمل هذا مرتين في الأسبوع على الأقل، وقد تفعل أكثر من مرة أحياناً، ذلك أنَّهم قد وصلوا إلى حيث أصبحوا لا يملكون من كل ملبس سوى قطعة واحدة. وكاترينا لا تحتمل الوسخ. أو قل لا تطيق أن ترى الأدران تسود بيتها، وتؤثر على هذا أن تقوم في الليل، بينما الجميع نائمون، بعمل تغرضه على نفسها ويفوق طاقتها. تغسل الملابس ثم تنشرها على حبل لتجف، بغية أن تجد الأسرة أشياء نظيفة في الصباح، حملت الطست كما أشار راسكولنيكوف. وكادت تقع وإياه. وكان راسكولنيكوف قد استطاع في تلك الأثناء أن يعثر على منشفة. بللها بالماء وشرع يغسل وجه المصاب البائس. وكانت كاترينا تقف إلى جانبه، تزفر نفسها بمشقة، ضاغطة صدرها بيديها، فهي أبداً بحاجة إلى إسعاف. وبدأ راسكولنيكوف يقول لنفسه: لعلِّي أخطأت سداد الرأي حين ألحوا عليَّ ضرورة نقل المريض إلى هنا. وكان الشرطي مرتبكاً حائراً.

وهتفت كاترينا إلى ابنتها تقول لها:

بوليـا، اذهـبي إلى أختـك صـونيا، وأحضـريها بسـرعة. فـإذا لم تجـديها في مسكنها، لا بأس، قولي إن عربة داست أباها إن عليها بالضرورة أن تـأوي إلى إلينا أسرعي يا بوليا! اهدئي، ضعي هذا المنديل على رأسها.

وهتف الصبي من على كرسيه يحض أخته على الإسراع قائلاً:

أسرعي!

قال هـذا وعـاد يغـرق في صمته، واسـترد وضعه: محملـق العيـنين، متصلب الجذع، مشدود الساقين.

وامتلأت الغرفة بالناس في هـذه الأثنـاء، فلـو ألقيت تفاحـة لما سـقطت علـى الأرض من شـدة الازدحـام. وانصـرف رجـال الشـرطة، إلا وأحـداً بقـي إلى حـين، بغية أن يصد الجمهور الذي كان يصل من السلَّم ويتدفق أبداً.

إن المسـتأجرين الـذين يسـكنون عنـد السـيدة ليبغكسـيل هرعـوا جميعـاً تقريباً من غرفهم التي تقع في طرف الشـقة. تجمعوا في أول الأمـر في البـاب. ثمَّ اندفعوا إلى الغرفة نفسها. مما أغضب كاترينا، التي صرخت:

دعوه يموت بهدوء علـى الأقـل. آه... أهـذه مسـرحية؟ تـدخلون والسـجاير بـين أصابعكم! كح كح كح! لم يبق إلا أن تحتفظوا بقبعـاتكم علـى رؤوسـكم في أثنـاء رؤيـة المشـهد. هـه...... هـذا واحـد قـد أبقـي قبعتـه علـى رأسـه فعـلاً هيَّـا اخرجوا من هنا ..... احترموا الأموات لطفاً!

قالت هذا وخنقتها نوبـة سـعال جديـدة. لكـن تقريعهـا كـان ذا أثـر. واضـح أنَّهم كانوا يخشون كاترينا بعض الشيء. فها هم أولاء سـكان البيـت يتجهـون نحو البـاب واحداً بعد الآخر، وهم يشـعرون بـذلك الإحسـاس الغريـب، إحسـاس اللذة الذي يلاحظ دائماً حتى لدى أقرب الأقربـاء حـين يـرون ملمـة لمت بقريـب، وهو إحساس لا يخلو منه أحد، مهما يكن إحساسه بالأسـف والشـفقة صـادقاً. وكانـت تسـمع وراء البـاب شـذرات أحاديـث يـدور فيهـا الكـلام عـن المشـفى، وعلى أنَّه ليس من اللائق تعكير صفو عمارة في غير طائل.

أردفت كاترينا إيفانوفنا:

ماذا؟ ليس من اللائق أن يموت الإنسان؟ وهمَّت أن تفتح الباب وأن تصب على هؤلاء الناس سيلاً من الشتائم، ولكنَّها حين وصلت إلى العتبة رأت نفسها تصطدم بالسيدة ليبفكسيل نفسها التي علمت بالمصيبة فأسرعت تعيد النظام إلى نصابه. السيدة ليبفكسيل ألمانية مشاكسة مزعجة.

قالت وهي تصفق يديها ببعضهما:

آه .... يا رب! زوجك داسه فرس وهو ثمل. إلى المشفى، إلى المشفى إنَّما كان يجب..... أنا صاحبة البيت.

ردت كاترينا متعالية مفاخرة!

أرجوك يا أماليا لود فيجوفنا أن تفكري فيما تتفوهين .....

كانت كاترينا تخاطب صاحبة البيت دائماً في عجرفة كي "تلزم هذه حدودها"، ولم تستطع حتى في هذا الظرف أن تحرم نفسها من هذه اللذة.

قالت السيدة ليبفكسيل:

وددت أن تكون رغبتي عندك واضحة: ألا تسميني آماليا لود فيجوفنا أبداً أنا آماليا إيفانوفنا.

أنت لست آماليا إيفانوفنا، بل آماليا لود فيجوفنا، وأنا لست واحدة ممن يتملقك بذلّة، ومنهم السيد ليبزياتبيكوف الذي تدوِّي قهقهاته في هذه اللحظة وراء الباب أو كان يقرقع وراء الباب ضحك فعلاً، وكانت تسمع هذه العبارة: "قد بدأت مشاكسة!" فأنا أسميك أبداً آماليا لودفيجوفنا. ولست أفهم فيما يؤذيك هذا الاسم إلى هذه الدرجة. لقد رأيتِ ما حدث مع، سيميون زاخاروفتش: إنه يموت، فأرجوك أن تغلقي هذا الباب فوراً، وألا تدعي أحداً يدخل إلى هنا. فليمت بسلام على الأقل! وإلا أؤكد لك أن سلوكك هذا سيطَّلع عليه الحاكم العام بالذات في الغد. إن الأمير قد عرَّفني قبل أن أتزوج، وهو يتذكر سيميون زاخاروفتش جيداً، ولقد أحسن اليه مراراً. ويعلم كل

الناس أن سيميون زاخاروفتش كان له أصدقاء ومرافقون كثر أهملهم هو نفسه بسبب تعززه وعجرفته، وبسبب الضعف المحزن الذي كان يمَّسه ولكنَّ شاباً سمحاً (وأومأت إلى راسكولنيكوف) ذا ثراء ووشائج، يعرفه سيميون زاخاروفتش منذ طفولته، يتولى مساعدتنا الآن، فلك أن تتيقني يا سيدة آماليا لودفيجوفنا من أن .....

قيل هذا على عجل سريع كان يتزايد من لحظة إلى أخرى. ولكن السعال قطع بلاغة كاترينا فجأة واستعاد المحتضر وعيه وأطلق أنيناً فهرعت إليه، فتح عينيه، راح يتملى راسكولنيكوف الواقف بقربه، يتملاه دون أن يتعرف أحداً أو يعي شيئاً. كان يتنفس تنفساً شاقاً عميقاً متقطعاً. وبان دم على طرفي شفتيه وكان العرق يتكاثف على جبينه. وإذا لم يستطع أن يحدد شخصية راسكولنيكوف، أجال بصره في من حوله قلقاً. وكانت كاترينا إيفانوفنا تُلقى عليه نظرة حزينة لكنها قاسية، وكانت تسيل من عينيها الدموع.

قالت يائسة:

ربَّاه! إن صدره معجون عجناً بخطورة! وثمة كومة دم! يجب نزع ملابسه. استدر قليلاً يا سيميون، إن كن تقوى على ذلك.

تعرفها مارملادوف. فنطق بصوت أبح:

كاهن!

فتراجعت كاترينا حتى النافذة، وأسندت جبينها إلى الزجاج، وهتفت تقول وقد بلغت ذروة الكمد:

قاتل اللّه هذه الحياة!

وعاد المحتضر يقول من جديد، بعد لحظة صمت:

كاهن!

فهتفت كاترينا إيفانوفنا:

أر ...... سل ..... نا...... نستد .... عيه!

فهم وسكت. كان يبحث عنها بنظرة وجلاً قلقاً، فعادت إليه ووقفت فهدأ قليلاً، ولكنَّ هدوءه لم يستمر، عيناه لم تلبثا أن حطتا على الصغيرة ليدوتشكا (أثيرته) التي كانت في أحد الأركان ترتجف بعصبية، وتحدق اليه بعينيها المدهوشتين، عيني الطفلة، تحديقاً مركَّزاً.

غمغم محاولاً أن يتنفس عن شيء وهو يومئ إليها قلقاً:

أ ......... أ ...........

فهتفت كاترينا:

ماذا أيضاً؟

فقال وقد تركَّزت نظراته على قدمي البنت الحافيتين:

حافية! حافية!

هنا زأرت كاترينا وقد بلغ غضبها أشدَّه:

أسكت أنت تعلم حق العلم سبب عريّ قدميها!

أردف راسكولنيكوف يتخفف من قلقه:

الحمد لله! وصل الطبيب!

وَلَجَ هذا إنَّه شيخ مهندم (ألماني) راح يلقي نظراته على ما ومن حوله، نظرات كلُّها شكٌّ وريبة. اقترب من المصاب، جسَّ نبضه، تفحص رأسه بدقة، ثم استعان بكاترينا على حل أزرار القميص المبتل بالدم، وعرى الصدر، كان الصدر خاسفاً بشكل مروع، بل كان مهروساً ممزقاً. عدة أضلاع اليمنى محطمة سوداء ضاربة إلى صفرة. بقعة كبيرة رهيبة: هي آثار حافر فرس. قطب الطبيب حاجبيه، وسمع رواية الشرطي في أن الجريح قد تشبثت به إحدى العجلات، فجرته مسافة ثلاثين خطوة على أرض الشارع.

قال الطبيب لراسكولنيكوف همساً:

أغرب ما في الأمر عودة شعوره اليه.

سأل راسكولنيكوف:

ما رأيك؟

سيموت في الحال

لا أمل؟

لا أمل البتة. بل يوشك أن يلفظ آخر نفس. إنَّه في النزع الأخير ثم إن رأسه مصاب بجرح خطير جداً. همْ ..... يمكننا أن نجري له قصداً..... ولكن ما فائدة ذلك؟ سيموت حتماً بعد خمس دقائق أو عشر.

لنجرب القصد مع ذلك

طيب. ولكني أنبهك مرة أخرى أننا لن نجني من محاولتنا فتيلاً.

وفي هذه اللحظة سمع وقع أقدام مرة أخرى. فتنحى الحضور على فسحة السلَّم وظهر كاهن شيخ أبيض الشعر يحمل الأغراض السرية. وقد أرسل الشرطي ليجيء بالطبيب إلى البيت حين كان الجريح بعد في الشارع. سرعان ما أخلى له الطبيب المجال، بعد أن تبادل معه نظرة ذات دلالة، وبادر راسكولنيكوف يرجو الطبيب أن يبقى ولو لحظة. رفع الطبيب كتفيه، ولكنَّه بقي.

تنحى الجميع لم يدم الاعتراف سوى لحظات: فأغلب الظن أن المصاب كان فاقد الوعي وعاجزاً عن الكلام، وكان لا يقدر، في أبعد تقدير، أن ينطق بسوى أصوات متقطعة غير متميزة. أمسكت كاترينا يد ليدوتشكا، فأنهضت الصبي الصغير عن كرسيه ثم مضت إلى الركن قرب المدفأة، جثت على ركبتيها، وأركعت الأولاد أمامها. استمرت الصغيرة ترتجف. أما الصغير الذي كان جاثياً بركبتيه العاريتين على بلاط الأرض، كان يرفع يدهُ اليمنى في فواصل مطَّردة، فيرسم إشارة الصليب كبيرة واسعة، ثمَّ يسجد فيلصق جبينه بالأرض، وكان واضحاً أنَّ هذا يحدث له لذَّة قصوى. وكانت كاترينا تعض على شفتيها وتحبس دموعها كانت تصلي هي الأخرى، وتعدل قميص الصغير من حين إلى آخر في الوقت نفسه. حتى قد استطاعت دون أن تقطع

صلاتها، أن تتناول من الخزانة منديلاً ألقته على كتفي الصبية العاريتين، ولكنَّ البابُ المطلُّ على الغرف الأخرى امتلأت بالمستطلعون في تلك الأثناء مرة أخرى. كان جمهور المشاهدين على فسحة الدرج - وهمَّ السكان الذين هرعوا من جميع أدوار العمارة - تزداد كثافته رويداً رويداً. إلا أنَّ أحداً منهم لم يتخطى عتبة الغرفة. وكان لا يضيئ هذا المشهد كله إلا بقية شمعة.

في تلك اللحظة وصلت بوليا التي ذهبت تحضر أختها، فاندفعت تشق لها ممراً بين ذلك الجمهور. دخلت مقطوعة النفس تقريباً، لأنَّها ركضت بأقصى ما قدرت، نزعت المنديل الذي كان يغطي كتفيها، بحثت عن أمها بعينيها، ثم دنت منها وقالت: "ستجيء، لقيتها في الشارع!" أركعت الأم ابنتها حدَّها ثم وصلت صبية، تقدمت عبر الحشد خجلة بلا ضجة. كان ظهورها المباغت في هذه الغرفة التي يسودها الفقر والبؤس والأسمال والموت واليأس أمراً غريباً يبعث على أشدِّ الدهشة. كانت ترتدي أسمالاً أيضاً فضلاً عن رخصها، ولكنَّها صارخة صخابة يناسب أذواق وقواعد العالم الخاص الذي تعيش فيه، وتلائم الغايات الدنيئة التي تسيطر على ذلك العالم، وقفت سونيا في العتبة لا تجرؤ أن تتخطاها. وكانت تنظر حولها زائغة الهيئة تائهة الفكر. كان يبدو عليها أيضاً أنَّها ذُهِلَت بشأن ثوبها الحريري الذي اشترته مستعملاً - والذي كانت ألوانه الزاهية وذيوله الطويلة المضحكة لا تناسب هذا المكان – وذهلت عن تنورتها المسلكة الفضفاضة التي تملأ عرض الباب كله، و عن حذائيها اللامعين و شمسيتها التي لا فائدة منها البتة لأن الوقت ليل، وعن قبعتها المدورة المضحكة المصنوعة من قش، المزدانة بريشة حمراء. وكان يلوح تحت هذه القبعة، المائلة، وجه صغير نحيل أصغر، ملوع، فاغر الفم، شارد العينين من الرعب. إن سونيا تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، وهي قصيرة القامة، هزيلة الجسم، لكنَّها لطيفة، شقراء، لها عينان زرقاوان رائعتان. وقد راحت تحدق إلى الديوان والكاهن بنظرات ثابتة. وكانت مقطعة الأنفاس هي

أيضاً، لأنَّها ركضت ركضاً سريعاً.

ولا شكَّ أن كلمات تبادلها بعضهم من الجمهور همساً تناهت إلى مسامعها فها هي تخفض رأسها وتتقدم خطوة إلى الأمام. ولكنَّها لم تعزم أمرها بعد على الابتعاد عن الباب.

انتهى الاعتراف والتناول، وعادت كاترينا إيفانوفنا إلى قرب الديوان، وتنحى الكاهن، ولكنَّهُ أعتقد أن من واجبه أن يوجه إلى كاترينا بضع كلمات تواسيها وتقوي عزيمتها، فقاطعته كاترينا بلهجة خشنة غاضبة وهي تشير إلى الأولاد:

وهؤلاء أين أضعهم الآن ؟

ردَّ الكاهن:

اللّه رحيم، الأمل في حنو السماء معين لا ينضب.

هو رحيم ولا شك، لكنَّه ليس رحيماً بنا نحن. ردَّ الكاهن وهو يهزُّ رأسه:

هذا إثمٌ يا سيدتي، هذا إثم !

فصرخت كاترينا مشيرة إلى المحتضر:

وهذا أليس إثماً؟

لعل الذين كانوا سبب وقوع هذه الحادثة ـ المصيبة بغير إرادة منهم، لعلَّهم يوافقون على أن يدفعوا لك تعويضاً لقاء فقدانك مواردك على الأقل......

فهتفت كاترينا بشراسة وهي تلوح بيدها:

أنت لا تفهم! لماذا يدفعون لي تعويضاً؟ إن هذا السكير هو الذي ألقى بنفسه بين حوافر الخيل! ثم كلامك هذا عن مواردي! هو لا يمدني بأي موارد ولا في أي يوم. هو لم يمدني إلا بالعناء! هذا كل ما في الأمر! أنَّه سكير، سكير، ما وصل إلى يده قرش إلا سارع إلى الحانة، كان ينهبنا. كان يذهب إلى الخمارات ليتلف فيها حياتهم وحياتي! سيموت الآن، الحمد لله، وسيحمل موته توفيراً اقتصادياً!

على المرء أن يعفو ويصفح ويغفر، في ساعة الموت! إن الشعور بمثل هذه الأحاسيس إثم يا سيدتي، إثمٌ كبير.

كانت كاترينا إيفانوفنا ما تزال منهمكة حول المحتضر، تسقيه وتمسح عن رأسه العرق والدم، وتعدل وضع الوسادة تحت رأسه، فهي تتحدث مع الكاهن دون أن تنقطع عن عملها ملتفتة إليه أحياناً. ولكنَّها الآن أخذت تقول له بغتة حانقة غاضبة، وقد خرجت عن طورها:

آه يا أبي! ما هذا كله إلا كلام، حكي لا أكثر! العفو والصفح والمغفرة! هه! لولا هذا الحادث لرجع إلى البيت في هذا المساء ثملاً، ولأنَّه لا يملك قميصاً غير هذا القميص الوسخ الممزق الذي يلبسه، لكان عليَّ أنا خلال غطيطة أن أتبلل بالماء لأغسل له القميص وملابس الأولاد، وكان عليَّ بعد ذلك أن أجفف الغسيل كلُّه على النافذة، حتى إذا طلع الفجر بدأت العمل في الترقيع! على هذا النحو كنت سأقضي الليل! فعلام الكلام عن العفو والصفح والمغفرة إذاً؟ لقد عفوت وصفحت وغفرت منذ زمان! واعترتها نوبة سعال كاوية مما اضطرها أن توقف كلامها، وتبصق في منديلها وتمده إلى الكاهن ضاغطة صدرها بيدها الأخرى. كان المنديل مبللاً بالدم.

خفض الكاهن رأسه ولم يعقب:

كان مارميلادوف المحتضر لا يحول عينيه عن كاترينا التي مالت عليه من جديد، كان يودُّ أن يوصل لها أمراً ما. حاول ذلك محركاً لسانه بمشقة، متمتماً بضع كلمات مبهمة غير مفهومة، ولكن كاترين إيفانوفنا وقد أدركت أنَّه يريد أن يسألها أن تغفر له سارعت تزعق بلهجة آمرة:

اسكت! اسكت! لا داعي! أعرف ما تريد أن تقول!

سكت الجريح، لكن بصره التائه سقط في تلك اللحظة على الباب، فلمح سونيا، لم يكن قد لاحظها قبل ذلك: كانت سونيا قد لبثت في الجزء المظلم من الغرفة.

من هذه؟ من هذه؟

كذلك تأتأ يسأل بغتة بصوت أبح لاهث، وهو يحاول أن ينهض، ويومئ بعينيه مروعاً إلى الباب الذي كانت ابنته ما تزال واقفة أمامه.

فصرخت كاترينا إيفانوفنا:

ابق راقداً! ابق، كما أنت!

لكنَّه استطاع بجهد خارق أن يرفع جسمه مستنداً بيده إلى الديوان. فحدق إلى ابنته برهة من الوقت بنظرة غريبة، كأنَّه لم يعرفها. ذلك أنَّه لم يسبق أن رآها بمثل هذا الزي الغريب. ولكنَّه لم يلبث أن تعرفها فجأة، كانت ذليلة منهارة في ملابسها المبهرجة تحس بالخزي، وهي تتطلع برفق ووداعة، وإذعان وتسليم، أن يجيء دورها لتوديع أبيها. ارتسم على وجه الأب الأبيض تعبير عن الألم لا نهاية لهُ، وعذاب لا حدود له. وصرخ:

سونيا، ابنتي، اغفر لي!

وودَّ أن يَمُدُّ لها يدهُ، لكنَّهُ فقد التوازن لأنَّه لم يتكئ على شيء، فقد تدحرج عن الديوان منكبَّ الوجه على الأرض. سارعوا ينهضونه، ويرقدونه على السرير. لكنه كان قد بدأ يلفظ أنفاسه. أطلقت سونيا صرخة ضعيفة، وهرعت اليه، وعانقته طويلاً، فمات بين ذراعيها.

صرخت كاترينا وهي ترمق جثة زوجها:

نال ما كان يسعى إليه، ولكن ما العمل؟ أين لي بالمال أنفقه على دفنه؟ وهؤلاء، وهؤلاء، من أين أطعمهم غداً؟

اقترب راسكولنيكوف من كاترينا إيفانوفنا. وبدأ يتكلم قال:

كاترينا إيفانوفنا! في الأسبوع الماضي روى لي زوجك المتوفى قصة حياته تفصيلاً.... ثقي أنَّه تحدث عنك بحماس شديد واحترام كبير. وقد أصبحنا صديقين منذ ذلك المساء الذي عرفت فيه مدى إخلاصه لكم جميعاً، ومدى ما يحمله لك بخاصة يا كاترينا إيفانوفنا من حبٍّ وتقويم رفيع، رغم آفته

الشنيعة، آفة الإدمان.... فاسمحي الآن إذاً.... اسمحي لي أن أساهم..... أن أقوم بآخر واجباتي نحو صديقي المتوفى. خذي هذا المبلغ..... أظن أنَّه عشرون روبلاً..... فإذا كان هذا يساعدكم ولو قليلاً، فإنني.... لكني سأعود إليكم، حتماً، وربما في الغد....... والآن...... استودعكم!

قال ذلك وغادر الغرفة متعجلاً، وشق لنفسه ممراً بين الجمهور بسرعة. ولكنه لم يلبث أن اصطم بنوكوديم فومتش الذي عرف نبأ ما حدث، فأراد أن يتولى بنفسه اتخاذ الإجراءات الضرورية. لم يكونا التقيا منذ وقع ذلك المشهد في قسم الشرطة. ولكن نكوديم فومتش عرفه من أول نظرة. قال:

هه! هذا أنت؟

رد راسكولنيكوف:

مات! وجاء الطبيب، والكاهن، وتم كل شيء كما يجب أن يتم لا تزعج كثيراً تلك المرأة الشقية. حسبها أنَّها مصدومة، واسها واشدد أزرها إن أمكن......

ثم أضاف ساخراً، وهو يرمقه بنظرة مركزة:

أنا أعرف أنك رجل طيب القلب.

لاحظ نيكوديم فومتش، تحت ضوء المصباح، بقعاً من الدم ما تزال طرية على صديرة راسكولنيكوف، فقال ينبهه:

ولكنك ملطخ بالدم!

أجاب راسكولنيكوف بلهجة دالة:

نعم، تلطخت.... أنا كلي ملطخ بالدم. ثم ابتسم، وحيَّاه بحركة من رأسه، وراح يهبط السلم.

كان ينزل ببطء، ولكنه يرتعش كمن إصابته حمى. إن موجة كبيرة من الإحساس الجديد الشديد بالحياة الفياضة تغمر نفسه الآن، على غير شعور منه. قد يشبه هذا الإحساس بما يشعر به المرء المحكوم بالإعدام حين يعلم

فجأة بصدور قرار العفو، فلما وصل إلى منتصف السلم أدركه الكاهن الذي ذهب إلى بيته. تنحى راسكولنيكوف ليفسح له مكاناً للمرور تحية صامتة. ولكنه حين كان يهبط الدرجات الأخيرة سمع وراءه فجأة وقع خطوات سريعة. كان واضحاً أن ثمة من يحاول اللحاق به، أنَّها بولينكا كانت تركض وراءه وهي تناديه: "اسمع! اسمع!"

التفت الرجل، كانت الصبية قد هبطت الطوابق الأخيرة بسرعة عنيفة، وها هي الآن تقف أمامه على الدرجة التي تعلو درجته. إن نوراً ضئيلاً كان يتسلل من الفناء إلى ذلك المكان. حدق راسكولنيكوف إلى من كان ينظر اليه ويبتسم له حبوراً كما يفعل الأطفال.... كان الوجه صغيراً هزيلاً، ولكنه لطيف. لقد هرعت الصبية وراءه مكلفة بمهمة كان واضحاً أنَّها تبهجها كثيراً.

سألته بعجلة بصوت من يلهث:

اسمع! ما اسمك؟ وأين تسكن؟

وضع راسكولنيكوف يده على كتف الفناء، ورمقها بنوع من السرور إذ وجد متعة عميقة بتأملها دون علم منه.

سألها:

من أرسلك؟

أجابته وهي في غاية المرح:

أختي سونيا هي التي أرسلتني.

قدَّرت ذلك

وأمي أيضاً. حين طلبت مني سونيا أن أركض إليك اقتربت والدتي وألحت على الرأي: "نعم، اركضي إليه بسرعة يا بولينكا"

هل تحبين أختك سونيا؟ أكثر مما أحب أي أحد في العالم!

قالت بولينكا هذا بلهجة متشبثة، وصار في ابتسامتها مزيد من الجد

فجأة سألها:

وأنا، هل ستحبينني

لم تزد الصبية، في الجواب على هذا السؤال، على أن قربت وجهها من وجهه، ومدت له شفتيها الممتلئتين البريئتين، بسذاجة، لتقلبه، ثم عانقته بذراعين صغيرين، نحيلين كعودي ثقاب، عناقاً قوياً، ومالت برأسها على كتفه، وراحت تبكي بكاء دفئاً رفيقاً، ولصقت وجهها بكتفه شيئاً فشيئاً. وقالت بعد دقيقة وهي ترفع وجهها الذي احتفظ بآثار الدموع والذي أخذت تمسحه بظهر يدها:

مسكين باباً!

ثم أضافت فجأة، وهي تصطنع هيئة الجد التي يصطفها الأطفال حين يريدون بغتة أن يتكلموا "كما يتكلم الكبار"

ما أكثر المصائب التي تحل بنا!

وأبوك، أكان يحبك؟

فتابعت كلامها جادة دونما بسمة، كما الكبار تماماً في هذه المرة.

من بيننا جميعاً كان يحب ليدوتشكا حباً خاصاً. كان يحبها لأنَّها مريضة، ولأنَّها صغيرة جداً، وكان يجيئها بألف صغيرة ونحن، كان يعلمنا القراءة. وأضافت برزانة:

وكان يعلمني قواعد اللغة، والدين، وكانت أمي لا تقول شيئاً، ولكننا كنا نعرف أن هذا الأمر يسرها. وكان باباً يعرف هذا أيضاً. وتود ماما أن تعلمن اللغة الفرنسية، إذ آن أوان أن أتعلم......

هل تجيدين الصلاة؟

طبعاً نجيد الصلاة. أنا أجيد الصلاة منذ مدة! أنا أصلي، همساً، لان كبيرة، أما كوليا وليدوتشكا تصليان بصوت عال، مع ماما. يرتلان. يرتلان. أولاً سلام عليَّك يا مريم....." ثم يتلون دعاء آخر: "اغفر لأختنا سونيا يا رب،

وباركها!" ثم دعاه آخر! "يا رب اغفر للوالد، وباركه!" ذلك أن أبانا الأول مات. وهذا أبونا الثاني. لذلك ندعو للأول أيضاً.

بولينكا! أنا ادعى روديون. فادعوا لي أنا أيضاً أحياناً. أضيفوا إلى صلاتكم: "ولروديون عبد الرب"، لا أكثر.

وبحماس تابعت:

طول حياتي، سأدعو لك!

ثم بدأت تضحك فجأة، واندفعت وعانقته بذراعيها عناقاً حميمياً.

ذكر لها راسكولنيكوف اسمه، وعنوانه، ووعد أن يجيء إليهم من الغد. وانصرفت الفتاة وقد طفح قلبها إعجاباً به، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حين أصبح راسكولنيكوف في الشارع. وبعد خمس دقائق وصل إلى الجسر، إلى ذلك الموضع الذي ألقت فيه المرأة بنفسها في الماء.

قال لنفسه بلهجة جازمة احتفالية: "كفى! تراجعي يا أنواع السراب! إلى الوراء أيتها الأوهام المخيفة! تقهقري أيتها الأشباح، الأطياف! الحياة أقوى! ألست حياً في هذه الساعة. حياتي لم تمت بموت المرأة العجوز! لا! إن ملكوتها الآن هو ملكوت السماء! كفاك أيتها المرأة العجوز! آن لك أن تدعي العالم هادئاً! أما ملكوتي أنا فهو ملكوت العقل والضياء.... والقوة..... والإرادة...... وسنرى من المنتصر منا نحن الاثنين الآن!" كذلك أضاف متغطرساً، كإنما يخاطب ويتحدى قوة ما غامضة، وتابع مع ذاته: كيف رضيت أن أحيا على حيز ضيق من المكان ليس أكثر من مساحة خطوة؟

...... أنا الآن ضعيف جداً، ولكن.... أعتقد أن مرضي قد انتهى.... وحين خرجت منذ برهة، كنت أعلم حق العلم أنَّه سينتهي. بالمناسبة: إن عمارة بوتشنكوف على مسافة خطوتين مني. سأذهب حتماً إلى بيت رازوميخين.... نعم، سأذهب اليه حتى ولو كان لا يقيم في منزل قريب هذا القرب كله. ألا فليكسب الرهان ألا فليسخر مني! أي ضرر في هذا؟ إن ما أحتاجه هو القوة،

القـوة[1] بغـير القـوة لا يصـل المـرء ولا العـالم إلى شـيء. والقـوة هـذه - بشـروط معقولة ـ تولد القوة. هذا ما لا يعرفونه!"

كـذلك أردف بكبريـاء وزهـو. وغـادر الجسـر بخطـى هادئـة. فكانـت الكبريـان والثقـة تـزدادان فيـه كلمـا انقضـت دقيقـة جديـدة، وكلمـا انقضـت دقيقة جديدة كان يصبح رجلاً وأحداً. فما الذي حدث إذاً حتى تحقق في نفسه هذا التحول؟ كان هو نفسه يجهل هذا، أنَّه، كما الغريق الذي يتعلق بقشـة، يتصور أنَّـه "يسـتطيع أن يحيـا، وأن الحيـاة مـا تـزال موجـودة، وأن حياتـه هـو لم تمت بموت المرأة العجوز" ولعله أسرف في التعجل حين انتهى إلى هـذه المحصلـة، ولكن لم يخطر له في بال.

قال لنفسه فجـأة: "ومـع ذلـك طلبـت صـلوات ودعـوات لروديـون عبـد الـرب!" ولكنـه لم يلبـث أن أضـاف: "كـان هـذا مـن بـاب الاحتيـاط علـى كـل حـال!" وأسرع يضحك من فعلته الصبيانية. كان مزاجه مشرقاً رائعاً!

اهتـدى إلى منـزل رازوميـخين بسـهولة: كـان المسـتأجر الجديـد معروفـاً في عمارة بوتشنكوف، وأرشده البواب إلى الطريق فوراً. فما أن وصل إلى منتصف السلم حتى كان يسمع ضجة حديث حار يقوم بين حشد كبير. كان البـاب المطل على السلم مشرعاً. فكـان يسـمع عبرة صراخ ونقـاش. غرفـة رازوميـخين واسـعة كفايـة، كانـت تضـم حـوالي خمسـة عشـر ضـيفاً. توقـف راسـكولنيكوف في فتحـة المـدخل، ووراء الحـاجز، كانـت خـدمتان، مسـتعارتان مـن صـاحبة البيـت، منهمكين حـول سمـاورين كـبيرين، وكانـت تهتمـان أيضـاً بزجاجـات وصـحون وأطبـاق مثقلـة بفطـائر ومشـتهيات والصـحون الأطبـاق مسـتعارة مـن صـاحبه أيضـاً. سـأل راسـكولنيكوف عـن رازوميـخين، فهرع رازوميخين مسروراً مفتوناً. إن المرء ليلاحظ مـن أول نظـرة أنَّـه قـد أسـرف

1- القوة العاقلة ، العمالية، العادلة، غير المعتدية- المترجم.

في الشراب، ورغم أنَّه في العادة لا يمعن في الشراب إلى حد السكر، فإن مظهره الآن لا يخطئه الظن.

قال راسكولنيكوف بسرعة:

اسمع! أنا لم آت إلا لأقول إنك كسبت أرهان. وما من إنسان يستطيع فعلاً أن يحزر ما قد يقع له.... ولكني لا أستطيع أن أدخل..... أنا ضعيف إلى مدى أنني قد أقع أرضاً.... لذلك أقول لك: السلام عليِّكم والى اللقاء. تعالي إلي غداً.

اسمع، سأرافقك، ما دمت تقول أنت بعظمة لسانك أنك من الضعف أنك.....

وضيوفك؟ قل لي: من ذلك الرجل أجعد الشعر وألقى الان نظرة عليَّنا؟ ذاك؟ الشيطان وحده يعلم الا ريب أنَّه رجل به بعمي علاقة، أو أنَّه دعا نفسه! ..... سأترك الضيوف مع عمي! إن عمي رجل كبير! شيطان وإبليس يأخذ أنكم إلى جهنم جميعاً! ثم هم في هذه اللحظة لا يملكون من العقل ما يمكنهم من أن يتذكروني. ما أحوجني إلى شيء من الهواء! يا عزيزي، جئت بالوقت المناسب فلو تأخرت دقيقتين لأخذت أتضارب معهم! قسماً بالرب! ليتك سمعت ما كانوا يقولون من حماقات! ليس في وسعك مدى الأكاذيب التي يستطيع امرؤ أن يقولها! ولكنك لست أضعف من أن يستطيع. لم لا؟ أنحن بالذات لا تكذب؟ ليكذبوا ما شاؤوا! لكن لابد من يوم يتوقفون خلاله عن الكذب! ..... هذا العيب الأقبح وسالب كل مناقبيات البشر الطيبة. اجلس لحظة، سأنادي زوسيموف.

حجم زوسيموف على راسكولنيكوف بشراهة، وظهر عليه استطلاع قوي وفضول غريب، ثم لم يلبث أن أشرق وجهه وأضاء.

قال جازماً بعد أن فحص المريض بلا — مبالاة :

عليِّك أن تنام في الحال ، وقبل ذلك أن تتناول شيئاً ما ابلع هذه الحبة . هه

؟ حضرتها لك منذ بعض الوقت .

رد راسكولنيكوف :

لأبلعن حبتين و ثلاثة أن وجب .

و ازدرد الدواء متعجلاً

و قال زوسيمون لرازوميخين:

أنت مصيب فعلاً بصحبته. ما سيكون غداً، سنراه، أما الآن حالته ليست كثيرة السوء. لقد تبدل بوضوح عما كان عليه منذ برهة قريبة. الإنسان يتعلم أبداً كل يوم أموراً جديدة وربما حديثة.

قال رازوميخين لراسكولنيكوف ما أن وصلا الشارع:

أتعلم ماذا همس زوسيموف في إذني لما خرجنا؟ كأحد أصحابي، سأكون صريحاً معك، لأن هؤلاء حمقن جميعاً وبلهٌ. طلب مني أن أثرثر معك في أثناء الطريق، حتى تثرثر أنت أيضاً، ثم أمضي أقص عليَّك فوراً كل قلته آنفاً. فقد كون قناعة أنك مجنون أو على وشك. أتتصور هذا؟ أنا أرى أولاً أنك أقدر منه ضعيفين أو ثلاثة. ولما لست مجنوناً فلن تبالي بما يرسخ في مخه. وثالثاً لم يعد الجراحون يعنون بالأمراًض العقلية، فاقتنعت بعد ما تداولت مع زاميوتوف أنك.....

هل روى لك زاميوتوف كل الامور.

بل كل شيء. وأحسن صنعاً. هكذا فهمت القضية بعمق، وفهمها زاميوتوف أيضاً. الخلاصة يا روديا.... الواقع أن ..... حقاً أنا الآن قرب من السكر، لكن لا غضاضة.... حقاً إن هذه الفكرة..... هل تفهم...... رسخت في حافظتهم. أتفهم؟ لم يتجاسروا طبعاً أن يدلوا بها بصراحة، فالأمر سخيف فعلاً، ولا سيما بعد ن اعتقلوا الدهان، نعم، لقد تبدد كل أمر إلى الأزل كرغوة الموج. إنما لماذا يسيطر عليهم غباؤهم إلى هذا الحد؟ لقد ضربت زاميوتوف قليلاً. لكن انتبه، هذا سر لا تفشه. أنت لم تعلمه، أليس كذلك؟

ذلك أنني لاحظت أنَّه أبي..... كل هذا حدث عند لويزا. أما الآن فقد ذاب الجليد. والمذنب الرئيس هو إيليا بتروفتش حقاً. استغل غيبوبتك في قسم الشرطة، ثم خجل مما ظن. أنا أعلم كل البواطن.

كان راسكولنيكوف يصغي بحماس وبتأثير الخمرة أفصح رازوميخين عن المهم وغير المهم رد راسكولنيكوف:

أغمي عليَّ بفعل انتشار الدهان.

مالك! أراك تهتم بتبرير نفسك! ليس الدهان هو العلة وحده، فأنت شبه مريض منذ برهة يشهد زوسيموف على هذا. ليس لك أن تتخيل، مدى خجل واضطراب زاميوتوف العز. قال: "أنني لا أساوي شيئاً أنني أمعة قياساً مع هذا الرجل. وهو يعنيك بهذا فمن حين إلى آخر يخرج شيء من الطيبة والمروءة. لكن الدرس الذي صفعه اليوم في "قصر الكرستال" بلغ عنده منتهى الفاعليَّة. ذلك أنك بدأت تخيفه حتى راح يرتجف! ثم كدت تجبره على أن يصدق ذلك الأمر التافه المحال..... ثم إذا بك تسخر منه فجأة..... ياللغرابة! نعم، لقد أصاب السهر منتصف الهدف! لقد؟ كان زاميوتوف ينتظرك عندي يكويه نفاذ صبره. وكان بورفيتري يتعجل العرف إليك.

آ..... ذلك الرجل أيضاً؟ وما مبرر قناعتهم بجنوني؟

أقصد..... شبه مجنون فعلاً أنا أسرفت في الثرثرة نوعاً ما...... أن ما شد انتباهه هو اهتمامك بهذا الأمر فقط. وهم الآن يقدرون سبب اهتمامك. يعرفون الظروف يعرفون أن ذلك كله قد اختلط بمرضك فأثارك. أنا بي بعض الثمن كما ترى يا صديقي ولكن لديه فكرة لا يملكها سوى الشيطان. أعود فأقول: إن الأمراًض العقلية جننته. أما أنت فما عليَّك سوى أن ترمي وراءك كل هذا.

وسكت الاثنان لحظات

ثم بدأ راسكولنيكوف الكلام:

اسمـع يـارازوميخين. أود أن أصـارحك. أنـا آت مـن لـدن رجـل مـات. هـو موظف..... وقد أدعت هناك كل ما عندي من نقود..... هذا إلى أن مخلوقة رائعة قد عانقتني بذراعيها الصغيرين. ورأيت هناك مخلوقة أخرى.... على قبعتها ريشة حمراء.... ها أنا أهذي، أليس كذلك...... أنني خائر القوى ..... أسندني ...... إلى السلم .....

أردف رازوميخين قلقاً

ماذا بك؟ ماذا بك؟

أكـاد أدوخ، إنمـا لـيس هـذا هـو المهـم.... وإنمـا أنـني حـزين جـداً، حـزين جداً..... كامرأة..... حقاً..... انظر! ما هذا؟ انظر! انظر.....

ماذا؟

ألا ترى؟ أن ضوءاً في غرفتي. نعم، أرى النور من خلال الشق.

كانا قد وصلا من فسحة السلم السابقة إلى الفسحة الأخيرة، أمام باب صاحب البيت، من هناك رأوا نوراً في غرفة راسكولنيكوف فعلاً.

قال رازوميخين:

غريب! لعلها ناستاسيا.

ناستاسيا لا تأتيني أبداً في مثل هذه الساعة، ثم أنَّها نائمة منذ ساعات.... على أن كله يستوي عندي.... استودعك الله.

ماذا تقول؟ لابد لي أن أرافقك! سندخل سوية.

اعـرف، اعـرف، لكـني أود أن أصـافحك وأن أودعـك هنـا. هلـم هـات يـدل وودعني!

ماذا دهاك يارودیا؟

لا شيء، هيا، ستكون شاهداً.

واستمر يصعدان السلم، هنا خطر ببال رازوميخين أن زوسيمون قد يكون محقاً، ودمدم يخاطب نفسه "يا للأسف! أثرت الاضطراب في حناياه بثرثرتي"

وفيما هما يقتربان من الباب سمعا فجأة أصواتاً في الغرفة. هتف رازوميخين يسأل:

لكن ـ ماذا يحدث هنا؟

بادر راسكولنيكوف فامسك قبضة الباب وفتحة بشقيه. شرعه ووقف مسمراً في العتبة.

كانت أمه وأخته ينتظرانه منذ ساعة ونصف، قاعدتين على الديوان. ترى لماذا يتوقع هذا أقل مما يتوقع أي شيء آخر؟ لم خطرتا على باله أقل مما عداهما مطلقاً مع أنَّه في ذلك اليوم تلقى رسالة تؤكد أن وصولهما قريب، وشيك؟ لقد لبثا طوال مدة الانتظار لا يكفان عن مساءلة ناستاسيا التي كانت ما تزال في الغرفة أمامها، فاتسع وقتها لان تروي لهما كل شيء عن راسكولنيكوف ولقد استبد بهما ذعر شديد حين علمتا "أنَّه هرب اليوم من البيت" مريضاً، وكان يهذي، على ما يخرج من القصة التي روتها ناستاسيا. "ماذا جرى له يا رب؟" ولقد بكت المرأتان كلتاهما وعانتا عذاباً شديداً خلال مدة الانتظار هذه التي دامت ساعة ونصف.

فلما ظهر راسكولنيكوف استقبلتاه بصيحات فرح وحماس واندفعتا كلتاهما نحوه، لكن راسكولنيكوف لبث مسمَّراً كجثة. إن فكرة مفاجئة لا تطاق تلبَّسته عندئذ كما الصاعقة، حتى أن ذراعيه لم ترتفعا لمعانقتهما. إذ كان خائر القوى التي تمكنه من هذه. شدَّته الأم والأخت إلى صدريهما، وطمرتا بالقبل، كانت تضحكان وتبكيان في آن واحد تقدم خطوة، ترنح، ثم هوى مغشياً عليه.

انطلقت صيحات الرعب، وأنات الخوف.... وكان رازوميخين قد لبث في عتبة الباب، فهرع إلى الحجرة وأمسك المريض بذراعيه القويين، أرقده على الأريكة بمثل لمح البصر.

صاح رازوميخين للأم والأخت مطمئناً مهدئاً:

لا تضطربا، الوضع غير مقلق. ليس هذا سوى إغماءة بسيطة. قال الطبيب منذ بعض الوقت إن صحته تحسنت كثيراً، وأنَّه برء تماماً..... قليلاً من الماء إن أمكن! ها.... هذا يسترد رشده. وشعوره!

ثم أمسك يد دونيا بشدة كاد يهشمها، ليجبرها على أن تميل عليه فترى أنَّه "استعاد إحساسه" كانت الأم والأخت تنظران إلى رازوميخين نظرتهما إلى إله، وتشعران نحوه بامتنان عظيم، وشكر عميق، وعاطفة قوية، وحنان منفعل. كانتا قد عرفتا من ناستاسيا ما فعله هذا "الشاب المقدام" في سبيل عزيزهما روديا طيلة مدَّة مرضه، كما نعتته بهذه الصفة بولخيريا الكسندروفنا راسكولنيكوفا، في ذلك المساء نفسه، في أثناء حديث حميم جرى بينها وبين دونيا.

# الجزء الثالث

## الفصل الأول

نهض راسكولنيكوف وجلس على الديوان.

وأشار إشارة خفيفة يطلب من رازوميخين أن يوقف سيل المواساة العارم المتقطع الذي كان يغمر به أمه وأخته، ثم أخذ يديهما، وراح يتأملها صامتاً، واحدة بعد الأخرى خلال دقيقة أو دقيقتين. نزعت الأم من تطليعته، كانت ترشح عن عاطفة عنيفة حتى الألم، وفي ذات الوقت ثابتة تكاد تشير إلى جنون....... وشرعت بوليخيريا الكسندروفنا تبكي.

وكانت أفدوتيا رومانوفا شاحبة الوجه، يدها ترتعش بيد أخيها قال راسكولنيكوف بصوت متقطع وهو يومئ إلى رازوميخين:

عودا إلى بيتكما....... معه! إلى الغد. كل شيء غداً سوف..... هل وصلتما منذ مدة مديدة؟

أجاب بوليجيريا الكسندروفنا:

هذا المساء يا روديا. تأخر القطار جداً! لكني لن أتركك بحال من الأحوال يا روديا. سأقضي الليل قرب.....

ردَّ وهو يحرك يده بإشارة انفعال وغيظ:

لا تعذبوني كثيراً!

هتف رازوميخين:

سأبقى إلى جانبه! لن أتركه دقيقة واحدة، وضيوفي إلى جهنم! ألا ليغضبوا ما طاب لهم الزعل، ثم إن عمي هناك ليترأس الاحتفال.

قالت بوليخيريا وهي تسلم على رازوميخين مجدداً:

كيف لي أن أفيك حقك من الامتنان!

ولكن راسكولنيكوف قاطعها ثانية، وقال بغضب:

لا أقدر! لا أقدر! لا تعذبوني! كفى! اذهبوا..... لن أستطيع! تمتمت دونيا مرتاعة:

لنذهب يا ماما، لنخرج من هذه الغرفة ولو لحظة قصيرة. إن لم نخرج فسنقتله ..... أكيد.

هتفت بولخيريا الكسندروفنا باكية:

ألا يجوز لي إذاً أن أبقى عنده برهة قصيرة بعد فراق ثلاث سنين؟

وأردف راسكولنيكوف:

انتظروا..... ما لكم تقاطعوني أبداً..... فاضطربت أفكاري..... هل رأيتما لوجين؟

ردَّت الأم:

لا، يا روديا، لكنَّه يعرف أننا وصلنا. ثم أضافت بوجل:

وقد عرفنا يا روديا أن بيوتر بتروفتش قد تفضل وزارك هذا اليوم.

نعم...... تفضل! يا دونيا فقد أبلغت لوجين أنني سأدحرجه إلى أسفل السلَّم إذا هو جاءني ثانية. والى الشيطان.

روديا ماذا تقول؟ لا شك أنَّك لا تريد.... مع ذلك...... أن تقول أن ...... هذا ما قالته بولخيريا الكسندروفنا مرتاعة، ولكنَّها تطلعت إلى دونيا فقطعت كلامها وصمتت.

كانت أفدوتيا رومانوفنا تحدق إلى أخيها بنظرات مركزة وتنتظر التتمة وكانت المرأتان قد عرفتا أمر المشاجرة من ناستاسيا، بحسب قدرتها على الإدراك والتصور، فكانتا في حيرة شديدة وارتباكٍ قوي.

تابع راسكولنيكوف كلامه بجهد:

دونيا، أنا أرفض هذا الزواج. عليك إذاً أن تعليِّمه رفضك من الغد لا أريد

أن أراه مرة أخرى.

صاحت بولخيريا الكسندروفنا:

ربَّاه!

وبدأت أفدوتيا رومانوفنا تتكلم فقالت باندفاع:

هلا فكرت قليلاً فيما تطلبه مني يا أخي!...... ولكنَّها ما عتمت أن كتمت نفسها، وبعد صمت أضافت برفق وتؤدة:

قد لا تكون بصحة جيدة الآن..... أراك تعباً!......

أأنا أهذي إذاً؟ لا، أنا لا أهذي! أنت تريدين أن تتزوجي لوجين من أجلي أنا! ولكني أرفض هذه التضحية. لذا ستُدبجين له اليوم رسالة قطيعة وسأقرأ الرسالة في الصباح، وننتهي من هذا الإشكال.

هتفت الفتاة مستنكرة:

ليس بوسعي أن أفعل هذا فبأي حق.....

قاطعتها الأم مرتاعة وهي تندفع إليها:

أنت أيضاً سريعة الغضب يا دونيتشكا... كفى الآن..... غداً ..... ألست ترين إذاً أنَّه ...... آه ...... والأفضل أن ننصرف أيضاً.

وصاح رازوميخين الثمل:

إنَّه يهذي! وإلا هل كان يجرؤ أن .... لسوف تخرج من رأسه هذه الحماقات كلَّها غداً. لقد طرده اليوم فعلاً. هذا صحيح وغضب الآخر أيضاً. كان يفيض في الكلام، ويعرض علمه ومعرفته. لكنه خرج على ذلك واضعاً ذيله بين ساقيه......

هتفت بولخيريا الكسندروفنا:

أصحيح إذاً؟

وقالت دونيا وقد أترع قلبها شفقة ورحمة:

إلى الغد يا أخي. هلمي يا أمي! أستودعك الله يا روديا!

كرر راسكولنيكوف مستجمعاً آخر قواه:

اسمعي يا أختي! أنا لا أهذي. ليس هذا صحيحاً. إن هذا الزواج دناءة! لنفرض أنني أحط إنسان. ولكن يجب عليك أنت أن لا..... إذ يكفي أن يكون أحدنا فقط.... ثُمَّ على كوني إنساناً منحطاً ، لن أعتبرك أختي إن أنت ...... فإما لوجين أو أنا! وانصرفوا الآن.

وزأر رازوميخين:

ولكنك جننت! يا لك من طاغية مستبد!

لم يرد راسكولنيكوف، ربَّما لأنَّه لا يملك من القوة ما يمكنه من الكلام وعاد يرقد على الديوان، واستدار إلى الحائط، مهدود القوى تماماً. تأملت أفدوتيا رومانوفنا رازوميخين مستطلعةً. كانت عيناها السوداوان تسطعان حتى رازوميخين ارتعش بتأثير هذه النظرة. وظلَّت بولخيريا جامدة مذهولة وهمست في إذاً رازوميخين يائسة:

لكني لن استطيع الانصراف بحال من الأحوال. بل سأبقى هنا ، في مكان ما. واصطحب أنت دونيا.

أجاب رازوميخين همساً كذلك، ولكنَّه كان غاضباً خارجاً عن طوره:

بهذا تفسدين كل شيء. لنخرج إلى فسحة السلَّم على الأقل. يا ناستاسيا ، هاتي لنا ضوءاً. حتى إذا صاروا إلى السلَّم، تابع كلامه بصوت خافت:

أقسم لكما أنَّه كان يضربنا أنا والطبيب منذ قليل. هل تفهمان؟ نعم، كان يضرب الطبيب بذاته. واضطر المعالج أن يطيع لكي لا يسبب له مزيداً من الهيجان، فانصرف ورغم أنني بقيت تحت، كي أحرسه، استطاع أن يلبس ثيابه.... وأن يهرب! فإذا أهجناه وأغضبناه، سيهرب، أو سيحاول، في وسط الليل، أن يرتكب حماقة ضد ذاته.

ماذا تقول؟

ثم إن أفدوتيا رومانوفنا لا تستطيع أن تقضي الليل وحيدةً في تلك الغرفة

المفروشة، هلَّا فكرت قليلاً ‌في المنزل الذي تنزلونه! ألم يكن ‌في وسع ذلك الوغد بيوتر بتروفتش أن يجد لكما مسكناً أليق؟! على أنني سكران جدلاً، لذلك شتمت...... لا تبالوا بهذا.

قالت بولخيريا بإصرار:

إذاً سأمضي ألتمس صاحبة البيت أن تهبنا، أنا و دونيا، ركناً صغيراً نبيت فيه هذه الليلة. لا أستطيع أن اتركه وهو على هذه الحال.

كانوا نزلوا دوراً وهم يتكلمون، فأصبحوا الآن أمام باب صاحبة البيت.

وكانت ناستاسيا تتقدمهم درجة لتغير لهم المكان، كان رازوميخين يعاني اندفاعاً خارقاً. أنَّه قبل نصف ساعة، على إفراطه ‌في الكلام بصحبة راسكولنيكوف إلى بيته - كما اعترف هو نفسه - كان يشعر بأنَّه صاحٍ تقريباً، وممتلئ حيوية رغم المكاييل الضخمة من الخمر التي شربها ‌في السهرة. أما الآن فهو ‌في حالة تشوه شديدة، والخمرة تصعد إلى رأسه بقوة متزايدة. هو الآن واقف بين السيدتين، يداه بيديهما، يحاول بصراحة قوية أن يقنعهما بالحجج التي يقدمها، وأغلب الظنِّ أنَّه لكي يقنعهما فعلاً كان يشد يد كل منهما بما يشبه الكلَّابة، عند كل كلمة يقولها، فإذا به يوجعهما، بينما عيناه تلتهمان أفدوتيا رومانوفنا التهاماً، دون أي حرج. فكانتا من شدة الألم تنزعان أصابعهما أحياناً من قبضة يده الضخمة المعروفة، ولكنَّه لم ينتبه هو إلى الأمر، حتى ليشدهما شداً أقوى. ولو قد طلبتا منه ‌في تلك اللحظة أن يرمي نفسه من أجلهما إلى أسفل السلَّم منكس الرأس لفعل ذلك فوراً بلا مناقشة ولا تردد. كانت بولخيريا الكسندروفنا تستغرب بعض الشيء أن يضغط الشاب يدها بهذه الشدة، وبهذا الشذوذ، ولكنَّها من شدة تأثرها حين تتذكر ابنها روديا، وأنَّها تعتبر رازوميخين عوناً من العناية الإلهية، كانت تريد ألا تعترف بهذه التفاصيل. أما أفدوتيا رومانوفنا المتأثرة أيضاً، فقد كانت، رغم عدم وجلها، لا تخلو من شعور بالدهشة بل الشعور بالخوف،

حينما يلتقي بصرها بتلك النظرة المتألقة التي يلقيها عليها صديق أخيها. غير أن الثقة العظيمة التي خلقها عندها حديث ناستاسيا عن هذا الرجل الغريب هي التي كانت تنتزع رغبتها في الهروب جارة أمها معها. ثم كانت تدرك حقاً أنَّهما أصبحتا لا تستطيعان الخلاص منه الآن. يضاف إلى هذا أنَّها قد هدأت بعد عشر دقائق:

فإن رازوميخين يستطيع الظهور على حقيقته من أول نظرة، أياً كانت حالته، فإذا من يراه يعرف مع من ذا يتعامل.

هتف رازوميخين ليقنع بولخيريا الكسندروفنا:

لا مجال للالتجاء إلى صاحبة البيت! تلك أكبر حماقة يمكن ارتكابها لو بقيت لأثرت غضبها رغم أنَّك أمه، ولا يدري إلا الشيطان ما قد يحدث! اسمعيني، إليك ما سأفعل: تبقى ناسياستا الآن إلى جانبه، واصطحبكما إلى بيتكما، لأنَّكما لا تستطيعان السير وحيدتين في الشوارع. عندنا، في بطرسبورغ، من هذه الناحية...... لا بأس.... فمتى وصلتما أرجع أنا في الحال، فما أن ينقضي على ذلك ربع ساعة حتى أعود إليكما من جديد لأخبركما بكل شيء: أخبركما بحالته، وهل نام أم لم ينم، الخ الخ، لكما عليَّ عهد الشرف لأعودن إليكما بعد ربع ساعة ثم ألزم بيتي حيث يوجد ضيوف جميعهم ثملون، فآخذ زوسيموف ــ فهو طبيبه وهو الآن في بيتي ولكنَّه ليس ثملاً، هو لا يسكر أبداً ــ آخذه وأمضي به إلى روديا، ومن هناك نجيء إليكما فوراً، وهكذا تتلقيان أخباراً عن روديا مرتين خلال ساعة، في إحدى المرتين تتلقيان الأخبار من فم طبيب، نعم من فم طبيب، فتكون جادة أكثر مما أنقله أنا وحدي بطبيعة الحال....... فإذا لم يكن روديا بخير ..... أما إذا كانت حالته حسنة، لن يكون عليكما عندئذ إلا أن ترقدا وتناما. وأنا أقضي الليلة هنا، في فسحة السلَّم، دون أن يلاحظ وسأطلب من زوسيميوف أن يبيت عند صاحبة البيت، فيكون بذلك تحت تصرفي ورهن إشارتي، من ينفعه

في هذا الوقت أكثر، أنتما أم الطبيب ؟ الطبيب طبعاً! عودا إذاً إلى بيتكما! ولا مجال للتفكير في الالتجاء إلى صاحبة البيت، أنا يمكن أن أبيت عندها، أما أنتما فلا. لن توافق على هذا، لأنَّها سيدة حمقاء. ستغار ..... من أفدوتيا رومانوفنا. ومنك أنت أيضاً. هي امرأة غريبة الأطوار. على أنني ذاتي غبي! لا بأس .... هيا بنا أتثقان بي؟ أم لا؟

ردت أفدوتيا رومانوفنا:

لننصرف يا ماما. لاشك أنَّه فاعل ما يقول. لقد ردَّ أخي إلى الحياة. وإذا صح أن الطبيب يقبل أن يبيت هنا، فهل نتمنى خيراً من هذا.

هتف رازوميخين مفتوناً:

حقاً ..... إنَّك لتفهمينني لأنَّك ملاك. هيا بنا، يا ناسياستا، اصعدي إلى فوق، فوراً، مع النور، وابقي هناك بقربه، وأنا أعود بعد ربع ساعة.

لم تعترض بولخيريا الكسندروفنا، رغم أنها لم تقتنع كفاية. وتأبط رازوميخين ذراع السيدتين وجرَّهما إلى السلَّم. ولكن الأم ظلَّت قلقة، فراحت تحدث نفسها:

قد يكون مقداماً طيباً، ولكن أهو قادر على أن يفي بوعده، وهو على ما هو عليه؟" قال رازوميخين وكأنَّه قدر مجرى خواطر بولخيريا الكسندروفنا، وبينما كان يسير بخطى واسعة تشكل مشقة لدى السيدتين للحاق به، وهذا أمر غير ملحوظ، قال:

آ ..... أنا أفهم! أنَّك تقدِّرين أنني على ما أنا عليه، لا ...... يعني ..... أنا سكران تماماً، ولكن ليس هذا هو السؤال، ليست الخمرة هي التي أسكرتني ..... فالضربة التي سقطت على رأسي سقطت حين رأيتكما! على كل، لا تباليا بهذا! أنا لا شيء! أنا أهذي، أنا لست جديراً بكما، البتة ..... فما أن أوصلكما حتى أذهب إلى القناة، فأصب على رأسي جردلين ماء فأفيق على الفور. ليتكما تعرفان كم أحبكما كلتيكما! لا تضحكا! لا تزعلا!

ازعلا من الجميع، إلاي! أنا صديقة، فإذاً أنا صديقكما. ذلك ما أريد أن يكون! ولقد أوجست هذا منذ السنة الماضية.... نعم، في لحظة ما، هكذا.... على أنني لم أوجس شيئاً البتة، لسبب بسيط هو أنكما هبطتما عليَّ من السماء. من الجائز جداً أن لا أنام طوال الليل. كان زوسيموف يخشى منذ قليل أن يجن روديا. لذلك يجب تحاشي اهاجته.

هتفت الأم تسأل:

ماذا تقول؟

وسألته أفدوتيا رومانوفنا مروعة:

حقاً؟ الطبيب نفسه قال لك؟

قال لي! ولكن كلامه ليس صحيحاً، على الإطلاق. لقد أعطاه دواء، رأيت هذا المسحوق لكنكما وصلتما...... آه ...... كان من الأفضل ألا تصلا إلا غداً! على كل حال، لقد أحسنا صنعاً إذ انصرفنا. وبعد ساعة سيأتيكم زوسيموف بتقرير كامل. ليس زوسيموف ثملاً مثلي، ليس سكراناً هو. وأنا لا ولن أسكر...... لماذا شربت حتى ثملت؟ لماذا؟ لأنَّهم جروني إلى مناقشتهم، أولئك الملاعين! وكنت مع ذلك قد قررت الاضطلاع برفض المناقشة. ما أسخف ما كانوا يقولون! كدت أقتتل معهم! وتركت عمي يترأس عوضاً عني. هل تصدقان؟ أنَّهم ينادون باللاشخصية ويعتبرونها أفضل الطروح ..... يقولون إن على المرء أن لا يكون عين نفسه. ويسمون هذا ذروة التقدم. ويا ليت السخافات التي قالوها كان فيها شيء من أصالة وطرافة. أبداً......

قالت بولخيريا الكسندروفنا بخجل ووجل:

اسمع ........

ولكن مقاطعتها هذه لم تزده الا اندفاعاً وحماسة. فصاح بصوت أعلى:

أية خواطر نزلت عليك؟ ..... أنت تقدِّرين أنني بسبب حذرهم وهذيانهم وأكاذيبهم...... أبداً! أنا أحبُّ الهذر والهذيان والأكاذيب. إن الكذب هو الميزة

الوحيدة التي يمتاز بها الكائن الإنساني على سائر المخلوقات الحية، من يكذب يصل إلى الحقيقة. أنا إنسان لأنني أكذب. ما وصل امرؤ إلى حقيقة واحدة إلا بعد كذب أربع عشرة مرة بل ربما مائة وأربع عشرة مرة! وهذا بذاته ليس فيه ما يعيب. ولكننا نحن لا نعرف كيف نكذب بطريقتنا الخاصة. لك أن تقول آراء جنونية، ولكن لتكن هذه الآراء آراؤك أنت، فأغمرك بالقبل. لأن يكذب المرء بطريقته الشخصية، فذلك يكاد يكون خيراً من ترديد حقيقة لقَّنهُ إياه سواه. أنت في الحالة الأولى إنسان، أما في الحالة الثانية فأنت ببغاء لا أكثر. الحقيقة لا تطير، أما الحياة يمكن خنقها. لقد رئي هذا. إلى أين وصلنا من هذا الآن؟ نحن جميعاً، بغير استثناء، سواء في ميدان العلم، أو الثقافة، أو الفكر، أو العبقرية الخالقة، أو المثل الأعلى، أو الرغبات، أو الليبرالية، أو العقل أو التجربة، نحن في كل شيء، في كل شيء، في كل شيء، نعم، في كل شيء، ما نزال في الصفوف الأولى، الإعدادية لدخول المدرسة الثانوية! نحب أن نعيش على حساب عقل وأفكار الغير، وتعودنا على هذا! أليس هذا صحيحاً؟ أليس الأمر كما أقول؟ أليست هذه هي الحقيقة؟ كذلك قال رازوميخين وهو يهز يده السيدتين ويضغطهما. أجابت المسكينة بولخيريا الكسندروفنا:

والله ...... لا أعلم!

وأردفت أفدوتيا رومانوفنا قائلة بلهجة الجد:

نعم، هو هذا، رغم أنني لا أوافقك على جميع النقاط.

ثم سرعان ما أطلقت صرخة ألم، لأن رازوميخين قد ضغط يدها في هذه المرة ضغطاً شديداً فلم تملك إلا أن تطلق تلك الصرخة.

وهتف رازوميخين مفتتناً:

نعم؟ تقولين نعم؟ إلا أنَّك إذاً .... ألا إنك إذاً لينبوع خير، وطهارة، وعقل، وكمال. هاتي يدك، هاتي يدك، وأنت أيضاً، ناوليني يدك. أريد أن أقبل

يديكما في هذا المكان نفسه، في هذه اللحظة نفسها، جاثياً على ركبتي، ساجداً.

وركع في منتصف الطريق، الذي كان خالياً في تلك اللحظة لحسن الحظ.

صرخت بولخيريا الكسندرفنا قلقة مضطربة جداً:

كفى، من فضلك! ماذا تفعل؟

وقالت دونيا ضاحكة، رغم قلقها هي الأخرى:

انهض، انهض!

لن انهض، أبداً، لن أنْهض إلا بعد أن تناولاني يديكما! نعم هكذا. وكفى الآن! انهض ونمضي. أنا امرؤ غبي مسكين. أنا لست جديراً بكما. أنا سكران وأحسُّ من هذا بخزي وعار...... أنا لا أستحق أن أحبكما. أما السجود أمامكما فهو واجب وحق يقع على كل إنسان ليس أحمق. لذلك سجدت .... ولكن هذا هو مسكنكما. يكفي هذا سبباً أجاز لروديون أن يطرد صاحبكما بيوتر بتروفتش باحتقار وازدراء! كيف خوَّل نفسه أن يسكنكما في غرفة مفروشة كهذه الغرفة؟ هذه فضيحة! هل تعلمان نوع الناس الذين يؤوونهم هنا؟ ثم يقول إنك خطيبته أليس كذلك؟ فاسمحي لي أن أقول لك إذاً إن خطيبك رجل قذر!

بدأت بولخير الكسندروفنا، إنك تنسى أن......

فسارع رازوميخين مستدركاً:

نعم، نعم، أنت على حق! أنا أقول سخافات!

إنني لأشعر بخجل وعار. ولكن..... ولكن لا يمكنك أن تغضبي لأنني كلمتك بهذه الطريقة. ذلك أنني تكلمت مخلصاً صادقاً، ولم ألقه لأنني ..... هم ..... لا...... لن أقول ...... لو قلت لكان كلامي دناءة ...... الخلاصة ...... أنا لم أقل ما قلت لأنني ..... بك ...... همْ ..... لا، لاينبغي أن أقول لماذا ...... لا أجرؤ

..... ولكن، حين دخل علينا في هذا اليوم، أدركنا جميعاً على الفور أن هذا الرجل ليس منا. لا لأننا رأيناه يصل مجعَّد الشعر قد خرج من عند الحلاق رأساً، لا ولا لأنَّه أسرع يعرض ثقافته ومعلوماته، بل لأنَّه جاسوس ومستغل لأنَّه بخيل كيهودي، لأنَّه دجال، ولأن هذا كله واضح لا يخفى! أتظنانه ذكياً؟ لا بل هو غبي، غبي! أهذا زوج لك؟ يا رب؟

ثم أضاف يقول ويتوقف بغتة لحظة بدأوا يصعدون السلَّم:

اسمعا يا سيدتي: إن الضيوف الذين هم في بيتي الآن أناس شرفاء مهما سكروا، ورغم أننا جميعاً نهذر ونهذي ـ وأنا أحدهم ـ فَهَذْرَنَا وهذياننا سيفضيان بنا يوماً إلى الحقيقة، لأننا سائرون في درب الإخلاص والتجرد عن النفع، وليس هذا هو طريق بيوتر بتروفتش، فهذا الأخير لا يسلك سبيل التجرد عن المنفعة .... نعم، فرغم أنني وصفتهم في هذا المساء بجميع النعوت وأنزلت بهم كل الشتائم، فأنا أقدرهم جميعاً حق قدرهم. وأنا أحب زاميوتوف رغم أنني لا أحترمه. أنا أحبه فعلاً، لأنَّه غرٌّ على كل حال. أحب حتى ذلك الحيوان زوسيموف، لأنَّه شريف ولأنَّه يعرف مهنته. ولكن كفى الآن هذا قلت كل شيء.... واعذراني، أليس كذلك؟ هيا بنا! أنا أعرف هذا الدهليز سبق أن جئت إلى هذا المكان، وهنا، في رقم 3 وقعت فضيحة. أين تسكنان ؟

أي رقم؟ ثمانية؟ طيب .... أغلقا عليكما الباب طوال الليل، ولا تمنحا الدخول لأحد. سأعود إليكما بأنباء بعد ربع ساعة، وبعد نصف ساعة من عوني الأولى، سأعود ثانية مع زوسيموف. ستريان استودعكما الله. أنا ذاهب!

قالت بولخيريا الكسندروفنا لابنتها خائفة مضطربة:

ربَّاه! ماذا سيحدث يادونتشكا!

ردَّت دونيا وهي ترفع قبعتها وطرحتها:

هدئي روعك يا ماما. أن الله نفسه هو من أرسل إلينا هذا السيد. رغم أنَّه مسرف بالسكر. في وسعنا أن نعتمد عليه، أؤكد لك. انظري إلى كل ما فعل

في سبيل أخي قبل أن نصل ....

آه يادونتشكا. الله يعلم هل يعود! وكيف أمكنني أن أوافق على ترك روديا؟ .... ثمَّ أنني لم أكن أتوقع أن أراه على هذه الحالة! ما أقساهُ! كأنَّه لم يسرَّ برؤيتنا!

وتلألأت الدموع في عيني الأم:

لا يا أماه. ليس الأمر هكذا. أنت ما تمليته جيداً، لأنك بكيت كثيراً. إنَّه مريض مرضاً مدنقاً شديداً.

آ ...... المرض! ماذا سيجري؟ هل وعيتِ اللهجة التي بها خاطبك؟

أضافت الأم هذا السؤال الأخير، وهي تختلس نظرة وجلة إلى عيني ابنتها لتقرأ ما يدور في ذهنها، مسرية عن نفسها منذ الآن، لأن دونيا دافعت عن أخيها، وهذا دليل الصفح.

ثم أردفت بهدف كشف رأي ابنتها دونما كتمان:

أنا واثقة أنَّه سيرجع غداً إلى عواطف أخرى.

فردت أفدوتيا رومانوفنا بلهجة قاطعة:

أما أنا فواثقة بعمق أنَّه سيكرر غداً ما قاله اليوم ..... في هذا الموضوع. وبالطبع كانت المسألة صعبة لأنَّها تتناول نقطة كانت بولخيريا، في هذه اللحظة على الأقل تخشى المجازفة في تناولها. واقتربت دونيا من أمها فقبلتها، وردت الأم بعناق جارف دونما نأمة. ثم قعدت تنتظر عودت رازوميخين قلقة، وتنظر وجلة إلى ابنتها التي غرقت في خواطرها وأفكارها مضطربة هي الأخرى، وراحت تذرع الغرفة طولاً وعرضاً، مصالبة ذراعيها على صدرها. إن هذا المشي في الغرفة طولاً وعرضاً هو إحدى عاداتها، وأمها تخشى دائماً في مثل هذه اللحظات أن تعكر تأملاتها. لاشك أن رازوميخين السكران كان مضحكاً جداً حين استولى عليه هذا الهيام المباغت بأفدوتيا رومانوفنا، ولا سيَّما في ذلك الوقت الذي كانت خلاله تطوف في الغرفة حزينة مفكرة

مصالبة ذراعيها على صدرها، ما أكثر الذين لو رأوها لعذروا الفتى ولو كان من غير خمر. وأفدوتيا رومانوفنا، صبية رائعة الجمال، فارعة القد، معتدلة القامة، قوية، واثقة بنفسها - كما تشهد كل إمارة من إمارتها - دون أن يجردها هذا من شيء، مرونتها ولدانتها، وخفتها ورشاقتها، هي تشبه أخاها سحنة، ولكنَّها يمكن أن توصف بأنَّها "آية من آيات الحسن النادرة. شعرها كستنائي، أزهى قليلاً من شعر أخيها، وعيناها اللتان تشبهان أن تكونا سوداوين، تلتمعان وتسطعان، وتعبران عن عزَّة وشهامة، وأحياناً عن رقة وعذوبة وطيبة لا حدود لها. وهي شاحبة، ليس شحوب مرض، فوجهها يشع نضارة وعافية، وفمها أقرب إلى الصغر، شفتها السفلى حمراء قانية، بارزة قليلاً لبروز ذقنها. وهذا هو العيب الوحيد في ذلك الوجه النوراني، على أنَّه عيب يضفي عليها طابعاً أصيلاً من صلابة وثبات، بل من تباهٍ وزهو. وإذا كان سيماؤها يعبر عن الجدِّ والتأمل أكثر مما عن المرح، فبسمتها، وضحكتها البهيجة، ضحكة الشباب وفيها شيء من لا - مبالاة، تتناسبان وجهها كثيراً، فلا غرابة إذاً أن نرى رازوميخين الذي يتصف بالحرارة والاستقامة والبساطة، أن نرى رازوميخين القوي كعملاق، الثمل فوق ذاك، الذي لم يسبق أن رأى جمالاً كهذا، لا غرابة أن نراه يختل من أول نظرة. يضاف إلى هذا أن الصدفة قد فرضت، أن يرى دونيا في اللحظة السارة التي كانت في أثنائها زاخرة بالحبور والسرور لرؤية أخيها، وأن يراها بعد ذلك وقد أخذت شفتها السفلى ترتجف استياء من مطالب هذا الأخ القاسية الوقحة، فكيف كان يمكنه أن يقاوم وأن يصمد؟

وقد صدق حين قال على السلَّم، في سكره، إن صاحبة البيت الذي يسكنه راسكولنيكوف براسكوفيا بافلوفنا الغريبة الأطوار، سوف تغار لا من أفدوتيا رومانوفنا فحسب، بل ربَّما كذلك من بولخيريا الكسندروفنا، فهذه رغم أنَّها بلغت الثالثة والأربعين، تبدو أصغر سناً بكثير بوجهها الذي

يحمل بقايا الكياسة السابقة والحسن التليد، وهذا هو في كثير من الأحيان شأن النساء اللواتي استطعن الاحتفاظ حتى دنو الشيخوخة بصحوة الذهن، ونضارة الإحساسات وحرارة القلب الطاهر الشريف ونضيف إلى هذا باستطراد أن الاحتفاظ بهذا كله، هو للمرأة الوسيلة الوحيدة التي تمكِّنها ألا تفقد جمالها حين تشيخ صحيح أن شعر بولخيريا قد أخذ يبيض ويتشعث، وأن غضونا صغيرة رقيقة، ظهرت حول عينيها منذ مدة طويلة، وان خديها قد خسفا وجفا بسبب الهموم والنوائب، ولكن هذه السيماء بقيت منوِّرة، حتى ليمكن أن يقال أنَّها صورة لدونيا بزيادة عشرين عاماً، مع فارق وحيد هو أن الشفة السفلى عند الأم ليست بارزة. كانت بولخيريا امرأة حساسة، إنما حساسية لا تصل إلى العاطفة المفرطة. وهي خجولة، ميَّالة إلى المجاراة، مستعدة للتنازل، حتى حين يخالف هذا قناعاتها. ولكن لهذا حدود، فمتى كان الأمر أمر شرفها وواجباتها وقناعاتها العميقة، فما من ظرف يمكن أن يحملها على تخطي تلك الحدود.

ما أن انقضت عشرون دقيقة على انصراف رازوميخين، حتى نقر الباب نقرتين خفيفتين سريعتين: لقد عاد رازوميخين.

أسرع يقول منذ فتح له:

لن أدخل. لا يسمح الوقت. أنَّه ينام بهدوء وعمق. اسأل الله أن يظل نائماً هكذا عشر ساعات متتالية! ناستاسيا قائمة عليه. أوصيتها ريثما أعود. والآن أنا ماضٍ إلى زوسيموف. سيحدثكما هو عن حاله. ثم تعقلان فتنامان، ذلك أنني أرى أنكما تكادان تسقطان من فرط التعب.

قال هذا واندفع ينصرف:

هتفت بولخيريا فرحة جداً:

ما أعظم ما يمتاز به هذا الشاب من فطنة وإخلاص!

أجابت أفدوتيا بشيء من المرارة وهي تستأنف سيرها في الغرفة ذهاباً وعودة:

إنَّه رجل رائع كما يبدو!

وما أن انقضت على ذاك ساعة واحدة، حتى سمع وقع أقدام في الدهليز، ونقر الباب ثانية. كانت المرأتان قد انتظرتا في هذه المرة وهما ممتلئتان ثقة بصدق وعد رازوميخين. وقد جاء رازوميخين مصطحباً زوسيموف فعلاً. رضي زوسيموف فوراً أن يترك الاحتفال ليعود راسكولنيكوف، ولكنَّه لم يقبل أن يأتي إلى السيدتين إلا بشد الإذن، لأنَّه كان يرتاب في حالة رازوميخين. فما أسرع ما رضي غروره وحتى شعر بشيء من السرور حين أدرك أنَّهما كانتا تنتظرانه حقاً كما ينتظر عراف. وقد لبث معها عشر دقائق تماماً، وأفلح كل الفلاح في أن يقنع بولخيريا الكسندروفنا وأن يهدئ انفعالها. وكانت أقواله كلها تشهد على اهتمامه البالغ بالمريض؛ ولكنه حافظ مع ذلك على هيئة مسرفة في الجد والرصانة تناسب طبيباً في السابعة والعشرين من عمره يستشار في ظرف خطير، فلم ينطق بكلمة واحدة تبتعد به عن موضوعه، أولاً أظهر أية رغبة في أن تقوم بينه وبين السيدتين صلات شخصية أكثر مودة. وإذ لاحظ منذ دخوله جمال أفدوتيا رومانوفنا الباهر، حاول فوراً أن لا ينتبه إليها أبداً، وظَّل خلال مدَّة الزيارة لا يكلِّم إلا بولخيريا الكسندروفنا وحدها. وشعر من سلوكه هذا برضى كثير عن نفسه. أما فيما يتصل بالمريض فقد أعلن أنَّه وجده هذه المرة في حالة مرضية على وجه الإجمال، وشخَّص المرض فقال إن له، عدا الظروف المادية المؤسفة التي عاشها المريض خلال الأشهر الأخيرة، أن له عدا تلك الظروف أسباباً نفسية، "فهو ثمرة عوامل كثيرة معقدة، منها عوامل نفسية ومادية، فهو ثمرة الهموم والمخاوف وبعض الأفكار، وإذ لاح أن أفدوتيا رومانوفنا تصغي اليه بانتباه إلى آخره وملحٍّ جداً، أفاض في شرح رأيه مجاملاً. حتى إذا سألته بولخيريا الكسندروفنا بصوت قلق وخجول عمَّا إذا كان هنالك شيء من "أعراض جنون ......"

أجابها وابتسامة على فمه هادئة صريحة بأنَّه بالغ في تفسير أقواله فلئن

كان صحيحاً أنَّه لاحظ لدى المريض ميلاً إلى مرض الفكرة الثابتة، لئن لاحظ لديه علامات مرض الفكرة الوحيدة - لاسيَّما وأنَّه هو زوسيموف، عاكف الآن على دراسة هذا الفرع الهام من فروع الطب - فإن علينا أن نتذكر أيضاً أن المريض كان يهذي حتى هذا اليوم، أو حتى هذا اليوم تقريباً"، وأضاف زوسيموف يقول "ولا ريب أن وصول ذويه سيحسن إليه كثيراً، وسيسري عنه، أي سيساعد على شفائه، هذا إذا أمكن (أضاف بلهجة ذات دلالة) أن "يتجانب صدمات عنيفة جديدة" قال زوسيموف ثم نهض، حيّا تحية مزيجاً من جدٍّ وودٍّ، وخرج تغمره عبارات الامتنان والدعاء من بولخيريا الكسندروفنا. حتى إن يد افدوتيا رومانوفنا، الصغيرة، امتدت اليه من تلقاء ذاتها، فصافحها وخرج مفتوناً بهذه الزيارة، وبنفسه أكثر.

قال رازوميخين يختم الزيارة وهو يخرج مع زوسيموف:

سنتحدث غداً. أما الآن يجب أن تناما، حالاً. سآتيكما غداً في أول ساعة لأنبئكما بكل شيء.

قال زوسيموف بحرارة حين صارا في الشارع:

فتاة فاتنة، أفدوتيا رومانوفنا هذه!

زأر رازوميخين:

فتانة؟ تقول فاتنة ؟

وهجم عليه فجأة، أمسك بخناقه، وتابع كلامه وهو يهزه من ياقته ويلصقه بجدار:

إذا تجاسرت يوماً..... هل تسمع؟ أتسمع ؟ أتسمع ؟

فقال زوسيموف مرتبكاً:

فلما تركه حدق إلى رزاوميخين بنظرة مركزة ثمُّ راح بقهقهة كان رازوميخين واقفاً أمامه يؤرجح ذراعيه، غارقاً في تأملات سوداء خطيرة.

قال رازوميخين بوجه مكفهرٍّ مُربَدُ الأحاسيس:

أنا حمار طبعاً، وأنت أيضاً حمار، أنت أيضاً

لا صاحبي، أنا شأني شأن آخر، أنا لا أفكر بترهات.

وشرعا يمشيان صامتان مطبقان الفاه، وكان يبدو على رازوميخين الهمّ الكاوي، فلمَّا وصلا إلى قرب عمارة راسكولنيكوف قطع رازوميخين الصمت، قال:

اسمع يا زوسيموف. أنت فتى رائع، لكنَّكَ فضلاً عن كل عيوبك، تمتاز بما عرفت به زير نساء، وبأنَّك من أكثر زملائك خلاعة. بل أنت نجس إلى أبعد الحدود. أنت مخلوق ضعيف ذو أعصاب خائرة. أنت ترِّفه نفسك، وتسمن جسمك، ولا ترتدع عن شيء، لذلك أقول لك نجس، فبهذا يصير المرء نجساً، وقد بلغت من الرخاوة حدَّاً لا استطيع معه أن أفهم كيف أمكنك أن تكون رغم هذا طبيباً بارعاً، بل مخلصاً متفانياً. أنت تنام على فراش من ريش (طبيب ينام على فراش من ريش! ثم تنهض في الليل مسرعاً لتعود مريضاً من المرض، على أن المسألة غير هذا! إليك المسألة: ستبيت هذه الليلة في شقة صاحبة البيت (استطعت أن أقنعتها بذلك بعد جهد) وسأبيت أنا في المطبخ. هذه فرصةٌ لك لكي تتعرف إليها عن كثب. ولكنَّها ياصاحبي ليست كما تظن.

ولكنني لا أظنُّ شيئاً البتة!

هاهنا يا صاحبي سكوتٌ وخفرٌ وحياءٌ وخجلٌ وعِفَّة لا تُغالب. وهاهنا بالإضافة إلى ذلك تنهدات وذوبان كذوبان الشموع، خلصني منها ناشدتك بجميع شياطين الأرض! وهي جذَّابة بأعظم و أروع ما تكون الجاذبية.... سأعرف كيف أشكر لك هذا الصنيع، أقسم لأعرفنَّ كيف أشكر لك هذا الصنيع!

راح رزوسيموف يضحك بل يقهقه ما طاب، ثم قال:

ماهذا الاضطراب الشديد! ولكن عساي فاعل بها؟

أؤكد لك أن هذا لن يشق عليك كثيراً. ستقعد بقربها، وتحدثها بما

يخطر ببالك. نعم، ليس عليك سوى أن تستريح و تحكي. إبداً بعلاجها من علة ما مادمت طبيباً. ولن تندم على هذا، أقسم لك! ثم أن عندها بيانو من طراز قديم. أنت تعلم أنني تعلمت شيئاً من هذا الفنِّ الرائع.... وثمة أغنية روسية عاطفية تقول: "بدموعي المدرارة، سأسقي..." وهي تهوى الغناء العاطفي، وبهذا إنمَّا بدأنا. وإذ ذاك تكون عازفاً ماهراً، بل أستاذا بالعزف، موسيقار، وأكثر، رونتشاين.... أحلف لك لست خاسراً!

- أتراك قدَّمت لها وعوداً؟ تعهداً خطياً مثلاً؟ هل أمَّلتَها بأن تتزوجها؟

لا، لا، لاشيء من هذا قطعاً! هي ليست كما تظن. لقد حاول تشيباروف

ما عليك إلا أن تتركها!

ولكن هذا مستحيل.

لماذا؟

فقط لأنَّه محال. هذا هو الأمر، هناك مبدأ الإغراء يا صاحبي.

ولكن وإن حاولت اغراءها؟ أحلف لك أن لافرق عندها! هي ترضى أن تجلس بقربك و تتنهد. أنا مثلاً لبثتُ يومين على الأقل أحدثها، عن مجلس النواب البروسني، وأسهبت جداً، إذ كان عليَّ أن أدلي بين يديها بشيء ما! وكانت تستزدني وتذوب ولهاً ودلالاً. ولكن حذار أن تكلمها عن الحب، ففي هذه الحال قد تنزل بها نوبة تشنج، المهم أن تجعلها تعتقد أنَّك لا تقوى على مغادرتها، هذا يكفيها. و ستكون آنئذٍ كأنَّك في بيتك! اقرأ، اضطجع، اكتب، بل في وسعك أن تجازف و تقبّلها.... ولكن إمض إلى هذا بتؤدة ورقة!...

ولكن ما حاجتي إلى هذا كله ؟

آه! لا أدري كيف أشرح لك الأمر. اسمع: أن كلاً منكما قد خلق للآخر. حتى لقد فكرت بك من قبل ومادمت ستؤول. آن إلى هذا لا مهرب، فسيان أن يتم هذا من دون تأجيل، إنَّما بالوقت الملائم لا قبل ولا بعد. وهنا يا صديقي يتحقق مبدأ فراش الريش، بل تتحقق أشياء كثيرة أيضاً. هنا إغراء، هنا

خاتمة المطاف، هنا المرساة، هنا المرفأ الهادئ الآمن، هنا سرة الأرض، هنا أسس الكون ذاتها، هنا الفطائر الدسمة بأنواعها، سماور المساء، الزفرات الهادئة الولهى، الجو الدافئ، لا برد ولا شوب، الثياب المغراة! نعم، ستكون كما الميت، وفي الوقت عينه ستكون حياً: ترمي طائرين بضربة واحدة! اللعنة! بدأت أهرف، أبربر آن أوان النوم! اسمع: يتفق لي أحياناً أن أستيقظ في الليل؛ إذا استيقظت هذه الليلة سأذهب إلى روديون. إنَّما لا، لا ضرورة! لا تقلق كثيراً ولكن إذا حدست بالأمر، بادرتك مشاعرك اذهب اليه. إذا لاحظت شيئاً غير مألوف، كهذيان أو حمّى، أيقظني فوراً. على أن هذا احتمال ضعيف.

# الفصل الثاني

استيقظ رازوميخين في الغد بعد السابعة بقليل، مشغول البال مهموماً. إن أموراً كثيرة داعية إلى البلبلة هاجمته في ذلك الصباح ولم يكن قد توقعها. ولا في حياته تخيل أن ينهض يوماً على هكذا وضع. بادرته حوادث الأمس بحذافيرها، و أدرك أن ربَّما جرى معه شيء خارق تماماً، وأنَّه أحسَّ بعاطفة لم يعرفها من قبل، لا تشبه ما سبق أن أحسه. لكنَّه أدرك في ذات الوقت بوضوح أن الحلم الذي نشأ في دماغه حُلمٌ مُستحيل، حلم في دائرة استحالة التحقق جعله يشعر بالخزي، فسارع ينتقل إلى مشاغل أخرى محسوسة فورية من المشاغل التي تركها له "ذلك اليوم المشؤوم".

وأكثر ما آلمه هو تذكره تصرفه "الدنيء الخسيس" لا لأنَّه سَكِرَ فحسب، بل أيضاً لأنَّه كان غبياً فشعر بغيرة بلهاء فأخذ يذمُّ للفتاة خطيبها مُستغِلّاً الوضع الذي كانت فيه، دون أن يعرف ما بينهما على وجه الدقة. بل ومن دون أن يعرف أن هذا الرجل على وجه التحديد. ثُمَّ أيُّ حقٍّ لهُ في يحكم عليه بهذه السرعة وهذه الخفة والطيش؟ من ذا الذي نصَّبه قاضياً؟ وهل يمكن أن تقبل صبية مثل أفدوتيا رومانوفنا أن تبيع نفسها بالمال لرجل تافه حقير؟ فلابد إذاً أنَّه يملك بعض المزايا.... أما هذه الغرفة المفروشة التي استأجرها لهما كيف كان يتسنى له أن يعرف ما شأنها، أليس هو يهيء لهما شقة مناسبة؟ آه! ..... ما أحقر هذا كله في نظر رازوميخين الآن! هل يبرر سكره ذاك السلوك؟ يا له من مبرر، لا بل فسكره يلطخه أكثر! الخمرة تكشف عن حقيقة الرجل، ولقد انكشفت الحقيقة بجلِّها وجلالها، بكل ما علق بها من أدران. "إن قذارة قلبه الحسود" قد ظهرت واضحة للعيان. ثم أيجوز له أن يراوده، هو رازوميخين، حلم كهذا، بأي شكل كان؟ ما قيمته، هو السكير المتشدق المهذار؟ بل "كيف يمكن أن يعقد بينهما مقارنة تبلغ هذا

الحدِّ من السخف والاستهتار؟" سأل رازوميخين نفسه فإذا به يحمُّر خجلاً، ويتملَّكَهُ كَمدٌّ عنيف، ثُمَّ إذا به يتذكر بوضوح وفجأة، ربما عمداً، أنَّه قال بالأمس، على السلَّم أن صاحبة البيت ستغار من أفدوتيا رومانوفنا، فوقعت هذه الفكرة من نفسه موقعاً لا يطاق، فإذا به يضرب المدفأة بقبضة يده ضربة استجمع لها كل ما يملك من قوة، فجُرحت يده وكسرت الجرة؟؟؟

دمدم مع نفسه، بعد دقيقة، وهو يحس بشعور عميق من الذل: لا شكَّ أنَّه لا يمكنه محو أو إصلاح جميع هذه الدناءات التي ارتكبتها، لا الآن ولا في أي يوم فلا فائدة من التفكير فيها إذاً، وإنَّما الأفضل أن أذهب إليهما دون أن أقول شيئاً، وأن أقوم بواجباتي دون أن أقول شيئاً ...... دون أن أستغفر ...... دون أن أقول شيئاً البتة ..... فقد ضاع كل شيء منذ الآن طبعاً!"

ومع ذلك عني رازوميخين بهندامه في أثناء ارتداء ملابسه أكثر مما ألف أن يُعني به قبل ذلك اليوم، ما كان يملك إلا بزَّة واحدة. ولكن هبه كان يملك بدلة أخرى لتعمد أن يرتديها". على أنَّه لا يستطيع أن يستخف ويستهتر، فيذهب إليهما وسخ الثياب مشعث المظهر، فليس من حقه أن يهين مشاعر الآخرين ...... بخاصة أن هؤلاء الآخرين محتاجون إليه. وأنَّهم هم الذين يطلبونه. لذلك حرص رازوميخين على أن ينظف ملابسه بالفرشاة تنظيفاً بالغ العناية. أما قميصه كان نظيفاً، والحق أن رازوميخين، كان من هذه الناحية شديد العناية بنفسه دائماً .......

وقد اهتم في ذلك الصباح بنظافته، بل بالغ بهذا الإهتمام. وجد قطعة صابون عند ناستاسيا، غسل يديه بخاصة، أما سؤاله أيحلق ذقنه أم لا (كان لدى براسكوفيا بافلوفنا أمواس ممتازة بقيت لها من زوجها المتوفى زارنتسين)، أجاب عنه بالنفي، بل ثارت ثائرته حينذاك، فقال: لتبقى لحيتي كما هي! وإلا ظنتا أنني حلقت من أجل ...... نعم هكذا ستفسران الأمر! إذاً لا، لن أحلق الآن!"

وتابع: "المهم أنني قذر جداً، فظ جداً، قليل الأدب إلى حدٍّ بعيدٍ.... وهبني رجلاً شريفاً (ذلك أنني أعرف نفسي وأعرف أنني رجل شريف) ، فهل لي أن أعتز وأن أفخر بأني رجل شريف، المفروض في كل إنسان أن يكون شريفاً، بل أن يكون أكثر من ذلك. ثم إن لي (أنا أستعيد هذا كله) سقطات صغيرة إن لم تكن غير شريفة، فلا يمكن أن توصف على وجه الدقة بأنَّها.... هذا عدا الأفكار التي تساورني في بعض الأحيان ....... هِمْ ....... فكيف أطمع في أن أوازن بيني وبين أفدوتيا رومانوفنا؟ على كل حال، فليذهب هذا كله إلى الشيطان! نعم، سأبقى كما أنا عن عمد! سأظلُّ وغداً، خنزيراً، عابثاً ...... ولا أكترث. سأبقى على هذه الحال، وسأزيد ......."

وبينما كان رازوميخين يحاور نفسه، جاءه زوسيموف الذي بات ليلته في صالون براسكوفا بافلوفنا.

كان زوسيموف يتهيأ للعودة إلى بيته، فأراد قبل انصرافه أن يلقي نظرة على المريض. فأبلغه رازوميخين أن المريض نائم نوماً عميقاً. أمر بعدم إيقاظه، ووعد بأن يعود في حوالي الساعة الحادية عشرة. وأضاف يقول:

هذا إذا وجدته في غرفته! اللعنة! ما أصعب أن يعالج الطبيب مريضاً وهو لا سلطة له عليه. قل لي: هل هو الذي سيذهب إليهما، أم هما اللتان تأتيان اليه ؟

أجاب رازوميخين وقد فهم معنى السؤال:

أظن أنَّهما هما اللتان ستجيئان. وأغلب الظن أنَّهما ستحدثانه في شؤونهم العائلية. لذلك سوف اتركهم وأخرج. أما أنت تملك كطبيب حقوقاً أوسع.

لست كاهناً يسمع اعترافات. سوف آتي ثُمَّ ما ألبث حتى أخرج. ثمة أعمال كثيرة تناديني.

قاطعه رازوميخين وقد أربد وجهه:

هناك شيء يقلقني: أمس مساءً في أثناء سكري، أفلتت من لساني، وأنا أعود به إلى البيت، حماقات غريبة من ذلك بخاصة أنني قلت له..... إنك تخشى

أن يكون به جنوح إلى الجنون.

وقد عدت تقول هذا للسيدتين.

أعرف، هذه بلاهة، اضربني إذا شئت ولكن هل راودتك فكرة ثابتة بهذا الصدد؟

سخافة! ليس عندي أي فكرة! ولا تنسى أنك أنت الذي وصفته لي بأن هوساً ملحاً يسيطر عليه، وذلك حين جئت بي اليه. وبالأمس زدنا النار أواراً، ولا سيما أنت ..... حين رحت تتكلم عن الدَّهان. يا له من موضوع حديث، حين يكون هذا كله هو السبب في فقدانه صوابه! ...... آه ....... لو كنت أعلم على وجه الدقة ما جرى في قسم الشرطة – في ذلك اليوم، لو كنت أعلم أن وغداً هناك قد أهانه مفصحاً عن اشتباهه فيه، لما منحتك أن تطلق لسانك في حديث كهذا، المصابون بمرض الهوس الشديد يقيمون من الحبة قبة ومن الفأرة حصاناً، ويرون أشياء كثيرة حيث لا يوجد شيء قط! إذا صدقت ذاكرتي، فإن ما رواه زاميوتوف بالأمس قد أوضح نصف المسألة ثمة حالات أكثر خطورة! أنا أعرف حالة رجل في الأربعين كان مصاباً بمرض الوسواس، فلما كان جالساً إلى المائدة، فأخذ طفل في الثامنة يهزأ به، لم يستطع الرجل الاحتمال، فقتله. ونحن هنا إزاء شاب شقي يرتدي أسمالاً ممزقة، ويعاني بداية مرض فإذا بشرطي فظ غليظ يهينه من حيث بدء ظهور الوسواس عليه، ماذا تنتظر أن يحدث؟ شخص مصاب بالوسواس، هو إلى ذلك على جانب عظيم من كبرياء مسعورة، أفلا يكون هذا هو السبب الحقيقي للداء الذي يعانيه الآن. لا ريب في الأمر!..... بالمناسبة: إن زاميوتوف فتى لطيف جداً، ولكن ..... هِمْ ..... قد أخطأ أمس حين روى هذا كله! يا له من ثرثار أشر!

ولكن لمن روى هذا؟ لك ولي.

رواه أيضاً لبورفيري

ما قيمة أن يرويه أيضاً لبودفيري؟

بالمناسبة ألك تأثير عندهما، أقصد الأم والأخت؟ يجب أن تكونا حذرتين معه اليوم.

ردَّ رازوميخين على مضض:

سيكون كل شيء على خير وجه.

لماذا هو غاضب على لوجين؟ ماذا يأخذ عليه؟ هو رجل ثري، ويبدو أن البنت لا تبدي أي رفض، وهما لا تملكان فجلة، هه؟

صرخ رازوميخين مهتاجاً:

لم تسألني هذا السؤال؟ ما شأنك أنت بهذا؟ من أين لي أن أعرف، أتملكان فجلة أم ثروة! إسألهما تعرف.

ما أغباك أحياناً! واضح أنَّك ما صحوت من سكرك! إلى اللقاء. واشكر عني لبراسكوفيا بافلوفنا ضيافتها. لقد حبست نفسها في غرفتها، وكانت قد استيقظت في الساعة السابعة وجاؤوها بالسماور، ولكني لم أتشرف برؤيتها.

في التاسعة تماماً وصل رازوميخين إلى منزل بالاكايف، كانت السيدتان تنتظرانه منذ مدة طويلة منفعلتين من نفاد الصبر، فقد نهضتا في السابعة أو قبل، فلمَّا دخل عليهما مكفهر المحيا، حياهما بيد لا مبالية، وسرعان ما غضب من خجله هذا غضباً كاوياً. ذلك أنَّه لم يضع في حسابه كيف ستستقبله بولخيريا الكسندروفنا: هرعت إليه هذه الأخيرة، أمسكت يديه، وكادت تقبلهما. ألقى هو نظرة مهيبة على أفدوتيا رومانوفنا، فكان وجهها الذي ينم عادة عن الكبرياء، يعبر في تلك اللحظة عن شكرٍ عميقٍ، وصداقةٍ واضحةٍ، واحترامٍ صدوق، لم يتوقع أبداً كل هذا ولا جزءاً منه بل كان لا ينتظر إلا نظرات ساخرة، واحتقاراً ومقتاً، فلو استقبل فعلاً بشتائم متلاحقة لكن وقع هذا في نفسه أسهل وأيسر، ولكانت قدرته على احتماله أعظم وأكبر، إنَّما شعر الآن باضطراب بليغ وبلبلة شديدة حقاً، إنما ثمة موضوع للحديث من حسن الحظ، فتمسك به على الفور.

حينما علمت بولخيريا الكسندروفنا أن روديا "لم يستيقظ بعد" و كل شيء على أفضل وجه، أبدت ارتياحاً عميقاً ورضى واسعاً، لأنَّها كانت فعلاً "في حاجة بالغة للتحدث إلى رازوميخين حديثاً مسهباً قبل أن ترى ابنها" وهنا أثير موضوع الشاي، فدعي رازوميخين إلى تناولها مع السيدتين، فهما بانتظاره. دقت أفدوتيا رومانوفنا الجرس، فجاءها خادم قذر المظهر رثُّ اللباس، أمر بإحضار الشاي، لبى الطلب، إنما بأسلوب في غاية الغباء ما جعل السيدتين تصفعان خجلاً. وتمنى رازوميخين لو يندد بهذه "الغرفة المفروشة"، ولكنه تذكر لوجين فأمسك عن الكلام، وشعر بحرج، وابتهج للغاية حين شرهت بولخيريا الكسندروفنا تمطره بوابل من الاسئلة.

ظلَّ يتكلم خلال ثلاثة أرباع الساعة، فكان يقاطع دائماً لتطرح عليه أسئلة أخرى، ومع ذلك استطاع أن يروي قدر ما يعرف - الوقائع الأساس من حياة روديون رومانوفتش منذ سنة حتى إصابته بالمرض الذي تحدث عنه بالتفصيل. لكنه سكت عن أمور كثيرة كان ينبغي أن يسكت عنها، بخاصة المشهد الذي وقع في قسم الشرطة وجميع النتائج التي انبعثت عنه. كانت السيدتان تلتهمان أقواله التهاماً. لكنه عندماً ظن أنَّه انتهى من الكلام وأفرح سامعيه، بدا لكأنَّه في نظرهما لم يكد يبدأ الكلام.

أردفت بولخيريا الكسندروفنا متعجلة:

قل لي، قل لي، ما رأيك .... معذرة ..... إنني لا أعرف اسم حضرتك.

دمتري بروكوفتش.

نعم، قل لي دمتري بروكوفتش: أودُّ جداً جداً لو أعرف .... كيف هو ..... يرى الأمور الآن ....... بوجه عام ...... أقصد ........ هل تفهمني؟ كيف أفصح بجلاء؟ ....... أعني ماذا يريد ولا يريد؟ أما يزال شديد الغضب سريع الهياج؟ ما هي رغباته ...... و...... و ....... كيف أُعبِّر ....... ما أحلامه؟ بكلمة، أتمنى أن ........

واردفت دونيا:

ماما! كيف يمكن الجواب على كل هذه الاسئلة، دفعة واحدة؟

يا رب! ذلك أني، يا دمتري بروكوفتش، لم أكن أتوقع أبداً، أبداً أن أجده هكذا!

أجاب دمتري بروكوفتش:

هذا طبيعي جداً. أنا فقدت أمي، إنما لي عمٌّ يأتيني كل سنة، كلما جاء صعب عليه أن يتعرفني حتى جسدياً، مع أنَّه ذكي، عمي هذا...... وأنتم افترقتم مذ ثلاث سنوات، وجرى ماء كثير تحت الجسور خلال هذه الأعوام الثلاثة، ماذا أفيدك أيضاً؟ أنا أعرف روديون منذ سنة ونصف. كان منذئذ قاتم النفس، متجهم الوجه، متعاظماً، متعالياً، وهو الآن (ولعلَّ أبعد من ذلك) كثير الشكوك والوساوس. هو سَمِحٌ طيب، وهو لا يحب أن يقدم عواطفه، ويفضل أن يرتكب إساءة على أن يفتح قلبه. على أنَّه في بعض الأحيان يبرأ من الوساوس، فلا يظهر عليه حينئذ إلا برودة في العاطفة، وتراخ في الشعور ليصل من ذلك حتى إلى درجة يفقد معها روح التواصل الإنساني، فكأن له طبعين متعارضين يتناوبان الغلبة. يتفق له أحياناً أن يكون سكوتاً إلى حد غريب: فإما أن يزعم أنَّه ليس في وقته متسع، وإما أن يزعم أن الناس جميعاً يزعجونه، ومع ذلك يظل مستلقياً على سريره لا يعمل شيئاً وهو ليس ساخراً، لا لغياب روح الفكاهة، بل كمن لا يرغب أن يقف عند سفاسف سخيفة وترهات باطلة. أنَّه لا يصغي أبداً إلى ما يقال له، لا يهتم به الناس في لحظة ما. وهو رافع انفه أبداً ويبدي أنَّه محق بهذا. ماذا أقول؟ ...... أظن أن وصولكما سيحسن إليه ويحدث فيه أثراً طيباً.

هتفت بولخيريا الكسندروفنا وقد أرهقتها أقوال رازوميخين:

سمع الله منك.

وقرر رازوميخين شأنَّه أخيراً أن ينظر إلى افدوتيا بمزيد من الطمأنينة.

كان قد رمقها مراراً ﴿ أثناء الحديث ولكن مواربة وكلمعة برق، ثم يحول عينيه فوراً.

كانت أفدوتيا تقعد أمام المائدة تصغي تارة بانتباه، وتنهض طوراً لتمشي على عادتها ذهاباً وإياباً تطرح على نفسها سؤالاً، دون أن توقف المشي ولا التأمل المستمر كما يظهر. وكان من عادتها أيضاً ألا تصغي أبداً إلى ما يقال. كان ثوبها داكناً من نسيج خفيف، وقد عقدت حول عنقها منديلاً أبيض شفافاً. ولاحظ رازوميخين رأساً من علامات كثيرة، أن السيدتين في غاية الفقر، ولو كانت البنت مرتدية فستان أميرة، لعلّها لم تُثر لديه خوفاً ملحوظاً، أما الخوف المقيم الآن مرجعه هذا الحد من الفقر، كما وعى بؤسها لذلك يحذر بل يخاف من كل ما يقول، كما صبغت حركاته بالتاني والتؤدة، وهذا شأن يدفع الحرج لدى ضعيف الثقة أصلاً بنفسه.

قالت افدوتيا رومانوفنا مبتسمة:

ها أنت أعملتنا مشكوراً، أشياء كثيرة هامة عن طبع أخي، وتكلمت من غير تحيز بالتأكيد. هذا طيب. وأنا كنت أظن أنك تقف منه موقف المعجب المحبذ. ثم أردفت بحلم وتأمل:

يخيل لي أن لابد من إيجاد امرأة فعلاً في حياته!

أنا لم أقل هذا. ولكن ربَّما كنت مصيبة. غير أنَّ ........

ماذا؟

هو لا يُحبُّ أحداً، وربَّما هو هكذا من المراهقة حتى الآن. قال رازوميخين قاطعاً جازماً.

أيكون عاجزاً عن أن يحب؟

أفلت لسان رازوميخين فجأة دون أن يتوقع هو نفسه ذلك:

أتعلمين يا أفدوتيا رومانوفنا أنك تشبهين أخاك شبهاً عميقاً في كل شيء؟

ثم تذكر ما قال عن أخيها، فاحمر وجهه احمراراً شديداً، وارتبك

ارتباكاً فظيعاً فلم تستطع افدوتيا أن تكتم ضحكتها وهي تنظر اليه.

واستأنفت بولخيريا رومانوفنا الكلام وقد استاءت قليلاً فقالت:

ربما كان رأيكما في روديا خطأ. أنا لا أحكي الآن عن الحاضر يا دونيشكا أن ما كتبه بيوتر بتروفتش في تلك الرسالة، وما تصورناه أنت وأنا، ربما كان غير دقيق. لكنك لا يستطيع أن يتخيل يا دمتري بروكوفتش مدى ما يتصف به روديا من شدة الجموح وقوة النزوات أنا لم استطع أبداً أن اركن إلى طبعه. حتى حينما كان في ربيعه الخامس عشر. وأنا قانع أنَّه حتى الآن قادر على ارتكاب أشياء تخطر ببال أحد. لا تذهب بعيداً هل تعلم أنَّه منذ سنة ونصف أدهشني.

فعلاً وحقاً، وكاد يميتني غيظاً وقهراً، حين وضع في رأسه أن يتزوج تلك الـ ....... أقول؟ تلك الـ...... أقصد بنت زارنتسينا هذه، صاحبة البيت الذي يسكن فيه؟ اتجهت أفدوتيا إلى رازوميخين بالسؤال:

ألديك تفاصيل بهذا الشأن ؟

وأردفت بولخيريا بحرارة:

هل تحب أن دموعي وضراعاتي وشقاءنا ومرضي وموتي من الأمس، أتحسب أن هذا كله كان يمكن أن يصده عن تحقيق ما قام في رأسه؟ لا...... سيتخطى الصعوبات هادئاً راضي البال. ماذا؟ أمن الممكن أنَّه لا يحبنا؟

ردَّ رازوميخين برصانة وتؤدة:

لم يقل لي كلمة واحدة أبداً بهذا الموضوع. لكني عرفت شذرات من السيدة زارنتسينا نفسها، مع أنَّها ليست طليقة اللسان هي الأخرى. والحق أن ما عرفته غريب بعض الشيء.

قالت المرأتان كلتاهما تسألان:

ماذا عرفت؟

لم أعرف أشياء ذات بال. كل ما علمت أن هذا الزواج الذي كان قد

قرر، ولن يقف في وجهه إلا موت أحد القرينين، كان يزعج ويكدر السيدة زارنتسينا، ويقال أيضاً إن الخطيبة غير جميلة، بل وصفت بالدمامة....... والأدهى أنَّها لا تكاد تشفى من مرض حتى تقع بمرض ثانٍ...... أضفت إلى هذا وذاك هي ناشزة الطبع، إلى جانب بعض المثيرات. ولولا هذا لكان الأمر عجيباً غريباً يشق فهمه. جيبها يهفو إلى القرش، وروديا من يحسب للأمر وزناً. الخلاصة الحكم على ما نحن فيه وعلى هذه الظروف أمرٌ بالغ الصعوبة.

أوجزت أفدوتيا رومانوفنا:

أنَّها مقتنعة أن فيها مزايا مضاعفة عن السلبيات، وهذا شأن الكيسات وعقبت بولخيريا الكسندروفنا في الختام:

التمس العليَّ القدير أن يعفو عني. لا أكتمكما أنني ابتهجت لموتها، رغم أنني لم أعرف أبداً من منهما سيشقي الآخر!

ثم عادت إلى رازوميخين ــ وهي تلقي على دونيا نظرات مختلسة كان واضحاً أن دونيا تهرب منها ـ تسأل يتردد عما دار أمس بين روديا ولوجين. لم يكن خافياً أن هذا الحادث كان يشغلها عما عداه، بل هو يهز حناياها. كرر رازوميخين القصة بتفصيلاتها، بل أضاف النتيجة التي تكونت لديه، فاتهم روديا بصراحة، بأنَّه أهان بيوتر بتروفتش عن سابق عمد، ولم يلح على فرصة على ذكر ذلك الذي يشفع لهُ.

لقد أعد كل هذا قبل أن يمرض

وهتفت بولخيريا أيضاً:

وأنا أرجح هذا الظن.

لكنها دهشت حين رأت رازوميخين الآن يكثر عن عدالة بيوتر بتروفتش، فضلاً عن بعض الاحترام. كما أثار هذا الحال آفدوتيا أيضاً.

نفد صبر بولخيريا فافضت بحنق:

أهذا ما تراه إذاً في بيوتر بتروفتش؟

رد بحرارة:

لا يمكنني أن أرى إلا هذا في زوج ابنتك المقبل، وليس هذا من باب التأدب والمجاملة، وإنما أقوله لأن...... لأن ..... لهذا السبب البسيط: هو أن أفدوتيا نفسها هي التي أرادت طوعاً أن تهب هذا الرجل شرف اختياره زوجاً لها. وإن ذممته بالأمس وجرحته زيادة، لأنني كنت آنئذ سكران ...... سكران حتى القرف، ولأنني فضلاً عن هذا...... كنت قد ذهب الشيطان بوعيي ...... بل جننت بكل معنى الكلمة. أما اليوم أشعر من ذاك بخزي وعار.

أدلى رازوميخين بما ورد أعلاه، واحمر خجلاً وسكت. وخجلت أفدوتيا كذلك ولكنها لم تقطع الصمت. لم تنبس ببنت شفة منذ ما دار حديث عن روجين.

على هذا ظلت بولخيريا مرتبكة بشدة لأن ابنتها لا تساعدها. ثم أقرت مترددة وهي تلتفت كل لحظة إلى ابنتها، أن ثمة ظرفاً يقلقها الآن بشكل جارح.

وبدأت تتكلم:

الحقُّ يا دمتري بروكوفتش .......

ثم اتجهت إلى ابنتها وسألت:

سأصارح دمتري بروكوفتش كلياً، أليس كذلك

أجابت أفدوتيا:

طبعاً، طبعاً! يا ماما.

ولما أذن لها أن تبوح بأساها، شعرت بأن جبلاً يزاح عن صدرها، فأردفت:

إليك الأمر: اليوم في ساعة مبكرة وصلتنا بطاقة من بيوتر بتروفتش رداًّ على الرسالة التي طيرناها له بالأمس وحملت نبأ وصولنا. كان يجب حقاً أن يفد إلى المحطة لاستقبالنا كما وعد قبل، ولكننا في المحطة لم نجد سوى خادم قادنا إلى هذه الغرفة المفروشة وعنوانها، وأبلغنا أن بيوتر بتروفتش قادم

في الغد.

ولم يجيء بل بعث هذه البطاقة، الأفضل أن تقرأها بنفسك، لأن ثمة نقطة تقلقني كثيراً ستراها عاجلاً وتقول لي رأيك بها، أنت تعرف رأي روديا أكثر من أي إنسان آخر، فلك وحدك إذاً أن تقدِّم لنا خير نُصح، علماً أن دونيا وافقت على الفور مازلت حائرة ...... فانتظرك.

فتح رازوميخين الظرف وقرأ:

" السيدة الكريمة بولخيريا الكسندروفنا، يشرفني أن أعلمك أني لموانع قاهرة لم أستطع أن أوافيكم حسب وعدي، فبعثت رجلاً فطناً يساعدكم، وسأحرم نفسي من زيارتكم صباحاً لأقوم بما يفرض عليَّ التواجد في السينات، ولئلا أزعج لقاءكم العائلي الحار. سأكون عندكم مساء غد الساعة الثامنة تماماً. أضيف إلى هذا رجاءً ملحاً، وأطلب تدبير أمر إعفائي من حضور روديون رومانوفتش اجتماعنا، لأنَّه أهانني بقحة وأنا في عيادة مرضه. لأنني أودُّ أن تطلعوني بوضوح وصراحة على رأيكم وكل التباس إن وجد وسأكون مضطراً للانسحاب فوراً إن صادفت روديون عندكم وهكذا لا أكون ملوماً. أقول هذا لأني أتوقع وجود روديون الذي رأيته في بيت سكير مخمور داسته الخيول ومات وأعطى أسرته مالاً كلفة الجنازة دهشت لهذا لعلمي الجهود التي بُذلت لجمع هذا المبلغ. أختم رسالتي راجياً نقل أبلغ اعتبار إلى افدوتيا وتقبلو احترامي وإخلاصي. خادمكم المطيع ب. لوجين"

عقبت بولخيريا الكسندروفنا وهي تهم بالبكاء

ما أفعل الآن يا دمتري بروكوفتش؟ كيف لي أن أطلب من روديا عدم الحضور؟ هو الذي ألح البارحة على طرد بتروفتش. فإذا بالآية تنقلب فيكون هو الذي لا يجوز استقباله، ولكنه سيأتي عمداً للإطلاع.

ربي أعني.

أردف رازوميخين بهدوء وعجلة.

افعليَّ ما قررته آفدوتيا

آه ..... رباه! هي تقول ...... تقول ...... الله يعلم ماذا تقول ...... وهي لا تشرح الأسباب التي تدفعها إلى هذا القول، تقول أفضل وألح أن يجيء روديا هذا المساء، في الثامنة مساء وأن يلتقيا، أما أنا فكنت أتمنى أن أطلعه على هذه الرسالة، وكنت أؤثر اللجوء إلى الحيلة بوساطتك، لأمنعه من المجيء، لأنَّه كما تعلمين سريع التوتر والانفعال، فضلاً أن ثمة أمراً لا أفهمه:

من هو الثمل الذي داسته الخيل فمات، ومن هي تلك البنت، وكيف يقدر أن يتخلى عن كل ما في جيبه.

الذي لقيت عناءً وجهداً فادحين لكسبه ذلك المال هذه النقود.

أردف رازوميخين شارد اللب.

أمس، لم يكن طبيعياً. لو عرفت كيف تصرف البارحة في الحانة. كان سلوكاً أخرق دونما وعي. صحيح، لقد حدثني عن ذاك الثمل وإصابته وشقائه المالي، لما كنت أوصله إلى بيته. وأنا نفسي كنت بالأمس .........

الأفضل يا ماما أن نذهب نحن اليه، بذلك نتداول الحديث لنصل إلى حلٍّ معقول. وقد آن لنا أن نتحرك، الساعة العاشرة....... ربَّاه، ربَّاه! خالت أفدوتيا هذه الكلمات وهي تلقي نظرة على الساعة الذهبية الرائعة، المرصعة بالمينا، التي تحملها في رقبتها بسلسلة رقيقة من صنع البندقية، وتتنافر تنافراً كلياً مع جملة زينتها، همس رازوميخين لنفسه: "هذه هدية الخطبة!"

قالت بولخيريا الكسندروفنا وهي تتململ مضطربة.

آه ...... آن الأوان! آن الأوان يا دونيتشكا! إذا تأخرنا في الذهاب إليه، ربما ظن أننا مازلنا غاضبتين بسبب ما حدث أمس. آه ..... يا رب!

قالت هذا وسارعت ترمي على كتفيها خماراً أسود، وتضع قبعتها على رأسها. وارتدت دونتيشكا ثيابها أيضاً، وقفازاها ليسا مهترئين جداً فحسب، بل هم مثقبان أيضاً. لولم يفت رازوميخين ذلك على أن هذا الفقر الظاهر كان

يضفي على السيدتين وقاراً خاصاً. إن هذا هو ما يكون مع من يعرف كيف يلبس ثياباً متواضعة. كان رازوميخين ينظر إلى الفتاة باحترام وإجلال، ويشعر باعتزاز حين يتصور أنَّه سيصحبها كان يقول لنفسه: "إن تلك الملكة" [1]التي كانت ترقِّع جوربيها في سجنها لابد أنَّها كانت في أثناء ذلك أعظم مهابة منها في أعظم الأعياد وأروع الاحتفالات ! "

وهتفت بولخيريا:

رباه! هل كان في وسعي أن أصدق يوماً أنني سوف أهاب، كما أهاب الآن، لقاء مع ابني، مع عزيزي، مع روديا؟

ثم أضافت وهي تلقي على رازوميخين نظرة خجول:

أنا خائفة يا دمتري بروكوفتش

وقالت دونيا وهي تقبلها:

ماما، لا تخافي شيئاً، بل ثقي به، أما أنا كلي ثقة.

أردفت المرأة المسكينة:

آه..... يا رب! أنا أيضاً واثقة! ومع ذلك لم أنم طوال الليل! وخرجوا إلى الشارع.

أتعلمين يا دونيتشكا؟ أنني ما أن غفوت قليلاً عند طلوع الفجر حتى حلمت بغتة بتلك المرحومة مارفا بتروفنا..... كانت تلبس ثياباً بيضاء ..... ودنت مني، وأمسكت يدي .... وكانت تنوس برأسها وهي تتأملني بلحظة قاسية، صارمة جداً، كمن يؤنبني على أمر ما..... هل هذه إمارة فأل؟ آه ....... يا رب! إنك يا عزيزي دمتري بروكوفتش لا تعلم، بعد، أن مارفا بتروفنا ماتت.

لا، لم أعلم. ولكن من هي مارفا بتروفنا؟

ماتت فجأة ...... تصور أنَّها .......

هتفت دونيا لأمها:

ستقولين له هذا بعد الآن يا ماما. هو لا يعرف من تكون.

صحيح؟ لا تعلم؟ كنت أظن أنك تعرفها ..... اغفر لي يا دمتري بروكوفتش..... أصبحت لا أعرف أين رأسي في هذه الأيام الأخيرة. حقاً إني أحسبك معيناً أرسلته العناية الإلهية، لذلك تصورتك مطلعاً على كل شيء. أنا أعدك وأحداً من أسرتنا. فلا تؤاخذني إذا كلمتك بهذه الطريقة! آه ...... رباه! ماذا أصاب يدك اليمنى؟ أهي جريحة؟

بسعادة، دمدم رازوميخين:

نعم، جريحة.

أنا أسرف بالصراحة أحياناً، فتردني دونيا ..... ولكن ..... رباه! ما هذه الغرفة الضيقة التي يقيم فيها؟ ترى هل استيقظ من نومه؟ وتلك المرأة صاحبة البيت، كيف تسمي هذا الحجر؟ اسمع، أنت تقول أنَّه لا يحب أن يتكلم عن عما يدور في خاطره، فلا شك إذاً أنني سأزعجه وأضجره..... بعواطفي وضعفي! هلا أهديتني إلى طريقة أعتمدها في معاملته؟ لقد طاش صوابي تماماً......

لا تكثري من الاسئلة، إذا رأيته يعبس أو يتكدر، ولا تسأليه عن صحته خاصة، فهو لا يحب هذا.

آ يا دمتري بروكوفتش، ما أصعب الأمومة! وانظر إلى هذا السلم! يا له من سلك فظيع!

أردفت دونيا ملاطفة:

ماما، إنَّك شاحبة الوجه، هدئي من روعك يا حمامتي! ينبغي أن يكون سعيداً بلقائنا، فلماذا تعذبين نفسك إلى هذا الحد؟

أضافت وقد سقطت عيناها.

انتظر، سأرى أولاً هل استيقظ من نومه.

خففت السيدتان وقع خطاهما، وتقدمهما رازوميخين على السلم. فلما وصلتا إلى الطابق الرابع لاحظنا إن باب صاحبة البيت مشقوق قليلاً، ورأتا في

الظلمة عينين سوداوين حادتين جداً كانتا ترقبانهما، فلمَّا التقت النظرات أغلق الباب بعنف، فقرقع بصوت قويٍّ ما جعل بولخيريا توشك أن تصرخ رعباً.

# الفصل الثالث

استقبلهم زوسيموف فرحاً: "هو بخير، هو بخير". كان زوسيموف يعود من عند المريض منذ عشر دقائق، وقد قعد في ذات المكان الذي ارتاح فيه بالأمس، على حيِّزٍ من الديوان. وكان المريض يركن في الركن المقابل، مرتدياً طقمه كله، وقد كان اعتنى بنظافة محياه وتصفيف شعره، هذا ما لم يقم به منذ أمد، غصت الغرفة دفعة واحدة بالناس، لكن ناستاسيا استطاعت أن تتسلل مع ذلك وراء الزائرين وراحت تنصت للحديث.

كانت صحة راسكولنيكوف قد وافاها شيء من التحسن فعلاً، لا سيما إذا قورنت بما كانت عليه بالأمس. كل ما في الأمر الآن أنَّه شديد الشحوب شارد الفكر متجهم النفس. إذا تأملته تراك كالناظر إلى رجل أصابه جرح خطير، أو ذاق مرارة ألمٍ مبرحٍ حاد. كان عابس الحاجبين، كاز الشفتين، منفعل النظرة، وكان قليل الكلام أصلاً، الحكي يشق عليه، كمن يفعل واجباً، وكان في حركاته أحياناً بعض قلق.

ليس ينقصه سوى ضماد في الذراع أو عصبة من قماش في الإصبع حتى يكتمل الشبه بينه وبين رجل أصيب بداء أليم، أو جرح موجع، أو غير هذا وذاك من هذا القبيل.

لكنَّ هذه القسمات الهزيلة بدت تتألق لحظة دخول الأم والأخت، ولم يربُ هذا على إضافة إلى هذا الذهول المنفعل تعبيراً عن ألم كثيف. وبسرعة أمحى الألق، وظل الوجع. لم يفت زوسيموف الذي يرعى مريضه ويسهر عليه بكل ما يقدر أن يقدمه طبيب في طالع حياته العملية، لم يخف عليه، بكثير من الدهشة، حينما وصلت أسرته، نوعاً من تصميم أليم خفي، أشبه بالتأكيد الذي ينبعث في نفس إنسان يرى عذابه في تحمله، بدلاً من الغبطة. كما تمكن الطبيب أن يلحظ أن كل كلمة تقريباً من الحديث الذي جرى

حينذاك كانت تثير أو تنكأ جرحاً.

ولكن الطبيب أدهشه في الوقت نفسه أن يرى أن المريض كان يسيطر على نفسه إلى حد ما ، فاستطاع أن يكتم هذه الأحاسيس، مع أنَّه كان بالأمس يثور استبدت فكرةً لازمته بقسوة، فكرةٌ وحيدةٌ واحدة.

قال المريض وهو يعانق أمه وأخته بعاطفة رقيقة وحنان عميق (وهذا ما انعكس على محيا الوالدة إشراقاً):

نعم، ألاحظ أنا بالذات أني تعافيت.

ثم أضاف مخاطباً رازوميخين وهو يصافحه بود:

لا أقول هذا كما قلت بالأمس:

سرّ زوسيموف جداً لوصول الزوار، لأنَّه كان قد استنفد خلال العشر الدقائق التي قضاها مع العليَّل جميع طروحات الحديث، بدأ كلامه:

لا سيما أني دهشت من رؤيته على هذه الحال اليوم، فإذا ما استمر هذه التقدم، لن تنصرم ثلاثة أيام أو أربعة حتى يعود كما كان تماماً، أعني منذ شهر أو شهرين وربما ثلاثة.

ثم اضافت مخاطباً راسكولنيكوف وهو يبسم بسمة محاذرة، كمن يخشى أن يثير غضبه:

ذلك أن هذا المرض بدأ كامناً منذ مدة طويلة، هه؟ اعترف أن بعض الذنب في ذلك يرجع إليك .....

رد راسكولنيكوف بهدوء:

جائز جداً.

وتابع زوسيموف متحمساً:

أقول هذا لان شفاؤك النهائي متوقف بعد الآن عليَّك أنت بخاصة. أود أن أقنعك الآن، بعد أن تمكنا من محادثتك، أن واجبنا يتم في القضاء على العلل الأولى، بل الأساسية إن صلحت العبارة، التي ولدت المرض. فإذا فعلت هذا

شفيت، وإلا اشرأب مرضك. أنا أعرف تلك الأسباب، إنما لابد أن تعرفها أنت، أنـت شـاب ذكـي، ولاشـك أنـك تعـرف نفسـك. كمـا يخيـل لـي أن بدايـة اضطراباتك قد جاءت حين تركت الجامعة تقريباً. فما ينبغي إذن أن تبقى عاطلاً لا عمل يشغل اهتمامك. أجزم أن عملاً موجهاً إلى غاية هادفة يحسن إليك كثيراً.

نعم، نعم. أنت محق. سأعود إلى الجامعة. وهكذا يتبدل الوضع، وعلى ما يرام، كان بين أهداف زوسيموف من إسداء نصائحه الحكيمة تلك أن ينال إعجاب السيدتين. لذلك كان طبيعياً أن يرتبك ويضطرب حين فرغ من إلقاء خطابه فرفع عينيه نحو راسكولنيكوف فرفع ولاحظ في وجهه سخرية ظاهرة لا تخفى. على أن ذلك لم يدم الا لحظة، فإن بولخيريا الكسندروفنا سرعان ما طفقت تفيض بشكر زوسيموف، وتعبر له خاصة عن امتنانها من زيارته لهما في الشقة المفروشة في الليل الفائت.

قال راسكولنيكوف قلقاً:

كيف؟ أذهب إليكم ليلاً؟ إذاً لم تناما بعد رحلة شاقة؟

في الساعة الثانية كان كل شيء قد انتهى يا روديا. وقد ألفنا، أنا ودونيا، ألاّ ننام قبل الثانية صباحاً.

واصل راسكولنيكوف كلامه فقال وقد اكفهر وجهه فجأة، وأطرق إلى الأرض:

أنا أيضاً لا أعرف كيف أشكره.......

ثم توجه إلى زوسيموف:

بصرف النظر عن الناحية المالية -معذرة إذا أنا أشرت إلى هذه الناحية!

فإنني لا أعرف فعلاً كيف استحققت كل هذه الناحية منك. حقاً إني لا أفهم: لذلك كانت هذه العناية تشق عليَّ..... أقول لك هذا بصراحة تامة.

أجاب زوسيموف وهو يحمل نفسه على الضحك.

لا تثور أعصابك يا صديقي. افرض انك أول زبائني. إن الطبيب ما يزال في بداية ممارسته يدلل دائماً مرضاه الأولين، حتى ربما شغف ببعضهم. وأنت تعلم أن زبائني ليسوا كثراً حتى الآن.

أضاف راسكولنيكوف وهو يومئ إلى رازوميخين:

ناهيك عن هذا ..... الذي لم ينل مني إلا أنواع التصديع وضروب الإهانة، وهتف رازوميخين:

سخافات جديدة؟ ها أنت ذا أصبحت "عاطفياً"!

ألا لو أنَّه كان يملك ما يكفي من نفاذ البصيرة للاحظ أن الأمر ليس أمر "عاطفية"، بل شيء آخر هو نقيض العاطفية تماماً. وقد لاحظت آفدوتيا رومانوفنا ذلك. وكانت تراقب أخاها بقلق.

وتابع راسكولنيكوف كلامه كمن يتلو درساً حفظه هذا الصباح:

أما عنك أنت يا أماه لا أكاد أجرؤ أن أتكلم. إني أدرك اليوم فقط مدى المعاناة التي تذوقتيها أمس حين كنت تنتظرين هنا.

قال هذا ومد يده إلى أخته فجأة باسماً دون أن يدلي بكلمة. ولكن شعوراً صادقاً كان يبرز في هذه البسمة. فسارعت دونيا أفدوتيا تتناول اليد الممدودة لها، وصافحتها بحنو ودفء، سعيدة سعيدة، كانت هذه أول مرة يخاطب أخته بعد الشقاق الذي وقع بينهما أمس. وأشرق وجه الأم حين رأت هذا الوئام الصامت الحازم بين الأخوين.

وهمس رازوميخين متحمساً وهو يدور بقوة على كرسيه:

هذا ما ينال إعجابي به! أنَّه أبداً ذو اندفاعات كهذه!

وكررت الأم: "وما أجمل طريقته. ما أنبلها من مبادرة: ما أحلاها من حركة بسيطة رقيقة مرهفة أنَّهى بها سوء التفاهم الذي تواجد بينه وبين أخته! إذ (اكتفى بمد يده إليها، في هذه الثانية، وهو يرمقها بنظرة فيها رقة ولطف وحنان..... وما أجمل عينيه! ما أجمل كل قسماته! ..... ألا إنه لأجمل حتى من

دونتيشكا..... ولكن رباه! ما هذه الثياب التي يرتديها! ما أردأ ثيابه! إن الخدم في دكان أفاناسي ايفانوفتش، الخادم فاسيا، يرتدي ثياباً خيراً من ثيابه! أواه ..... لشد ما أحب أن اندفع اليه فأعانقه و...... آخذ أبكي ...... لكني أخاف جداً...... هو غريب الطباع يا رب! يتكلم برقة وحنو، وعلى هذا أنا خائفة؟"

عجيب مم أنا خائفة ؟"

استأنفت كلامها فجأة، لترد على ملاحظة ابنها:

آه يا روديا! نحن نعجز عن تصور الشقاء الذي ذقناه، أنا و دونيشتكا، بالأمس، أما وقد خلص هذا الآن، وأصبحنا جميعاً سعداء من جديد، نستطيع أن نرويه لك. تصور أننا سارعنا إلى هنا لنقبلك، منذ نزلنا من القطار قالت لنا تلك المرأة .... هه ..... ها هي ذي....... عمت صباحاً على ناستاسيا ...... نعم، قالت لنا هذه السيدة...... هكذا بغتة ...... كنت أنت في السرير تعاني من حمى حارة، ثم هربت وأنت تهذي بشدة، دون أن يعرف الطبيب عن مرضك شيئاً، وأنَّهم سارعوا للبحث عنك في الحارات. لا وليس لك أن تتصور كيف انعكس عليّنا كل هذا!...... تذكرت أنا على الفور النهاية الفاجعة التي انتهى إليها الملازم بوتانتشيكوف، أحد أصحابنا القدماء، صديق أبيك - إلا تتذكره يا روديا - الذي كان مصاباً هو أيضاً بالحمى ففر من البيت مثلك فسقط في بئر الفناء، ولم يتسنَ لذويه أن يخرجوه إلا في اليوم التالي، وقد ضخمنا طبعاً خطورة وضعك. وتمنينا أن نركض نبحث عن بيوتر بتروفتش ليساعدنا قليلاً على الأقل ...... لأنَّنا كُنَّا وحيدتين، وحيدتين تماماً.

قالت جملتها الأخيرة بصوت موجع ناحب. لكنها أمسكت عن الكلام فجأة لأنَّها تذكرت أن الكلام عن بيوتر بتروفتش ما يزال خطيراً، "رغم أن الجميع سعدوا من جديد".

جمجم راسكولنيكوف مجيباً:

نعم نعم، كل هذا مؤسف طبعاً .....

ولكن هيئته كانت ترشح ذهولاً وغياباً يبلغان من الشدة أن دونتيشكا تأملته بانشداد.

وتابع بجهده ليستجمع ذكرياته:

ماذا كنت أود أن أقول لكما أيضاً؟ ها...... نعم ..... أرجوك يا أمي وأختي، أن لا يذهب الظنُّ بكما أني كنت لا أنوي الذهاب إليكما قبل أن تأتيا إلي، وأني انتظرت أن تجيئا أنتما.

هتفت بولخيريا مدهوشة:

ما هذا الذي تقوله يا روديا ؟

وقالت دونيا لنفسها "ما باله؟ أتراه لا يجيب إلا من باب القيام بالواجب؟ أنَّه يصافحنا ويستغفرنا، وإنما كأنَّه يقوم بسخرة ثقيلة أو يتلو درساً محفوظاً"

لقد أردت منذ صحوت أن أذهب إليكما، لكن مسألة الثياب أخرتني...... حتى نسيت أن أقول لناستاسيا أن ...... تغسل هذا الدم، ولم أقدر أن أضع ثيابي على بدني إلا الآن.

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تسأله قلقة:

الدم ؟ أي دم ؟

أجاب.

لا تقلقي، ليس الأمر ذا بال. هذا الدم سببه أني ترنحت قليلاً البارحة، بفعل الهذيان، فاصطدمت برجل كانت قد داسته عربة....... هو موظف .......

قاطعه رازوميخين قائلاً:

هذيان؟ ولكن أنت تتذكر كل شيء!

وبلهجة تنمُّ عن الهم، أجاب:

صحيح ...... أتذكر كل شيء، بل أدق التفاصيل. لكن لماذا فعلته كيت وكيت، لماذا ذهبت إلى ذاك المكان، ولم قلت كذا هناك، هذا ما لا أستطيع أن أفسره لنفسي.

هنا تدخل زوسيموف:

هذه ظاهرةٌ معروفةٌ جداً، رُبَّ فعل يقوم به صاحبه على خير وجه، وبراعة وحذق مدهش، ثم يبقى الباعث عليه والدافع اليه مموَّها، لارتباطه بوضع مرضيٍّ منوَّع، كأن الأمر كله حلم. وقال لنفسه: "إنه يلاحظ أني أشبه بمجنون

قالت دونيا وهي تلقي على زوسيموف نظرة قلقة

ولكن ألا يصح هذا على أصحاء أيضاً؟

ردَّ زوسيموف:

هذه ملاحظة رائعة، بحيث أننا جميعاً تقريباً نشبه المجانين حقاً في كثير من الأوقات، مع فرق واحد على ذلك هو أن "المرضى" مجانين أكثر منا بعض الشيء، من الضروري أن نميز هنا درجات. أما الإنسان "السوي"، من الواجب أن نقول عنه أنَّه ربما كان غير موجود. قد نجد فرداً سوياً أو قريباً من السوي، بين عشرات الألوف أو مئات الألوف. اربدت وجوه الحضور جميعاً لدى سماع كلمة "المجانين" هذه التي أفلتت من لسان زوسيموف بغير حذر ولا تروٍ في أثناء ثرثرته حول موضوعه المفضَّل. وكانت تطوف على شفتي راسكولنيكوف الذي ما يزال قاعداً، اللتين زال عنهما لونهما بِسِمَةٍ توحي أنَّه كان مسترسلاً في أحلام غائرة.

صاح رازوميخين يسأل بسرعة فائقة:

هيه، لقد قاطعتك..... ما حكاية الرجل الذي داسته العربة؟

ردَّ راسكولنيكوف كمن يستيقظ للتو:

ماذا؟ آ....... نعم..... تلوثت بالدم حين ساعدت في نقله إلى بيته ..... بالمناسبة يا أمي: لقد فعلت أمس مالاً يغفر. فعلاً لم أكن في كامل وعيي. لقد أعطيت امرأةً ذلك الرجل، بالأمس، كل ما أرسلتم لي ..... لنفقات الدفن ..... هي الآن أرملةً، مصدورة، شقية فقيرة ........ عندها ثلاثة أيتام صغار جائعين ..... ما من

قرش في جيبهم....... وهناك أيضاً بنت ...... أرجِّحُ أنَّكما فاعلان ما فعلت لو كنتما في مكاني. طبعاً لم يكن من حقي أن أفعل ذلك، أعترف بهذا ..... لأنني أعرف حقاً كيف حصلتما على تلك القروش المعتة، فلكي يساعد المرء غيره يجب عليه أولاً أن يكون له حق في ذلك وإلا

Crever, chiens, si vous n'etes pas coutents [(1)] :

أليس الأمر كذلك يا دونيا؟

قال راسكولنيكوف وضحك

ردَّت دونيا بلهجة جازمة:

لا، ليس الأمر هكذا!

فرد مجمجماً وهو يلقي عليها نظرة ربَّما كانت مكرهة، وتحوم حول شفتيه بسمة هازئة:

ها ....... أنت أيضاً تدخرين نيَّات طيبة. كان لابد لي من أن أفهم هذا! إن هذا جميل جداً على كل حال..... ربَّما كان هذا أفضل! ...... إذا وصلت إلى نقطة لا تجرئين أن تتخطيها فسوف تشقين. وإذا تخطيتها فربما شقيتِ أكثر. ثم أن هذا كله سخافات (أضاف ذلك مهتاجاً، نادماً على استسلامه لانفعاله) وإنما أردت يا والدتي أن أستغفرك.

كذلك ختم راسكولنيكوف كلامه بجدية وجزم.

قالت الأم بكل رضى:

كل ما تفعله خير يا روديا. أنا واثقة

وأجابها ببسمة مفتلعة:

لا تفرطي بالثقة.

وران صمت، كان الحديث كله متوتراً، في الصمت والمصالحة وفي الغفران وكان الكل يضجون بهذا التوتر.

---

1-"موتوا أيها الكلاب إذا لم تكوني راضية" بالفرنسية في الأصل.

قال راسكولنيكوف بنفسه وهو يرمق أمه وأخته بطرف عينيه: "لكأنَّهما خائفتان مني فعلاً" والحق أن بولخيريا الكسندروفنا كانت تزداد فزعاً كلما امتد صمتها. وومضت هذه الفكرة في ذهن راسكولنيكوف "أنا كنت أحبهما إذاً من بعد" فهتفت بولخيريا فجأة:

هل تعلم يا روديا؟ لقد ماتت مارفا بتروفنا!

من هذه مارفا بتروفنا.

عجيب! مارفا بتروفنا سفيدريجايلوف. حدثتك عنها مطولاً في رسالتي!

آ ....... آ....... نعم. ...... تذكرت! إذاً ماتت؟ آ ..... حقاً؟ (قال هذا مرتعشاً كمن يصحو من نوم). ماتت ...... أصحيح ماتت؟ كيف ماتت؟ عاجلت بولخيريا الكسندروفنا تجيبه وقد شجعها هذا الاستطلاع:

ماتت فجأة. حدث هذا يوم أرسلت لك رسالتي تصور! وتصور أن أغلب الظن أن ذلك الرجل الرهيب هو سبب موتها. يقال أنَّه ضربها ضرباً فظيعاً.

سأل راسكولنيكوف أخته:

هل كان هذا من عاداتهما؟

لا بالعكس. كان يبدو معها على الدوام صبوراً هادئاً، بل ولطيفاً جداً في معاملتها، وكان في العديد من المناسبات كثير التسامح في تصرفه إزاء طبع زوجته ولكن ذلك دام سبع سنين، فلعله فقد صبره على حين فجأة.

إذاً لم يكن فظيعاً إلى ذلك الحد مادام قد استطاع أن يسيطر على نفسه مدة سبع سنين. لكأنك تعذرينه يادونتيشكا.

لا، لا، إنَّه رجل فظيع! لا أستطيع أن أتخيل رجلاً أفظع منه.

قالت دونتيشكا وهي تكاد ترتجف. وقطبت حاجبيها وغرقت في أفكارها وأسرعت بولخيريا الكسندروفنا تتابع:

ضربها في الصباح فأمرت بعد ذلك أن تهيأ العربة لتذهب إلى المدينة بعد الغداء فوراً، لأنَّها تذهب إلى المدينة دائماً في مثل تلك الحالات. يقال إنَّها

التهمت غداءها بشهوة قوية.

بعد أن ضُربت ؟

نعم هذه إحدى عاداتها. وما أن انتهت من تناول طعامها حتى أسرعت تستحم كي لا تتأخر في الذهاب إلى المدينة. كانت تعالج نفسها بالإكثار من الاستحمام. إذ لديهم نبع ماء بارد تستحم به بانتظام واطراد كل يوم. ولكنها ما أن غطست في الماء حتى أصيبت بالذبحة الصدرية.

قال زوسيموف معقباً:

لا غرابة!

هل ضربها ضرباً منفعلاً جداً؟

قالت دونيا:

ما قيمة هذا.

وقال راسكولنيكوف فجأة، في اهتياج وبلهجة يستحيل تخمين خُبلها:

هم ...... ثم ما قيمة سرد سخافات من هذا النوع يا أمي؟

ردَّت بولخيريا الكسندورفنا:

آه يا بني! إنَّما أنا رويت هذه الأمور لأنني أصبحت لا أعرف عما ينبغي أن أتكلم!

فأردف راسكولنيكوف ويبسم بسمة مصطنعة من جديد:

اتراكم تخافون كلكم مني؟

ردَّت دونيا وهي تحدق إلى عيني أخيها بنظرة ثاقبة:

هذا صحيح. حتى أمي قد رسمت شارة الصليب قبل صعودها السلم، من شدَّة خوفها.

تقلص وجه راسكولنيكوف كمن أصيب بالتشنج.

فغمغمت بولخيريا الكسندروفنا بارتباك شديد:

آه ...... ماذا تقولين يا دونيا؟ لا تحرد يا روديا، أرجوك ...... لماذا تقولين

هذا الكلام يا دونيا؟ صحيح أنني طوال مدة الرحلة، في القطار تخيلت طريقة لقائنا، وما سيقول بعضنا لبعض .... وقد بلغتُ من شدَّة السعادة أنني لم أتعب في أثناء الرحيل، إنَّما ماذا أقول؟ مازلت سعيدة ...... الآن أيضاً سعيدة ...... ما كان ينبغي لك يا دونيا أن تقولي هذا ...... إنني سعيدة يا روديا، إنَّ رؤيتك تغبطني.

فدمدم راسكولنيكوف يقول لأمُّه مرتبكاً، وهو يشدُّ على يدها دونما أن ينظر إليها.

كفى يا ماما، سيتسع وقتنا للتحدث طويلاً.

ولكنَّه ما أن قال هذا الحكي حتى اضطرب، وشحب وجهه، وعاد إليه ذاك الشعور الرهيب الذي يعرفه بعمق، شعور ببرودة رهيبة تلسع حناياها، ربَّما لأنَّه أحسَّ أنَّه كذب كذبة مميتة، فلن يستطيع بعد الآن أن يتحدث مع أحد بصدر مفتوح، بل سيعجز عن الحديث إلى أيٍّ كان وبأي شيء. كان الأمر شديد الوقع حدد شعوره بما يحيطه، فنهض واتجه نحو الباب على عجل لا يلوي على شيء ولا ينظر إلى أمر.

هتف رازوميخين يسأله وهو يمسكه من ذراعه:

ماذا تفعل؟

فعاد بطلنا إلى مقعده، وطاف ببصره صامتاً، فكان الجميع يتأملونه مشدوهين وهتف فجأة:

حقاً إنَّكم جميعاً لتبعثون الضجر والسأم في النفس! هلَّا قلتم ما يسري عن الصدر؟ ! مالنا جالسين كالمبهوتين! احكوا! احكوا! هلموا نحكي سوية! أنجتمع ولا نتناول ما يغبطنا؟

قالت بولخيريا الكسندروفنا وهي ترسم إشارة الصليب:

الحمد لله لشد ما خفت أن يتكرر ما حدث أمس

وقالت أفدوتيا رومانوفنا تسأل أخاها مرتابة:

ما بك يا روديا؟

أجابها راسكولنيكوف وقد أخذ يضحك فجأة:

لا شيء ...... لا شيء ...... تذكرت إحدى الترهات!

ودمدم زوسيموف وهو ينهض عن الديوان.

إذا كان الأمر أمر ترهات، فهذا يطمئن. وإلا كان يمكن أن أفترض ..

ثم أضاف:

على كل حال، يجب أن أتصرف. قد آتي لأراك، في حال وجودك!

وحيا وخرج.

قالت بولخيريا الكسندروفنا:

يا لك من شاب رائع!

وردَّ راسكولنيكوف بغتة بسرعة غير منتظرة، وحرارة لم تظهر منه حتى آنئذ:

نعم، هو شاب رائع، مدهش، مثقف، ذكي، لا أتذكر الآن أين التقيتهُ قبل مرضي. ولكن يبدو أن صادفته قبل الآن.

ثم أضاف وهو يومئ إلى رازوميخين بإشارة من رأسه:

وهذا أيضاً شاب ممتاز!

ثم التفت إلى أخته يسألها وقد أخذ يضحك فجأة لم يدر السبب أحد:

هل يعجبك يا دونيا؟

أجابت دونيا:

كثيراً.

أردف رازوميخين وهو ينهض محمر الوجه خجلاً مضطرباً:

يا للأحمق.

وبسمت بولخيريا الكسندورفنا بسمة خفيفة، بينما كان راسكولنيكوف يضحك صاخباً.

ولكن إلى أين أنت ذاهب؟

أنا أيضاً مشغول.

لا لست مشغولاً بشيء البتة، إبقَ! لا يكفي أن ينصرف زوسيموف حتى تفضل أنت الانصراف أيضاً. لا، لا تذهب! ثُمَّ كم الساعة الآن؟ الثانية عشرة؟ ما أجمل هذه الساعة التي تحملينها يا دونيا! ولكن مالكم تصمتون كلكم من جديد؟ لا يتكلم أحد هنا سواي؟

ردَّت دونيا:

هي هدية من مارفا بتروفنا.

وعقبت بولخيريا الكسندروفنا:

وقد كلفت غالياً جداً.

هي ضخمة جداً قياساً إلى ساعة النساء

أفضل الساعة الضخمة هكذا

وقال رازوميخين لنفسه: "ليست هدية من الخطيب إذاً" وابتهج لهذا دون أن يدري لماذا!

وأردف راسكولنيكوف:

تصورت أنا أنَّها هدية من لوجين!

لا، هو لم يقدم أية هدية لأحد.

وأخذ راسكولنيكوف الكلام ثانية وهو يتأمل أمه التي ذهلت من انتقاله إلى هذا الكلام دونما تدرج، ومن لهجته:

آ ..... آ...... هل تذكرين يا أمي أنني عشقت وأردت أن أتزوج؟

نعم أتذكر يا بني.

وتبادلت بولخيريا الكسندروفنا نظرة مع دونتيشكا ورازوميخين.

هِم ...... نعم. وماذا أقول لك عن ذلك الأمر أيضاً؟ لقد نسيته.

وتابع كلامه وهو يطرق إلى الأرض ويصبح شارد الذهن حالما من جديد

كانت فتاة ممراضاً ..... ممراضاً جداً. وكانت تودُّ أن تتصدق إلى المتسولين. وكانت تحلم بالدير ...... وقد أجهشت بالبكاء في ذات يوم حين حدثتني عن ذلك. نعم ...... نعم ...... أتذكر هذا جيداً. وهي ليست في رتل الجميلات! حقاً ...... لا أدري لماذا تعلقت بها ، ربَّما لأنَّها كانت مريضة أبداً. وأحسب أو كانت عرجاء أو حدباء لأحببتها أكثر (قال ذلك وابتسم ابتسامة ذاهلة) كان هذا نوعاً من جنون الربيع!

قالت دونيا مندفعة:

لا ، لم يكن نوعاً من جنون الربيع.

ألقى راسكولنيكوف على أخته نظرة نابهة. وكان يبدو عليه أنَّه لم يفهم كلامها ولا سمعه ، ثم نهض وهو ما يزال شارد الفكر ، فمضى إلى أمه ، فقبَّلها ، وعاد يجلس في مكانه.

سألته بولخيريا الكسندروفنا مضطربة خائفة:

أما زلت تحبها؟

هي؟ مازلت أحبها؟ آ ...... نعم ...... أنت تتكلمين عنها ...... لا ...... ذلك كله صار عالماً آخر ...... انقضى زمن مديد ..... مديد ..... لا هذا فحسب ...... بل إن كل ما يجري حولي الآن يجري في عالم آخر تقريباً......

أدلى راسكولنيكوف بهذه العبارات ، تأملهم جيداً وبتؤدة ثم أردف:

أراكم ، أنظر إليكم الآن ، كما لو كنتم على بُعد ألف فرسخ مني. إنَّما لماذا نتناول هذه الأمور؟ ثم لمَ تسألوني؟ (أضاف غاضباً ، وسكت ، وراح يقضم أظافره ، وغاب في أحلامه ثانية).

قطعت بولخيريا الكسندروفنا هذا الصمت المقيت ، وقالت فجأة:

ما أردأ أسكناك يا روديا! هو أشبه بتابوت! أنا على يقين من أن مسكنك هذا هو نصف سبب كآبتك!

ردَّ راسكولنيكوف ذاهل الهيئة:

المسكن ..... نعم ...... لابد أن لمسكني هذا علاقة في الأمر ...... أنا أيضاً خطر لي هذا. وأضاف وقد عبَّر عن بسمة غير عادية:

وليتك تعلمين عن أي فكرة عبَّرتِ الآن يا أمي!

كان راسكولنيكوف يحسُّ أن هذا الاجتماع، وهذه الأم، وهذه الأخت اللتين يراهما بعد فراق ثلاث سنوات، وهذه اللهجة الحميمية في الحديث، بينما هو عاجز عن أن يقول كل شيء، كان راسكولنيكوف يحس أن هذا كله ربما يوشك أن يصبح أمراً لا يطاق أبداً، وثمة مسألة لا تحتمل هي الأخرى مناقشتها إرجاء، مسألة قد قرر منذ ما صحا من نومه أن يحلَّها في هذا اليوم بطريقة ما، وما هو يحسُّ الآن بالارتياح حين اتخذ هذه المسألة وسيلة للخروج من مأزقه.

بدأ كلامه بلهجة جديَّة صارمة:

اسمعي يا دونيا. أنا طبعاً أستغفرك عمَّا جرى أمس، ولكني أرى من واجبي أن أذكرك بأنني مازلت مصراً على الأساسيِّ من أقوالي. إما أنا أو لوجين. قد أكون أسوأ الناس قاطبة، ولكن لا يجوز أن تكوني أنت هكذا. يكفي أن يكون أحدنا سيئاً. إذا تزوجت لوجين، لن أُعِدَكِ أختي.

صاحت بولخيريا الكسندروفنا، بحرارة:

روديا، روديا! ها نحن! إذاً نعود إلى ما كنّاه عليه بالأمس، لم تحسب نفسك "أسوأ الناس طراً"؟ أنا لا أقبل هذا. أمس أيضاً كان نفسه .........

أجابت دونيا بلهجة جازمة، قاسية كلهجته:

هذا ناشئ عن خطأ منك يا أخي، لقد قلبت الأمر هذه الليلة مراراً، فاكتشفت جوهر خطئك. فكل ما ينشأ فيما يبدو لي يصدر عن تصورك أنني أضحي بنفسي في سبيل أحد. وهذا ليس صحيحاً أبداً. فأنا إنَّما أتزوج تحقيقاً لمصلحتي الشخصية، لأنَّ حياتي صعبة. طبعاً ..... إذا استطعت في المستقبل أن أنفع أهلي ....... فسوف يسعدني هذا، ولكن السبب الرئيسي للقرار الذي

اتخذت، ليس هو هذا. قال راسكولنيكوف لنفسه وهو يقضم أظافره حانقاً : "أنَّها تكذب! ياللمتعجرفة إنَّها لا تريد أن تعترف بأنَّها تحلم أن تكون محسنة. آه! يا لها من طباع حقيرة! حتى حين يحبون، فكأنَّهم يكرهون. آه ....... لشد ما أكرههم جميعاً!"

وتابعت دونيا تقول:

باختصار: أنا أتزوج بيوتر بتروفتش لأنني أختار أهون الشَّرَّين. وإذا قررت أن أنفِّذ كل ما ينتظره مني، بأمانة واستقامة، فإنني أعتقد أنني لا أخدعه ..... لماذا تبتسم؟

احمر وجهها وسطعت عيناها بالانفعال.

سألها راسكولنيكوف مبتسماً بسمة مسمومة.

ستنفِّذين كل شيء؟

إلى حد ما. وإن الطريقة التي اتبعها بيوتر بتوفتش في خطبتي أفهمتني على الفور ما ينتظر مني، صحيح أن رأيه في نفسه عالٍ جداً، ولكني آمل أن يحترمني أيضاً ...... لِمَ تضحك ثانية؟

وأنت لما تحمرِّين ثانية؟ إنَّك تكذبين يا أختي، تكذبين عامدة، عناد امرأة، حتى لا تتراجعي أمامي، أنت لا يمكن أن يحتل لوجين عندك مقاماً محترماً: لقد رأيته وتحدثت معه. إذاً أنت تبيعين نفسك بالمال. إذاً أنت تتصرفين تصرفاً زرياً. وليسعدني، أن تكوني على الأقل قادرة على أن تحمرِّي خجلاً.

صاحت دونيا وقد فقدت كل هدوئها:

هذا غير صحيح، أنا لا أكذب! لن أتزوجه دون أن أقتنع بأنَّه يقدرني حقَّ قدري، وهو يحرص عليَّ، لن أتزوجه دون أن أقتنع قناعة جازمة أن بوسعي أن أقدِّرهُ. ومن حسن الحظ أني تمنيت أن أنهض بما أعد. ليس زواجي عملاً بائساً كما تصفه، وهبك على صواب، وهبني قررت أن أرتكب عملاً دنيئاً، ألست قاسياً بهذا الحكم؟ لماذا تطلب مني بطولة تعجز عن القيام بها أنت؟ هذا ظلم

واستبداد، هذا عنف وطغيان! إذا كنت أشقي أحداً، فإنما أشقي نفسي. أنا لم أذبح أحداً بعد ..... لماذا تنظر إليّ هكذا؟ لماذا اصفرّ وجهك هذا الاصفرار بغتة؟ روديا، ماذا بك؟ روديا، عزيزي ......

صاحت بولخيريا الكسندروفنا

رباه! لقد بلغت من تعذيبه أنّه سيغمى عليه!

لا، لا، لم يحدث شيء، لا قيمة لهذا. كل ما حدث أنني أحسست بشيء من دوار ....... إنّما لم يغمَ عليّ، أنتم تظنون كل شيء إغماء، هِمْ ...... ماذا كنت أريد أن أقول؟ نعم: بأية وسيلة ستقتنعين؟ في هذا اليوم بالذات، بأنّك تستطيعين أن تحترميه، وبأنّه يقدرك؟ هذا هو ما قلت. أليس كذلك؟ يخيل إلي أنك قلت: "في هذا اليوم بالذات"، أم تراني سمعت خطأً؟

قالت دونيا:

ماما، اطلعي أخي على رسالة بيوتر بتروفتش. فمدت بولخيريا السكندروفنا الرسالة لابنها، مرتعشة اليدين. فتناولها باهتمام شديد واستطلاع قوي، ولكنه قبل أن يفضها نظر إلى دونيا مدهوشاً. وقال ببطء، كأنّما وافته فكرة جديدة:

غريب جداً أنني ثرت هذه الثورة كلها من أجل .....

لماذا هذا الاضطراب كله؟ تزوجي من تشائين.

قال هذا كمن يحدث نفسه، ولكنّه كان يتكلم بصوت عال، وظلّ بعض الوقت يرمق أخته مندهشاً.

وبعد لأيٍ فض الرسالة وهو ما يزال في اندهاش لا تعليل له. ثم أخذ يقرأ الرسالة ببطء وانتباه. أعاد القراءة مرتين، وكانت بولخيريا الكسندروفنا قلقة حتى أعماقها، وكان الجميع من جهة أخرى، يتوقعون شيئاً ما خارقاً.

بدأ راسكولنيكوف كلامه بعد لحظة من تأمل، فقال وهو يردُّ الرسالة إلى أمه، دون أن يخاطب أحداً بعينه:

غريب. هو محام، وله زبائن، وحتى حديثه لا يخلو من ...... حذلقة، ومع ذلك يحس المرء حين يقرؤه أنَّه ليس على شيء من تعليَّم أو ثقافة.

حدثت حركة شاملة: لقد كانوا يتوقعون شيئاً آخر غير هذا تماماً. قال رازوميخين بلهجة قاطعة:

ولكنهم جميعاً يكتبون هكذا.

هل قرأت هذه الرسالة؟

نعم.

قالت بولخيريا الكسندروفنا مرتبكة:

أطلعناه عليها يا روديا، و...... سألناه ..... النصح ...... منذ برهة. فقاطعها رازوميخين:

هذا أسلوب القضاء لا أكثر ...... إن جميع الأوراق القضائية تحرر الآن بهذا الأسلوب!

القضاء؟ نعم ....... صحيح! ...... أسلوب القضاء ورجال الأعمال! إن أسلوبه ليس أسلوب رجل محروم من أي مستوى من الثقافة، ولكنَّه في الوقت نفسه ليس أسلوباً أدبياً. إنَّه أسلوب رجل من رجال الأعمال.

قالت أفدوتيا رومانوفنا وقد أزعجتها لهجة أخيها الجديدة:

إن بيوتر بتروفتش لا يخفي أن تعليَّمه كان متواضعاً، بل هو ليعتز بأنَّه عصامي شق طريقه بنفسه.

إذا كان يعتز فلاشك أن ثمة ما يدعوه إلى الاعتزاز! أنا لا أعارض. أعتقد أنَّكِ انزعجتِ يا أختي لأنني لم أخرج من هذه الرسالة كلها إلا بهذه الملاحظة التافهة، وأنت تظنين أنني تعمدت أن أتشبث بهذه السفاسف لأسخر منك بدافع الاستهزاء، والحق عن ذلك بعيد: ففي صدد موضوع الأسلوب هذا، إنما خطرت ببالي ملاحظة تبدو لي في هذه الحالة ذات شأن. لقد ورد في الرسالة عبارة "لن يكون لكم عندئذ أن تلوموا إلا أنفسكم"، وهو تعبير ذو دلالة بليغة

في ذاته، عدا أنَّه يشمل تهديداً: لقد قرر لوجين أن ينصرف فوراً إذا أنا حضرت فذا التهديد بالانصراف معناه أنَّه سيترككما إذا أنتما لم تطاوعاه، مع أنَّه هو الذي حملكما على المجيء إلى بطرسبورغ. فما رأيك؟ أيمكن أن تسوءك هذه الكلمات حين يكتبها لوجين مثلما يمكن أن يسوءك لو كتبها هذا (قال ذلك وهو يومئ إلى رازوميخين) أو كتبها زوسيموف أو كتبها أي واحد منا؟ قالت دونيتشكا بحماس:

لـ ...... لا! ...... لقد أدركت حق الإدراك أن في أسلوبه سذاجة صارخة، وأنَّه قد لا يكون حاذقاً كفاية في استعمال قلمه. إن ملاحظتك سديدة جداً يا أخي، حتى إنني لم أكن أتوقع أن......

نعم، هذا هو طابع الأسلوب القضائي، وبالأسلوب القضائي لا يستطيع المرء أن يكتب إلا هذا. ولعلَّ لوجين كان فيما كتبه فظاً أكثر مما أراد. ومع ذلك أريدُ أن أخيِّب ظنَّكَ قليلاً: ففي هذه الرسالة نفسها تعبير آخر هو نميمة بحقي، نميمة خسيسة لئن وهبت بالأمس نقوداً لأرملة مصدورة يائسة، لم أفعل هذا "بحجة" دفع نفقات الجنازة، إنَّما لدفع نفقات الجنازة فعلاً، ثم لقد وضعت المبلغ الموهوب لا في يد الفتاة أو يد "البنت المعروفة بسوء السمعة" حسبما جاء في الرسالة (وهي الفتاة التي رأيتها البارحة لأول مرة في حياتي) وإنما في يد الأرملة بالذات. أنا أرى في كلامه هذا رغبة شديدة جامحة في تسويد صفحتي، وأحداًث شقاق بيني وبينكم، هنا يكشف الأسلوب القضائي عن نوايا صاحبه بوضوح، وعلى تسرع فيه بعض سذاجة الرجل الذكي، إنَّما لا يكفي أن يكون المرء ذكياً حتى يتصرف بذكاء. هذا كله يطلعك على حقيقته. ثم إنني ...... لا أعتقد أنَّه يحترمك كثيراً. لا أقول لك هذا إلا لتحيطي علماً...... ذلك أنني أتمنى لك الخير صادقاً بالعمق.

لم تجب دونيا. كانت اتخذت قرارها منذ أمد، فهي تنتظر تخييم الظلمة.

سألت بولخيريا الكسندروفنا ابنها، وقد تأزم قلقها بعدما قاله أخيراً

بخصوص موضوع الأعمال.

فماذا قررت يا روديا؟

ماذا تعنين بقولك "ماذا قررت"؟

إن ..... بيوتر بتروفتش يطلب في رسالته ألا تجيء إلينا هذا المساء، وأنَّه سينصرف إن خرق طلبه. فهل ..... ستجيء؟

لست أنا من يجب أن يقرر، بل ينبغي بداية أن تقرري أنتِ: هل تجدين في طلب بيوتر بتروفتش إهانة لك أم لا، وينبغي ثانياً أن تقرر دونيا: هل هي أيضاً مستاءة من هذا الطلب أم لا؟.

وأضاف راسكولنيكوف ببرود:

أما أنا سأفعل ما يناسبكما كلتيكما.

أسرعت بولخيريا الكسندروفنا تجيب:

لقد اتخذت دونتيشكا قرارها وانتهى الأمر؛ وأنا موافقة على قرارها.

قالت دونيا:

نعم، قررت يا روديا ...... قررت أن أطلب منك، بإلحاح وإصرار، أن تحضر الاجتماع عندنا مساء. هلاَّ أتيت؟

سآتي.

والتفت دونيا إلى رازوميخين فقالت له:

وأنت أيضاً ...... أرجوك أن تكون عندنا في الساعة الثامنة. يا أمي، إني أدعوه، أيضاً. أردفت بولخيريا: - هذا حسن جداً يا دونيا. وأضافت:

ليكن ما تقرران. ثم إنني أوثر هذا. لا أحبُّ التظاهر والدجل. نعم الأفضل أن نقول الحقيقة كلها. اغضب يا بيوتر بتروفتش أم لا، هذا شأنك.

# الفصل الرابع

في تلك اللحظة فُتح الباب برفق، ودخلت فتاة فألقت على ما حولها نظرات وجلى. فالتفت الجميع نحوها مدهوشين مستطلعين. لم يتعرفها راسكولنيكوف للوهلة الأولى، إنَّها صوفيا سيميونوفنا مارميلادوفا. كان قد رآها أمس أول مرة، رآها في لحظة خاصة وظروف خاصة. ورآها بثياب خاصة، فكانت صورتها المرسومة في حافظته صورة إنسانة أخرى. الفتاة بسيطة الهندام بل متواضعة القيافة، في مقتبل العمر أقرب إلى البنيات اليافعات، هادئة الحركة محتشمة، نضيرة المحيا على بعض الخوف أو التهيب، فضلاً عن قبعة على الرأس بالية متخلفة الدرجة mode، وبيدها كما الأمس مظلة. فلما رأت، بدهشة، الغرفة مزدحمة، اضطربت، بل فقدت السيطرة على أعصابها، وهمت بالانسحاب.

قال راسكولنيكوف بعد أن دهش كثيراً

آ ....... أهذا أنت ؟

وفقد هو التماسك العادي.

وسرعان ما تذكر أن رسالة لوجين أعلمت أمه وأخته بوجود آنسة "معروفة بسوء السمعة عند الغير". وقد احتج هو منذ قليل على سلوك لوجين، وأعلن أنَّه لم يحتج على ما قرأ في رسالة لوجين ما يخص هذه البنت "وسمعتها" برق كل هذا في باله مبهماً وعلى عجل.

لكنَّه حينما تملَّى القادمة بانتباه، رآها كائناً مسكيناً ذليلاً، فما عتم أن حنَّ عليها، فلما حاولت أن تهرب خوفاً مما رأت، كان قد شعر برعشة قوية فأسرع يستوقفها بنظرة:

ما انتظرت قدومك أبداً. هلا أرضيتني وقعدت. لا شك أنك من طرف كاترينا إيفانوفنا. من فضلك. لا، ليس هنا، إنما هنا، اجلسي، حين دخلت

سونيا، كان رازوميخين جالساً بالقرب من الباب على واحد من الكراسي الثلاثة الموجودة في حجرة راسكولينكوف. فنهض مفسحاً لها المرور وكان راسكولنيكوف دلها أن تقعد حيث كان زوسيموف قاعداً منذ هنيهة، لكنه لما تذكر أن هذا المكان يدل على رفع الكلفة، والديوان سريره، أرشدها إلى كرسي رازوميخين، وهمس إلى هذا الأخير أن اجلس على الديوان محل زوسيموف: وأنت اجلس هنا

قعدت سونيا وعلى محياها شيء من الوجل، ورمقت السيدتين بتهيب كان واضحاً أنَّها لم تشرع لنفسها أن تكون إلى جانبهما. ولدى هذا الشعور تصورت أنَّها نهضت باضطراب شديد وجمجمت باتجاه راسكولنيكوف:

أنا ...... أنا ما جئت إلا لدقيقة فقط ..... اغفر لي إزعاجك. فكاترينا هي التي أوفدتني ...... لأنَّها لم تجد أحداً سواي لهذه المهمة. طلبت مني أن أرجوك بإلحاف ..... أن تحضر غداً قداس الجنازة ...... صباحاً ...... بعد الصلاة ........ في مقبرة متروفان [1]. وأن تأتي بعد ذلك إلينا ..... إليها ...... لنتناول لقمة العزاء. ترجوك أن تهبها هذا الشرف. نعم، هي كلفتني أن أقول هذا .......

قالت سونيا هذا، واشتد ارتباكها فسكتت.

نهض راسكولنيكوف هو أيضاً، وتشوش بعض الشيء هو أيضاً وتأتأ يجيب:

سأحاول المجيء حتماً ....... حتماً ......

ثم أردف فجأة:

هلا أرحتني واسترحت. لي معك كلام. فضلاً منك، أنت مسرعة ..... ولكن، وفري لي من وقتك دقائق!

قال ذلك، وأجلس سونيا. التي عادت ترمق السيدتين نظرات سريعة

1- مقبرة فقيرة، تقع في جنوب العاصمة، بطرسبورغ- في تلك الايام.

مذعورة، ثم حولت عينيها بغتة.

احمر وجه راسكولنيكوف الشاحب، وانقبضت سماته، وأرسلت عيناه شرراً، وقال بلهجة قاطعة ملحة:

يا أمي، هذه سونيا سيميونوفنا مارميلادوفا، ابنة ذلك السيد المسكين مارميلادوف الذي صرعته أقدام الخيل مساء أمس على مرأى مني، والذي سبق أن حدثتكم عنه ......

ألقت بولخيريا الكسندروفنا نظرة على سونيا وقد زرت عينيها بعض الشيء أنَّها لم تستطع، رغم الخوف الذي توقظه في جوانحها نظرة ابنها الثابتة المتحدية، أن تمنع نفسها من هذه المتعة. أما دونيا فقد حدقت إلى وجه الفتاة المسكينة بجد وإصرار، وراحت تدرسها بالتفصيل مدهوشة. وقد أرادت سونيا، حين سمعت ما ورد عنها، أن ترفع عينيها، ولكنها تشوشت أكثر.

وأسرع راسكولنيكوف يقول لها:

وددت أن أعرف كيف قضيتم يومكم. من دون مضايقات؟ من قبل الشرطة مثلاً؟

فأجابت الفتاة:

لا ...... جرى كل شيء بشكل عادي، لم يتسنَ لأحد أن يشك في سبب الوفاة. لم يزعجونا، ولكن السكان غاضبون عليَّنا.

لماذا؟

لأن الجثمان بقي مدة طويلة، والجو حار، والرائحة ..... لذلك سينقل الجثمان اليوم إلى المقبرة، عند صلاة الغروب، فيوضع في المصلى إلى الغد. كانت كاترينا إيفانوفنا لا تريد ذلك بداية الأمر، لكنها وعت الآن أن ليس ثمة سبيل آخر.

إذاً اليوم؟

لا بل هي ترجوك أن تشرفنا بحضور صلاة الجنازة غداً .... في الكنيسة.

وأن تأتي غداً إلينا للمشاركة في الوليمة.

أهي تقيم وليمة؟

نعم، وليمة رحمة. وقد أوكلت لي الشكر لك بخصوص المؤازرة التي تكرمت عليَّنا بها. فلولاك لما تمكنا من الإنفاق على الدفن.

وبدأت شفتا الصبية وذقنها تختلج فجأة، لكنَّها كابرت، تجلَّدت، واستطاعت أن تسيطر على نفسها، ثم أغضت نظرها من جديد.

تفحصها راسكولنيكوف خلال الحديث بدقة، كانت ذات وجه صغير باسم، شديد الهزال، شاحب اللون، ليس في قسماته اتساق كثير، متكسر الخطوط، بأنف وذقن صغيرين مدببين، حتى ليصعب أن يقال أنَّها رقيقة. ولكن لها بالمقابل عينين زرقاوين تبلغان من الصفاء أن وجهها يكتسي حين تتقدان طيبة وسماحة لا يملك المرء إزاءهما إلا أن ينجذب إليها. هذا إلى أن لوجه سونيا، ولسائر شخصها، صفة خاصة تميزها هي أنَّها، فضلاً عن كونها في الثامنة عشرة ربيعاً، تبدو أصغر سناً من ذلك بكثير، حتى ليكاد المرء يحسبها طفلة. وكان هذا يتجلى أحياناً في بعض حركاتها، فيكاد يبعث على الضحك.

سألها راسكولنيكوف وكان يواصل الحديث بإلحاح:

ولكن كيف استطاعت كاترينا إيفانوفنا أن تتدبر أمورها بمثل ذلك المبلغ الضئيل، حتى لتولم وليمة؟

سيكون التابوت بسيطاً جداً ...... وسيكون كل شيء عادياً ..... فيكون المصروف متواضعاً ........ لقد أجرينا الحساب منذ قليل مع كاترينا إيفانوفنا، فلاحظنا أن سيبقى لنا ما نولم به ....... لأن كاترينا إيفانوفنا حريصة على هذا الشأن حرصاً شديداً. ليس بالإمكان التهرب منه ..... ففي هذا عزاء لها ومواساة. هذه طبيعتها، هي هكذا ....... أنت تعرفها ......

مفهوم، مفهوم ..... لماذا تتفحصين غرفتي؟ أمي أيضاً تقول أنَّها أشبه

بتابوت.

ردَّت سونيا بصوت خفيض قوي سريع، وهي تخفض عينيها من جديد!

أنت أعطيتنا أمس كلَّ ما كان بحوزتك:

وعادت شفتاها وذقنها تختلج. كانت قد لاحظت منذ أمد ما يسود غرفة راسكولنيكوف من فقر عسير مقيت، فأفلتت هذه الكلمات من فيها على غير إرادة أو شعور تقريباً. وخيم بعد ذلك سكون واتسعت عينا سونيا، وحتى بولخيريا الكسندروفنا نظرت إلى الفتاة في رضا وبشاشة، ثم قالت وهي تنهض:

روديا، سنتناول الغذاء سوياً طبعاً هلمِّي يا دونيا. أما أنت روديا قم بنزهة صغيرة، ثم استرح: تستلقي قليلاً، وتجيء بعد ذلك إلينا. أخشى أن نكون قد أتعبناك.

ردَّ راسكولنيكوف وهو ينهض مستعجلاً:

نعم نعم، سأجيء، وثمة أعمال يجب إنجازها ......

صاح رازوميخين يقول مدهوشاً وهو ينظر إلى راسكولنيكوف:

أصحيح أنكم لن تتناولوا الغذاء معاً؟ ما هذا الذي تقوله؟

نعم نعم، سآتي طبعاً. أما أنت يا رازوميخين، فابق دقيقة أخرى لستما في حاجة اليه اللحظة يا أمي، أليس كذلك؟ أو ربما أحرمكما منه؟

لا، لا، ....... وأنت يا دمتري بروكوفتش، هلا صحبتنا إلى الغداء؟ هلا تفضلت واتيتنا إلى الغداء؟

وثنت دونيا على طلب أمها فقالت هي أيضاً:

أرجوك، تعال ........

انحنى رازوميخين وقد أشرق وجهه وشعر الجميع بنوع من الضيق والحرج الغريب للحظة.

وداعاً روديا، بل إلى اللقاء، أنا لا أُحبُّ أن أقول وداعاً! وداعاً ناستاسيا .....

هوه! ها أنا ذا أعود فأقول وداعاً!

ودت بولخيريا الكسندروفنا لو تحيي سونيا أيضاً، ولكنَّها لم تفلح في ذلك. فأسرعت تخرج من الغرفة.

ولكن أفدوتيا رومانوفنا، حين مرَّت من أمام سونيا بعد أمها كأنَّها انتظرت دورها فحيتها تحية فيها كياسة، بل هي ودودة أيضاً، فاضطرت سونيا، وانحنت متعجلة وجلة، بينما طاف بقسمات وجهها تعبير أليم، كأن ما أظهرته لها أفدوتيا رومانوفنا من أدب ولطف قد شق على نفسها وجعلها تتعذب.

هتف راسكولنيكوف لأخته وقد خرج في إثرها إلى فسحة السلَّم.

أستودعك الله يا دونيا! هلا صافحتني!

أجابته دونيا وهي تلتفت اليه بحركة خرقاء فيها عطف وحب.

ولكنِّي صافحتك، أنسيت؟

أيُّ ضير في أن تصافحيني مرةً أخرى ؟

وتناول يدها، وشدَّ على أصابعها شداً قوياً، فابتسمت له دونيا، واحمرت، وسحبت يدها بسرعة، وهرعت تلحق أمها سعيدة جداً لا تدري السبب! قال راسكولنيكوف وهو يعود إلى الغرفة ويلقي على سونيا نظرة صافية مضيئة:

عظيم! اللهم اجعل الموتى بسلام، وابق الأحياء أحياءً. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ هو كذلك هه؟

كانت سونيا تنظر مدهوشة إلى وجهه الذي أضاءه الفرح على حين غرة وكان هو يتفرس فيها بعض الوقت بتؤدة صامتاً. ثم لم تلبث قصة أبيها الراحل قد عادت إلى ذاكرته بغتة ........

بدأت بولخيريا الكسندروفنا تتكلم، منذ صارتا في الشارع، فقالت تخاطب ابنتها.

رباه! دونتيشكا! أنني أشعر بارتياح عظيم لأننا خرجنا من عنده! نعم،

أنني أحس وكأن حملاً قد أزيح عن صدري. لو قال لي قائل بالأمس، في القطار، أن ترك ابني سيسرني، فهل كنت أصدِّق؟

أكرر لك يا أمي أنَّه ما يزال مريضاً جداً، أيمكن أنك لم تلاحظي؟ لعل حزنه الناشئ عن أنَّه يتألم ويعطف عليَّنا هو الذي جعله في هذه الحالة. يجب على الإنسان أن يكون متسامحاً، إذ يتمكن آنئذ أن يغفر أموراً كثيرة، بل كثيرة جداً.

أجابت بولخيريا الكسندروفنا بلهجة حادة غاضبة

وهل كنت أنت متسامحة؟ اسمعي دونيا: لقد تمليتكما هل تعرفين ما لاحظت؟ لاحظت أنك صورته، تشبهينه وجهاً وروحاً، تماثلينه أكثر بالروح. كلاكما ذو مزاج مكتئب، كلاكما متجهم النفس، مندفع الطبع، كلاكما متكبر متعال وسمح كريم، يستحيل أن يكون أنانياً يادونتيشكا، أليس كذلك ؟ حين أفكِّرُ فيما سيحدث عندنا هذا المساء، يتفطر قلبي!

لا تقلقي ماما! لن يحدث إلا ما يجب أن يحدث.

لكن هلا تأملت دونتيشكا في الظرف الذي نحن فيه؟ ماذا لو رجع بيوتر بتروفتش عن وعده؟

هذا ما أفلت من لسان بولخيريا الكسندروفنا المسكينة بغير حذر أو تبصر. فأجابت دونيا بلهجة جافة تنم عن الاحتقار:

إن هذا لن يشرِّفه كثيراً!

سارعت بولخيريا الكسندروفنا تقاطعها:

لقد أحسنا إذ تركنا روديا. كان يستعجل الخروج لأمر ملح. بهذا يتاح له أن يتحرك قليلاً، وأن يستنشق هواء نقياً. الجو خانق في غرفته! ولكن أين يمكن أن يتنفس الإنسان في هذه المدينة؟ حتى في عرض الشارع يحس المرء أنَّه في غرفة بلا نوافذ! رباه! يا لها من مدينة! ....... انتبهي ....... ابتعدي ....... كادوا

يدوسونك! هذا بيانو محمول! آه ...... ما أكثر ما يصدم المرء هنا! ..... أنا خائفة أيضاً من تلك البنت! .....

أية بنت؟

سونيا سيميونوفنا تلك التي كانت ......

لماذا تخافينها؟

عندي هواجس يا دونيا ..... صدقيني أولا تصدقيني ..... ولكني منذ أن دخلت، قلت لنفسي، في ذات تلك اللحظة، كل شيء ربما كان مرده هو هذا.

هتفت دونيا غاضبة:

لا شيء مردَّه إلى هذا ..... عجيبة أنت وهواجسك يا ماما! ...... إنَّه لا يعرفها إلا بالامس ...... بل لم يتعرفها حين ولجت الحجرة.

سوف ترين! ..... هي ..... سوف ترين ...... سوف ترين ......! ..... آه ....... ما أشدُّ ما أشعرُ به من خوف! كانت تنظر إليَّ بعينين ..... بعينين لا أدري ماذا تقولان...... حتى كنت من تفرسها بي أغير مكاني ...... هل تتذكرين طريقته في تقديمها إلينا وتعريفنا بها؟ إن الأمر الذي يبدو لي غريباً عجيباً هو أن يقول عنها بيوتر بتروفتش ذاك الكلام، ثم إذ بروديا يقدمها لنا، ويقدمها لك أنت بخاصة! ذلك دليل أنَّها سكنت قلبه.

ما أكثر ما يكتبه الناس! ألم يكتبوا عنَّا نحن أيضاً اشياء كثيرة؟ ألم يقولوا عنا نحن كذا، وكذا وكيت؟ ...... أتراك نسيت هذا؟ أما أنا ...... واثقة أنَّها إنسانة ..... رائعة ....... وأن كل ما قيل عنها ليس الا افتراء........

أسأل اللّه أن يكون هذا صحيحاً!

أما بيوتر بتروفتش ليس إلا نمَّاماً دنيئاً

قالت دونتيشكا هذا بلهجة قاطعة على حين بغتة!

فتعكر مزاج بولخيريا الكسندروفنا، وانقطع الحديث.

قال راسكولنيكوف وهو يقود رازوميخين إلى النافذة:

إليك الأمر الذي أريد أن أحدثك إياه.

ردت سونيا متعجلة وهي تحيي لتتصرف

سأقول إذاً لكاترينا إيفانوفنا إنَّك ستأتي ......

لحظة يا سونيا سيميونوفنا. ليس ثمة أسرار. إنَّك لا تضايقينا قطعاً...... وأنا أنوي أن أقول لك كلمتين فقط.

قال هذا والتفت إلى رازوميخين قبل أن يتم جملته، فواصل كلامه له قائلاً:

إليك الأمر... أنت تعرف ذلك الرجل الذي يسمى... ما اسمه؟ نعم... بورفيري بتروفتش... أنت تعرفه، أليس كذلك؟

أعرفه نحن قريبان!

ثم أردف يسأل باستطلاع قوي:

ولكن لم هذا السؤال؟

أليس هو الذي يحقق في القضية، قضية مقتل العجوز؟ ألم تقل أمس أنَّه هو المحقق؟

حملق رازوميخين فجأة و سأل:

طيب وماذا

استجوب أولئك الذين لهم أشياء مرهونة، و أنا لي أشياء مرهونة هناك.... أشياء صغيرة على كل حال: خاتم أعطيته أختي لي ذكرى سفري إلى بطرسبورغ؛ وساعة أبي الفضية، وكلا الرهنين لا يساويان أكثر من خمسة روبلات أو ستة، لكنهما تذكاران، وأنا حريص عليهما. فما عليَّ أن أفعل الآن؟ لا أريد لهما أن يضيعا، لاسيما الساعة. منذ قليل، حينما تكلمنا عن ساعة أختي، ارتجفت خوفا أن تسألني أموي عن ساعتي، فهذه الساعة هي الشيء الوحيد الذي بقي لها من أبي! فإذا ما ضاعت ربَّما مرضت أمي! أنا انتظر بصيحتك. قل ما يجب أن أفعل، أنا أعلم أنَّه سيكون من الواجب أن

أدلي بإفادة في قسم الشرطة، ولكن أليس أفضل أن اتجه إلى بورفيري ذاته؟ ما رأيك؟ أنا أود أن أسوي هذا الأمر بأسرع ما يمكن. لسوف ترى أن أمي ستسأل عن هذه الساعة حتى قبل الغداء!

هتف رازوميخين مشوشاً جداً:

لا فائدة من الذهاب إلى الشرطة. أفضل أن تتجه إلى بورفيري. آه... أنا مسرور! نستطيع أن نمضي إليه على الفور.

هو على مسافة خطوتين. وستجده حتماً.

إذاً هلم بنا إليه!

وسيسره أن يتعرف إليك! لقد حدثته كثيراً عنك، عدة مرات. أمس أيضاً حدثته عنك. هلم نذهب. إذاً كنت تعرف العجوز؟ هذا هو الأمر! هذا ما في الأمر! إن كل شيء مترابط ترابطا را...ئعاً! آ.... نعم ... يا سوفيا إيفانوفنا.

سوفيا سيميونوفنا (هكذا صحح راسكولنيكوف) .... ياسونيا سيميونوفنا، هذا الرجل هو صديقي رازوميخين، وهو رجل طيب... قالت سونيا دون أن تنظر إلى رازوميخين مما جعل ارتباكها يربو:

إذا كان عليكما أن تخرجا الآن...

أردف راسكولنيكوف يحسم الأمر:

نعم، لنخرج. سآتي إليك في هذا النهار ياصوفيا سيميونوفنا ولكن قولي لي أين تقيمين؟

خاطبها راسكولنيكوف دونما اضطراب، ولكنه كان يتكلم بسرعة محمومة، متحاشياً أن تطرف عينه إلى الصبية. سردت عليه الفتاة العنوان واحمرت. وخرجوا جميعاً.

سأله رازوميخين وهو يهبط السلم وراءهما:

أأنت لا تقفل بابك بالمزلاج إذاً؟

رد راسكولنيكوف:

وأردف بإهمال:

على أنني أنوي منذ سنتين أن أشتري قفلاً.

ثم قال يخاطب سونيا وهو يضحك:

ما أسعد الذين لا يملكون شيئاً يستحق أن يوصدوا عليه الأبواب بالمزاليج، أليس كذلك؟

حتى إذا ما صاروا في الخارج، توقفوا في المدخل.

أأنت ذاهبة إلى اليمين يا سونيا سيميونوفنا؟ ... بالمناسبة:

ماذا فعلت حتى عثرت على بيتي؟

ألقى عليها السؤال وكأنَّه يريد أن يقول شيئاً آخر.

ولقد ظلَّ طوال الوقت يشتهي أن يركز بصره على عيني البنت الصافيتين الهادئتين دون أن يفلح بذلك.

أجابته سونيا:

أنت نفسك ذكرت بالأمس لبوليتشكا عنوانك.

ذكرته لبوليا؟ آ... نعم... بوليتشكا! هي الصغرى... هي صغراكم... هي أختك! إذاً أنا أعطيتها عنواني؟

أنسيت هذا؟

لا... الآن تذكرت.

ثُم أنني سمعت أبي الراحل يتحدث عنك. لكني لم أكن أعرف اسمك. وهو أيضاً لم يكن يعرف اسمك... فجئت الآن ... وكما كنت قد عرفت اسمك بالأمس، سألت اليوم: "أين يسكن السيد راسكولنيكوف هنا؟" ... ولم أكن أعرف أنك تستأجر من الباطن أيضاً... أستودعك الله... سأقول لكاترين إيفانوفنا.

كانت تشعر بسرور رهيب من أنَّها استطاعت أخيراً أن تودِّع لتنصرف. وسارت خافضة العين، مسرعة، تستعجل الهروب من نظراتهما و أن تقطع

العشـرين خطـوة الـتي تفصـلها عـن ناصية الشـارع التاليـة إلى الـيمين و أن تبقـى أخيراً وحدها فنستطيع في أثناء سيرها البطيء، دون أن تنظر إلى أحد ودون أن تـرى شـيئاً، أن تفكـر وتتـذكـر وتـزن في ذهنـا كـل كلمـة قيلـت وكـل أمـر حدث. أنَّها لم تشعر طوال حياتها، بشيء تشعر به الآن. إن عالماً جديداً كاملاً يـدخل لنفسـها غامضـاً مجهولاً. وتـذكـرت فجـأة أن راسـكولنيكـوف يريـد أن يجيء إليها في هذا النهار، وربما في الصباح، وربما على الفور.

دمدمت منقبضة الصدر متضرعة كطفل خائف:

لا، لا اليـوم، أرجـوك! ربَّـاه! أيجـيء إلـي، في هـذه الغرفـة؟ إذاً سـوف يـرى... رباه!

ولم يكـن في وسعها طبعاً أن نلاحظ أن سيدا مجهولاً كـان يتبعهـا في تلك اللحظـة. كـان هـذا السـيد قـد تبعهـا منـذ مـدخل العمـارة، حـين توقفـت هـي راسـكولنيكوف ورازوميخين علـى الرصيف يتبـادلون بضـع كلمـات. وكـان هذا السيد المجهول قد بدا كأنَّه يـرتعش حـين الـتقط عرضـاً، في أثنـاء مـروره بهـم، تلـك الكلمـات الـتي قالتهـا سـونيا: "سـألت: "أيـن يسـكن السـيد راسـكولنيكوف هنـا؟" فـألقى علـى المتحـادثين الثلاثـة، ولاسـيما علـى راسكولنيكوف الذي كانت الفتاة تتجه إليه بالكلام، نظرة سريعة لكنها منتبهة، ثم تفحص المنزل وحفظ رقمه. ثم ذلك كله بمثل لمح البصر، ودون أن يتوقف ودون أن يلفظ أحد، ثم ابتعد الرجل متباطئ الخطى كمن ينتظر أحداً. كان ينتظر سونيا. ورأى سونيا تودِّعُ الشابين، فأدرك أنَّها متجهة إلى دارها.

قـال يسـائل نفسـه وهـو يتـذكـر ملامـح سـونيا: "إلى مسـكنها! ولكـن أيـن مسكنها؟ لقد رأيت هذا الوجه في مكان ما... يجب أن أستعلم!"

فلما وصل إلى بداية الشارع انتقل إلى الرصيف المقابل، والتفت فرأى سونيا تسير الآن في نفس الاتجاه، ولكن دون أن تلاحظ شيئاً. فلما وصلت هـي أيضـاً إلى ذات المكان مضت في نفس الشارع الذي مضى هـو فيـه. فأخـذ يتبعهـا دون

أن يحول عنها بصره، حتى إذا قطع حوالي خمسين خطوة رجع إلى الرصيف الذي كانت تسير عليه سونيا ، ولحق بها ، و أخذ يسير وراءها على مسافة خمس خطوات منها.

هو رجل في الخمسين من عمره، أطول من وسطي الرجال، بدين، عريض المنكبين عالي الكتفين محدوب الظهر، حسن القيامة أنيق الهندام، ذو مظهر أحد السادة، يحمل عصا رشيقة يقرع بها أرض الرصيف عند كل خطوة من خطواته، و يداه موشحتان بقفازين حديدين. ووجهه العريض لا يخلو من وسامة. وفي بشرته نضارة ليس يرى مثلها في كل أنحاء بطرسبورغ، وشعره أشقر زاه، مايزال كثيفاً ، هو على أبواب التعبير بالشيب، ولحيته المبروكة أزهى من شعر رأسه أيضاً. عيناه زرقاوان مع بريق معدني، ونظرة ثابتة، ملحة، وخمرة شفتيه بارزة، إجمالاً ، هو رجل نضارته مصانة، فيبدو أفتى من سنه.

لما وصلت سونيا إلى القناة، كان و إياها وحدهما على الرصيف، فاستطاع الأخ أن يتملاها فرأى ما عبر عنه محياها من ذهول و تأمل. ولما وصلت أمام العمارة حيث تسكن، استدارت، دخلت الباب الكبير، تبعها مدهوشاً ، حتى إذا بلغت باحة المنزل اتجهت يمنة نحو ركن السلم المفضي إلى شقتها. فغمغم السيد المجهول: "عجيب!" وبدأ صعود الدرج وراءها. وفي تلك اللحظة انتبهت إليه سونيا. صعدت إلى الدور الثالث، اجتازت الرواق، ثم إلى جرس باب 9: حيث نقرأ كلمتين: "كابرناوموف، خياط". وتمتم الرجل ثانية: "عجيب! لقد أدهشته أصدفة الغريبة. وقرع هو جرس الشقة المجاورة، 8، المسافة بين البابين ست خطوات تقريباً.

قال وهو يرفعها ضاحكاً:

آ... تسكنين عند كابرناوموف! لقد أصلح لي صديرتي أمس. أنا أسكن هنا، قريباً منك، عند السيدة ريسلينخ، السيدة جروترودا كارلوفنا ريسليخ. يالها من مصادفة!

طرقت إليه سونيا بانتباه.

وتابع هو كلامه بلهجة فيها حبة فرح خاص:

نحن إذاً جاران. أنا لا أقيم في العاصمة إلا مذ ثلاثة أيام.

لم تجب الفتاة. وفتح الباب، فانسلت إلى بيتها. كانت تشعر بخجل وعار من شيء ما فخافت.

كان رازوميخين مضطرباً جداً في الطريق إلى بورفيري. وقد كرر القول لراسكولنيكوف:

هذه فكرة حسنة! أنا مغتبط، مغتبط جداً!

حدث راسكولنيكوف نفسه: "ولكن لم أنت مغتبط؟"

وأردف رازوميخين:

كنت أجهل أنك أنت أيضاً قد رهنت عند العجوز شيئاً ما. هل حدث هذا منذ مدة بعيدة؟ أقصد:

أمنذ مدة مديدة ذهبت إليها؟

وهمس راسكولنيكوف مع نفسه: "يالك من ساذج! يالك من أبله!"

ثم خاطب رازوميخين:

أمنذ أمد بعيد كنت عندها؟

وتوقف لحظة يفكر. ثم أجاب صاحبه.

قبل موتها بثلاثة أيام، كما أظنُّ.

ثم أضاف على عجل بلهجة تظهر اهتمامه التام بأشيائه المرهونة.

على أنني لا أنوي استرداد أشيائي حالاً. فليس في جيبي سوى روبل واحد... ومرد ذلك إلى ذاك الهذيان اللعين الذي تلبسني أمس!

وقد أتت كلمة "هذيان" على لسانه نطقاً فيه دلالة و إصرار.

فسرعان ما قال رازوميخين مزاوداً دون أن يدري لماذا:

نعم، نعم... هذا هو السبب إذاً في أنك... في ذلك اليوم.... آه لشد ما باغتني

ذلك... أنك، في أثناء هذيانك، كنت لا تتقطع عن الكلام عن خواتم، وعن سلاسل، وعما لا أدري أيضاً...آ.... نعم ... اتضح الآن كل شيء... اتضحت الأمور... أصبح كل شيء واضحاً!

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: "هكذا إذاً! لقد قامت الفكرة في أذهانهم ونمت... أن هذا الرجل مستعد لأن يصلب في سبيلي، ومع ذلك يشعر بسعادة عظيمة لأن السبب الذي جعلني أتكلم في أثناء الهذيان عن خواتم، قد اتضح له الآن! لقد ترسخت الفكرة في أذهانهم جميعاً!"

ثم سأل صاحبه بصوت عال:

هل تعتقد أننا سنجده في بيته؟

أجاب رازوميخين في الحال:

سنجده، سنجده! هو شاب شهم ياصاحبي....

سوف ترى، صحيح أنَّه أخرق قليلاً... وأن يكن ممن يرتادون المجتمع الراقي.... على أنني أجده أخرق من ناحية أخرى، بمعنى آخر... هو شاب ذكي، ليس بالغبي البتة... ولكن لتفكيره مجرى غريباً بعض الشيء، فهو كثير الشك و الريبة، قوي الاشتباه والحذر، شديد الاستخفاف و الاستهتار... يحلو له أن يضلِّك... لا أقصد أن يضلك، بل أن يغرر بك... مستخدماً الأسلوب السلفي... أسلوب الوقائع المادية! ولكنه يجيد مهنته...ز يتقنها! ...في العام الفائت حقق في قضية قتل كانت قد اختفت جميع آثارها تقريباً. وهو يرغب في هذا رغبة بارزة.

لماذا يرغب في هذا كثيراً.

لا بسبب أن... وإنما لأنني، في الآونة الأخيرة، في أثناء مرضك، اتفق لي أن حدثته عنك مراراً، فكان يصغي... فلما علم أنك تدرس الحقوق، وأنك لم تستطع أن تتم دراستك بسبب الظروف، قال: "خسارة!" فاستنتجت من هذا... أقصد... من كافة هذه الأشياء مجتمعة... لا من ذلك وحده... و بالأمس، قال

زامياتوف... اسمع ياروديا، أمس مساء، حين كنَّا عائدين إلى بيتك معاً، كنت أنا سكران جداً، ربما تماديت بالحديث، فأرجو يا روديا ألا تغلو في حمل كلامي على محمل الجد....

ماذا؟ هم يعتقدون أنني مجنون، ، أليس كذلك؟

ولكن قد يكونون على حق.

قال راسكولنيكوف هذا وابتسم بسمة مصطنعة.

نعم نعم... لا بل! ... دعك من هذا الكلام! أن كل ماقلته (وسائر ماعداه أيضاً) ليس إلا إسفنجاً... ليس إلا ثمرة السكر!

صرخ راسكولنيكوف بغضب شديد نصفه تصنع و تظاهر:

ولكن علام تعتذر؟ أوه... ما أكثر ما تضجرني و تزعجني هذه الأمور كلها.

أردف رازوميخين:

أعرف، أعرف، أنا أفهم، ثق أنني أفهم. بل أن الكلام عن هذا كله عار!

إذا كان الكلام عن هذا عارا فلنكف إذاً عنه!

وصمت الاثنان. كان رازوميخين متحمساً وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك مشمئزاً. وكان من جهة أخرى قلقاً مما قاله له رازوميخين عن بورفيري منذ هنيهة.

قال يحدث نفسه وقد شحب لونه وخفق قلبه: "لهذا الرجل أيضاً سأضطر أن أشكو الفقر، وأن أظهر بمظهر من يستحق الشفقة و الرثاء... و أن أفعل ذلك بطريقة تبدو طبيعية. ولكن الطريقة الطبيعية هي أن لا أقول شيئاً، أن لا أقول شيئاً البتة! ولكن لا... أن لا أقول شيئاً البتة هذا أيضاً لن يبدو طبيعياً! على كل حال سوف نرى كيف ستجري الأمور، وسوف نرى أكان من الخير أن اذهب الى هناك أم لا!... الفراشة تطير إلى لهب الشمعة من تلقاء نفسها قلبي يخفق، هذا يقلقني!"

قال رازوميخين:

هنا، في هذه العمارة الرمادية.

وقال راسكولنيكوف يحدث نفسه: "النقطة الأساسية هي هذه: هل بورفيري على علم بالزيارة التي قمت بها أمس لمسكن العجوز الشيطانة، وهل هو على علم بسؤالي عن الدم؟ يجب عليَّ أن أعرف هذا منذ أدخل، من النظرة الأولى، يجب أن أقرأه في وجهه لحظة ولوجي، و إلا فأن... لأعرفن هذا ولو هلكت.

وخاطب رازوميخين بغتة، مع ابتسامة مخادعة.

هل تعرف ماذا لاحظت عليَّك؟ لقد لاحظت عليَّك منذ هذا الصباح، يا صاحبي، أنك مضطرب بشكل غير مألوف كثيراً. أنا مخطئ؟

أجاب رازوميخين مستاء:

أنا مضطرب؟ لا لست مضطرباً أبداً.

دعك من هذا الكلام يا صاح! منذ قليل، كنت جالساً على الكرسي تماماً، وكنت كمن أصيب برعدة. وكنت تثب من مكانك دونما عذر معروف. فتارة تغضب، وتارة يظهر عليَّك تعبير حلو لسبب ما! بل لقد كان وجهك يحمرُّ بشدة، وقد اهتاج محياك بخاصة حين دعيت إلى الغداء. نعم، اصطبغت بالحمرة حتى جذور شعرك.

غير صحيح. أنت تكذب. ماذا تقصد؟

تتحايل كتلميذ! ها .... ها أنت ذا تحمرُّ من جديد!

يا للخنزير!

ولكن علام كل هذا التشوش؟ مسكين روميو! اسمع: لن يفوتني أن أتكلم عنك اليوم في مكان ما. هأهأهأ! سوف أضحك أمي كثيراً...

وسوف أضحك شخصاً آخر أيضاً.

قال رازوميخين وقد طاش عقله وتجمد رعباً:

اسمع، اسمع، هذا أمرٌ خطير، هذا... يا للعواقب! ماعساك قائلاً لهما؟ أنا... ياصاح... آه... يالك من خنزير!

وردة، وردة من ورود الربيع حقاً! ليتك تعلم كم يناسبك هذا! روميو طوله متران تقريباً! ثم انك قد غسلت وجهك اليوم، ونظفت أظافرك، هه؟ ذلك مالم يحدث يوماً. ها... أنت ذا قد تدهنت وتطيبت! هيا اخفض رأسك لأرى!

يالك من خنزير!

كان راسكولنيكوف يقول هذا الكلام وهو يضحك قهقهة حتى فقد السيطرة على نفسه. وعلى هذه الحال من الضحك الشديد دخل الشابان شقة بورفيري بتروفتش. وهذا بعينه ما أراده راسكولنيكوف. من آخر الغرف كان يمكن أن يسمع دخولهما مقهقهين. وقد استمر بالضحك وهما في الردهة.

همس رازوميخين يقول لراسكولنيكوف غاضباً وهو يقبض على كتفه:

إياك أن تقول كلمة واحدة في هذا الموضوع هنا، وإلا هشمّت بوزك!

# الفصل الخامس

كان راسكولنيكوف قد دخل الشقة. دخل دخول من يهب كل ما يملك من قوة حتى لا ينفجر ضاحكاً. ودخل وراءه رازوميخين الخجل الطويل القامة محمر الوجه، عشوائي الحركة، منقبض القسمات من الغضب. كان وجهه في تلك اللحظة، بل كان شخصه كله مضحكاً حقاً، يبرر ما كان فبه راسكولنيكوف من قهقهة صاخبة. وقد انحنى راسكولنيكوف يحي رب البيت حتى قبل أن يقدم له. كان رب البيت واقفاً في وسط الغرفة يلقي على القادمين نظرة متسائلة. ثم مدَّ راسكولنيكوف إليه يده فصافحه، وهو يبذل جهداً ظاهراً لكي يكبح مرحه، وأن ينطق بالكلمات القليلة التي يوجبها التعارف. ولكنه ما إن أفلح في اتخاذ هيئة الجد، وفي أن يدمدم ببضع كلمات حتى عاد ينظر إلى رازوميخين كأنَّما رغم إرادته، فلم يستطيع في هذه المرة أن يصمد، فإذا بضحكه يتدفق جارفاً لا سبيل إلى قهره، لاسيما بعد أن كظمه مدةً غير قصيرة. فإذا بالغيظ الخارق الذي يستقبل به رازوميخين هذا الضحك "الصريح" يضفي على المشهد كله مظهر مرح طبيعي، بل وصادق، وقد بالغ رازوميخين بمظهر المرح كأنما عامداً: ذلك أنَّه زأر في وجه راسكولنيكوف وهو يجري يده بحركة نبش منها الغضب قائلاً:

آ.... ياللشيطان الرجيم!

فإذا بالحركة التي أجراها تصدم منضدة صغيرة مستديرة عليها فنجان شاي فارغ، فيطير كل شيء بالهواء، ويسقط على الأرض مقرقعاً.

هتف بورفيري بتروفتش يقول مرحاً:

لماذا تحطمون الأثاث ياسادة؟ لماذا تلحقون الأذى بالدولة؟ إليكم وصف المشهد الذي كان يرى في تلك اللحظة:

راسكولنيكوف يضحك ملء شدقيه تاركاً يده في يد ربَّ البيت، إنَّما

دون أن يفقد حسَّ القصد و الاعتدال، منتظراً اللحظة المناسبة التي سوف يستطيع فيها أن يسحب يده بسرعة وعلى نحو طبيعي. ورازوميخين قد هوى به سقوط المنضدة وتهشم الفنجان الى مستوى الخجل و الاضطراب، فألقى على الحطام نظرة سوداء، وبصق على الأرض، وابتعد نحو النافذة، لبث أمامها مديراً ظهرهُ، عابس الوجه، مقطب الأسارير، ينظر الى الخارج دون أن يرى شيئاً، وبورفيري بتروفتش يضحك راغباً بالضحك، لكنَّه ينتظر شروحاً بطبيعة الحال. وفي ركن من الأركان يجلس زاميوتوف على كرسي. كان زاميوتوف، حين دخل الزائران قد نهض ينتظر وانفرج فمه عن بسمة، لكنه يبدو مندهشاً، مرتاباً، ولاسيما إزاء راسكولنيكوف، فهو ينظر إليه الآن بشيء من الذهول. إن وجود زاميوتوف قد فاجأ راسكولنيكوف و أزعجه، فقال لنفسه: "هذا عنصر آخر يجب أخذه بعين الحساب" و بدأ يتكلم فقال يعرف بنفسه مصطنعاً الخجل:

معذرة، أرجوك. اسمي راسكولنيكوف...

ردَّ بورفيري بتروفتش:

لا داعي لأي اعتذار: جميل منك جداً أنَّك دخلت على هذا النحو.

وأردف مشيراً إلى رازوميخين:

هيه! ماله لا يريد أن يحيي حتى؟

قال راسكولنيكوف:

حقاً لست أدري سبب خنقه عليَّ إلى هذا المستوى. كل ما فعلته هو أني قلت له في الطريق أنَّه أشبه بروميو... و برهنت له على صدق قولي. لا شيء آخر. أو هذا ما خُيِّلَ لي على الأقل!

دمدم رازوميخين شاتماً دون أن يلتفت:

خنزير!

فرد بورفيري ضاحكاً

لابد أن ثمة أسباباً خطيرة جداً تجعله يغضب بل ربما يهستر
رداً على كلمة بسيطة صغيرة!

فقال رازوميخين بلهجة قاطعة:

- هيه! اسكت أنت يا قاضي التحقيق! ثم الشيطان ينتظركم جميعاً!

قال هذا وراح يضحك هو الأخر فجأة ودنا من بورفيري فيروفيتش مشرق الوجه منبسط الأسارير كأن شيئاً لم يحدث. و تابع كلامه:

-كفى! نحن جميعاً حمقى فعلاً. اسمع: هذا صديقي روديون رومانوفتش راسكولنيكوف. هو أولاً من كثرة ما سمع عنك، أراد أن تصير من معارفيه، وهو ثانياً يجب أن يحدثك عن قضية صغيرة. هه! زاميوتوف، شيء عجيب! ماذا تفعل هنا؟ أأنتما متعارفان إذاً؟ مذ متى؟

ردَّ راسكولنيكوف يحدث نفسه قلقاً: "ما معنى هذا أيضاً؟"

ظهر الاضطراب على زاميوتوف، ولكن اضطرابه لم يكن عنيفاً. وأردف بلهجة طلقة:

ـ تعارفنا أمس في بيتك!

ـ إذاً لقد أعفتني القدرة الإلهية من جهد كان ينبغي أن أبذله. تصور بورفيري أنَّه يلحُّ، منذ أسبوع، إلحاحاً شديداً على أن أعرفك به. فها أنتما قد استغنيتما عني، فتعارفتما دون ما وساطة.... أين تبغك؟

كان بورفيري بتروفتش بلباس البيت: يرتدي ثوب منزل، وقميصاً نظيفاً، و بابوجين عتيقين بنعليَّن باليين. هو رجل في حوالي الخامسة و الثلاثين من عمره، مربوع القامة، بدين الجسم، لهُ كرش، حليق الذقن تماماً لا شارب و لا سالف، مقصوص الشعر على رأس ضخم مدور بارز القفا، منفرج الوجه أفطس الأنف بعض الشيء. أصفر اللون أكمده كأنَّه مريض، لكن وجهه لا تخلو من تعبير عن الحيوية، ولاعن السخرية. لا بل يمكن أن يعبر وجهه عن بعض الطيبة لولا عيناه اللتان تنظر إليهما فترى فيهما اخضلالاً وبريقاً كبريق

الماء، و تكاد تعلوهما حاجبان يضرب لو أنَّهمان إلى بياض، و كأنَّهما من الغمز المستمر ترسلان شارات لا تنقطع. فنظرة هاتين العينين تنافي سائر قسماته قليلاً (وفي هيئته شيء من أنوثة) وتجعل هذه الهيئة تبدو أميل إلى الجد و الجهامة مما قد يتوقعه المرء عند أول نظرة يلقيها عليه.

ما أن علم بورفيري بتروفيتش أن زائره يرغب أن يحدثه في "قبضة صغيرة"، حتى رجاه أن يفتقد الديوان، وجلس هو في الطرف الآخر، محدقاً إلى الزائر منتظرا عرض القضية بلا إبطاء، مبدياً أشد اهتمام. فمثل هذه الاهتمام الصادر عن رجل لا تعرفه، يبدو لك مفتعل، بل ويشعرك بشيء من الحرج، لا سيما إذا كان ما ستقوله لا يستحق في رأيك انتباها شديدا. ومع ذلك شرح راسكولنيكوف قضيته ببضع كلمات، واضحة دقيقة؛ فبلغ من رضاه عن نفسه أنَّه أتيح له أن ينعم النظر في بورفيري بتروفيتش في أثناء ذلك. وكان بورفيري بتروفيتش، من جهته لا يحول بصره عن راسكولنيكوف لحظة واحدة. وكان رازوميخين قد استقر أمامهما أقرب إلى المنضدة. يتابع عرض القضية بشغف عارم وصبر نافذ، متجها بنظرته إلى هذا تارة و تارة آخر إلى ذاك. كان في هذا شيء من مبالغة طبعاً.

دمدم راسكولنيكوف مع نفسه: "ياللأبله!"

و أجاب بورفيري بلهجة رسمية جداً:

ـ يجب أن نبعث إلى الشرطة بلاغا تقول فيه انك وقد علمت بالنبأ، نبأ مقتل العجوز، تريد إبلاغ قاضي التحقيق المكلف بالقضية أن هذه الأشياء أشياؤك وأنك تريد استردادها. أو أن.... على كل حال، سيكتبون لك....

رد راسكولنيكوف وهو يحاول أن يصطنع الخجل ما وسعه ذلك:

ـ ولكنني... لكنني... في الوقت الحاضر... لا أملك مالاً... فحتى هذه الأشياء زهيدة القيمة لا أستطيع أن.... كل ما أريده الآن هو أن أصرح بأن هذه الأشياء لي، ومتى يصير عندي مال سوف... أردف بورفيري بتروفيتش مستقبلاً

هذه الإيضاحات المالية ببرود:

ـ هذا لا قيمة له. تستطيع أن تكتب لي رأسا إذا أردت فتقول: لما كنت قد علمت كيت وكيت ولما كانت الأشياء كذا وكذا هي أشيائي، إنني أرجوكم أن... الخ....

فأسرع راسكولنيكوف يسأله، مبدياً أهمية الشأن المالي ثانية:

ـ أأكتب هذه العريضة على ورق عادي؟

ـ نعم نعم، على ورق عادي....

هكذا رد بتروفيتش، ثم تأمله فجأة تأملاً فيه بعض الهزء، مطرفاً عينيه كأنَّه تغمزه، على أن من الجائز ألا يكون ذلك إلا إحساساً خالج راسكولنيكوف، لأن الغمزة لم تدم سوى لحظة قصيرة كومض البرق. ومع ذلك لابد أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث. ومهما يكن من أمر، فأن راسكولنيكوف مستعد لأن يحلف أغلظ الإيمان على أن بورفيري قد غمز له ولم يعرف السبب.... فإذا بكلمتين تومضان في ذهنه بسرعة قصوى فيقول لنفسه: "أنَّه يعلم!"

وتابع كلامه وقد ارتبك قليلاً:

ـ اغفر لي إزعاجك بهذه الترهات.... صحيح أن هذين الشقيقين اللذين كانا مرهونين عند العجوز لا يساويان أكثر من خمسة روبلات، و لكني حريص عليهما حرصاً شديداً. لأنَّهما تذكار من والدي وأختي ، أعترف لك أنني ذعرت أشدَّ الذعر حين علمت أن....

أردف رازوميخين متعمداً وهو يبيت نية واضحة:

ـ ذلك السبب في أنَّك انتفضت أمس حين كنت أثرثر أنا مع زوسيموف فقلت له أن بورفيري يستجوب الأشخاص الذين كانوا قد رهنوا أشياء عند العجوز.

عندئذ طفح الكيل. فها هو راسكولنيكوف يخرج عن طوره فيلقى على

رازوميخين نظرة سوداء تشتعل غضباً. ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه فوراً. ثم قال له بحنق أحسن اصطناعه في حذق و براعة:

يا عزيزي، يخيَّل إلى أنَّك تسخر من عقلي. أنا أوافقك على أنني أسرف قليلاً في الاهتمام بأشياء هي في نظرك تافهة لا قيمة لها. ولكن هذا ليس سبباً يدعو إلى اعتباري أنانياً أو بخيلاً، لأن هذه الأشياء التافهة في نظرك قد لا تكون تافهة في نظري أنا. ولقد قلت لك منذ بعض الوقت أن تلك الساعة الفضية التي لا قيمة لها هي الشيء الوحيد الذي بقي لي من أبي. فاسخر مني ما شئت، ولكن أمي قد وصلت (وهنا التفت راسكولنيكوف نحو بورفيري بغتة)، فإذا علمت (استأنف راسكولنيكوف كلامه وهو يعود إلى رازوميخين مسرعاً و يحاول أن يضل صوته متجهاً نحوه) فإذا علمت أن هذه الساعة قد فقدت، فإنها ستهوى إلى حضيض الكرب و اليأس. هكذا خلقت النساء!

هتف رازوميخين بمرارة:

ـ ولكني لم أقصد هذا قط! لأني لم أقل ما قلت بهذا المعنى! هذا نقيض ما أقصد!

تساءل راسكولنيكوف مهموماً: هل نجح هذا الأسلوب؟ أكان كلامي طبيعياً؛ ألم أبالغ؟ لم قلت: "هكذا خلقت النساء؟"

قال بورفيري بتروفتش لسبب من الأسباب:

ـ آ ... وصلت أمك؟

ـ نعم.

ـ متى؟

ـ مساء أمس. وصمت بوفيري كمن يفكر. ثم أردف بهدوء، ودم بارد:

ـ أشياؤك لا يمكن أن تضيع أبداً. ثم أنني كنت أنتظرك منذ أمد بعيد.

قال بورفيري هذا، ثم أخذ و كأنما لم يحدث شيء، يضع تحت يد روزوميخين منفضة سجائر، لأن رازوميخين كان يهز سيجارته بغير شفقة

فيسقط رمادها على السجاد. ارتعش راسكولنيكوف، ولكن بورفيري الذي كان مشغولاً بسيجارة رازوميخين، كان يبدو عليه أنَّه لم يلاحظ و صرخ رازوميخين:

ـ ماذا؟ كنت تنتظره؟ أكنت تعرف إذاً أن له رهناً هناك أيضاً؟

فاتجه بورفيري بتروفتش إلى راسكولنيكوف:

ـ كان هناك، الخاتم و الساعة، موجودين عندها، ملفوفين بورقة واحدة، وقد كتب اسمك على الورقة واضحاً بقلم الرصاص، كما سجل على الورقة تاريخ الرهن أيضاً...

ردَّ راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكة خرقاء، و يحاول أن ينظر إلى عيني بورفيري:

ـ ما أقوى ذاكرتك!

ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يضيف بغتة:

ـ لئن أبديت هذه الملاحظة، فلأنَّ ثمة أشخاصاً بل جمهرة من الناس قد رهنوا أشياء كما يخيل لي... فلا مهرب من أن يصعب عليَّك أن تتذكر أسماءهم جميعاً.... إنما أراك تتذكر الكل بوضوح، و....و... ثم خاطب نفسه: "ما أغباني! ضعيف جداً! لماذا أضفت هذا الكلام؟"

أجابه بورفيري ببعض السخرية التي تكاد لا تلحظ:

ـ ولكني صرت أعرف أسماء تلك الجمهرة و شخوصهم. و أنت وحدك لم تطالب بأشيائك حتى الآن....

ـ ذلك لأني كنت مريضاً.

ـ هذا أيضاً أُنبئت به، و أخبرت أنك كنت قلقاً للغاية مضطرباً جداً من أمر ما. ثم مازلت تبدو شاحباً. بالعكس: صحتي الآن طيبة جداً.

ـ لست شاحباً قطعاً.

ـ قال راسكولنيكوف بفظاظة و غلظة، وقد تغيرت لهجته على حين غرة.

علـى الغضـب في حنايـاه، و اسـتحال كبحـه. وقـال: هـذا الغضـب هـو الـذي سيدفعني إلى أن يشرد لساني أو يغافلني! إنما لماذا يعذبونني بهذا القدر!"

عاد رازوميخين إلى الكلام:

ـ صحتك جيدة جداً! اسمعوا هـذا الحكـي! كـان حتـى الأمـس يكـاد لا يعي، بل و كان يهذي! أتصدق يا بـورفيري أنَّـه كـان الوقـوف يشـق عليـه، فمـا أن أدرنـا ظهورنـا، أنـا وزوسـيموف، حتـى ارتـدى ثيابـه و تسـلل خلسـة ليمضـي يتسـكع مـا طـاب لـه الاسـتجمام، حتـى منتصـف الليـل تقريبـاً، وهـو في حالـة هـذيان منفلـت؟ هـل لـك أن تتخيـل شـيئاً كهـذا يـا بـورفيري؟ الأمـر غـريب! قـال بورفيري وهو يهز رأسه بحركة من حركات النسـاء:

ـ حقاً؟ في حالة هذيان كامل؟ يصعب تصديق هذا!

و أفلت لسان راسكولنيكوف يقول غاضباً أشد الحنق:

ـ هذا سخف! لا تصدقه! أرى أنك لا تصدق من دون ذلك

لكن بورفيري بتروفتش بدا كمن لم يسمع هذه الأقوال العجيبة1

رد رازوميخين وقد بلغت حماسته أشدها فجأة:

ـ ولكـن هـل كـان لـك أن تخـرج لـولا أن كنـت في حالـة هـذيان؟ ولمـاذا خرجت؟ ما هدفت من الخروج؟ ولم خروجك في الخفاء؟ أنت مـا كنـت كابحـاً أعصابك! أقدر أن أقول لك هذا الآن بعد زوال الخطر، كل الخطر!

وهتـف راسـكولنيكوف متجهـاً بـالكلام إلى بـورفيري وهـو يبسـم بسـمة فيها وقاحة وتحدٍ:

ـ لقد أرهقوني أمس حتـى إرهاقـاً فظيعـاً، فهربـت لأسـتأجر شـقة أخـرى لا يستطيعون أن يعثروا عليَّ فيها. وحين خرجت حملت مبلغاً من النقـود كبيراً، أكنت بالأمس سليم العقل أم لا؟ عليَّك أنت أن تحسم النقاش.

لو استطاع في تلك اللحظة أن يخنق زاميوتوف لما تردد أبداً. كانت نظـرة زاميوتوف وكان صمته يغيظانه أعظم الغيظ.

قال زاميوتوف بجفاء:

ـ أنـا أرى أنَّـك كنـت تـتكلم كـلام إنسـان عاقـل جـداً ، بـل وكـلام رجـل حاذق جداً.... كل ما هنالك أنك كنت سريع الاهتياج و الغضب.

وأردف بورفيري بتروفتش:

ـ و اليوم ذكر لي نيكوديم فومتش أنَّه لقيك أمس، في ساعة متأخرة، في منزل موظف داسته عربة.

فرد رازوميخين مستأنفاً كلامه مخاطباً راسكولنيكوف:

ـ نعـم، أننظـر فيمـا فعلـت في بيـت ذلـك الموظـف مـثلاً : ألم تتصـرف تصـرف رجل مجنون هناك؟ فقد أعطيت أرملته كل ما تملك من دراهم للإنفاق على الجنازة. أفما كان بوسعك، إذا أنت حرصت حرصاً مطلقاً على مساعدتها، أن تعطيها خمسة عشر روبلاً أو حتى عشـرين روبـلاً ، أو أن تحـتفظ لنفسـك بثلاثـة روبلات في أقل تقدير؟ ولكنك لم تفعل هذا، بل جُدُّت عليها بكل ما ملكت يداك: خمسة و عشرين روبلاً!

ـ ولكن و ولعلي عثرت في مكان ما على كنز ما يدريك؟ و لهذا كنت كريماً كل ذاك الكرم بالأمس. أن السيد زاميوتوف يعلم أني وجدت كنزاً! غفر لنا (قال هذا لبورفيري بتروفتش مختلج الشفتين) غفر لنا إزعاجك بمثل هذه السفاسف طوال نصف ساعة! نحن نضجرك، أليس كذلك؟

ـ بالعكس، بالعكس! ليتك تعلم كم يهمني أمرك و يشوقني حديثك! لمتعة عظيمة أن يراك المرء و أن يصغي إليك... أعترف لك أنني شديد السرور بأنَّك تفضلت فجئت إلي....

هتف رازوميخين لبورفيري:

ـ هيه! هلَّا قدمت لنا كوب شاي على الأقل! لقد جف حلقي!

ـ هذه فكرة رائعة، ولعلَّ سائر الصحب يوافقونك عليها! و لكن ألست تُحبّ أن تصب قبل الشاي شيئاً أحلى؟

- لا...

وخرج بورفيري بتروفتش ليطلب الشاي.

كانت الخواطر تعصف في رأس راسكولنيكوف كالإعصار. و كان مهتاجاً حتى وضعٍ لا يحسدُ عليه.

قال يحدِّث نفسه: أفدح ما في الأمر أنَّهم لا يخفون و لا يكتمون، ولا يتحرجون! كيف حدث، و أنت لا تعرفني بعد، أن تتحدث عني مع نيكوديم فومتش؟ معنى هذا أنَّهم لا يحاولون أن يخفوا أو يكتموا، و أنَّهم يطاردوني جميعاً كما يطارد الفريسة سرب من كلاب الصيد! أنَّهم يبصقون في وجهي صراحة! (كذلك قال لنفسه وهو يرتجف من شدَّةِ الغل). ما بالكم لا تكونون صريحين! لماذا تلعبون معي لعبة القط و الفأرة؟ حقاً إن هذا لمن قلة الأدب يابورفيري بتروفتش. و لعليَّ لن أسمح به بعد الآن!.... لسوف أنَّهض واقفاً فأرميكم بالحقيقة كلها صفعاً في وجوهكم. ولسوف يرون عندئذٍ مدى الاحتقار الذي أكنه لكم!" دارت هذه الخواطر في رأس راسكولنيكوف وهو يجد في التنفس مشقة مضنية. تابع في صدره: "ولكن ألا يمكن أن يكون هذا كله إحساساً باطلاً، وهماً من أوهام الخيال، سراباً لا أكثر؟ ألا يمكن أن أكون مخطئاً في الحكم على الأمر كله من أوله إلى آخره، و ألا يكون غضبي ناشئاً إلا عن نقص الخبرة، و قلة التجربة، وعن عجزي عن تمثيل دوري الساقط؟ لعلهم يقولون كل ما يقولونه من دون فكرة مبيتة أو نية سيئة!.... أن كل ما يقولونه عادي، ولكن المرء يحسُّ وراء كل كلمة من كلماتهم... صحيح أن في الإمكان أن يتكلم الجميع بهذه الطريقة وهذا الأسلوب، ولكن لابد أن هؤلاء يضمرون أشياء يلمِّحون إليها تلميحاً لا تصريحاً. لماذا قال كلمة "عندها" بإلحاح خاص؟ و لماذا قال زاميوتوف إنني كنت أتكلم كلام رجل حاذق؟ لماذا يخاطبونني بهذه اللهجة؟ نعم، هي اللهجة....ورازوميخين موجود، فلماذا لا يشتبه في شيء ؟ لكن هذا الأبله الساذج لا يشتبه في شيء يوماً من

الأيام، ها هي ذي الحمى تعتريني من جديد! هل لمح بورفيري بغمزته إلى شيء؟ سخافة! ترى لماذا وجَّهَ إليَّ تلك المرة؟ أتراهم لا يريدون إلا أن يثيروا أعصابي أو يشاكسوني؟... أما أن ذلك كله ليس إلا سراباً، و إما أنَّهم يعرفون... ولكن حتى زاميوتوف وقح! هل زاميوتوف وقح؟ لابد أنَّه فكَّر طويلاً في أثناء الليل. كنت أوجس أنَّه سيفكر! هو هنا كأنَّه في بيته رغم أنَّه جاء إلى هنا لأول مرة! بورفيري لا يعُدَّهُ ضيفاً و يجلس مديراً ظهره له! إنَّهما متواطئان، وعليَّ تواطؤهما! لا شك في أنَّهما كانا يتكلمان عني قبل وصولنا. هل يعرفان أنني ذهبت أرى الشقة؟ ليت الأمر ينتهي بسرعة! حين قلت أنني هربت أمس مساءً لأبحث عن شقة استأجرها، لم يفطن بورفيري إلى أقوالي ولم يرى فيها تحدي. نعم، لقد دسست مسألة الشقة بحذق سوف ينفعني هذا في المستقبل!... في حالة هذيان... هأهأها! ..... ولكنَّه يعرف كل ما فعلته أمس مساء. كان يجهل أن أمي وصلت! وقد سجلت العجوز تاريخ الرهن بقلم رصاص! أنتم مخطئون، لن أسلم نفسي! ما هذه وقائع على أي حال. سراب لا أكثر! هاتوا وقائع! و الشقة نفسها ليست واقعة، و إنما هي هذيان! إلا إنني أعرف ماذا يجب عليَّ أن أفعل في قابل، و ما سأقول لهم! أهم يعرفون ما حدث في الشقة؟ لن أنصرف قبل أن أعرف هذا. لماذا جئت؟ ها أنا ذا أغضب الآن! هذه واقعة! أوه.... ما أشدَّ اهتياجي و ما أسرع غضبي! ولكن لعلَّ هذا أفضل... فإنني بذلك أمثل دور المريض.... إنَّه يختبرني و سيحاول أن يشوش أفكاري. لماذا جئت؟...."

كل ذلك برق في ذهن راسكولنيكوف سريعاً كما البارقة.

وعاد بورفيري بعد لحظة. يبدو الآن مرحاً جداً.

قال يخاطب رازوميخين ضاحكاً، بلهجة مختلفة كل الاختلاف عن اللهجة اتي كان يتكلم بها منذ قليل:

ـ هل تعرف يا صاحبي أنني بعد سهرة الأمس في بيتك الجديد، راح رأسي يدور، ولم أكن في حالتي الطبيعية أبداً....

ـ كانت سهرة شائقة، أليس كذلك؟ لا تنس أنني تركتكم في أحلى لحظة. من الذي انتصر؟

ـ لم ينتصر أحد طبعاً. لقد بدؤوا يتناقشون في مشكلات أبدية، وحمي وطيس النقاش!...

ـ تصور يا رودبا أنَّهم اندفعوا يتجادلون في هذا الموضوع: أهناك جرائم أم لا؟ يا للسخافات التي قالوها!... شيء فظيع....

أجاب راسكولنيكوف شارد الفكر:

ـ لا غرابة! هذه مسألة اجتماعية عادية جداً، مع ذلك!

وتدخل بورفيري:

ـ غير أن السؤال لم تكن هذه صيغته.

فسارع رازوميخين يعترف قائلاً وقد اشتعلت حماسته على عادته.

ـ صحيح. لم تكن هذه صيغته تماماً. اسمع يارودبا، اسمع وقل لي رأيك. أنا حريص جداً على سماع ما ترى. لقد اندفعت أمس معهم بانتظار وصولك. وكنت أعلنت لهم جميعاً أنَّك آت. بدأت المناقشة بوجهة نظر الاشتراكيين معروفة وجهة النظر هذه. الجريمة احتجاج على تنظيم اجتماعي غير سليم. الجريمة هي هذا فقط. لا دافع آخر عليها.

صاح بورفيري بتروفتش:

ـ ها أنت ذا تعود إلى الافتراء!

كان بورفيري بتروفتش ينتعش انتعاشاً واضحاً، و لا يقف عن الضحك وهو يرمق رازوميخين، فكان هذا يزيد هياج المهتاج

وتابع رازوميخين يقول محموماً:

ـ نعم، ليس ثمة أي باعث آخر، في نظر الاشتراكيين. أنا لا أفتري، سوف أريك كتبهم، هم يرون أن كل شيء على الإطلاق إنَّما يرجع إلى "جو البيئة السيء"، لا أكثر. نعم، هذا هو تعبيرهم المفضل. ويستنتجون من هنا أن جميع

الجرائم ستزول دفعة واحدة عندماً ينظم المجتمع تنظيماً سليماً. فمتى زالت أسباب الاحتجاج، أصبح جميع الناس فوراً "صالحين" من تلقاء أنفسهم. هم لا ينظرون إلى الطبيعة بعين الاعتبار، بل يسقطونها من الحساب. لا مكان للطبيعة! هم لا يرون أن الإنسانية هي التي ستصل من تلقاء ذاتها، بتطور تاريخي حي، إلى أن يستقر مجتمع سليم، و يتصورون نظاماً اجتماعياً سوف يخرج من رأس عالم رياضي لا يدري أحد ما هو، فإذا به ينظم النوع الإنساني بأسره حالاً، و يجعله في طرفة عين صالحاً مبرأً من كل خطأ، وذلك طبعاً في خارج أي تطور تاريخي، حياتي، حي، هذا هو السبب في أنَّهم بغريزتهم يكرهون التاريخ: "ليس التاريخ إلا أهوالاً كريهة و حماقات بائسة". هذا ما يقولونه. وهم يفسرون كل شيء بالحماقة، وهذا هو السبب في أنَّهم يكرهون تطور الحياة تطوراً حيَّاً... و ينادون بخاصة بأن: لا نَفْسَ حية!... إن النفس الحية تتطلب الحياة، فالنفس الحية لا تخضع للميكانيكا، النفس الحية ريَّابة، النفس الحية رجعية! لذلك تراهم يصنعون نفساً من كاوتشوك ينبعث منها نتن الموت، ولكنَّها ليست حيَّة على الأقل، يصنعون نفساً طبعة ذليلة لا تتمرد! كل ذلك في سبيل أن يصلوا إلى حيث قادونا: إلى تلك المجموعة من الآجر، المقسمة ممرات وغرفاً، يسمونها فالانستير[1]! فالانستيرات الاشتراكيين جاهزة، إنما فالانستيرات الطبيعة غير جاهزة بعد لهذه الفالنسيرات، لأنَّها تقتضي الحياة، لأنَّها لم تفرغ بعد من التطور الحياتي، لأنَّها لم تتأهب بعد للقبر! إلا أن المنطق وحده لا يمكن أن يجعلنا نثب فوق الطبيعة و نتخطاها. المنطق يتصور ثلاث حالات، مع أن الحالات ملايين! هل نحذف هذه الملايين كلها باسم قضية الرخاء وحدها؟ لاشكَّ أن حل المشكلة بهذه الطريقة هو أسهل الحلول: كل شيء واضح: لم تبق حاجة إلى التفكير! ذلك مُغرٍ جذَّاب. إنَّما المهم أن لا

1 - تجمع سكاني ضخم عادل حسب الاشتراكيين الطوباويين – المترجم-.

نفكــر، وفي الإمكــان بعــد ذلــك أن نحصــر ســر الحيــاة كلــه في ورقــتين مطبوعتين!

قال بورفيري ضاحكاً:

ـ ها هوذا يندفع و يثرثر. يجب تكبيله!

ثم أضاف ملتفتاً إلى راسكولنيكوف:

ـ تصور أن هذا نفسه هو ما حدث مساء أمس... وذلك في غرفة تعلو فيها ستة أصوات... وكان قد سقانا فوق ذلك حتى سكرنا، هل تتصور ما حدث؟ لا يا صاح، أنت مخطئ... إن للبيئة دخلاً كبيراً في الجريمة. أستطيع أن أثبت لك هذا.

ـ أعرف أن للبيئة دخلاً ضخماً في الجريمة. ولكن قل لي: هب رجلاً في الأربعين قد اغتصب بنتاً في العاشرة، فهل البيئة هي التي دفعته إلى ارتكاب هذه الجريمة؟

أردف بورفيري برصانة تثير الدهشة:

ـ بالمعنى الدقيق للكلمة، يجوز إن تقول أن البيئة هي التي دفعته إلى ذلك نعم، إن اغتصاب ابنة قاصر يمكن جداً أن يعلل بالتأثير الذي تحدثه البيئة.

كاد غضب رازوميخين يستعر برهبة. إذ رأوه:

ـ هذا هراء. و بمثل هذا الهراء أستطيع أن أثبت لك أن السبب في أن أهدابك بيضاء هو أن برج الأجراس في كنيسة القديس يوحنا بموسكو يبلغ علوه 35 ساجين – أي 74.55 م - و أن أبرهن لك على ذلك بوضوح، و دقة و كذلك في هذا البرهان تقدمية، بل و ليبرالية. أتريد أن أبرهن لك على ذلك؟ هل تراهن على أنني قادر أن أفعل؟

ـ افعل! سوف نرى كيف يتسنى لك أن تفعل!

هتف رازوميخين وهو ينهض بوثبة واحدة، و يحرك يده بشارة تنم على الأسف و المضض.

ـ ما أشدَّ ولعه بالتمثيل و العبث! لا حاجة للكلام معك، لا داعي لهذا العناء! ذلك أنَّه يفعل هذا عمداً ، أنت لا تعرفه بعد يا روديا! ولقد تحيَّز أمس لهم، ليسخر منهم و يعبث بهم! اللّه يعلم ماذا قال لهم أمس! وما كان أشدَّ سرورهم برؤيته منحازاً إلى صفهم! إنَّه قادرٌ على أن يظلَّ يمثل خمسة عشر يوماً بغير انقطاع. في السنة الماضية، روى لنا لأحد الأسباب، أنَّه سيصبح راهباً ، و ظلَّ يخدعنا بهذه القصة شهرين كاملين. ومنذ مدة قصيرة، أوهمنا أنَّه سيتزوج، وقال أنَّه هيأ للاحتفال كل شيء. حتى لقد أوصى ببدلة جديدة، و صدَّقناه نحن و أنشأنا نهنئهُ. فماذا كان؟ لم يكن هناك خطبة، لم يكن هناك شيء البتة: سراب لا أكثر.

ـ أنت تكذب! لقد أوصيت بالبزة الجديدة أولاً ، و البزة الجديدة هي التي أوحت لي بفكرة تضليلكم جميعاً!

سأله راسكولنيكوف بلامبالاة:

ـ أأنت تُحبُّ التغرير بالناس كل هذا الحبِّ فعلاً؟

ـ أكنت تظنُّ غير ذلك؟ انتظر إذاً ، فسوف أغرر بك أيضاً. هأهأهأ! ولكن اسمع، سأقول لك الحقيقة كلها: إن جميع هذه المسائل التي دار عليها الحديث، كمسألة الجريمة، و مسألة البنات القاصرات، و مسألة "البيئة"، قد ذكرتني بمقالة لك منشورة، مقالة شاقتني دائماً على كل حال، و عنوانها: "في الجريمة" .... أو شيء من هذا القبيل.... لا أذكر الآن. أتيح منذ شهرين أن أتمتع بقراءة تلك المقالة في صحيفة " الحديث الدوري ".

هتف راسكولنيكوف مدهوشاً:

ـ مقالتي؟ في "الحديث الدوري"؟ صحيح أنني، منذ ستة أشهر، بعد تركي الجامعة، كتبت مقالة عن كتاب كان صدر منذ مدة قصيرة. ولكنني بعثت بالمقالة إلى جريدة "الحديث الأسبوعي، ليس إلى "الحديث الدوري".

ـ لكنها نشرت في "الحديث الدوري"

ـ جريـدة "الحـديث الأسـبوعي" توقفـت عـن الصـدور و لـذلك لم تنشـر مقالتي....

ـ نعم. ولكنَّها حين توقفت عن الصدور قد انصهرت في "الحديث الدوري"؛ وذلك هو السبب في أن مقالتك قد نشرت في "الحديث الدوري" منذ شهرين. أكنت تجهل ذلك؟

كان راسكولنيكوف يجهل ذلك فعلاً.

قال له بورفيري بتروفتش:

ـ يا سلام! إنَّك تستطيع أن تطالب الجريدة بأجرك عن المقال. ما أعجب طبعك! أنت تعيش إذاً في عزلة كاملة فتجهل حتى الأمور التي تتصل بك من قرب هذا واقع.

فهتف رازوميخين:

ـ مرحى روديا! أنا أيضاً كنت أجهل هذا ! سأركض في هذا اليوم نفسه إلى قاعة مطالعة، فأطلب المقالة. أظهرت منذ شهرين؟ ولكن في أي يوم على وجه الدقة؟ لا بأس، سأجدها على كل حال، هذه حكاية حقاً. أتنشر مقالة ولا تذكر عن ذلك شيئاً؟

ـ ولكن كيف عرفت أن المقالة لي؟ أنا لم أوقعها إلا بالحروف الأولى.

ـ عرفت هذا عرضاً وفي الآونة الأخيرة فقط، بوساطة رئيس التحرير، أحد معارفي، وقد أعجبتني المقالة كثيراً، وحرَّضت استيعابي الفكري.

أذكر أنني حللت في تلك المقالة الحالة النفسية التي يكون عليها القاتل في أثناء اقتراف الجريمة.

ـ نعم، كنت تقول إن تنفيذ الجريمة يترافق أبداً مع حالة نفسية مرضية. وجهة نظر، هامة جداً... ولكن هذا الجزء من مقالتك ليس هو القسم الذي شدَّني أكثر من سواه، و إنَّما شاقتني فكرة دسستها في نهاية المقالة، ولم تلح عليها كثيراً، إنَّما أشرت إليها سريعة من سوء الحظ. وقد اهتممت أن تقول،

إذا كنت تذكر ذلك، أن على الأرض شرائح بشرية تستطيع... ليس فقط .... بل لهم أيضاً حقٌ مطلقٌ في أن يرتكبوا جميع أنواع الأفعال الثالثة و الجرائم، و أنَّه لا قيمة لأي قانون بالنسبة إليهم.

ابتسم راسكولنيكوف بسخرية أمام هذا الكلام الذي يؤول فكرته تأويلاً مراوغاً جداً.

سأل رازوميخين بذعر:

ـ ماذا؟ ما هو الموضوع؟ الحق في ارتكاب الجريمة؟ ولكن لا دخل "للبيئة" على كل حال، هه؟

فأجاب بورفيري:

ـ لا، لا، ليست البيئة السبب الوحيد. المسألة في تلك المقالة هي أن الناس فئتان: فئة العاديين، و فئة الخارقين. أما "العاديون" يجب أن يعيشوا طائعين خاضعين، وليس لهم حق في مخالفة القانون. وذلك لأنَّهم عاديون. أما "الخارقون" يحقُّ لهم أن يرتكبوا كل الجرائم و أن يخالفوا شتى القوانين، وذك لأنَّهم "خارقون". أكان ها رأيك أم تراني أخطأت؟

جمجم رازوميخين مدهوشاً:

ـ إنما كيف؟ ليس من الممكن... أن يكون الأمر كذلك...

وابتسم راسكولنيكوف ابتسامة هازئة من جديد، فقد أدرك فوراً إلى ما يلمِّحُ بورفيري، ما الذي يريد أن يستخرجه. وكان يتذكر مقالته، وقرر أن يرد على التحدي بشبيهه.

أنشأ يقول بلهجة بسيطة متواضعة:

ـ ليس هذا ما أردت أن أقول على وجه الضبط. على أنني أعترف أنَّك عرضت فكرتي عرضاً أميناً، بل و أمينا جداً إذا شئت (كمن كان يغبطه أن يوافق على أن الفكرة عرضت عرضا أمينا جداً). الفرق الوحيد هو أنني لم أقطع أن جميع الخارقين يجب أن يرتكبوا جميع الجرائم كما تقول، ولو

فعلت ذلك لمنعت الرقابة نشر المقالة كما أتصور، أن كل ما أوصيت به هو أن الإنسان الخارق يملك الحق... لا الحق الرسمي بل الحق الشخصي في أن يأذن لضميره بتخطي بعض الحواجز.... وذلك في حالة واحدة هي عندماً يتطلب تنفيذ فكرته هذا التخطي (وهي فكرة قد يتوقف عليها سلام النوع الإنساني). أنت تدعي أن مقالتي غير واضحة، فأنا مستعد أن أشرحها في حدود الإمكان. ولعلي لا أخطئ إذا افترضت إن هذه هي رغبتك. فليكن لك ما تشاء!.... في رأيي أنَّه لو كانت اكتشافات كبلر أو نيوتن، ناجمة عن تضافر ظروف معينة، لما كان لها أن تتحقق إلا إذا ضحى في سبيلها بحياة أحد الناس، أو عشرة، أو أكثر، بل بحياة عدد من الأفراد أكبر يعيقون تحقيقها أو يقفون دونها، فيكون من حق نيوتن ومن واجبه.... أن يزيح أولئك الأفراد العشرة أو المائة في سبيل أن ينفع الإنسانية باكتشافه ولكن ليس يترتب على هذا قط أن من حق نيوتن أن يقتل أي إنسان يحلو له أن يقتله، ولا أن يسرق كل يوم من أحد الأسواق. و أذكر أنِّي أوضحت في مقالتي أن جميع المؤسسين و المشرعين في تاريخ الإنسانية، من القِدَمِ حتى الآن مروراً بأمثال ليسورجس و سولون ومحمد و نابليون و غيرهم، يمكن أن يوصفوا جميعاً بأنَّهم مجرمون، لأنَّهم حين أقاموا قانونا إنَّما خالفوا بذلك نفسه قانوناً قديماً كان يُعدُّ مقدسا و كان موروثاً عن الأسلاف، و ما كان لهم طبعاً أن يمتنعوا عن سفك الدم (مهما يكن بريئاً في بعض الأحيان، ومهما يكن قد بذل بذلاً بطولياً في سبيل القانون القديم) حين يُسهِّلُ سفك هذا الدم مهمتهم، بل و يحسن أن نلاحظ أن أكثر هؤلاء الرواد الذين أحسنوا إلى الإنسانية و أصلحوا المجتمع إنَّما كانوا أناساً شاذين دمويين. و أوجز فأقول أنَّهم جميعاً، لا أعظَمَهُم فَحَسب بل الذين يعلون أقل علو فوق الحد الوسط أيضاً، أي الذين قادرون ولو قدرة يسيرة على التعبير عن أفكارهم الجيدة، إنما كانوا مضطرين بحكم طبيعتهم إلى أن يكونوا قتلة، إلى هذا الحد أو ذاك، ولولا ذلك لما استطاعوا أن يخرجوا عن

الحد الوسط، وهم بحكم طبيعتهم أيضاً ما كان لهم أن يقبلوا البقاء عند هذا الحد الوسط. الوسط: ها أنت ذا ترى أنَّه ليس فيما قلته حتى الآن شيء جديد كل الجدَّة. لقد نشر هذا ألف مرة و قُرئ ألف مرة. أما عن تقسيمي الرجال إلى شريحتين، شريحة العاديين و الخارقين، فأنا أوافق على أنَّ في هذا التقسيم شيئاً من التحكم، و لكني لم أقدم أرقاماً أيضاً. و أنا أؤمن بفكرتي الرئيسة، وهي أن الرجال ينقسمون بحكم قوانين الطبيعة، إلى فئتين بوجه عام، فئة تحت: هي فئة العاديين الذين لا وجود لهم إلا من حيث هم مواد إن صح التعبير، و ليس لهم وظيفة ألا أن يتناسلوا، و فئة فوق: هي فئة الخارقين الذين وهبوا هبة أن يقولوا في بيئتهم قولاً جديداً. ولاشك أن هناك تقسيمات فرعية لا حصر لها، ولكن السمات المميزة التي تفصل هاتين الفئتين قاطعة. فأما الفئة الأولى، وهي شريحة المواد، فإن أفرادها، على وجه العموم، أناس، "خلقوا محافظين"، أناس معتدلون يعيشون في الطاعة ويحلو لهم أن يعيشوا في الطاعة. وعندي أن عليهم أن يطيعوا، لأن الطاعة هي ما كُتب لهم، وليس في طاعتهم ما يسيء إليهم أو يذل كرامتهم. و أما الشريحة الثانية تتألف من رجال يتميزون أنَّهم جميعاً يكسرون القانون، بأنَّهم جميعاً مدمرون، أو هم جميعاً ميالون إلى أن يصبحوا كذلك بحكم ملكاتهم. و جرائم هؤلاء الرجال تتفاوت خطورتها و تتنوع أشكالها طبعاً. و أكثرهم يريدون، بأساليب عديدة، تدمير الحاضر في سبيل شيء أفضل. فإذا وجب على أحدهم، من أجل تحقيق فكرته، أن يخطو فوق الجثة وفوق بركة الدم مرتاح الضمير؛ وكل شيء رهن بمضمون فكرته، وبما لها من أهمية طبعاً. لاحظوا ذلك. بهذا المعنى وحده تحدثت في مقالتي عن حق ارتكاب الجريمة. إنَّك تتذكر أن نقطة البداية التي انطلقنا منها إنما كانت مسألة حقوقية) على أنَّه لا داعي إلى القلق كثيراً. فإن الجمهور لا يكاد يعترف لهؤلاء الرجال أبداً بهذا الحق. بالعكس: إن الجمهور يضطهدهم و يشنقهم (إلى هذا الحد أو ذاك)، وهو في هذا يقوم

بوظيفته كجمهور محافظ، رغم أن الأجيال اللاحقة من هذا الجمهور نفسه ستخلد ذكر أولئك المشنوقين فتقدسهم (إلى هذا أو ذاك). فالفئة الأولى من الرجال هي سيدة الحاضر، و الفئة الثانية هي سيدة المستقبل. فالأولون يحفظون العالم و يزيدونه كمَّاً، و الآخرون يحركونه و يقودونه إلى غاية. ولهؤلاء و أولئك حقٌّ واحد في الحياة. أي أنَّ لهم كلهم حقوقاً متساوية، و[1] إلى أن تقوم أورشليم الجديدة طبعاً!

- أتؤمن أنت بأورشليم الجديدة؟

ردَّ راسكولنيكوف بصوت مركز:

- أؤمن!

قال هذا خافضاً رأسه مسمِّراً بصره على نقطة من السجادة. كما كان طول مدة حديثه المستفيض.

- وهل تؤمن بالله أيضاً؟ أغفر لي فضولي!

أجاب راسكولنيكوف وهو يرفع بصره إلى بورفيري:

- أؤمن به

- وهل تؤمن ببعث ألعاذر؟

- أو ... أؤمن. إنَّما لماذا تسألني عن هذا كلِّه؟

- هل تؤمن بذلك نصاً وحرفاً؟

- نصاً وحرفاً!

ـ صحيح؟ اغفر لي فضولي. لقد سألتك عن هذا كله من باب حُبِّ الاطلاع، ولكن اسمح لي. سوف أعود الآن إلى ما كنت تقوله. أنا أرى أن الجمهور لا يضطهدهم و يشنقهم جميعاً. بالعكس. بعضهم.

- بعضهم ينتصرون في حياتهم؟ نعم يحقق بعضهم غاياتهم في حياتهم، نعم...

---

1 - عاشت الحرب الأبدية، بالفرنسية الأصل vive la guerre eternelle

وعندئذ فإنَّهم هم الذين....

ـ هم الذين يرسلون الآخرين إلى التعذيب و الشنق.

ـ نعم، إذا لزم الأمر... و أكثرهم يفعلون هذا فعلاً، ملاحظتك هذه... لطيفة جداً.

ـ أشكرك. ولكن قُل لي: كيف تميز هؤلاء الخارقين عن أولئك العاديين؟ هل يحملون علامات خاصة منذ ولادتهم؟ أقصد أنَّه لا بد من دقةٍ أكبر، أي لابد من علامة مميزة واضحة! اغفر لي هذا الاهتمام، وهو اهتمام عادي لدى رجل عملي يريد الخير. ألا يمكننا مثلاً أن نلبسهم رداءً خاصاً، أن نخلع عليهم زياً موحداً، أن نميزهم بعلامة فارقة؟ إذ لابد أن تُسلِّم معي بأنَّه إذا حدث اختلاط، فتخيل رجل من الشريحة الأولى أنَّه ينتمي إلى الفئة الثانية، فبدأ "يزيح جميع العوائق"، على حد تعبيرك الموفَّق، فإن...

ـ صحيح... هذا يحدث كثيراً، ملاحظتك هذه ألطف من سابقتها أيضاً.

ـ أشكرك.

ـ لا داعي للشكر. ولكن لاحظ أن هذا الخطأ لا يمكن أن يقع إلا لأفراد الفئة الأولى، أي فئة العاديين ( الذين لعلي لم أوفق كثيراً حين أطلقت عليهم هذا الاسم: إن كثيراً من هؤلاء العاديين، رغم ميلهم الفطري إلى الطاعة، يمكن أن نلاحظ فيهم نزوة من تلك النزوات التي نلاحظها في الطبيعة، و نلاحظها حتى لدى الأبقار، فإذا هم يحبون أن يحسبوا أنفسهم رجالاً من الطليعة، رجالا "مدمرين"، وإذا هم يقحمون أنفسهم في الدعوة إلى "القول الجديد"، صادقين مخلصين من جهة أخرى. وكثيراً ما يحدث لهم في الوقت نفسه ألا يلاحظوا و لا يعترفوا بأولئك الذين هم مجددون حقاً، حتى يعدونهم أناساً منحطين، رجعيين، جديرين بالاحتقار. ولكني أعتقد أن هذا ليس فيه خطرٌ كبير، فما ينبغي لك أن تقلق، وذلك لسبب بسيط هو أن هؤلاء لا يقطعون شوطاً بعيداً في يوم من الأيام، وفي وسعك طبعاً، من أجل أن، تعاقبهم

علـى حماسـتهم الطائشـة. و أن تـردَّهم إلى مـواقعهم، في وسـعك أن تجلـدهم أحياناً، ولكـن هذا كل شيء، بل إنَّه لا حاجة إلى أن يتولى أحد هـذه المهمـة، فإنَّهم يجلدون أنفسهم، لأنَّهم أناس أخلاقيون جداً، فبعضهم يجلدون أنفسهم بأيديهم، و بعضهم يطلبون إلى أقرانهم البشر أن يؤدوا لهم هذه الخدمة. ثُمَّ إنَّهم يفرضون على أنفسهم أنواعاً من الكفارات على رؤوس الأشهار فيكون هذا درساً مفيداً، و عبرةً حلوة، الخلاصة: ليس عليك أن تقلق. ذلك هو القانون!

ـ حسناً! لقد طمأنتني من هذه الناحية قليلاً على كل حال. ولكنني أرى خطراً آخر. قُل لي من فضلك: هل هم كثيرون أولئك "الخارقون"؟ إنني مستعدٌّ طبعاً لأن انحني احتراماً لهم، ولكن لابد أن توافقني على أن المرء لابد أن يشعر برعدة تسري في ظهره إذا هم كانوا كثيرين؟ أليس كذلك؟

تابع راسكولنيكوف كلامه بتلك اللهجة نفسها:

ـ لا تقلق من هذا أيضاً. فعلى وجه العموم، لا تولد إلا قلة قليلة جداً من هؤلاء الأفراد الذين يملكون فكرة جديدة حقاً، أو يقدرون قليلاً على أن يعبروا عن شيء ما جديد. ثمة شيء واحد محقق، هو أن نسبة الأفراد الذين يولدون في هذه الشريحة أو تلك لابد أن يحددها قانون طبيعي ما تحديداً دقيقاً. وهذا القانون ما يزال حتى الآن مجهولاً، ولكنِّي أعتقد أنَّه موجود، وأنَّه سيمكن اكتشافه في المستقبل. ولئن وجدت كتلة من الأفراد تبلغ هذا المبلغ من الضخامة، فما ذلك إلا لمحاولة خلق إنسان مستقل بعض الشيء، ولو بنسبة واحد بالألف، وذلك بتطورٍ ما يزال سرياً مجهولاً، و بوساطة أنواع شتى من اختلاط عروق و أنواع، الخ. أما الأفراد الذين يملكون استقلالاً أكبر فأن نسبتهم أصغر من ذلك: هم واحد بين عشرة آلاف (أتكلم على وجه التقريب). وأما الأفراد الذين يملكون درجة عليا من الاستقلال فإن نسبتهم أصغر من ذلك أيضاً: هم واحد بين مائة ألف. وأما العباقرة فلا يوجد منهم إلا واحد بين المليون. وأما كبار العباقرة، الذين هم قمة النوع الإنساني، فلابد أن ننتظر أن

تَمُرَّ على الأرض ألوف ملايين الأفراد حتى يظهر منهم واحد. أنا لم أقم طبعاً بجولة ﰲ البوتقة التي يتم فيها هذا كُلَّهُ، ولكنَّ القانون موجود، ولابدَّ أن يكون هناك قانون من هذا النوع. فلا مصادفة هنا! أخيراً صاح رازوميخين:

ـ قولا لي: أأنتما تمزحان؟ أأنتما بسبيل أن يخدع كل منكما الآخر؟ أن كلاً منهما جانب أمام صاحبه يهزأ منه و يضحك عليه! أأنت تتكلم جاداً يارودیا؟

رفع راسكولنيكوف وجهه الهزيل نحو رازوميخين صامتاً، حزيناً، ولم يجب. فلمَّا رأى رازوميخين هذا الوجه الهادئ المكتئب، استغرب تلك اللهجة اللاذعة الفظة الوقحة الملحاح التي استخدمها بورفيري، قال رازوميخين:

ـ طيب يا صاحبي، إذا كُنتَ جادًّاً.... فمن حقك طبعاً أن تقول أن هذا كله لا جديد فيه، فهو يشبه ما قرأناه و سمعناه ألف مرة، ولكن الشيء الجديد حقاً ﰲ الأمر، الشيء الذي تتفرد به - وهذا ما أشعر فيه بهول ورعب - هو أنَّك تجد طبيعياً أن يسفح إنسان دماً وهو واعٍ كل الوعي، و تدافع عن هذا الرأي بمثل هذا التعصب المغرض... سامحني. معنى هذا أن هذه هي الفكرة الأساس التي تتضمنها مقالتك، و أنا أرى أن هذا السماح الأخلاقي بسفح الدم، أفظع حتى من السماح بسفح الدم رسمياً و شرعياً....

قال بورفيري:

ـ صحيح تماماً. هو أفظع.

وقال رازوميخين يخاطب راسكولنيكوف:

ـ لا، لا، لقد سمحت لنفسك بالاندفاع ﰲ مزالق الخطأ. هناك خطأ.

سوف أقرأ المقالة. حقاً لقد أسرفت ﰲ مزالق الغلو. لا يمكن أن يكون هذا تفكيرك سوف أقرأ المقالة...

أردف راسكولنيكوف:

ـ ليس ﰲ المقالة شيء من هذا كله. المقالة لا تتضمن سوى إشارة.

ردَّ بورفيري وقد تلبسه جماح غضب لا يقهر:

ـ نعم، نعم، الآن أصبحت أدرك رأيك رأيك في الجريمة بشكل أوضح. اغفر لي إلحاحي (أنا أعرف أنني أضايقك فأشعر بالحرج. لقد طمأنتني منذ قليل في موضوع الاختلاط الذي يمكن أن يحدث بين الفئتين من باب الخطأ. ولكن... هناك حالات تظلُّ تقلقني من وجهة النظر العملية. لنفرض أن رجلاً أو شاباً يَعِدُّ نفسه مثل ليكورجوس أو مثل محمد — في المستقبل طبعاً. إنَّه سوف يشرع فوراً في "إزاحة" جميع العوائق. سوف يقول: إن على عاتقي أن أقوم بحملة بعيدة، ومن أجل القيام بحملة أنا بحاجة ملحَّة جدّاً للمال. ولذلك سوف يبدأ بالحصول على المال للقيام بحملته. واضح ؟

هنا انفجر زاميوتوف في ركنه ضاحكاً مقهقهاً فجأة. لكن راسكولنيكوف ظلَّ ساكناً، حتى إنَّه لم يرفع نحوه عينيه. و أجاب بلهجة هادئة:

ـ أعترف بأن حالات كهذه لابد أن تقع فعلاً. إن الحمقى و المغرورين يقعون في هذا الفخ، ولاسيما إذا كانوا شباباً.

ـ أرأيت؟ فماذا إذاً ؟

وبابتسامة ساخرة أجاب راسكولنيكوف:

ـ هذا لا يغيِّر من الأمر. أنا لا دخل لي. هكذا تجري الأمور أبداً.

قال منذ قليل (هنا أومأ راسكولنيكوف إلى رازوميخين) أنني أبيح سفح الدماء. ما قيمة هذا؟ إن المجتمع تحميه المنافي و السجون وقضاة التحقيق و المعتقلات. فعلام القلق؟ طاردوا السارق!

ـ وإذا قبضنا عليه؟

ـ هذا ما يستحقُّهُ.

ـ أنت منطقي. ولكن ماذا عن ضميره الأخلاقي؟

ـ مسألة إنسانية.

ـ من كان لهُ ضميرٌ أخلاقي فليس لهُ إلا أن يتعذب إذا هو اعترف لنفسه بخطيئته. سيكون هذا عقاباً له، بالإضافة إلى السجن.

سأل رازوميخين وهو يقطب حاجبيه

و الأشخاص الذين يملكون العبقرية حقاً، الأشخاص الذين أعطوا حق القتل، أيجب عليهم ألا يتألموا البتة ولو سفحوا دماً؟

ـ لماذا نستعمل تعبير يجب عليهم؟ ليس همنا لا إذن و لا منع، ألا فليتألم من تأخذه بضحية رأفة! لابد أن يتألم من كان واسع الوجدان عميق الشعور. ثم أضاف راسكولنيكوف فجأة وقد شرد فكره و اختلفت لهجته عمَّا كانت عليه في أثناء الحديث.

يخيل إليَّ أن الرجال العظماء حقاً لابد أن يشعروا على هذه الأرض بحزن عظيم. ورفع راسكولنيكوف عينيه و تأمل الجميع مفكراً، و ابتسم، و تناول قبعته. كان هادئاً كلياً قياساً إلى ما كان عليه عندما دخل، وكان يحس بهذا.

نهض الجميع.

واستأنف بورفيري بتروفش كلامه فقال:

ـ لك أن تشتمني ولك أن تغضب إن شئت، ولكني لا أستطيع أن أغالب رغبتي في أن أقاوم رغبتي في أن أطرح عليك سؤالاً آخر صغيراً. أنا أعلم أنني أرهقتك بشدَّة، ولكني أُحِبُّ أن أُعبِّرَ لك عن فكرة صغيرة راودتني و أخشى أن أنساها.

هات فكرتك الصغيرة.

قال له راسكولنيكوف جادَّاً، بوجه شديد الهزال و الشحوب، وهو واقف أمامه ينتظر.

ـ إليك ما طلبت... ولكني لا أعرف حقاً كيف أُعبِّر عنها بشكل مناسب. قد تتجاوز هذه الفكرة حدود التواضع... وهي فكرة سيكولوجية... اسمع:

أن لمن المستحيل عليك في أثناء كتابتك تلك المقالة أن لا تكون. هيء هيء هيء .... أن لا تكون عددت نفسك ... إنساناً خارقاً بعض الشيء.... إنساناً يحمل القول الجديد، بالمعنى الذي قصدته، أليس هذا صحيحاً.

قال راسكولنيكوف باحتقار:

ـ جائز جداً.

وتحرك رازوميخين

وعاد بورفيري بتروفيتش إلى الكلام:

ـ فإذا كان الأمر كذلك، ألا يمكن أن يكون قررت أنت بنفسك، في أعقاب إخفاق شخصٍ ما، أو للخلاص من الفقر، أو أيضاً لتعجيل سير الإنسانية إلى أمام، لا يمكن أن تكون قررت أنتَ نفسك أن تتخطى الحاجز.... و .... تقتل مثلاً أو تسرق؟

قال بورفيري بتروفتش وغمز بعينيه اليسرى و أخذ يضحك بصمت، كما فعل منذ قليل.

أجاب راسكولنيكوف بلهجة متكبرة متحدية.

ـ إذا كنت تخطيت الحاجز لن أقول لك أنني تخطيته ـ أسألك لأن أمراً وحداً يهمني، هو أن أُحس تأويل مقالتك، و أن أُحس ذلك من الناحية الأدبية فقط....

وخاطب راسكولنيكوف نفسه باشمئزاز: "هوه! يالنيته الواضحة الوقحة!"

وقال يجيب سائله ببرود:

ـ اسمح لي أن ألفت نظرك إلى أنني لا أعدُّ نفسي لا مثل محمد و لا مثل نابليون... ولا مثل أي شخص من هذا النوع! ... و بما إنني لست واحداً من هؤلاء، فإني لا أستطيع أن أقدِّم لك جواباً مُرضياً، لأقول لك ماذا يمكن أن

أفعل.

و أردف بورفيري بتروفتش بغتة بإلفة مخيفة:

ـ دعك من هذا الكلام! أيٌّ واحدٍ منا، في روسيا، لا يُعِدُّ نفسه اليوم مثل نابليون.

وكان في نبرة صوته نفسها ما يدل على نية واضحة جداً.

وأطلق زاميوتوف من ركنه السؤال التالي:

ـ ألا يمكن أن يكون واحد ممن يعدون أنفسهم مثل نابليون في المستقبل هو الذي قتل ألينا إيفانوفنا في الأسبوع الماضي؟

سكت راسكولنيكوف وحدَّقَ إلى بورفيري بنظرة غاضبة قاسية. و أكمد وجه رازوميخين. كان هذا الأخير قد بدأ يشتبه منذ هنيهة. ونظر حوله غاضباً. و انقضت دقيقة في صمت ممض. وتحرك راسكولنيكوف بغية الانصراف.

وردَّ بورفيري بلهجة رقيقة عذبة:

ـ أتنصرف؟

ومدَّ إليه يده بكثير من التحبب و التودد، و تابع يقول له:

سعيد جداً، سعيد جداً بمعرفتك. أما عن مطالبتك برهنيك، فكن مطمئناً: يكفي أن تكتب عريضة بالمعنى الذي ذكرته لك. نعم، بل ربَّما كان يفضل أيضاً أن تأتي إليَّ، في يوم قريب... في الغد مثلاً... سأكون بمكتبي حتماً في نحو الساعة... الحادية عشرة. سنرتب الأمر كله، و سنثرثر قليلاً... وبما أنَّك من أواخر من ذهبوا إلى هناك، فإنك قد تستطيع أن تقول لنا شيئاً ما (هذا ما تابع قوله وهو يصطنع كل الطيبة و كل البساطة)

سأله روسكولنكوف بلهجة خشنة:

ـ أتريد أن تستجوبني رسمياً، وفق الأصول؟

فيم أستجوبك على هذا الشكل؟ لا تدفعني إلى هذا أية ضرورة حتى الآن.

فهمتني فهماً ملتبساً... أنا لا أدع أية سانحة تفلت مني... وقد تحدثت إلى جميع من قدم إليَّ ووضع رهناً عند العجوز. و استطعت أن أحصل على بعض الدلائل. وبما أنَّك آخر هؤلاء... ولكن بالمناسبة (هتف يقول فجأة في غمرة الفرح) بالمناسبة... الآن تذكرت... كيف نسيت هذا؟ (هنا التفت يخاطب رازوميخين)... إن الفتى نيكولاشكا ذاك الذي صدعت به رأسي... أنا نفسي مقتنع (وهنا عاد والتفت الى راسكولنيكوف) بأنَّه بريئ... ولكن ما صلتي؟ كان لابد أيضاً من إزعاج ميتكا... و الآن إليك ما كنت أريد أن أسألك عنه. حين صعدت السلم، كانت الساعة بين السابعة و الثامنة، أصحيح؟

ردَّ راسكولنيكوف:

ـ نعم كانت الساعة قد تخطت السابعة.

وسرعان ما أدرك ممتعضاً أنه كان يفضل ألا يذكر هذا.

ـ ألم ترى، و أنت تصعد السلَّم، بعد الساعة السابعة في شقة كان بابها مفتوحاً – هل تتذكر؟ ـ ألم تر عُمَّالاً يعملون فيها، أو عاملاً منهم على الأقل؟ هم دهانون، ألم تلاحظهم؟ هذا أمرٌ هام جداً جداً بالنسبة لهم.

ردَّ راسكولنيكوف ببطء، كمن ينبش ذاكرته، وهو يحاول بجهد مرهق أن يكتشف الفخ الذي يُعدُّهُ لهُ مخاطبه ليتحاشى الوقوع فيه:

ـ دهانون؟ لا، لم أرَ دهانين. لا. لم أرهم. ثم إني لا أذكر أنني رأيت شقة كان بابها مفتوحاً. ولكنِّي في مقابل هذا (وقد اكتشف الكمين الآن وفرح) أذكر أن موظفاً كان ينتقل في الطابق الرابع من الشقة التي تقع أمام شقة ألينا إيفانوفنا. أذكر هذا، بل بوضوح... كان ثمة جنود يحملون أريكة، فاضطررت أن ألتصق بالحائط. ولكني لم أرَ دهانين. لا، لا أذكر. ويُخيَّلُ لي أن أياً من الأبواب ما كان مفتوحاً. لا، لم يكن ثمة باب مفتوح...

صاح رازوميخين فجأة كمن ثاب إلى وعيه أخيراً وفهم في هذه اللحظة نفسها، صاح يقول، مخاطباً بورفيري:

ـ ولكن، ماذا تقول ؟ أنت تعلم أن الدهانين كانوا يعملون يوم مقتل العجوز، أما هو فقد ذهب إلى العجوز قبل ذلك بيومين. فما هذا السؤال الذي تلقيه عليه ؟

هتف بورفيري وهو يلطم جبينه:

ـ آ... نعم.... اختلط عليَّ كل شيء. تباً لي. اللعنة! إن هذه القضية قد أفقدتني صوابي.

والتفت يقول لراسكولنيكوف كمن يعتذر:

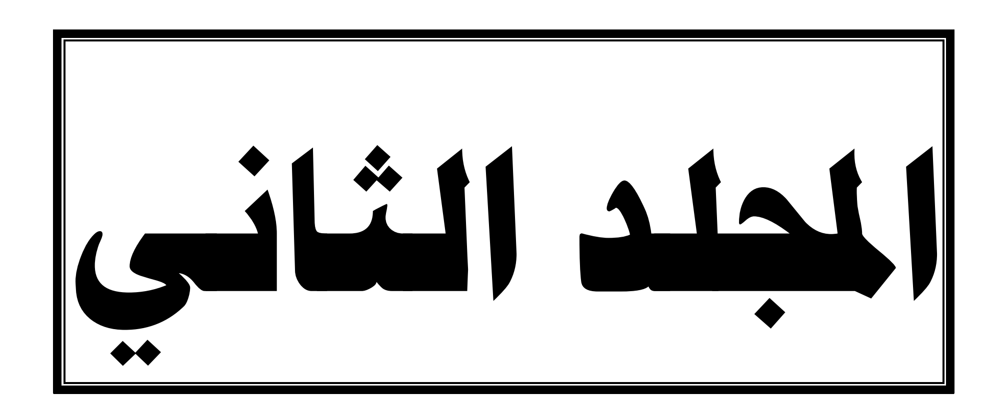
ـ إني من فرط اهتمامي بأن أعرف هل رأى أحدٌ أولئك الدهانين بعد الساعة السابعة في الشقة، قد تخيلت أنَّك تستطيع أن تجيب عن هذا السؤال... نعم، لقد اختلط عليَّ كل شيء.

أردف رازوميخين غاضباً.

ـ يجب أن تنتبه ...

قيلت هذه الكلمات الأخيرة حين وصلوا إلى حجرة المدخل. لقد شيعهما بورفيري بتروفتش إلى الباب بتودد كبير و لطف بالغ. فلمَّا صارا في الشارع كان كل منهما مظلم النفس متجهم الوجه.، وسارا بضع خطوات لا ينطقا بكلمة واحدة، وتنفس راسكولنيكوف تنفساً عميقاً.

**(( انتهى المجلد الأول ))**


المجلد الثاني

# الجزء الرابع

## الفصل الأول

تساءل راسكولنيكوف مرةً ثانية: " أيمكن أن يكون هذا استمراراً لحلمي؟" وأنشأ يحدِّقُ إلى الزائر غير المتوقع. يحدِّقُ إليه بحذرٍ وريبة ثُمَّ قال بعد لأيٍّ وقد استولت عليه حيرةٌ قاسية:

ـ سفد ريفايلوف: ولكن هذا محال، محال. ولابدَّ أن هذه الصيحة شدَّت استنكار الضيف.

ـ قدمت إليك لهدفين، الأول الرغبة بالتعرف إليك شخصياً لأنني أسمع من يطريك منذ أمد بعيد، والثاني أنني أتجاسر فآمل أن لا ترفض مساعدتي فيما يتعلق بأختك أفدونيا رومانوفنا، فإذا لم أتكل سوى على نفسي، ولم يكفلني أحد، أفقد الرجاء في أن تستقبلني أفدونيا رومانوفنا، لأنَّها غير واثقة بي. أما إذا آزرتني....

قاطعه راسكولنيكوف:

ـ لا تتكل عليَّ كثيراً.

ـ لو سمحت، هما وصلتا بالأمس، أليس كذلك؟

لم يجب بطلنا.

ـ وصلتا أمس، أنا واثق، وكذلك أنا وصلت أمس الأول. وهذا ما أودُّ أن أطرحه في كنفك يا روديون رومانوفتش. أنا لا أرى داعياً لأبعد عن نفسي الشك. إنَّما أودُّ الإذن بإلقاء السؤال التالي: أيُّ ذنبٍ مهولٍ اقترفتُ أنا إذا عملنا نحن لنصدر حكماً سليماً خالي الغرض؟

استمر راسكولنيكوف مصغياً، وهو يتملَّى الزائر.

ـ ألم أُذنب في ملاحقتي ببيتي فتاة لا تملك الدفاع عن نفسها ، وإساءتي لها بعروضي السافلة؟ هذه هي جريرتي أليس كذلك؟ ها أنت ترى أنني أسبق غيري إلى تقديم ما نُسِبَ إليَّ! إنَّما أرجوك أن توافقني بأنني أنا إنسان وأنَّه et nihil human am..[1] أقصد أنني كسائر الناس قد أفتن وأن أنزو( ويتم هذا طبعاً من دون أن نريد). متى سلَّمتني هذا الطرح يمكن آنئذٍ تفسير كل شيء أيُّ تفسير، وهنا يكون السؤال الوحيد القابل للمساءلة: أأنا إبليس أم ضحية؟ فماذا لو كنت ضحية؟ لو كنت ضحية؟

لعلِّي حين عرضت على الصبية التي أهواها ، أن ترافقني إلى أمريكا أو سويسرا كنت مشبعاً بكل أسباب الاحترام، فضلاً عن تحقيق السعادة لكلينا! ما العقل إلا خادم الأهواء! وهكذا كنت أسيء إلى نفسي أكثر مما ينزل بها هي ....

قاطعه راسكولنيكوف:

ليست المسألة هي هذه إذ سواء كنت مصيباً أم غلطان، فأنت تَرشَحُ كراهية. لذا لا أريد أن أخوض في غمارك، بل أنأى عنك، أطردك، فقم انصرف!

راح سفدريجايلوف يقهقه فجأةً، ثُمَّ هتف وهو يضحك بصراحة:

ـ يبدو أن مخادعتك أمراً مستحيلاً إذ حاولت أن أكون معك ماكراً محتالاً: أما وأنَّك وضعت إصبعك في مكان الضرورة، فسوف...

ـ دعك من هذا الكلام! إنَّك تمكر وتخادع حتى في هذه الهنيهة.

كرر سفدريجايلوف وهو في لحظة ضحك صريح:

ـ ماذا؟ ماذا؟ ماذا تعرف. إنما أليس هذا bonne guerr[2]

أليس هذا خبثاً مشروعاً؟ لكنَّك مع ذلك بترت سبيل الكلام، وإن كان الأمر هكذا ، فنحن بغنى عن هذه المكرهات، لولا حادث الحديقة. إن

---

1 - ما من إنسان، بالاتينية بالأصل.

2 -حرب مشروعة بالفرنسية في الأصل

مارفابتروفنا....

قاطعه راسكولنيكوف بغلظة:

ـ يقال إنَّك أرسلتها إلى آخرتها.

ردَّ الطرف الزائر: اسمعت هذا أيضاً؟ ثُمَّ كيف يمكن أن يصل إلى أُذنيك؟ أما سؤالك فأنا أجهل كيف أعبِّر عنه. رغم قلَّة راحة ضميري من هذا الصوب. وليس لك أن تظنَّ أن ثمَّة أمراً آخر أخشاه. إن كل شيء مرَّ بترتيب ودراية خارقين: إذ أكد الفحص الطبي أن سكته قلبية داهمتها بعد حمَّام وابتلاع حوالي عبوةً ضخمة من ماء الحياة دِهاقاً. ولم يعثروا على شيء آخر...لا، ليس هذا سبب قلقي بل أنني قلبت الأمر طويلاً وكل الوجوه طيلة سفري في القطار: أليس لي يدٌ بهذه النكبة المنكرة، من حيث إحداث اضطراب نفسي أو ما بمعناه؟ لكن صديقك انتهى يا أخي إلى أن هذا مستحيل.

أنشأ راسكولنيكوف يضحك:

ـ هناك مبرر إلى القلق فعلاً.

ـ ولكن لم تضحك؟ وتأمل هنيهة: أنا لم أضربها بالسوط إلا ضربتين... ضربتين لم تخلفا أثراً. لا تُعدَّني رجلاً لاهياً، عابثاً، أرجوك! أنا أعرف أن تصرفي كان حقيراً لئيماً، الخ..... ولكني أعلم أيضاً أن إمارات "الاهتمام" هذه لم تكن تسوء مارفابتروفنا. كانت لاحظت أن البقاء في البيت لثلاثة أيام خير لها. لقد توارت قصة أختك ولم يبق أيُّ داعٍ يدعوها إلى الوجود في المدينة، بعد أن أغرقت كل الناس بقراءة تلك المقالة (لا أخالك سمعت بهذه القراءة ). وها هما ضربتا السوط تنزلان بها من السماء، فكان طالع همومها أن تسرج العربة ....

لست في حاجة إلى أن ألفت نظرك أن بعض النساء يشعرن بمتعة، وأي متعة حين يوجَّه إليهنَّ إهانة ما، مهما ظهر عليهنَّ من غضب، بل إن الناس قاطبة يتميزون بهذا النوع من الأحاسيس: فالجنس البشري يحبُّ الإذلال بجد.

ألاحظت هذا؟ لكن النساء يحببنه أيُّ حبٍّ، حتى ليمكن القول أنَّهن لا يعشن من دون الإهانات.

خطر ببال راسكولنيكوف في إحدى اللحظات أن ينهض وينصرف ليقطع حبل الحديث. لكنَّ نوعاً من حبِّ الإطلاع بل نوعاً من الحساب صدَّهُ في تلك الآونة. فسأل مذهولاً:

ـ أتحبُّ الضرب بل تتشبث به؟

ردَّ سفدريجايلوف بهدوء:

ـ ليس بهذه الحدَّة، فأنا ومارنا بترفنا، مثلاً، لم نكن نتضارب قط، كنا أبداً على أطيب حال، وكانت أبداً راضية مرضية، ولم ألجأ إلى استعمال السوط عبر السنين السبع، إلا مرتين اثنتين (هذا إذا استثنينا مرة ثالثة مشتبهة: المرة الأولى بعد شهرين من القران، أي لدى حلولنا من الريف، والثانية والأخيرة فمنذ فترة وجيزة كما علمت، وأنت مع هذا تظنُّ أنني شيطان رجيم، أنني من دعاة الرجعية وأنصار العبودية، هيء هيء هيء !... بالمناسبة، أتتذكر يا روديون رومانوفيتش ذلك الرجل النبيل لقد نسيت أسمه! الذي لُطِّخ بالوحل على مرأى الناس، منذ عدَّة أعوام في أيام "النقد المفيد". لأنَّه ساط امرأةً ألمانية في القطار؟ أتتذكر؟ أظنُّ أن هذا حدث في جو وقوع الفاحشة التي تحدثت عنها مجلة "العصر" (لا ريب أنَّك لم تنسى المحاضرة العامة عن "ليالي مصر"، لا، لم تنسى! آه.... العيون السوداء! أين أنت يا أيام شبابنا الذهبية؟).

إليك رأيي: أنا لم أؤيد طبعاً صنيع الرجل الذي ضرب المرأة بالسوط، إذ لا مجال لقبول هذا... ولكني لا أقدر أيضاً أن أعفَّ عن التصريح أن المرء يصادف أحياناً "ألمانيات" يبلغن من قوة الاستفزاز أنَّه ما من "تقدمي"، كما أتصور، يستطيع أن يكظم غيظه إزاءهنَّ وأن يكون مسؤولاً عن سلوكه معهنَّ.

إنَّ أحداً لم يقلِّب المسألة بكافة مضامينها، ومع ذلك هذا هو الأسلوب الوحيد لمعالجة هذه المسألة معالجة تتصف بالإنصاف والرويَّة.

هتف سفدريجايلوف بهذه الكلمات وعاد يضحك بغتة، واتضح لبطل روايتنا الأبرز أن من أمامه ليس بسيطاً بل إمَّعة، وهو يُبيتُ مشروعاً مسؤولاً ومتزناً.

أردف راسكولنيكوف:

- أغلب احتمال أنَّك لم تكلم أحد منذ أيام؟

- هذا صحيح تقريباً. ماذا؟ هل يدهشك أن تراني طيِّب العريكة؟

- بل أنا أستغرب أن أراك مسرفاً في طيب المزاج.

- إلا أنني لم أتبرم من كثرة أسئلتك؟ أهذا هو السبب؟ ولكن فيما أستاء؟

ثُمَّ أضاف سفد ريفايلوف بسذاجة تبعث الدهشة:

- أنت سألتني وأنا أجبتك!

وتابع وقد لاح في وجهه التأمل:

ـ أنا لا أكاد أبالي بشيء، والله، وفي هذه اللحظة بخاصة، لا يشغلني أيُّ شاغل. لك أن تظنَّ أنني أسعى إلى حبورك دفاعاً عن مصلحتي، لا سيَّما وأنَّ لي شأناً مع أختك، حسبما سبق وأعلمتك.

ولكني أقول لك صراحة أنني أشعر بضجر شديد وسأم قوي، لاسيما منذ ثلاثة أيام، حتى لقد أحسست من لقائك ببهجة... لا تزعل روديون رومانوفتش إذا أنا صارحتك بأنَّك تبدو لي غريباً غرابةً رهيبة.

لك أن تظنَّ ما تشاء، ولكن عندك أمرٌ ما، بخاصة الآن، بوجه عام.... هيا! سأكف عن الكلام، سأكف، لا تقطب حاجبيك... لستُ دبَّاً كما تظن.

حدجهُ راسكولنيكوف بنظرة عابسة:

- قد لا تكون دبَّاً البتة، بل يخيَّل لي أنَّك تنتمي إلى مجتمع مخمليٍّ راقٍ، أو على الأقل تعرف عند الضرورة كيف تسلك سلوك رجل شريف.

وبلهجة جافة بل متعالية، أجاب سفدريجايليوف:

ـ لا أبالي برأي أحد، لذلك لا يقلقني أن أسلك كرجل حقير ولعل هذا هو الثوب سهل الارتداء أكثر من أي ثوب آخر في أجوائنا ومنا.... ولاسيما إذا

كان بالمرء ميل طبيعي إلى ذلك... أضاف سفدريجايلوف الجملة الأخيرة وهو يبدأ مشروع ضحك طويل.

أردف راسكولنيكوف:

ـ سمعت أن معارفك كثر هنا. فلست بأن يمكن أن يسمى رجلاً "بغير علاقات" كما يقال، فما مجيئك إلي إذا لم يكن لك هدف محدد؟

استأنف الزائر كلامه، دون أن يجيب عن السؤال الرئيسي:

ـ صدقت، معارفي كثر جداً، وقد التقيت الآن بعدة أشخاص خلال هذه الأيام الأخيرة الثلاثة التي عشتها هنا، فتعرفتهم، وتعرفوني كما يخيل لي.

أنني ألبس أحلى الثياب وآنقها. أليس كذلك؟ وأبدو رجلاً لا ينقصه شيء.

أنت تعلم أن قوانين الإصلاح الزراعي لم تمسسنا بسوء ولما كانت أملاكي غابات ومراعي في الأغلب، فالموارد مستمرة... لكني لن أذهب إلى أولئك.... الناس. كنت أضجر منهم حتى في الماضي.... وأنا منذ الأيام الثلاثة التي طفت عبرها فيها لم أعقد صلة بأحد .... أهذه مدينة؟ كيف أممكن أن تنشا مدينة كهذه؟ هلا شرحت لي هذا، من فضلك، هي مدينة موظفين وطلاب من جميع الأنواع! حقاً إن أشياء كثيرة قد فاتتني حين كنت أتسكع هنا منذ ثماني، وقد أصبحت الآن وقد أصبحت الآن لا أعول إلا على التشريح، شهد الله.

ـ أي تشريح؟

ـ أما هذه النوادي، وهذه المطاعم المسمَّاة مطاعم دوسو، وهذه الحلقات.... أما جميع مشاريع النمو والتطوير هذه.... وفي وسعها أن تستغني عني.

وتابع سدريجايلوف ملامه دون أن يهتم بالسؤال الذي القي عليه.

ثُمَّ أَيَّةُ لذَّةٍ قد يجدها المرء في الغِش؟

ـ أكنت تغش أيضاً؟

ـ كيف لا أغش؟ كنا منذ ثماني سنوات جماعة من شريحة محترمة نحاول أن نقتل الوقت، وكنا ـ لاحظ هذا! ـ على جانب عظيم من رقي الآداب، وكان

بيننا شعراء، ورأسماليون.... إنَّ النَّاس الذين هم على جانب عظيم من رقي الآداب هم على وجه العموم، عندنا، في مجتمعنا الروسي، أوغاد.... لا ريب أنَّك لمست هذا، هه؟ ومنذ أقمتُ في الريف إنَّما عزفت عن هذا. غير أنني أوشكت، قبل ذلك الوقت، أن أودع بالسجن، لتراكم الديون، ليونانيٍّ حقير من نييجين، وفي ذلك الزمن ظهرت مارفابتروفنا، ساومت، ثُمَّ فدتني بثلاثين ألف روبلٍ (كان مجموع الدين سبعين ألف روبل). وتزوجنا زواجاً شرعياً، وعلى عجل أخذتني إلى بيتها في الريف كما يؤخذ كنز من الكنوز، كانت أكبر مني سناً بخمسة أعوام. وكانت تحبني عبادة. لم أبرح الريف سبع سنين. هذا، ولاحظ أنَّها احتفظت طوال حياتها بالسند المالي الذي وقعته لاسم شخص آخر، كي تستخدمه ضدي عند اللزوم، بحيث تدمرني إن حاولت أن أتحرك من تحت نيرها، أوه! ما كانت تتردد في فعل ذلك! إن تناقضات كثيرة تتكدس عند النساء، أليس صحيحا؟

- ولولا ذلك السند كنت تحركت، هه؟

- لا أعرف بما أردُّ عليَّك، ما كان السند يؤرقني كثيراً. ما كنت أشتهي أن أذهب إلى أيِّ مكان. اقترحت مارفابتروفنا السفر عليَّ مرتين، حين لاحظت ضجري، ولكن علام السفر؟ كنت قد سافرت إلى الخارج قبل ذلك، فلم أشعر ثمَّة بالراحة، ليس الأمر هو هذا تماماً... ولكن كانت هناك شمس تشرق، وخليج نابولي، والبحر.... فكنت أنظر، فأحزن، والأنكى من هذا أن المرء يجد هناك سببا للحزن حقاً. لا، لا، البقاء في الوطن أفضل. هنا يقدر المرء على الأقل أن يتهم الآخرين بكل شيء، وأن ينجو بذلك. قد أتمنى السفر الآن إلى القطب الشمالي، لأن [1] j ai le vin mauvais، فكرهت الشراب، والشيء الوحيد الذي بقي لي هو الشراب...

1 - خمرتي فسدت بالفر نسية بالأصل

جربت هذا بالمناسبة: يقال أن بيرج سيسافر يوم الأحد القادم من حديقة يوسوبوف على منطاد، وأنَّه راضٍ أن يحمل ركاباً بأجر، أهذا صحيح؟

ـ ماذا؟ تسافر بمنطاد؟

ـ أنا؟ لا.... وإنَّما قلت هذا كلاماً... جمجم سفدريجايلوف، كما لو كان يفكر بالسؤال الملقى عليه فعلاً.

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: "إلى أين يريد أن يصل من كل هذا؟"

وتابع سفدريجايلوف حالماً شارد الفكر:

ـ لا، كان السند لا يزعجني، فأنا الذي كنت لا أحب أن أترك الريف، ثُمَّ إنَّ مارفا بتروفنا قد ردَّت لي السند منذ سنة تقريباً، بمناسبة عيد شفيعي، لا بل أضافت عليه مبلغاً معتبراً. كانت تملك ثروة، هه؟ قالت لي:

ـ "كنت ذا ترى مدى ثقتي بك يا أركادي إيفانوفيتش". أؤكد لك أنَّها عرضت عليَّ هذا. لا ريب أنَّك لم تصدق أن هذا ما قالته لي، اعترف أنَّك لا تصدق! ولكن يجب أن تعلم أنني كنت قد أصبحت مالكاً محترماً في القرية، وكنت معروفاً جداً في الصقع، وكنت أستحضر كتباً أيضاً.

شجعتني مارفا بتروفنا على هذا في أول الأمر، ولكنَّها وجلت بعدئذٍ أن تشق عليَّ القراءة.

ـ يبدو أنَّك كنت قد سئمتها، أليس كذلك؟

ـ أنا؟ ربَّما! هذا جائزٌ جداً. قل لي بالمناسبة: أتؤمن بعودة الأرواح؟

ـ أية أرواح؟

ـ الأرواح الراجعة. ما هذا السؤال؟

ـ وأنت هل تؤمن بهذا؟

ـ نعم ولا. Pour vous plaire [1] أقصد أنني غير مؤمن إيماناً خالصاً نهائياً

---

1 - كما تشاء، بالفرنسية بالأصل

لا رجعة عنه.

ـ هل رأيت أرواحا عائدة؟

ألقى سفدريجايلوف على راسكولنيكوف نظرة غريبة، ثُمَّ قال له وقد انعقد لسانه وارتسمت على فمهِ بسمة غامضة:

ـ إن مارفابتروفنا لا تتخلف عن زيارتي.

ـ كيف؟ تزورك؟

ـ نعم، زارتني حتى الآن ثلاث مرات، فأما المرة الأولى ففي يوم دفنها نفسه، بعد العودة من المقبرة بساعة واحدة، عشية رحيلي إلى هنا، وأما المرة الثانية فأمس الأول، في أثناء السفر، قبل ظهور النور، في محطة مالايا فيشيرا، وأما المرة الثالثة، فمنذ ساعتين، في مسكني، في الغرفة التي أقيم فيها، كنت لوحدي.

ـ وكنت.... يقظاً؟

ـ كل اليقظة، وهكذا كنت في المرات السابقة، تأتي، تكلمني دقيقة، ثُمَّ تتصرف خارجة من الباب، دائماً من الباب، حتى ليخيَّل إليَّ أنني أسمع خطواتها.

فجأة ردَّ راسكولنيكوف.

ـ لما كُنتُ أُقدِّرُ ألَّا مهرب من أن يحدث لك شيءٌ من هذا القبيل؟!

ثُمَّ دهش من أنَّه قال هذا الكلام، كان راسكولنيكوف منفعلاً أيَّ انفعال، سأله سفدريجايلوف مذهولاً:

ـ حقاً؟ كنت تقدر ذلك؟ حقاً؟ ألم أقل لك أن بيننا شيئاً مشتركاً؟ هه؟

وأردف راسكولنيكوف بحماس ولهجة قاطعة:

ـ لم تقل لي شيئاً حول هذا قط!

ـ ألم أقل لك ذلك؟

ـ لا!

ـ غريب، خُيِّل لي أنني قلت ما يجب، فمنذ قليل، حين دخلت عليَّك، ورأيتك مستلقياً مغمضاً عينيك متظاهراً بالنوم، قلت لنفسي فوراً:

" هذا هو! هذا هو بعينه".

صاح راسكولنيكوف يسأل:

ـ ماذا تقصد بقولك:" هذا هو بعينه؟

ـ ماذا أقصد؟ بصراحة: لا أدري! ردَّ سفدريخايلوف متمتماً، مرتبكاً أيَّ ارتباك.

وساد الصمت هنيهة، وكان كل من الرجلين ينظر بعيني الآخر باهتمام كبير، وهتف راسكولنيكوف غاضباً:

ـ ذلك كُلَّه سُخف، وماذا تقول لك في أثناء الزيارة؟

ـ هي؟ تصور أنَّها تحدثني عمّا عشناه، والإنسان يبلغ من غرابة الطبع أن هذا هو بعينه ما يغضبني، حين زارتني في المرة الأولى، كنت متعباً كما تعلم: القدّاس، صلاة الجنازة، الموكب، المأدبة، وفي آخر الأمر كنت وحيداً في حجرة مكتبي، وكنت أدخن سيجار، ها هي ذي تدخل، فتقول لي:

هل بسبب هذه المشاكل كلها إذاً إنّما نسيت أركاردي ايفانوفيتش أن تعبئ اليوم ساعة الجدار تلك في غرفة الطعام؟" وكنت أنا من تولى تعبئة ساعة الجدَر في كل أسبوع فعلاً، منذ سبع سنين، فإذا نسيت أن أفعل ذلك، ذكرتني بها وفي الغد، إلى محطة من المحطات لأنني لم أكن قد نمت طوال الليل، هيأت لنفسي فنجان قهوة، وها هي مارفا إيفانوفنا تجلس إلى جانبي وفي يديها ورق لعب:" هل تجد أركادي ايفانوفيتش، أن تعرف ما يقول ورق اللعب في أمر سفرك ؟".

كانت مارفابتروفنا خبيرةٌ جداً في فن التنبؤ بواسطة ورق اللعب. لن أغفر لنفسي ما حييت أنني لم أقبل اقتراحها. هربت مذعوراً، والحمد لله أن الجرس كان قد رن في تلك اللحظة مؤذناً بانطلاقة القطار، واليوم، بينما كنت

جالساً أشعر بثقلٍ في معدتي بعد غداءٍ رديءٍ وردني من المطعم. وفيما أنا أدخن ولجت عليَّ مارفا بتروفنا على حين بغتة، مزدانة بأحلى الموجود، مرتدية ثوباً جديداً من حريرٍ أخضر طويل الذيل جداً، وقالت لي: "يومك سعيد أركادي بتروفيتش! هل يوافق ثوبي الجديد ذوقك؟ ما كان لأنيسكا أن تستطيع صنع ثوب كهذا ". (أنيسكا خياطة في القرية، كانت في الماضي من الأقنان وقد تعلمت الخياطة بموسكو، فتاة حلوة جداً).

وشرعت مارفا بتروفنا تتمايل أمامي، أمعنت النظر في ثوبها، وتقرَّيتها بانتباه، وجهاً إلى وجه، ثُمَّ قلت لها: " حقاً لا داعي يا مارفنا بتروفنا، إلى أن تكلفي نفسك عناء المجيء إليَّ لتحدثيني في مثل هذه التفاهات!" ردَّت: "لم أتوقع منك إلا هذا أركادي ايفانوفيتش، ولكن ليس من اللائق كثيراً أن تتزوج ثانيةً بعد دفن زوجتك مباشرة. هب أنَّك اخترت اختياراً موفقاً، فالزواج لن يسعدكما، وستكونان مضغة في الأفواه، وهذا كل شيء!" قالت ذلك ثُمَّ خرجت حتى لكأني أسمع حفيف ذيل ثوبها، سخف، أليس كذلك ؟

- قل لي: أليست هذه أكاذيب تلفقها تلفيقاً؟

ردَّ سفدريجايلوف شارد الفكر كأنَّه لم يلاحظ فظاظة السؤال.

- يندر أن أكذب.

- وقبل ذلك، هل رأيت أرواحاً عائدة؟

- أي نعم، مرة واحدة في حياتي، منذ ست سنين، كان عندي خادم اسمه فيلكا، فما أن تم مواراته الثرى حتى صحت أقول ذاهلاً: "فيلكا، هات غليوني!" فإذا به يدخل، يمضي قدماً إلى الخزانة التي كانت تصف غلاييني فيها. كنت قاعداً فقلت في نفسي: "إنَّه ليفعل هذا نكايةً بي". قبل موته ببعض الوقت شبَّت بيننا مشاجرة، قلت له "كيف تجرؤ أن تمثل أمامي بكم مثقوبة عند الكوع، أخرج من هنا أيُّها التافه!" استدار على عقبيه، وغادر، ثم لم يرجع بعدئذٍ أبداً! لم أقل عن هذا الأمر لمارفا بتروفنا.

أردت في لمحة ما أن أقيم قدَّاساً على روحه، ولكني ترددت بعد ذلك.

ـ هلمَّ استشر طبيباً!

لست بحاجة لك حتى أعلم أني مريض، وإن كنت لا أعرف ما هو مرضي فعلاً، وفي رأيي صحتي خير من صحتك خمس مرات، أنا لم أسألك هل تؤمن بظهور الأرواح العائدة إنَّما سألت أتؤمن أم لا بظهور الأرواح العائدة.

صرخ راسكولنيكوف بنوع من الغضب:

ـ لا، لا، لايمكن أن أؤمن بها بأي حال!

غمغم سفدريجايلوف كمن يخاطب نفسه، وهو يطرف بنظرة جانبية، ورأس مائل:

ـ ماذا يقال لك عادة؟ يقال لك: "أنت مريض، وكل شيء تراه إذاً ليس إلا نتيجة هذيانك". ولكن هذا بحاجة للمنطق الدقيق الصَّارم: أنا موافق أنَّ الرؤى لا تظهر إلا للمرضى، ولكن هذا يثبت أنَّ الرؤى لا تظهر إلا للمرضى دون أن يثبت أنَّ الرؤى غير موجودة بذاتها.

أردف راسكولنيكوف منفعلاً:

ـ لا وجود لها حتماً.

ـ لا؟ أنت تؤمن ألا وجود لها؟ ولكننا إذا فكرنا في الأمر على النحو التالي (ساعدني من فضلك): "الأرواح العائدة أجزاء من عوالم أخرى هي بداية هذه العوالم إن صح التعبير، وإن الإنسان السليم المعافى، ليس في حاجة بطبيعته إلى أن يراها، لأنَّه، الإنسان السليم المعافى، ينتمي إلى هذه الحياة الدنيا قبل كل شيء، وعليه إذاً أن يحيا هذه الحياة الأرضية وحدها، في سبيل النظام والانسجام. إنما ما أن يمرض الإنسان، وما أن يختل النظام الأرضي والطبيعي في جسمه حتى تتجلى على الفور إمكانيةُ عالمٍ آخر، وكلَّما ازداد مرضه نمت هذه الاتصالات بذلك العالم الآخر، فإذا مات انتقل إلى ذلك العالم رأساً". إنني أجري هذا التفكير منذ دهرٍ مديدٍ من الزمن، فإذا كنت تؤمن بالحياة

الآخرة، كان بوسعك أيضاً أن تؤمن بهذا الاستدلال الذي أجريه.
ردَّ راسكولنيكوف:
- أنا لا أومن بالحياة الآخرة.
وظلَّ سفدريجايلوف شارد الفكر، ثُمّ، فجأة قال:
- هه! ...ماذا لو لم يكن في الحياة الآخرة أشياء من هذا القبيل؟!..
وأردف راسكولنيكوف محدثاً نفسه:" أنَّه مجنون!"
وتابع سفدريجايلوف الكلام:
- نحن نتصور الأبدية دائماً على أنَّها فكرة لا نستطيع أن نفهمها، على أنَّها شيء ضخم، ضخم! إنَّما لماذا كانت شيئاً ضخماً بالضرورة؟ تصور فجأة أن ليس ثمَّة، بدلاً من هذا كلَّه، سوى حجرة واحدة، شيء يشبه حمَّاماً في قرية، يغص بالدخان وتنتشر العناكب في كل أرجائه، وتصور أن هذا هو الأبدية كلَّها. أنا مثلاً إنَّما تبدو لي الأبدية في هذه الصورة أحياناً.
صاح راسكولنيكوف منزعجاً:
- أيمكن، أيمكن حقاً ألا يكون في ذهنك تصورٌ أبعث على العزاء وأقرب على الصدق؟
أجاب سفدريجايلوف وعلى ثغره ابتسامة غامضة:
- أقرب إلى الصدق! ومن يدري: لعلَّه أكثر صدقاً؟ لو كان الأمر بيدي لصنعت الأمور على هذا النحو ذاته!...
لما سمع راسكولنيكوف هذا الجواب العجيب الشاذ شعر ببرد مفاجئ يسري في حناياه.
ورفع سفدريجايلوف رأسه، وحدَّق إليه بنظرة مركَّزة، ثُمَّ انخرط بضحكة صاخبة، وهتف:
- إن أمرنا لعجيبٌ حقاً! منذ نصف ساعة فقط، لم نكن قد التقينا بعد، وكنَّا نعد بعضنا عدوين، وبيننا عداء، ذلك، مسألة لم نخرجها إلى العلن بعد، ومع

هذا تركناها واسترسلنا في هذا النوع الغريب من القضايا، أكذبت عليك حين قلت لك أننا ثمرتا أرضٍ واحدة؟

ردَّ راسكولنيكوف وقد ثارت أعصابه ثورةً شديدة:

ـ من فضلك: قل ما تريد بغير إبطاء واذكر لي الدافع الذي حرضك على تشريفي بهذه الزيارة.... ذلك أنني مستعجل .... يجب أن أخرج...

ـ ألا يمكن أن تجتنب كل شيء يتعلق بأختي، وألا تذكر اسمها؟ إنني لا أفهم كيف تجرؤ أن تذكر اسمها بحضوري، إذا صح أنَّك أنت سفيدريجايلوف حقاً!

ـ ولكن كيف لي ألا أذكر اسمها وقد جئت من أجل التحدث في أمرها؟

ـ حسناً، تكلم ولكن أسرع!

ـ أنا على يقين من أنَّك كونت رأياً في السيد لوجين( الذي يمت لي بقربة مصاهرة)، إذا كنت رايته ولو مدَّة نصف ساعة، أو سمعت عنه بعض المعلومات الدقيقة، هذا رجل لا يصلح زوجاً لآفدوتيارومانوفنا. أنا أرى أن أفدوتيا هذه إنَّما تضحي في سبيل هذا الأمر تضحية هائلة وطائشة ـ متهورة في سبيل... في سبيل أسرتها، لقد بدا لي، بعد كل ما سمعته عنك، أنَّك، من جهتك، سيسرك كثيراً أن لا يتم هذا الزواج، شريطة ألا يساء إلى شقيقتك، وأنا الآن، بعدما عرفتك شخصياً، قانع بهذا أكثر من اقتناعي به في أي وقت مضى.

ردَّ راسكولنيكوف:

ـ هذا كُله سذاجة من جانبك... معذرةً... أردت أن أقول إن هذا كله فحة من طرفك.

ـ هل تقصد أنني أدافع عن مصلحتي؟ لا تقلق يا روديون رومانوفيتش! لو كنت أقصد مصلحتي فقط، لماكنت صريحاً أيَّ صراحة، فما أنا غبي أحمق على أيِّ حال، بالمناسبة: سأكشف لك عن أمر نفسي غريب! منذ قليل، حين كنت

أُبرر الحبَّ الذي أحمله لآفدوتيارومانوفنا قلت عن نفسي ضحية، ألا فاعلم أنني لا أشعر الآن بأيٍّ حبٍّ البتة، بل أنا استغرب كيف شعرت في الماضي فعلاً....

قاطعه راسكولنيكوف:

- مصدر ذلك كلّهُ ما كنت فيه من فراغ، وما ربيت عليه من فُسقٍ وعهر....

- حقاً! أنا رجل عاطلٌ داعر، ولكن أختك، من جهة أخرى، لها من المزايا والحسنات ما جعلني لا أستطيع أنا بالذات أن أتأثر بعض التأثر، ولكن ذلك كله لم يكن سوى لغواً وعبثاً... أنا أدرك هذا الآن.

- وهل تدركه منذ مدَّةٍ طويلة؟

- بدأت أعيه منذ وقت يسير، ولكني لم أقتنع به بشكل مطلق إلا أمس الأول، تقريباً في نفس الدقيقة التي وصلت فيها إلى بطرسبورغ، وحتى في موسكو كنت ما أزال أتصور أنني قادم كي أخطب آفدوتيارومانوفنا وأن أفرض نفسي منافساً للسيد لوجين.

- أغفر لي مقاطعتك... ولكن أرجوك.... رحماك... ألا تستطيع أن تختصر وأن تنتقل رأساً إلى الكلام عن الغرض من زيارتك؟

إنني مستعجل... يجب أن أخرج.

- بكل سرور، حين وصلت إلى هنا عازماً على القيام.... برحلة، أردت أولاً أن أتخذ بعض الإجراءات التحضيرية المطلوبة، لقد أبقيت أولادي عند خالتهم. هم موتورين لا يحتاجون لي، وأيُّ أبٍ أنا على كل حال؟ لم أحمل معي إلا المال الذي أهدتني إياه مارفابتروفنا منذ سنة، هذا يكفيني، معذرةً، أنا أصل إلى الوقائع مباشرة، إنني قبل سفري الذي قد يتم على كل حال، أودُّ أن أفرغ من السيد لوجين، هذا لا يعني أنني أكرهه كره المجوس، لكنَّه هو السبب في الشجار الذي وقع بيني وبين مارفا بتروفنا، حين علمت أنَّها دبرت هذا الزواج، أنني أرغب الآن أن ألقى آفدوتيا رومانوفنا عن طريقك، وبحضورك إن شئت،

بغية أن أشرح لها أولاً أنَّه ما من خير يمكن أن تتوقعه من السيد لوجين، بل وإنَّ هناك شروراً هائلة يجب أن تتوقعها منه، وأطلب منها ثانياً، بعد التماس غفرانها عن المتاعب الأخيرة التي سببتها لها، وأن تأذن لي أن أقدم إليها عشرة آلاف روبل ميسِّراً لها القطيعة مع السيد لوجين، وهي قطيعة تستفيد آفدوتيا رومانوفنا منها إذا هي تصورت طاقتها.

صاح راسكولنيكوف وقد تجاوز ذهوله حنقه:

- إلا إنَّك لمجنونٌ فعلاً، فعلاً! كيف تجرؤ أن تقولَ هذا الكلام؟

كنت أعلم أنَّك ستطلق صيحاتٍ عالية وصرخاتٍ شديدة، ولكني أحبُّ أن أقول لك أولاً أنني على كوني لا أملك ثروةً كبيرة، أستطيع التصرف بهذه العشرة الآلاف روبل، بتعبير آخر: إن هذا المبلغ ليس بالمبلغ الذي لا غنى لي عنه، فإذا لم تقبله آفدوتيارومانوفنا، سأنفقه بأسلوب أشدُّ غباءً وحماقةً، هذه أولى، أما الثانية: هي أن ضميري مرتاح أيَّ راحة: إنني أقدم هذا المال دون أي حساب، صدِّق أو لا تصدِّق، ولكنكما، أنت وآفدوتيارومانوفنا، ستدركان هذا فيما بعد، الحقيقة أنني سببت بعض المتاعب وبعض الإزعاجات فعلاً لأختك الصغيرة المحترمة، وإذا كنت أشعر بندم صادق وأعاني من عذاب الضمير، أرغب من كل قلبي لا أن أكفِّر عن خطيئتي، فأقدِّم لأختك تعويضاً مالياً، بل أن أكون بكلٍّ بساطة، نافعاً لها في أمر من الأمور على نموذج من النماذج، لأنني على كل حال لست بالإنسان الذي لا يمتاز إلا باقتراف الشر، ولو كان في عرضي هذا جزء من مليون جزء من حساب، لما قدَّمته بمثل هذه الصراحة كلِّها، ثُمَّ أنني ما كان لي أن أقدم لها عشرة آلاف روبل فحسب، بينما كنت أعرض عليها أكثر من ذلك منذ خمسة أسابيع، أضف إلى هذا أن من الجائز جداً أن أتزوج إحدى الفتيات في وقتٍ قريبٍ جداً، وهذا يبعد عني كلَّ شُبهة في إضمار أيِّ شرٍ لآفدوتيارومانوفنا، وأقول في الختام إن آفدوتيارومانوفنا، إذا هي تزوجت السيد لوجين، ستتقاضى هذا المبلغ نفسه

ولكن من جيب آخر...

لا تتكدر يا روديون رومانوفيتش... بل احكم على الأمر بنفسك في هدوء وسكينة.

كان سفيدريجايلوف نفسه، وهو ينطق بهذه الكلمات، هادئاً أيَّ هدوء، ساكناً أيَّ سكينة.

قال راسكولنيكوف:

ـ أرجو أن تقف عند هذا الحد من الكلام، لأن ما قلته حتى الآن هو على كل حال مشبع بوقاحة لا تغتفر.

ـ أبداً، من يسمعك يظنُّ أن الإنسان لا يمكن أن يصنع بأخيه الإنسان إلا شراً في هذا العالم الأرضي، وأنَّه لا يجوز أن يقدم له أيَّ خير، وهذا كُلُّه باسم عادات سخيفة وآراء باطلة، إلا أنَّ هذا لمضحكٌ فعلاً، إذا متُّ أنا مثلاً، فأورثت أختك الصغيرة في وصيتي هذا المبلغ نفسه، هل ترفض أختك قبوله حتى في هذه الحالة؟

ـ جائزٌ جداً أن ترفضه.

ـ لا! ودعنا من هذا من فضلك، المهم أن عشرة آلاف روبل مبلغٌ جميل! ومهما يكن من أمر، أرجوك أن تطلع آفدوتيا رومانوفنا على هذا الحديث.

ـ لا، لن أطلعها عليه.

ـ في هذه الحالة سأكون مضطراً يا روديون رومانوفيتش أن أسعى بنفسي إلى الحصول على موعد منها، وقد يزعجها هذا.

ـ وإذا أخبرتها الحديث، ألن تسعى بذاتك إلى الحصول على موعد؟

ـ لا أدري بماذا أردُّ، إنني أودُّ كثيراً أن أراها مرة.

ـ لا تقول على هذا!

ـ خسارة، على أنك لا تعرفني، أليس من الجائز أن تتوثق العلاقة بيننا؟

ـ أتظن أنت حقاً أن العلاقات بيننا قد تتوثق؟

رد سفيدريجايلوف وهو ينهض ويتناول قبعته.

ـ لم لا؟ ليس معنى هذا أنني أحرص هذا الحرص كُلَّه على أن أزعجك هنا.... حتى أنني ما كنت لأعوِّل على أن ... رغم أن هيئتك قد أذهلتني كثيراً في هذا الصباح.

وسأله راسكولنيكوف قلقاً:

ـ أين رأيتني في هذا الصباح؟

ـ رأيتك بمحض الصدفة! ما يزال يخيَّل إليَّ أن عندك شيئاً قريباً مني كل القرب. إنَّما لا تقلق، ما أنا بالرجل المزعج: لقد تسنى لي أن أتفاهم مع غشاشين، ولم أكن الأمير" سفر باي" الذي يمتُّ إليَّ بقربى بعيدة والذي هو سيِّد من كبار السادة: واستطعت أن أكتب في "ألبوم" مدام بريلوكوفا بضعة أسطرٍ عن "مادونا رافايل"، وعشت سبع سنين متصلة مع مارفا بتروفنا، وقضيت قبل ذلك ليالي بكاملها في عمارة فيازمسكي بميدان "سوق العلف"، وقد أطير بالمنطاد مع بيرج...

ـ رائع، فاسمح لي الآن أن أسألك أأنت تزمع القيام برحلتك قريباً؟

ـ أي رحلة؟

ـ عجيب! الرحلة التي حدثتني عنها منذ هنيهة.

ـ رحلة؟ آ...نعم...رحلة...فعلاً ...لقد حدثتك عن رحلة...ولكن هذه مسألة واسعة جداً... ليتك تعرف عن أي شيءٍ تسألني!

كذلك أضاف وهو يطلق ضحكة مجلجلة قصيرة، ثُمَّ أردف:

ـ قد أتزوج بدلاً من القيام بتلك الرحلة: هناك خطيبة، تعرض لي.

ـ هنا؟

ـ نعم.

متى توفر لك الوقت لأن....

ـ أودُّ من جوارحي مع ذلك أن أرى أختك آفدوتيا رومانوفنا. إنّي أسألك جادّاً أن تؤدي لي هذه الخدمة. هيا.... إلى اللقاء مرة أخرى. آ..نسيت... قل لأختك أن مارفابتروفنا قد أورثتها في وصيتها ثلاثة آلاف روبل. هذه هي الحقيقة ببساطة. لقد اتخذت مارفابتروفنا هذه الإجراءات قبل موتها بأسبوع، اتخذتها بحضوري، وبوسع آفدوتيا روما نوفنا أن تقبض المبلغ في غضون أسبوعين أو ثلاثة.

ـ تقول... هذه هي الحقيقة؟

ـ نعم هذه هي الحقيقة، أرجوك أن تبلغها إياها، هيا... إلى اللقاء مرة أخرى أتعلم أنني أقطن قريباً جداً منك؟

قال سفيدريجايلوف هذا واتجه نحو الباب، وفيما هو يجتاز العتبة، التقى رازوميخين.

# الفصل الثاني

كانت الساعة قريبة من الثامنة: عجَّل الاثنان الخطو نحو عمارة باكالايف ليصلا قبل لوجين.

سأل رازوميخين صاحبه ما أن صارا في الشارع:

- قُل لي: من ذاك الرجل؟

- هو سفيدريجايلوف، ذلك الإقطاعي الذي نزلت أختي في داره حينما كانت تعمل عنده مربية، وقد اضطرت أن تنصرف من ملاحقاته الغرامية: طردتها زوجته مارفابترفنا. ومارفابتروفنا هذه اعتذرت لدونيا بعد ذلك ثُمَّ ماتت فجأة حتف أنفها منذ أمدٍ قريب، وعنها كان يجري الحديث بالأمس، لا أدري لماذا، ولكني خائف من هذا الرجل. وصل إلى بطرسبورغ فوراً بعد دفن زوجه، هو رجلٌ غريبٌ جداً، يُخيَّل لي أنَّه عَزَمَ أمره على طبخ مكيدة، أيُّ مكيدة، لكنَّه يعرف شيئاً ما...يجب أن نحمي دونيا منه، ذلك ما كنت أريد أن أقوله لك، هل تسمع؟

- نحميها منه؟ ولكن أيُّ ملمَّةٍ له أن يلحقها هذا الرجل بآفدوتيا رومانوفنا؟ على كل حال، أكرر لك ياروديا قولك لي هذا الكلام، لسوف نذود عنها، أين يقيم؟

- لا أعلم.

- لِمَ لم تسأله؟ خسارة! لا بأس، سأعرف ذلك على كل حال.

وسأله راسكولنيكوف بعد صمت وجيز:

- هل رأيته؟

- طبعاً لاحظته، تأملته جيداً.

وألحَّ راسكولنيكوف بالسؤال:

- هل تمليته بمعنى الكلمة، تملٍّ مميز؟

ـ نعم وأتذكره تذكراً أريباً فصيحاً نابذاً ، لو وجدته بين ألف شخص لعرفته ، أنا أملك ناصية ذاكرة الهيئات.

وصمتا مرةً أخرى.

تمتم راسكولنيكوف:

ـ هم.... ذلك أنني... ذلك أنني... هل سمعت؟ لولا ذلك.... لتسرب لي الشك... وما أزال أظنُّ... أنَّ ذلك لم يكن سوى أضغاث أحلام.

ـ عمَّ تتكلم، لا أفهمك؟!

تابع راسكولنيكوف الكلام وهو يلوي فمه بابتسامة:

ـ اسمع: لما كنتم جميعاً تظنون بيَ الجنون، تصورت منذ قليل أنني ربَّما أنا مجنونٌ بالفعل، وأن ما رأيته ليس أكثر من شبح.

- ماذا تقول؟

- من يدري؟ لعلِّي مع ذلك مجنون. ولعلَّ كل ما جرى في الآونة الأخيرة إنَّما جرى في خيالي فقط!

- روديا! هل شوشوا عقلك مجدداً؟ ولكن ما قال لك هذا الرجل؟ لم جاء؟ لم يجب عزيزنا. ورازوميخين فكَّر لحظة، ثُمَّ بدأ يتكلم!

طيب، اسمع تقريري: جئتك، فوجدتك نائماً، ثُمَّ تناولنا الغداء، ومنه إلى بورفيري.

كان زاميوتوف عنده، أردت أن أبدأ الحديث، لكنَّ هذا لم يثمر، لم أستطع أن أتكلم كما كان ينبغي، كأنَّهما لم يفهما شيئاً، ولا يستطيعان أن يفهما شيئاً، ولكنهما لم يظهر أيَّ ارتباك. جذبت بورفيري إلى النافذة وأنشأت أحكي، ولكن هذا أيضاً لم يثمر لعلَّةٍ ما. كنت انظر إلى جهة، وكان ينظر إلى أخرى، وأخيراً وضعت قبضة يدي تحت ذقنه، وقلت له أنني سأحطم له بوزه على الطريقة العائلية، فلم يزد سوى متابعة تأملي. عندئذٍ، بصقت على الأرض، وانصرفت. هذا كل شيء. ما أغبى هذا كُلَّهُ! أما زاميوتوف فلم

أبادله كلمة واحدة، ومع ذلك اعتقدت أنني أفسدت الأمر كُلَّهُ، إلى أن تراءت لي بغتةً، وأنا أهبط السلَّم، فكرةً وضعت بلسماً على قلبي. خاطبت نفسي: لماذا نصدِّع رأسينا، أنا، وأنت؟ لم كان في مكانٍ ما خطرٌ محدِّقٌ بك، أو شيء من هذا القبيل، لما قلتُ كلمةً واحدة، إنَّما لا دور لك في كل ما يدور. ما شأنك بهذا الأمر، لا، لا علاقة لك به، فما عليَّك إذاً سوى أن تستخف بهم، أن تتفَّ عليهم، ولسوف ترى أنَّنا نحن الذين سنضحك عليهم ونهزأ منهم. لو كنت في مكانك لأخذت أُضللهم وأُغرر بهم! ما أشدَّ ما سيشعرون به من خجل وشنار فيما بعد. ابصق على هذا الأمر كُلِّهِ! ربَّما استطعنا في طالع أن نضربهم أيضاً، ولكن لنضحك إلى أن يحين ذلك الحين!

ردَّ راسكولنيكوف:

ـ طبعاً، طبعاً!

ولكنَّه قال لنفسه: "ما عساك فاعلاً في الغداة؟

شيء غريب: راسكولنيكوف لم يكن قد تساءل مرةً واحدةً حتى الآن "ما عسى يفكِّر رازوميخين حين يعلم الحقيقة؟" فلما خطرت لي هذه الفكرة الآن حدَّقَ إلى صديقه بنظرة ثابتة، أمَّا ما رواه له رازوميخين عن زيارته لبورفيري، لم يكن، يبالي به:

إنَّ أموراً كثيرة قد جرت منذ تلك الزيارة!...

وفيما كانا يَعبُرا الدهليز التقيا لوجين، لقد وصل لوجين في الثامنة تماماً، وظلَّ يتسكعُ مدَّةً طويلة قبل أن يهتدي إلى الغرفة، وها هم أولاً، وتوقف بيوتر بتروفتش في الحجرة القريبة من باب اللباقة، خلع هناك معطفه، تقدمت بولخيريا ألكسندروفنا إلى لقائه في عتبة الغرفةِ فوراً، وكانت دونيا في أثناء ذلك الوقت تحيي أخاها.

دخل بيوتر بتروفتش، سلَّم على السيدتين برقةٍ ورشاقة، رغم أنَّه قد اصطنع مزيداً من الوقار، على أنَّه كان يبدو مرتبكاً بعض الشيء، ما كان يسيطر

على أعصابه بعد.

وأسرعت بولخيريا ألكسندروفنا التي كانت تبدو مشوشة هي الأخرى، عاجلت تعقد الركب حول المائدة المستديرة التي احتوت سماور يغلي ماءه، كان مكانا دونيا ولوجين متقابلين، وكان مكان رازوميخين إلى جانب لوجين، وأمَّا راسكولنيكوف فإلى جانب أخته.

خيَّمَ الصمتُ برهةً من الزمن، أخرج بيوتر بتروفتش من جيبه، بتؤدة، منديلاً من نسيج البانستيه تفوح منه روائح عطر، وتمخط كما يتمخط رجلٌ محترم، بل رجلٌ يُحِسُّ أن كرامته قد تعثَّرت قليلاً، فهو عازمٌ لذلك على أن يطالب بإيضاحات. كان قد ورد إلى حافظته وهو في حُجرةِ المدخل ألا يخلع معطفه، وأن ينصرف فوراً ليعاقب السيدتين عقاباً صارماً، وليُفهمُهما الوضع كُلَّهُ، لكنَّهُ لم يحزم أمرهُ على تنفيذ هذه الفكرة التي يصوِّرُها اليقين الأكيد، وثمَّةَ نقطة لابُدَّ من إيضاحها: لئن عارضت هاتان السيدتان أوامرهُ صراحةً، فلا مهربَ أنَّ ثمَّةَ سبباً دعى إلى ذلك، فالأفضل أن يَعرِفَ هذا السبب بسرعة، وفي وسعهِ بعدئذٍ أن يقتصَّ قصاصاً صارماً ما دام يملك هذا الحق.

خاطب بولخيريا ألكسندر نوفنا بلهجةٍ رسميَّة:

ـ أرجو أن تكونا قد قمتما برحلةٍ مريحة.

ـ نحمد الله يا بيوتر بتروفتش!

ـ يسرني أن أعرف هذا، ألم تتعب آفدوتيا رومانوفنا أيضاً؟

ردَّت دونيا:

ـ أنا شابَّةٌ و قويَّة لا أَكَلُّ. أمَّا أُمي فقد تحملت مشقَّةً مُضنية.

ـ ما العمل؟ إن طرقاتنا الوطنية تمتد مسافات شاسعة. إن "أمنا روسيا" كما يقال واسعة الأرجاء... أما أنا فإنني، رغم رغبتي الجامحة، لم أقدر أن آتي بالأمس إلى المحطة لاستقبالكم، آمل مع ذلك أن يكون كل شيء قد تمَّ من دون ما يشقَ على ذويِّ الشأن.

وعلى الفور ردَّت بولخيريا ألكسندرونوفنا بنبرة خاصة:

ـ لا يا بيوتر بتروفتش! لقد لقينا ما يشقي من المزعجات، وشعرنا بضيقٍ شديد. ولو لم يرسل لنا اللّه دمتري بروكوفتش بالأمس، إذاً لهلكنا.

ثُمَّ أضاف تعرف لوجين بدمتري بروكوفتش:

ـ هذا دمتري بروكوفتش رازوميخين.

دمدم لوجين وهو يلقي على رازوميخين نظرةً مواربة خالية من الوداد:

ـ لكن... سبق لي أن ابتهجت... أمس... ثُمَّ قَطَبَ حاجبيه وسكت.

نحن نستطيع أن نصف بيوتر بتروفتش على وجه العموم بأنَّه ينتمي إلى تلك الشريحة من النَّاس التي تبدو في المجتمع لطيفةً ودودة، أو تبدو منطلقةً إلى الرِقَّةِ والحنان وربَّما الحميميَّة، إنَّما ما أن يسوءُها شيء حتى تفقد على الفور لباقتها وأُنسها، فإذا هي تشبه أكياساً من دقيق، أكثر مما تشبه فرساناً مرحين منطلقين يلاطفون الآخرين حولهم.

ومن جديد ساد صمت راسكولنيكوف مصرّاً على السكوت إصراراً عنيداً، وآفدوتيارومانوفنا لا تريد أن تتكلم قبل أن تحين اللحظة المناسبة، ورازوميخين ليس عنده ما يقوله. وهكذا شعرت بولخيريا ألكسندرونوفنا ينذر بالخطر. فلجأت إلى أقصر ما تملك من موارد، فبادرت:

ـ ماتت مارفابتروفنا، أعلمت هذا؟

ـ أعرفه طبعاً. علمت به منذ بدأت الشائعة تدور... وأزيدك علماً أن أركادي أيفانوفتش، سفيدريجايلوف قد أسرع بالمجيء إلى بطرسبورغ فور دفن أمرأته. هذه هي على العموم الأخبار الدقيقة التي وصلتني.

قالت دونيا بصوت خائف قلق، وهي تبادل أُمَّها نظرةً سريعة:

ـ إلى بطرسبورغ؟ إلى هنا؟

ـ نعم. ولاشكَّ في أنَّ له نيات يضمرها، إذا نحن نظرنا إلى استعجاله السفر، وعلى وجه العموم، إلى الأحداث التي سبقت هذا السفر.

صاحت بولخيريا ألكسندروفنا:

ـ ربَّاه! أمن الممكن أن لايدع دونيتشكا مرتاحةً هنا أيضاً؟

ـ يُخيَّلُ إلى أنكما يجب ألا تبالغا في القلق، لا أنت ولا آفدوتيارومانوفنا، شرط أن ترغبا أنتما طبعاً في أن تتحاشيا كُلَّ صلةٍ به. أما أنا فما أزال يقظاً ساهراً وأعمل منذ وصولي على استطلاع محل سكناه.

وتابعت بولخيريا ألكسندروفنا كلامها:

ـ آه بيوتر بتروفتش! إنَّكَ لا تعرف مدى ما أحدثته في نفسي من خوفٍ ورعب! أنا لم أره في حياتي سوى مرتين، ولكنَّه بدا لي مريعاً، مريعاً! أنا واثقة بأنَّه هو سبب موت مارفابتروفنا!

ـ يصعب القطع برأيي فيما يتعلق بهذه النقطة. أنا أملي معلوماتٍ دقيقة محدَّدة، لا أنكر أنَّه عجَّلَ مجرى الأمور بما أحدثته المهانةُ فيها من أثرٍ نفسي إن صحَّ التعبير، أما عن سلوكِ الرجل وعن أخلاقه عامة فأنا أوافقك على رأيك كليَّاً. لا أدري هل أصبح الآن غنياً، ولا أدري كم أورثتهُ مارفابتروفنا على وجه الدقة، ولكني سأعرف هذا بعد مدَّةٍ لن تطول، ومهما يكن من أمر، فمما لا شكَّ فيه أنَّه وقد صار يملك مالاً، سوف يستأنف فوراً، هنا بطرسبورغ، طراز الحياة التي كان يعيشها في الماضي، هذا إنسان هو أكثر أشباهه انحلال خلق، وفساد طبع، وثمَّة أسباب قوية تدعوني إلى الاعتقاد أن مارفابتروفنا التي ساء حظها أن تفتتن به، وأن تحرره من ديونه منذ ثماني سنين، قد خدمته في ميادين أخرى: فبفضل جهودها وحدها، وتضحياتها إنَّما استطاعت أن تخنق في المهد قضيةً إجراميةً وحشيةً فظيعة كان يمكن أن تودي به إلى سيبيريا، ذلك هو هذا الرجل إذا كنت تحرصين على معرفته!

صاحت بولخيريا ألكسندروفنا:

ـ آه! ربَّاه!

وكان راسكولنيكوف يصغي بكل حواسه وأحاسيسه.

سألته دونيا بلهجة قاسية رصينة:
هل صحيحٌ حقاً أن لديك معلومات دقيقة عن ذلك؟
ـ أنا أكرر ما سمعته بنفسي من فم المرحومة مارفابتروفنا مختوماً بخاتم السر. يحسن أن نلاحظ أن هذه القضية تظلُّ من وجهة النظر القانونية غامضة غموضاً شديداً، في ذلك الوقت كانت تعيش هنا. ويظهر أنَّها ما تزال تعيش إلى الآن سيدة أجنبية اسمها "ريسليخ"، وهي مربيةً صغيرةً لها، عدا ذلك، أعمالٌ أخرى.
وكان السيد سفيدريجايلوف على صلات حميمة سريَّة بهذه المرأة منذ أمدٍ بعيد، وكانت تعيش معها فتاة تمت لها بقرابةٍ بعيدة، فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها أو في الرابعة عشرة، كانت صماء، وكانت السيدة ريسليخ تغرز كرهاً أزرقَ لهذه الصبية عسيرة الحظ، وتؤنبها على كل كسرة خبز، بل كانت تضربها ضرباً لا رحمةً فيه ولا شفقة، وفي ذات يوم وُجِدت الفتاة مشنوقة في الطابق الذي يقع تحت سقف المنزل، وقد انتهى التحقيق إلى أن الفتاة ماتت منتحرة، وطويت القضية بعد إتمام الإجراءات المعتادة، غير أن وشايةٌ جاءت بعد ذلك تقول إن الصبية قد اعتدى عليها السيد سفيدريجايلوف اعتداء مشيناً قاسياً. صحيح أن هذا كُلَّهُ ظلَّ يكتنفه الغموض، فالوشاية صدرت عن ألمانية أخرى هي سيئة السمعة لا توحي بأيِّ ثقة، وإنفاذاً للوشاية لم يقُم أحداً بأيِّ إجراءات، بل بفضل مارفابتروفنا، حين كنت عندهم، سمعتُ كلاماً عن قصة خادمٍ اسمه فيليب مات منذ ست سنين على إثر تعذيب، في العهد الذي كانت فيه القنانة ما تزال قائمة.
ـ بل لقد سمعت أن فيليب هذا مات منتحراً.
ـ تماماً، لكنَّه أُجبر على الإنتحار أو قولي دفع إليه، بتأثير نظام الإزعاجات والاضطهادات التي كان يمارسها السيد سفيدريجايلوف.
أردفت دونيا بجفاء:

ـ ما كنت أعرف هذا، ولكني سمعت قصَّةً غريبةً جداً تروي أن فيليب هذا كان رجلاً مصاباً بالسوداء، وأنَّه كان نوعاً من فيلسوفٍ قابعٍ في البيت. كان الناس يقولون عنه إن قراءاته هي التي ذهبت بعقله، وأنَّه انتحر هرباً من سخريات السيد سفيدريجايلوف، لا من معاملته، ومهما يكن من أمر فالسيد سفيدريجايلوف، كان طوال مُدَّةَ إقامتي عندهم، يعامل الخدم بحضوري معاملةً حسنة، بل كان هؤلاء يحبونه، رغم أنَّهم يتهمونه بالفعل بأنَّه كان السبب في موت فيليب.

قال لوجين وهو يلوي فَمَهُ بابتسامةٍ ملتبسةِ المعنى:

ـ أرى يا آفدوتيا رومانوفنا أنَّك أصبحت تميلين بغتة إلى تبرئته. هذا الرجل ماكرٌ فعلاً، وهو إلى ذلك داعر. أليست مارفا بتروفنا، التي ماتت تلك الميتة الغريبة، دليلاً محزناً على ذلك؟ أنا إنَّما أردتُ أن أساعدكما بنصائحي أنت وأمُّك، لأنني أحدس بمحاولات جدِّية سيقوم بها بلا ريب، وأنا من جهتي لعلَّ لي اقتناعٌ جازمٌ بأن هذا الرجل سيودع في السجن يوماً ما لتخلفه عن إيفاء ديونه، إن مارفا بتروفنا التي كانت لا تفكر إلا بأولادها لم يكن في نيتها حتماً، أن تورثهُ مبلغاً ضخماً من ثروتها، وإذا أورثته شيئاً مع ذلك، لن يكون هذا الميراث إلا مبلغاً زهيداً "عارضاً"، وهذا المبلغ الزهيد لن يكفي صاحبه الذي عرف بعادات خاصة إلا سنةً واحدةً في أبعد تقدير.

قالت دونيا:

ـ بيوتر بتروفتش، أرجوك، لا تتكلم عن السيد سفيدريجايلوف! الكلام عنه يؤلمني، وأردف راسكولنيكوف فجأةً، خارجاً بذلك عن صمته لأول مرَّة:

ـ جاءني منذ قليل.

فإذا بصيحات التعجب تتعالى من كل صوب، وإذا بكل الوجوه تلتفت إليه. وانفعل حتى بيوتر بتروفتش.

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال:

ـ جاءني منذ ساعةٍ ونصف، بينما كنت ما أزال نائماً. دخل فأيقظني، وعرَّفَني بنفسه. كان منطلقاً مرحاً، وكان يأمل جازماً أن تتعقد بيننا صلات، وألحَّ بخاصة على أن يلقاكِ يا دونيا، وطلب مني أن أكون وسيطاً لهُ في تهيئة هذا اللقاء، ثمَّةَ عرضٌ يريد أن يبسطه لك، وقد ذكر لي ما هو هذا العرض، ومن جهةٍ أخرى أبلغني رسمياً أن مارفا بتروفنا قد اتسع وقتها، قبل وفاتها بأسبوع، أن تورثك في وصيتها ثلاثة آلاف روبل، وهو مبلغ لك أن تقبضه يا دونيا بأقرب فرصة.

هتفت بولخيريا ألكسندروفنا وهي ترسم شارة الصليب:

ـ الحمد للّه! صلي لها يا دونيا، صلي لها!

ردَّ لوجين فجأةً: ـ هذا صحيح.

وآردفت دونيا مستطلعة:

ـ هيه، وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك قال أنَّه هو نفسه ليس غنياً، وإن الثروة كلها قد آلت إلى أولاده الذين بقوا الآن عند خالتهم، ثُمَّ أضاف أنَّه قد نزل في مكان ما، غير بعيد عن بيتي، ولكنني لا أدري أين يقع مسكنه على وجهِ الدِّقة، ولم أسأل...

سألت بولخيريا ألكسندرونوفنا مروعة:

ـ إنَّما ماذا يريد، ماذا يريد أن يعرض على دونيا؟

هل قال لك ماذا يريد أن يعرض عليها؟

ـ نعم، قال لي.

ـ ماذا؟

ـ سأقول فيما بعد. قال راسكولنيكوف ذلك، ثُمَّ صمت وعاد يشرب الشاي.

فأخرج بيوتر بتروفتش ساعته ونظر فيها، ثُمَّ قال:

ـ أنا مضطرٌ أن أغادركم حتماً، فهناك عملٌ ملحٌّ مستعجل يناديني.

وأضاف يقول وهو يتحرك لينهض مظهراً بعض الانزعاج:

ـ وبذلك لن أضايقكم.

فردت دونيا:

ـ ابق يا بيوتر بتروفتش! ألم تكن تنوي أن تقضي السهرة معنا؟ ألم تكتب أيضاً أنَّك تريد أن تناقش ماما؟

ردَّ بيوتر بتروفتش بوقارٍ وتهيُّب:

ـ هذا صحيح يا آفدوتيا روما نوفنا.

وجلس، ولكنَّه ظلَّ ماسكاً قبعته بيده، وتابع يقول:

ـ كنتُ أريدُ فعلاً أن أناقشك وأناقش أمَّك المحترمة في أمورٍ خطيرةٍ جداً. لكن كما أن أخاك لا يستطيع أن يشرح أمامي شيئاً عن عروض السيد سفيدريجايلوف، كذلك لا أريد أنا ولا أستطيع أن أشرح شيئاً أمام... أشخاص آخرين... في أمور هي على درجة عظيمة جداً من خطورة الشأن!... ثُمَّ إن أحداً لم يكترث إطلاقاً برجائي المُلح...

واكتسى محيا لوجين تعبيرا عن المرارة، وصمت في وقار ورصانة.

ـ أنا وحدي السبب بأنَّ رغبتك بعدم حضور أخي معنا اليوم لم تتحقق. لقد كَتَبتَ تقول إن أخي أهانك، وأنا أرى أنَّه يجب إيضاح الأمور كلِّها بأقصى سرعة، وأن عليَّكما أن تتصالحا. إذا كان روديا قد أهانك حقاً، يكون من واجبه أن يعتذر لك، وسوف يفعل ذلك...

فسرعان ما استرد بيوتر بتروفتش كبرياءه، فقال:

ـ يا آفدوتيا روما نوفنا، هناك إهانات لا يمكن أن ينساها المرء مهما يبلغ من حسن الطوية، وصدق الرغبة. إن لكلِّ شيءٍ حدوداً لا يمكن أن يتجاوزها أحد دون أن يعاقب على ما فعل، ومتى تجاوزها كانت العودة إلى الوراء مستحيلةً استحالةً كاملة.

قاطعته دونيا تقول بشيءٍ من نفاذ الصبر:

ـ ليس هذا تماماً ما كنت أكلمك فيه. أفهم جيداً أن مستقبلنا يتوقف الآن

على نقطة واحدة: أيمكن إيضاح هذا الأمر كُلَّهُ وتسويته بأقصى سرعة أم لا؟ إنني أُنبهك بصراحة، منذ الآن، إلا أنّي لا أستطيع أن أنظر إلى الأمور غير هذه النظرة، فإذا كنت تحرص عليَّ أيَّ حرصٍ فيجب أن تنتهي هذه القصة في هذا اليوم نفسه مهما كلَّف الأمر. أعود فأكرر أن أخي سيعتذر لك إذا كان هو مخطئاً.

قال لوجين وقد ازداد هيجانه شيئاً بعد شيء:

- يدهشني يا آفدوتيا روما نوفنا أن تطرحي المسألة هذا الطرح. إنني على ما أكنُّهُ لك من اعتبارٍ عظيم، ومن حبٍّ كبير، أستطيع جداً أن لا أحب في الوقت ذاته فرداً من أفراد أسرتك، وإنني على تطلُّعي إلى أن أُسعَدَ بزواجك أستطيع جداً في نفس الوقت أن لا أقبل تحمُّل واجباتٍ لا تتفق مع...

قاطعته دونيا مندفعة:

- مهلاً مهلاً! دعك من فرط الحساسية هذا يا بيوتر بتروفتش. ولتكن ذلك الرجل الذكي النبيل الذي رأيته فيك دائماً والذي أحبُّ أن أراه فيك. لقد وعدتُّكَ وعداً صريحاً، وأنا خطيبتك، ثق بي إذاً بهذه القضية، وكن على يقين من أنني أستطيع أن أقضي في الأمر محايدة غير متحيزة، إن وقوفي موقف الحَكَم يدهش أخي مثلما يدهشك، وحين دعوته اليوم، بعد تلقي رسالتك، إلى حضور لقائنا هذا حتماً، فإنني لم أقل له شيئاً عمَّا نويت. ولكني أفهم أنني سأكون مضطرة إلى أن أختار أحدكما وأترك الثاني إذا أنتما لم تتصالحا، إن المسألة مطروحة على هذا النحو، من جهتك وجهته على السواء، فلن أستطيع ولا ينبغي أن أخدع في أمر اختياري، أنت ترى أنَّ عليَّ أن أقطع صلتي بأخي، وهو يرى أن عليَّ أن أقطع صلتي بك، فأنا أريد وأستطيع أن أعرف في هذه اللحظة أهو أخ لي حقاً، وأستطيع أن أعرف أيضاً أأنا عزيزةً عليَّك حقاً، أستطيع أن أعرف هل أنت تحترمني، هل أنت زوجٌ لي حقاً؟

قال لوجين منكداً:

ـ يا آفدوتيا رومانوفنا ، إن أقوالك هـذه زاخـرةٌ بالمعـاني في نظـري ، بـل في وسـعي أن أقـول أنَّهـا جارحـة جداً إذا نحـن نظرنـا إلى الوضـع الـذي يشـرِّفُني أن أحتلُّـهُ عندك ، وبغض النظر عن طريقتك الغريبة المثيرة هذه في الموازنة بيني أنـا وبـين... شابٍ مغرور ، أرى من كلماتك أنَّكِ تتصورين إمكـان تراجعك عن الوعد الـذي قطعته لي. أنت تقولين " أنت أو هو " مبرهنـة بـذلك ضعف شـأني عنـدك ، وقلـت قيمتي في نظرك. ألا فاعلمي أنني لا أستطيع أن أقبل هذا ، نظراً للعلامات الـتي بيننا ، و... الالتزامات التي تربطنا.

صرخت دونيا وقد تقرمَزَ وجهها من الغضب احمراراً شديداً :

ـ كيـف لـك أن تهـرف بمـا هـرفت؟ لقـد وضـعت مصـلحتك في مرتبـة أثمـن مـا ملكـت يـداي حتـى الآن ، وضـعتها قبالـة حيـاتي كُلِّهـا حتـى الآن ، وهـا أنـت ذا تشكو بغتةً من تدني شأنك عندي وهزال قيمتك في نظري.

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامةً حاقدةً ، وتحـرك رازوميخين في مكانـهِ بهيئـةٍ مشمئزَّةَ.

لكن بيوتر بتروفتش لم يـرد أن يعـي ذلـك الاعـتراض ، حتـى صـارَ أشـدَّ شراسـةً وميلاً للشجار أمام كُلِّ كلمةٍ جديدة ، فكـأنَّهُ يَجِدُ لذَّةً في صيرورة الأمـور إلى هذا الدرك.

قال باختيال :

ـ إنَّ حُبَّ رفيق الحياة ، إنَّ حُبَّ الزوجة يجب أن يفوق حُبَّ الأخ. ومهما يكـن مـن أمر ، فأنا أرفض أن أوضع في كفتي ميزانٍ واحدٍ مع... وعلى كل حـال ، ورغـم أنـني أعلنـت صـراحةً منـذ لحظـة أنـني لا أقـدر ولا أريـد أن أعـرض ، بحضـور أخيـك ، كـل مـا يشـغل بـالي ، بـل أُحِبُّ أن أحاسـب أُمَّـكِ المحترمـة علـى نقطـة أساس تجرحني كثيراً.

قال هذا والتفت إلى بولخيريا ألكسندروفنا :

ـ إن ابنـك أهـانني أمـس بحضـور السـيد راسـودكين (أو السـيد ...هذا اسمـك ،

أليس كذلك؟[1] معذرة ... لقد نسيت اسمك ـ قال لرازوميخين وهو يحييهِ تحيةً متطفلةـ، أقول إن ابنك قد خزاني أمس بحضور هذا السيد مشوهاً فكرةً سبق أن عبَّرتُ لك عنها في حديثٍ خاص جرى بيننا في أثناء احتساء فنجان القهوة، إذ قُلتِ: إنني أرى أن الأفضل من حيث الحياة العائلية أن يتزوج الرجل فتاةً فقيرةً عرفت عراقيل الحياة ومشقاتها بدلاً أن يتزوج صبية ذاقت أفراح اليسر و الرخاء والظلال، لأن ذلك أنفع من الناحية الأخلاقية. ولكن ابنك قد تعمَّدّ أن يضخم دلالة هذه الأقوال وأحط الخطط، مستنداً بذلك إلى رسالتك أنت فيما أظنُّ، لسوف يسعدني كثيراً يا بولخيريا ألكسندروفنا أن تقنعيني بأن الأمر لم يكن فيحمل إليَّ هذا طمأنينةً عظيمةً، اذكري لي الكلام الذي استعملتِهِ لنقل أقوالي والتعبير عن آرائي في الرسالة التي بعثتُ بها إلى روديون رومانوفتش!

جمجمت بولخيريا ألكسندروفنا:

ـ لا أتذكر. لقد نقلتها كما فهمتها أنا نفسي. لا أدري كيف كررها لك روديا... لعلَّهُ بالغَ قليلاً...

ـ ما كان يستطيع أن يبالغ لولا ما أوحيتِ به إليه.

قالت بولخيريا ألكسندروفنا وقورةً:

ـ يا بيوتر بتروفتش، الدليل أننا، أنا ودونيا، لم نؤول أقوالك تأويلاً شديد السوء، هو وجودنا كلتينا هنا.

ردَّت دونيا مؤيدةً محبذة:

ـ أحسنت يا ماما!

وأردف لوجين مستاءً:

ـ إذاً أنا المحقوق!

1 - عد إلى التعليقات حول ما ورد اللعب بالألفاظ حيث رازوميخين من رازوم: العقل ب: راسودكين وتعني الذكاء

فبادرت بولخيريا ألكسندروفنا تضيف متشجعة:

ـ اسمع يا بيوتر بتروفتش، إنَّكَ ما زلتَ تسيءُ وتفهم روديون، بينما كتبت أنت نفسك في حقه أشياءً غير صحيحة.

ـ لا أذكر أنني كتبتُ عنه أيُّ أمرٍ غير صحيح.

هتف راسكولنيكوف بلهجة لاذعة، حتى دون أن يلتفت إلى لوجين:

ـ كتبتَ أنني وهبت بالأمس مالاً لا لأرملةِ الموظف الذي داستهُ الخيل ـ وهي الحقيقة ـ بل لابنته ( التي لم أكن قد رأيتها قبل الأمس). كتبت هذا لتوقع بيني وبين أهلي، ولتزرع في قلوبنا الغلَّ، والبغض تجاه بعضنا، ومن أجل تحقيق هذا الغرض أضفت غمزات دنيئة تقدح بسلوك فتاة لا تعرفها، فهذا كُلَّهُ ليس فيه إلا النميمة والحقارة.

راح لوجين يرتجف من فرطِ الغيظِ ارتجافاً شديداً وقال:

ـ معذرةً يا سيد، لئن أفضت في الكلام، في رسالتي، عن أعمالك وصفاتك، فإنَّما فعلت هذا تلبية لطلب أُمِك وأُختِك اللتين رجتاني أن أعلمهما عن أحوالك وعن الأثر الذي تحدثه في نفسي، أما رسالتي فإنني أتحداك أن تجد فيها سطراً وأحداً يشتمل على غير الصدق، أي بتعبير آخر أن تبرهن لي على أنَّك لم تبدد مالك، وأن تبرهن على أنَّ تلك الأسرة، أياً كان مدى فقرها ويأسها، ليس بين أفرادها أحدٌ ساقط.

ـ أما أنا فأرى أنَّكَ رغم كل وقارك لا تساوي أصبع تلك الفتاة المسكينة التي ترميها بالحجر...

ـ معنى هذا أنَّك لن تتردد عن جمعها بأُمِك وأُختِك؟

ـ فعلت هذا، إن كنت تحرص على أن تعلم ذلك، أجلستها إلى جانب أمي ودونيا في هذا اليوم نفسه.

صاحت بولخيريا ألكسندروفنا تنادي أبنها:

ـ روديا!

واحمرت دونيتشكا. وقطب رازوميخين حاجبيه، وابتسم لوجين بسمةً مسمومةً فيها احتقار، وقال يخاطب دونيا:

ـ احكمي بنفسك يا آفدوتيارومانوفنا: أمن سبيل إلى تفاهم؟ آمل أن تُحلَّ هذه القضية الآن، وأن توضَّحّ مرَّةً واحدةً إلى الأبد، أما أنا فإنني أنسحب حتى لا أُعكِّرَ عليكم صفو هذا الاجتماع العائلي اللطيف، وحتى تتناقلوا أسراركم بحرية.

قال هذا وهو ينهض ويتناول قبعته. ثُمَّ واصل الكلام:

ـ ولكنِّي أودُّ الآن بأن ألفت نظركم إلى أنني آمل أن لا أُجبَرَ في المستقبل على تحمُّلِ مثل هذه اللقاءات، بل قولوا على قبول مثل هذه الفضائح.

وإليك أنتِ خاصة يابولخيريا ألكسندروفنا المحترمة جداً، إنَّما أتقدَّمُ بهذا الطلب، لا سيما وقد بعثت رسالتي إليك، لا إلى أيِّ شخصٍ آخر.

تكدَّرَت بولخيريا ألكسندروفنا:

ـ أنت تُعِدُّ نفسك سيدنا يا بيوتر بتروفتش؟ لقد شرحتُ لكِ دونيا، مع ذلك، الأسباب التي جعلتنا نرفض رغبتك، كانت نيتها حسنة، ثُمَّ أنَّكَ عندما تكتب لي توجِّه أوامر، فهل يجوز أن نُعِدَّ كلَّ رغباتك حكماً واجبُ التنفيذ؟ إلا أنَّ عكس هذا ما يجب أن يكون، فأنت، أنت من يجب عليه أن يلتزم غاية الرقة واللطف في معاملتنا، لأنَّنا منحناك ثقةً راجحةً فتركنا كلَّ شيءٍ وأتينا إلى هنا، حتى صرنا منذ الآن خاضعتين لمشيئتك، تحت سلطانك.

ـ ليس هذا صحيحاً تماماً يا بولخيريا ألكسندروفنا، لا سيما وأنكم ستقبضون، كما أُبلغتم منذ قليل، مبلغ ثلاثة آلاف روبلٍ تِركةً من مارفابتروفنا في وصيتها. يبدو لي أن هذا المبلغ قد جاءَ في أوانهِ، كما يدلُّ على ذلك ما تصطنعينهُ من لهجةٍ جديدةٍ في مخاطبتي.

أضاف هذا لوجين بصوتٍ خانق.

فردَّت دونيا أيضاً غاضبةً:

ـ في وسعِ المرءِ حقاً، حين يسمع قولك هذا، أن يفترض أنَّكَ كنت تعوِّلُ على عوزنا...

ـ على كل حال، لم يبق في إمكاني الآن أن أعوِّلَ على هذا العوز، وأنا بخاصة لا أودُّ أن أعقد اطلاعكم على العروض السرية التي عرضها أركاردي ايفانوفتش سفيدريجايلوف على أخيكِ، والتي أرى أنَّ لها عندك شأناً كبيراً، لا بل تسرُّكِ كثيراً. هتفت بولخيريا ألكسندروفنا:

ـ آهٍ! يارب؟

وأصبح رازوميخين لا يُطيقُ البقاءَ جالساً على كرسيه.

سأل راسكولنيكوف أختهُ:

ـ ألا تشعرين الآن بالخجل يا أُختي؟

ردَّت دونيا

ـ نعم، أشعرُ بالخجل.

ثُمَّ صاحت وقد شحب وجهها من الغضب بمعنى الكلمة. وندهت:

ـ بيوتر بتروفتش! اذهب من هنا!

لم يكن يبدو على بيوتر بتروفتش أنَّهُ كان يتوقع هذه الخاتمة، لقد أسرف في الاعتزاز بنفسه، وبقوته، وأسرف في الاعتماد على ضعف ضحيته، وهو حتى الآن لا يكادُ يصدِّقُ ما سمعته أُذُناه.

اصفر محياه، وتشنَّجت شفتاه، وقال:

ـ إذا اجتزت الآن هذا الباب يا آفدوتيا رومانوفنا، مودِّعاً بمثل هذه العبارات. اعلمي أنني لن أعود، يجب أن تتأملي هذا، وليس من عادتي أن أتراجع عن أقوالي.

صاحت دونيا تقول وهي تنهض من مكانها بوثبةٍ واحدةٍ:

ـ يا للوقاحة! ألا تعلم أنني لا أريد أن ترجع قط؟

ـ ماذا؟ هكذا إذاً؟

بهذا هتف لوجين الذي لا شكَّ في أنَّه ظلَّ حتى تلك اللحظة لا يتصور أن نهايةً كهذه النهاية ممكنة، فإذا به يفقد السيطرة على وعيه، ويتابع كلامه:

ـ هكذا إذاً؟ ولكن تعلمين أن لي الحقُّ أن أحتج؟

فتدخلت بولخيريا ألكسندروفنا:

ـ ما الذي يسمح لك أن تحتج؟ وأن تخاطبها بهذه اللهجة؟ أتظنُّ أنني أرضى أن أزوج ابنتي رجلاً مثلك؟ هيا اذهب! اتركنا إلى الأبد! إلا إننا نحن الذين أثمنا حين تورطنا في قضية غير شريفة، وأنا الآثمة أكثر من أيِّ شخصٍ آخر...

ـ لكنَّكَ يا بولخيريا ألكسندروفنا، قد ربطتني بالوعد الذي قطعتيه لي، وتتراجعين عنه الآن. ثم...ثم...ثم.... أنني قد جُررت إلى تكبُّدِ نفقات....إن هذا الإدعاء الذي يدعيه بيوتر بتروفتش يبلغ من المطابقة لطبعهِ والاتفاق مع خلقه، إنَّ راسكولنيكوف الذي كان قد شحب لونهُ شحوباً شديداً بسبب غضبه وبسبب الجهود التي كان قد بذلها لكبحِ جماحِ نفسه، لم يُطق عندئذٍ صبراً، فانفجر يقهقه، بصخبٍ معربد.

وخرجت بولخيريا ألكسندروفنا عن طورها، فراحت تصرخ سائلة:

ـ نفقات؟ أيَّةَ نفقات؟ أتراك تقصد نفقات شحن حقيبتها؟ ولكن موظف القطار قد شحنها لكَ بالمجان! ثُمَّ ما هذا الكلام الذي تقوله عن الارتباط؟ أنحن الذين ربطناك إذاً؟ ألا لتتذكَّر أنَّك أنت الذي ربطتنا، بل أنت الذي كبَّلتنا تكبيلاً، كبَّلت أيدينا وأرجلنا....

فتمنت آفدوتيا رومانوفنا على أُمَّها أن تهدأ:

ـ كفى يا أُمَّاه كفى! أرجوكِ!

والتفتت إلى بيوتر بتروفتش:

ـ هلَّا ذهبت، من فضلك، يا هذا!

فردَّ المخاطب وقد فقد السيطرة على نفسه:

ـ أنا ذاهب، غير أن ثمَّة كلمةً أخيرةً أودُّ أن أقولها: يبدو أن أُمَكِ قد نسيت

تماماً أنني قررت أن أتخذَكِ زوجةً حين كانت سمعتك مضغة في جميع الأفواه، وأحسب أنني إذ خالفت رأي الناس ورددت إليك حسن السمعة كان في وسعي أن أنتظر تعويضاً في أقلِّ تقدير، بل وأن أطالب بمكافأة، آه.... كانت عيناي مغمضتين حتى هذه اللحظة! إنني لأراك الآن، إنني تصرفتُ تصرفاً طائشاً حين لم أُقِم أيَّ وزنٍ للشائعاتِ التي كانت تمضغها الألسن عنك.

صرخ رازوميخين وهو يثب عن كرسيه مستعداً للعراك:

- أنَّه يريد أن يهشِّم لهُ رأسهُ!

وقالت دونيا:

- أنت رجلٌ دنيءٌ سافل!

وهتف راسكولنيكوف يقول وهو يصد رازوميخين:

- لا كلمة، ولا حركة!

ثُمَّ اقترب من لوجين، وقال له تحت أنفه بصوت أَجَش، لكنَّه واضح:

- هيا اغرب من هنا! إياك أن تقول كلمة واحدة وإلا....

فتأمله بيوتر بتروفتش بضع لحظاتٍ شاحبَ الوجه، منقبض القسمات من الكره، ثُمَّ استدار وخرج.

قلَّما حمل قلب إنسانٍ من الحقدِ على إنسانٍ مثلما حمل قلب هذا الرجل على راسكولنيكوف من الحقد، لقد عده، وحده مسؤولاً عن كلِّ شيء.

ولكن يجب أن نذكر أنَّه منذُ الآن، في أثناء هبوطه السلَّم، كان ما يزال يتخيَّل أنَّه لم يخسر القضية، وأن الأمور فيما يتعلق بالسيدتين يمكن تدبيرها تدبيراً سعيداً.

# الفصل الثالث

إن النقطة الأساس، هي أن بيوتر بتروفتش كان حتى آخر دقيقة، لا يصدِّقُ أن الأمور ستنتهي إلى هنا. لقد تفاخم، وتجبَّرَ، وتبجَّحَ إلى أبعد الحدود، وكان لا يتصور حتى إمكانيَّةَ أن تستطيعَ امرأتان بائِستان الخروج على طاعته، والتحررَ من سلطانه.

إن غرورهُ، وثقتهُ بنفسهِ، ورضاهُ عن ذاتهِ، وكبرياءهِ، إن هذا كُلَّهُ قد ساهم كثيراً في ترسيخ ذلك الاقتناع لديه.

هو رجل بدأ من الصِّفر، واعتادَ أن يعظِّمَ نفسهُ كثيراً، وأن يقدِّرَ ذكاءهُ وكفاءاتهُ قدراً رفيعاً، حتى لقد كان في بعض الأحيان، لمَّا يستسلم إلى ذاته، يتأمل وجههُ في المرآة ولا يكل، فرحاً جداً، وصبوراً، على أنَّ الشيءَ الذي كان يُحبُّهُ أولاً ويحترمهُ أولاً، إنَّما هو الثروة، والثراء الذي استطاع أن يجنيه بعمله وسبل أخرى، ألم يكن المال يتيح له أن يتعامل تعامل النِّدِّ والنِّدِّ مع أُناسٍ أعلى منه مقاماً وأسمى منزلةً؟

وحين ذكر دونيا، بمرارٍ، أنَّه صمَّمَ أن يتزوجها رغم الوشوشات، المؤسفة الطائرة بين الناس تعلكها، فإنَّما كان صادقاً جداً، بل كان يحسُّ بأعمقِ الاستياء من نكرانها هذا الجميل، على أنَّه حين خطب دونيا كان قانعاً بتفاهة كل تلك الهمسات، التي حرصت مارفا بتروفنا نفسها أن تمنعها على الملأ، والتي لم تعد الألسن في البلدة تتناقلها منذ أمدٍ غير قصي، بعد أن أعاد الناس إلى دونيا احترامها، بل صاروا يعزونها عزَّاً عميقاً، وما كان له على كلِّ حال أن يدَّعي نسيان هذه الأشياء عند الخطبة، وعلى هذا كان يشعر بأنَّه قد جاء على الصبية بفضلٍ جمٍّ حينما رضي أن يرفعها إلى مستواه، حتى لقد كان يمنِّيَ النفس أنَّه رجلُ خيرٍ، وعملهُ جبَّار. وحين زار راسكولنيكوف كان يشعر أنَّه إنسان محسن، ويتوقع أن يقطف ثمرات عمله الماجد، وأن

يسمع من راسكولنيكوف أحلى آيات الثناء، وعبارات الإطراء، لذلك كان بيوتر بتروفتش، في أثناء هبوطه السلَّم، يحسُّ بأنَّه امرؤٌ لم يُعطَ قدرهُ، وفهمه، وهو ذِلٌّ عميق.

أما دونيا فقد صارت ضرورة لا بدَّ منها في حياته. حتى بل أمسى لا يقدر أن يتصور إمكان التراجع عنها. لقد حلم بالزواج منذ مدة طويلة، منذ عدة أحوال، وكان عندماً يحلم بهذا الزواج يثملُ إعجاباً، ويُعِدُّ له كل ما يحب حتى جني المال. كان يتخيَّل، في أعماقه، فتاة فاضلة فقيرة (بالضرورة فقيرة)، في تفتُّحِ الورود، ونضارةِ الشباب، على جانب راجح من الكياسة والأنوثة، من أسرةٍ كريمة، نعمت بتربية طيِّبةَ، لكنَّها وَجِلة مَهيبة من ملمَّاتٍ عديدة مضتها كثيراً، فلا بُدَّ من أن تَخضعَ لهُ أحلى خضوع وطاعة، ولإرادته تذعن، وأن ترى فيه أبداً الرجل الذي كرم وأنعم، فليقعد في أعلى المراتب والرُتَب، ويعطى الكائن المخلص، وهو الوحيد في هذا المقام والدار، ما أكثر المناظر الرائعة، والصور اللذيذة التي تراءت لخياله حول هذا الموضوع الممتع، في اللحظات التي تهدأُ فيها روحَهُ، ويلجأُ إلى الراحة في عمل الأيام المتعبة. ها قد دنا هذا الحلم الذي آنسهُ طويلاً يملأُ دنياه، إن جمال آفدوتيا رومانوفنا وكياسة تصرفها قد أذهلاه، وإن حضَّها المضطرب البائس يدفعانها إليه ويشدانِهِ إليها شدَّاً، بل إن فيها كل ما يأمل ويفوق ما يحسب: الفتاة كُلَّها شَمَمٌ وفَخار، ونشاطٍ وعفةٍ فاضلة، وهي أوسع منه ثقافة وعلماً (هو ألمَّ بهذا)، وهذا المخلوقُ الرائع وحدهُ وذاتهُ هو من سيُملي عليهِ كلَّ ثواني الحياة، والمحافظة على حُسنِ الامتنان وعاطفة الشكران، والتي ستذوب أمامه احتراماً وإكرماً، فلا ليس له سوى أن يَأمُرُ فَيطاع! وقد شاءت الصُدَف كما العمد والقصد، أن يقرر صاحبنا، قبيل لقياها، وبعد أرجاءاتٍ عديدةٍ، أن يُغيِّرَ ميدان عمله وأن يقتحمَ مجالاً أوسعَ وأمرحَ، إلى ذلك المجتمع المخمليِّ الذي كثيراً ما شدَّهُ إليه خياله.

كان عريسنا العتيد هذا قد قررَ أن يختبر ما ادخرَ لهُ في بطرسبورغ، وهو يعلم

"عظمة دور" النساء في هذا المضمار، وقطوفهنَّ الثرة الممراح. فالسحر الذي يرشح من سيدة فاضلة، متمتِّعة، مثقفة، يمكن أن تُجمِّلَ حياتهُ، وأن تجذب إليه ودَّ الناس، وأن تحيطه بالمهابة.

إنَّما ها هو كلُّ شيءٍ ينهارُ الآن دفعةً واحدة! لقد نزلت به هذا البتر المباغت المقيت نزول الصاعقة، هذه مهزلةٌ مُنكرة، هذا عجبٌ عِجاب! أنَّه لم يزد على أن ينجح قليلاً، لم يتسع وقته لأن يقول كل ما في نفسه، كان يمرح، اندفع بيُسرٍ وحداءٍ ... فكيف يؤول الأمر إلى هذا المآلِ الخطير؟! حتى لقد كان يُحِبُّ دونيا بطريقتهِ وأسلوبهِ الخاصَّين، ويتسلط على روحها في أحلامه.... لا، لا، يجب إصلاحَ كُلَّ شيءٍ غداً، غداً.... لا بُدَّ من التعامل مع الوضعِ الفاجعِ، لا بُدَّ من تصحيحهِ، وهدمِ أعمالِ ذلك الغرِّ الدنيءِ الذي هو سببُ بلائهِ.

تذكَّرَ رازوميخين وهو يَشعُرُ بالضيقِ والمقتِ أيضاً، لكنَّهُ ما عتم أن أسرع يطمئِنُّ ذاته من هذه الناحية، قال يحدِّثُ نَفسَهُ بسخرية: " لا يَنقَصُني سوى هذا.... سوى أن أوازن بيني وبينه، وأن أضعَ نفسي في مستواه!"

إن الخصم الذي كان لوجين يخشاهُ حقَّاً إنَّما هو سفيدريجايلوف.... الخلاصة، إن هموماً جمَّة تنتظرهُ.

قالت دونيا وهي تعانق أُمَّها، وتُقبِّلَها:

ـ لا بل أنا المذنبة، أنا المخطئة! فقد استسلمت لإغراء مالهِ، لكني أقسم لك يا أخي أنني لم أكن أتخيلهُ رجلاً دنيئاً إلى هذا الحدِّ من التفاهة، ولو أنني كشفت حقيقتهُ من قبل لما تعاطيت برنين ذهبه! لا تتهمني يا أخي! تمتمت بولخيريا ألكسندروفنا دونما شعور منها، كَمَن لم يُدرك ما جرى:

ـ الله خلصنا منه! إن الله أنقذنا من مخالبهِ!

وكانوا جميعاً مبتهجين مغتبطين، لا بل انطلقوا بعد خمسِ دقائق يهرجون. غير أن دونيا كان لونها يشحب من حين إلى آخر، وكانت تقطب حاجبيها حين تتذكر ما عانت في هذه البرهة السالفة، ما كان لبولخيريا

ألكسندروفنا أن تظنَّ في يومٍ أنَّها قد تفرح لما حدث.

كانت في ذلك الصباح نفسه ما تزال تتصور أن الصرم البات مع لوجين، شقاء كبير، ومصيبةٌ أليمة كبرى.

أما رازوميخين فكان يشعرُ بسعادةٍ قصوى، إنَّه لا يجرؤُ بعد أن يبدي فرحته كما هي، ولكنَّه كان يرتعشُ من قمَّةِ رأسهِ إلى أسفلِ قدميهِ، كمن انتابتهُ حُمَّى، لكأنَّ قلبَهُ قد تخلَّصَ من عبءٍ ضخمٍ، وحملٍ ثقيلٍ، سيكون في وسعه بعد اليوم أن يقف عليهما حياتَهُ، وأن يضع نفسه في خدمتها، وما أَكثرَ ما يستطيع أن يفعل منذ الآن! على أن رازوميخين كان يطرُدُ من ذهنهِ مشاريع المستقبل خائفاً من خيالهِ.

راسكولنيكوف وحدهُ بقي قاعداً في مكانهِ مُتَجهم الوجهِ تقريباً، حتى ليكاد يكونُ مذهولاً شاردَ الفكر، إنَّه وهو الذي ألحَّ أكثرَ منهم جميعاً على أن يطرد لوجين، يبدو الآن أقلَّهم اهتماماً بما جرى، وقدَّرَت دونيا، رغم إرادتها، أنَّهُ ما يزال يؤاخذها ويكرهها، وكانت بولخيريا ألكسندروفنا تتأملهُ خائفةً وجلة، سألته دونيا وهي تقترب منهُ:

ـ ماذا قال لك سفيدريجايلوف؟

فصاحت بولخيريا ألكسندروفنا:

ـ آ....نعم....نعم....ماذا....

فرفع راسكولنيكوف رأسهُ:

ـ إنَّهُ يُصِرُّ على أن يراكِ مرةً أخرى بحضوري.

هتفت بولخيريا ألكسندروفنا:

ـ أن يراها؟ مُحال!.... لا يمكن أن يتم هذا أبداً! وكيف يجرؤ أن يقدِّم لها مالاً؟!

عندئذٍ روى راسكولنيكوف (بما يكفي من الجفاء) ما جرى بينهُ وبين سفيدريجايلوف من حديث، وقد أغفل ما قصَّهُ عليه سفيدريجايلوف من أنَّ

مارفا بتروفنا قد ظهرت لهُ بعد موتها، وذلك حتى لا يبتعد عن الموضوع، و لاشمئزازهِ من قول أيَّةِ كلمةٍ زائدة.

سألتهُ دونيا:

ـ بماذا أجبت؟

قلت له أولاً أني لن أذكر لكَ كلمةً واحدةً عن طلبه، فأعلن لي عندئذٍ أنَّه سيعمل بجميع السُبُل ليحصل منكِ على موعد، وقد أكَّدَ لي إن العاطفة الجامحة التي كان يشعرُ بها نحوكِ لم تكن إلا نزوة طارئة سطحية، وأنَّه أصبح الآن لا يشعرُ نحوكِ بأَيَّةِ عاطفة، كل ما يريدهُ هو ألَّا تتزوجي لوجين. على أن أقواله كلَّها كانت غامضة، مضطربة، مبهمة.

ـ ما رأيك بهذا الرجل يا روديا؟ ما الانطباع الذي تركهُ في نفسك؟

ـ أعترف أني لم أفهمهُ حقَّ الفهم. هو يقدِّم عشرةَ آلافِ روبل، ثُمَّ هو يزعم أنَّه ليس غنياً، ويصرح أنَّه سيسافرُ إلى مكانٍ لا أدري أين هو، ثُمَّ يبدو بعد عشرة دقائق كمن نسي ما قال، وفجأةً يذكر أيضاً أنَّه سيتزوج، وأنَّهم قد وجدوا له خطيبة.... أغلب الظنِّ أنَّهُ يخفي خططاً معينة قد تكونُ سوداء، إنَّما لا محلَّ لأن نفترض أنَّه يبيِّتُ لكِ طويَّاتٍ سيئة، وإلا ما عمد إلى أسلوبٍ يبلغُ كلَّ هذهِ الحماقة، ولقد تكلَّمتُ باسمكِ، فرفضتُ ما عرض من مالٍ رفضاً باتاً بطبيعة الحال.

مهما يكن من أمر، فقد بدا ليَ إنساناً غريبُ الأطوار....لا بل رأيتُ فيهِ أعراض جنون. ولكن رُبَّما كُنتُ مُخطئاً. وقد يكونُ في ذلك كلُّهُ حيلةً ما....على أن موت مارفا بتروفنا لا بُدَّ أن يكون خلَّفَ في نفسهِ أثراً كبيراً.

ـ رحمة الله عليها! لسوف أظلُّ أصلي لها دائماً وأبداً، ما الذي كان يمكن أن نصير إليه، أنا ودونيا، لولا الثلاثة آلاف روبل؟ ربَّاه! لقد هبطت عليَّنا هذهِ الأموال من السماء! آهٍ يا روديا! في هذا الصباح كان كلُّ ما بقي لدينا من مالٍ هو ثلاثةُ روبلاتٍ، ولم يكن قد بقي عليَّنا إلا أن نرهن ساعة دونيا بأقصى

سرعة، حتى لا نطلب مالاً من هذا الرجل قبل أن يخطر بباله أن يعرضه علينا.
بدا على دونيا أنَّ عرض سفيدريجايلوف قد أدهشها وأذهلها. بقيت واقفة، ساكنة، مفكِّرة.
قالت وهي لا تكادُ تَهمِسُ مُرتعشة:
- إن في ذهنه أمراً رهيباً!
ولاحظ راسكولنيكوف هذا الرُّعبَ الشديد، فقال لدونيا:
- أظنُّ أنَّه سَيُتاحُ لي أن ألقاهُ أكثرَ من مرَّة.
وهتف رازوميخين بلهجةٍ قويةٍ:
لا تخافوا سوفَ نُراقِبُهُ بتؤدةٍ وحزم، سأراقبهُ أنا! لن يغيب عن بصري. لقد أَذِنَ ليَ روديا بذلك. قال ليَ هو نفسهُ منذُ قليل: "علينا أن نحمي دونيا". هل تأذنين لي بهذا أنتِ أيضاً يا أفدوتيا رومانوفنا؟
ابتسمت دونيا، ومدَّت لهُ يدها، ولكنَّ وجهها حافظ على تعبيرهِ عن الهمِّ والقلقِ. وكانت بولخيريا ألكسندروفنا تنظر إليها وَجِلةَ ملوَّعة، غيرَ أنَّ الأمل في الحصول على الثلاثةِ الآلافِ روبل كان قد هدَّأَ روعها وطمأنَ نفسها.
وبعد ربعِ ساعةٍ كانوا قد انهمكوا في حديثٍ حامٍ. وحتى راسكولنيكوف، الذي لَزِمَ الصمت، كان يصغي بعض الوقت بانتباه. كان رازوميخين يتكلَّمُ بإسهابٍ وحرارة كأنَّهُ يلقي خطاباً:
- لماذا، لماذا تسافران؟ ما عسى تعملان في مدينتكم الصغيرة الكريهة تلك؟ أنتم هنا قد اجتمع شملكم، وكلُّ واحدٍ منكم بحاجةٍ إلى الآخرين، أشدُّ الحاجة، افهموني! ابقيا بعض الوقت على الأقل، أما أنا فاقبلوني صديقاً، شريكاً. وأنا أُؤَكِّدُ لَكُم أنَّنا سنشيدُ مشروعاً ممتازاً. اسمعوا، سأعرض عليَّكم مشروعي بِأَدَقِّ تَفصيلاتهِ، لقد جاءَتني هذهِ الفكرة منذُ الصباحِ الباكرِ، قبل أن يَحدُثَ شيءٌ ممَّا حَدَث الآن....إليكم الموضوع: إنَّ لي عماً (سأُعرِّفَكُم بهِ، هو شيخٌ لطيفٌ جداً، ومحترمٌ جداً).... وهذا العمُّ يملك رأسَ

مالٍ قدرهُ ألفَ روبلٍ، ويعيشُ من راتبٍ تقاعديٍّ يفي بحاجاتهِ، وهـو مـا بَـرِحَ منـذُ سنتين يُلِحُّ عليَّ أن أستدين منه هذا المبلغ بفائدةٍ قدرها 6٪، أنـا أُدرِكُ حيلتـه: لا يريد سوى مساعدتي.

في العـام الفائـتِ لم أكـن محتاجـاً إلى هـذا المبلـغ، وفي هـذا العـام لم انتظـر إلا وصول عمـي لأطلبـه منـه، فـإذا أضفتم ألـف روبـل مـن عنـدكم إلى هـذه الألـف كان معنا ما يكفينا لبدء المشروع، فنكون شركاء، فما هو ذاك المشروع؟

هنا طَفَقَ رازوميخين يشرحُ مشروعهُ، أفاض في الكلام على أنَّ جميع أصحاب المكتبـات، ودور النشـر عنـدنا، أُنـاسٌ يجهلـونَ مهنـتهم، والوضـع العـام لهـذا السـبب مؤسـفٌ جـدًّاً، وأكَّـدَ أن المنشـورات الجيِّـدة تبـاعُ بسـهولة، وربَّمـا درَّت أرباحاً طائلة. كان رازوميخين يَحلُمُ أن يُصبِحَ ناشراً، منذُ أن بدأَ يعمل لحساب غـيره منـذ سـنتين، وذلـكَ بفضـل معرفتـهِ لـثلاثِ لغـاتٍ أجانبيـة (رغـم أنَّـه أبلـغ راسكولنيكوف قبل ستة أيام أنَّه "schwch"[1] في الألمانيَّة، والحقُّ أنَّه لم يبلغـهُ هـذا إلا ليشـجعهُ علـى أنَّ ترجمـةَ نصـف مـا كـان هـو يزمـع أن يترجمـه، وعلـى أن يأخـذ الـثلاث روبـلات سـلفاً، لقـد كـذب، ولم يُطِـل كَذِبـهُ علـى راسكولنيكوف).

وتابع رازوميخين كلامَهُ بحرارةٍ فائقة:

ـ فلماذا، نعم لماذا ندع الفرصة تفوتنـا مـع أنَّنـا نملك خير وسيلةً للنجـاح، أعـني رأس المال؟ صحيحٌ أنَّه سيكونُ علينـا أن نعمـلَ كـثيراً، ولكننـا سـوف نعمـل، تعملـين أنـت يـا آفـدوتيا رومانوفنـا ويعمـلُ روديـون وأعمـلُ أنـا!! إنَّ نَشـرَ بعـض الكتب يدرُّ أرباحاً طيبة، وإنَّ ما سيعيننا وما سيكونُ مصدرَ قوتنـا، هـو أنَّنـا سَنُحسِنُ اختيـارَ الكتـب الـتي يجـب أن تترجـم، إنـني أسـتطيع أن أكـون الآن نافعاً، لأنِّي حصلتُ على خبرةٍ واسعة.

1 - في الألمانية، بالأصل ضعيف

لقد سَلَختُ سنتين كاملتين في العمل مع الناشرين، فأصبحتُ أَعرفُ شؤون النشر معرفةً تامةً، صدقوني إذا قلتُ لكم إن الأمر أيسرَ مما تظنون، فلماذا، لماذا لا ننتهز الفرصة التي تُعرض علينا؟ أنا أعرف كتابين أو ثلاثةَ كتبٍ لم أُحدِّثَ عنها أحداً قط، ويكفي أن أعرِضَ فكرةً نرها، حتى أَجنيَ من ذلك مائة روبل عن كلِّ كتاب، بل هنالك كتابٌ آخرَ لا أبيعُ فكرةَ ترجمتهِ حتى بخمسمائةِ روبل! ولا يمكن أن يتردد هؤلاء الناشرون الحمقى أيَّ ترددٍ إذا أنا ذكرتُ لَهُم أسماءَ تلك الكتب! أما الجانب المادي من المشروع، أعني الطباعة، والورق، والبيع، وما إلى ذلك..... فإنكم تستطيعون أن تعتمدوا عليَّ فيه كل الاعتماد، إنني أعرف هذه الأمور معرفةً عميقةً، وسوف نبدأُ بدايةً متواضعةً، ولكنَّنا سوفَ نوسِّعُ المشروعَ في المستقبل، ومهما يكن من أمرٍ فسوفَ نجني ما يسدُّ حاجاتنا ويفي بنفقاتنا.

كانتا عينا دونيا تسطعانِ لما قالت:

ــ إنَّ ما تقولهُ يعجبني كثيراً يا دمتري بتروفتش! وتدخَّلت بولخيريا ألكسندروفنا:

ـ أنا لا أفهم بهذه الأمور شيئاً بطبيعة الحال، قد يكون هذا كُلَّهُ حسناً جداً، الله أعلم.... ولكن.... من جهةٍ أخرى.... طبعاً.... حتى يشرع المرء في شيء ما. يسير قليلاً في المجهول!.... على كلٍّ سيكونُ علينا حتماً أن نظلَّ هنا لبعض الوقت.

ـ ورمقت راسكولنيكوف.

سألته دونيا

ـ ما رأيُكَ أنتَ يا أخي؟

أجابَ:

ـ فكرتهُ ممتازة، إنَّما علينا أن نفكِّرَ في إقامةِ دارِ نشرٍ كبيرة. وعلينا أن نكتفي بأن ننشر في البداية خمسةَ أو ستةَ كُتُبٍ مضمونةِ النجاح، أنا نفسي

أعرف كتاباً سيباعُ حتماً. أما عن كفاءةِ رازوميخين، اطمئنوا. لسوف يعرف كيف يضمن لمشروعهِ النجاح.
على كل حال، سيتسعُ وقتنا للكلامِ في هذا الموضوع مرَّةً أخرى.
هتف رازوميخين:
ـ مرحى! والآن اسمعوا: يوجد هنا، في هذا المنزلِ نفسهُ، شقةً صغيرةً يؤجِّرُها أصحابها الذين أجروكم هذهِ الغرفة، شقَّةٌ مستقلةً لا تتصل بباقي الغرف، مفروشةٌ، متواضعةُ الأجر، مؤلفة من ثلاثِ غرف، إيجارٌ وَقتي، سأمضي أرهن ساعتك غداً، أجيئكم بالمال، ثُمَّ يُدَبَّرُ كُلَّ شيءٍ، الأمر الأساس هو أن تستطيعا أن تعيشا كلتاكما هنا، ومعكما روديا.... ولكن إلى أين أنت ذاهب يا روديا؟
سالت بولخيريا ألكسندروفنا ابنها مروَّعة:
ـ كيف يا روديا؟ أذاهب أنت؟
وصاح رازوميخين يسأله مستنكِراً: أفي مثل هذهِ اللحظةِ تذهب؟
وكانت دونيا تنظر إلى أخيها بدهشةٍ تُمازجها ريبة.
كان راسكولنيكوف آخذاً قبعتهُ استعداداً للخروج، وقال بلهجةٍ غريبةٍ:
ـ لكأنَّكم تدفنوني، أو لكأنَّكم تودعوني إلى الأبد على الأقل.
وكان يبتسم، لكنَّ بَسمتهُ لا تُشبِهُ الابتسام في شيءٍ، وأضاف:
ـ ومن يدري؟ لعلَّنا نلتقي الآن آخرَ مرَّةً فعلاً!
كان راسكولنيكوف قد تصوَّرَ هذه الفكرة مع نفسه، فإذا بها تخرج من فيه تلقائياً دونما رغبة.
صاحت بولخيريا ألكسندروفنا:
ـ ماذا أصابكَ يا روديا؟
أجابَ متهرباً كأنَّهُ غيرُ واثقٍ بما يريد أن يقول:
ـ نعم، لا بدَّ من ذهابي.

غير أن قراراً وحشياً كان يُقرأُ في وجههِ الشاحب وتابع:

ـ أقصد.... حين جِئتُ إلى هنا.... كنتُ أُريدُ أن أقولَ لكِ يا أُمَّاه، ولكِ أنتِ أيضاً يا دونيا، إن من الأفضل لنا أن نفترق بعض الوقت. أنا أحسُّ أنني مريض، أنا لست هادئَ البال، سأرجع في المستقبل، سوف أجيء بنفسي، حين....حين....يَفسحُ ليَ المجال، لن أنساكم، سأظلُّ أحبكم....دعوني، دعوني وحيداً! ذلك ما كنت قد قَررتُهُ، واعياً كُلَّ الوعي، مدركاً كُلَّ الإدراك!....أُريدُ أن أكون وحدي مهما يحدث لي، سواء أَهلكتُ أم لم أهلك! انسوني مؤقتاً، ذلك أفضل....لا تسألوا عني، لا تستطلعوا أخباري، سوف أجيءُ من تلقاءِ نفسي متى وجبَ أن أجيءُ....أو سوفَ أدعوكم إليَّ. ولعلَّ كُلُّ شيءٍ سَيُبعَثُ جديداً حينئذٍ. أما الآن فاعدلوا عن رؤيتي وتنازلوا عن لقائي إن كنتم تحبوني، وإلَّا شعرتُ نَحوكم بكرهٍ وبغض، إنني أحسُّ بهذا....وداعاً!

هتفت بولخيريا ألكسندروفنا:

ـ ربَّاه! يارب!

كانت الأم والأخت مروعتين بشكل لا سبيل لمغالبته وكذلك كان رازوميخين.

وتوسلت الأم إلى ابنها:

ـ روديا، روديا! فلنتصالح روديا! فلنعد كما كُنَّا! استدارَ راسكولنيكوف ببطء، اتجه نحو الباب، أدركته دونيا، وهمست له مشتعلة العينين استياءً واستنكاراً:

ـ أخي، لمن تترك الوالدة الشقية!

ألقى عليها نظرةً ثقيلة، وتمتمَ بصوتٍ خافتٍ، كَمَن لا يعي ما أرادَ أن يقول وعياً تامَّاً:

ـ ليس الوضع سيِّئاً كما تتوهمين، سأعود، وأزوركم....

وخرج.

هتفت دونيا:

- إنسانٌ من دون إحساس! أنانيٌّ مَقيت!

بل مجنونٌ هو، فَقَدَ عَقلُهُ، كيف لا ترين هذا؟ أنت الخالية من الإحساس.

هذا ما ردَّ بهِ رازوميخين همساً في أُذُنِ الصبيَّة وهو يضغط يدها بعنف، ثُمَّ هتف لبولخيريا ألكسندروفنا التي أصبحت أقرب إلى الموت منها إلى الحياة:

- سأرجع في الحال! - وعجَّلَ بالخروج من الغرفة.

كان راسكولنيكوف ينتظره في آخر الدهليز وَهَمَسَ:

- كنت أعرفُ أنَّكَ ستلحقني فوراً، عُد إليهما، ابق معهما، وكن عندهما غداً....

وأبداً....قد أرجعُ إذا قدرت....وداعاً!

وابتعد دون أن يَمُدَّ لهُ يَدَهُ مُصافحاً.

غمغم رازوميخين مرتبكاً أشدَّ الارتباك، حائراً أبلغَ الحيرة:

- ولكن إلى أين تذهب! ماذا بك؟ ما أصابك؟ فتوقف راسكولنيكوف مرَّةً أخرى.

- أقول لكَ مرَّةً أخيرة إلى الأبد: لا تسلني عن شيء، فليس عندي ما أُجيب....ولا تأتي! قد أَرجعُ إلى هنا....اتركني....أمَّا هُما....لا تتركهما....أتفهم؟

كان الظلامُ يلفُّ الدهليز، وكان الشابَّان قريبان من مصباح، ظلَّا قُرابةَ دقيقة ينظر كلٌّ منهما إلى صاحبهِ صامتاً، سوف يتذكَّرُ راسكولنيكوف هذه الدقيقة ما عاش، فالنظرةُ الدافئة المركَّزة الصادرة من عيني راسكولنيكوف كان يبدو أنَّها تزدادُ عُنفاً وعُمقاً في كُلِّ لحظة، وكانت تَنفُذُ إلى أعماقِ أعماقِ رازوميخين، وتغوصُ في قرارةِ وجدانهِ. ارتَعَشَ رازوميخين فجأةً، كأنَّ شيئاً غريباً قد مرَّ بينهما.... كأنَّ فِكرةً تتسلَّلُ خفيَّةً، تندسُّ خلسةً، ولكنَّها فظيعةً، رهيبةً، جهنميةً، سرعان ما فهمها هذا وذاك!....اصفرَّ محيا رازوميخين اصفرار الموت!

قال راسكولنيكوف فجأةً، وقد تقلَّصَ وجهه وانقبض انقباضاً أليماً:

- أفهمت الآن؟

وأضاف:

- ارجع إلى هنا، عُد إليهما.

قال هذا ثُمَّ استدار بحركةٍ عنيفةٍ، ومضى....

لَن أَصِفَ ما جرى في ذلك المساء عند بولخيريا ألكسندروفنا. لن أصف ما جرى، كيف رَجِعَ رازوميخين إلى المرأتين، كيف هدَّأَ روعهما، كيف أكَّدَ لهما أنَّ الضرورةَ تقتضينا ترك روديا للراحة والاستجمام بعد المرض، وكيف أقسم أنَّ روديا سيرجع لا محالة، وأنَّه سيأتي ليزورهما، بل وأنَّه سيجيء إليهما كُلَّ يومٍ، وإنَّما يجب أن لا ينزعج الآن، لأنَّه في حالةٍ عصبيةٍ شديدة، وأنَّه هو رازوميخين، سيمضي إليه، ليسهر عليه، ويعتني به، ويجيئُهُ بطبيبٍ نطاسي، أحسن طبيبٍ في المدينة، بل بعدد من الأطباء يفحصونهُ بدقَّةٍ وفي آن .

الخلاصة أن رازوميخين قد أصبح للمرأتين، منذُ ذلك المساء أبناً وأخاً.

# الفصل الرابع

اتَّجَهَ راسكولنيكوف رأساً نحو المنزل الذي تسكنه سونيا قرب القناة. هو منزل من طابقين، قديمٌ مطليٌّ بلونٍ أخضر.

استطاع أن يعثر على البوَّاب، وأن يحصل منه على معلوماتٍ موجزةٍ غيرَ واضحة أتاحت له مع ذلك أن يصل على مسكن الخياط كابرناؤوموف.

لمح في رُكنٍ من الفناء مدخل سُلَّمٍ ضيِّقٍ مُظلم، فصعد أخيراً إلى الطابق الأول، ودخل الرواق الذي يدور حوله، وفيما هو يطوف في الظلام متسائلاً أين عسى أن يكون باب كابرناؤوموف، فُتِحَ بِغتَةً بابٌ على مسافةِ ثلاثِ خطواتِ منهُ، متشبث بهذا الباب على غير إرادة منه.

- من هنا؟ سأل صوتُ امرأةٍ مضطرب.

أجابَ راسكولنيكوف:

- هذا....هذا أنا....جئتُ لأراكِ!

واجتاز الباب إلى حجرة المدخل، كان في الحجرةِ كرسيٌّ خاسِفٌ وُضِعَت عليه شمعةٌ صغيرةٌ في شمعدانٍ مصنوعٍ من نحاس.

هتفت سونيا بصوتٍ ضعيف:

- أهذا أنت ؟ ربَّاه!

ووقفت في مكانها كمن ثُبِّتَ بمسمار.

من أين الدخول إلى غُرفتك؟ من هنا؟

ألقى عليها راسكولنيكوف هذا السؤال، ثُمَّ مضى ينتقل إلى الغرفةِ محاولاً أن لا ينظر إلى سونيا.

تَبِعَتهُ سونيا بالشمعةِ بعدَ دقيقة، وضعتها في مكانها، ووقفت أمامهُ مضطربةً جداً لهذه الزيارة غير المتوقعة.

كان الاضطرابُ الذي اجتاح نفسها، واستولى عليها، كان اضطراباً لا

يُمكِنُ وَصفَهُ.

احمر وجهها الشاحبُ فجأةً، بل صعدت الدموع إلى عينيها، كانت تشعرُ بخجلٍ، وخزيٍّ، وسعادةٍ في آن....

تحوَّلَ راسكولنيكوف عنها بسرعة، وجلس على كرسيٍّ موضوعٍ قُرب النافذة، لقد تسنَّى لهُ بنظرةٍ واحدةٍ أن يتقصَّى الغرفةَ كُلَّها.

كانت غرفةً واسعةً بكفايةٍ، لكنَّ سقفها منخفضاً جداً. وهيَ الغرفةُ الوحيدة التي أجرها كابرناؤوموف. وهي تتصلُ بمسكنهِ ببابٍ في الجدار الأيسر. وعلى الجهةِ اليُمنى، غُرِسَ في الجدارِ بابٌ آخرُ، يظلُّ مُزلَّجاً بالقُفلِ دائماً، لها شكلٌ مضلَّعٌ رباعيٌّ غيرَ مُنتظم، فمنظرها لهذا السبب يؤذي البصر، إنَّ حائطاً ذا نوافذَ ثلاثٍ تطلُّ على القناة، يقطعها قطعاً مواربا، فإحدى الزوايا، وهي زاويةٌ حادةٌ جدًّاً، تغورُ في آخر الغرفة، فليس للمرء أن يميِّزَ هناك شيئاً في ضوء الشمعة الضئيل الضعيف. أما الزاوية الأخرى فهي منفرجة إلى درجةٍ فظيعةٍ، وتكادُ الغرفة تكون من دون أثاث. هناك سريرٌ في الرُكن الأيمن، وإلى جانب السرير كُرسيٌّ أقربُ إلى الباب، وعلى طول الحائط نفسه، قبالة الباب المؤدي إلى الشقة الثانية، ومائدة من خشبٍ أبيض، يغطيها غطاءٌ رخيصٌ أزرق، وبقربها كرسيان من قشٍّ. وفي حذاء الحائط المقابل، على مقربة من الزاويةِ الحادَّةِ، تقبعُ منضدةً صغيرةً غيرَ مدهونة، وكأنَّها تائهةٌ في الفضاء. ذلك كلُّ ما تضمنتهُ الغرفة. أمَّا ورقُ الجُدرانِ، فأصفرٌ، مُهترئٌ، مدخَّنٌ أسود في الأركان. لا بُدَّ أن يكونّ جوَّ الغرفةِ رطباً جدًّاً، وخانقاً في الشتاء، إنَّ الفَقرَ يخطِفُ البَصر، حتى أنَّ السرير لم يكن له ستارة.

كانت سونيا تنظر صامتةً إلى زائرها الذي كان يتفحَّصُ الغرفةَ بانتباهٍ يبلغ من الشدَّةِ، وبهدوءٍ يبلغُ من القوَّةِ، أنَّها أخذت ترتَعدُ رُعباً آخرَ الأمر، كمن يقفُ أمامَ قاضٍ سيتوقَّفُ على حكمهِ مصيرُها كُلُّهُ.

قال لها دون أن يرفع عينيه:

ـ إنني أصل في ساعةٍ متأخرةٍ جدّاً.... أليست هي الحادية عشرة؟
تمتمت سونيا:
ـ نعم.
ثُمَّ أسرعت تُضيفُ، كأنَّ ذلك خروجاً لها من المأزق:
ـ نعم نعم، هي الحادية عشرة.... منذ قليلٍ دقت ساعة أصحاب البيت، سمعتها بأُذُنيَّ هاتين.... هي الحادية عشرة فعلاً....
ردَّ راسكولنيكوف متجهم السِّحنة:
ـ أجيء إليك اليوم لآخر مرة، مع أنَّ هذه هي المرَّةَ الأولى، وقد لا أراك بعد الآن قط!!
سأَلَتهُ:
ـ أأنتَ....مسافر؟
ـ لا أدري.... سيقررُ كلَّ شيءٍ غداً.
ـ إذاً لن تذهب غداً إلى كاترينا إيفانوفنا؟
وصاح صوتُ سونيا يختلج.
ـ لا أدري....كلُّ شيءٍ رُهِنَ بالغد....بصباحِ الغد. ثُمَّ إن المسألة ليست هذه: لقد قَدِمتُ لأقولَ لك عن....
ورفع إليها نظرة حالمة، فأدركَ فجأةً أنَّهُ جالسٌ، على حين أنَّها هي ما تزال واقفةٌ أمامهُ.
وقال بصوتٍ تبدَّلَ بغتةً، فأصبحَ متضمناً عذوبةً ورقة:
ـ لماذا ما تزالين واقفة؟ اقعدي.
قعدت، وراحَ يتأملها هنيهةً، وبمحبةٍ، وولهٍ، وعاطفةٍ، كما الشفقة أو الحنو ثُمَّ ردَّدَ ثانيةً:
ـ ما أشدَّ نحولكِ! ما هذه اليد؟ تكاد تكون من هزالها شفَّافَةَ! أصابعك أصابع ميِّت....

أجابت.

ـ هكذا أنا أبداً.

ـ حتى حينَ كنت تقيمين مع أهلك؟

ـ نعم.

ـ نعم نعم....هذا طبيعي.

قال هذا بلهجةٍ متقطعةٍ، كان تعبير وجههُ، ونبرةَ صوتهِ قد تبدلا من جديد فجأة، وتملّى مرَّةً ثانية حوله.

ـ أمن أسرة كابرناؤموف استأجرتِ بيتكِ هذا؟

ـ نعم.

ـ هل هم يقطنون وراء هذا البيت؟

ـ نعم....لهم غرفةٌ كغرفتي.

ـ أيعيشون كُلُّهم في غرفةٍ واحدة؟

ـ نعم، في غرفةٍ واحدة.

وتجهَّمَ مُحيا راسكولنيكوف ثانيةً، قال:

ـ لو كنت أعيش هنا لشعرت في الليل بخوف.

رَدَّت سونيا، وكأنَّها لم تعد إلى ردها بعد، ولا جمعت شتات أفكارها:

أ.. أصحابُ البيتِ لطفاءُ جدَّاً، وجميع الأثاث، جميع الأثاث وكلُّ شيءٍ لهم هم. أنَّهم طيبون جداً، وكثيراً ما يأتي أولادهم إليَّ.

ـ هم تأتاؤون، أليس كذلك؟

ـ نعم....هوَ يتأتئ ويعرج، وامرأتهُ أيضاً، بل قُل أنَّها لا تُتأتئ، إنَّما بَعضُ الكلمات لا تريد أن تخرج من فمها. أنَّها طيِّبةٌ جداً. كان هو موقناً. ولهما أولاد، الابن الأكبر فقط يتأتئ....أما الآخرون فهم عليلونَ فَحسب.... لكنَّهم لا يتأتئون.

ثُمَّ أضافت تسألهُ بدهشةٍ بسيطةٍ:

ـ كيف قدَّرتِ أنتِ هذا؟

ـ أبوكِ قصَّ عليَّ كلَّ شيء، قال لي كلَّ شيءٍ عنك...وحكى ليَ أيضاً كيف خرجتِ في الساعةِ السادسةِ صباحاً لتعودي بعد الثَّامنة مساءً، وكيف ركعت كاترينا إيفانوفنا أمام سريرك.

تشوَّشَت سونيا، ودمدمت وبتردد:

ـ رأيتهُ اليومَ رؤيةً واضحةً مميَّزة.

ـ من؟

ـ أبي. كنت أعبُرُ الشَّارع، قريباً من هنا، عند الناصية، في العاشرة تقريباً، فتراءى لي أنَّه يسيرُ أمامي. لكأنَّه هو حقاً، حتى لقد خطر ببالي أن أُسرع إلى كاترينا إيفانوفنا....

ـ كُنتِ تتجولين؟

أردفت بصوتٍ متقطع، وقد اضطربت من جديد، وخَفَضت عينيها:

ـ نعم.

ـ هل كانت كاترينا إيفانوفنا تُسئ معاملتك حتى ربَّما ضربتك لمَّا كنت معهم؟

هتفت وهي ترمق راسكولنيكوف نظرةً فيها نوعٌ من الذُّعر:

ـ لا، لا، ما هذا الذي تقول؟

ـ أتحبينها إذاً؟

ـ هي؟ أظنُّ....

قالت بلهجةٍ كَدِرة، وبصوتٍ بطيءٍ، وقد ضمَّت يَديها بحركةٍ تَنُمُّ الألم. وواصلت قولها:

ـ ليتك...ليتك تعرفها! أنَّها طفلةٌ تماماً. عقلها مضطربٌ اضطراباً تاماً كأنَّه مُختَل.... لقد قاست في حياتها آلاماً فظَّةً مقيتةً.... ومع ذلك، ما أذكاها! ما أكرمها! هي شديدةُ الطيبِ كالريحان! أنت لا تعرف، لا تستطيع أن تعرف!

آه!....

قالت سونيا هذه الكلمات بصوتٍ فيهِ شيءٌ من اليأس، كان الألمُ يعصرُ قلبها، كانت تلوي يديها من فرطِ الكمد، ومن جديد احمرَّ خدَّها، حتى صار ارجوانيُّ اللون، كان العذاب يُقرأُ في عينيها، واضحٌ أنَّ وتراً حسَّاساً جدَّاً مسَّ الآن في نفسها، وأنَّها ترغبُ بقوةٍ في أن تعبِّر عن شيءٍ، في أن تتكلَّمَ، أن تدافع عن كاترينا إيفانوفنا، إنَّ نوعاً من شفقةٍ حارقة لا تنطفئُ أنوارها ترتسمُ الآن على قسماتِ وجهها. وتابعت:

ـ تضربني؟ هي تضربني؟ ماذا تقول؟ وَهَبها ضَرَبتني! أيُّ خيرٍ في ذلك؟ أنتَ لا تعرفُ شيئاً، لا تعرف شيئاً البتة! هذه إنسانةٌ تعيسةٌ، شقيةٌ، بائسةٌ....وهي مريضةٌ....إنَّها تُنشدُ العدالة....إنَّها تسعى إلى العدالة....هي طاهرةٌ نقيةٌ إنَّها من شدَّةِ اقتناعها بأنَّ العدالة يجب أن توجد بكل شيء، إنَّما تطلب العدالةَ في كُلِّ شيءٍ، قد يعذبونها بشدةٍ، بتبريحٍ وتجريحٍ ثُمَّ هي لا تأتي أيُّ أمرٍ يُجافي العدالة. إنَّها لا تفهم أن لا يسود العدل حياة البشر، ولذلك هي تغضبُ كطفل، كما يغضبُ طفل! إنَّها امرأةٌ عادلةٌ، عادلة....

ـ وما الذي ستصيرين إليه؟

فردَّت عليه بنظرةٍ مستفهمة.

قال:

سيبقون على ذراعيكِ. صحيح!! كُنتِ قبل الآن تحملين كلَّ شيءٍ على ذراعيكِ، وأنَّ أباكِ كان يجيءُ إليكِ أنتِ ليطلُبَ مالاً "يذهب سكره". ولكن ما الذي سيحدث الآن؟

رَدَّت بحزن:

ـ لا أدري.

ـ هل يَبقون هناك؟

ـ لا أدري، إنَّ أجرَ المسكن لم يدفع، ويظهرُ أنَّ صاحبةَ البيت قد أرادت اليوم

أن تطردهم، فأعلنت كاترينا إيفانوفنا أنَّها تمكثُ دقيقةً واحدة.

ـ لماذا هذا التكبُّر؟ أعليكَ تعتمد؟

ـ لا تتكلم هكذا، لا....

ثُمَّ استأنفت وقد اضطربت ثانية، أو قل اهتاجت من جديد، كما يفعلُ طيرٌ من طيورِ الكناري، أو غيرهُ من الطيورِ الصغيرة:

ـ نحن نشترك في كُل شيءٍ، أنا وهي....

ثُمَّ أضافت تسأل وقد رَبَت حماستها حرارةً:

ـ ماذا تُريدُ لها أن تكون؟ ماذا؟ آه....ما أكثرَ ما ذرفتهُ من دموعٍ في هذا اليوم! إنَّ عقلها مضطرب، ألم تلاحظ أنت هذا إذاً؟ نعم، عقلها مشوش، عقلها مُختل: تارة تقلقُ كما طفلةً صغيرةً من أجل أن يكون كُلُّ شيءٍ على ما يرام غداً، من أجل أن يكون على المائدةِ مقبلات....ومن أجل أن تضمَّ المائدة كل ما ينبغي أن تضمَّهُ كُلُّ مائدةٍ من أطعمة، وتارةً تلوي يديها كَمَداً وحسرةً، وتبصقُ دماً، وتذرفُ دمعاً، وتدقُّ رأسها بالجدارِ مِن فرطِ اليأسِ، ثُمَّ لا تلبث أن تتعزى فيك، تضعُ أملها عندك، تقول: أنَّكَ الآن سندها، وأنَّكَ ستقترض مالاً من أحد الناس، لتعود بهِ إلى مسقطِ رأسنا. فتنشئ مدرسةً لبناتِ الأُسَرِ النبيلة أكونُ مُشرفةً عليها، ونبدأُ عندئذٍ حياةً جميلةً وجديدةً، وهي في هذه الحالة تبدأ تقبِّلُني، وتضمُّني إلى صدرها، وتواسيني، وتعزيني، آآآه، ما أقوى إيمانها بأحلامها هذهِ، ما أقوى إيمانها بهذهِ الأحلام! هل يمكن أن نُعارضها؟ مستحيل!.... اليوم قضت النهار كُلَّهُ في مسح الأرض، وغسل الملابس، وترقيع الثياب، ورغم ضَعفِها الشديد، صعدَت إلى غرفتها بطشتٍ، فما أن وصلت حتى كانت أنفاسها قد تقطَّعت، وخارت قواها فلم تعد تملك إلَّا أن تتهاوى على سريرها مهدودة.

وفي هذا الصباح ذهبنا كلتانا إلى السُّوقِ، كي نشتري أحذيةً لبوليتشكا ولينيا، لأنَّ أحذيتهما قد تمزَّقَت تماماً، ولكن لم يكفنا ما معنا من مال،

رغم كل حساباتنا، لم يكفنا الكثيرُ من المال، لأنَّها اختارت أحذيةً جميلةً لطيفةً، فهي صاحبةُ ذوقٍ كما تعلم، فما كان منها إلا أن أجهشت بالبكاء، هُناكَ، في وسطِ الدُّكان، أمام الباعة.!! حقّاً كان منظرها يثير أعمق الألم....

ردَّ راسكولنيكوف بابتسامةٍ مُرَّةٍ:

- يفهم المرء بعد هذا أن تعيشي.... هذه هي حياتك....

فهتفت سونيا:

- ولكن هي، هي، ألا ترثي لما لها؟ ألا تشفقُ عليها؟ أنا أعلمُ أنَّكَ وهبتها آخر كوبيكٍ في جيبك، مع أنَّك لم تَكُن تعرف أيَّ شيءٍ عنَّا. فماذا لو كُنتَ تَعرِفُ كُلَّ شيء؟

آه! يا رب! كم من مَرَّة، كم مرَّةً أبكيتها حتى قبل موت أبي بأسبوع! نعم كنتُ قاسية، قاسية! كم مَرَّةً تصرفتُ ذات التصرف! آه.... ما أشدَّ ما أشعر بهِ اليوم من ألمٍ حين أتذكر هذا!

كانت سونيا تلوي يديها حسرةً وهي تتكلم، من فرط ما كانت تحسُّ بهِ من ألم.

قال راسكولنيكوف:

- أأنتِ القاسية إذاً؟

- نعم أنا القاسية، أنا....

وعادت تتابع كلامها وهي تبكي:

- جئتُ أزورهم في ذلك اليوم، فقال لي المرحوم:

" اقرئي لي يا سونيا، أعني أحسُّ بصداعٍ في رأسي....اقرئي لي هذا الكتاب" هو كتاب أعارهم إياه أندريه سيميونوفتش ليبزياتنكوف، الذي يسكن في هذا المنزل، ويقتني كتباً طريفةً! قلت لهث: " آنَ ليَ أن أذهب" ولم أشأ أن أقرأ له، لأنني قد أتيتُ إليهم خاصةً لكي أرى كاترينا إيفانوفنا ياقات صغيرة: كانت ألزافيتا السمسارة جاءتني بأكمامٍ وياقاتٍ حلوةٌ جدَّاً، جديدةً، مزينةً

برسـومٍ حلـوة، مـع ذلـك بَخسَـةُ الـثَّمن، وقـد أعجبـت بهـا كـاترينـا إيفانوفنـا كثيراً، فجرَّبتها على نفسها، ونظرت في المرآة، فوجدتها كيِّسـةٌ ظريفـةٌ جدَّاً. فقالت لي: "سونيا، اهديها لي، أرجوك. نعم، هذا ما قالته لي: "أرجوك"، لأنَّهـا هامت بها بشكلٍ جنوني. ولكن ما تصنع بهـا؟ مـا حاجتهـا إليهـا، ولكـن أيـن ترتديها؟ المهم أنَّها فُتنت بها، هكـذا، لأنَّهـا تُـذكِّرُها بالأيـام الخـوالي الحلـوة! إنَّ هذه المرأة تنظر إلى المرآة، فتعجبُ بنفسـها، ولـيس عنـدها ثـوبٌ تلبسـهُ، ولـو ثوبٌ واحد، ما عندها شيءٌ البتة، منذ سـنين عديـدة! وهـي لا يمكـن أن تطلـبَ من أحدٍ شيئاً في يوم من الأيام، لأنَّها شديدةُ الإباءِ والكبرياء، وتؤثر علـى ذلـك أن تعطـي مـا بقـيَ عنـدها، ومـع ذلـك طلبـت مـني أن أعطيهـا تلـك الياقـات الصغيرة، لأنَّهـا وجدتها جميلةً جداً. ولم أشـأ أنـا أن أحـرِمَ نفسـي منهـا، فقلـت لها: " فيمَ تنفعكِ هذه الياقات يا كـاترينـا إيفانوفنـا؟" نعـم ، ذلـك مـا قلتـه لهـا: " فيم تنفعك". آه.... ما كان ينبغي أن أقول هذا الكـلام أبـداً! ألقـت علـيَّ عندئـذٍ نظرةً ينفطر لها القلب.... عبَّرَ وجهها عندئذٍ عن حُزنٍ فظيع.... وشـعرتُ أنـا أيضـاً بألمٍ مُبرحٍ لدى رؤيتها على تلك الحال....

ليست الياقات هـي التي أحزنتها، إنَّما أحزنها رفضي.... لقـد رأيـتُ هـذا واضـحاً كل الوضوح. آه.... ليتني أستطيع أن أرجع إلى الوراء، وأن استردَّ كـل مـا أُفلـت من لساني! آه.... أنني.... ولكن ماذا؟ لا بدَّ أن هذا كُلَّهُ لا يعنيك في شيء!

سأل راسكولنيكوف:

ـ أأنت عرفت إليزافيتا السمسارة؟

فأجابت مُندهشة:

ـ نعم.... ولكن هل عرفتها أنتَ أيضاً؟

وبعدَ صمتٍ، أجابَ ليس على السؤال، إنَّما:

كاترينا في آخر درجات السل، وستموت قريباً....

ـ لا، لا، لا، لا تقل هذا الكلام.

قالت سونيا هذا، وتناولت يديه على غير شعور منها، كمن يقول أن لا يحدث هذا الأمر.

رَدَّ شيخنا:

ـ لكنَّ الأفضل أن تموت!

فراحت سونيا تردِّدُ مروعةً تائهةَ العقلِ، زائغةَ النظرات:

ـ لا، ليس هذا أفضل، ليس هذا أفضل....

ـ والأولاد، ما أنتِ صانعةٌ بهم عندئذٍ، لا مكان لهم إلا في بيتك.

ـ آه.... لا أدري.

بذلك هتفت سونيا يائسةً وهي تُمسك رأسها بيديها.

كان واضحاً أن هذه الفكرة قد وافتها مِراراً، وأنَّ راسكولنيكوف لم يزد على أن أيقظها.

وعاد يلحُّ في السؤال بغيرِ رحمةٍ:

ـ وماذا إذا مرضتَ أنتَ وذهبتَ إلى المستشفى قبل موت كاترينا إيفانوفنا؟ ما يحدثُ آنئذٍ؟

ـ آه.... ما هذا الذي تقول؟ لا، لا.... أبداً!....

ذلك مستحيل.

وتقبَّضَ وَجهُ سونيا على رُعبٍ فظيعٍ، وذُعرٍ رهيبٍ.

وتابعَ إلقاءَ أسئلتهِ، وعلى شفتيهِ بسمةٌ من دون رحمة:

ـ مستحيل؟ كيف؟ لا شيء يكفل لكِ أن لا تمرضي!! فما الذي سيحدث لهم حين تمرضين؟ سيصيرون إلى الشارع؟! وتمضي هي تسعُلُ، وتستجدي، وتدقُّ رأسها بالحائطِ كما تفعل الآن، والأولادُ يبكون، ثُمَّ تتهاوى، فتنقل إلى قسم الشرطة، ثُمَّ إلى المستشفى، والموت. أما الأولاد....

ـ لا، لا، لن يأذنَ الله بهذا.

هذا ما أفلت من لسان سونيا بعد لحظةِ مُختَنق. كانت قد استمعت إلى كلامه

صامتةً تنظر إليه مروعة، ضامتاً يديها في ضراعةٍ خرساء كأنَّ كل شيء متوقف عليه.

نهض بطلنا وأنشأَ يزرعُ الغرفة رواحاً وغدواً، وانقضت هنيهة.

كانت سونيا واقفةً، متهدلةَ الذراعين، خافضةَ الرأس، تعاني ألماً شديداً وعذاباً أرهب.

سألها وهو يتوقّفُ أمامها بغتةً:

ـ وما من وسيلةٍ لادخار أيِّ مالٍ للأيامِ السود، أليسَ كذلك؟

دمدمت:

طبعاً.... لا....

وأضاف هازئاً:

ـ هذا مستحيلٌ، طبعاً، إنَّما هل حاولت؟

ـ حاولت.

ـ ولم تفلح المحاولة؟ طبعاً لم تُثمِر! لا داعي للسؤال.

وعاد يتخطى في الغرفة، وانقضت برهةً أخرى. قال:

ـ أظنُّ أنَّكِ لا تحصلين على النقود كل يوم؟

واضطربت سونيا أكثر، وتضرَّجَ وجهها مرَّةً أخرى، وهي تهمس بجُهدٍ مؤلم:

ـ لا.

ردَّ فجأةً:

ـ سيكون مصيرُ بوليتشكا كمصيركِ حتماً.

فهتفت سونيا بشكلٍ قويٍّ، طائشٍ، كأنَّها طُعِنت بخنجر:

ـ لا، لا، هذا محال. إن الله، إن الله لن يسمح بمثل هذا السقوط!

ـ دعك من هذا الكلام! إنَّه يسمَحُ بسقوط أخريات.....

فرددت مسكينتنا خارجةً عن طورها:

ـ لا، لا. إن الله سيحميها!

ردَّ راسكولنيكوف بخبث:

ـ ربَّما ليس ثمَّةَ إله! ثُمَّ ضَحِكَ ورمقها.

عندئذٍ تشوَّهَ وجهُ سونيا بقسوةٍ، وسرت في قسماتهِ رعدةٌ من تشنُّجٍ. وألقت على صديقها نظرةً زاخرةً بلومٍ قويٍّ، وعتبٍ منفعل، وأرادت أن تقول شيئاً، ولكنَّ اللسان أبى الاستجابةَ بعنادٍ. وبغتةً انطلقت تتشنَّجُ نشيجاً مُرّاً حنظلياً، وهي تغطي وجهها بيديها.

قال راسكولنيكوف

قال ذو القلب الكبير بعد صمت:

ـ تقولين أن كاترينا إيفانوفنا قد فقدت عقلها، ولكني أرى أنت من فقد عقلهُ.

وانقضت خمسُ دقائقٍ. كان راسكولنيكوف يزرع الغرفة طولاً وعرضاً، دون كلام، ودون أن ينظر إليها، واقترب منها أخيراً. كانت عيناهُ تسطعان. أمسك كتفيها بيديه، وانعم النظر إلى وجهها الفارقِ بالدموع، كانت نظرتهُ جافةً، ملتهبةً، حادةً، وكانت شفتاهُ تختلجان اختلاجاً قوياً جداًّ.... وانحنى فجأةً بحركةٍ سريعةٍ، يسجد أمامها، وقبَّلَ قدميها، تراجعت سونيا مروعةً كمن يرى مجنوناً، واثقٌ أن هيئتهُ كانت هيئة مجنون.

تمتمت شاحبةَ الوجهِ، منقبضةَ الصدرِ بألم:

ـ ماذا فعلت؟ ما هذا؟ أمامي أنا تسجد؟

سرعان ما نهض، وقال بلهجةٍ وحشيةٍ:

ـ أنا لا أسجد أمامك أنتِ.... بل أمام معاناةِ البشريةِ كلِّها.... ثُمَّ ابتعد إلى النافذة. وأضافَ بعد لحظة، وهو يعود إلى قربها:

ـ اسمعي: لقد قلت منذ قليل لرجلٍ كان يُهينُكِ أنَّه لا يساوي طرف إصبعك.... وأنني قد شرَّفتُ أُختي حين أتَحتُ لها اليوم أن تجلس إلى جانبك.

وهتفت مروعة:

ـ آه.... ماذا تقول؟ ولكني.... ولكني أعيشُ في العار! إنني خاطئة، خاطئة! آه....

ما هذا الذي قُلتهُ وازناً عذابك العظيم بأثقلِ الوزنات.
ثُمَّ أضاف في حماس:
- أمَّا أنَّكِ خاطئة فهذا صحيح، وخطيئتكِ الكبرى هي أنَّكِ ضحيتِ بنفسكِ وأهلكتِ نفسكِ، وخُنتِ نفسكِ سُدى. نعم، إنَّهُ لشأنٌ فظيع، إنَّهُ لأمرٌ باهظُ الثقل أن تعيشي كما تعيشين، في الوحل الذي تكرهين، عالمةً أنت نفسك أنَّكِ بهذا لا تساعدين أحداً، ولن تستطيعين أن تنقذي أحداً (يكفي المرء أن يفتح عينيه).
ثُمَّ، خارجاً عن طورهِ:
- إنما قولي لي أخيراً: كيف لهذا العارِ، وهذهِ الحطة، أن تجمَّعتا لديك، مع أنبل العواطف، وأسمى المشاعر؟ ألا إن هذا أقرب إلى العدل والعدالة جداًّ، إلى العقل كثيراً، أن تلقي بنفسك في الماء، وأن تنتهي من هذا الوضع مرَّةً واحدةً وإلى الأبد!....
سألته سونيا بصوتٍ ضعيفٍ وهي ترفع نحوه نظرتها الأليمة:
- وما عسى يصيرون إليه، هم، إذا أنا أخذت رأيك إلى التنفيذ؟
سوى أنَّ هذهِ التي لَّمح إليها راسكولنيكوف ما بدت وقد أدهشتها، ورمقها راسكولنيكوف بنظرةٍ غريبةٍ غامضة.
لقد قرأ راسكولنيكوف في نظرة الفتاة كل شيء، إنَّ تلكَ الفكرة كانت تراودها إذاً، لعلَّها من يأسها قد فكَّرَت تفكيراً جادّاً، مرَّاتٍ كثيرة، في وضع حدٍّ لحياتها آخر الأمر، وبلغت من جذر التفكير في هذا أن النصيحة التي أسداها إليها راسكولنيكوف لم تُثِر في نفسها أيَّةَ دهشة تقريباً. حتى أنَّها لم تلاحظ قسوة الكلمات التي قالها لها (لقد فاتها طبعاً معناها الحقيقي، ولم تدرك الزاوية الخاصة التي كان راسكولنيكوف ينظر منها موضع العار، وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك).
ولكن راسكولنيكوف أدرك إدراكاً تاماً مدى ما كانت تقاسيه من عذاب

بسبب وضعها الشائن، وأدرك إدراكاً تاماً أنَّها تعاني هذا العذاب منذ مدَّةٍ طويلة.

وتساءل راسكولنيكوف: "ما الذي أمكن أن يمنعها حتى الآن من تنفيذِ عزمها إلى إنهاءِ حياتها؟ دفعةً واحدةً" وعندئذٍ فقط إنَّما أدرك حقاً قيمة هؤلاء اليتامى في نظر سونيا، وقيمة هذهِ المسكينة كاترينا إيفانوفنا المصدورة، شبه المجنونة، التي تدقُّ رأسها بالحيطان.

ولكنَّ هذا لم يمنعهُ من أن يدرك بوضوحٍ أنَّ سونيا، بحكم طبعها، وبحكم تربيتها، لا يمكنها أن تستمر على أن تحيى هكذا، لا بل ليُحيرهُ ويُدهشُهُ أن يرى سونيا تبقى في هذا الوضع طوال هذهِ المُدَّة، دون أن تجنَّ هي أيضاً بعد أن لم تسعفها شجاعتها، فتنتحرُ غرقاً في الماء. صحيحٌ أنَّهُ كان يفهم أن وضع سونيا ليس إلا حادثةً طارئةً في المجتمع، حادثةً طارئةً لكنَّها ليست عزلاء يا للأسف! ليست وحيدةً البتَّة، وليست هي استثنائيةً! غير أنَّ كون هذه الحادثة طارئة، بالإضافة إلى ما بقيَ للفتاةِ من تربيتها الماضية، وبالإضافة إلى ماضيها كُلِهِ، كان جديراً أن يقتلها منذ الخطوات الأولى التي قطعتها على هذا الدَّربِ الفاجر الذي سلكتهُ، فما الذي كان يشدُها إلى هذا الدرب إذاً؟ ليس هو حبُّ الدَّعارةِ قطعاً، فإن هذا كُلَّهُ (ذاك أمرٌ يراهُ المرءُ واضحاً) لم يزد على أن مسَّها مسَّاً آلياً بحكم طبيعةِ الأشياء، أما قلبها فلم تتسلل إليه قطرةٌ واحدةٌ من رذيلة.

إن راسكولنيكوف يرى هذا كُلَّهُ، لقد كانت سونيا واقفةً أمامهُ على حقيقتها....

قال راسكولنيكوف لنفسه: "هناك ثلاثة طرقٍ تنفتحُ أمامها: أن تقذف بنفسها إلى الماء، أن تصير إلى ملجأ المجانين.... أن تندفع في الدَّعارة التي تخبل العقل وتجمِّدُ القلب".

إن هذه الفكرة الأخيرة هي التي ينفر منها راسكولنيكوف أكثر من ينفر

من الفكرتين الأوليتين، ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح ريَّاباً منذ الآن، وهو إلى ذلك شابٌّ، وهو إلى ذلك ذو فكرٍ مجرد، والفكرُ المجرد قاسٍ، لذا لم يستطع أن يمتنع عن الاعتقاد بأنَّ هذا الافتراض الثالث، أعني افتراض الدَّعارة هو أقرب الافتراضات إلى الصدق....

وما عَتَمَ أن هتفَ لنفسهِ يتساءل: "ولكن هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ أيمكنُ أن تغرقُ نفسٌ ما تزالُ طاهرةً نقية، في هذا المستنقعِ القذر فعلاً؟ أمن الجائز أنَّها استطاعت أن تحتمل حياة كهذه حتى الآن؟ لأنَّ الرذيلةَ لا تبدو لها كريهةً حقيرةً إلى هذا الحد؟ "فلمَّا وصلَ راسكولنيكوف في تساؤله إلى هنا، هتف يقول كما فعلت سونيا منذ قليل: "لا، لا، إن الشيء الذي صدَّها عن إغراق نفسها في القناة حتى الآن، إنَّما هو فكرةُ الخطيئة، وكذلك هم، أولئك.... ولئن لم تجد حتى الآن.... ولكن من ذا الذي يزعم أنَّها لم تجد حتى الآن؟ أصحيح أنَّها ما تزال تملك بصيرتها؟ أيمكن أن يتكلَّمَ أحدٌ كما تتكلمُ هي، وأن يفكِّرَ كما تُفكِّرُ إذا كان ما يزال سليم الإدراك؟ أيستطيع المرء أن يبقى أمام الهوة على هذا النحو، أن يبقى هذا البقاء أمام المستنقع النَّتنِ الذي بدأ يغوصُ فيه، وأن يحرك يده في الوقت ذاته بإشارةٍ تنمُّ عن العجز، وأن يَسُدَّ أُذنيه كُلَّما حدَّثَ عن الخطر؟ أليس انتظارها معجزة؟ نعم، لا ريب في هذا، ولكن أليست علامات جنون؟"

ووقف راسكولنيكوف عند هذه الفكرة في إصرارٍ وعناء.

إن حلّاً كهذا يرضيهِ أكثر من أي حلِّ آخر، وشَرَعَ يتفحَّصُ الصبية بانتباه شديد.

سألها:

ـ إذاً أنت تصلين للّه كثيراً يا سونيا؟

لم تجب، وكان واقفا أمامها ينتظر الجواب.

ودمدمت سونيا بسرعة، وهي تختلس النظر إليه، نظرة سطعت على حين غرة:

ـ ما الذي يمكن أن أصير إليه إن لم أؤمن باللّه؟

وتناولت يده، وشدَّت عليها شدَّاً عنيفاً.

قال لنفسه: "نعم، تلك هي الحقيقة".

وسألها ليفرض عليها الجواب:

ـ وماذا يفعلُ اللّهُ من أجلك؟

فلبثت سونيا صامتةً مدَّةً طويلةً، كأنَّها لا تستطيع أن تجيب، وكان الانفعال يهزُّ صدرها الهزيل، وهتفت تقول لهُ أخيراً وهي تنظر إليهِ بقسوةٍ وغضب:

ـ اسكت، لا تسلني عن شيء بعد الآن. أنت لا تستحق أن....

فقال راسكولنيكوف يحدِّثُ نفسهُ مردِّداً في عنادٍ وإصرارٍ: "تلك هي الحقيقة، تلك هي الحقيقة".

ودمدمت سونيا تقولُ بسرعةٍ، وهي تَخفِضُ عينيها من جديد:

ـ اللّه يفعَلُ كُلَّ شيء!

" تلك هي المسألة! وها هو حلُّ المسألة! ـ قال بينه وبين نفسه وهو يتأملها باهتمامٍ نَهِم، وبعاطفةٍ جديدةٍ كُلَّ الجدَّةِ، بعاطفةٍ غريبةٍ تُشبِهُ أن تكون مرضاً، كان راسكولنيكوف يتفرَّسُ في هذا الوجهِ الصَّغيرِ، النَّحيل، الشَّاحب، غير المنسق، المنكسر الزوايا، ويتفرَّسُ في هاتين العينين الزَّرقاوين، الرَّقيقتين، العذبتين، الحلوتين، اللتين تستطيعان مع ذلك أن تسطعا بلهيبٍ قويٍّ، وأن تُعبِّرا عن عاطفةٍ تَبلُغُ هذا المبلغ كُلَّهُ من القسوةِ، والقوةِ، والعُنفِ، ويتفرَّسُ في هذا الجسم الضاوي الهزيل، الذي ما يزال يرتجفُ استياءً وغضباً.... فكان كُلُّ شيءٍ يبدو لهُ غريباً مزيداً من الغرابة شيئاً بعد شيء، حتى ليكاد يكون مستحيلاً. وكان يردِّدُ قائلاً لنفسهِ: "هذه مخلوقةٌ عبيطةٌ، إنَّها ضعيفةُ العقل".

وكان على المنضدة كتابٌ لاحَظَهُ راسكولنيكوف عِدَّةَ مرَّاتٍ حينما مَرَّ أمام المنضدة، فها هو ذا يتناول الكتاب الآن وينظر فيه، إنَّهُ الإنجيل باللغة

الروسية: كتابٌ مجلَّدٌ، عتيقٌ مهترىء.

صاح يسأل سونيا من آخر الغرفة:

ـ من أين هذا الكتاب؟

وكانت ما تزال واقفةً في مكانها نفسهُ على ثلاثِ خطواتٍ من المائدة.

فأجابتهُ سونيا على مَضَضٍ دون أن تَنظُرَ إليه:

ـ جيءَ إليَّ بهِ.

ـ من جاءكِ به؟

ـ إلزافيتا. كنتُ قد طلبتُهُ منها.

قال راسكولنيكوف لنفسه: "إلزافيتا! ما أغرب هذا!" أنَّ كُلَّ شيءٍ هنا يبدو لهُ غريباً عجيباً أكثرَ فأكثر، من لحظةٍ إلى أخرى، وقرب الكتاب من الشمعة، وأخذَ يتصفَّحَهُ.

وسألها بغتةً:

ـ أين يجيءُ ذكرٌ لعازر؟

فظلت سونيا مطرقةً إلى الأرضِ بعنادٍ ولم تُجِب، وكانت واقفةً غير بعيد من المائدة وقفةً مواربة.

ـ أين الحديثُ عن قيامٍ لعازر؟[1] أرِني يا سونيا.

فرمقتُّهُ بنظرةٍ مواربة، ودمدمت تقول لهُ بقسوةٍ دون أن تدنو مِنهُ:

ـ لستَ تبحثُ عنهُ في موضِعِهِ. أنَّه في الإنجيل الرابع.

قال لها:

ـ ابحثي عنه واقرئيه يا سونيا.

ثُمَّ قَعَدَ، ووضعَ كوعيهِ على المائدة، وأَسنَدَ رأسَهُ إلى يَدِهِ، لافتاً عينيه، متجهماً

[1] ـ يجب أن نتذكَّرَ أنَّ القاضي ـ قاضي التحقيق ـ قد سأل راسكولنيكوف إن كانَ يُؤمنُ بقيامةٍ لعازر.

الهيئة، متهيئاً للإصغاءِ قائلاً لنفسهِ: "بعدَ ثلاثةِ أسابيع، سأكون في الفرسخ السابع، فيما أظنُّ، اللهم إلا أن يحدث لي ما هو شرٌّ من ذلك".

دنت سونيا من المائدةِ مترددة، بعد أن استمعت لطلب راسكولنيكوف في شكٍّ وَرَيبَةٍ، وتناولت مع ذلك الكتاب

سأَلتهُ وهي ترمقه من فوق المائدة بطرفِ عينيها:

ـ ألم تقرأهُ إذاً من قبل؟

وكان صوتها يزدادُ قسوةً رويداً رويداً. أجابها راسكولنيكوف:

ـ قرأتُهُ منذُ أمدٍ بعيدٍ.... في أيامِ الدِّراسة، إقرئي.

ـ وفي الكنيسة، ألم تسمعه؟

ـ لا أذهب إلى الكنيسة، أتذهبين أنت أحياناً كثيرةً؟

تمتمت سونيا:

ـ ل.....لا.

فابتسم شيخنا!

ـ فَهِمت، وأغلبُ الظنِّ أنَّكِ لم تحضري دفنَ أبيكِ في الغدِ أيضاً، أليس كذلك؟

ـ بل سأحضر.... لقد ذهبت إلى الكنيسة في الأسبوع الماضي أيضاً، وأقمتُ قُدَّاساً.

ـ لمن؟

ـ لإليزافيتا. لقد قتلت بفأس.

توترت أعصاب راسكولنيكوف توتراً نافراً، وراحَ يشعُرُ بِدوار.

ـ أَكُنتِ صديقة إليزافيتا؟

ـ نعم.... كانت إليزافيتا امرأةً صالحة.... وكانت تأتيني.... نادراً.... لم يكن بوسعها ان تزورني أكثر، وكنَّا نقرأ معاً.... وكنَّا نتحدَّثُ.... سترى اللّه....[1]

---

1 - إشارة إلى آية في إنجيل متى: "طوبى للأطهار، لأنهم سيرون الله".

ترجَّعَت هاتـان الكلمتـان المسـتمدتانِ مـن الكتـابِ ترجُّعـاً غريبـاً ﻓﻲ نفـس راسـكولنيكوف. وقـال لنفسـهِ: "وهـذه معلومـات جديـدة! أحاديـثُ سـريَّةً بـين إليزافيتا وسونيا.... بين مخلوقتين كلتاهما ضعيفةُ العقل! هنا يصبح المرء نفسه ضعيف العقل.... بالعدوى!..."

وهتف يقول لها بإلحاحٍ وحنقٍ:

ـ اقرئي!

ولكنَّ سونيا ما تزالُ متردِّدةً. كان قلبها يَخفِقُ بشدَّة، كأنَّها لا تجرؤ أن تقرأ.

وكان ينظر إليها مُعذَّباً، مُخاطباً نفسه: "للمجنونة المسكينة!"

تمنت لهُ بصوتٍ خافتٍ، كأنَّها مقطوعة النفس:

ـ ما حاجتُكَ إلى هذا وأنت لا تؤمن؟

فأجابها بإصرارٍ:

ـ بل اقرئي! أريد أن تقرئي! أما كنت تقرئين لإليزافيتا؟....

فتحـت سـونيا الكتـاب، ووجـدت السـطورَ المطلوبـة. كانـت يـداها ترتجفـان، وكان صوتها مختنقاً، حاولت مرتين أن تبدأ القراءة، لكنَّها لم تفلح ﻓﻲ نطق الكلمة الأولى، ثُمَّ قرأت بعد لأيٍ:

" وكان إنساناً مريضاً، هو لعازر، من بيت عنيا...."

ولكن صوتها رنَّ منذ الكلمةِ الثالثة وتحطَّم، كما يتحطمُ وترٌ مشدود، لقد انقطع تنفُّسُها. وكان قلبها يدقُّ بعنفٍ شديدٍ.

أدرك راسـكولنيكوف بعـض الإدراك لمـاذا لم تعـزم علـى القـراءة بفظاظـة وغضب.

كان يرى بوضوحٍ لماذا يشقُّ عليها، ويحـزُّ ﻓﻲ نَفسـها أن تكشـف عمَّـا يخصـها هي، وأن تبوحَ بهِ. أدرك أنَّ هـذهِ العواطفَ هـي "سِـرَّها" فعـلاً، سِـرَّها الحقيقـي. والقديم، منـذ أمـدٍ، رُبَّمـا منـذ مراهقتهـا، منـذ مـا كانـت مـع أسـرتها بـين زوجٍ شـقيٍّ، وزوجـةُ أبٍ جنَّنَهـا الحـزنُ قُـربَ أطفـالٍ جيـاعٍ، ﻓﻲ بيئـةٍ لا ترتفـع فيهـا إلَّـا

صـرخاتٌ مسـعورةٌ، وملامـاتٌ مُتَّصلـةٌ لا تنقطـع، ولـكنَّـهُ كـان يعلـم في الوقـت نفسه ـ هو واثق مـن هـذا ـ أنَّهـا علـى تألُّمِهـا الشـديدِ، وخوفهـا المشـرَئِبِّ، تُحِسُّ رغـم حزنهـا، وخشـيتها برغبـةٍ جارفـةٍ مؤلمـةٍ في أن تقـرأ، وفي أن تقـرأ لـهُ هـو، لـكي يسمع، والآن بخاصة، "مهما يحدث بعد ذلك". كـان راسـكولنيكوف يقرأ هذه الرغبة في عيني الفتاة، وكان يُدركها من اهتياج أعصابها.

تحاملت سونيا على نفسـها ،باذلةً بـذلك جهداً كـبيراً، فكبحـت التشـنُّجَ الـذي ألمَّ بحلقهـا، فقطـع صـوتها منـذُ بدايـةِ الآيـةِ الأولى، وتابعـت قـراءة الإصـحاح الحادي عشر من إنجيل يوحنا، ووصلت إلى الآية التاسعة عشر.

" وكان كثيرون من اليهود قد جاؤوا إلى مرثا ومريم وليعزوهما عـن أخيهمـا. فلما سمعت مرثا أن يسوع آتٍ لاقتهُ، وأمَّا مريم، استمرت جالسة في البيت. فقالت مرثا ليسوع: ياسيد، لو كنت هـا هنـا لما مـات أخـي، لكـني الآن أيضـاً أعلم أن كل ما تطلب من اللّه يعطيك اللّه إيَّاه".

هنا توقفت سـونيا عـن القـراءة مـرَّةً أخـرى، وهـي تشـعر بالخجـل مـن أن صـوتها يختَلِجُ وأنَّه سيتحطَّمُ من جديد.... ثُمَّ تابعت القراءة:

" قال لها يسوع: سيقوم أخوكِ. قالت لهُ مرثا: أنا اعلم أنَّـه سـيقوم عنـد القيامـة، في اليوم الأخير. قال لها يسوع: أنا هو القيامة والحياة. مـن آمـن بـي مسـيحياً ولـو مات فسيحيا. وكل من كان حيَّاً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد. أتؤمنين بهذا؟"

استردت سونيا أنفاسها بجهدٍ جهيد، وألمٍ شديد، وراحت تقرأ بصـوتٍ واضـحٍ ولهجةٍ قوية كأنَّها تعترف بإيمانها هي نفسها على رؤوس الأشهاد:

" قالت له: نعم يا سيد. قد آمنت أنَّكَ أنتَ المسيح ابن اللّه، الآتي إلى العالم."

وأوشكت الصبية أن تتوقـف عـن القـراءة، ولكنَّهـا رفعـت عينهـا إليـهِ بحركـةٍ قويةٍ، فسرعان ما ثابت إلى نفسها واستمرت تقرأ.

كـان راسـكولنيكوف يصـغي إلى القـراءة سـاكناً جامـداً، دون أن يلتفـت، واضـعاً كوعيـه علـى المائـدة، نـاظراً إلى جانـب، وأدركـت سـونيا الآيـة الثانيـة

والثلاثين:

" فلمَّا أتت مريم إلى حيث كان يسوع ورأته، خَرَّت عند قدميه قائلةً لهُ، يا سيد، لو كنت هنا لما ماتَ أخي، فلمَّا رآها يسوع تبكي واليهود الذين جاءوا معها يبكون، انزعج بالروح واضطرب وقال: أين وضعتموه؟ قالوا له: يا سيد، تعالَ وانظر. بكى يسوع. فقال اليهود: انظروا كم يُحِبَهُ. وقال بعضٌ منهم: ألم يكن هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت؟"

كان راسكولنيكوف قد التفت نحوها وراح ينظر إليها منفعلاً مضطرباً. نعم، صَدَقَ ظَنَّهُ! كانت ترتعشُ بعنفٍ، وتعاني حُمَّى تلبسها حقيقيةً. إنَّهُ توقَّعَ ذلك، وكانت تقترب من الآيات التي تروي المعجزة الكبرى، فكان شعورٌ بالانتصارِ العظيم يجتاح حناياها، كان صوتها يرنُّ كمعدنٍ. إنَّ الفرح والظفر يترجعان في بدنها، ويشدَّان أزرها، فاختلطت الأسطرُ أمامَ عينيها، واضطرب بصرها، لكنَّها كانت تعرف ما تقرأ عن ظهر قلب، وحين قرأت الآية الأخيرة: "ألم يكن يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا لا يموت؟" قد خفضت صوتها، معبرةً بحماسةٍ ملتهبةٍ عن شكٍّ، ولومٍ، وعتبٍ، واستياءٍ أولئك اليهود العمي الذين لا يؤمنون، والذين سيركعون بعد قليل كمن نزلت بهم صاعقة، وسيجهشون بالبكاء، وسيؤمنون.

قالت لنفسها: وهو، هو أيضاً، الأعمى، الذين لا يؤمن، هو أيضاً سيسمع، وهو أيضاً سيؤمن، نعم، نعم سيؤمن، سيؤمن فوراً، حالاً، فكان هناك هذا التوقُّع يجعلها ترتعش فرحاً، وتابعت قراءتها:

" فتكدَّرَ يسوع أيضاً في نفسه وجاءَ إلى القبر، وكان مغارةً وقد وضع عليهِ حجر. قال يسوع: ارفعوا الحجر. قالت له مرثا أخت الميت: يا سيد، لقد أنتن لأن له أربعة أيام."

أبرزت سونيا في قراءتها كلمة أربعة. وتابعت:

" قال لها يسوع: ألم أقل لكِ إن آمنتِ ترين مجد الله، فرفعوا الحجر( حيث

كان الميت مسجى)، ورفع يسوع عينيه إلى فوق، وقال: أبتي، أشكرك لأنَّكَ سمعتَ لي. وأنا علمت أنَّكَ ستسمعُ لي في كُلِّ حين، ولكن لأجل الجمع الواقف قلت، ليؤمنوا أنَّكَ أرسلتني، ولمَّا قال هذا صرخَ بصوتٍ عظيم لعازر: هَلُمَّ خارجاً. فخرج الميت...."

قرأت سونيا هذهِ الكلمات الأخيرة بصوتٍ قويٍّ ظافرٍ، وكانت ترتجفُ وترتعشُ، وكأنَّها ترى المشهد بعينيها.

".... ويداهُ ورجلاهُ مربوطةٌ بأقمطةٍ، ووجههُ ملفوفٌ بمنديلٍ، فقال لهم يسوع: حِلُّوهُ ودعوهُ يذهب".

فكثيرون من اليهود الذين جاءوا إلى مريم ونظروا ما فعل يسوع آمنوا به"

لم تمضِ سونيا في القراءة إلى أبعد من هذا، لقد عجزت عن ذلك، فطوت الكتاب، ونهضت بحركةٍ قويةٍ ورشيقةٍ، ودمدمت بصوتٍ قاسٍ متقطعٍ:

ـ هذا كلُّ ما يروى عن موتِ عازر.

وجمدت في مكانها مشيحةً وجهها، كأنَّها تستحي أن ترفع عينيها نحو راسكولنيكوف.

وكانت ما تزال ترتجفُ من الحمى.

كانت ذبالة الشمعة التي ذابت في السراج المتعقف منذ مدَّة، تلقي ضياءً ضعيفاً على القاتل والمومس، وقد ضمَّتها بطريقةٍ غريبةٍ قراءة " الكتاب الخالد" في هذه الغرفةِ البائسةِ.

وانصرمت خمسُ دقائقٍ أو تزيد.

ونهض راسكولنيكوف. ودنا من سونيا، وقال لها فجأةً بصوتٍ قويٍّ وقد أكفهرَّ وجههُ:

ـ إنَّما جئتُكِ لأحدثكِ بأمرٍ معين.

فنظرت إليه سونيا صامتةً. وكان وجههُ يفصحُ عن عزيمةٍ وحشيةٍ.... قال:

ـ تركت اليوم أهلي: أُمي وأُختي. فلن أذهب إليهما بعد الآن، لقد قطعتُ صلتي بهما قطيعةً تامة.

فسألته سونيا مصعوقة:

ـ لماذا؟

إن اللقاء الذي تمَّ بينها، وبين أم راسكولنيكوف، وأختِهِ منذُ قليلٍ قد ترك في نفسها أثراً خارقاً، رغم أنَّها لم تستطع أن تحدِّدهُ، فلمَّا سمعت نبأ المقاطعة شعرت بما يوشكُ أن يكونَ رعباً وذعراً.

أضاف راسكولنيكوف يقول:

ـ لم يبق سواكِ. هلمِّي نسافرُ معاً، لقد جئتك، نحن كلانا ملعونان، فلنسافرُ معاً!

وكانت عيناهُ تسطعان. قالت سونيا لنفسها هي أيضاً: " إن هيئتهُ تدلُّ على أنَّه مجنون".

وسألتهُ مرتاعةً:

ـ نسافرُ إلى أين؟

وتراجعت القهقرى على غيرِ إرادةٍ منها.

قال:

ـ من أين لي أن أعرف! كلُّ ما أعرفهُ أن الطريق الذي سنقطعهُ واحد، أنا واثقٌ من هذا، ولا أعرفُ شيئاً سواه، وهدفنا واحد.

كانت ترمقهُ ولا تفهمُ شيئاً، كلُّ ما كانت تدرِكَهُ هو أنَّه إنسانٌ شقيٌّ شقاءً رهيباً، شقيٌّ إلى غيرِ نهايةٍ.

وأضاف:

ـ ما من أحدٍ منهم يستطيع أن يفهم ما تقولينهُ، أما أنا فقد فهمتُكِ. أنا في حاجةٍ إليكِ. ولهذا السبب إنَّما جئتُكِ.

تمتمت الفتاة:

ـ لست افهم....

ـ ستفهمين في المستقبل. ألم تفعليّ مثلما فعلت أنا؟ أنتِ أيضاً خرقتِ القانون، أنتِ أيضاً.... أنتِ أيضاً دمَّرتِ حياتَكِ أنتِ.... ولكن ما الفرق؟!

كان بإمكانكِ أن تعيشي بروحكِ وعقلكِ، ولسوف ينتهي بكِ المطافُ في المستقبل إلى قرب سوق العلف.... ولكنَّكِ لن تستطيعي أن تحتملي ذلك، فإن بقيت وحدك فسوف تفقدين عقلك مثلي. إنَّكِ منذ الآن أشبهُ بمجنونةٍ.

فلماذا لا نسافرُ معا إذاً، لماذا لا نتَّبعُ طريقاً واحداً؟ فلنسافر!

تمتمت سونيا، وقد هزَّتها كلمات راسكولنيكوف هزَّاً غريباً قويَّاً.

ـ لماذا، لماذا تقول هذا الكلام.....

ـ لماذا؟ لأنَّ بقائي على هذه الحال أصبحَ محالاً؟! هذا هو السبب؟! لا بُدَّ للمرءِ آخر الأمر أن يَقِفَ وجهاً لوجه أمام متاعبهِ، ويتأملها بجرأةٍ، وجدٍّ، بدلَ مِن أن يبكي، بدلاً من أن يصرخَ كطفلٍ صغيرٍ: " الله لن يسمح بهذا". قولي لي ما الذي سيحدث إذا اقتادوكِ غداً إلى المستشفى؟ إن الأخرى قد فقدت عقلها، وهي مصابةٌ بداءِ السلِّ، وستموتُ قريباً. والأولاد؟ أيمكن أن لا تضيعُ بوليتشكا هي أيضاً؟ ألم ترى هنا، في الشوارع، أطفالاً أرسلتهم أمهاتهم في طلب الصدقات؟ لقد عرفت أنا أين يمكن أن يبقوا في أمثال تلك الأماكن أطفالاً. في أمثال تلك الناطق يصبح الطفل الذي عمره سبع سنين، داعراً أو لصاً، والأطفال هم مع ذلك صورةُ المسيح، "لهم ملكوت الرب"[1] لقد أمر الرب باحترامهم ومحبتهم، هم إنسانيَّةُ المستقبل....

ردَّت سونيا وهي تلوي يديها ألماً، وتجهشُ بالبكاءِ، بُكاءً هستيرياً:

ـ ما العمل إذاً؟ ما العمل؟

ـ ما العمل؟ نحطِّمُ مرَّةً واحدةً كل ما يجب تحطيمهُ، ولا شيء غير ذلك.

---

1 - إنجيل مرقص، الإصحاح العاشر، 14

نتحمل العذاب! ماذا؟ ألا تفهمين؟ المستقبل كفيلٌ بإفهامكِ! الحريةُ والسيطرةُ، السيطرةُ خاصة! السيطرةُ على كل المخلوقات المرتجفة، على كل هؤلاء النمل.... ذلك هو الهدف! تذكَّري هذا! تلك هي وصيتي لك. لعلَّ هذه آخر مرَّةٍ أكلمَكِ فيها، إذا لم أجيء غداً ستسمعين كلَّ شيءٍ بنفسك، فاذكري حينئذٍ كلماتي، قد تفهمين معناها في أحد الأيام، بعد سنوات، في مجرى الحياة، ولكن إذا جئتُ غداً، فسأقولُ لك من الذي قتلَ إليزافيتا. وداعاً! ارتعشت سونيا ذعراً. وسألتهُ وهي ترمقهُ بنظرةٍ متوحشةٍ:

ـ أأنتَ تعرفُ حقاً.... من الذي قتلها؟

ـ أعرف، وسأقول لك.... لك، لك وحدكِ! لقد وقعَ اختياري عليَّكِ، لن أُخبركِ لأستغفرك، وإنَّما لأحدِّثكِ ببساطة، لقد اخترتك، منذُ مُدَّةٍ طويلةٍ لأحدثك، اخترتُكِ منذُ اللحظةِ التي كلَّمني فيها أبوك عنك، وكانت إليزافيتا ما تزال حيَّة.... لقد خطر لي هذا عندئذٍ... وداعاً!

لا تعطيني بدلاً! إلى الغد.

وخرج، كانت سونيا تنظر إليه وكأنَّها تنظرُ إلى مجنون، ولكنها كانت هي نفسها أشبهُ بمجنونة، وكانت تشعر بذلك، وكانت تحسُّ بدوار.

تساءلت: " ربَّاه! كيف يعرف من الذي قتل إليزافيتا؟ ما معنى هذه الأقوال؟ فظيع، فظيع!...." ولكن في الوقت نفسه لم يخطر لها فكرة أن.... لم يخطر ببالها هذا في إحدى اللحظات، وقالت تحدِّثُ نفسها: "لابدَّ أنَّه شقي، لا بدَّ أنَّه شقيٌّ شقاءً رهيباً! تركَ أمَّهُ وأختَهُ. لماذا؟ ماذا جرى؟ ما نيَّتَهُ؟ ماذا قال لي؟ لثم قدميَّ وقال لي.... قال لي.... (نعم.... قال لي ذلك بوضوح....) قال لي أنَّه أصبح لا يستطيع أن يحيا بدوني.... آه.... ربَّاه! قضت سونيا الليل كُلَّهُ في حُمَّى وهذيان. وتارةً تنهضُ بوثبةٍ واحدةٍ، فتروح تبكي وتلوي يديها ألماً، وتارةً تهوي إلى نومٍ محمومٍ، فترى في الحلم بوليتشكا، وكاترينا إيفانوفنا، وإليزافيتا، وقراءةَ الإنجيل.... وتراه هو.... هو.... بوجههِ الشاحبِ، وعينيهِ المتَّقدتين، يلثمُ قدميها،

ويبكي.... آه....يارب!....

وراء الباب، وراء ذلك الباب نفسهُ الذي يفصلُ غرفةَ سونيا عن شقةِ جرترودا كارلوفنا ريسليخ، كانت توجدُ غرفةٌ وسيطةٌ، خاليةٌ منذ مدَّةٍ بعيدةٍ، هي جزءٌ من شقةِ السيدةِ ريسليخ، وكانت هذه تريدُ أن تؤجرها، كما تدلُّ اللافتة الموضوعة على باب مدخل العمارة، والأوراق الصغيرة الملصقة على زجاج النوافذ التي تطلُّ على الفتاة، وقد اعتادت سونيا أن تُعدَّ هذه الغرفة خاليةً غير مسكونة، غير أنَّ السيد سفيدريجايلوف كان قد التصق طوال هذا الوقت بباب الغرفة الخالية، فأصغى إلى كل الحديث الذي جرى بين سونيا وراسكولنيكوف، حتى إذا خرج راسكولنيكوف لبث هو لحظةً يفكِّر، ثُمَّ رجعَ سائراً على رؤوسِ الأصابع إلى غرفتهِ المتصلةِ بالغرفةِ الخالية، فتناول كرسياً ووضعهُ برفقٍ وهدوءٍ على الباب المؤدي إلى غرفة سونيا، لقد شاقهُ الحديثُ الذي جرى بين الفتاة وبطلها كثيراً، ورأى أنَّه جديرٌ بأن يسمع ويحفظ، وبلغ من شدَّةِ إعجابهِ بهذا الحديث ورضاهُ عنهُ وابتهاجهُ بهِ أنَّه حمل الكرسيِّ وجاءَ يضعهُ على البابِ حتى لا يضطرُ في المرَّةِ القادمة التي قد يكون الغدُ موعدها ـ من يدري؟ ـ أن يزعج نفسه بالبقاء واقفاً طوال ساعةٍ كاملةٍ، هكذا سيُتاحُ لهُ أن يجلسُ جلسةً مريحةً، فتكونُ متعتهُ من جميع النواحي كاملةً.

# الفصل الخامس

في الغد، وفي الساعةِ الحاديةَ عشرَ تماماً، حين وصل راسكولنيكوف إلى قسم الأمن، وولج مكاتب مفوَّض التحقيقات، وطلب مقابلة بورفيري بتروفتش، أدهشهُ أنَّهُ طلبَ إليهِ أن ينتظر، انقضت عشرُ دقائقٍ على الأقل قبل أن يُستدعى، وكان يخمِّن أن يُستقبل على الفور، وأنَّهم لا بدَّ أن ينقضوا عليه لتوِّهِم.

ظلَّ واقفاً في وسطِ قاعةِ الانتظار، بينما كان يذهبُ ويجيءُ من حولهِ أناسٌ لا يبدو عليهم أنَّهم يكترثونَ بهِ أيَّ اكتراث، وفي الغرفةِ المجاورة التي يدلُّ ظاهرها على أنَّها غرفةُ مكتب، كان يَجلسُ عددٌ من الكَتَبَة عاكفون على الكتابة، أما وكان واضحاً أن أحداً منهم لا يعرف من راسكولنيكوف هذا وما الذي يَعملهُ هناك.

كان راسكولنيكوف يَجيلُ على ما حوله نظرةً قَلقةً فيها ريبة، متسائلاً: تُرى ألا يوجد هنا، على مقربةً منهُ، شخصٌ سريٌّ ما، جاسوسٌ ما، مكلَّفٌ بمراقبتهِ، وبمنعهِ من الخروج إذا هو أرادَ أن يخرج؟ ولكن لا.... لم يكن ثمَّةَ شيء من هذا القبيل، لم يكن ثمَّةَ مستخدمون صغار، منهمكونَ بأعمالهم الصغيرةَ والبسيطة، وأشخاصٌ آخرون، لكنَّهم جميعاً لم يهتموا بهِ، ويدعونه يتنقلُ حُرَّاً كما يشاء، وها هي فكرةٌ تنبتُ في ذهنهِ، وتترسَّخُ ترسُّخاً ماينفكُّ يزدادُ عمقاً: لو كان الشخص الملغز الذي التقى به الأمس، لو كان ذلك الشيخ الذي ظهر لهُ من تحت الأرض، لو كان يعلم كُلَّ شيء، أكان يترك له، هو راسكولنيكوف، أن ينتظر هذا الانتظار هادئاً؟ أكانوا يصبرون عليه حتى الساعة الحادية عشرة، حتى الساعة التي ارتأى فيها أن يأتيهم من تلقاء ذاته ليدلي بإفادته ؟ إذاً لم يشي به ذلك الرجل بعد.... أو أنَّه هو أيضاً لا يعرف شيئاً معيناً ( وكيف كان يمكن أن يرى أيَّ شيءٍ على كُلِ حال؟) إذا لم

يكن كلُّ ما حدثَ لهُ بالأمس، هو راسكولنيكوف، إلا سراباً، إلا رؤيا ضخَّمها خيالهُ المهتاج المريض، إن هذا الاكتشاف كان قد فرض نفسهُ على راسكولنيكوف منذ أمس، في لحظة هي من أعنفِ لحظاتِ شعورهِ بالخطر ومن أقوى لحظاًت إحساسهِ باليأس.

وفيما راسكولنيكوف يفكِّرُ بهذا كلُّهُ مرَّةً أخرى، وفيما كان يتهيأُ لكفاحٍ جديدٍ، شعرَ فجأةً برعشةٍ، فغلت نفسهُ غلياناً شديداً إذ تصوَّرَ أنَّه يرتعشُ خوفاً، لأنَّهُ سيقفُ أمامَ بورفيري بتروفتش الكريه، إنَّ أفظعَ شيءٍ هو أن يلقى هذا الرجل من جديد، إنَّهُ يكرههُ كرهاً لا حدود له، كرهاً ليس له نهاية، وكان يخشى أن يؤدي بهِ هذا الكره، على نحو ما، إلى أن يفضح نفسهُ، وبلغَ غضبهُ من القوة أنَّه أوقف ارتعاشهُ فوراً، وأعدَّ نفسهُ لأن يدخل على الرجل هادئاً كل الهدوء، وحلف ليبقينَّ صامتاً إلى أبعد حدود الصمت، وأن يفتح عينيه وأُذنيه ويسيطر في هذه المرَّةَ، على الأقل، على مزاجه المتهيِّجِ المريض، مهما يحدث من أمر.... وفي اللحظة التي اتخذ فيها راسكولنيكوف هذا القرار، دُعي إلى الدخول على بورفيري بتروفتش.

كان هذا الأخير عندئذٍ وحدهُ في غرفتهِ.

إنَّها حجرةٌ لا هي كبيرةٌ ولا هي صغيرةٌ، تتسع لمكتبٍ كبيرٍ موضوعٍ أمام ديوان مغطى بقماشٍ مشمَّع، ومنضدةٍ وخزانةٍ في أحدِ الأركان، وعدة كراسي من خشبٍ أصفرٍ مصقول، وهذا كلُّهُ من أثاث الإدارة، وفي الجدار الواقع في طرف الغرفة، أو قل في الحاجز الواقع في آخر الغرفة، يوجدُ بابٌ مُغلق: فلا بُدَّ إذاً أن وراءَ هذا الحاجز حجراتٌ أخرى.

فما أن دخل راسكولنيكوف حتى أغلق بورفيري بتروفتش ذاك الباب الذي كان قد دخل منهُ، وبقي الرجلين وحيدين.

استقبل مفوَّضُ الأمن زائرهُ طلقَ المحيا متودداً متحبباً في ظاهر الأمر، ولم يستطع راسكولنيكوف إلا بعد دقائق أن يدرك من بعض الإمارات أن بورفيري

بتروفيتش مرتبكٌ بعض الشيء، فكأنَّه كُدِّرَ في أثناء قيامه بمهمةٍ سريةٍ.
بدأ بورفيري بتروفتش يتكلم وهو يمدُّ على راسكولنيكوف يدهُ قائلاً:
ـ آ.... عزيزي.... ها أنت ذا إذاً.... في نواحينا..... تفضَل..... اجلس يا سيدي! ولكن لعلَّك لا تحبُّ أن أخاطبك بقولي يا عزيزي، يا سيدي، [1] tout cout، هكذا!.... لا تحبُّ هذا النوع من رفعِ الكلفةِ وعدم التحرُّج، أرجوك.... ولكن لماذا لا تجلس؟ اجلس هنا، على الديوان.....
جلس راسكولنيكوف دون أن يحوِّل عنه عينيه.
وقال لنفسهِ مرتاباً: " في نواحينا.... اعتذاراتٌ عن رفع الكلفة وعدمِ التحرُّج!! هذا التعبير الفرنسي tout cout .... صحيح أنَّه مدَّ إليَّ يديه، لكنَّهُ لم يناولني لا هذه ولا تلك، بل سحبها في الوقت المناسب......"
كان كِلا الرجلين يراقبان بترصُّد، ولكن ما أن تلتقي نظراتهما حتى يحوِّلاها بسرعةٍ كومضِ البرق.
قال راسكولنيكوف:
ـ جئتُكِ بالعريضة الصغيرة.... في موضوع الساعة.... إليكَ هي، أهكذا يجب أن تحرر أم عليَّ أن أعيد كتابتها؟
ـ ماذا؟ أيُّ عريضة؟ آ.... نعم، نعم، اطمئن، هذا هو المطلوبُ تماماً، قال بورفيري هذا بسرعة كان أمراً ما يستحثهُ، ثُمَّ تناول الورقة وألقى عليها نظرةً خاطفةً، وواصل كلامهُ بذلك التعجُّلِ نفسهُ.
أضاف مؤكداً:
ـ ذلك هو المطلوبُ تماماً. لا يجبُ أكثر من هذا....
ووضع الورقة على المكتب. ثُمَّ بعد دقيقة، بينما كان يتكلم في أمرٍ آخر، تناول الورقة من جديد، ووضعها على منضدةِ الكتابة.

---

1 - بلا كلفة، بالفرنسية بالأصل.

واستأنف راسكولنيكوف كلامهُ فقال:

- قلت لي بالأمس، فيما يخيَّلُ إليَّ... إنَّكَ تودُّ.... أن تستجوبني.... رسمياً.... عن علاقاتي..... بهذه.... بالمرأةِ القتيل.....

وأسرع راسكولنيكوف يقول لنفسه مؤنِّباً: "عجيب.... لماذا أضفت عبارة" يخيَّلُ إليَّ" هذه؟"

ثُمَّ وضعت في ذهنه على الفور فكرةً جديدةً كومضِ البرق: "ولكن لماذا أقلقُ هذا القلقَ كُلَّهُ من قولي" يخيَّلُ إلي"؟

وشعر فجأة بأن هذا الاتصال وحده ببورفيري بتروفتش، وهذه الكلمات وهذه النظرات المتبادلة وحدها قد كانت كافية لأن تحدث في نفسه ارتياباً فظيعاً..... وأن هذا كُلَّهُ خطرٌ، خطرٌ خطراً رهيباً، وأعصابهُ تتوتر، واضطرابه يربو عجولاً. فقال لنفسه مقرعاً: "غلط، غلط، سأفضح أمري من جديد".

جمجم بورفيري بتروفتش:

- نعم، نعم، اطمئن.... لا شأن للعجلة، لا للعجلة البتَّة.

كان بوفير بتروفتش يقول هذا الكلام وهو يدور حول المكتب طولاً وعرضاً، ولكن دون ما هدفٍ فيما يبدو، كأنَّهُ لا يعرف ما الذي كان يجذبُهُ نحو النافذة، ثُمَّ يجذبهُ نحو مكتبهِ ثمَّ نحو مكتبهِ من جديد.

وكان، وهو يسير، يتماشى نظرة راسكولنيكوف الريَّابة تارةً، وطوراً يتوقف فجأة، فيحدِّقُ إلى محدثهِ وجهاً لوجه، إنَّه لمشهدٌ غريب، مشهد هذا الرجل القصير اللحيم، المدوَّر ككرةٍ، الذي كان كأنَّه يتدحرجُ من هنا وهناك، ثُمَّ يعود يثبُ على الفور من جميع الجدران، وجميع الأركان.

- أمامنا متسع من الوقت، متسع من الوقت.... هل تدخن؟ هل تملك ما.... إليك سيجارة ( قال ذلك وهو يمد سيجارة إلى ضيفه).... إنني استقبلك هنا، ولكن شقتي هناك، وراء هذا الحاجز. أنا أسكن على نفقة الدولة، ولكني أقطن مؤقتاً خارج الدائرة كما تعلم.... نعم، ذلك أن هناك إصلاحيات صغيرة وجب

إجرائها هنا، وقد دنت الآن أن تنتهي، شيءٌ عظيمٌ أن يسكن المرء على حساب الدولة، هه؟ شيءٌ عظيمٌ جدًّاً. ما رأيك؟ هه؟

أجاب راسكولنيكوف وهو يلقي عليه نظرةً تشبهُ أن تكون ساخرة:

- نعم، شيءٌ عظيمٌ جدًّاً!

فردَّدَ بورفيري بترفتش هذه العبارة، وكأنَّه أصبح يفكِّرُ فجأةً في شيءٍ آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف:

- شيءٌ عظيمٌ جدًّاً، عظيمٌ جدًّاً....

وأضاف بما يشبه أن يكون صراخاً، وهو يحدِّقُ إلى راسكولنيكوف متوقفاً أمامه:

- نعم، شيءٌ عظيمٌ جَّداً.

إن هذه الطريقة الحمقاء السخيفة في ترداد هذه العبارة ( أن السكن على نفقة الدولة شيءٌ عظيمٌ جدًّاً) تناقضُ جداً ما كان قاضي التحقيق يرمي به إلى راسكولنيكوف من نظرةٍ جادَّةٍ، متأملةٍ، ملغزةٍ، ولكن ذلك زادَ الطين بلَّة، فلم يستطع أن يكبح جماح نفسه، فإذا به يتحدى تحدياً فيه غير قليلٍ من الطيش، فيسأل بورفيري بتروفتش فجأةً، وهو يلقي عليه نظرةً تكاد تكون وقِحةً، حتى لكأنَّه يجد في وقاحتهِ هذه لذَّةً ومتعة:

- هل تعلم أن هناك، فيما يقال، قاعدةً قضائيةً، وأسلوباً قضائياً يمكن أن يستخدمه جميع قضاة التحقيق، هو أن يتحدث أولاً في أمور تافهة سخيفة أو حتى في أمورٍ هامةٍ لكنَّها غريبةٌ عن الاستجواب كلَّ الغرابة، وذلك من أجل أن يطمئن الشخص الذي يستجوبه، أو قل من أجل أن يسهيهِ، من أجل أن ينوِّمَ انتباههُ، ثُمَّ إذا هو يهوى على رأسه فجأةً بالسؤال الحاسمِ الخطير الرهيب؟ أليس هذا صحيحاً؟ يظهر أن هذا الأسلوب قد طبِّقَ حتى الآن تطبيقاً دقيقاً، وروعي مراعاةً تامةً، أليس كذلك؟

- إذاً، أنت تظنُّ.... إذاً، إنني إنَّما حدثتك عن المساكن التي تقدمها الدولة على

نفقتها، من أجل أن.... هه؟

قال بورفير بتروفتش ذلك، وغضن جفنيهِ، وطرف بعينهِ، وبان في وجهه تعبير عن مرحٍ ومكرٍ، وانمحت تجاعيدُ جبينهِ الدقيقة، وتضيقت عيناهُ الصغيرتان، وتمددت أخيراً قسماتهُ، فحدَّق إلى عيني راسكولنيكوف وانفجرَ يقهقهُ ضحكاً عصبياً طويلاً يهزُّ جسمهُ كُلَّهُ، وأراد راسكولنيكوف أن يحمل نفسه على مجاراتهِ في الضحك، فهمَّ أن يضحك هو أيضاً، ولكن بورفيري بتروفتش حين رأى راسكولنيكوف يوشك أن يشاركه ضحكهُ، انتابتهُ نوبةً مسعورةً من ضحكٍ بلغ من القوَّةِ أنَّ وجههُ احمرَّ احمراراً شديداً، فتغّلبَ اشمئزاز راسكولنيكوف عندئذٍ على تعقُّلِهِ، فأمسك عن الضحك، وقطب حاجبيه، ونظر إلى بوفاري بتروفيتش طويلاً، نظرةً كريهةً حاقدةً، وظلَّ لا يحوِّلُ عنه بصره في أثناء ضحكهِ المفتعلِ الطويلِ بلا نهاية، كأنَّما عن قصدٍ وعمدٍ. والحقُّ أنَّ الرجلين كليهما لم يلتزما جانب الحكمةِ، والتبصرِ، والتعقُّل:

فأمَّا بورفيري فكان كمن يسخرُ من زائرهِ صراحةً، وأما راسكولنيكوف فقد استقبل ذلك الضحك بكرهٍ شديدٍ، وهو كَرِهَ القاضي لأنَّهُ ضاقَ بهِ أو كَدَّرَهُ.

وذلك أمرٌ لَفت انتباه راسكولنيكوف: لقد أدرك بورفيري أنَّهُ لم يكن مرتبكاً أيَّ ارتباك منذ قليل، بل بالعكس أنَّه هو، راسكولنيكوف الذي وقع في الفخ، وأنَّ هناك أمراً يجهلهُ ولا شك، أمراً مدبَّراً منذ زمنٍ بعيد سيكشف بعد لحظةٍ، وسينصبُّ على رأسهِ.

لذلك انتقل إلى الجِدِّ قدماً، فنهض متناولاً قبعتهُ، وبدأ يتكلم فقال بلهجةٍ جازمةٍ غيرَ أن فيها احتجاجاً قوياً:

ـ يا بورفيري بتروفتش، لقد أعربتَ أمس عن رغبتكَ في أن تراني لكي تستجوبني( أبرز راسكولنيكوف كلمة يستجوبني هذه) وها أنا ذا قد جئتُ،

فإن كنت في حاجةٍ إلى أن تعرف شيئاً ما ، فاستجوبني ، وإلا فاسمح لي أن أنصرف ، ليس في وقتي متسع ، هناكَ أمورٌ تدعوني.... يجب أن أحضر دفن ذلك الموظف الذي داستهُ الخيل أمس..... وقد سمعت أنت عن الحادثة التي جرت له.... ولكنَّهُ سرعان ما ندم على أنَّه أضاف هذه الجملة فزاد ذلك من غضبهِ ، وتابع:

ـ لقد تعبت من هذا كُلِّهُ ، تعبت ، هل تفهم ؟ تعبتُ منذُ أمد.... ولعلَّ ذلك احد الأسباب التي جعلتني مريضاً.... الخلاصة.....

وشعر مرَّةً أخرى بأن الجملة التي أضافها عن مرضهِ ليست في محلها أيضاً فتابع بصوتٍ أعلى:

ـ الخلاصة.... استجوبني من فضلك.... أو دعني أنصرف فوراً ، ولكن إذا استجوبتني فيجب أن يتم الاستجواب وفقاً للأصول المطلوبة والقواعد المتَّبَعة ، وبغير ذلك لا أسمحُ لك به ، لذلك أودعك الآن فليس علينَّا أن نجلس هنا وحدنا.

صاح بورفيري بتروفتش يقول مغيراً لهجتهُ ووضعهُ على حين فجأة ، منقطعاً عن الضحك دفعةً واحدةً:

ـ عجيب! ماذا جرى لك؟

وأردف:

ـ اطمئن ، أرجوك....

وكان يذهب ويجيء مهموماً ، وفجأةً طلب من راسكولنيكوف أن يجلس. قال:

ـ لدينا متسعٌ من الوقت ، متسعٌ من الوقت ، وهذا كلُّهُ من دون قيمةٍ البتة. وبالعكس:

أنا مسرورٌ جدَّاً من أنَّكَ جئت إلينا أخيراً! إنني استقبلك كما يُستقبل الضيف ، أما عن ذلك الضحك اللعين ، اعذرني يا عزيزي روديون روما نوفتش.... هذا هو اسمك ، أليس كذلك؟ روديون روما نوفيتش.... إن ملاحظتك المرهفة قد أثارت في نفسي مرحاً عريضاً..... حقَّاً إنَّهُ ليتفق لي أحيانا أن أتواثب ككرةِ مطاطٍ

بسبب الضحك طوال نصف ساعة، إنني سريع إلى الضحك، حتى أنني أخشى أن أصاب بنوبةٍ قلبيةٍ، وأنا بدينٌ، ولكن لماذا لا تجلس؟ هلَّا جلست! أرجوك أن تجلس يا عزيزي، وإلا اعتقدتُ أنَّكَ زعلان!

كان راسكولنيكوف صامتاً يصغي ويلاحظ، وما يزال يتجوَّلُ في الغرفة، ويتماشى نظرةُ ضيفهِ، فقال:

ـ سأذكر لك شيئاً يا عزيزي روديون روما نوفتش، لأعطيك فكرةً عن طبعي. أنا رجلٌ ما أزالُ أعزب كما ترى، فأنا إذاً لا أعاشرُ الناس ولا اختلف إلى المجتمع كثيراً، وأنا إذاً رجلٌ غامضٌ، مجهول، وأنا عدا ذلك إنسانٌ مُكتملُ التكوين، متعظِّم الجسم، مخدَّرُ الإحساس، و....و..... هل لاحظت يا روديون روما نوفتش أنَّ عندنا، أقصد عندنا في روسيا، ولا سيما في أوساط بطرسبورغ، ما أن يلتقي شخصان ذكيان لا يعرف أحدهما الآخر معرفة جيدةً، ولكنها بالمناسبة يحترمان بعضهما احتراماً تاماً. مثلنا نحن، أنا وأنت، إذ صح التعبير. حتى نرى هذين الشخصين عاجزين طوال نصف ساعة عن العثور على كلمة واحدة يقولها احدهما للآخر؟ إن كلا منهما ينظر إلى صاحبه ككلبين من خزف، وإن كلَّاً منهما يجلس قبالة الآخر ويخشى صاحبه ويخاف منه، إنَّ لكلِّ النَّاس موضوعاً يتحدثون فيه، مثلاً السيدات.... أو أفراد المجتمع الراقي..... أفراد الطبقة المخملية.... نعم، إن لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه[1] e est de rigueur ولكن أفراد الطبقة المتوسطة..... الأفراد الذين مثلنا.... يكونون دوماً مربكين صموتين.... أعني منهم أولئك الذين يُفكرون. ما سبب هذا يا عزيزي؟ هل الاهتمامات الاجتماعية هي التي تعوزنا، أم نحن ناس أشراف جداً فلا يريد أحدنا أن يخدع صاحبه. لا أدري.... ما رأينا أنت؟ ولكن هلا تركت قبعتك! لكأنك تريد أن

[1] ـ ذلك أمر واجب لا مفر منه ـ بالفرنسية بالأصل ـ المترجم

تتصرف على عجل. هذا مؤسف أما أنا فمسرور جداً....

ترك راسكولنيكوف قبعته، ولكنه ظل صامتا متهجم الوجه يصغي بجدية ورصانة إلى ثرثرات بورفيري بتروفتش المفككة، متسائلا: أيريد حقاً أن ينوم انتباهي بهذا السيل المتدفق من اللغو التافه والسخيف؟"

- لم أقدم لك قهوة، إذ ليس هنا بالمكان المناسب. ولكن لا تحب أن تجالس صديقا طيبا مدة خمس دقائق.... لتسليته قليلاً.... هذا عدا واجبات الوظيفة كما تعلم.... وأرجوك خاصة يا عزيزي ألا تزعل إذا رأيتني على هذا الحال أسير في الغرفة طولا وعرضا.... معذرة يا عزيزي.... أنني أتحاشى أن أكدرك كثيراً، ولكن لا بد لي من شيء من الرياضة.... أنني جالس دائماً..... ويسرني كثيراً أن يتاح لي الآن أن أمشي قليلاً خلال خمس دقائق..... هي البواسير يا عزيزي.... وأنا أريد دائماً أن أعالجها بالتمارين الرياضية.... يقال إن رجالاً من مستشاري الدولة، رجالاً من كبار موظفي الدولة، يقفزون على الحبل كلَّ يومٍ على نظامٍ مطَّرد، ويجدون في ذلك لذَّةً. نعم، هذا هو معنى العلم في أيامنا.... أما التزاماتي هنا، أما هذه الاستجوابات وهذه الشكليات كلَّها التي جئتَ على ذكرها، فعليكَ أن تعلم حقاً يا عزيزي روديون روما نوفتش أن هذه الاستجوابات كثيراً ما تحيِّرُ القاضي أكثر ممَّا تحيِّرُ المتهم....

كما ألمعتَ أنتَ إلى ذلك بكثيرٍ من رهافةِ الملاحظةِ، ونفاذِ البصيرة( لم يكن راسكولنيكوف قد ألمع إلى شيءٍ من هذا أبداً ) نعم، إنَّ المرءَ ليرتبكُ، حقَّاً، وتختلط عليهِ الأمور، وهذا يتكررُ هو نفسهُ دوماً، يتكررُ مراراً وتكراراً، على وتيرةٍ واحدةٍ، كقرعِ الطبلِ.... نغمةٌ واحدةٌ.... على أننا موعودون الآن بإصلاحاتٍ، فستتغيرُ أسماؤنا على الأقل. هيء هيء هيء! .... أما عن أساليبنا القضائية. على حدِّ تعبيركِ الظريف الفَكِه، فأنا أوافقك كل الموافقة، قُل لي من فضلك: أيُّ مُتَّهمٍ لا يعرفُ، ولو كان أجهل فلاح، أن المحقق إنَّما يبدأ بمحاولة تنويمه.

على حدِّ تعبيرك المناسب الموفّق، بأن يلقي عليهِ أسئلةً لا تمتُّ إلى الموضوع بصلةٍ، ثُمَّ يهوي على رأسهِ بالموضوع كأنَّه يهوي على رأسهِ بفأسٍ.... على رأسه بالذات.... حسب تعبيرك الموفق أيضاً.... هيء هيء!.... إذاً لقد ظننت فعلاً أنني حين حدثتُكَ عن مسألة السكن على نفقة الدولة إنّما كنت أُريد.... هيء هيء! يالك من مازح! لا، لن أستمر في ثرثرتي، إذاً....آ.... بالمناسبة..... إن كلمة تستدعي كلمة أخرى، وأن فكرةً تستحضرُ فكرةً ثانية.... لقد أشرت، منذ قليل، إلى أصول الاستجواب وقواعدهِ، كما تتذكر.... أشرت إلى الشكل الذي يجب التقيد به في الاستجواب، ولكن قُل لي: ما هو الشكل؟ إن الشكل في كثير من الأحيان، لا يكون لهُ أيُّ معنى، وربَّ حديثٍ وديٍّ أَنفعُ كثيراً من استجوابٍ يتقيَّدُ فيهِ المحقِقُ بالشكل، ويلتزم فيه القواعدَ والأصول. طبعاً.... أما الشكل فلا مهربَ منه في أيِّ حال، ولكن اسمح لي بالسؤال ما هو الشكل في حقيقةِ الأمر؟ ليس للشكل أن يعرقل عمل قاضي التحقيق في كُلِّ لحظةٍ، إن مهنة قاضي التحقيق فنٌّ حرٌّ إن جاز القول.... أو هي شيء من هذا القبيل.... هيء هيء هيء!....

توقف بتروفيري بتروفتش ليستَرِدَّ أنفاسهُ، كان يتكلَّمُ متدفقاً كالسيل، تارةً يقذف عباراتٍ عجفاءَ لا معنى لها ولا طعم، دون كللٍ ولا مللٍ، وتارةً يدسُّ كلمةً صغيرةً غامضةً وغريبةً، ليعودَ بعد ذلك فوراً إلى هذرهِ الماجن ولغوهِ السخيف، وكان كمن يركضُ في الغرفة ركضاً، هازاً ساقيهِ القصيرتين الربلتين باستمرارٍ، واضعاً يده اليمنى وراء ظهرهِ، وهو يحني رأسهُ محركاً أبداً يدهُ اليسرى بشاراتٍ تتناقضُ مع أقوالهِ تناقضاً ناشراً، ولاحظ راسكولنيكوف فجأةً أنَّهُ قد توقف في أثناءَ جريهِ السريع مرتين أو ثلاثاً أمام الباب، وبدا عليه أن ينصت لحظة، تساءل راسكولنيكوف " أهو ينتظر شيئاً؟"

واستأنف بورفيري بتروفتش كلامهُ مرحاً، وهو يلقي نظرةً ساذجةً إلى درجةٍ

عجيبةٍ، أرعشت الشابَّ وجعلتهُ يتحفَّزُ فوراً:

ـ الواقع أنَّك على صوابٍ تماماً حين تهزأُ من إجراءاتنا القضائية بمثل هذه الطريقةِ الظريفةِ.... هيء هيء.... إن أساليبنا ـ بعضها لا كُلُّها طبعاً ـ توهم بأنَّها مستوحاةٌ من سيكولوجيا جذرية، مع أنَّها حقيقةَ الأمرِ مضحكةٌ كليَّاً، بل هي في كثيرٍ من الأحيان عقيمةٌ، ولا سيما عند التقيد بالشكل تقيداً دقيقاً. ولكن.... فلنعد إلى مسألة الشكل هذه نفسها: لنفرض أنني مكلَّفٌ بالتحقيق في قضيةٍ، وأنني أعرف أو قُل أعتقد أنني أعرف أن الجاني هو فلانٌ أو فلانٌ... أنت تتهيأ لمهنة القضاء يا روديون روما نوفتش، أليس كذلك؟

ـ نعم، كنت أدرس القانون.

ـ طيب، هذا إذاً مثالٌ صغيرٌ يمكن أن يفيدكَ في المستقبل، إن جازَ القول. آ..... لا يذهبنَّ بكَ الظنُّ إلى أنني أريد أن ألقِنَكَ درساً، أنت الذي تكتب مثل هذه المقالات الجِدِّية عن الإجرام. لا، أبداً، فإنَّما أجرؤ على أن أضربَ لك هذا المثال كونَه واقعةٌ، لنفرض أنني ظننتُ أن فلاناً أو فلاناً من الناس هو الجاني. فعلامَ أُقلقُ فلاناً أو فلاناً قبل اللحظة المناسبة، حتى ولو ملكتُ أدلَّةً عليه؟ صحيح أنني قد اضطرُّ أن أعتقل فلاناً بأقصى سرعةٍ، ولكن فلاناً الآخر الذي ليس له ذلك الطبع نفسهُ، قد أتركهُ يتجوَّلُ في المدينة، هه؟ أحسب أنَّكَ لا تفهمني تماماً لذلك سأعرض لك الأمر بكُلِّ وضوحٍ، لنفرض أنني قبضت عليه قبل الأوان، أَفَلَستُ أمنَحَهُ هكذا نوعاً من عونٍ نفسي؟ هيء هيء! أيُضحك هذا الكلام؟ (إن راسكولنيكوف لم يخطر بباله قط أن يضحك. كان جالساً، كازَّاً شفتيهِ، لا يحوِّلُ نظرتَهُ المتَّقِدَة الملتهبة عن عيني بورفيري بتروفتش). هذا هو الأمر رُغمَ ذلك ولاسيما مع بعض الأفراد. نعم نعم، الأفراد متنوعون تنوعاً كبيراً، ولا بُدَّ من تنويع الأسلوب بتنوع هؤلاءِ الأفراد. قد تقول لي إن هناك أدلَّةً.... طيب: لنسلِّمَ بأن ثمَّةَ أدلَّةً! ولكن الأدلَّة يا عزيزي تكون في أكثر الأحيان ذات حدَّين، وأنا قاضي التحقيق، فعندي إذاً نواحي ضعف،

أعـترف لـك بـذلك، أنـا أتمنـى أن يكـون دليلـي قاطعـاً صـارماً كاسـتدلالٍ رياضي، كبرهـان رياضـي. أنـا في حاجـة إلى برهـانٍ بـديهي، كقولـك إن اثـنين واثـنين أربعـة، فـإذا اعتقلـت الشـخص قبـل الأوان، فـإنَّني مهمـا يكـن اقتنـاعي قويَّـاً بأنَّـه هـو الجـاني، أحـرم نفسـي بـذلك مـن الوسـائل الـتي سـتحمله علـى الكشف عن نفسه كشفاً أتم.

لماذا؟ لأنني أكون قد ألزمتهُ بوضعٍ معينٍ إن صحَّ التعبير، أي أكون قد حدَّدتُهُ فطمأنتَهُ من الناحية النفسية، فيفلت مني ويدخل في قوقعتهِ، لعلمهِ بأنَّه اعتقل وانتهى الأمر، يقال إن الناس الأذكياء في سيبا ستوبول، بعد معركةِ ألما رأسا[1]، قد خافوا كثيراً في أول الأمر من أن يهاجمهم العدو فوراً وأن يستولي على سيبا ستوبول في الحال. فلما رأوا أن العدو قد آثر القيام بحصار أصولي، نظامي، فبدأ يحفر الخنادق الأولى، سرُّوا سروراً عظيماً واطمأنوا اطمئناناً تاماً، فبذلك يطول الأمر شهرين أو أكثر، لأن الانتهاء من حصار على الأصول لا بُدَّ لهُ من وقت. ما بالك تضحكُ أيضاً؟ أما تزال لا تصدقني؟ أمحقٌّ، من وجهة نظرك، هذه حالات خاصة، وأنا أوافقك كل الموافقة. إن الحالة التي أعرضها لك الآن حالة خاصة تماماً. ولكن يجب عليكَ يا عزيزي روديون روما نوفتش أن تعلم حقَّ العلم أن الحالةَ العامة التي تلائمها جميع الأصول القضائية وجميع الأنظمة، والتي على أساسها تحسب هذه الأنظمة وتسجَّلُ في الكتب، لا وجودَ لها على الإطلاق، وذلك لسببٍ بسيطٍ هو أن كُلُّ فعلٍ، ولنفرض أن جريمة، ما أن يحدث في الواقع حتى يتحوَّلُ إلى حالةٍ خاصةٍ، بل خاصةٍ جداًّ لا تُشبِهُ في شيءٍ أيُّ فعلٍ آخر. وفي بعض الأحيان تعرض حالاتَ غريبةً ظريفةً في نوعها، ففي تلك الحالات أَدَعُ الشَّخصَ وحيداً، لا أُزعجَهُ، لا أعتقلهُ، ولكنَّهُ إلى علمٍ أنني في كُلِّ ساعةٍ، بل في كلِّ دقيقةٍ، أعرف كلَّ شيءٍ، وأنني

1 - معركة وقعت في 1854 خسرها الجيش وانكفأ في الحال إلى سيبا ستوبول في أثناء معركة القرم.

أراقبـهُ لـيلاً ونهـاراً ولا تغمـض عـينيَّ عنـه، إذا أصـبح فريسـةَ ارتيـابٍ مسـتمرٍ، وخـوفٍ متصـلٍ، فيمينـاً ليأخذنَّـهُ عندئـذٍ دوار، وليـأتينَّ مـن تلقـاءِ نفسـهِ، وقـد يحدث أيضاً أن ينساقَ إلى اقترافِ شيءٍ لا يقلُّ وضوحاً عن كون "اثنين + اثنين = أربعة"، شـيءٌ يمكـنُ أن يوصـفَ بأنَّـهُ ذو طـابعٍ رياضـي، وتلـك هـي المتعـةُ في الأمر، قد يحـدثُ هـذا لفـلاحٍ بسيطٍ، ويمكـن أن يحـدث لرجـلٍ مـن أشـباهنا، لرجلٍ ذكـيٍّ عصريٍّ مثقَّف. ذلك أنَّه أمـرٌ هـامٌ جـدًّاً يـا عزيـزي أن نعـرف الاتجـاه الـذي تطـوَّرَ فيـهِ شـخصٌ مـن الأشـخاص، ثُـمَّ إن الأعصـاب، الأعصـاب، أتـراك نسيت الأعصاب؟ الأعصاب هي الضعيفةُ الآن، هـي المريضـة، هـي المستشـارة، ومـا قولـك في الاهتيـاج؟ إن هياجـاً كـثيراً قـد نجمـع وتكـدس لـدى النـاس! وأؤكد لك أن هذا بعينه مصدر للمعلومات لا ينضب! فهل يـؤذيني إذاً أن أتـرك الجأنني يتجول في المدينة حرا طليقا؟ ألا فليستمر يتحـول أنـني لا أعـترض علـى هذا أبداً. فأنا أعلم، مهما يحدث، أنَّه "فريستي الغالية" وأنَّه لن يفلت مني! إلى أين عساه يهرب؟ إلى الخارج؟ قد يهرب بولنـدي إلى الخـارج، أمـا هـو فلـن يفلـت ولـن يهـرب، لاسـيما وأنَّـه تحـت بصـري وسمعـي. وأنـني اتخـذت الاحتياطـات اللازمة. أتراه يفر إلى آخر البلاد؟ ولكـن في آخـر الـبلاد لا يعـيش إلا فلاحـون، إلا روس حقيقيون، أما هو الذي تثقف ثقافة حديثة، فأنَّه يؤثر السـجن علـى أن يجـاور أجانـب كفلاحينـا..... هـيء هـيء..... علـى أن هـذا كلـه أمـازيح علـى الهامش. ما الهرب؟ أمر شكلي صرف. ليس هو الأسـاس فالرجل لـن يهـرب، لا لأنَّه لن يعرف إلى أين يـذهب فحسـب، بـل هـو لـن يهـرب لأسـباب سـيكولوجية أيضاً....هيء هيء ..... تعبير موفق جداً، هه؟ لا، لا، أنَّه لـن يهـربَ، وذلـكَ بفعـلِ قـانونٍ طبيعـي، حتـى ولـو عـرف إلى أيـن يـذهب! أمـا رأيـت فراشـةً تحـومُ حـولَ شمعـة؟ إلا أنَّـهُ سـيدورُ حـولي دوران الفراشـة حـول الشـمعة سـتأخذ تثقـل عليـهِ الحريـة، وسـيأخذُ يفكِّـر، وسـيرتبك، سـيقع في شـباكٍ ينسـجها هـو نفسـهُ، ليخلُقَ لنفسهِ خوفاً قائلاً. بل أنَّهُ سيهيءُ لـي مهزلـةً رياضيـةً يبـدعها هـو، مهزلـةً

مـن نـوع " 2+2=4"، شـريطةَ أن أدعَ لـهُ فرصـةً بطبيعـةِ الحـال. وسـيظلُّ، بغـيرِ انقطاع، يحوم حولي على دوائرَ ما تنفكُّ تضيق، ثُمَّ إذا هو يسقط في فمي دفعةً واحدةً، فأبلعهُ، وما ألذَّ هذا! هيء هيء، ما رأيك؟

لم يجب راسكولنيكوف. ظلَّ جالساً، شاحبَ الوجهِ، جامداً، ما ينفكُ يحدِّقُ إلى وجهِ بروفيري بتروفتش بانتباهٍ ثابتٍ.

حدَّثَ نفسهُ يقول متجمِّداً من الرعب: " هذا درسٌ رائعٌ.... ليست الحكاية اليوم حكايةَ الهرَّةِ تعبثُ بالفأر كما كانت بالأمس. لا، ليست قوتهُ هي ما يريد اليوم أن يظهرهُ لي في غير طائلٍ، أو أن يوحي إليَّ بهِ.... هو أذكى من أن يفعل هذا، إنَّ أمامَهُ الآن هدفٌ آخر، ما هو؟ دعك يا صاحبي، غباءٌ ما تفعل، سخافات.... أنتَ تحاولُ أن تخيفني.... أنت تَمكُرُ وتحتال.... ليس لديك أيُّ دليل. ورجل الأمس لا وجودَ لهُ. أنت تحاولُ أن تربكني، وأن تشوشني، وأن تثير أعصابي سلفاً حتى تهوي عليَّ بالضربةِ المفاجئةِ وأنا على هذه الحال.... ولكن فألك خاب، ولسوف تطيش ضربتك فما تصيب سوى الريح، نعم، سوف تطيش ضربتك..... ولكن ما باله يوحي إليَّ بما يجب أن أعملهُ! إلى هذا الحد، ليس الأمر عادياً!..... أهو يعوِّل على أعصابي المريضة؟ لا، لا يا صاحبي، لقد أخطأ ظنُّك، وعُمِيَ بصرك.... ومهما تكن قد أعددتَ من شيءٍ.... طيب، سنرى ما أعددت!...."

وكتَّلَ راسكولنيكوف كُلَّ قواه، استعداداً لمواجهةٍ نازلةٍ رهيبةٍ مجهولةٍ. تمنى في بعض اللحظات لو ينقضُّ على بورفيري بتروفتش فيخنقهُ في الحال، إنَّهُ منذُ دخولهِ قد خَشيَ أن يشعُرَ بمثل هذا الغضب، وهو يشعرُ الآن بأنَّ فَمَهُ جافٌّ، وبأنَّ قلبَهُ يخفقُ بشدَّةٍ، وبأنَّ الزَبَدَ يتقاطر إلى شفتيهِ، ومع ذلك قرر أن يصمُت، وأن لا يقولَ كلمةً واحدةً قبل أن يحينَ الحين، أدركَ أنَّ هذهِ هي اللحظةُ الأمثل في هذا الظرف، فهو بذلك يتجنَّبُ فضح نفسهِ بكلامهِ، وهو بذلكَ أيضاً يثيرُ أعصابَ محدِّثهِ بصمتهِ، فلعلَّ محدِّثَهُ هو الذي سيفضحُ نفسهُ

ويكشفَ عن نياتهِ إذ يتكلّم. ذلك ما كان يأمله راسكولنيكوف على الأقل.

استأنف بورفيري كلامهُ بمزيدٍ من المرحِ، حتى لقد كان ينقنق تلذُّذاً، فقال وهو ما يزال يدور في الغرفة:

ـ لا، أنتَ تصدقني، أرى أنك لا تصدقني، تظن أنني أمطرك بمزاحٍ صغيرٍ تافهٍ، وأنَّكَ لعلى حقٍّ طبعاً، فإن الله نفسهُ قد وهبني مظهراً جسيماً لا يمكن أن يثير لدى الآخرين إلا خواطرَ مضحكةً. أنا bouffon[1]! ولكن إليك ما أريد أن أقول لهُ، بل أن أكرر على أُذُنيك، يا عزيزي روديون روما نوفتش: يجب عليكَ أن تعذر الشيخ الذي يكلمك. أنت شاب، في زهرةِ العمر إن جاز القول، وأنت لذلك تقدِّرُ الذكاءَ الإنساني أكثر من أيِّ شيءٍ، كسائرِ الشبابِ، إن حدَّةَ الفكرِ، وحجَجَ العقلِ المجردةِ تفتنكَ. أنت على وجه العموم تشبه " المجلس الحربي الأعلى" الذي كان بالنمسا في الماضي، هذا إذا صَدَقَ حُكمي في الشؤون العسكرية: إن أعضاء هذا المجلس هم الذين سحقوا نابليون وأسروه، في خططهم التي وضعوها على الورق. نعم، إنَّهم في مكاتبهم، قد هيأوا كلَّ شيءٍ، ورتبوا كلَّ شيءٍ، بدقَّةٍ متناهيةٍ، وترتيبٍ رائعٍ. ذلك ما فعلوهُ على الورق.

أما في الواقع فإنَّ قائدهم الجنرال ماك هو الذي استسلم مع جيشه كُلّهُ....هيء هيء هيء..... إنني أرى، يا عزيزي روديون روما نوفتش أنَّكَ تسخرُ مني، لأنني أنا المدنيُّ المحضُ أضربُ أمثلةً مُستمدَّةً من التاريخ الحربي، ولكن ما حيلتي؟ هذه نقطة الضعف لديَّ، إنني أحبُّ فنَّ الحربِ، وأَبلُغُ من حُبِّهِ أنني أقرأُ جميعَ ما يتصلُ بالحربِ من قريبٍ أو بعيدٍ، لا شكَّ أنني أخطأتُ في اختيارِ مهنتي في هذهِ الحياة. كان عليَّ أن أعملَ في الجيشِ. هذا حقٌّ. لو عملتُ في الجيش، لعليَّ لا أصيرُ قائداً كبيراً مثل نابليون، ولكني أصيرُ "ميجر" ـ رائداً ـ ناجحاً.....

---

1 - مهرج، بالفرنسية بالأصل

هيء هيء هيء.... الخلاصة..... ما دمت الآن بسبيلي أن أقولَ لكَ الحقيقة عن هذه الحالة الخاصة، فإنَّ الواقعَ والطبيعة، يا سيدي العزيز، هما من الأمور الهامةِ جداًّ وفي بعض الأحيان يدحضانِ أكثرَ الحساباتِ حكمةً! نعم، صدِّق شيخاً مثلي. إنَّني أتكلَّمُ جاداًّ لا هازلاً يا روديون روما نوفتش (حين قال بورفيري بتروفتش هذا الكلام، فإنَّهُ وهو الذي لم يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر، قد غدا أشبهَ بشيخٍ فعلاً، حتى أن صوتهُ تغيَّرَ، وظهرهُ تحدَّبَ). ثُمَّ أنني رجلٌ صريحٌ أكثرَ من اللزوم: أنا أقول لكَ هذا كُلَّهُ مجاناً، لا أطلب جزاءً ولا شكوراً، هيء هيء.... دعني أُتِمُّ كلامي: أن يكون المرءُ ذكياً، فتلكَ ميزةً متألقةً في رأيي. إن الفكرَ زينةَ الطبيعة إن صحَّ التعبير، وهو عزاءُ الحياة، وما أكثر ما يستطيعُ الرَّجُلُ الذَّكيُّ أن يعمد إليه من حيلٍ، فكيفَ تُريدُ لقاضي تحقيقٍ مسكينٍ أن لا يتوه، وأن لا يَضِلُّ في شعابِ هذهِ الحيل، لاسيما إذا كان خيالهُ نفسهُ يضللهُ لأنَّهُ إنسانٌ كسائرِ البشرِ، أليس كذلك؟ ولكن الطبيعة نفسها تهبُّ إلى نجدة قاضي التحقيق المسكين فتخرجهُ من الارتباك وتنقذه من المأزق. وذلك هو البلاء، وذلك هو ما ينساهُ شبابنا " الذكي" الذي "يتخطى كل الحواجز" ( على حدِّ التعبير الذي استعملته أنت بالأمس في كثير من الرفاهةِ والمكرِ). قد يعمد صاحبنا إلى الكذب ـ أنا أتكلم طبعاً عن شخصٍ دونما تعيين، عن حالةٍ خاصةٍ [1] in eognito

ـ وقد يكذبُ كذباً فيهِ غايةَ البراعةِ والمكرِ، وقد يظنُّ عندئذٍ أنَّهُ سينتصر، إنَّهُ سيقطفُ ثمراتُ مكرهِ، ولكنَّهُ ها هو ذا يُغمى عليه فجأةً في اللحظة الخطرة! لنسلِّمَ بأنَّ علينا أن نحسُبَ حسابَ مرضهِ، فكثيراً ما يشعرُ المرءُ باختناقٍ حين يوجدُ في غرفةٍ فاسدةُ الهواء، ولكنَّ صاحبنا يكون قد قدَّمَ إلينا إحدى القرائن، صحيحٌ أنَّهُ ذرُّ الرمادِ في العيون بكثيرٍ من الحذقِ والبراعةِ،

1- رجل مجهول ـ باللاتينية في الأصل

ولكنَّهُ لم يحسب حساب الطبيعةِ إلى درجةٍ كافيةٍ، وذلك هو الشُرك! وفي مرَّةٍ أخرى ينساق مع ذكائهِ المتَّقد، فيروحُ يعبثُ بالشخص الذي يشتبهُ بهِ، فيشحبُ لونَهُ عمداً كمن يتسلى، ولكنَّ شحوبهُ لا يخلو عندئذٍ من عنصرٍ طبيعي، فكأنَّهُ شحوبٌ حقيقي، مع أنَّه شحوبٌ زائفٌ، وهذهِ قرينةٌ أخرى يُقدِّمُها، وهَبهُ استطاعَ أن يخدعَ مُحدِّثَهُ في تلك اللحظة، فمحدِّثَهُ، إن لم يكن غبياً، لا بُدَّ أن يرجع عن خطئِهِ في الليل. نعم، هكذا تَجري الأمور في كُلِّ خطوةٍ، ثُمَّ هو يبادرُ هو نفسهُ إلى السبق، فينشأ يتدخلُ في أمورٍ لا يسألهُ عنها أحدٌ، ويثرثرُ دون انقطاعٍ فيما كان يحسُّ بهِ أن يسكُتَ عنهُ، وأن لا يتكلم عليهِ، ويسترسل في تلميحاتٍ وإلماعات. نعم..... يجيءُ من تلقاءِ نفسهِ ويبدأُ بطرحِ الأسئلة: " لماذا لم يعتقل حتى الآن؟ الخ. هيء هيء.... وهذا يمكنُ أن يقعَ حتى لأذكى رجلٍ، يمكن أن يقعَ لعالمٍ نفسي، لأديبٍ، فالطبيعةِ مرآةٍ، الطبيعة أنقى مرآة، يكفي المرءُ أن ينظر فيها. نعم، هذا هو الأمر، ولكن ما بالك تصفرُّ اصفراراً شديداً يا روديون روما نوفتش؟ هل ينقصك هواء؟ أأفتح النافذة؟

هتف راسكولنيكوف:

- لا، لا تزعج نفسك! ثُمَّ انفجر يضحك وهو يكرر:

- أرجوك، لا تزعج نفسك!

وقف بورفيري أمامهُ، وانتظرَ قليلاً، ثُمَّ انطلقَ يضحكُ هو نفسه ضحكاً مجلجلاً، فنهض راسكولنيكوف قاطعاً ضحكهُ الهستيري فجأةً، وقال بصوتٍ قويٍّ متميز، رغم أنَّهُ لا يكادُ يستطيعُ الوقوفَ على ساقيهِ المصطكتين:

يا بورفيري بتروفتش، إنني أرى أخيراً بوضوحٍ أنَّكَ تشتَبهُ بي، وتنسب إليَّ مقتلَ هذهِ العجوز وأختها إليزافيتا، وإنني لأعترفُ لكَ من جهتي أنني قد سئمتُ هذا الأمر وضِقتُ بهِ منذُ مدَّةٍ طويلة، فإن كنت تعتقدُ أن من واجبك أن تلاحقني

ملاحقةً قانونيةً فلاحقني، وإن كنت تعتقدُ أن من واجبكَ أن تعتقلني اعتقلني، ولكني لن أسمحَ لأحدٍ أبداً أن يضحكَ عليَّ وأن يعذبني هذا العذاب.

وبدأت شفتاهُ ترتجفان، وسطعت عيناه غضباً هستيرياً، ودوى صوتهُ دوياً قويَّاً بعد أن كان حتى تلك اللحظة مكظوماً، قال يصرخ بكل قواه، وهو يضرب المكتب بقبضة يدهِ:

ـ لا، لن أسمح بهذا أبداً، هل تسمع يا بورفيري بتروفتش؟ لن أسمح بهذا أبداً!

فصاحَ بورفيري مرتاع الهيئة:

ـ آه..... يارب! ماذا هناك؟ عزيزي روديون روما نوفتش، صديقي، ماذا دهاك؟

فصرخ راسكولنيكوف يردد مرة أخرى قوله:

ـ لن أسمح بهذا أبداً!

فدمدم بورفيري بتروفتش بارتياع ويكاد يلصق وجهه بوجه راسكولنيكوف:

ـ طيب، طيب. أخفض صوتك! وإلا سمعوا وأتوا، فما عسى نقول لهم إذا؟ هلا فكرت في هذا!

ـ لن أسمح بهذا أبداً، لن أسمح!

فاستدار بورفيري وهرعَ إلى النافذةِ يفتحها بسرعةٍ شديدةٍ قائلاً:

ـ ليدخل شيء من هواء، وأنت تحسن صنعاً يا عزيزي إذا شربتَ قليلاً من الماء، فهذهِ نوبة.....

وأسرع نحو الباب يريد أن يطلب الماء، غير أن إبريقاً ملآن كان هناك، في محلهِ، في ركنٍ من أركان الغرفة، فدمدمَ وهو يركض نحو الإبريق:

ـ اشرب يا صديقي العزيز، فعسى أن يحسن إليك شرب قليل من الماء....

دُهِشَ راسكولنيكوف من هذا الذُعر، ومن هذا العطف اللذين أظهرهما له بورفيري بتروفتش، واللذين كانا طبيعيين إلى درجةٍ أنَّهُ سكت فوقف فاغر الفمِ يلاحظُ صاحبهُ باستطلاعٍ شديدٍ لكنَّهُ رفض الماء.

قال بورفيري بتروفتش:

ـ روديون روما نوفتش، عزيزي! لسوف تفقدُ صوابكَ إن أنت أصريت، أؤكد لك....خذ.... اشرب..... اشرب ولو جرعةً واحدةً.

واستطاع أن يحملهُ على تناول الكأس، وأوشكَ راسكولنيكوف أن يحمل الكأس إلى شفتيهِ بطريقةٍ آليةٍ، ولكنَّهُ لم يلبث أن عدَّلَ رأيهُ فجأةً، فعادَ يضعُ الكأسَ على المائدةِ باشمئزازٍ.

ردَّ بورفيري بتروفتش وهو يظهر كثيراً من الملاطفة والوداد، ولكنَّهُ ما يزال محتفظاً بالقلق والاضطراب:

ـ نعم، هذه نوبةٌ حقاً!..... ها أنت ذا قد عدُّتُ إلى مرضكَ القديم. ربَّاه! هل يمكن ألا يداري المرء نفسهُ إلى هذا الحد؟ لقد جاءني دمتري بروكوفتش أيضاً، أمس.... أنا أوافق..... أوافق على أن لي طبعاً سيئاً.... أتكلم.... وأتكلم..... وهذه هي النتائج تستخرجها من كلامي!.... ربَّاه! نعم، جاءني أمس، مساءً، بعدك، وتعشينا، وتكلم، وتكلم، فلم أفعل إلا أن أرفع ذراعيَّ إلى السماء! بالمناسبة، يخطر ببالي الآن هذا السؤال: أتراك أنت أرسلتهُ؟ ولكن اجلس يا عزيزي! هلَّا جلست! اجلس، ناشدتُك اللّه!....

أجاب راسكولنيكوف بلهجةٍ قاطعةٍ:

ـ لا، لم أرسلهُ أنا، ولكني علمت أنَّه أتى إليك. وكنت أعرف سبب مجيئهِ أيضاً....

ـ كنت تعرف سبب مجيئه؟

ـ نعم، كنتُ أعرفُ هذا، فما تستنتج من هذا؟

يا عزيزي روديون روما نوفتش، أتظنُّ أنني أجهلُ أيَّ عمل من أعمالك؟

أنا أعرف كلَّ شيءٍ، أنا مطلعٌ على كل أمرٍ! أعرفُ مثلاً أنَّكَ ذهبت تستأجر تلك الشقة عند هبوط الليل، وأنَّكَ شددتَ حبلَ الجرس، وأنَّكَ ألقيت أسئلةً عن الدم، وأنَّكَ حيَّرتَ العمَّالَ والبوابين، إنني أفهمُ كلَّ الفهم الحالة النفسية التي كنت تعيشها.... في تلك الحقبة، ولكنني أؤكِّدُ لك أنَّكَ بهذهِ الطريقة ستفقد

عقلك حتماً، أقسم لكَ!.... سيستولي عليك الجنون، إنَّ الغضبَ الذي تركَتهُ عندك الإساءات، إساءات القدر أولاً، وإساءات رجال الأمن بعد ذلك، إن هذا الغضب، مهما كان غضباً نبيلاً، يغلي بشدَّةٍ في نفسك، وأنت لذلك تندفع إلى هنا وإلى هناك، لتُجبرَ النَّاس، إن صحَّ القول، على أن يصغوا إليكَ، ولتحملهم على الانتهاء من هذه المسألة دفعةً واحدةً إلى الأبد. نعم، لأنَّكَ قد ضقت بجميع هذه السخافات، وسئمتَ جميع هذه الشبهات، أليس هذا صحيحاً؟ ألم أدرك حالتك النفسية؟.... ولكني أقول لك: إنَّكَ بهذهِ الطريقة لن تفقد عقلك أنت وحدك، وإنَّما ستجعل صديقنا رازوميخين يفقدُ عقلهُ أيضاً. إنَّه أطيبُ كثيراً من أن يقحمَ في مثل هذهِ الأمور، وأنتَ تعلمُ ذلك حقَّ العلمِ.

إنَّكَ أنت مريض، أما هو إنسانٌ طيب، وسيلتَصقُ مرضكَ بهِ..... سأقصُّ عليَّك هذا حين تهدأَ يا عزيزي.... ولكن ما بالك لا تجلس؟ اقعد يا عزيزي، حلفت عليَّك! أرجوك، استرح، إنَّ وجهكَ غيرَ عادي.... هلَّا قعدت!....

قعد راسكولنيكوف، توقَّفَ عن الرجفان، ولكن جسمَهُ كُلَّهُ كان يحترقُ من الحمَّى.

وكان يصغي إلى بورفيري بتروفتش الذي يتحركُ حولهُ بكثيرٍ من المودَّةِ والصداقةِ، كان يصغي إليهِ بدهشةٍ ذاهلةٍ، وانتباهٍ شديدٍ، لكنَّهُ كان لا يصدِّقُ كلمةً واحدةً مما كان يقولهُ قاضي التحقيق، رغم أنَّه كان يميل ميلاً غريباً إلى التصديق. إن الأقوال المفاجئة، غير المتوقعة، التي قالها بورفيري عن الشَّقة قد صعقتهُ فتساءلَ فجأةً: " كيف؟ أهو يعرف حتى حكاية الشَّقة هذهِ؟ ويتحدثُ عنها هو نفسه؟

تابع بورفيري بسرعة:

ـ نعم، في حولياتنا القضائية، كانت حالةٌ تشبهُ هذهِ الحالة تقريباً، حالةٌ سيكولوجية مرضية، كالحالةِ الرَّاهنة. اتَّهَمَ رجلٌ نفسهُ بارتكابِ جريمةِ قتلٍ. يا لها من حكاية! لقد اخترع عالَماً كاملاً من الأوهام، وقدَّمَ وقائِعاً،

ووصـفَ ظروفـاً.... فـاختلط الحابـلِ بالنابـلِ! لمـاذا؟ لأنَّـهُ، علـى غـير إرادةٍ منـهُ إطلاقاً، كـان مسؤولاً فقط ـ فلمَّا عرف أنَّهُ قد أمدَّ الفاعليَّن بسبب دفعهم إلى ارتكـابِ جريمـةِ القتـل، اسـتولى عليـهِ قلقـاً شـديداً، وخوفـاً رهيبـاً، وأخـذ يرتكب حماقاتً، وأخذت تتراءى له أخيلةٌ وأوهام، واختلطت في عقله الأمور، واستطاع أن يقنـعَ نفسـهُ بأنَّـهُ هـو القاتل، ولكـنَّ محكمـةَ النقضِ اكتشفت الأمرَ أخيراً، فبرِّيءَ المسكين، ووضع تحتَ الوصاية. شكراً لمحكمةِ النقض! آ.....آ.... طبعاً يا عزيزي.... من الممكنِ جداً أن يصاب المريضُ بحُمَّى حارَّة حين تكون أعصابُهُ جانحةً إلى الهيجان بشدَّةٍ، وحين يذهب في الليلُ يشدُّ أجراساً بل ويسأل عن آثارِ دماءٍ..... إن هذه السيكولوجيا قد تعلمتُها من الممارسة العملية، حتى أنَّهُ قد يحدثُ لإنسانٍ في مثل هذه الحالات أن يرغب في إلقاءِ نفسهِ من النافذة أو من برجٍ ناقوس، هذا إحساسٌ لهُ إغراءٌ شديدٌ، هو المرض يا روديون روما نوفتش، هو المرض! أنت قد أسرفت في إهمالِ معالجةِ مرضك! كان عليَّك أن تستشيرَ طبيباً خبيراً، لا صاحبك اللحيم البسيط ذاك! هو الهيجان يا صاحبي! كلُّ شيءٍ مردَّهُ عندك إلى الهذيان!

راحت الغرفة كلَّها تدور أمام عيني راسكولنيكوف، لحظةً.

" هل يمكنُ أن يظلَّ يكذِبُ حتى الآن؟ مستحيل، مستحيل!" ـ ومضت في ذهنهِ هذه الفكرة، وهو يبعدها عنه لأنَّهُ كان يحسُّ مدى ما تدفعهُ إليه من حنقٍ و سعور، وكانَ يحسُّ أيضاً أنَّ هذا الغضب يمكن أن يفقدهُ عقلهُ.

صاح وهو يُركِّزُ جميع قوى عقلهِ لكي ينفُذَ إلى لعبة بورفيري:

ـ أنا لم أكن أهذي! كنت أملك نفسي تماماً، أملك نفسي تماماً، تماماً، أتسمع؟

ـ نعم، أسمع وأفهم. أمس أيضاً قلت لم تكن تهذي، بل ألححتَ على هذه النقطة. كل ما يمكن أن تقولهُ، أنا أفهمهُ. هيء هيء!.... ولكن أصغِ إليَّ قليلاً يا عزيزي الشهم، يا عزيزي الطيب روديون روما نوفتش. هبنا سلَّمنا

بهذا.... لو لو كنت أنت الجانيَ حقّاً، لو كنت أنت الجانيَ فعلاً، أو لو كان لكَ أيُّ شأنٍ في هذه القضية المشؤومة، أكنت تُلِحُّ هذا الإلحاحَ على أنَّكَ لم تكن تهذي، وعلى أنَّكَ فعلت ما فعلت واعياً كُلَّ الوعي؟ أهذا ممكن؟ أسالك: أهذا ممكن؟ في رأيي أنَّكَ كنت ستعمدُ عندئذٍ إلى نقيضِ ذلكَ تماماً! لو كنت تشعرُ بأنَّكَ الجاني، أفما يكون الأفضل عندئذٍ أن تلحَّ، خلافاً لذلك، على أنَّكَ فعلت ما فعلت وأنت في حالةِ هذيان؟ أليس كذلك؟

شعر راسكولنيكوف في هذا السؤال بشيءٍ من المكرِ، وارتدَّ إلى الوراءِ مُستنداً إلى ظهرِ الأريكَةِ حينما مالَ بورفيري بتروفتش نحوهُ صامتاً، فأخذَ راسكولنيكوف يحدِّقُ إليه مدهوشاً محتاراً.

واستأنف بورفيري بتروفتش كلامَهُ:

ـ كلمةٌ أخرى عن السيد رازوميخين، أقصد عن مسألة كونه أتى إليَّ من تلقاءِ نفسهِ أو بتحريضٍ منك، لقد كان من الأفضل لك أن تقول أنَّهُ جاءَ من تلقاءِ نفسهِ، وأن تنكرَ أن يكون قد جاءَ بتحريضٍ منك، ومع ذلك أراك تلحُّ على أن تذكر أنَّهُ جاءَ إليَّ بتحريضٍ منك.

لم يكن راسكولنيكوف قد ألحَّ على هذا في أيِّ وقت، وشعر بقشعريرةٍ تسري في ظهرهِ.

ثُمَّ قال بصوتٍ ضعيفٍ بطيءٍ، وقد انقبضت شفتاهُ على ابتسامةٍ أليمةٍ:

ـ إن ما تقولَهُ كَذِبٌ!

ثُمَّ أضافَ وهو يشعرُ بأنَّهُ أصبحَ لا يزن كلماتَهُ كما يجب أن تُزَن:

ـ أنتَ تريدُ أن تبينَ لي من جديدٍ أنَّكَ ترى مكري رؤيةً واضحةً وأنتَ تعرِفُ كُلَّ أجوبتي سلفاً، أنت تحاولُ أن تخيفني، أو أنتَ تسخرُ مني لا أكثر.

وفيما كان يقولُ لهُ هذا الكلام، ظلَّ يحدِّقُ إليهِ، ثُمَّ إذا بعداوةٍ لا حدودَ لها تسطعُ في عينيهِ، فهتفَ يقول:

ـ أنت لا تقولُ شيئاً غير الكذب! إنَّكَ تعلمُ حقَّ العلمِ أنَّ خيرَ خطَّةٍ يتَّبعها مُجرِمٌ

هـو أن يـذكـر بعـض الحقـائقِ في حـدودِ الإمكـان، وأن لا يخفـي مـا لا حاجـةَ لإخفائهِ. أنا لا أُصدِّقُكَ!

قال بورفيري ضاحكاً ساخراً:

ـ ما أحذقك! إن المرءَ لا يعرف حقّاً من أيِّ طرفٍ يمسكُكَ. هذهِ إذاً فكرةً ثابتةً عنـدك! أنـتَ إذا لا تصـدقني، وأنـتَ صـدقتني حتـى الآن أحيانـاً، وسـأفعل مـا يجعلك تصدقني كلياً، لأنني أحسُّ نحوكَ بعاطفةٍ صادقةٍ حقّاً، ولأنـني أتمنـى لكَ الخيرَ مُخلصاً.

جعلت شفتا راسكولنيكوف ترتعشان.

وتابع بورفيري بتروفتش كلامهُ يقول وهو يُمسكُ ذراع راسكولنيكوف برفقٍ، وبمودةٍ وصداقةٍ، فوقَ الكوعِ قليلاً.

ـ نعـم أتمنـى لـك الخـير، ثـق بهـذا.... وأقـول لـكَ مـرَّةً أخـيرةً أن عليّـك أن تعـتني بصحتك. من أجلك إنَّمـا جـاءت أسـرتك، فكِّـر بهـذا ولا تنسـهُ! يجـب عليـكَ أن تهـدئ روع أهلـك، وأن تُظِهـر لهـم عاطفـةً ومحبـةً، ولكنـكَ لا تزيـدُ الآن إلا أن تروعهم:.....

ـ ما شأنك أنت بهذا؟ ثُمَّ من أين علمتهُ، وفيم يهمـك ويعنيـك؟ أنـت إذاً تـراقبني، وتحرصُ على أن تعرف هذا!

ـ اسمع يا عزيزي، أنا حصلت على هـذه المعلومـات كُلَّهـا منـكَ أنت، منـكَ أنت! ألست تلاحظ أنَّكَ من شدَّةِ ثورةِ أعصابك أولَ من يقُصُّ كُلَّ شيءٍ، علـيَّ وعلـى غـيري؟ ولقـد عرفـت أيضـاً، في مسـاء أمـس، تفاصـيل شـائقةً جـداً، مـن السَّـيد رازوميخين، دمتري بروكوفتش رازوميخين. لقـد قـاطعتني الآن، ولكـني أقـول لـك أنَّـكَ رغـم رهافـةِ فكـرك قـد أفقـدك شـكُكَ وحـذركَ القـدرة علـى إدراك الأشـياء إدراكـاً سـليماً. انظـر مـثلاً في مسـألة الجـرس تلـك الـتي أتينـا علـى ذكـرها منذُ قليل، والتي هي واقعـةٌ هامـةٌ جـدّاً، ثمينـةٌ جـدّاً ( وهـي هـكـذا مـن دون جدال): طيب، لقد أطلعتك بنفسـي علـى هـذه الواقعـة، أفـلا تسـتخرج أنـت

من هذا شيئاً؟ أكنت أفعل هذا لو كنتُ أرتابُ فيكَ أيَّما ريبة؟ وبالعكس، فلو كنتُ أرتابُ فيكَ حقّاً، لكان عليَّ أن أنوِّم مخاوفك، وأن لا أَدَعك ترى أنني على علمٍ بهذهِ الواقعة، وأن أوجِّهك في اتجاهٍ آخر تماماً، ثُمَّ أهوي عليكَ بها فجأةً كأنَّها ضربةُ فأس (على حد تعبيرك). لو كنت أرتاب فيكَ ولو لحظة واحدة، لأخذك ألقي عليكَ أسئلةً كهذهِ الأسئلة: "قل لي أيُّها السيد: ما الذي ذهبَ بك إلى شقة المجنيِّ عليها، في الساعةِ العاشرةِ مساءً، بل في الحادية عشرةَ تقريباً؟ لماذا شددتَ حبلَ الجَّرس؟ ولماذا ألقيت أسئلةً عن الدم؟ لماذا حاولت بعد ذلك أن تحيِّر البوابين، وأردت أن تُقادَ إلى قسمِ الأمن؟" كان ينبغي لي، وفقاً للأسطول المتبعة، أن أنتزع منكَ إفادةً، ثُمَّ أن أفتِشَ منزلك، وربَّما اعتقلتك، ولكني فعلت خلافَ ذلك كُلَّهُ تماماً، وإذاً فأنا لا أشتبهُ بك أبداً. حقاً لقد فقدتَ القدرةَ على إدراكِ الأشياء، إدراكاً سليماً، فأنت لا ترى شيئاً.... أكرر لك هذا!....

ارتعد راسكولنيكوف من قمَّةِ الرأس إلى أخمصِ القدمين بعنفٍ جعلَ بورفيري يضطرب.

وصاحَ راسكولنيكوف بمزيدٍ من القوة:

ـ أنت لا تقول إلا الكذب! لا أفهم نياتك، ولكنك تكذب، تكذب، منذُ قليلٍ لم تكن تكلمني بهذا المعنى. لا يمكن أن يخطئني ظنِّي. أنت تكذب!

واستأنف بورفيري كلامه فقال متحمساً، محتفظاً بهيئة المرح والسخرية، دون أن يبدو عليهِ أيُّ اكتراثٍ بما قد يكون ردَّ راسكولنيكوف فيه.

ـ أنا أكذب؟ أنا أكذب؟ عجيب كلامك كيف تصرفت منذُ قليلٍ، أنا قاضي التحقيق؟ أوصيت إليك أنا نفسي بالوسائل التي تستطيع أن تدافع بها عن نفسك؟ لقد عرضتُ عليكَ أنا نفسي تلك السيكولوجية كُلَّها: "المرض، الهذيان، عِنَتُ الإهانات، الكآبة، رجال الأمن....."، الخ الخ. هيء هيء! ومع ذلك أسارعُ لأقول لك إن جميع حجج الدِّماغ السيكولوجية هذه، وجميع

أساليب التملص متينة، حتى أنَّها ذات حدَّين، فإذا أنت تعللت "بالمرض والهذيان" وإذا أنت قُلت " أنَّك قد راودتكَ هلوسات، وأنَّكَ أصبحت لا تتذكر شيئاً"، فإن كلامك هذا كُلَّهُ يكونُ صحيحاً، ولكن المرءَ يستطيعُ أن يسألك عندئذٍ: لماذا تراودكَ هذه الأحلام وهذهِ الهلوسات وحدها دون غيرها؟ ذلك أنَّ من الممكن أن تكونَ أحلامَكَ وهلوساتَكَ غير هذهِ تماماً، أليس كذلك؟ ما رأيك؟ هيء هيء هيء !

رشقهُ راسكولنيكوف بنظرةٍ فيها كبرياءٌ واحتقار، ثُمَّ قال بصوتٍ قويٍّ وينهض فيصدم بورفيري قليلاً:

ـ باختصار يا بورفيري بتروفتش: أريدُ أن أعرفَ أأنت تعدُّني بريئاً من كلِّ شُبهةٍ أم لا؟ تكلَّم يا بورفيري بتروفتش بكلامٍ واضحٍ، بسرعةٍ وعلى الفور!

هتف بورفيري يقول بمرحٍ وسخريةٍ ودونَ أيِّ لبكة:

ـ حقَّاً إنَّكَ لمتعبٌ، متعبٌ جدَّاً!..... ما حاجتك إلى أن تعرف هذا، إلى أن تعرف هذا كُلَّهُ، مع أن أحداً لم يبدأ في أن يقلق راحتك أبداً؟ يا لك من طفلٍ! وتقول كالطفل: "أريد أن ألعبَ بالنار!" فلماذا، لماذا تعذِّبُ نفسكَ كلَّ هذا العذاب؟ هلَّا شرحتَ ليَ الأسباب التي تدفعك إلى أن نلتفتَ إليك؟ ما هذهِ الأسباب؟ هه؟

صاح راسكولنيكوف حانقاً:

ـ أكرر لك أنني أصبحتُ لا أطيق أن أحتمل.....

ـ أن تحتمل ماذا؟ عدم اليقين؟..... كذلك قاطعهُ بورفيري.

فصرخَ راسكولنيكوف وهو يضرب المائدة بقبضةِ يدهِ من جديد:

ـ كفى سخريةً! لا أستطيع! هل تعلم؟ أقول لك: لا أريد! لا أستطيع ولا أريد!.... أتسمع؟ هل تسمع أنت؟.....

ـ اخفض صوتك، اخفض صوتك، وإلا سمعوك! إنني أنبِّهُك إلى هذا جادَّاً. حذار! لست أمزح!

قال بورفيري هذا متمتماً، ولكن تعبيرَ وجههِ قد اختلف الآن عمَّا كان عليه

منذُ قليلٍ، حين كان أشبهُ بتعبيرِ وجهِ امرأةٍ مروَّعة، وبالعكس: هو الآن يلقي أوامر، إنَّهُ قاسي الهيئة، مقطَّبُ الحاجبين، فكأنَّه عدل دفعةً واحدةً عن جميع الأسرار وجميع الإلماعات الملتبسة، ولكن ذلك لم يدم إلا لحظة.

اضطرب راسكولنيكوف، وأوشك أن يندفع في نوبة غضبٍ شديدة، ولكنَّ الشيء الغريب أنَّه خضع في هذه المرَّة أيضاً للأمر الذي صدَرَ إليهِ، فخفَّضَ صوتهُ، وهمسَ من جديد:

ـ لن أرضى بأن أُعذَّبَ هذا العذاب....

لقد أدرك، وهو يشعر بألمٍ يُمازِجهُ كرهٌ، إنَّهُ لا يستطيعُ إلا أن يخضع لهذا الأمر البات. ولكنَّهُ ازداد لذلك غضباً وحنقاً. وأضاف هامساً:

ـ اعتقلني! فتش بيتي! ولكن اتبع الأصول والقواعد بدلاً من أن تعبث بي هكذا!... ليس من حقِّكَ أن....

فقاطعه بورفيري قائلاً وهو يبتسمُ تلك البسمة الساخرةِ نفسها، مع تظاهرهِ بالسرور من التمتع برؤية راسكولنيكوف:

ـ لا تقلق بشأنِ الشكل والقواعد يا عزيزي! أنا إنَّما دعوتك بغير كلفةٍ، دعوتك كما يدعو صديقٌ صديقهُ.

ـ لا أريد صداقتكَ، لا أريدها، أبصُق عليها، هل تسمع؟ انظر: ها أنا ذا أتناول قبعتي وانصرف، فما عساكَ تقول الآن إذا كان في نيَّتِكَ أن تعتقلني؟

وتناول راسكولنيكوف قبعتهُ واتجهَ إلى الباب.

فرد بورفيري مقهقهاً وهو يمسكُ لهُ ذراعهُ من جديد، فوق الكوعِ قليلاً، ويوقفهُ قربَ الباب:

ـ ولكن ألا تريد أن أطلعك على مفاجأةٍ صغيرة؟

كان مرح بورفيري يزدادُ بوضوح، وكان مِزاجهُ يظهرُ ويبرزُ بقوةٍ، فانتهى ذلك إلى أخراج راسكولنيكوف عن طور، فقال وهو يتجمَّدُ في مكانهِ فجأةً، ويرمق ُبورفيري مذعوراً.

ـ أيَّة مفاجأةٍ صغيرةٍ؟ ماذا تعني؟

ـ المفاجـأة الصـغيرة قابعـةً هنـاك، وراء هـذا البـاب، هـيء هـيء هـيء! حتـى لقـد أقفلت عليها بالمفتاح، خوفاً من أن تهرب.... قال بورفيري ما قال وهو يـومي بيـدهِ إلى الباب المغلق في الحاجز، الباب المفضي إلى شقتهِ.

فقال راسكولنيكوف وهو يقتربُ من الباب بغيةَ فتحهِ:

ـ ماذا؟ أين؟ ما هذا؟

ولكنَّ الباب كان مقفلاً بالمفتاحِ فعلاً.

قال بورفيري:

ـ الباب مُقفل. إليك المفتاح!

وناولهُ مفتاحاً أخرجهُ من جيبهِ.

أخذَ راسكولنيكوف يقول، وقد أصبح لا يسيطرُ على أعصابهِ:

ـ أنت تكذب! أنت لا تفعل غير أن تكذب! أنت تكذب أيُّها المهرِّجُ اللعين!.....

زَعَقَ راسـكولنيكوف وهجـمَ علـى بـورفيري، فتراجـع بـورفيري نحـو البـاب، ولكن دون أن يَظهَرَ عليهِ أيُّ رُعب.

ـ أفهم كُلَّ شيء، كُلَّ شيء! ـ صرخ راسـكولنيكوف وهـو يُقبِلُ مهـرولاً علـى بورفيري.... أنت تكذب وتعبثُ بي لأفضحَ نفسي.

ـ ولكن، يا عزيزي روديون روما نوفتش، لست تستطيع أن تفضح نفسك أكثر ممـا تفضـح نفسـك بهـذا الموقـف، لقـد خرجـت عـن طـورك لا تصـرُخ، وإلا استدعيت رجالي!

ـ أنـت تكـذب! لـن تفعـل هـذا! اسـتدع رجالـك! لقـد كنـت تعلـم أنـني مـريض، فأردت أن تهيِّجَ أعصابي وترهقني بحيث أندفع إلى فضح نفسي! تلك كانت غايتك. لا ....لابدَّ لكَ من وقائع! أريدُ وقـائع! لقـد فهمـت الآن كُلَّ شـيء، أنـت لا تملكُ وقائِع، أنت لا تملك إلا افتراضات زاميوتوف! كنت تعرف طبعي، فأردت أن تخرجني عن طوري لتفقدني بعد ذلك صوابي، ونوَّاب.... أنت تنتظرهم.....ها؟

ماذا تنتظر؟ أين هم؟ ائت بهم!

ـ أيُّ نوَّاب تعني يا عزيزي؟ ما هذا الكلام العجيب؟ يالأفكارك هذهِ ما أغربها! ليس في وسعي، من باب "التقيُّد بالشكل ومراعاةِ الأصول" القانونية يا عزيزي! ولكنَّكَ سترى.... سوف تتقيد بالشكل، وتراعي الأصول.

بهذا جمجم بورفيري، وكان في أثناء ذلك يصيخ بسمعهِ صوبَ الباب.

وفعلاً سمعت في تلك اللحظة ضجةً في الغرفةِ المجاورة، هتف راسكولنيكوف:

ـ آ.....ها هم أولادُ يجيئون! لقد استدعيتهم، ولقد كُنت تنتظرهم، ولقد كنت تعوِّلُ عليهم....طيب..... ائتِ بهم جميعاً إلى هنا.....ائتِ بالنوَّاب، وبالشهود، وبجميعِ من تشاء.....ائتِ بهم! أنا مستعدٌّ، مستعد!

غير أن حادثاً غريباً قد وقع حينذاك، حادثاً يبلغُ من البعد عن التوقُّعِ والتنبؤِ في سياق الأمورِ أنَّهُ لا راسكولنيكوف ولا بورفيري كان يمكن أن يتصور خاتمةً كهذهِ.

# الفصل السادس

إليكم كيف تصوَّرَ راسكولنيكوف المشهد حين تذكَّرَهُ في المستقبل:

إن الضجَّةَ التي سُمعت من وراء الباب قد ازدادت بسرعةٍ قصوى، ثُمَّ شقَّ البابُ مواربًا. فصاحَ بورفيري بتروفتش يسألُ غاضباً:

ماذا هناك؟ ألم أنبِّهكم مع ذلك ؟

فلم يتلقَّ جواباً، ولكن كان واضحاً أن أشخاصاً كثيرين كانوا يقفون وراءَ الباب يحاولون، كما يبدو، أن يصدوا أحدَ الناس عن اقتحامهِ، فسألَ بورفيري بتروفتش متوجِّساً:

ماذا هناك؟

فأجابهُ أحد الأصوات:

- جيء بالمعتقل نيقولاي.

فصرخَ بورفيري قائلاً وهو يهرعُ نحو الباب:

- لا داعي إلى ذلك! اذهبوا للإنتظار! من الذي جاءَ بهِ إلى هنا؟ ما هذه الفوضى؟

فبدأ ذلك الصوتُ نفسهُ يتكلَّم:

- ولكنَّهُ.....

غير أن الرجل لم يلبث أن انقطع عن الكلامِ فجأةً.

إن صراعاً حقيقياً قد نشبَ في ثانيتين، وبدا أن أحدَ من النَّاس كان يصدُّهُ بالقوةِ عن الدخول، ثُم إذا برجلٍ شاحبِ الوجهِ جداًّ يقتحمُ غرفةَ بورفيري بتروفتش.

إن مظهر هذا الرجل كان في أول الأمرِ غريباً كُلَّ الغرابة، كان شاخصاً ببصره إلى الأمام، ولكن لا يبدو علَيه أنَّهُ يرى أحداً، وفي عينيهِ يسطعُ عزمٌ وحشيٌّ، ولكنَّ شحوباً كشحوبِ الموتى يغشى وجههُ في الوقتِ نفسهُ، كمن اقتيدَ إلى المقصلة، وشفتاهُ بيضاوان بياضاً تاماً، وهما تختلجان قليلاً.

هـو رجـلٌ مـا يـزالُ شـاباً، يرتـدي ثيـابَ عامـةِ النـاس، متوسـطَ الطـول، نحيـلَ الجسم، قد قصَّ شعرهُ على صورةِ صحنٍ، وقسمات وجههِ دقيقةٌ قاسيةٌ.

وكـان الرجلُ الذي دفعهُ نيقولاي عنهُ فجـأةً، أوَّلَ مـن وَثـبَ راكضـاً إلى الغرفـةِ وراءهُ واستطاع أن يمسكهُ من كتفـهِ ـ كـان هـو حارسـاً، لكـن نيقـولاي شـدَّ ذراعهُ وأفلتَ من بين يديِّ الحارسِ مرَّةً ثانية.

وكانت تحتشدُ على البابِ أشخاصٌ عدَّة مستطلعون، وكان بعضهم يحاولُ أن يَدخُل.

إن هذا المشهدَ الذي وصفناهُ الآن لم يدُم سوى دقيقةً واحدةً.

قال بورفيري بتروفتش مُدمدماً من بين أسنانهِ، وكدراً جدَّاً، خارجاً عن طورهِ:

ـ اذهب! لم يَحِن الحين بعد! انتظر حتى أستدعيك! لمـاذا أسـرعتُم في المجـيء بـهِ بشكلٍ غيرِ محسوب؟

ولكن نيقولاي جثا على ركبتيهِ، فهتف بورفيري بتروفتش يقولُ مذهولاً:

ـ ماذا دهاك.

ردَّ نيقولاي بغتةً، بصوتٍ مختنقٍ لكنَّهُ قوي:

ـ أنا الجاني! هذهِ جريمتي! أنا القاتل.

فخيَّمَ صمتٌ مطبقٌ خلالَ عشرِ ثوانٍ، حتى لكأنَّ جميع الحضور قد جمدوا، وحتـى الحـارس سـقطت يـداهُ، وتراجـع حتـى البـاب تراجعـاً آليـاً، ولبـثَ هنـاك ساكناً لا يتحرك.

وهتف بورفيري بتروفتش يسأل نيقولاي بعد أن خرجَ من ذهولهِ القصير:

ـ ماذا هناك؟

فَكرَّرَ نيقولاي بعد صمتٍ قصير:

ـ أنا..... القاتل!

ـ كيف..... أنت؟ كيف؟ من قتلت؟

وارتبك بـورفيري بتروفـتش، كمـا يبـدو، ارتباكـاً قويَّاً. وصمت نيقـولاي بُرهَـةً

قصيرةً.

ـ ألينا إيفانوفنا، وأختها إليزافيتا ابفانوفنا، قتلتهما بفأس.....

وأضاف فجأةً: كنت قد فقدتُ عقلي....

وصمت مرَّةً أخرى. وكان ما يزال راكعاً.

بدت علائِمُ التفكير على بورفيري بتروفتش بضعَ لحظاتٍ، ولكنَّهُ استردَّ نشاطهُ وحماستهُ فجأةً، فأوما للحضورِ بحركةٍ من يدهِ أن يخرجوا. فسارعوا يطيعون أمرَهُ، وأُغلِقَ البابُ من جديد، وبعد ذلك، نظر بورفيري بتروفتش إلى راسكولنيكوف الذي كان واقفاً في ركنٍ من الغرفة يتأمَّلُ نيقولاي زائغَ الهيئةِ، واتَّجَهَ إليهِ، ولكنَّهُ أمسكَ فجأةً، وتفرَّسَ فيهِ، ثُمَّ سارعَ ينتقلُ ببصرهِ على نيقولاي، ثُمَّ إلى راسكولنيكوف، ثُمَّ إلى نيقولاي مرَّةً أخرى.

لا يدري المرء ما هو ذلك الغضبُ الذي استبدَّ ببورفيري بتروفتش على حين فجأة، فإذا هو يهجُمُ على نيقولاي فيقول لهُ بلهجةٍ تشبهُ أن تكونَ فيها كُره:

ـ لماذا جئتَ تقولُ لي منذُ الآنَ أنَّكَ كنت قد فقدت عقلك؟ أنا لم أسألكَ بعد أكنت قد فقدتَ عقلكَ أم لا! قُل: أأنت الذي قتلت؟

قال نيقولاي:

ـ نعم، أنا الذي قتلت. أصرِّحُ بذلك.

ـ هيه.... وبماذا قتلت؟

ـ بفأسٍ كنتُ قد جلبتها.

ـ إلا أنَّكَ لمتعجِّلٌ جدَّاً! وحدك؟

لم يفهم نيقولاي السؤال.

هل قتلتهما وحدك؟

ـ نعم. لكن ميتكا بريء، لم يشارك في الجريمةِ أبداً.

ـ لا تتعجل هكذا في الكلام عن ميتكا! هيه.... ولكن كيف فعلت، كيف فعلتَ لتنزلَ السُّلَّم؟ لقد رآكما البوابين كليكما.

أجاب نيقولاي متعجلاً، كأنَّه هيأ هذا الكلام سلفاً:

ـ إنَّما ركضتُ عندئذٍ.... مع ميتكا.... بغرض التمويه.....

هتف بورفيري بتروفتش يقول بحنقٍ:

ـ هذا هو الأمر!

وجمجمَ يخاطبُ نفسهُ:

ـ إنَّهُ يكرر ما لقِّنَ من الكلام.

وإذا بهِ يلمَحُ راسكولنيكوف فجأةً من جديد.

أغلبُ الظنِّ أنَّهُ قد بلغ من شدَّةِ اهتمامهِ بنيقولاي أنَّهُ كان قد نسيَ وجودَ راسكولنيكوف لحظةً من الزمن، وها هو ذا قد تذكَّرَهُ الآن بغتةً، حتى لقد تحيَّرَ.....

قال لراسكولنيكوف وهو يرتمي نحوهُ:

ـ روديون روما نوفتش، عزيزي، معذرةً. ليس في إمكانك أن تبقى هنا، أرجوك..... حقَّاً لم يبق لكَ شأنٌ هنا.... وأنا نفسي..... أترى هذهِ المباغتة؟! أرجوك.....

قال له ذلك وهو يتناول ذراعهُ، ويشيرُ لهُ إلى الباب.

طبيعي أنَّ راسكولنيكوف لم يكن قد أدركَ بعد ماذا جرى، ولكنَّهُ قد استرد ثقتَهُ، فقالَ يخاطبُ بورفيري بتروفتش:

ـ لكأنَّك لم تتوقع هذا.

فأجاب بورفيري:

ـ ولا كنتَ أنتَ تتوقعهُ يا عزيزي! انظر كيف ترتجفُ يدك!

ـ وأنت أيضاً ترتجفُ يا بورفيري بتروفتش!

ـ نعم، أنا أيضاً ارتجف.... لأنني لم أكن أتوقع هذا.

وكانا قد وصلا إلى الباب، وكان بورفيري ينتظر خروج راسكولنيكوف نافذَ الصَّبرِ.

قال راسكولنيكوف بغتةً:

ـ أين المفاجئةُ الصُّغرى؟ لماذا لم تطلع عليَّ بها؟

قال بورفيري بتروفتش مقهقهاً:

ـ أنَّه يتكلم ويتكلم وما تزالُ أسنانهُ تصطك! هيه! إنَّكَ لا تخلو من سخريةٍ، هيا، إلى اللقاء.

ـ أحسب أن الأفضل أن تقول: وداعاً!

فغمغم بورفيري بتروفتش منقبضَ الشفتين كمن يبتسم:

ـ كُلُّ شيءٍ مرهونٌ بإدارةِ اللّه، بإدارةِ اللّهِ وحدهُ، لاحظَ راسكولنيكوف وهو يجتاز المكاتب أن أنظاراً كانت تحدِّقُ إليهِ، وفي حُجرةِ المدخل أُتيحَ لهُ أن يرى في وسط الحضور بوابي تلكَ العمارة اللذين اقترحَ عليهما في ذلكَ المساء أن يقتاداهُ إلى قسمِ الشرطةِ. كانا واقفين. وكأنَّهما ينتظران شيئاً ما، لكنَّهُ ما أن صار في السُّلَّم حتى سمع وراءهُ صوتَ بورفيري بتروفتش من جديد، فلمَّا التفت رآهُ قد أدركهُ وهو يلهثُ لهاثاً قويَّاً.

ـ كلمة، كلمة لا أكثر يا روديون روما نوفتش، فيما يتعلق بكُلِّ ما حدث ستجري الأمور في مشيئة اللّه، ولكن ما يزال عليَّ، من باب التقيُّدِ بالشكل ومراعاةِ الأصول، أن ألقي عليكَ بعض الأسئلة، لهذا سنلتقي مرَّةً أخرى، أليس كذلك ؟

قال بورفيري هذا ووقف أمامهُ مُبتسماً، ثُمَّ أردف مرَّةً أخرى:

ـ أليس كذلك ؟

في وسع المرء أن يفترض أنَّهُ كان يريدُ أن يقولَ شيئاً ما، ولكنَّ من الواضح أن الكلمات لم تخرج من فمهِ.

كان راسكولنيكوف قد اطمأنَّ تماماً، وأصبح يشعرُ برغبةٍ قويةٍ في التفاخر.

ـ وأنت أيضاً يا بورفيري بتروفتش، لا تؤاخذني على ما بدرَ مني منذ قليل، لقد اندفعتُ بعض الشيء....

فعادَ بورفيري بتروفتش بلهجةٍ يكادُ فيها فرح:

ـ لا عليك.... لا قيمةَ لهذا.... أنا أيضاً سيءُ الطبعِ..... أعترفُ، أعترفُ وأتوبُ، ولكننا سنلتقي من جديد، إن شاءَ اللّه، سنلتقي أكثر من مرَّة.

قال راسكولنيكوف:

ـ وسنتعارفُ تعرفاً نهائياً. أليسَ كذلك؟

فردَّ بورفيري بتروفتش مؤيداً:

ـ نعم، سنتعارفُ تعارفاً نهائياً.

ـ قال هذا ورمقَ راسكولنيكوف بجدٍّ ورصانةٍ، برغمِ أنَّهُ يغمزُ بعينيه، وأضاف يسأل:

ـ أأنت ذاهبٌ الآن إلى عشاءِ عيد الميلاد؟

ـ بل إلى وليمةِ جنازة.

ـ نعم نعم، عشاء جنازة! راعِ صحتك..... الصِّحةُ أهمُّ شيءٍ، هه؟

أجاب راسكولنيكوف وقد أخذَ يهبطُ السُّلَّم:

ـ لا أدري حقَّاً يا بورفيري بتروفتش ما الذي يجبُ أن أتمناه لك.

ولكنَّهُ استدار فجأةً، وأضاف وهو يقابل بورفيري وجهاً لوجه:

ـ أردتُ أن أتمنى لكَ نجاحاً أكثر، ولكن ما أسخفَ وظيفتك!

وكان بورفيري يهِمُّ بالانصراف، ولكنَّهُ ما أن سمع هذا الكلام حتى سألَ ناصباً أُذنيه:

ـ وظيفتي سخيفة؟ ولماذا؟

ـ لماذا؟..... أتصوركم عذَّبتُم هذا المسكين نيقولاي ذاك العذابَ المُضني، عذاباً سيكولوجياً..... على طريقتكَ..... على أن أعترف، لا شكَّ في أنَّك ظللتَ تحقنهُ ليلاً نهاراً بقولكَ: "أنت القاتل، أنت القاتل". والآن وقد أعترفَ ستمضي تحقنهُ بنغمةٍ أخرى قائلاً لهُ: " أنت تكذِب. لست أنتَ القاتل، ولكن...." فكيف لا تكون وظيفتكَ سخيفة؟

ـ هيء هيء هيء! .... إذاً لقد لاحظت منذُ قليلٍ ما قلتهُ أنا لنيقولاي من أنَّه "يردد ما لُقِّن"؟

ـ كيف لم ألاحظ؟!

ـ ها.... إنَّكَ لحاضرُ الذِّهنِ حقاً! إنَّكَ تلاحظُ كُلَّ شيءٍ! إن لكَ فكراً فكِهاً حادَّاً! لقد عرفت كيفَ تضربُ على وترِ السخرية، هيه..... يقال إن غوغول كان، بين سائرِ الكُتَّابِ، هو الذي يملكُ هذه الموهبة إلى أقصى الفطرة، أليس كذلك ؟

ـ نعم، غوغول.

ـ صحيح غوغول. إلى اللقاء السعيد!

ـ إلى اللقاء السعيد.....

عادَ راسكولنيكوف إلى بيتهِ رأساً، وكان قد بلغَ من شدَّةِ الإرهاقِ والإعياءِ أنَّهُ ما كادَ يَصِلُ حتى ارتمى على أريكتهِ، مكثَ هكذا مستلقياً حوالي ربعَ ساعةٍ لا لشيءَ سوى ليستريحَ ويستجمعَ شتاتَ أفكارهِ، لم يحاول حتى أن يُعلل سلوك نيقولاي، كان مذهولاً مشدوهاً، كان يرى في اعتراف نيقولاي شيئاً يثيرُ الدَّهشة، ويبعثُ على الاستغراب، شيئاً لا يستطيع على كلِّ حالٍ أن يُدركَ معناهُ الآن، وأن ينفذ إلى كنههِ، ولكنَّ النتائجَ لم تعتم أن تبدَّت لهُ واضحةً جليَّةً : إن كذب هذا الاعتراف لا بدَّ أن يظهر، ولا بدَّ أن يعودوا إليه ويتشبثوا بهِ من جديد، على أنَّهُ سيبقى حرَّاً إلى أن يحينَ ذلك الحين، فينبغي لهُ حتماً أن يقوم بشيءٍ ما ليضمنَ سلامتهُ، لأنَّ الخطرَ متربِّصٌ بهِ فلا يمكن تفاديهِ!

لا يمكن تفاديه؟ إلى أيِّ حدٍّ؟ وأخذَ الموقف يتَّضِحُ، فحينَ تذكَّرَ راسكولنيكوف، على وجه الإجمال، المشهد الذي جرى بينه وبين بورفيري، لم يستطع أن لا يرتجفَ خوفاً، صحيحٌ أنَّهُ لا يعرفُ أهداف بورفيري بعد، ولا يستطيعُ أن يدرك جميع حساباتهِ. ولكنَّهُ قد اكتشف جزءاً من لعبتهِ، وما من أحدٍ يستطيعُ كما يستطيعُ راسكولنيكوف أن يفهم مدى الخطر المتربصِ بهِ

من اللعبة التي حاولها بورفيري، لقد أوشكَ راسكولنيكوف أن يفضحَ نفسهُ فضحاً تاماً بأن يقدِّمَ لبورفيري وقائعَ ثابتة. كان بورفيري يعرف ما يتصفُ به راسكولنيكوف من اندفاع مرضي، وقد نفذَ إلى حقيقةِ طبعهِ من أوَّل نظرة، فكان يسيرُ بخطى واثقةً مطمئنةً، ولم يكن قد أسرفَ في التعجُّل بعض الإسراف.

صحيحٌ أنَّ راسكولنيكوف قد تورَّطَ في كلامهِ مع بورفيري، ولكنَّهُ لمَّا يقدِّمَ لهُ وقائعَ ثابتة، فليسَ هناكَ حتى الآن إلا ظنونٌ وتخمينات، ولكن هل كان يرى الموقف على حقيقتهِ؟ ألم يكن مخطئاً البتة؟ ما هي النتيجةُ المعينةُ المحددة التي كان بورفيري يسعى إليها اليوم؟ أكان قد دبَّرَ شيئاً لهذا اليوم نفسه؟ ما عسى يكون هذا الشيء على وجهِ الدِّقة؟ أكان يتوقعُ شيئاً ما؟ كيف كانا سيفترقان منذُ قليل لولا أن نزلت، بفضلِ نيقولاي، تلك النَّازلة التي لم تكن بالحسبان؟

كان بورفيري قد اكتشف لعبتهُ على كُلِّ حال، ولو كان يملك معلومات أخرى (أو ذاك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف في أقلِّ تقديرٍ) لما قصَّرَ في إظهارها والاستنادِ إليها، ثُمَّ ما هي تلك " المفاجأة " التي ألمعَ إليها؟ أكانت نكتةً؟ وهل لهذه النكتة من معنى أم هي ليست بذات معنى؟ هل في باطنها شيءٌ يشبهُ أن يكونَ قرينةً قاطعةً أو واقعةً ثابتةً؟ أين هو اليوم؟ ذلك أنَّه إذا صدَّقَ أن بورفيري يملك شيئاً مثبتاً، فلا يُمكن أن يكون هذا الشيء ذا علاقةٍ برجلِ الأمس.

ظلَّ راسكولنيكوف جالساً على سريرهِ، مائلاً إلى الأمام، واضعاً كوعيهِ على ركبتيهِ، دافناً وجهَهُ بيديهِ، وما يزالُ ارتعاشٌ عصبيٌّ يهزُّ جسدهُ كُلَّهُ.

ونهض أخيراً، فتناولَ قبعتهُ، ولبثَ يحلمُ خلالَ لحظةٍ، ثمَّ اتجهَ نحو الباب.

إن نوعاً من إحساسٍ تنبؤيٍّ كان يقولُ لهُ أنَّهُ في هذا اليوم على الأقل يستطيع إن يعدَّ نفسهُ في أمان، وشعر فجأةً بشيءٍ من فرحٍ: أراد أن يذهب إلى كاترينا

إيفانوفنا بأقصى سرعة، كان قد فات أوانُ حضورِ الدَّفنِ طبعاً، ولكنَّه يقدرُ أن يصل إلى المأدُبَةِ في حينها، فيرى هنالك سونيا فوراً.

توقَّفَ، وفكَّرَ، وظهرت على شفتيهِ ابتسامةٌ مريضةٌ، وقال يردد بينهُ وبين نفسهِ:

ـ اليوم! اليوم! في هذا اليوم نفسه! لابدَّ!... وفي هذه اللحظة التي همَّ فيها أن يفتح الباب. فُتحَ البابُ من تلقاءِ نفسهِ فجأةً. ارتعش راسكولنيكوف، وتراجع إلى الوراء بوثبةٍ. كان الباب ينفتحُ ببطءٍ ورفقٍ، وظهرَ شكلٌ إنسانيٌّ، وهو شكل الرجل الذي خرج بالأمس من تحتِ الأرض.

وقف الرجل في العتبة، ونظر إلى راسكولنيكوف صامتاً، ثمَّ تقدَّمَ في الغرفة حظوة. هو اليوم كما كان بالأمس: نفسُ، نفسُ الهيئةِ وذاتُ اللباس، لكن وجههُ ونظرتهُ تغيرا تغيُّراً شديداً: كانت عيناهُ حزينتين، وها هو ذا يزفرُ زفرةً كبيرةً بعدَ لحظةٍ قصيرةٍ. ليس يعوزهُ إلا أن يسنِدَ خدَّهُ على راحةِ يدهِ، وأن يميلَ برأسهِ إلى جانبٍ حتى يشبهَ امرأةً عجوزاً كلَّ الشبهِ.

سألهُ راسكولنيكوف كالمجنون:

ـ ماذا تريد؟

لزم الرجل الصمت لحظةً أخرى، ثمَّ انحنى أمامهُ بغتةً حتى كان يلامسُ الأرض، بل لقد لمسَ الأرضَ بإصبعَ يدهِ اليمنى على كلِّ حالٍ.

صاحَ راسكولنيكوف يسأل:

ـ ماذا تفعل؟

ردَّ الرجلُ بصوتٍ خافتٍ:

ـ أنا مذنب.

ـ ما ذنبك؟

ـ راودتني أفكارٌ شريرةٌ خبيثة!

ونظر كل منهما إلى الآخر. وتابع الرجل كلامه:

ـ كنت مكدَّرَاً ، فلمَّا جئتَ أنتَ في ذلك اليوم، ولعلَّكَ كنتَ عندئذٍ في حالةِ سُكرٍ، فطلبتَ من البوابين أن يقتادوكَ إلى قسمِ الأمن، وألقيت أسئلةً عن الدَّمِ، آلمني أن أرى أنَّهم لم يكترثوا بالأمر، وحسبوكَ سكراناً لا أكثر، وبلغتَ من شدَّةِ الألم أنني أرقت، فلم استطع إلى النومِ سبيلاً.

وإذ حفظت عنوانك، فقد جئتُ مساءَ أمس أسألك.....

قاطعهُ راسكولنيكوف وقد بدأ يفهمُ ويدركُ:

ـ من الذي جاء؟

ـ أنا، أنا الذي أسأتُ إليك.

ـ أنت إذاً من تلكَ العمارة؟

ـ نعم، ولقد كنت عند البابِ الكبيرِ مع الآخرين، ألا تتذكر؟ لي "كنوب" حانوتٌ صغيرٌ، منذُ زمنٍ طويل. أنا أعمل في إصلاح الفراء، وأقوم بعملي في بيتي، والأمر الذي آلمني خاصة.....

تذكَّرَ راسكولنيكوف الأمر بوضوح، على حين فجأةٍ، المشهد الذي جرى أمس تحت الباب الكبير، فقال لنفسهِ: حقَّاً كان هناك، عدا البوابين، أشخاصٌ عدَّة بينهم نساء، وتذكَّرَ أيضاً أن صوتاً من الأصواتِ قد اقترح اقتيادَهُ إلى قسمِ الأمن، هو لم يرى وجهَ الرَّجُلِ الذي تكلَّمَ حينذاك، ولو قد رآه لما كان في وسعهِ أن يتعرَّفَ عليهِ على كلِّ حالٍ..ولكن راسكولنيكوف يتذكَّرُ أنَّهُ التفتَ نحوَ الرَّجُلِ وأجابهُ.

هذا هو إذاً تفسيرُ ليلةِ الأمس، تلك المروِّعة! وأفظعُ ما في الأمر أنَّه كادَ يضيِّعُ نفسهُ فعلاً بسببِ حادثةٍ تافهةٍ إلى هذا الحدِّ من التفاهة، إن هذا الرَّجل لا يستطيعُ إذاً أن يروي شيئاً آخر غير ذهابهِ إلى الشَّقة، وسؤالهِ عن الدَّمِ، معنى هذا أن بورفيري أيضاً لا يملك أيُّ دليلٍ قاطعٍ، لا يملك أيَّةَ واقعةٍ ثابتة، عدا ذلك الهذيان، عدا تلك السيكولوجية ذات الحدين، هو لا يتصوَّرُ إذاً واقعةً أُخرى ( ولا يجب عليه أن يتصوَّرَ، لا يجبُ عليه)..... ما الذي كان يمكن أن

يصنعوهُ بهِ إذاً؟ كيف كان يمكن أن يشوهوهُ وأن يورطوهُ في الاعتراف، ولو اعتقلوهُ؟ وينتج عن هذا إذاً أن حادثةَ ذهابهِ إلى الشّقةِ لم يعلم بها بورفيري بتروفتش إلا منذُ قليلٍ، وكان قبل ذلك يجهلها.

هتف راسكولنيكوف يسألُ الرَّجلَ فجأةً وقد ومضت في ذهنهِ فكرةً مباغتةً:

- أأنت بنفسك قلت اليوم لبورفيري..... أنني ذهبت إلى هناك؟

- بورفيري؟ أي بورفيري؟

- نعم، قاضي التحقيق.

- صحيح. قلت لهُ هذا، لأن البوابين لم يذهبوا إليهِ في ذلكَ اليوم، ذهبتُ إليهِ أنا.

- اليوم؟

- قبلكَ بدقيقةٍ واحدةٍ، وقد سمعتُ كُلَّ شيءٍ، كُلَّ شيء، سمعت كيف كان يعذبك.

- أينَ؟ كيفَ؟ متى؟

منذُ قليلٍ، هناك، عندهُ، وراءَ الحاجزِ، بقيتُ هناكَ طوالَ الوقت.

- كيف؟ أأنت "المفاجأةُ الصغيرةُ" إذاً؟ ولكن كيف تمَّ هذا؟ قُل! بدأ الرَّجلُ يتكلَّم:

حين رأيتُ البوابينَ لا يريدون أن يطيعوني، ويرفضون أن يذهبوا إلى قسم الأمن بحجة أن الوقت متأخر، وأنَّ قاضي التحقيق سيؤاخذهم على أنَّهم لم يجيئوا إليهِ بسرعةٍ أكبر، تضايقتُ كثيراً، وأرقتُ طوالَ الليل، وأخذت أسال النَّاس وحصلت على معلوماتي، فلمَّا حصلت عليها، ذهبت إلى قسم الشرطة في هذا الصباح. في المرَّةِ الأولى، لم يكن القاضي هناك، فرجعت بعد ساعة، فلم استقبل، وفي المرَّةِ الثالثة قبلوني، رويت للقاضي الأشياء كما وقعت، فراح يركض في الغرفة وهو يلطمُ صدرهُ بقبضةِ يدهِ، ويقول: "ماذا تفعلون معي يا عصابةً من قطاعِ الطرق؟ لو قد عرفت هذا أرسلت جنودا يجيئوني بهِ!". وبعد

ذلك خرج راكضاً، ونادى أحداً، وبدأ يكلِّمهُ في ركنٍ، ثُمَّ عادَ إليَّ، وشَرَعَ يلقي عليَّ أسئلةً ويشتمني، لامني كثيراً، وقصصتُ أنا عليهِ كُلَّ شيءٍ. وذكرتُ لهُ أيضاً أنَّكَ بالأمس لم تجرؤ أن تجيبني، وقلتُ لهُ أنَّكَ لم تعرفني، عندئذٍ عاد يجري في الغرفة ويلطمُ صدرهُ، كان يركضُ فعلاً وهو غاضبٌ.....يركضُ.....ويركضُ.....ومنذُ أن ذكرَ لهُ أنَّكَ أتيت، قال لي: أسرع، اختبئ وراء الحاجز، وابق هناكَ من دونِ حركةٍ، مهما سمعت". وحمل إليَّ بنفسهِ كرسياً، وأغلقَ عليَّ البابَ قائلاً: "قد استدعيتك". ولكن حينَ جيءَ بنيقولاي، صرفني بعد أن صرفك فوراً، وقال لي "سأستدعيك مرَّةً أخرى لاستجوبكَ.

ـ وهل استجوبَ نيقولاي أمامكَ؟

ـ صرفني بعد أن صرفك فوراً، وراح يستجوب نيقولاي. توقف الرَّجلُ عن الكلام، وانحنى مرَّةً أخرى، ولامست أحدى أصابعهِ الأرض مرَّةً أخرى، وقال:

ـ اغفر لي وشايتي، والإساءةُ التي ألحقتها بك.

أجابَ راسكولنيكوف بذلك الكلام، وانحنى الرجلُ لهُ مرَّةً ثالثة، ولكنَّهُ لم ينحنِ في هذهِ المرَّة حتى الأرض، بل حتى الحزام فقط، ثُمَّ التفتَ على أعقابهِ ببطءٍ، وخرجَ من الغرفة.

قال راسكولنيكوف لنفسه: "كُلُّ شيءٍ ذو حين، ثُمَّ غادرَ الغرفةَ، ووثقَ بنفسهِ أكثرَ مما سبق.

قال وهو يهبط السلَّم ويبتسمُ بسخريةٍ: "الآن سنتابع الصراع". وكانت الابتسامةُ الساخرةُ موجهةً ضدَّ نفسهِ في هذه المرَّة، كان يتذكَّرُ عندئذٍ "جانبه" بكرهٍ واحتقار.

# الجزء الخامس

## الفصل الأول

غداة اليومِ المشؤومِ الذي جرت فيه المناقشة الحادَّة بين بيوتر بتروفتش، وبين دونيا وبولخيريا الكسندروفنا، استيقظَ بيوتر بتروفتش من نومهِ، وتابَ إلى صوابهِ، فأدركَ ممتعضاً جداً، أنَّهُ مضطرٌ إلى أن يقبلَ، قبولهِ لواقعٍ راهنٍ حاسمٍ، الأمر الذي كان يبدو لهُ بالأمس، حادثةٌ تشبهُ أن تكون خياليةً مستحيلةً رغم حدوثها فعلاً، إن الأفعى السوداء، أفعى الأنانية، الجريحةَ، المهانةَ، قد ظلَّت تعظُّ قلبهُ طوال الليل، فما أن نَهضَ من فراشهِ حتى سارع ينظرُ إلى وجههِ في المرآة، لقد كان يخشى أن يكونَ قد أصيبَ في نومه بإفراط في إفراز الصفراء، غيرَ أنَّ كُلَّ خطرٍ من هذا النوع كانَ حتى الآن على الأقل، قد تَمَّ تفاديهُ، فلمَّا تأمَّلَ في المرآةِ وجههُ النبيلُ الأبيض المجعَّدِ قليلاً منذُ بعض الوقت، عزَّاهُ وواساهُ أن يتصوَّرَ أنَّهُ لا بُدَّ أن يَجِدَ في مكانٍ ما خطيبةً في بيتٍ قد يكونَ مناسباً، أكثرَ من الناحيةِ الأخلاقيةِ، ولكنَّهُ ما لَبِثَ أن رَجَعَ عن وَهمِهِ، فبصقَ بصقتاً قويَّةً من شدَّةِ غضبهِ، فأثارَ ذلك ابتسامةً خرساءَ لكنَّها ساخرةً في شفتيِّ صديقهِ الشاب آندريه سيميونوفتش ليبزياتنيكوف الذي يسكن معهُ، ولم تغب هذهِ الابتسامةُ عن نَظرِ بيوتر بتروفتش الذي أسرعَ يحقدُ عليهِ بسببها كثيراً، بعد أن وقعت بينهما وبينهُ في الآونةِ الأخيرةِ أموراً كثيرةً، أخذها عليه وسجلها لهُ، وتضاعفَ غضبهُ وحنقهُ حين قدَّرَ فجأةً أنَّهُ ما كان ينبغي لهُ أن يُطلِعَ آندريه سيميونوفتش على نتائج المقابلة، هذه خطيئةٌ ثانية يرتكبها منذُ الأمس بشدَّةِ الاندفاع، وقوَّةِ الغضب، وتسرُّعِ البَوح.....

وشاءتِ الصُدف مدَّةً ذلك الصباح، كأنَّما عمداً، أن تنصبَّ عليهِ المزعجات تلوَ

المزعجات، نحن في مجلسِ الشيوخ كان ينتظرهُ إخفاقٌ في القضية التي كان يعالجها، وقد أحنقهُ خاصةً مالكُ الشَّقَةِ التي استأجرها بيوتر بتروفتش استعداداً لزواجهِ المُرتَقَب، وأَصلحها على نفقتهِ هو، فإنَّ مالكَ الشَّقَةِ هذا، وهوَ رجلٌ من رجالِ الحِرَفِ، أصابَ بعضَ الثَّروةِ، وأصلهُ ألمانيٌّ، قد رفضَ رفضاً قاطعاً أن يفسخَ بنداً واحداً من بنودِ عقدِ الإيجارِ، وأصرَّ على أن يدفعَ لهُ بيوتر بتروفتش كاملَ الغرامةِ المنصوصِ عليها في العقدِ عندَ فسخهِ، رغم أن بيوتر بتروفتش كان سيسلِّمَهُ الشَّقَةَ بعد أن جُدِّدت تجديداً شبهَ تام، وهذا نفسهُ حدثٌ في متجرِ الأثاث، فإن صاحبَ المتجر لم يشأ إطلاقاً أن يردَّ لهُ روبلاً واحداً من المبلغ الذي دفعهُ لهُ عربوناً على شراءِ الأثاث، رغم أنَّ قطعةً واحدةً من قِطَعِ الأثاث لم تكن قد وصلتَ إلى الشَّقةِ بعد، قال بيوتر بتروفتش لنفسهِ صارفاً أسنانَهُ: هل أتزوج يا تُرى، خصّيصاً من أجلِ أثاثِ البيت؟" وفي الوقت نفسهُ، ومضت في ذهنهِ فكرةٌ يائسةٌ من جديد، فتساءلَ: "أمِنَ الممكنِ حقّاً أن يكونَ كُلُّ شيءٍ قد ضاع، أن يكون كُلُّ شيءٍ قد ضاعَ ضياعاً حاسماً؟" ألا أستطيعُ مع ذلك أن أقومَ بمحاولةٍ جديدةٍ؟" وتراءت لهُ صورةً دونيتشكا الفاتنة الأخَّاذَة، فتمزَّقَ قلبهُ حسرةً ولوعةً من جديد، وعانى عذاباً أليماً خلالَ دقيقةٍ، فلو كانت الرَّغبة وحدها في قتل راسكولنيكوف كافيةً لقتلهِ، لرغِبَ تلك الرغبةَ على الفور.

وقال لنفسهِ وهو يعودُ إلى غرفةِ ليبزياتنيكوف كاسفَ البالِ مكتئبَ النَّفسِ حزيناً: "ومن أخطائي أيضاً أنني لم أُعطهم مالاً! شيطانٌ يأخذني! ما تصرفتُ تصرفَ يهوديٍّ بخيل؟ ولم يكن هذا مع ذلك عن بخلٍ وشحٍّ، وإنَّما أنا أردتُ أن أبقيهم في حالةِ الحاجةِ والعوزِ، حتى أجعلهم يعدُّونيَ مُنقذاً ومُخلصاً..... آهٍ.... لو أنني أعطيتَهم خلالَ هذهِ المدَّة..... ألفا وخمسمائةِ روبلاً مثلاً، لإعدادِ جهازِ العُرس..... لو أنني قدَّمتُ هدايا صغيرةً، لو أنني قدمت أنواعاً من تلك العُلَبِ الصغيرةِ، واللوازمَ الضروريةِ، والمجوهرات، والأقمشةِ، وسائرِ تلكَ الأشياءِ

التافهة التي يجدُها المرءُ في متجرِ "كنوب" أو في المتجر "الإنجليزي" بأثمانٍ بخسةٍ، لو أنني فعلتُ ذلك لجرتِ الأمورُ مجرى أوضح، ولقامت المسألة على أُسُسٍ أقوى وأوطد، وما كان لدونيا آنئذٍ أن تفسَخَ الخِطبةَ بمثلِ ذلكَ الاستخفافِ. ذلك شأنُ هذا النوعِ من النَّاسِ: يعتقدون أنَّهم مضطرون حتماً عند فسخِ الخطبةِ إلى ردِّ الهدايا والمالِ جميعاً، فلو كُنتَ قد قدَّمتَ إليهم هدايا ومالاً لعزَّ عليهم أن يردوهُ..... كانت ستقول لنفسها: كيف؟ أأطردُ على حينِ فجأةٍ رَجُلاً كان كريماً لطيفاً في جميع الأوقات؟ هم..... لقد ارتكبتُ خطأً فاحشاً"، ثُمَّ أسرعَ بيوتر بتروفتش ينعتُ نفسهُ بأنَّهُ غبيٌّ طبعاً، وهو يصرف بأسنانهِ من جديد.

فلمَّا وصلَ إلى هذهِ النتيجةِ عادَ إلى بيتهِ وقد ازدادَ الشَّرُ والحَنَقُ في نفسهِ أضعافَ ما كان عليهِ عندَ خُروجهِ منهُ، وقد لفتت انتباههُ الاستعداداتُ التي كانت قائمة في غرفة كاترينا إيفانوفنا لمأدُبَةِ الجنازةِ، كان قد سَمِعَ عن هذهِ المأدُبة منذُ الأمس كلاماً غامضاً، حتى لقد كان يُخيَّلُ إليهِ أنَّهُ يتذكَّرُ أنَّهُ هو نفسهُ دُعيَ إلى هذهِ المأدُبة، ولكنَّهُ في استغراقهِ في همومهِ الخاصَّةِ لم ينتبه إلى أيِّ شيءٍ عداها، وأسرعَ يستطلعُ السَّيدةَ ليبيفخزيل التي كانت في أثناء غياب كاترينا إيفانوفنا في المقبرة منهمكةً حولَ المائدة، وكانت تهمُّ أن تنهض، فعرفَ أن المأدُبة ستكونُ عامرةً، وأنَّ جميعَ المستأجرين مدعوونَ إليها، حتى اللذين لم يعرفوا منهم المتوفى، بل وحتى آندريه سيميونوفتش ليبزيا تنيكوف، رغم استئجارهِ حديثاً مع كاترينا إيفانوفنا، وأنَّهُ، هو نفسهُ، بيوتر بتروفتش، ليس مدعواً فحسب، بل هو إلى ذلك ينتظرُ حضورهُ بشكلٍ أساسيٍّ، لأنَّهُ بين سائرِ المستأجرين، أعلاهُم شأناً، وأعظمهم قدراً، وقد دُعِيت أيضاً آماليا إيفانوفنا بكثيرٍ من الاحترامِ والمهابةِ، رغم ما وقعَ بينها وبين كاترينا إيفانوفنا في الماضي من حوادثَ طارئةٍ مؤسفةٍ، وهي الآن لهذا السبب سيدةُ المنزلِ وربةُ البيتِ، ولا يخلو ذلكَ من أن يُحدِثَ لها لذَّةً ومسرَّةً، وهي فوق

ذلك كُلِّهِ، رغم ارتدائها ثيابَ الحدادِ، تتبخترُ بثوبٍ من حريرٍ، جديدٍ أنيقٍ رشيقٍ، مزدانٍ بكثيرٍ من الزخارفِ، تبدو فخورةً بهِ متباهيةً معتزَّةً.
هذه الوقائعَ والمعلومات كلَّها أوحت إلى بيوتر بتروفتش بفكرةٍ ما، فلمَّا دخلَ غرفتهُ، أو قُل غرفةَ آندريه سيميونوفتش ليبزياتيكوف كان مشغولَ البالِ بتلكَ الفكرةِ، ناهلاً فيها عمَّا عداها، ذلك أنَّهُ قد عَرَفَ أن راسكولنيكوف أحدَ المدعوِّين.
لسببٍ ما قضى آندريه سيميونوفتش ليبزياتيكوف ذلكَ الصَّباحِ كُلَّهُ في غرفتهِ، وكانت قد قامت بين هذا السيد، وبين بيوتر بتروفتش علاقاتٌ غريبةٌ لكنَّها طبيعية على كُلِّ حال: كان بيوتر بتروفتش يحتقرُ ليبزياتينكوف ويكرههُ أشدَّ الكُرهِ، تقريباً منذُ اليومِ الأول الذي أقامَ فيهِ عندهُ، ومع ذلك كان يبدو عليه في الوقت نفسهِ أنَّهُ يخشاهُ بعضَ الشيءِ، لقد نزلَ عند أندريه سيميونوفتش منذُ وصولهِ إلى بطرسبورغ، لا بسبب البخلِ الشديدِ فحسب - رغم أن هذا هو الدافعُ الرئيسُ في حقيقةِ الأمرِ بل لسببٍ آخرَ أيضاً، أنَّهُ وهو في الريف، فقد سمعَ عن ربيبهِ اليتيمِ اندريه سيميونوفتش، أنَّه شابٌّ تقدميٌّ متطورٌ، بل وهو يلعبُ دوراً هاماً لدى بعض الفئاتِ الغريبة التي صارت أشبهُ بالأساطير، فتأثَّرَ بيوتربتروفتش بهذهِ الصورةِ التي قامت في ذهنهِ عن صاحبهِ.
إن هذه الفئاتِ القوية، العالمة بكلِّ شيءٍ، التي تحتقرُ جميعَ النَّاس، وتفضحُ جميعَ النَّاس، كانت توحي إليهِ منذُ مُدَّةٍ طويلةٍ برهبةٍ خاصةٍ، هي رهبةً غامضةً على كُلِّ حال، لا شكَّ أنَّهُ لإقامتهِ في الأقاليم لم يستطع أن يكوِّنَ لنفسهِ فكرةً دقيقةً (حتى ولا تقريبية) عن شيءٍ من هذا النوع، كلُّ ما هناكَ أنَّهُ سمعَ، كسائرِ النَّاس، أنَّهُ يوجدُ، في بطرسبورغ، خاصةً، أناسٌ يسمون تقدميين أو عدميين أو مصلحين[1]، الخ ولكنَّهُ كان ككثيرٍ من النَّاس،

[1] - كانت هذه الأسماء تطلق على التيار الرادكالي السائد بين الشبيبة في ذلك الحين ومن المعروف أن اسم "العدمي" أوجد تورغنيف إذ استعمله في روايته "الآباء والبنين".

يضخِّمُ دلالةَ هذهِ الأسماء ومعناها ، حتى ليشوهها تشويهاً عجيباً ، وهو منذُ بضعِ سنينٍ إنَّما يخشى التشهيرات العامَّة أكثر مما يخشى أيَّ شيءٍ آخر. نعم، ذلك هو الأساس الرئيس الذي تقوم عليهِ مخاوفهُ المتصلة المتزايدة، ولا سيَّما حين يحلمُ بنقلِ مركزِ نشاطهِ وأعمالهِ إلى بطرسبورغ. بهذا المعنى نستطيع أن نقولَ أنَّهُ كان مروعاً حقَّاً كما يروِّعُ الأطفال في بعضِ الأحيانِ، إنَّهُ قبلَ هذهِ الآونةِ ببضعِ سنينٍ، قد شهدَ في الرِّيف، وكان ما يزال في بدايةِ مزاولةِ مهنتهِ، حالةَ رجلين من أصحاب التأثيرِ والنفوذِ أصابتها تلك التشهيراتِ العامَّة، فنالت منها بقسوةٍ شديدةٍ، فكانا بحمايتهِ ورعايتهِ قبل ذلك، فأمَّا إحدى القضيتين فقد انتهت بالرجل الذي نالهُ التشهيرُ إلى الفضيحةِ والجرصة، وأما القضيَّة الثانية فكانت لصاحبها مصدرُ كثيرٍ من المتاعبِ والنكَد، ذلكم هو السبب الذي جعل بيوتربتروفتش يحرصُ منذُ وصولهِ إلى بطرسبورغ على أن يوضِّحَ لنفسهِ الأشياء ، وأن يفهم الأحوال، وألا تفوتهُ المبادرةُ إذا اقتضى الأمر، في سبيل أن ينالَ الحظوةَ لدى" أجيالنا الشَّابة". وكان يعوِّلُ في هذا على أندريه سيميونوفتش. وعلى هذا النحوِ إنَّما استطاعَ مثلاً، حين التقى راسكولنيكوف، أن يقول بضع كلماتٍ منمَّقةٍ، جاهزةٍ، مستمدَّةٍ. من غيرهِ.... وهو ما لبثَ، بطبيعةِ الحالِ، أن اكتشفَ في أندريه سيميونوفتش شخصاً عاديَّاً تافهاً غرَّاً إلى أبعدِ الحدود، ولكن ذلك لم يغيِّر رأيهُ، ولبثَ قلقاً غيرَ مطمئنٍ، أنَّهُ على وجهِ الإجمال لا شأنَ لهُ بهذهِ الأفكارِ، والتعاليمِ والاعتقاداتِ كلِّها (التي كان أندريه سيميونوفتش يقرع آذانهُ، ويصدِّعُ بها رأسهُ)، وإنَّما كانت لهُ غايةً معينة، وهدفٌ محدد، كان يريد أن يعرف، بأقصى سرعة، ماذا حدث هنا وكيف؟ هل هؤلاء النَّاسُ أقوياءٌ؟ هل لهم حَولٌ وطَولٌ، وسلطانٌ ونفوذ؟ هل عليهِ هو أن يخشى شيئاً ما؟ أتراهُ يوشى بهِ إذا هو شرعَ في هذا الأمر أو ذاك؟ وإذا وشيَ بهِ، فما هي، على وجهِ التحديد، النقاط التي ستكون الآن محلَّ الوشايةِ وموضعَ التنديدِ والتشهيرِ؟ بل أكثر من ذلك:

ألا يستطيعُ المرءُ، إذا هم كانوا أقوياءَ ذوي سلطان، أن يتسلل إليهم بطريقة أو بأخرى وأن يفشِهِم وأن يضللهم؟ أهذا ضروريٌّ حقّاً أم لا؟ أليس في وسع المرءِ، بواسطتهم، أن يُهيءَ لنفسهِ نجاحاً في عملهِ وتقدُّماً في مهنتهِ، مثلاً؟ بإيجاز: كانت مئاتٌ من الأسئلةِ تلقي نفسها عليهِ.

وكان أندريه سيميونوفتش هذا، وهو مستخدمٌ في مكان ما بمثابة موظف، كان رجلاً هزيلاً بائساً عليلاً، قصير القامة، أشقرَ شقرةً غريبةً، له على جانبي خديهِ نودان يبدو مزهواً بهما زهوّاً شديداً، وهو فضلاً عن هذا يشكو من آلام في عينيهِ دائماً تقريباً، وإذا كان طبعهُ رخواً فإنَّ أحاديثهِ تدلُ على غرورٍ يبلغُ في بعضِ الأحيانِ حدَّ الغطرسة الوقحة، وهذا يتنافى مع شكله الهزيل تنافياً مضحكاً. على أنَّهُ كان عند آماليا إيفانوفنا يُعَدُّ من أحسن المستأجرين، لأنَّهُ كان لا يشربُ، ولأنَّهُ كان يدفع أجر غرفته في موعده على نظام مطَّردٍ لا يتخلف، غير أن أندريه سيميونوفتش كان رغم جميع هذهِ المزايا رجلاً غبياً في حقيقة الأمر، إن العاطفة الهوجاءَ هي التي ربطتهُ بالآراء التقدمية و"أجيالنا الصاعدة". أنَّهُ واحدٌ من تلك الفئة الكبيرة المتعددة الأنواع من الأغبياء والفاشلين الذين لا يفوتهم أبداً أن يتعلقوا ويشوهون لتوهم كلَّ ما يستعملونهُ هم أنفسهم، ولو كان تعلقهم بهِ صادقاً مخلصاً في بعض الأحيان.

ثُمَّ إن ليبزياتنيكوف، رغم أنَّهُ مسالمٌ إلى أبعدِ الحدود، قد أخذَ من جهتهِ يضيقُ ذرعاً بصاحبه بيوتر بتروفتش الذي كان في الماضي وليَّ أمرهِ ووصيهِ، حتى أصبحَ لا يطيقُ احتمالَ مشاركته السكن في غُرفتِهِ. ونشأ بين الرجلين كليهما نفورٌ متبادل من تلقاءِ نفسهِ، ولقد أخذ أندريه سيميونوفتش يلاحظُ، رغم غبائهِ، أن بيوتربتروفتش يسخرُ منهُ، ويضحكُ عليهِ ويحتقرهُ، وأنَّهُ "ليس في حقيقتهِ ما يجبُ أن يبدو". وكان أندريه سيميونوفتش قد حاولَ أن يشرحَ لهُ نظريات فورييه ودارون، ولكن بيوتربتروفتش أصبحَ يحلو لهُ، ولاسيما في الأيامِ الأخيرةِ، أن يصغي إلى كلامهِ ساخراً مستهزئاً، حتى لقد أصبح يمضي

في ذلك إلى حدٍّ إهانتهِ، وإنَّما نشأ ذلك عن أن بيوتربتروفتش قد اكتشفَ بغريزته أن ليبزياتنيكوف ليس رجلاً غبياً فحسب، بل هو رجلٌ متبجحٌ ليس لهُ أيُّ علاقاتٍ هامَّة حتى في بيئتهِ، وأنَّه لم يسمع بعض الأفكار إلا بشكلٍ غيرِ مباشرٍ، وهو فوق ذلك كُلِّهُ ليس على شيءٍ من المقدرة في مجال الدعاية، لأنَّه يضطرب في الكلام ويرتبكُ في الحديث، فأنى له أن يشهر بأحد أو بشيء!

وفي هذه المناسبة يجب أن نشير عابرين إلى أن بيوتر بتروفتش كان خلال تلك الأيام العشرة (ولاسيما في البداية) قد استقبل، برضى وارتياح الإطراءات التي يُكيلُها لهُ أندريه سيميونوفتش، حتى ولو كانت غريبةً جدَّاً، أو قل على الأقل أنَّه لم يكن يرفضها أو يعترض عليها. كان يصمتُ مثلاً حين ينسب إليهِ أندريه سيميونوفتش أنَّه ينوي أن يعاون قريباً، بل قريباً جداً، في إنشاء كومونة جديدة في مكان ما بشارعِ مييشيا نسكايا أو حين ينسب إليه أنَّه ينوي أن لا يمنع دونيا من أن تتخذ لها عشيقاً، ولو شاء لها هواها أن تفعل هذا منذُ الشهر الأول بعد الزواج، أو لما ينسبُ إليهِ أنَّه لن يعمِّدَ الأولادَ الذين سينجبهم، الخ..... كان بيوتربتروفتش، على عادتهِ، لا ينكر المزايا التي تنسب لهُ، حتى لقد كان يسمحُ بأن تأتيه الإطراءات من ذلك النوع، فعلى هذا الحدِّ كان يحبُّ أن يطري.

إن بيوتر بتروفتش الذي بدَّلَ هذا الصباح عدداً من السندات لبعض الأسباب، جالساً الآنَ إلى المنضدة يُراجعَ عدَّ حُزَمِ الأوراقِ المالية، وهذا أندريه سيميونوفتش الذي لم يكد يملكُ مالاً في يومٍ من الأيام يتجول في الغرفة ويتظاهرُ بأنَّه ينظر إلى حزم الأوراقِ الماليَّة بغيرِ اكتراثٍ، بل وباحتقارٍ، ولكن بيوتربتروفتش لم يكن يستطيعُ أن يصدِّق أن أندريه سيميونوفتش ينظر إلى هذه الحزم بغير اكتراثٍ حقَّاً. وكان أندريه سيميونوفتش من جهتهِ يتصور بكثير من المرارة أن بيوتربيروفتش ربَّما كانت تدورُ في رأسهِ تلكَ الفكرة، وربَّما كان يجدُ فيها لذَّةً، وربَّما كان يريدُ أيضاً، بعرض هذهِ الأوراقِ المالية،

أن يسخرَ من صديقهِ الشاب، وأن يذكِّرهُ على هذا النحو بكلِّ تفاهتهِ، وبكلِّ الفرق الذي يمكن، كما يبدو، أن يكونَ بينهما، وبكل المسافة التي تفصلها.

وقد وجدهُ في ذلك اليوم أكثرَ حِدَّةً، وأقلُ انتباهاً منهُ في أيِّ وقتٍ مضى، رُغمَ أنَّه هو أندريه سيميونوفتش قد اندفعَ يشرحُ نظريتهُ المفضَّلة في ضرورة إقامة "كومونه" جديدة من نوعٍ خاص.

إن الملاحظات القصيرة التي كان يُرسلها بيوتر بتروفتش مع انشغالهِ بنقل الكراتِ على أسلاكها في المعداد، كانت تتسم بسخريةٍ واضحةٍ، وتتصفُ بقلَّةِ الكياسة، ولكن أندريه سيميونوفتش، هذا الداعية "للأفكار الإنسانيَّة"، كان ينسبُ تعكُّرَ مزاجِ بيوتر بتروفتش إلى الأثر الذي أحدثهُ في نفسهِ فسخُ الخطبةِ، وكان يتحرَّقُ شوقاً إلى التعرُّضِ لهذا الموضوع بأقصى سرعةٍ، لأنَّهُ يريدُ أن يدلي في هذا الصدد ببعض الآراء التقدميَّةِ التي تواسي صديقهُ المحترم، والتي "لابُدَّ" أن تكون نافعةً في تطورهِ المقبل. قاطعَ بيوتر بتروفتش صاحبهُ في أهمِّ موضعٍ من حديثهِ سائلاً بغتةً:

- ما مأدبة الجنازة هذهِ التي تهيأ عند تلك..... الأرملة؟

أجابهُ أندريه سيميونوفتش باستغرابٍ قائلاً:

- كأنَّك لا تعلم! لقد حدثتُكَ عنها أمس، بل شرحتُ لكَ آرائي في هذا النوع من الاحتفالات، ثُمَّ إنني قد سمعتُ أنَّها دعتكَ أنتَ أيضاً، وقد كلَّمتها أنتَ نفسكَ بالأمس....

- ما كنت أتوقَّعُ أن تبددَ هذهِ الغبيَّة في سبيل حفلة عشاء، كلَّ المالِ الذي أخذتهُ من ذلك الغبيِّ الآخر..... أقصد راسكولنيكوف! لقد دهشتُ منذُ قليل، حين مررت بمسكنها. استعداداتٌ عظيمةٌ! حتى الخمرَ لا ينقص هذهِ المأدُبة!

وتابع بيوتربتروفتش كلامَهُ يريدُ أن يَجُرَّ الحديثَ إلى غايةٍ لا يعرفُ المرءُ ما هي:

ـ دُعيَ أشخاصٌ كثيرون..... الشيطان وحدهُ يعلم....

ثُمَّ أضافَ يسأل فجأةً وهو يرفعُ رأسهُ:

ـ ماذا؟ تقول أنني مدعوٌّ أيضاً؟ متى دعيت؟ أذكر أنني دعيت! على أنني لن أحضر، ما عسايَ فاعلٌ هناك؟ كل ما في الأمر أنني قلتُ لها بالأمس، وأنا أعبرُ، إن في وسعها أن تحصل، لأنَّها أرملةُ موظَّفٍ معوزةٍ، على معونةٍ تساوي مرتَّبَ سنة، أتراها دعتني لهذا السبب وحدهُ؟ هيء هيء ....

قال ليبزياتنيكوف:

ـ أنا أيضاً لا أنوي أن أحضر.

ـ آمل ذلك. فقد ضربتها ضرباً مبرحاً بيديك، فمن الطبيعي جدَّاً أن يعذِّبُكَ ضميركَ إذا أنتَ فكرت في الذهابِ إلى عندها.

سأله ليبزياتنيكوف بقوةٍ وحرارةٍ وقد أحمرَّ وجههُ:

ـ من ذا ضربت ضرباً مبرحاً؟ عمَّن تتكلم؟

عن كاترينا إيفانوفنا طبعاً، لقد ضربتَ كاترينا منذُ شهرٍ، أو هذا ما سمعتهُ أمس على الأقل، انظروا إلى رجال المبادئ والعقائدِ هؤلاء! هذه طريقتهم في حلِّ قضيةِ المرأة! هيء هيء هيء!

وكأنَّما خففت هذهِ الكلمات عن بيوتر بتروفتش، فعادَ ينهمكُ في حساباتهِ.

وصاح لينزياتنيكوف يقول بلهجةٍ حانقةٍ مغتاظةٍ، وكان لا يطيقُ أن يذكِّرهُ أحدٌ بتلكَ القضية:

ـ ما هذا إلا حماقاتٌ ونمائمُ، ما هكذا جرت الأمور، وإنَّما جرت على نحوٍ مغايرٍ تماماً! لم يطلعوك على الواقع كما حدث، هذهِ أقاويل، هذه أقاويل لا أكثر! أنا إنَّما دافعت عن نفسي فقط! فهي التي هجمت عليَّ مكشرةً عن أنيابها ناشبةً مخالبها، فما زالت بي حتى نتفت لي فوداً بكامله! أحسب أن من حقِّ كلِّ إنسانٍ أن يدافع عن نفسهِ، ثُمَّ إنني لا أسمحُ لأيِّ مخلوقٍ أن يتعمَّدَ في معاملتي إلى العنف، وذلك إيماناً مني بمبدأ لا أُحيدُ عنه، لأنَّ العنفَ استبداد.

فماذا كان يجبُ عليَّ أن أفعل؟ أن أبقى أمامها مكوفُ الذراعين؟ كل ما فعلتهُ هو أنني دفعتها عني.

كان لوجين ما يزال يقهقهُ بوحشيةٍ:

- هيء هيء هيء!

- أنت تسعى إلى مشاجرتي، لأنك معكَّرُ المزاج، وهذه حماقاتٌ لا شأنَ لها بقضيةِ المرأةِ إطلاقاً، إطلاقاً. لقد فهمتَ الأمرَ مقلوباً. إنني أعتقدُ أنَّهُ متى اعترف المرءُ بأنَّ النساءَ مساويةٌ للرجالِ في كلِّ شيءٍ، حتى في بابِ القوة (كما يؤكد هذا منذُ الآن). فقد وجب الإبقاء على المساواة في هذه الحالة أيضاً. طبعاً..... أنا قلت لنفسي بعد ذلك أن أمثال هذه المسائل ينبغي أن لا تُطرحَ أصلاً، لأنَّ المنازعات ما ينبغي أن توجد، حتى أنَّها ستكون في مجتمعِ المستقبل أموراً لا يمكنُ تصورها، وأنَّه لشيءٌ غريب، تبعاً لذلك، أن ننشدَ المساواة في مشاجرةٍ، أنا لست غبياً إلى الحدِّ الذي .... رغم أن المشاجرات ما تزالُ قائمةً طبعاً بانتظار ذلك..... أعني المشاجرات ستزولُ في المستقبل، لكنَّها ما تزال إلى اليوم موجودة.....هوة! إن المرء ليرتبكُ حينَ يكلمكَ، وتختلط عليهِ الأمور..... مهما يكن من أمر فليس هذا هو السبب في أنني لن أحضر العشاءَ، وإنَّما أنا أمتنعُ عن حضورهِ تقيُّداً بالمبدأ، حتى لا أشاركَ في هذه العدَّةِ العتيقةِ الباليةِ من العادات الاجتماعية، أعني مبدأ الجنازة. نعم، ذلك هو السبب، على أنني قد احضر المأدُبَةَ، ولو لأضحك منها، واستهزئ بها.... من المؤسفِ أنَّهُ لن يكونَ هناك قسٌّ، وإلا لما فوتُّ على نفسي فرصةَ الحضور.

- أي أنَّكَ كنت ستجلسُ إلى مائدةِ النَّاسِ لتبصُقَ بعد ذلك في الأطباقِ، ولتبصق أيضاً في قلوب الناس الذين دعوك؟ أليس كذلك؟

- ليس الأمرُ أمرَ بُصاقٍ بل أمرَ احتجاج، أنا إن فعلت ذلك فإنَّما أفعلهُ لتحقيق أهدافٍ مُجدية، ففي وسعي بهذا أن أنفع التقدُّمَ وأن أنفع الدعايةَ نفعاً غيرَ مباشر، إن على كلِّ إنسانٍ أن يساهمَ في تنميةِ الدُّعاية، وكلَّما فعل ذلك على

نحوٍ قاطعٍ كان هذا أجدى، إنَّ في إمكاني أن أبذُرَ الفكرة، أن ألقيَ البذرة، ومن هذهِ البذرة ستخرجُ حقيقة، فيمَ أسيءُ إليهم إذا أنا فعلت ذلك؟ قد يشعرون في أولِ الأمرِ طبعاً بأنَّ إساءةً لحقت بهم، ولكنهم سيرون بعد ذلك هم أنفسهم أنني كنت نافعاً لهم، أنظر إلى قضيةِ المرأة تيربييغا عندنا (المرأة التي تنتمي الآن إلى الكومونة)..... لقد تركت أهلها.... واستسلمت لرجلٍ فأخذوا عليها أنَّها كتبت إلى أبويها قائلةً أنَّها أصبحت لا تريد أن تعيشَ في الأوهام والرواسب الاجتماعية، وأنَّها تؤثر الزواج الحُرَّ، لقد قال النَّاس عندئذٍ أن تصرفها إزاءَ أبويها كان فيهِ كثيرٌ من الغلطةِ، وأنَّها كانت تستطيع أن تراعيهما وتداريهما، وكانت تستطيعُ على الأقل أن تستعمل في رسالتها أسلوباً أرق، أما أنا فأرى أن هذا الكلام كُلَّهُ سخفٌ، وإنَّ على المرءِ أن لا يستعمل أسلوبَ الرِّقَة أبداً، وبالعكس: لا بُدَّ من الاحتجاج.... وانظر إلى المرأة فارنتس: لقد عاشت مع زوجها سبعُ سنينٍ ثُمَّ تركتهُ وتركت ولديها، وفي الرسالة التي بعثت بها إليهِ لم تتحرج من شرح رأيها بوضوح تام، فقالت: "أدركتُ أنني لم أستطيع أن أكونَ سعيدةً معك. ولن أغفِر لك، ما حييت، أنَّكَ أخفيتَ عني أن هناك تنظيماً آخرَ للمجتمع على أساس الكومونة. لقد عرفتُ ذلك حديثاً من رجلٍ عظيمٍ استسلمتُ له وسأنشئ معه كومونة، أقولُ لكَ هذا بصراحةٍ، لأنني اعتقدُ أنَّهُ ليس من الأمانة ولا من الشرفِ في شيءٍ أن أكذبَ عليك وأن أخدعك، دبِّر أمورَكَ على النحو الذي يرضيك، ولا تأمل أن تراني عائدةً إليكَ.... إنَّكَ متخلِّفٌ مسرفٌ في التخلُّف. أتمنى لك أن تكونَ سعيداً".

هكذا إنَّما ينبغي أن تكتب أمثالَ هذهِ الرَّسائل!

- أليست "تيربييغا" هذهِ هي تلك التي قلتَ لي أنَّها الآن في زواجها الحُرِّ الثالث؟

- لا، بل هي في زواجها الحُرِّ الثاني إذا نحن أحسنا النظر إلى الأمور، وحبِّها في زواجها الحُرِّ الرابع عشر، أو الخامس عشر، فأيُّ خيرٍ في هذا؟ لئن أسفتُ يوماً على موت أبويَّ، فإنَّما أسفتُ على ذلك في هذا اليوم، حتى لقد اتفق لي مراراً

أن قلتُ لنفسي: لو كان أبواي حيين لعرفتُ كيفَ أحتَّجُ عليهما! نعم، لو كانا حيين لفعلتُ ذلك عامداً، فأظهرتهما على آرائي، وأدهشتهما أيَّما إدهاش! حقّاً أنني أتمنى لو أراهما حيين.... حقّاً إنَّه ليؤسِفُني أنَّهما ماتا!

قاطعهُ بيوتربتروفتش:

ـ لتستطيع أن تدهشهما؟ هيء هيء!....طيب ..... افعل ما يحلو لكَ.....ولكن قل لي: أنت تعرف بنت المتوفى طبعاً، تلك الفتاةُ الصغيرةُ الهزيلةُ، فهل صحيح ما يُقال عنها؟

ـ ما قيمة هذا؟ في رأيي، أعني في قناعتي الشخصية أن وضعها هو الوضع الطبيعي للمرأة، لم لا؟ أقصد distinguons [1] لا شك أن وضعها هذا ليس في المجتمع الحالي وضعاً طبيعياً، لأنَّهُ ناشئٌ عن اضطرارٍ وإكراهٍ، أما في المجتمع المُقبل، فسيكون وضعاً طبيعياً تماماً، لأنَّهُ سينشأُ عن اختيارٍ حرٍّ. ثُمَّ إن هذه الفتاة من حقها، الآن أيضاً، أن تعيشَ كما تعيش. أنَّها تتألم، وجسدها هو رأس مالها إن جاز القول، في وسعها أن تتصرف فيهِ كما تشاء. صحيح أن رؤوس الأموال هذهِ لن يبقى لها في مجتمع المستقبل علةَ وجود، ولكنَّ دورَ البغي سيتخذ دلالةً أُخرى، وسيتمُّ تنظيمهُ تنظيماً عقلياً. ولنرجع الآن إلى شخص سوفيا سيميونوفنا: إنني أرى أن سلوكها هو في هذه الأزمنة احتجاجٌ قويٌّ مجسَّدٌ على نظامِ المجتمع، وأنا لهذا السبب احترامها احتراماً عميقاً، بل أكثر من ذلك أنني أغتبطُ لرؤيتها على هذه الحال.

ـ لكنني سمعت أنَّكَ شخصياً قد طردتها من هذا البيت.

اعترت ليبزياتنيكوف حالةُ غضبٍ شديدٍ مُنفعل، وزأرَ:

ـ هذهِ أيضاً نمائم! إن الأمور لم تجرِ على هذا المنوال، لم تجرِ هكذا أبداً! حقاً أنَّها لم تجرِ هكذا! عن كاترينا إيفانوفنا هي التي اخترعت كلَّ شيءٍ،

1 - يجب أن نميز ـ بالفرنسية في الأصل

لأنَّهـا لم تفهـمَ شـيئاً. أنـا لم أحـاول في يـومٍ مـن الأيـام أن أحظـى بصـوفيا سـيميونوفنا: كنت أكتفـي بتثقيفهـا بعيـداً عـن كـلِّ مصلحةٍ بريئـاً مـن كـلِّ غايةٍ، كنت أحاولُ أن أنمِّيَ فيها روحَ الاحتجاج.

لم أكن في حاجةٍ إلا إلى احتجاجها وحدَهُ، ثُمَّ إن صوفيا سيميونوفنا نفسها قد أدركت جيِّداً أنَّها أصبحت لا تستطيعُ أن تُقيمَ هنا في مسكنٍ مفروش.

ـ هل كُنتَ تدعوها إلى الاشتراك والانخراط في الكومونة؟

ـ أنت لا تجيدُ إلا السُّخرية، ولكنَّك تخطئُ هنا خطأً فادحاً.... اسمح لي ان أقول لك ذلك!..... إنَّك لا تفهم من أمر الكومونة شيئاً لكي لا يكون لهذا الدور وجود، في الكومونة سيتغير هذا الدور تغيراً تاماً، فما هو غبيٌّ هنا سيصبحُ ذكياً هنالك، وما يبدو هنا في الظروف الحالية مخالفاً للطبيعة سيصبح هنالك طبيعياً، كلُّ شيءٍ مرهونٌ بالبيئة التي يعيش فيها الإنسان. كلُّ شيء تحددهُ البيئة، والإنسان في ذاتهِ لا شأنَ له. أما صوفيا سيميونوفنا فإن علاقاتي بها ما تزالُ طيبة حتى الآن، وهذا دليلٌ على أنَّها لم تحسبني في أحدِ الأيامِ عدوًّا. نعم، إنني أحاول الآن أن أجتذبها إلى الكومونة، ولكن لأسبابٍ أخرى تماماً. لماذا تضحك؟ إننا نريد أن ننشئ كومونةً خاصةً بنا، ولكننا نريد أن ننشئ هذه الكومونة على أسس أوسع من الأسس السابقة. لقد مضينا في اعتقاداتنا إلى مدى أبعد، وأنكرنا أشياءَ أكثر، فلو خرج دوبروليوبوف من قبرهِ لتشاجرتُ معهُ حتماً، ثق بذلك! أما بيلنسكي فلو خرج من قبرهِ لأبدتهُ إبادةً! وأنا الآن مستمرٌّ في تنشئةِ صوفيا سيميونوفنا، إن لها طبيعةٌ طيبةٌ حسنة، حسنةٌ جدًّاً!

ـ هيا! إنَّكَ تستفيدُ من هذهِ الطبيعةِ الطيبةِ الحسنة! هيء هيء !.....

ـ أنا؟ لا، لا! بالعكس.....

ـ بالعكس؟ أأنت تقول هذا الكلام؟

ـ بوسعك مع ذلك أن تصدقني. ما هي الأسباب التي يمكن أن تدفعني إلى

إخفاء الحقيقة عنك؟ هلا أجبتني من فضلك؟ نعم، هناك ظاهرةٌ غريبةٌ، بل غريبةٌ بالنسبة لي أنا أيضاً: لكأنَّها معي متحرجة، وجلة، بل وخجلة!

ـ وأنت في هذه الأثناء تستمر في تنشئتها! هيء!.... تبرهن لها على أن أنواع الحياء هذهِ كلها ما هي إلا غباءٌ وبلاهة!

ـ لا، لا!..... آه.... ما أغلظَ وما أغبى تأويلك هذا لكلمة "التنشئة"، اعذرني! إلا إنَّك إذاً لا تفهمُ شيئاً على الإطلاق! آه.... يارب!..... ما أشدَّ تخلفك حتى الآن!.... نحن ننشدُ حريةَ المرأة، وأنت ليس في رأسكَ إلا.... إذا تركنا جانباً مسألة العفة بوجهٍ عام، وهي شيء لا جدوى منهُ في ذاته، بل هي شيء سخيفٌ أيضاً، فإنني أقبل تحفظها معي كل القبول: فما دامت هذهِ إرادتها فمن حقها أن.... طبعاً، إذا قالت لي في ذات يوم: "أنا أريدك"، سأعدُّ هذا حظاً سعيداً، لأنَّه هذه العفة تعجبني كثيراً. أما الآن، الآن على الأقل، ربَّما لا يوجد أحد يعاملها بمثل ما أعاملها أنا من لطفٍ ومداراةٍ ومراعاةٍ. أنني أنتظر وآمل، هذا كلُّ شيء.

ـ الأفضل أن تقدِّم لها هديةً صغيرةً. أراهن أن هذه الفكرة لم تخطر ببالك، أليس كذلك؟

ـ أنت لا تفهم شيئاً، سبق أن قلت هذا! صحيح مومس، ولكن المسألة ليست هنا ليست هنا البتة! أنت تحتقرها، لا أكثر ولا أقل. إنك بالاستناد إلى واقعة مخلة بالشرف في رأيك، تأبى على كائن إنسانيٍّ أن ينظر إليها بروح إنسانية. ألا أنَّك تجهل حتى طبيعتها! إن هناك شيئاً وأحداً آسفُ لهُ، هي أنَّها منذُ زمن قد انقطعت عن القراءة تماماً، ولم تعد تستعير مني كتباً، ومما يبعث على الأسف أيضاً أنَّها رغم كل ما تملك من طاقة، وكل ما تتصف به من عزمٍ على الاحتجاج ـ سبق أن برهنت لك على ذلك ـ لا يبدو فيها قدرٌ كان من الاستقلال، قدرٌ كافٍ من..... الرفض، من التأهب للتحرر نهائياً من رواسبها الاجتماعية..... وسخافاتها، ومع ذلك فهي تفهم بعض المسائل فهماً رائعاً. لقد أدركت جيداً مسألةَ تقبيلِ اليد، مثلاً. وأدرك جيداً أن الرجل حين يقبِّلُ يد

المرأة إنما يعدها أدنى منهُ منزلةً، وأقلُّ قدراً، ولقد ناقشنا هذه المسالة عندنا. فسرعان ما ناقشتها معها، وقد أصغت إليَّ بانتباهٍ شديدٍ أيضاً حين كلمتُها عن النقابات العُمَّالية في فرنسا، وأنا الآن بسبيلِ أن أشرحَ لها حريَّةَ دخولِ الغرف على نحو ما ستطرحُ هذهِ المسألة في المستقبل. ما هذهِ المسالةُ أيضاً؟

ـ لقد أثيرت في الآونة الأخيرة هذه المسألة: هل من حقَّ عضو الكومونة، رجلاً كان أم امرأة، أن يدخل غرفةَ عضوٍ آخر، رجلاً كان أو امرأة، في أيَّةِ ساعةٍ من الساعات.... وقد تقرر أن لهُ هذا الحق.

ـ غريب! ماذا لو كان العضو، الرجل أو المرأة، مشغولاً في تلك الساعةِ بتلبية حاجة طبيعية؟ هيء هيء!....

غضب أندريه سيميونوفتش، وصاحَ يقول مبغضاً:

ـ آه..... هاأنت ذا تعود إلى هذه المسألة! إن الأمر الهامَّ في نظركَ إنَّما هذهِ "الحاجات" اللعينة! ألا إنني لأحقدُ على نفسي لأنني تكلمتُ أمامكَ عن هذه الحاجات اللعينة! شيطان يأخذُك! هذه عثرَتُكَ وعثرَةُ كلِّ من شابهكَ، وأنكى ما في الأمر أنَّهم يلقون بهذا على رأسك قبل أن يعرفوا ما هي المسألة، كأن هذا من حقهم! كأن في ذلك ما يدعو إلى الفخرِ والاعتزاز!

آ.... لقد سبق أن قلت غير مرَّةٍ أن هذهِ المسألة لا ينبغي أن تُعرض أمام أغرارٍ مبتدئين إلا بعد أن يتمَّ اكتسابهم، وضمهم إلى المذهب، وبتعبيرٍ آخر: ما ينبغي أن يعالجَ هذهِ المسألة إلا إنسانٌ تطورَ تطوراً كافياً، وتحققت لهُ تنشئةً مناسبة، ثُمَّ قُل لي: ما ترى من المراحيض من شيءٍ تخجل إلى هذا الحدِّ محتقر إلى هذه الدرجة؟ إنني مستعدٌّ أن أنظِّفَ ما تشاءُ من مراحيض، وصدقني إذا قلت لك أن هذا لا ينطوي على أي تضحيةٍ من جهتي، ذلك عملٌ كغيرهِ من الأعمال، بل إنَّهُ لأكبرُ كثيراً من رجلٍ مثل رافائيل أو بوشكين، لسببٍ بسيطٍ هو أنَّهُ أكثرُ نفعاً.

ـ وأكثر نبلاً، أكثر نبلاً، هيء هيء!.....

ـ ما معنى كلمة "النبل" هذهِ؟ أنا لا أفهم أمثال هذه التعبيرات حين يكون الأمر أمر وصف نشاطٍ إنساني. "أكثر نبلاً! أكثر سماحةً!". هذهِ تُرَّهَة، هذهِ سخافة، هذهِ رواسبُ اجتماعية بالية أرفضها وأحتقرها، الشيءُ النبيلُ هو الشيء النافع للإنسانيَّة. ذلك هو الشيءُ النبيلُ حقاً. أنا لا أفهم إلا كلمة واحدةً، وهذه الكلمة هي النافعُ، إضحك ما شئت، فهذا هو اعتقادي.

ضحك بيوتر بتروفتش، بل قهقهَ، لقد انتهى من حساباتهِ، وأخذ يرتب مالهُ، ولكنَّهُ أبقى جزءاً من هذا المال على المائدة، لا يدري أحدٌ السبب.

إن "مسألة المراحيض هذه" كانت رغم تفاهتها، سبباً لمشاجراتٍ عدَّةٍ بين بيوتر بتروفتش وصديقهِ الشاب، والغباءُ في الأمرِ أن أندريه سيميونوفتش كان يغضب فعلاً، أما لوجين فما كان يرى في هذا فرصةً للتسليةِ والاسترخاء. وكان في تلك اللحظة خاصةً يشتهي أن يغيظ ليبزياتنيكوف.

بسببِ إخفاقك مساءَ أمس إنَّما أنت معكَّرُ المزاج إلى هذا الحدِّ اليوم. بهذا الكلام أفلتَ أخيراً لسان ليبزياتنيكوف الذي كان رغمَ كلِّ "استقلاله" ورغم كل روح "الاحتجاج" لديهِ، لا يجرؤ في العادةِ أن يُعارِضَ بيوتر بتروفتش معارضةً صريحةً، وكانَ على وجهِ العموم يلتزمُ في مُعاملتهِ منذُ شبابهِ من كياسةٍ، وأدبٍ، واحترامٍ.

وقد قاطعه بيوتر بتروفتش قائلاً بتعالٍ وامتعاضٍ:

ـ قل لي: هل تستطيع أو هل أنت على قدرٍ كافٍ من حسنِ الصِّلةِ، وعمقِ المودَّةِ مع الفتاة المذكورة بحيث يمكنك أن ترجوها أن تأتي إلى هنا، إلى هذهِ الغرفة، حالاً؟ أظنُّ أنَّهم لابُدَّ أن يكونوا قد عادوا الآن جميعاً من المقبرة، لقد سمعتُ وقعَ أقدام، و.... أود لو أرى هذهِ الفتاة.

سألهُ ليبزياتنيكوف مدهوشاً:

ـ ولكن لماذا؟

أجابهُ:

ـ هكذا..... يجبُ أن أكلمها، إنني راحلٌ بين يومٍ وآخر، وأحبُّ أن أنقل لها.... بوسعك أن تحضر حديثنا على كلِّ حالٍ، بل ذلك أفضل، وإلا ربَّما تخيلتُ ما لا يعلمهُ إلا اللّه!.....

ـ لن أتخيَّل شيئاً البتة.... وإنَّما أنا ألقيتُ سؤاليَ هكذا.... فإذا كنتُ بحاجةٍ لأن تراها فلا أسهل من إحضارها، أنا ذاهبٌ لآتيكَ بها، وثق أنني لن أزعجك.

وعاد ليبزياتنيكوف مع سونيا فعلاً بعد خمسِ دقائقٍ، دخلت البنت مدهوشةً بالفعل، خجلة وجلة إلى مدى بعيدٍ، على عادتها، هي خجلةٌ وجلةٌ أبداً في مثل هذه الأحوال، كانت منذُ الطفولةِ تخشى التَّعرف إلى أناسٍ جدد، وتخافُ الوجوهَ الجديدة، وقد تفاقم هذا الميل عندها كثيراً.

استقبلها بيوتر بتروفتش استقبالاً "لطيفاً مهذباً"، ولكنَّهُ أضافَ إلى هذا الاستقبال، والحقُّ يُقال، نوعاً من المرحِ والألفةِ يليقان، في رأيهِ، برجلٍ يبلغ ما بلغهُ هو من جدٍّ ووقارٍ واحترام، حين يعاملُ شابةً إلى هذا الحدِّ، شائقة إلى هذه الدرجة، بمعنى ما.

وأسرع بيوتر بتروفتش "يطمئن" سونيا، ويجلسها أمام المائدة قبالتهُ، جلست سونيا وألقت نظرة حولها ـ على ليبزياتنيكوف، وعلى المال الموضوع على المائدة، ثُمَّ على بيوتر بتروفتش فجأةً من جديد، ومنذُ تلك اللحظة لم تحوِّل بصرها عنهُ، كأن شيئاً ما كان يشدُّها إليه.

اتجه ليبزياتنيكوف نحو الباب، فنهض بيوتر بتروفتش، وأوقفهُ حيث هوَ، ودعا سونيا بإشارةٍ من يدهِ إلى أن تبقى قاعدةً، وقال يسألُ صاحبهُ همساً:

ـ راسكولنيكوف هناك؟ هل جاء؟

فأجاب ليبزياتنيكوف:

ـ راسكولنيكوف؟ نعم، هو هناك. فماذا؟ نعم، هو هناك، وصل منذُ بضع الوقت، رأيتهُ، فماذا؟

ـ إذاً، أطلُبُ منكَ ملحَّاً أن تبقى معنا، أن لا تتركني في خلوةٍ مع هذهِ الصبية.

هذهِ قضيةٌ عاديةٌ، ولا يعلم إلا اللّه ما الذي يستنتج منها إذا.... لا أريد أن يمضي راسكولنيكوف يتقوَّلُ على هواه..... هل تفهم إلى ما أُشير؟ ردَّ ليبزياتنيكوف وقد أدركَ الأمر:

ـ أفهم، أفهم، أفهم، أنت على حق، في قناعتي الشَّخصية أنَّكَ تضخِّمُ الأخطارَ كثيراً.... ولكنَّكَ مع ذلك مُصيبٌ. طيب. سأبقى. سأمكثُ هنا قربَ النافذة، حتى لا أضايقك..... في رأيي أنَّكَ مُحقٌّ..... عاد بيوتر بتروفتش نحوَ الأريكةِ، وجلسَ قبالةَ سونيا، ورمقها بانتباهٍ، ثُمَّ لم يلبث أن اصطنعَ هيئةً فيها كثيرٌ من الوقارِ والجدِّ حتى لتكونَ تكونُ نظرةً قاسيةً، وهو يقولُ لها همساً "لا تخطرنَّ ببالِكِ الخواطرُ يا حلوة!"

تشوشت البنت وفقدت سيطرتها على نفسها، وبدأ بيوتر بتروفتش كلامهُ فقال بلهجةٍ فيها كثيرٌ من الجديَّة، إنما هي لهجةٌ ودودٌ في نفسِ الوقت:

ــ أرجوكِ أولاً أن تتكرمي يا سونيا سيميونوفنا، فتعتذري عني لأمك المكرَّمة..... أليست كاترينا إيفانوفنا بمثابةِ الأم لك؟ أليس هذا صحيحا؟

كان يبدو على بيوتر بتروفتش أنَّه يضمرُ أحسن نياتِ الصداقةِ، فأسرعت سونيا تجيبهُ مروَّعة:

ـ نعم، حقاً، هي لي كأمي.

ـ فاعتذري لها عن أنني لا أستطيع، لظروفٍ مستقلةٍ عن إرادتي، أن آتيكم فأتناول لقمةَ الرَّحمة على روحِ الفقيد، رغم الدعوة اللطيفة التي وجِّهَت لي.

قالت سونيا ذلك ونهضت مسرعة.

ـ سأقول لها هذا، فوراً.....

فأردف بيوتربيروفتش وهو يمنعها من القيام، ويبتسمُ لسذاجةِ الفتاةِ، ولجهلها بالمواصفات الاجتماعية:

ـ ليس هذا كل ما يعد. إنك لا تعرفينني إذاً، يا سونيا سيميونوفنا العزيزة، إذا كنت تتصورين أنني لسبب تافه ولا يخص غيري، يمكن أن أسمح لنفسي بأن

أزعج شخصاً مثلك. إن لي هدفا آخر تماماً.

عادت سونيا تجلسُ بسرعةٍ شديدةٍ، وأخذت الأوراق وأنواعُ العملةِ الباقية التي تتراقص أمامَ عينيها من جديد، فسرعان ما أشاحت وجهها عنها بقوة، ونظرت إلى بيوتر بتروفش. لقد لاحَ لها فجأةً أنَّهُ عارٌ رهيبٌ عليها أن تنظر إلى مالٍ ليس لها، لاسيما وهي ما هي عليه، تركَّز بصرها في أول الأمرِ على المونوكل ذي الإطار الذهبي، الذي كان بيوتر بتروفتش يمسكهُ بيدهِ اليُسرى وَمَكثَ على الخاتمِ الجميلِ جداًّ، الضخم جداًّ، المزدانِ بحجرٍ أصفرٍ، الساطع في الأصبع الأوسط من تلك اليد، ولكنَّها حولت بصرها بغتةً، وإذ لم تعرف إلى أين توجه عينيها، حدَّقت بهما إلى عيني بيوتر بتروفتش دونَ حركةٍ يمنةٍ أو يسرةٍ.

وبعد فترةٍ صمت تابع بيوتر بتروفتش كلامه بلهجةٍ فيها مزيدٌ من الجدِّ:

- أتيحت لي أمس فرصةَ تبادل بضع كلمات مع المسكينة كاترينا إيفانوفنا، فأدركتُ من تلك الكلمات القليلة وحدها أنَّها تعيش في حالةٍ منافيةٍ للطبيعة، إن جاز القول.

فقالت سونيا مؤيدة:

- نعم، .... في حالةٍ منافيةٍ للطبيعة.

- أو في حالةٍ مرضيةٍ إذا أردنا الكلام بلغةٍ أبسطَ وأوضح.

- نعم، إذا أردنا الكلام بلغةٍ أبسطَ وأوضح....نعم.... هي مريضة.

ـ هذه هي المسألة..... وقد هزتني مشاعرٌ إنسانيَّةٌ، ومشاعرُ عطفٍ إن صحَّ الكلام، فوددتُ لو أنفعها في شيءٍ ما، لأنني أتنبأ بالمصيرِ الشقيِّ البائسِ الذي ستؤولُ إليهِ لا محالة، يخيَّلُ إلى أنَّ الأسرةَ التعيسةَ كلَّها قد أصبحت تعتمد عليكَ وحدكَ.

سألتهُ سونيا وهي تنهض:

- اسمح لي أن أسألك.... هل صحيحٌ أنَّكَ كلَّمتها أمس عن إمكانِ الحصولِ على معاش تقاعد؟..... لقد قالت لي أمس إنَّكَ مستعدٌّ لأن تتولى القيام بالمساعي

اللازمة لكي تحصل لها على هذا المعاش، فهل هذا صحيح؟

ـ غيرُ صحيحٍ قطعاً، بل هو أيضاً سخفٌ، كلُّ ما فعلتهُ أنني أشرتُ إلى جواز الحصول على نجدةٍ مؤقتةٍ يمكن أن تدفع لأرملةِ موظَّفٍ مات في أثناء الخدمة ـ وهذا لا يتحقق طبعاً إلا إذا كان هناكَ أُناسٌ يرعون هذه الأرملة، ويحمونها ـ ولكنني أعتقد أن أباكِ لم يستوفِ عدد السنين المطلوبة في الوظيفة، حتى أنَّهُ في الآونةِ الأخيرة لم يمنع إطلاقاً ومعنى ذلك، باختصار، أن الأمل الصغير الذي كان يمكن أن يراودنا بضعفٍ في هذه الأحوال كل الضعف، لأن حقَّ أبيك في التعويض في مثل هذه الأحوال، لا وجود لهُ في معاش!...هيء هيء هيء! يا للسَّيِّدةِ المتعجِّلة!....

ـ نعم.....هي..... معاش..... لأنَّها سريعةُ التَّصديق.... إن فكرها قد خُلق هكذا. نعم.... معذرةً....

هذا ما قالتهُ سونيا مشوشةٌ وهي تنهض من جديدٍ لتتصرف.

قال بيوتربتروفتش:

ـ اسمحي لي!..... إنَّكِ لم تسمعي بعد كلَّ شيءٍ.

فجمجمت:

ـ نعم، لم أسمع بعد كلَّ شيءٍ، وعادت سونيا تجلسُ مرَّةً ثالثةً، وقد بلغت ذروةَ الارتباكِ واللبكة.

وتابع بيوتربتروفتش:

ـ أنني، وقد رأيت الحالةَ التي هي فيها مع ولدين بائسين، رغبتُ، كما سبق أن قلت لك ذلك، في أن أكون نافعاً لها بقدر ما تتيحهُ لي وسائلي، نعم، بقدرِ ما تتيحهُ لي وسائلي، لا أكثر، فمن الممكن مثلاً أن ننظمَ اكتتاب تبرعاتٍ أو حتى ننظم سحب يانصيب، أو أيِّ شيءٍ آخر من هذا القبيل..... كما يحدث هذا في حالةٍ كهذه بين الأقارب، أو حتى بين أجانبٍ يريدون أن يهبُّوا إلى مساعدةِ أُناسٍ نزلت بهم مصائب الدَّهر، فعن هذا المشروع إنَّما أردتُ أن

أحدثكَ، إنَّهُ مشروعٌ ممكنُ التحقيق.
تمتمت سونيا وهي تحدِّقُ إلى بيوتر بتروفتش في عنادٍ وإصرارٍ:
ـ نعم، ذلك شيء جيد جدًّا..... جزاكَ اللّهُ خيراً....
ـ الأمر ممكن، ولكن.... سنتكلم عن هذا فيما بعد.... بل يمكننا أن نبدأ منذ اليوم، على كل حال سنلتقي في هذا المساء، وسنتفق. سنرسي الأسس، كما يقال، تعالي إلى هنا في حوالي الساعةِ السابعة..... وسيحضرُ أندريه سيميونوفتش حديثنا كما آمل.... غير أنَّ هناك أمراً يجبُ أن نبرزَهُ خاصةً منذُ الآن، ومن أجلِ هذا الأمر يا سونيا سيميونوفنا إنَّما أبحثُ لنفسي أن أزعجك باستدعائك إلى هنا. في رأيي أنَّ المال الذي سنجمعهُ يجبُ أن لا نضعهُ بين يدي كاترينا إيفانوفنا نفسها، حتى أنَّ في ذلك خطراً، ومأدبةُ هذا المساءِ دليلٌ واضحٌ على ذلك:
إن كاترينا إيفانوفنا وهي لا تملك لقمةً تضعها تحت ضرسها غداً، ولا تملك حذاءين تنتعلهما فتقي نفسها المشي حافيةً، لا تحجمُ اليومَ عن شراءِ خمرة الروم الجامايكي، بل والنبي الماديري.... والقهوة، إذا لم يخطِئُ ظني. لقد رأيتُ هذا كُلَّهُ وأنا أعبر، وغداً يقعُ كلَّ شيءٍ على عاتقكِ أنتِ، ويكون عليكِ أن تقدمي لهم حتى خبزهم اليومي، وذلك أمرٌ لايعقل! لهذا أرى أن ينظم اكتتاب التبرعات بحيث لا تتمكن الأرملةُ المسكينةُ من أن ترى حتى لون المال إن صحَّ التعبير، وبحيث لا يطَّلِعَ على الأمرِ أحداً غيركَ أنت، ألست على حق؟
ـ لا أدري!.... في هذا اليوم وحدهُ إنَّما هي.... ذلك لا يحدثُ إلا مرَّةً واحدةً في الحياة.... إنَّها شديدةُ الرَّغبة في أن تكرم في ذكرى الراحل.... وهي ذكيةٌ جِدًّاً. على كُلِّ حالٍ، افعل ما تراهُ مناسباً.... وسأكون.... وسيكونون جميعاً.... وسيجزيك اللّه عن هذا خيرَ الجزاء.... واليتامى....
لم تكمل سونيا جملتها، وأجهشت باكيةً.

قال بيوتربتروفتش:

ـ فكري جيداً فيما قلتُ لك، والآن أرجو بانتظارٍ ذلك أن تقبلي هذا المبلغ المناسب لوسائلي، مشاركةً مني في اكتتاب التبرعات، وإنني لآملُ خاصةً أن لا يذكر اسمي في هذه المناسبة، يؤسفني أن أعبائي الكثيرة لا تمكنني أن أتبرع أكثر من هذا....

قال بيوتر بتروفتش ذلك ومدَّ إلى سونيا ورقةً ماليةً بعشرةِ روبلاتٍ، عُنِيَ بطيِّها جيِّداً.

تناولت سونيا الورقة الماليَّةَ مُحمرَّةَ الوجهِ خجلاً، ثُمَّ نهضت بوثبةٍ واحدةٍ، ودمدمت بضع كلماتٍ، واستأذنت بالانصرافِ مسرعةً إسراعاً واضحاً. شيعها بيوتر بتروفتش حتى الباب بأبَّهَةٍ وجلالٍ، وخرجت آخر الأمر من الغرفة متعجلةً وعصبيةً مرهقةً، عادت إلى كاترينا إيفانوفنا وهي على حالٍ من الاضطراب الشديد.

طوال المدَّةِ التي استغرقها هذا المشهد كان اندريه سيميونوفتش، الذي لم يشأ أن يقطع عليهما الحديث، كان يبقى ساكناً قرب النافذةِ تارةً، أو يسير في الغرفة تارةً أخرى، فلمَّا خرجت سونيا اقترب من بيوتر بتروفتش فجأةً، ومدَّ إليهِ يدهُ يصافحهُ برصانةٍ ووقارٍ:

ـ لقد سمعت كلَّ شيءٍ، ورأيتُ كلَّ شيءٍ (ألحَّ اندريه سيميونوفتش على كلمة "رأيت" هذه إلحاحاً خاصاً). هذا عملٌ نبيل، أقصد هذا عمل إنساني! لقد أردت أن تتحاشى كلَّ تعبيرٍ عن الشكرِ والامتنان، لاحظتُ أنا ذلك. صحيحٌ أنني من ناحيةِ المبدأ أعارضُ كلَّ إحسانٍ أو برٍّ، لأنَّ الإحسانَ أو البرَّ لا يستأصلُ الشَّرَّ استئصالاً قاطعاً، بل يبقيهِ، ويغذيهِ كفاية، ولكني لا أملك مع ذلك إلا أن أعترف بأنني تأملتُ عملك بشيءٍ من الرضى والمسرَّةِ واللذَّةِ. نعم، نعم، أعجبني عملك.

جمجم بيوتر بتروفتش متأثراً ببعض التأثُّر، متأملاً ليبزياتيكوف في بعض

الحذرِ والريبة:

ـ هذه كلّها أمورٌ تافهة!

ـ لا، ليست أموراً تافهة! إن رجلاً جُرِحَ جرحاً حادّاً كما جرحت أنت بإساءةِ الأمس، ثُمَّ هو قادرٌ في الوقت نفسهِ على أن يفكِّرَ في شقاءِ الآخرين وبؤسهم، إن رجلاً كهذا ـ رغم أنَّهُ يتصرف على هذا النموذج، يرتكبُ خطأً من الناحيةِ الاجتماعية ـ جديرٌ بالتقديرِ، خليقُ الاحترام.

الحقُّ أنني لم أكن أتوقَّعُ هذا منك يا بيوتر بتروفتش، لاسيما وأن آراءك.... آه.... ما أشدَّ تأثُرِكَ مثلاً بقضيةِ الأمس تلك! (بهذا هتف أندريه سيميونوفتش الساذَج، وقد شعرَ نحو بيوتر بتروفتش بمودةٍ ومحبةٍ على حين فجأةٍ) ولكن لماذا، لماذا حرصتَ هذا الحرصَ كُلَّهُ على ذلك الزواج الشرعي، يا بيوتر بتروفتش، النبيل جدّاً، اللطيف جدّاً، ما حاجتك إلى هذهِ الشَّرعيَّةِ في الزواج؟ اضربني إن شئت، ولكني أشعرُ بسعادةٍ حين أن هذا الزواج لم يتم، وأنَّكَ حرٌّ، وأنَّكَ لم تَمُت بعد موتاً تاماً بالنسبة إلى الإنسانيَّة. نعم، أشعر بسعادةٍ حين أتذكَّرُ ذلك. ها أنت ذا ترى أنني صارحتُكَ بما في قلبي.

أجاب لوجين ليقول شيئاً ما:

ـ إذا كنت أحرِصُ على الزواج، فلأنني لا أريد أن ينبت لي قرنان، وأن أربِّيَ أولادي الآخرين كما يحدثُ في الزواج الذي تدعو إليهِ.

جفل أندريه سيميونوفتش كحصانِ المعركةِ الذي سَمِعَ صوتَ البومة، وسألَ صاحبهُ متحمِّساً:

ـ الأولاد؟ قلت الأولاد؟ أنني أسلِّمُ بأنَّ الأولادَ يثيرون مشكلةً اجتماعيةً هامةً جدّاً، ولكن مسالة الأولاد ستحلُّ بطريقةٍ أخرى تماماً، إن بعضهم يمضي إلى حدِّ إنكارِ الأولاد إنكاراً تاماً، كما ينكر كلَّ إشارةٍ إلى الأسرةِ على كلِّ حالٍ، وسنحدَّثُ عن مشكلةِ الأولاد فيما بعد، أما الآن فلنقف على مسألةِ القرنين هذهِ، لأنني أحبها حبّاً خاصاً، ألا فاعلم أن هذا التعبيرُ السيءُ المستمدُّ

مـن لُغَـةِ الفرسـان، المسـتعار مـن كـلام رجـالٍ مثـل بوشـكين، سـوف ينبـذُ مـن معاجمِ المستقبل نبذاً تاماً، ما هذهِ القـرون الـتي تتحـدثون عنهـا؟ هـه! كـم أنـت مخطئ! لما تتحدثون عن قرون؟ نعم، هناك قرون، ولكن الزواج الحرَّ هو الذي لن تكون فيه قرون! ليست القرون إلا نتيجةً طبيعةً للزواجِ الشرعي، إنَّها تعديلٌ لـهُ إن صحَّ التعبير. إنَّهـا الاحتجـاج عليـهِ، وبهـذا المعنـى يمكـن أن نصفها بأنَّهـا لـيس فيهـا حتـى شـيءٌ مـن مذلـةٍ، فلـو اضـطررت يومـاً أن أتـزوج زواجـاً شـرعياً - وهذا افترض محال - لكان يسرني ويسعدني أن ينبت لي قرنان من تلك القـرونِ الملعونةِ التي تتحدثون عنها، سوف أقولُ عندئذٍ لزوجتي: "يا صديقتي، أنـا حتـى هذهِ اللحظةِ لم أزد على أن أحببتك، أما الآن فأنني أضيف إلى الحبِّ احترامـاً، لأنَّك عرفتِ كيف ترفعين احتجاجاً.

أتضـحك؟ أنـت تضـحكُ لأنَّـكَ لا تملـكُ مـن القـوَّةَ مـا يمكنـكَ مـن التحـرر مـن الرواسـب الاجتماعيـةِ، أنـا أفهـم أن يمتعض الـزواج مـن خيانـةِ زوجتـهِ في الـزواج الشرعي، ولكن هذا بعينهِ إنَّما هـو النتيجـة البائسـة لواقعـةٍ هـي أيضـاً بائسـة، بالنسبة إلى الطرفين كليهما، أما حين يحمل الرجل قرنين صراحةً، كما هي في الزواج الحُرِّ.

# الفصل الثاني

يصعب علينا أن نُحدِّدَ على وجهِ الدِّقة، الأسباب التي أنبتت في دماغ كاترينا إيفانوفنا المختل فكرةَ مأدُبةِ الجنازةِ هذهِ، لابُدَّ أنَّها أنفقت على هذه المادُبة قُرابةَ عشرةَ روبلاتٍ من العشرين روبلاً التي أخذتها من راسكولنيكوف لإنفاقها على احتفالات دفن مارميلادوف، لعلَّ كاترينا إيفانوفنا كانت تعتبر نفسها مضطرةً على تكريم ذكرى الراحل تكريماً "لائقاً"، حتى يعلمَ جميعُ المستأجرين، ولاسيَّما أماليا إيفانوفنا، إن الراحل لم يكن أدنى قيمةً منهم، بل ربَّما كان أعلى كثيراً، وأنَّهُ ما من منهم يحقُّ لهُ بعد اليوم أن "يدلَّ بنفسهِ" حين يفكِّرُ فيهِ. ولعلَّها كانت تنقادُ "لزهو الفقراء" الخاصِّ بهم الذي يدفعُ كثيراً من البؤساء بمناسبةِ بعض الاحتفالات التي لا يستطيعون التملص منها بسبب عاداتنا المتأصِّلة، إلى أن يبذلوا آخر ما يملكون من قوى، وآخر ما يملكون من مال، حتى لا يكونوا "دون الآخرين" وحتى لا "يحكمُ عليهم" أولئك الآخرين، ومن الجائزِ جداً كذلك أن تكون كاترينا إيفانوفنا في ذلك الظرف بعينهِ، أي في اللحظة التي بدا فيها أن أفراد المجتمع هجروها، قد أرادت أن تبرهن لجميعِ أولئك "المعوذين" الذين هم المستأجرون، أنَّها امرأةً تعرف كيف تعيش، وكيف تستقبل، وأنَّها نشأت لتحيا طرزاً من الحياة مختلفاً عن هذا الطرز كلَّ الاختلاف، وأنَّها تربت في "منزلٍ نبيلٍ، بل ارستقراطي، منزل كولونيل" وأنَّها إذاً لم تُخلق لتتولى بنفسها كنس الأرض، وغسلِ أسمال الأولاد في الليل، إنَّ اندفاعات الزهوِّ، واللُّطفِ، والغرورِ هذه تستبدُّ أحياناً بأشدِّ النَّاسِ فقراً، وتستبدُّ بأناسٍ بؤساء، ولا يندر أن نرى هذهِ الاندفاعات تستحيل في بعض اللحظات على حاجاتٍ حقيقيةٍ، حاجاتٍ ماسةٍ قويةٍ، ثُمَّ إن كاترينا إيفانوفنا ليست من أولئك النسوة اللواتي يصرعنَ بسهولة: فقد كان من الممكن أن تسحقها الظروف الرهيبة، غير أنَّهُ لا شيءَ يمكن

أن يجهز على عزيمتها، وأن يهدم إرادتها، ثُمَّ إن سونيا كانت على حقٍّ حين قالت عن دماغ أمها قد أخذ يختلُّ قليلاً قليلاً.

الواقعُ أن الأمرَ لم يتضح بعد، ولكن لا شك أن كاترينا إيفانوفنا قد تحمَّلت من المحن منذُ بعض الوقت، ولاسيما في السَّنة الأخيرة ما لابدَّ أن يكونَ لهُ أثراً في عقلها، ثُمَّ إن مرض السلِّ يهيءُ المصابَ لاضطراب الملكات العقلية متى بلغ مرحلةً معيَّنة.

لم تكن الخمورُ كثيرةً ولا متنوعةً جدَّاً، وليس ثمَّةَ خمرةً مدريديَّة، فتلك مبالغةٌ، وعمَّ ذلك كان ثَمَرَةِ خمرة: نبيذٌ، وفودكا، وروم، وبورتو، كان هذا كُلُّهُ من أنواعٍ رديئةٍ طبعاً، ولكنَّ مقاديرهُ كانت كافية، وقد هيأوا بالإضافةِ إلى حلوى الأرزِّ التقليدية، ثلاثةُ أو أربعةُ أصنافٍ من الطعام (منها فطائر). أُعدَّت في مطبخِ آماليا إيفانوفنا، وحضرَ سماوران لمن يريدون أن يشربوا الشَّاي أو يحتسوا "البنش" بعد الوجبة، إن كاترينا إيفانوفنا هي التي تولت بنفسها شراءَ الأشياء، يساعدها في ذلك أحدُ المستأجرين، وهو بولنديٌّ رثٌّ، مسكين، لا يعلمُ إلا الله لماذا يسكن عند السَّيدة ليبفيخريل، وهذا البولندي لا يكفُّ عن السَّعي هنا وهناك، مادَّاً لسانَهُ (كأنَّه كان يحاول أن يلفت الانتباهَ خاصةً إلى هذا الأمر)، وهو في كُلِّ لحظةٍ، بأيِّ مناسبةٍ وبغيرِ مناسبة، يخفُّ إلى كاترينا إيفانوفنا، بل وثَبَ ركضاً إلى السوق المشهورة باحثاً عنها، ويغدقُ عليها لقب "السيدة الليوتنانيَّة" بغيرِ حسابٍ، إلى أن ضاقت بهِ ونفذ صبرها، مع أنَّها كانت قد أعلنت في أول الأمر أنَّها لولا هذا الرجل "الخدوم والكريم" لضاعت.

لقد كان من طبعِ كاترينا إيفانوفنا أن تضفي أجمل الألوان على أوَّلِ شخصٍ تلقاهُ، وأن تغرقهُ بالإطراء إلى أن يشعر بحرجٍ وخجلٍ، وأن تنسِبَ إليهِ مزايا لا وجودَ لها في الواقع - ولكنها تعتقد هي بوجودها صادقةً غير مرائية - ثُمَّ إذا بأوهامها تتبدد، وإذا هي تخاشنهُ وتغلظ لهُ القول، وإذا هي آخرَ الأمر تطردُ

ذلك الشخص نفسهُ الذي كانت تبجلَهُ أعظمَ تبجيلٍ منذ ساعاتٍ قليلةٍ.

إنَّها ذات طبعٍ مرحٍ مائلٍ إلى التسامح، ولكنَّها بسبب أنواعِ المصائب، وصنوف الإخفاق التي تلاحقت عليها راحت تطالبُ بكثيرٍ من الحدَّةِ والمرارةِ أن يعيشُ على منوالٍ آخر، فإذا حدثَ أقلُّ نشازٍ أو فشلٍ خرجت عن طورها في الحال. فهي بعد أن تكونُ قد هدهدت نفسها بأقوى الآمال، وأجملِ الأماني، وأسطعِ الأخيلة، وأبهى الأوهام، تأخذ في لحظةٍ واحدةٍ، تلعنُ الأقدار، وتشتمُ الدَّهرَ، وتُرغي وتُزبد، وتَعصف وتَرعد، وتخرِّبُ كلَّ ما يقعُ تحت يدها، وتضرب الجدران برأسها.

وقد اكتسبت أماليا لايفانوفنا، هي أيضاً، على حين غرَّةٍ، قيمةً عظيمةً، وشأناً كبيراً في نظر كاترينا إيفانوفنا، لا يدري أحدٌ السبب....فأصبحت كاترينا تقدر أماليا قدراً عظيماً، وتحترمها احتراماً هائلاً.... ولكن لعلَّ مردَّ ذلك إلى المأدُبة التي تريد كاترينا أن تقيمها، وإلى أماليا قد عرضت من تلقاءِ نفسها أن تشاركَ في إعداد هذه المأدُبة، لقد تعهدت بنصبِ المائِدة، وتقديم المفرش، وتأمين الصحون، الخ....، وتعهدت بإعدادِ الطَّعامِ في مطبخها، حتى إن كاترينا إيفانوفنا نفسها، حين ذهبت على المقبرة، قد خولتها كل السلطات، وفوضتها في كل أمرٍ، والحقُّ أن كلُّ شيءٍ قد أُعِدَّ على أحسنِ وجهٍ، وهيئت المائدة تهيئةً لا مأخذَ عليها.

صحيحٌ أن الصحونَ، والشوكات، والسكاكين، والكؤوس الكبيرةِ والصغيرة، والفناجين، كانت مختلفةً غيرَ متجانسة، من مصادرٍ شتَّى وأنواعٍ متباينة، لأنَّها استعيرت من مستأجرين مختلفين، ولكنَّ كلَّ شيءٍ كان في الساعةِ المحددةِ قد وضع في مكانه، حتى أن آماليا إيفانوفنا التي كانت تشعرُ بأنَّها قامت بواجبها ونهضت بمهمتها على خيرِ وجهٍ، والتي كانت تتحلى بثوبها الأسود، وتضعُ على رأسها قبعةً تزينها أشرطةً صغيرةً جديدةً، قد أخذت تستقبلُ المدعوين، عند عودتهم من المدفن، بشيءٍ من الاعتزاز المشروع، قد

ساءَ كاترينا إيفانوفنا، لا يدري المرءُ السبب! فكانت كاترينا تقول لنفسها: "لكأننا لم نكن نستطيع أن نُعِدَّ المائدة من دونِ آماليا إيفانوفنا!" وكذلك ساءتها القبعة ذات الأشرطةِ الجديدةِ، فكانت تقول لنفسها: "ترى ألن تتباهى هذه الألمانيَّة بأنَّها مالكةُ البيت، وبأنَّها تفضلت وتنازلت وساعدت سكان بيتها المساكين من باب البرِّ والإحسان؟ إن المائدة، في منزل والد كاترينا إيفانوفنا الذي كان عقيداً وكاد يصير محافظاً، كانت تعدُّ أحياناً لأربعين ضيفاً، وما كان لامرأةٍ مثل آماليا إيفانوفنا أو قولوا آماليا لودفيجوفيا أن يقبل هناك في المطبخ!."

واشتدَّ أزرُ كاترينا إيفانوفنا بهذهِ الخاطرة، وقررت في دخيلةِ نفسها، أنَّهُ لا بُدَّ من تغيير هِمَّة آماليا إيفانوفنا بعد المأدُبة رأساً، وبلا ترددٍ أو إمهال، ووضعها في مكانها الحقيقي لأنَّها تتباهى وتتبخترَ أكثرَ من اللزوم، أما الآن فاكتفت مؤقتاً أن تُظهرَ لآماليا إيفانوفنا شيئاً من الفتور، وهناك ظرفٌ مزعجٌ آخر ساهم إلى حدٍّ ما في تكدير كاترينا إيفانوفنا: وهو أن المستأجرين الذين دعوا إلى الجنازةِ، لم يكن أحدٌ منهم يشترك بالتشييع، عدا البولنديُّ الذي مع ذلك شيَّعَ جثمانَ المتوفي إلى المجنة[1]. أما المأدُبة أو قل وجبةَ الطَّعام الخفيفة فالشرائحُ الفقيرةُ، والرَّثة، وحدهم هم الذين حضروها، حتى أن بعضهم قد جاءَ إليها بثيابٍ هي خُرَقٌ رثَّة، وأسمالٍ باليةٍ: أي أن الاحتفال لم يكن فيهِ على وجهِ الإجمالِ شيءٌ من أبَّهة، لكأنَّ المتقدمين في السنِّ، وأهلِ الجدِّ والوقارِ من المستأجرين قد تعاهدوا فيما بينهم على أن يمتنعوا عن الحضور، من ذلك مثلاً أن بيوتر بتروفتش لوجين، وهو الذي يمكن أن يقال أنَّهُ أعلاهم قدراً، وأرفعهم شأناً، لم يحضر المأدُبة، مع أن كاترينا إيفانوفنا قد أعلنت جهاراً منذ المساء للجميع (آماليا إيفانوفنا وبوليتشكا وسونيا والبولندي) أن بيوتر

1 - المدفن - المترجم.

بتروفتش رجلٌ من أنبل النَّاس وأكرمهم، وأنَّه ذو صلاتٍ عاليةٍ، وهو مؤثر، وكان صديقاً لزوجها الأوَّل، وقد سبق أن استقبل في منزلِ أبيها، وأنَّه لذلك قد وعدَ ببذلِ جميعِ المساعي لكي يؤمِّن لها معاشاً تقاعديَّاً يعتدُّ بهِ. يجب أن نذكر هنا أن كاترينا إيفانوفنا إذا اتفق لها أن أطرت شيئاً ما، كعلاقاتٍ رفيعةِ المستوى أو ثروةٍ طائلةٍ تفعلُ ذلك دائماً مبرأةً من المصلحةِ، منزَّهٌ عن المنفعة، لا يدفعها إليها أيُّ حسابٍ شخصيٍّ، وإنَّما هي تفعلهُ بنوعٍ من كرمٍ فياضٍ، وحماسةٍ دافقةٍ، لا ترجو سوى لذَّةَ مدحِ أحدِ النَّاس، وإضفاءُ عليهِ قيمةً كبيرةً.

وكما امتنع لوجين عن حضور المأدُبة، امتنع عن حضورها أيضاً - ربَّما من باب الاقتداء - ذلك الوغدُ المشؤوم ليبزياتنيكوف. "ماذا يظنُّ نفسهُ؟ نحن ما دعوناه إلا شفقةً عليه وبرَّاً بهِ، لأنَّهُ يسكن في نفسِ الغرفةِ التي يسكنها بيوتر بتروفتش الذي هو من معارفهِ، فكان من المُحرجِ لنا أن لا ندعوهُ....". وهناك سيدة وابنتها (الابنة قريبة من العنوسة) لم تلبيا الدعوة أيضاً إن هاتين المرأتين، رغم أنَّهما لا تسكنان عند آماليا إيفانوفنا إلا منذُ أسبوعين، قد شكتا عدَّةَ مراتٍ من الضجَّةِ والصراخِ الآتيةِ من غرفةِ أسرةِ مارميلادوف، ولاسيَّما حين كان المتوفى يعود إلى البيت سكران، وهذا أمرٌ قد وصلَ إلى مسامعِ كاترينا إيفانوفنا طبعاً عن طريق آماليا إيفانوفنا، وذلك هددتها هذهِ، في أثناء شجارٍ الاثنتين، بأنَّها ستطردها من البيت هي وأسرتها، صارخةً بأعلى صوتها أنَّهم "يزعجون جيراناً نبلاءً لا يرقون هم إلى مستوى نعالهم". ولقد قررت كاترينا إيفانوفنا عامدةً، أن تدعو هاتين المرأتين اللتين "لا ترقى هي إلى مستوى نعليهما!" وكانت تحرصُ على دعوتهما حرصاً خاصاً لأنَّها كانت إذا اتفق أن التقت بإحدى هاتين السيدتين تراها تشيحُ عنها وجهها باحتقارٍ، قالت كاترينا إيفانوفنا لنفسها: بهذا تعرفان بأننا نمضي بالنبلِ إلى حدِّ نسيانِ الإساءات والإهانات، وسيكون في وسعهما بهذهِ المناسبةِ نفسها أن تدركا أن كاترينا

إيفانوفنـا لم تـألف أبـداً أن تعـيش ﰲ ظـروفٍ كهـذهِ الظـروف، وأن تحـدثهما كـذلك عـن منصـبِ "المحـافظ" الـذي كـان يحتلـهُ المرحـوم أبوهـا، وربَّمـا استطاعت كـذلك أن تسـمعها بطريقـةٍ غـير مباشـرةٍ أنَّـه لا داعـي لأن تشـيحا بوجهيهما حين تلقيانها، وأن هذهِ الحركة حركةً غبيَّةً.

وقد غاب عن المأدُبةِ أيضاً رجلاً ضخمَ الجسمِ يقولون أنَّه مقدَّمٌ (وهو ﰲ حقيقته نقيب محال على المعاش)، ولكـن علم أنَّـه "طـريحُ الفـراشِ" مـن فـرطِ السُّـكرِ منذ ليلةِ البارحة.

الخلاصة أنَّهُ لم يحضر المأدبة إلا هؤلاء: البولندي، وموظفٌ هزيلٌ قميءٌ، وعلى وجهه بثور، يرتدي معطفاً وسخاً، وينشـر رائحـةً كريهـةً، ورجـلٌ آخـر عجـوزٌ قصـيرٌ أصـم، يكـاد يكـون أعمـى، كـان ﰲ الماضـي يشـغل وظيفـة ﰲ إدارة البريـد لا يـدري أحـدٌ مـا هـي، وثمَّـةَ مجهـولٌ يـدفع عنـه أجـرة غرفتـه لآماليـا إيفانوفنا منذ مدَّةٍ طويلة لا يدري أحدٌ لماذا، وقد حضـر المأدبة مـلازمٌ متقاعـدٌ سـكرانٌ، لم يكـن ﰲ حقيقـة الأمـر إلا موظفـاً ﰲ إدارة التمـوين، وهـو ينفجـر ضـاحكاً ضـحكاً سـفيهاً ﰲ كـلِّ لحظـةٍ، ولا يرتـدي صـديرة "فتصـوروا قلـة الحياء، وفـرط الوقاحة، ياللعـار"! وقـد جـاء رجلٌ آخـر فجلس إلى المائـدة رأسـاً حتى دون أن يحيي كاترينا إفانوفنا، وجاءت ﰲ النهاية "شخصية" أخـرى تلبس ثوب المنزل ـ دي شامبر robe de chambre لأنَّـه لا يملك غيرهُ رداء، ولكـن ذلـك قد بلغ من الخروج عن حدود اللياقة أنَّه أمكـن إخـراج الرجل بجهـودٍ متضـافرة قامـت بهـا آماليـا إيفانوفنـا والبولنـدي. ثُـمَّ إن البولنـديُّ قـد اصـطحب رجلـين بولنـديين آخـرين لا يـذكر أحـدٌ أنَّهمـا سـكنا عنـد آماليـا إيفانونفـا ﰲ أحـد الأيام، ولا لقيهما أحدٌ ﰲ هذا المنزل يوماً على الأقل.

ذلـك أزعـج كاترينـا إيفانوفنـا إزعاجـاً شـديداً فتسـاءلت: "أمـن أجـل هـؤلاء" إذاً قمنا بهذه الاستعدادات كلِّها؟"

ومن أجل أن يتسع المكـان كـانوا قـد اضـطروا إلى العـدول عـن إجـلاس الأولاد

إلى المائدة، التي كانت تكاد تشغل وحدها كلَّ الغرفة، لذلك أقيمت لهم مائدةً خاصةً في ركنٍ بطرف الغرفة على صندوق، وأجلس الولدان الأصغران على دكةٍ، عهد إلى بوليتشكا، بصفتها الكبرى، أن تراقبهما وأن تطعمهما وأن تمخطهما، "كما يفعل بأولاد الرَّاقية".

الخلاصة أن كاترينا إيفانوفنا قد اضطرت، راضيةً أو كارهةً، أن تستقبل جميع هؤلاء النَّاس، فاستقبلتهم بوقارٍ ورصانةٍ واضحين، بل وبشيءٍ من التعالي والعجرفة، حتى لقد ألقت على بعضهم نظرةً فيها قسوةً خاصَّة، ثُمَّ دعتهم أن يجلسوا إلى المائدة، وقد ظهرت على هيئتها معاني الاحتقار والازدراء، وقد اعتقدت، لسببٍ أو لآخر أن آماليا إيفانوفنا هي المسؤولةُ عن غيابِ المدعوين المرموقين، فكانت تخاطبها بلهجةٍ بلغت من الوقاحة أن آماليا إيفانوفنا سرعان ما لاحظت ذلك، فاستاءت بشدَّة، وأضمرت أكبر الضغن.

إن بدايةً كهذه البداية لا تبشِّرُ بخيرٍ.

وأخيراً جلس الجميع إلى المائدة.

كان راسكولنيكوف قد وصل في لحظةِ العودة من المدفنِ تقريباً، فاغتبطت كاترينا إيفانوفنا بوضوح، أولاً لأنَّهُ بين سائر المدعوين "الرجل المثقف الوحيد" الذي "سيحتل بعد سنتين، كما يعرف الجميع، كرسي أستاذِ جامعتنا"، وثانياً لأنَّهُ ما أن وصلَ حتى بادر يعتذرُ لها بكثيرٍ من الاحترام عن أنَّهُ لم يستطع أن يشارك في التشييع رُغم رغبتهِ الشديدةِ وحرصهِ الكبير.

ومن تلك اللَّحظةِ لم تتركهُ كاترينا إفانوفنا، فقد أجلستهُ إلى يسارها (وكانت آماليا إيفانوفنا قد جلست إلى اليمين)، ورغم مشاغلها المتصلة من حيث هي ربَّة البيت، ورغم السُّعال الرَّهيب الذي كان يقطع كلامها ويخنقها في كلِّ لحظةٍ، والذي كان يبدو أنَّه تفاقم كثيراً منذ يومين، فإنَّها لم تنقطع عن التحدث إلى راسكولنيكوف، وعن أن تفضي إليه همساً بكلِّ ما كان يعتلج في قلبها، ولاسيما باستيائها الشديد العادل من إخفاق المأدُبة، على أن

قهقهـةً كـانـت تعقـب ذلـك الاسـتياء في أحيـانٍ كـثيرةٍ، قهقهـةً لا تسـتطيع أن تكظمها، فهي هزءً وسخريةً على المدعوين، وعلى صاحبة البيت بخاصة.

ذلـك كلّـهُ إنَّمـا سـببهُ هـذه البومـة! (كاترينـا إيفانوفنـا تقـول ذلـك وتـومـيء إلى راسكولنيكوف بحركةٍ من رأسها إلى صاحبة البيت أماليا إيفانوفنا). أنظر إليها! إنَّها تحملق بعينيها، هـي تعلم أننـا نـتكلم عنهـا، ولكنهـا لا تستطيع أن تفهم، إن عينيها تخرجان مـن رأسـها! هؤ....هـؤ!.... بومـة حقـاً! هـأ هـأ هـأ! هـيء هـيء هـيء! وما الذي تريد أن تبرهن لنا عليهِ بقبعتها هـذه؟ هـيء هـيء هـيء! هـل لاحظت أنَّها تريد أن تظهرني أمام الملأ جميعاً بمظهـر محميتهـا، وأن تـبين أنَّهـا إنَّمـا تشـرفني إذ تحضـر هـذا العشـاء؟ لقـد طلبـت منهـا، لإعتقـادي أنَّهـا إنسـانةٌ لائقةٌ، أن تـدعو أناسـاً محترمـين، وأن تـدعو خاصَّـةً أولئـك الـذين عرفـوا زوجـي الراحل، فـانظر بمـن جـاءتني: لقـد جـاءتني بمهـرجين، وصـعاليك قـذرين! أنظـر إلى ذلـك الرجـل الـذي علـى وجهـهِ بثـور! حقـاً أنَّـه مخـاطٌ يمشـي علـى قدميـه لا أكثر! وما قولك بهؤلاء البولنديين الحقراء؟ هـأ هـأ هـأ! هـيء هـيء هـيء! مـا مـن أحـدٍ سـبق أن رآهـم هنـا، لا ولا رأيـتهم أنـا هنـا، أبـداً، فلمـاذا إذاً جـاءوا؟ هـل تستطيع أن تقول لي لماذا جاءوا؟ ما أعظم وقارهم في جلوسهم واحداً إلى جانـب الآخـر! مـا أظـرفهم! هيـه، يـا "بـان"! كـذلك نـادت أحـدهم فجـأةً ناطقـةً باللغـة البولندية - هـل أخـذت فطـائر؟ خـذ أيضـاً، واشـرب بيره، اشـرب بيره! واشـرب فودكـا! ألا تريد أن تشرب فودكـا؟ - أنظـر إليه، لقـد نهـض بوثبـةٍ واحـدةٍ، وهـا هـو ذا يحيـي منحنيـاً انحنـاءً شـديداً..... أنظـر.... أنظـر! مسـاكين..... لا بـدَّ أنَّهـم جـائعون جـداً! لا بـأس! فليـأكلوا! هـم لا يحـدثون ضـجةً علـى الأقل.....ولكن....ولكن....

لا أكتمك أنني أخشى أن يأخذوا ملاعق الفضَّةِ وهي لصـاحبة البيـت. يـا آماليـا إيفانوفنا (كذلك نادت صاحبة البيت فجـأةً بصـوتٍ عـالٍ تقريبـاً)....إنـني إنبهـك منذ الآن إلى أنني غير مسؤولة إذا هم سرقوا ملاعقك!

وسُرَّت كاترينا إيفانوفنا لقولتها هذه، فأخذت تضحك بشكلٍ جنوني، ثُمَّ عادت تومي برأسها إلى صاحبة البيت قائلةً لراسكولنيكوف:

ـ أنَّها لم تفهم! في هذه المرَّةِ أيضاً لم تفهم! ما تزال فاغرةَ الفم، جاحظة العينين، جوالة الطرف! انظر إليها، انظر! هي بومةٌ حقَّاً، بومة.... قلت لك أنَّها بومة.... ولكن بأشرطةٍ جديدةٍ! هأ هأ هأ!....

وهنا استمال ضحكها إلى سُعالٍ لا يطاق، استمرَّ خمسَ دقائقٍ، تلطَّخ منديلها بالدم، وظهر العرق على جبينها كحباتِ اللؤلؤ، أرت راسكولنيكوف بقعة الدم في صمت، وما أن استردت أنفاسها حتى دمدمت، وقد تخضبت وجنتاها بحمرةٍ قانية، وبلغت أقصى الاضطراب:

ـ انظر مثلاً: لقد عهدت إليها بمهمةٍ دقيقةٍ جداًّ هي أن تدعو تلك السيدة وابنتها. أتعرف من أعني؟ فكان عليها في مثل هذه الحالة أن تتصرف بكثيرٍ من الكياسة، والفنِّ، والحذق، لكنها لم تحسن السلوك، فإذا بتلك الحمقاء المتغطرسة، إذا بتلك المخلوقةِ القروية.... ذلك أنَّها ليست في الواقع سوى أرملةُ رائدٍ جاءت إلى هنا تسعى إلى الحصول على معاشٍ تقاعدي، فهي تنتظر في حجرات الدخول متنقلةً متسكعةً هنا وهناك، متبرِّجةً، مثقلةَ الوجهِ بالمساحيق والكحل ،والأصباغ، رغم أنَّها في الخمسين من عمرها (هذا معروف).... إذا ابتلَّت المخلوقةُ لا تتنازل أن تجيء، بل ولا تُرسل كلمة اعتذار، كما يليق بالمرء أن يفعل في مثل هذه الأحوال إذا كان على شيء من الأدب والتهذيب! وبيوتر بتروفتش، إنني لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يأت هو أيضاً! ولكن أين سونيا؟ أين ذهبت؟ آ.... ها هي ذي أخيراً! أين كنت يا سونيا؟ غريب منك أن تكوني قليلةَ التقيُّد بالمواعيد حتى في يوم جنازةِ أبيك، أفسح لها مكاناً على جانبك يا روديون رومانوفتش، هذا مكانك يا سونيتشكا! اسكُبي لنفسك طعاماً! خذي سمكاً بالبالوظة، فهذا أحسن الطعام، سنأتيكِ بفطائرٍ فوراً، والأولاد، هل تناولوا طعامهم؟ هل أصبتم من كلِّ شيءٍ يابوليتشكا؟ هيء هيء هيء!

طيب، عظيم! كوني هادئةً عاقلةً يا لينيا! وأنت كوليا لا تهزّ ساقيك هكذا! ابق قاعداً كما يجب أن يجلس ولدٌ من أسرةٍ محترمة، ماذا تقولين يا سونيتشكا؟

أسرعت سونيا تنقل اعتذارات بيوتر بتروفتش، محاولةً أن تتكلّمَ بصوتٍ قويٍّ حتى يسمعَ جميع الضيوف كلامها، واستعملت أرقى العبارات، حتى تلك التي كان يصطنع استعمالها بيوتر بتروفتش، بعد أن تجمّلها وترخّمها أيضاً. وأضافت إلى ذلك قولها إن بيوتر بتروفتش قد رجاها أن تبلّغَ أمَّها أنَّه سيأتي متى أتيحت له الفرصة ليتحدَّث في الأعمالِ على انفرادٍ، وليتفق على الإجراءات الواجب اتخاذها في المستقبل، الخ. الخ....

كانت سونيا تعلم أن هذا قد يهدئ كاترينا إيفانوفنا، ويدغدغَ غرورها، ويرضي كبرياءها خاصَّةً، وجلست إلى جانب راسكولنيكوف بعد أن حيَّتهُ بسرعةٍ، ونظرت إليهِ نظرةً مستطلعةً، على أنَّها طوال ما بقي من وقتٍ كان يلوحُ عليها أنَّها تتحاشى أن تنظر إليهِ، وأن تكلِّمهُ، كانت تبدو ذاهلةً، رغم أنَّها لم تحوِّل عينيها عن كاترينا إيفانوفنا وأنَّها كانت تحاول أن تخمِّنَ رغباتها. ولم تكن سونيا ولا كاترينا إيفانوفنا تلبسان ثياب الحداد، لأنَّهما لا تملكانها، كانت سونيا ترتدي ثوباً بنيَّاً قاتماً، وكانت كاترينا إيفانوفنا ترتدي ثوباً من التنيت ذي خطوطٍ داكنةٍ، وهو الثوبُ الوحيدُ عندها.

أحدثت اعتذارات بيوتر بتروفتس أحسن الأثر، فبعد أن أصغت كاترينا إيفانوفنا برصانةٍ ووقارٍ، سألت عن صحَّةِ بيوتر بتروفتش بلهجةٍ فيها تلك الرَّصانة نفسها، وذلِكَ الوقارُ نفسهُ، ثُمَّ لم تبطئ، فأسرعت "توشوش" راسكولنيكوف قائلةً بصوتٍ قويٍّ إن رجلاً يبلغ من جلال القدر هكذا لا يليق أن يقع بين أفراد قطيعٍ كهذا "القطيع العجيب من الناس"، مهما يكن إخلاصه للأسرة، ومهما تكن روابط الصداقة الرابطة بينه وبين المرحوم.

ثُمَّ أضافت بصوتٍ يكادُ يكونُ عالياً:

من أجل ذلك تراني، يا روديون روما نوفتش، أشكر لك شكراً خاصاً أنَّك لم تحتقر دعوتي، ولم ترفض حضور مأدبتي رغم هذه البيئة وهذا الجو، وأنني لأعتقد على كلِّ حالٍ أن صداقتك القوية للمرحوم زوجي هي التي حملتك وحدها على أن تفي بالوعد.

وهنا شملت المدعوين مرَّةً أخرى بنظرةٍ فيها كبرياء ووقار، ثُمَّ رفعت سونيا فجأةً تسأل الشيخ الأصمَّ الجالسَ إلى الطرف الآخر من المائدة: "هل يريد مزيداً من الشواء وهل سكبوا لهُ شيئاً من خمرة البوتو"، فلم يجب الشيخ، ولبث مدَّةً من الزَّمن ما كان يسأل عنه رغم أن جيرانَّه حاولوا أن يشرحوا لهُ ضاحكين. كان فاغرَ الفم ينظر حولهُ في كلِّ اتجاهٍ، فكان ذلك يثير مزيداً من الضَّحك والمرح.

- يا للغبيِّ الأبله! انظر! ولماذا أتوا به إلى هنا؟ وتابعت كاترينا إيفانوفنا كلامها تخاطب راسكولنيكوف:

- أما بيوتر بتروفتش فقد كنت دائماً أمحضه ثقةً كاملةً، والتفتَ بغتةً نحو أماليا إيفانوفنا فألقت عليها نظرةً قاسيةً مروَّعةً، وأردفت تقول صارخةً:

هو لا يشبه طبعاً هاتيك النساء السافلات اللواتي ما كنَّ ليقبلن عند أبي حتى خادماتٍ في المطبخ، واللواتي إذا ارتضى زوجي الرَّاحل يشرفهنَّ باستقبالهنَّ فإنَّهُ ما كان ليفعل ذلك إلا من فرط طيبة قلبه.

صاح موظَّف التموين وهو يفرغ في جوفه كأسَ الفودكا الثانية عشرة:

- نعم، كان يحبُّ أن يشرب.... هذا صحيح.... كان يحبُّ مجالسة الزُّجاجة حبَّاً جمَّاً!

أجابت كاترينا إيفانوفنا باندفاعٍ شديدٍ:

نعم، كان لزوجي هذا الضَّعف، وهذا معروفٌ، لكنَّهُ كان رجلاً طيباً ونبيلاً، يحبُّ أسرتهُ ويحترمها، إن عيبهُ الوحيد هو أن هذه الطيبة نفسها كانت تدفعه إلى أن يثق بأناسٍ فاسدين، وأن يركب إليهم.... الله يعلم مع من

كان يعاقر الخمرة.... مع رجال لا يساوون نعليَّ حذاءيه! تصوَّر يا روديون روما نوفتش أنَّا وجدنا في جيبه ديكاً صغيراً مصنوعٌ من الحلوى! كان لا ينسى أولادهُ حتى حين يأخذ منهُ مرض السُّكَّرِ كلَّ مأخذٍ!

صرخ موظف التموين السابق يسأل:

- ديكاً صغيراً؟ هل قلت ديكاً صغيراً؟

أبت كاترينا إيفانوفنا ان تتنازل فتجيبهُ، ها هي ذي تغرق في نوع من أحلام اليقظة، وتتنهد، ثُمَّ استأنفت كلامها مخاطبةً راسكولنيكوف:

- لعلَّكَ تظنُّ، كما يظنُّ جميع النَّاس، أنني أسرفت في القسوةِ عليهِ، ولكن هذا غير صحيح، لقد كان يعتبرني، كان يعتبرني كثيراً، كثيراً، ما كان أنبل روحهُ وأطيب نفسه! ولكم كنت أشفق عليه، في بعض الأحيان! كان يتفق له أن يجلس في ركنٍ من الأركان، ويأخذُ ينظرُ إليَّ من ركنه ذاك، فأبلغ من الشَّفقة عليهِ عندئذٍ أنني أودُّ لو أُلاعبه، ولكني كنت أقول لنفسي: "لو دللتهُ سيسكر من جديد". لم يكن يمكن صدَّه عن الشراب، وردعه عنهُ إلا بإظهار شيءٍ من القسوةِ.

زأر موظف التموين السابق وهو يصبُّ لنفسه كأساً جديداً من الفودكا:

- نعم، كانت تشدُّ له شعره! حدث هذا مراراً! أجابت كاترينا إيفانوفنا تقول بلهجةٍ قاطعةٍ، وهي تتجه إلى موظف التموين:

- إن أمثال هؤلاء البلهاء لا يستحقون أن يشدَّ لهم شعرهم فحسب، بل يستحقون أيضاً أن يستقبلوا بضرباتِ مقشةٍ! ولست أتكلَّم الآن عن الراحل....

والتهبت البقع الحمر في وجنتيها بشكلٍ واضحٍ، ونهد صدرها، ولم يبق إلا دقيقةً واحدةً حتى يمكن أن تثير كاترينا إيفانوفنا شجاراً فاضحاً، وكان كثيرون يضحكون مقهقهين، إذ يجدون بهذا لذَّةً ومتعةً، أخذوا يستشيرون الموظَّف ويحرِّضونهُ، هامسين له بأشياءٍ في أُذُنِهِ، كان واضحاً أنَّهم يريدون أن يصبُّوا على النَّارِ زيتاً.

بدأ الموظَّفُ كلامهُ فسألها:

- اسمحي لي أن أسالك عمَّن كنت تتكلمين إذاً.... على كلِّ حالٍ، لا بأس.... فما هذهِ كلّها إلا تُرَّهات! أرملةً، أرملةً مسكين! أنا أغفر، وأعفو، وأصفح! دعونا....

قال هذا وابتلع كأساً أخرى من الفودكا.

ظلَّ راسكولنيكوف جالساً يصغي بصمتٍ واشمئزازٍ، لم يكد يلمس الطَّعام الذي كانت كاترينا إيفانوفنا لا تتوقف عن ملءِ صحنه، بل هو لم يتظاهر بأنَّه يأكل إلا لكيلا يزعجها، وكان يحدِّق إلى سونيا ولا يحوِّل عنها عينه. ولكنَّ سونيا كانت تزداد قلقاً وهمَّاً. أنَّها توجس، هي أيضاً، إن المأدُبة لن تنتهي بسلامٍ، فكانت ترقب الاهتياج المتزايد عند كاترينا إيفانوفنا نفسها أن أمَّ الفتاةِ مضت إلى حدٍّ الاستياء من توجيهِ الدَّعوةِ إليهما، وتساءلت: "كيف يمكنني أن أجلس ابنتي إلى جانب تلك "الآنسة"؟ وكانت سونيا تقدِّرُ أن كاترينا إيفانوفنا قد سمعت بطريقةٍ ما شيئاً من هذا الكلام، وأنَّ إهانةً يلحقها أحد بسونيا لهي أشدُّ وقعاً في نفس كاترينا إيفانوفنا من أن تهان هي بذاتها، أو بأولادها، أو بأبيها، فهذهِ إهانةٌ قاتلةٌ، وسونيا تعلم أن كاترينا إيفانوفنا لم يكن لها خاطرٌ قبل، أن تبرهن لهاتين المرآتين التافهتين على أنَّها كليتهما...."، الخ. الخ! وشاءت المصادفات، بما يشبه العمد، أن ينقل أحدهم إلى سونيا طبقاً فيه قلبان من لبِّ خبزٍ أسودٍ يخترقهما سهم، احمرَّت كاترينا إيفانوفنا غضباً، وسارعت تقول بصوتٍ عالٍ إن المسؤول عن إرسال هذا الطبق ليس إلا "حماراً سكران"، لا أكثر ولا أقل.

وكانت أماليا إيفانوفنا، من جهتها، توجس أن نازلةً ستقع، وتشعر عدا ذلك بأن موقف كاترينا إيفانوفنا يهينها إلى أعماق قلبها، فلكي تغيِّر الجوَّ السيء الذي يهيمن على الحفل، ومن أجل أن ترفع قدر نفسها في نظر النَّاس في ذات الوقت، أخذت على حين غرَّةٍ تروي أن شخصاً من معارفها اسمه "كارل،

مساعد صيدلاني"، قد استأجر عربةً في الليل، فأراد الحوذي أن "يقتلهُ، فأخذ كارل يتوسل إليهِ أن لا يفعل، وضمَّ يديه باكياً، وبلغ منه الرُّعبُ أن كاد قلبه يثب من مكانه". وكان في نطق أماليا لكنةً ألمانيَّةً واضحةً، فقالت لها كاترينا إيفانوفنا، وهي تبتسمُ، إن عليها أن لا تروي نوادر باللغة الرُّوسيَّة، فازداد استياء أماليا إيفانوفنا، فردَّت عليها تقول بلغةٍ تخالطها ألفاظٌ ألمانيَّة، وتسودها لكنةٌ ألمانيَّةٌ، أن أباها البرليني كان "رجلاً خطيرَ الشَّأنِ جداًّ، وأنَّه كان يتجوَّلُ نابشاً جيوبه دائماً". لم تطق كاترينا إيفانوفنا السَّاخرةُ صبراً، فانطلقت تضحك ضحكاً صاخباً مجنوناً، فكان على أماليا التي نفذ صبرها أن تبذل جهداً كبيراً لئلا تنفجر.

وعادت كاترينا إيفانوفنا توشوش راسكولنيكوف بما يشبه المرح قائلة:

ـ يا للبومة الشمطاء! أرادت أن تقول إن أباها كان يتجول واضعاً يديه في جيبيه، فإذا بها تقول إن أباها كان ينبش جيوبه دوماً! هيء هيء هيء! هل لاحظت يا روديون روما نوفتش أن كلَّ هؤلاء الأجانب في بطرسبورغ، ولاسيما الألمان، الذين يتقاطرون علينا من هنا وهناك، هم جميعاً أغبى منَّا، أنظر بنفسك: هل يمكن أن يروي أحداً أن "كارل، مساعد الصيدلي، كاد يثب قلبه من مكانه"، وأن هذا الأبله قد "ضمَّ يديه باكياً" (ذلك الجبان!)، بدلاً من أن يوثق الحوذي؟ آه! يا للغبية الحمقاء! هي تتخيَّلُ أن قصتها مؤثرةٌ جداً. أنَّها لا تدرك مدى ما في هذه القصَّةِ من سخف وبلاهة! في رأيي أن هذا الموظَّفُ السِّكير أذكى منها كثيراً! إن المرء يرى على الأقل أنَّه ترك البقية الباقية من عقله في قاع كأسهِ، أما الآخرون فهم جادُّون وقورون!.... أنظر كيف تجيل عينيها وتديرهما! أنَّها غاضبةٌ غاضبة! هأ هأ هأ هيء هيء هيء.

وإذا انشرحت كاترينا إيفانوفنا هذا الانشراح، سارعت تندفع في سرد طائفةٍ من التفاصيل، فأعلنت أنَّها بفضل معاش التقاعدِ الذي ستحصل عليهِ، سوف تفتح مدرسةً داخليةً للبنات النبيلات في مدينة "تـ...." مسقط رأسها.

ولم تكن كاترينا إيفانوفنا قد أطلعت راسكولنيكوف على مشروعها هذا. لذلكَ بدأت توضِّحُ هذا النبأ إيضاحاً مستفيضاً، وشرعت تصفُ الحياة الرائعة التي ستعيشها وصفاً مسهباً، ولا يدري أحدٌ كيف وجدت بين يديها، فجأةً "شهادةُ التقدير" تلك التي سبق أن تحدَّثَ عنها المرحوم مارميلادوف إلى راسكولنيكوف حين ذكر لهُ في أول لقاء بالخمَّارةِ أن زوجته كاترينا إيفانوفنا قد رقصت، في يوم تخرجها من المدرسة الداخلية، وعلى كتفيها شال، "أمام المحافظ وشخصيات من إبرازها أيضاً هو أن تُخرس تلكَ المرأتين الفاسدتين إذ هما قبلتا الدعوة، وأن تبرهن لهما برهاناً قاطعاً على أن كاترينا إيفانوفنا تنتمي إلى أسرةٍ نبيلةٍ، بل يمكن القول أسرةً أرستقراطيةً، فهي ابنة عقيد، وهي أفضل كثيراً من "أولائك النسوة المقامرات التافهات اللواتي ازداد عددهن كثيراً في الآونةِ الأخيرة". وسرعان ما دارت الشَّهادة بين أيدي المدعوين السكارى، وذلك أمرٌ حاذرت كاترينا إيفانوفنا أن تعترض عليهِ، لأنَّ الشَّهادة كانت تنص en toutes letters [1] على أن كاترينا إيفانوفنا هي فعلاً بنت مستشارٍ قضائي، أي بنت عقيدٍ تقريباً، وقد تحمَّست كاترينا إيفانوفنا فأفاضت في الكلام على جميع تفاصيل الحياة الجميلة الهادئة التي تنتظرها في مدينة "ت...." وتكلمت عن الأساتذة الذين ستدعوهم إلى التَّدريس في مدرستها، وتكلمت عن شيخٍ محترمٍ هو السَّيد "مانجو" الذي علَّمها اللغة الفرنسية حين كانت تلميذةً في المدرسة الداخلية، والذي ينهي الآن أيامه "ت...."، ولا شكَّ أنَّه سيقبل هذه المهمَّةَ بأجورٍ معقولةٍ، وجاءت أخيراً على ذكر سونيا، فقالت إن "سونيا ستذهب هي أيضاً إلى مدينة "ت..." وأنَّها ستنفعها هناكَ في أمورٍ كثيرةٍ"، ولكن حين قالت كاترينا إيفانوفنا هذا الكلام، خنق أحدهم ضحكةً عند الطرف الآخر من المائدة، فتظاهرت كاترينا

1 - نصاً واضحاً ، بالفرنسية بالأصل.ـ المترجم

إيفانوفنا بأنَّها لم تسمع الضحكة، ورفعت صوتها لتعدِّد المزايا الأكيدة التي تتحلى بها صوفيا سيميونوفنا، وأضافت أن صوفيا هذهِ جديرةٌ بأن تساعدها، لما تمتازُ به من رقَّةٍ وعذوبةٍ، وصبرٍ ودأبٍ، وتضحيةٍ وبذلٍ، ونبل نفسٍ، وحسن تربيةٍ"، ثُمَّ ربتت خدي سونيا، ونهضت تقبلها بحرارةٍ مرَّةً، ثُمَّ مرَّةً، واحمرَّ وجهُ سونيا بشدَّةٍ، ثُمَّ ما لبثت كاترينا إيفانوفنا أن أجهشت باكيةً فجأةً وهي تقول "أنَّها ليست مخلوقةً بلهاءَ، بائسةً، محطمةَ الأعصاب، وأنَّها قد نفذ صبرها وبارحتها قواها.... وأن الطَّعام قد انتهى فليصبوا الشاي!".

وكانت أماليا إيفانوفنا قد أضناها أنَّها لم تستطع أن تشارك في الحديث، حتى أن أحداً لم يستمع لها ولم يصغ إلى كلامها، فقامت في تلك اللحظة بمحاولةٍ أخيرةٍ، استجمعت جرأتها، ووجهت إلى كاترينا إيفانوفنا، رغم ما تواجهُ في قرارةِ نفسها من قلقٍ وخشيةٍ، ملاحظةً هي من أعمق الملاحظات وأكثرها جرأةً، إذ قالت لها أنَّها سيتوجب عليها في المدرسة الداخلية أن تعنى بالملاءات النظيفة للبنات (قالت كلمة الملاءات بالألمانيَّة)، "وأن تستخدم لهذا الغرض سيِّدةً محترمة"، وعليها كذلك أن لا "تدع لأيَّةِ فتاةٍ أن تقرأ روايات في الليل سرَّاً. وكانت كاترينا إيفانوفنا ثائرة الأعصاب مهدودة القوى، ناهيك عن إزعاجات المأدُبة، فسرعان ما انفجرت تتهجم على أماليا قائلةً لها أنَّها تقول "سخافاتٍ وحماقاتٍ، وأنَّها لا تفهمُ شيئاً من شيء: "فالاهتمام بالملاءات هو في المدرسة الداخلية النبيلة لا يقع على عاتق المديرة بل من اختصاص الفرَّاشة. أما قراءة الروايات فالإشارة إليها بحدِّ ذاتها غير لائقة، لذلك يحسن بك أن تصمتي، أو أن تدلي بشيءٍ ذو أهميةٍ، اصطبغ وجه أماليا بحمرةٍ شديدةٍ من فرطِ الغضب، فردت إن "نواياها حسنةً" ولا تريدُ لها إلا "خيراً عميقاً" رغم أنَّها منذُ مدَّةٍ طويلةٍ لم تقبض منها قرشاً (قالت بالألمانيَّة) من أجرة المسكن، فبسرعةٍ ردَّتها كاترينا إلى مكانها، وما تدعيه من "آمال طيبة" كذبٌ أشر. لأنَّها في ليلة أمس نفسها، بينما كان المتوفى ما يزال مسجى في النَّقش جاءت

تعذبها بمسألةِ أجرةِ المسكن، وحالفَ التوفيق أماليا في الردِّ أنَّها "دعت السيدات، ولكنهنَّ لم يأتينَّ لأنَّهنَّ محترمات لا ينزلن إلى هذا الدَّرك". وآتى الجواب حاسماً من كاترينا: لستِ أهلاً يا أماليا إيفانوفنا أن تفصلي بين المحترم وعكسه، فأنتِ ذاتك غيرُ محترمةٍ وغبيَّةٍ.

لم تحتمل أماليا هذهِ الشتيمة فردت على الفور إن "أبي البرليني" (قالتها بالألمانيَّة) كان رجلاً خطير الشَّأنِ جدَّاً، جداً، وأنَّهُ كان يمشي ويداه في جيبيه، وكان يزفر هكذا: بوف.... بوف!.... ولكي تعطي عن أبيها صورةً محسومةً أكثر من ذلك، نهضت من مكانها، ودسَّت يديها في جيبيها، ونفخت خديها، وأخذت تخرج من فمها أصواتاً مبهمةً لكنَّها تشبهُ "بوف، بوف"، فكان جميع السُّكان المستأجرين يضجون بضحكٍ صاخبٍ، وكان يحلو لهم، وقد أحسُّوا بأن معركةً ستقع بين المرأتين، أن يحرِّضوا أماليا باستحسان موقفها، وكلامها.

طفحَ كيل كاترينا إيفانوفنا، فردَّت بصوتٍ عالٍ يسمعه الجميع أن أماليا قد لا يكون لها "أبٌ" أصلاً، وهي ليست إلا سكِّيرةٌ فنلنديَّةٌ من بطرسبورغ ولا بدَّ أن تكون قد عملت طباخةً أو أسوأ من هذا.

احمرَّت أماليا احمراراً شديداً وزعقت: "إن كاترينا إيفانوفنا هي التي قد تكون لا أباً لها أصلاً، أما أبي أنا كان يعيش في برلين، وهذا معروفٌ، ويرتدي معطفاً حديثاً طويلاً، وكان ينفخُ دائماً: "بوف، بوف"....

قالت كاترينا إيفانوفنا باحتقار "إن أصلها هي يعرفهُ الجميع والشَّهادةُ التي قرأها الحضور منذ لحظةٍ تذكِّرُ هي نفسها بكلامٍ مطبوعٍ أنَّ أباها كان عقيداً، أما أبو أماليا إيفانوفنا (إذا صحَّ أن لها أباً) فلا بدَّ أنَّه فنلنديٌّ من بطرسبورغ كان بائعَ حليب، ولكن أغلب الظنِّ أنَّها لم يكن لها أبٌ أصلاً، والدليلُ على ذلك أننا لسناً ندري حتى الآن هل الاسم الذي ينسبها إلى أبيها هو إيفانوفنا أو لوفيجوفنا".

هنا بلغ حنقُ أماليا أشدَّهُ، فضربت المائدة بقبضة يدها وأعولت تقول: "إن اسمها هو أماليا إيفانوفنا وليس أماليا لودفيجوفنا، وأن اسم أبيها كان يوحنا، وأنَّه كان عُمدَةَ مدينةٍ، وذلك منصبٌ لم يشغلهُ أبو كاترينا إيفانوفنا في أحد الأيام قط.

اصفر وجهُ كاترينا إيفانوفنا اصفراراً شديداً، واهتزَّ صدرها اهتزازاً قويَّاً، ونهضت من مكانها وقالت بصوتٍ قاسٍ ظاهرةً الهدوء: إذا تجرأت أماليا إيفانوفنا ولو مرَّةً واحدةً أخرى "فقارنت بين أبيها التَّافهِ الذي لا قيمةَ له، وبين أبيها هي، ستنزعنَّ عن رأسها قبعتها، وتدوسها بقدميها".

فلمَّا سمعت أماليا إيفانوفنا هذه الكلمات راحت تركضُ في الغرفة طولاً وعرضاً، وهي تصرخ بكلِّ ما أوتيت من قوةٍ أنَّها صاحبةُ البيت، وأن على كاترينا إيفانوفنا أن "تجلي المسكن فوراً"، ثُمَّ سارعت تجمع ملاعقها الفضيَّة من على المائدة، وأعقبت ذلك جلبةً لا توصفُ، فالأصوات تنفجر من هنا ومن هناك، والأولاد أخذوا يبكون، واندفعت سونيا تريدُ أن تصدَّ كاترينا إيفانوفنا ولكن أماليا إيفانوفنا صرخت تقول شيئاً عن البطاقة الصفراء، فما كان من كاترينا إيفانوفنا إلا أن دفعت عنها سونيا وهجمت على أماليا إيفانوفنا لإنفاذ التهديد الذي أعلنته بخصوص القبَّعة.

وفي تلك اللحظة فتح الباب، وظهر في العتبة بيوتر بتروفتش لوجين بغتةً توقف لوجين لحظة، وألقى على الحضور جميعهم نظرةً صارمةً مدققةً، فاندفعت كاترينا إيفانوفنا نحوهُ.

# الفصل الثالث

صرخت كاترينا إيفانوفنا:

- بيوتر بتروفتش! أنت على الأقل، أنجدني، أغثني! أفهم هذه المخلوقة الغبيَّة أنَّها لا يحقُّ لها أن تعامل بمثل هذه المعاملة سيدة من أسرةٍ كريمةٍ جارَ عليها الدَّهر، وأنَّ هناك محاكمٌ لهذا الأمر.... سوف أشتكي إلى المحافظ شخصياً.... سوف تحاسب على ما فعلت!.... تكريماً لذكرى الاستقبال الذي استقبلك به أبي.... كُن حامياً لليتامى....

قال بيوتر بتروفتش مردداًّ مكرراًّ، وهو يبعد كاترينا إيفانوفنا بحركةٍ من يده:

- اسمحي لي سيدتي، اسمحي لي، اسمحي لي سيدتي، أنا لم أتشرَّف بمعرفة أبيك أبداً، وأنت تعلمين هذا حقَّ العلم.... اسمحي لي سيدتي! (أخذ أحدهم يضحك ضحكاً صاخباً)، ولست أنوي أن أشارك في مشاجراتك المتَّصلة مع أماليا إيفانوفنا.... أنا إنَّما جئت لأمرٍ.... شخصيٍّ، أنا إنَّما جئت أطلب على الفور إيضاحاً من ابنة زوجك سونيا إيفانوفنا.... هذا هو اسمها، أليس كذلك؟ فاسمحي لي أن أَمُرَّ....

قال بيوتر بتروفتش، وترك كاترينا إيفانوفنا، واتَّجه إلى الرُّكن المقابل من الغرفة، حيث كانت سونيا.

جمدت كاترينا إيفانوفنا كإنَّما نزلت عليها صاعقةً، لم تستطع أن تفهم كيف استطاعَ بيوتر بتروفتش أن ينكر أن أباها قد أكرم ضيافتهُ، أنَّها وقد تخيَّلت تلك الضيافة أصبحت تصدِّقُها وتؤمن بها هي نفسها، وهذهِ اللَّهجة التي تكلَّم بها بيوتر بترفتش، اللَّهجة الخشنة، الرَّسميَّة التي فيها احتقارٌ وتهديد، قد أدهشتها أيضاً، على أنَّ الجميع قد صمتوا منذُ ما دخل بيوتر بتروفتش، إنَّ رجل الأعمال الجادِّ هذا يفوق سائرَ الحضور شأناً، ولقد كان واضحاً، عدا

ذلك أنَّه إنَّما جاء لأمرٍ خطير، فلا بدَّ أن يكون هناك سببٌ خارقٌ دفعه إلى أن يغشى هذه البيئة، ولا بدَّ إذاً أن يقع حادثٌ ما بعد قليل، وكان راسكولنيكوف إلى جانب سونيا فتتحى حتى يدعهُ يَمُر، وبدا راسكولنيكوف أن بيوتر بتروفتش لم يلاحظهُ، وبعد دقيقةٍ ظهر ليبزيا تنكوف في عتبة الباب هو الآخر، لم يدخل الغرفة، غير أنَّه وقف مستطلعاً كذلك، حتى ليكاد يكون مدهوشاً، وقد أصاخ بسمعه، لكنَّهُ ظلَّ مدَّةً مديدةً يبدو عليه أنَّه لا يفهم الأمر الذي يدور حوله الكلام.

قال بيوتر بترفتش للجميع:

- اغفروا لي إزعاجكم، غير أن القضية هامةٌ خطيرةٌ، بل أنني يهمني أن تتجلي الأمور على رؤوس الأشهاد. أماليا إيفانوفنا، أرجوك، وألحُّ أن تستمعي إلى الحديث الذي سأجريه مع صوفيا إيفانوفنا، بصفتك صاحبة البيت.

وتابع كلامه مخاطباً صوفيا التي كانت مدهوشةٌ ومروعةٌ، مذعورةً سلفاً:

- صوفيا إيفانوفنا، بعد زيارتك فوراً افتقدت ورقةً نقديةً من فئة المائة روبل كانت موجودة على المائدة في غرفة صديقي اندريه سيميونوفتش ليبزيا تنيكوف، فإذا كنت تعرفين بطريقةٍ أو بأخرى أين توجد هذه الورقة الماليَّة الآن، قولي لنا، ولك عليَّ عهدُ شرفٍ - وهؤلاء جميعاً شهود على ما أقول - أن تقف القضية عند هذا الحد، وإلا أكون مضطراً أن ألجأ إلى إجراءات أخطر.... وليس لك عندئذٍ أن تلومي إلا نفسك!....

خيم على الغرفة صمتٌ مطلقٌ، حتى الأطفال الذين كانوا يبكون سكتوا. وكانت سونيا واقفةٌ، شاحبةٌ كأنَّها ميتة، تنظر إلى لوجين ولا تجد كلاماً للجواب، كان يبدو عليها أنَّها لا تفهم، وانقضت بضعُ ثوانٍ.

سالها لوجين وهو يحدِّق إليها:

- هيه؟ ما قولك؟

ردَّت صوفيا أخيرا بصوتٍ واهنٍ:

ـ لا أعلم.... لا أعلم شيئاً....

ـ حقّاً؟ لا تعلمين شيئاً؟

كذلك سألها لوجين مكرراً، ولزم الصمت بضعُ ثوانٍ أخرى، ثُمَّ استأنف كلامه فكأنَّه ينذر وينصح:

ـ فكِّري يا آنسة، فكِّري في الأمر، أحبُّ أن أمهلك بضع الوقت لتفكري. اسمعي: لولا أنني واثقٌ بما أقول، موقنٌ منه، فإنني بحكم تجربتي ما كنت لأجازف فأوجِّهُ اتهاماً مباشراً، لأنني سأحاسبُ نفسي على هذا الاتهام المباشر على رؤوس الأشهاد إذا ثبت خطأه، هذا أمرٌ أعرفه، إنني في هذا الصباح قد بدَّلت، لقضاء حاجاتٍ شخصيةٍ، بضعة سنداتٍ ذات ريع، قيمتها الاسمية ثلاثةُ آلاف روبل، ذلك هو الرَّقم المسجَّل في دفتري، فلمَّا عدتُ إلى مسكني ـ وأن اندريه سيميونوفتش شاهدٌ على ذلك ـ شرعت اعدُّ المال من باب التثبيت والتحقق، حتى إذا عددت ألفين وثلاثمائة روبل، رتبتها في محفظتي ووضعتها في الجيب الداخلي من معطفي، وبقي على المائدة نحو خمسمائة روبل أوراقاً نقديةً، منها ثلاثٌ قيمة الواحدة مائة روبل، وفي تلك اللحظة دخلت انت (تلبية لدعوتي)، وطوال المدَّةِ التي قضيتها عندي، كان يبدو عليك اضطرابٌ شديدٌ، لا بل نهضت في أثناء الحديث ثلاث مراتٍ، كنت تريدين أن تخرجي ـ لا أدري لماذا ـ رغم أن محادثتي معك لم تكن قد انتهت، إن أندريه سيميونوفتش يستطيع أن يؤكد هذا كلَّهُ. وأغلب الظنِّ أنَّكِ ترفضي أنت نفسك، يا آنسة، أن تعترفي أنني أرسلت اندريه سيميونوفتش في طلبك لهدفٍ واحدٍ هو أن أتكلم معك في الوضع المحزن الذي آلت إليه قريبتك كاترينا إيفانوفنا (التي لم أستطع أن أشارك في مأدبتها). وفي وسائل مساعدتها بتنظيم اكتتاب تبرعات أو إقامة يانصيب، أو شيءٍ من هذا القبيل، وقد شكرتني، حتى أنَّ الدُّموعَ كرجت على خديك (أنا أروي الأشياء كما وقعت، أولاً لأذكرك بها، وثانياً لأُظهِرَ لكِ ما من تفصيل من التفاصيل قد أمحى من ذاكرتي). ثُمَّ تناولت من

فوق المائدة ورقةً بعشرة روبلاتٍ وأعطيتك إياها، دليلاً على اهتمامي بقريبتك، ومشاركةً أوليةً مني في مساعدتها، وهذا أيضاً قد رآه اندريه سيميونوفتش، ثُمَّ شيعتكِ حتى الباب... وأنت في نفس الاضطراب واللبكة، وخلوت بعد ذلك إلى اندريه سيميونوفتش، وتحدثت معه قرابة عشر دقائق، حتى إذا خرج عدتُ إلى المائدة أنوي أن أرتِّبَ، على حِدَى، المال الذي كان موضوعاً عليها، وذلك بعد أن أعدُّهُ مرةً أخرى (كنت قررت ذاك من قبل)، فما كان أشدَّ دهشتي حين وجدت أن ورقةً بمائة روبل قد فقدت، افصلي بالأمر من تلقاء ذاتك: لا يمكنني بأية حالٍ من الأحوال أن أشكَّ في اندريه سيميونوفتش، حتى أن هذه الفكرة وحدها تشعرني بالخجل والعار، لا ولا يمكن أن أكون قد أخطأت في حساباتي، لأنني قبل وصولك بدقيقةٍ واحدةٍ كنت قد تأكدت من صحة المجموع، لذلك، نظراً لاضطرابك الشديد في أثناء المقابلة، ونظراً لاستعجالك الخروج، ونظراً لكونك قد ظللت واضعةً يديك على المائدةِ عدَّةَ لحظاتٍ، ونظراً لوضعك الاجتماعي وما يخلقه من عاداتٍ، فقد أكرهت إن جاز القول، أكرهت مرتاعاً مشمئزّاً على أن أتوقف عن شبهةٍ لا شكَّ أنَّها قاسيةً لكنَّها في محلِّها، ولها ما يسوغها. أضيف وأكرر أنني رغم يقيني البديهي الكامل أدرك أن إلقاء هذه التهمة لا يخلو من مخاطر أتعرض لها، ولكني لم أتردد دقيقةً واحدةً، كما ترين، بل ثارت ثائرتي واستعر حنقي، وسأقول لك الآن لماذا كان هذا، هو نكرانك الفظيع للجميل يا آنسة. كيف؟ أدعوك إلى مسكني وأهتمُّ بنسيبتك المسكينة، وأعطيك عشرة روبلات مساهمةً مني لمساعدتها، فتكافئيني هذه المكافأة في تلك الدقيقة نفسها! لا، حقّاً ليس هذا حسناً! ولا بدَّ من أن ألقنك درساً! فكري في الأمر، ثُمَّ إنني أطلب منك كصديقٍ مخلصٍ (ولا يمكن أن يكون لك الآن صديقٌ خيرٌ مني): تذكري هذا، وإلا أصبحت بغير رحمةٍ أو شفقة، هل تعترفين بأنَّكِ....

دمدمت سونيا مذعورةً:

ـ أنا لم أسلبك شيئاً، أنت أعطيتني عشرة روبلاتٍ، ها هي ذي، أنني أعيدها لك.

واستلت سونيا من جيبها منديلاً، واهتدت إلى القعدة التي عقدتها فيهِ ففضت وسحبت منها ورقة العشرة روبلات، وقدمتها إلى لوجين.

قال لوجين ملمَّاً، بلهجةٍ اللومِ والتقريعِ، دون أن يتنازل ليأخذ الورقة الماليَّة:

ـ ألا تعترفين إذاً بالمائة روبل ؟

أجالت سونيا بصرها فيما حولها، كان الجميع ينظرون إليها بعيونٍ قاسيةٍ، ساخرةٍ، بغيضةٍ!... وألقت نظرة على راسكولنيكوف.

كان هذا الأخير واقفاً، مسنداً ظهره إلى الجدارٍ، عاقداً ذراعيه إلى صدره، يحدِّقُ إليها بعينين تلمعان، وأفلتت من سونيا هذه الاستغاثة:

ـ يارب !

قال لوجين برفقٍ، وبصوتٍ رخيمٍ:

يا أماليا إيفانوفنا، سيكون علينا أن نبلغ الشُّرطة، فأرجوك بانتظار هذا أن ترسلي أحداً ينادي البوَّاب....

ـ يا إله الرحمة! كنت أعرف أنَّها !

هتف لوجين:

ــ ها.... كنت تعرفين ذلك؟ لا بدَّ أن يكون هناك إذاً سبب دعاك إلى استخلاص هذه النتيجة، واستخراج هذا الرأي في الماضي! فأرجوك يا أماليا إيفانوفنا، المحترمة جداً، أن تتذكري هذه الكلمات التي قلتها لك، وقد قلتها أمام شهودٍ على كلِّ حالٍ.

أخذ الحضور يتكلمون بصوتٍ قويٍّ دفعةً واحدةً في كلِّ جهةٍ من الجهات، وشمل الحفل كلَّهُ اضطرابٌ كبير.

صاحت كاترينا إفانونفا فجأةً، وقد ثابت إلى رشدها ـ كيف؟

واندفعت متعجلةً نحو لوجين مرددةً:

ـ كيف؟ أتهمتها بالسرقة؟ أتهمتها هي؟ هي، سونيا؟ آه.... يا للأوغاد! يا للأوغاد!

وارتمت على سونيا، فاحتضنتها بذراعيها المتعرقتين، الهزيلتين كڪلَّابة، وتابعت كلامها:

ـ سونيا! كيف تجرأت أن تقبلي عشرة روبلاتٍ من هذا الرَّجل؟ يا لك من حمقاء! يا لحماقتك! ردِّيها إليه حالاً، روبلاتك العشرة! خذ.... انتزعت كاترينا إيفانوفنا الورقة النقدية من يد سونيا، فدعكتها بيديها. ومنها في وجه لوجين، فأصابت كرتها عينه ثُمَّ تدحرجت على أرض الغرفة، فعاجلت أماليا إيفانوفنا تقول:

ـ كيف؟ المجنونة؟ أأنا المجنونة؟ يا للأبله! الوغد الشقي! ياللرجل الدنيء! سونيا؟! سونيا تسرقُ منه مالاً؟! سونيا، سارقة؟! ولكنَّها قادرةً على أن تعطيك أنت مالاً يا أبله ؟

صرخت كاترينا إيفانوفنا، وانفجرت تضحك ضحكةً هستيريةً، وهتفت تقول وهي تركض إلى اليمين وإلى اليسار، مشيرة لجميع الناس إلى لوجين:

ـ أرأيتم إلى هذا الأبله ؟

ولمحت صاحبة البيت فجأةً فأردفت:

ـ كيف؟ أفأنتِ أيضاً تدَّعين أنَّها سارقة؟ يا للدجاجة الألمانيَّة! انظروا أيُّها الناس، أنظروا!

وعادت تخاطب بيوتر بتروفتش:

ـ آه.... أنت.... أنت.... أجهلت أنَّها لم تترك هذه الغرفة لحظةً واحدةً أيُّها النَّذل، فما أن خرجت من عندك حتى جاءت تجلس على جانب روديون روما نوفتش! فتشها إذاً! فما دامت لم تذهب إلى أيِّ مكان، فلا بدَّ أن يكون المال معها، ابحث إذاً! ابحث! ولكن إذا لم تجد شيئاً يا عزيزي، فلتحاسبن على افترائك! إلى الإمبراطور سأشكوك، إلى الإمبراطور، إلى القيصر الرَّحيم! لأرتمي على

قدميه حالاً، في هذا اليوم بالذات! أنا يتيمة! سيسمحون لي بالدخول! ماذا؟ أتظنُّ أنَّهم لن يسمحوا لي بالدخول؟ مخطئٌ أنت! لسوف أصل إلى جلالته، لسوف أصل! آ.... كنت تبني أَمَلَكَ! لكنني، أنا، لا أستحي يا عزيزي! أنا عيناي ماء! هيا فتش! فتش!

قالت كاترينا إيفانوفنا هذا، وقد خرجت عن طورها وراحت تهزُّ لوجين بكلِّ قواها، وتجرُّهُ نحو سونيا.

تمتم لوجين:

ـ أنا مستعدٌّ.... أنا مستعدٌّ لأن أحاسب.... ولكن هدئي روعك يا سيدتي، هدئي روعك! إنني لأُلاحظُ حقَّاً إنَّكِ لا تستحين.... أمام الشُّرطة إنَّما يحسن بالواقع أن.... ولكن هذه مهمةٌ محرجةٌ بالنسبةِ إلى رجلٍ.... وذلك بسبب.... بسبب الجنس طبعاً.... ليتني أستطيع أن أطلب إلى أماليا إيفانوفنا أن تساعدني.... رغم أن الطريقة الواجبة ليست هذه....ما العمل؟

صاحت كاترينا إيفانوفنا:

أختر من تشاء! فليفتشها من يريد أن يفتشها! سونيا اقلبي جيوبك أمامهم! انظر أيها الشيطان! وكان ثمة هناك منديل.... ها أنت ذا ترى أن جيبها خال. أرأيت؟ واقلبي الجيب الآخر الآن! انظر! انظر! أرأيت؟ أرأيت؟

لم تكتف كاترينا إيفانوفنا بقلب جيبي سونيا، بل شدَّتها شدَّاً عنيفاً، ليتضح وضعهما أكثر، فإذا بورقةٍ صغيرةٍ تثبُ عندئذٍ من الجيب الثاني، وهو الجيب الأيمن، فترسم في الهواء قوس دائرةٍ ثُمَّ تسقط عند قدمي لوجين.

رأى الورقة جميع الحضور، وأطلق كثيرٌ منهم صرخات، ومال بيوتر بتروفتش على الأرض، فتناول الورقة بإصبعين وفضهما على مرأى من الشهود كافة. أنَّها ورقة مائة روبل قد طويت ثماني طيَّاتٍ، أجال بيوتر بتروفتش يدهُ في جميع الاتجاهات حتى يتمكن الحضور جميعاً من رؤية الورقة رؤيةً واضحةً.

أعولت أماليا إيفانوفنا:

ـ سارقة! لصَّة! اغربي عن وجهي! هاتوا الشُّرطة، الشُّرطة! يجب إرسالهم إلى سيبيريا! اخرجوا من هنا!

وارتفعت صيحاتٌ من كلِّ صوبٍ، وكان راسكولنيكوف صامتاً لا يحوِّلُ بصره عن سونيا، مع إلقائهِ نظرةً سريعةً على لوجين من حين آخر، وما تزال سونيا واقفةً في مكانها كانها أصيبت بالخُبل، حتى أنَّها لا تبدو عليها دهشةً، وبغتةً احمرَّ خداها احمراراً شديداً، وأطلقت صرخةً خفيفةً، وأخفت وجهها بيديها، ثُمَّ صرخت بصوتٍ ممزقٍ، يقطعهُ نشيجُ البكاء، وهي تهرع نحو كاترينا إيفانوفنا، صرخت:

ـ لا، لست أنا!.... أنا لم آخذها ! لا أعلم!

وهتفت كاترينا إيفانوفنا بذراعيها، وضمتها إليها بقوةٍ كأنَّها تريد أن تجعل من صدرها متراساً يحميها.

وهتفت كاترينا إيفانوفنا تقول على خلاف الدَّليلِ القاطع، وهي تهدهدها من ذراعيها كما يهدهد طفل صغير، وتقبلها طائشةَ العقل، وتمسك يديها فتفرقهما لثماً:

ـ سونيا! سونيا! لست أصدِّق! هاأنت ذي ترين أنني لا أصدِّق! أأنت تسرقين؟ أهم أغبياء حتى يصدقوا أنت تسرقين؟ يارب!....

ثُمَّ صرخت تخاطبهم جميعاً:

ـ أأنتم أغبياء! أنتم بلهاء! انتم إذاً لا تعرفون حتى الآن مدى ما تتمتع به من طيب القلب، ونبل النفس! أنتم إذاً لا تعرفون أيَّةَ فتاةٍ أمامكم! أهي تسرق؟ هي؟ ألا أنَّها لمستعدةٌ أن تهب للنَّاس آخر قميصٍ تملكهُ، ألا أنَّها لمستعدةٌ أن تسير حافيةَ القدمين لتبيع آخر قميصٍ تملكهُ، إذا كنتم في حاجةٍ إليه! نعم، هذه هي طبيعتها! ولئن تطوعت فأصبحت ذات بطاقةٍ صفراءٍ، فلأن أولادي كانوا يتضورون جوعاً! لقد باعت نفسها في سبيلنا! آه.... يا زوجي الرَّاحل.... يا زوجي المسكين الرَّاحل، هل ترى هذا؟ هل ترى؟ انظر إلى مأدبة الجنازة هذه التي

تقام لك!ربَّاه! ولكن ما بالكم لا تدافعون عنها أنتم؟ ما بالكم تبقون جامدين كالمومياوات؟ لماذا لا تدافع عنها أنت يا روديون روما نوفتش؟ أتصدق أنت أيضاً أنَّها حقاً؟.... إنكم جميعاً لا تساوون خنصرها، جميعاً، جميعاً، جميعاً! هلَّا دافعت عنها أخيراً يا ربَّاه!....

كان لشهادات كاترينا إيفانوفنا المسكينة، المصدورة، التي هجرها كل النَّاس أثرٌ قويٌّ في الحضور، إن هذا الوجه الحزين، المخرب، الضَّاوي، من وجوه المصابين بداء السِّل، وإنَّ هذا النَّشيجَ المتشنِّجَ الذي يشبه نشيج الأطفال، وأن هذه الضراعةُ التي فيها ثقةً كثقةِ الأطفال رغم ما فيها من بأس، إن ذلك كلَّهُ كان يبلغ من إثارة الشفقةِ، وإيلام النفس، أنَّ الجميع أصبحوا كمن يرثي لحالِ المرأة الشَّقية من أعماق نفسه، وعجَّل بيوتر بتروفتش في الانضمام إلى الذين يرثون لحالها، فهتف بصوتٍ يعبِّر عن الحماية والرِّعاية:

- سيدتي، سيدتي! ليس لك في هذا الأمر خلع! ما من أحدٍ يخطرُ بباله أن يتهمَّكَ بسوء النيَّةِ أو المشاركة والتواطؤ، لاسيَّما وأنتِ توليتِ بنفسكِ نبش جيوبها، فهذا دليلٌ على أنَّكِ لم تراودك أيَّةُ شبهةٍ، إنني مستعدٌّ أتمَّ الاستعداد، نعم أتمَّ الاستعداد، لأن أتسامح إذا كان البؤس هو الذي دفع صوفيا سيميونوفنا إن جاز القول، ولكن لمَ لم تشائي أن تعترفي يا آنسة؟ لعلَّكِ كنت تخشين العار؟ لعلَّ تلك الخطوة كانت خطوتك الأولى في هذا الطريق؟ لعلَّكِ كنت قد فقدت صوابك؟ ذلك أمرٌ يفهم تماماً، ولكن لماذا، لماذا وضعت نفسك في موقف كهذا؟

وأردف بيوتر بتروفتش يشهد الحضور:

- أيُّها السَّيدات والسَّادة، إنني، من بابِ الشَّفقةِ، أو قولوا من باب الرأفةِ والرَّحمة، ما أزال مستعدَّاً لأن أغفِرَ وأصفحَ، رغم الإهانات والشَّتائم الشَّخصيَّة التي وجهت إلي!

والتفت إلى سونيا، فقال لها:

ـ نعم يا آنسة، ليكن الخزي الذي أصابك الآن درساً يفيدك في المستقبل، لن أتابع القضية، أريد أن تقف الأمور عند هذا الحد، يكفي هذا.

وبطرف العين نظر بيوتر بتروفتش إلى راسكولنيكوف، فالتفت نظرتاهما. كانت نظرة راسكولنيكوف المشتعلة الملتهبة تهمُّ أن تسحق لوجين سَحقاً.

ولم يبدو على كاترينا إيفانوفنا أنَّها سمعت شيئاً، كانت تعانق سونيا وتقبِّلها كمجنونةٍ، وكان الأطفال أيضاً يضمون سونيا بأذرعهم الصغيرة، وقد أجهشت بوليتشكا باكيةً (رغم أنَّها لم تفهم الأمر الذي يدور عليه المشهد فهماً واضحاً)، وألقت وجهها الجميل المنتفخ على كتف سونيا، مهتزةَ الجِّسم من النَّشيج.

ما أنذل هذا! ـ وَفَدَ صوتٌ رصينٌ فجأةً من قربِ البابِ.

التفت بيوتر بتروفتش، فكرر ليبزيا تنيكوف قولهُ محدِّقاً إليهِ متفرِّساً فيهِ:

ـ يا للنذالة!

أصاب بيوتر بتروفتش شيءً يشبهُ أن يكون رعشةً، لقد لاحظ الجَّميع هذه الرَّعشةَ (وتذكروها في فيما بعد). تقدَّمَ ليبزيا تنيكوف بضع خطوات. وخاطب بيوتر بتروفتش وهو يقترب منه:

ـ وتجرؤ أن تشهدني؟

ـ ما معنى هذا.... يا اندريه سيميونوفتش؟ عمَّ.... تتكلم؟ ـ دمدم لوجين متعثِّرَ اللسان.

أجابه ليبزيا تنيكوف بعنف، وهو ما يزال يحدِّقُ إليه تحديقاً قاسياً بعينين عمشاوين.

ـ معناه أنَّكَ كاذبٌ أَشَر...نعم.... هذا ما يعنيه كلامي

كان ليبزيا تنيكوف في حالة غضبٍ شديدٍ رهيب، ونظر إليهِ راسكولنيكوف وهو أيضاً، كإنَّما ليتلقَّف كلامهُ ويزنهُ محاولا أن يفهم معناه الغامض الكتيم، وساد صمتٌ جديدٌ. كان بيوتر بتروفتش قد فقد

سيطرتهُ على نفسهِ تقريباً، ولاسيَّما في الوهلة الأولى.
وبدا يتكلَّمُ متعثلماً:
- إذا كنت تخاطبني أنا.... ولكن ماذا دهاك؟ أأنت في تمام عقلك؟
- نعم، أنا في تمام عقلي.... ولكنَّكَ أنت.... نذل! آه.... ما أنذل ما تفعل، كنت استمع إلى كلِّ شيءٍ، وتعمدت أن أنتظر لأفهم كلَّ شيءٍ، وذلك لأنَّه حتى هذه الساعة، لا تزال الأمور غير منطقية، أعترف بذلك!.... نعم، لماذا فعلت هذا؟.... أنني لم أفهم!
- ولكن ما الذي فعلت؟ هلا كففت عن الكلام بألغازٍ غبيَّةٍ؟ لعلَّكَ سكران؟ لعلَّكَ شربت؟
- بل لعلَّكَ أنت الذي شرب، لا أنا، أيُّها الدَّنيء! ثُمَّ أنني لم أشرب الفودكا أبداً، لأن هذا يخالف مبادئي، هل تتصورنَ أنَّه هو نفسه، هو الذي أعطى صوفيا سيميونوفنا، بيديه، ورقة المائة روبل هذهِ، لقد رأيته بعيني رأسي، أنا شاهدٌ، وفي وسعي أن أحلف على ذلك بأغلظ الإيمان.
وردَّدَ ليبزيا تنيكوف يقول متجهاً إلى الجَّميع وإلى كلِّ واحدٍ.
- هو! هو نفسه!
أعول لوجين يقول:
- أأنت مجنونٌ أيُّها الغِر؟ لقد أقرت هي نفسها، هي الواقفة هناك، بقربك، أقرت أمام الجميع أنَّها لم تأخذ مني إلا عشرة روبلات، وكيف كان يمكنني أن أعطيها تلك الورقة بعد ذلك؟
ردَّدَ ليبزيا تنيكوف يقول ويصرخ.
- رأيت ما فعلتهُ! رأيت بعيني! وأنا مستعدٌّ، رغم أن ذلك يخالف مبادئي، مستعدٌ الآن أن أحلف اليمين المطلوب أمام المحاكم.... لأنني رأيتكَ تدسُّ لها هذه الورقة خلسةً. ولكني، لغبائي، اعتقدت أنَّكَ تفعل هذا من باب البرِّ والإحسان، قرب الباب، لحظة كانت، حين التفتت ومدتَّ لها يدك اليمنى، دسست ورقة المائة

روبل باليد اليسرى في جيبها خلسةً، رأيت ذلك! رأيته!

شحب لون لوجين، وصرخ بقوةٍ:

ـ ما هذه السخافات؟ كيف استطعت، وأنت قرب النافذةِ، أن تحدد فئة الورقة؟ ما هذا إلا وهمٌ! ما هذا إلا وهمٌ خلقته عيناك العمشاوان! وبالتالي أنت تهذي.

لا، ليس هذا وهماً! ورغم أنني وقفت بعيداً، والحقُّ يقال، فقد رأيت كُلَّ شيءٍ، كلَّ شيء! صحيح أنَّهُ يصعبُ على المرء أن يميز ورقةً من بعيدٍ، وهو واقفٌ قرب النافذة، ولكن بفضل ظرفٍ خاصٍّ جدَّاً كنت أعلم أن تلك الورقة إنما كانت ورقةً نقديةً بمائة روبل، إذ في اللحظة التي أعطيت فيها صوفيا سيميونوفنا عشرة روبلات، رأيتك تتناول من المائدة ورقة مائة روبل (وقد رأيت هذا لأنني كنت عندئذٍ بالقرب منك)، ولأن فكرةً ما قد ومضت في ذهني حينذاك، فأنا لن أنسى أن هذه الورقة كانت بيدك، لقد طويتها واحتفظت بها في يدك طوال الوقت، ثُمَّ لم أفكِّرَ بعد ذلك في هذا الأمر التفصيلي، ولكنَّكَ حين نهضت نقلت الورقة من يدك اليمنى إلى يدك اليسرى، وحين فعلت هذا كدتَّ تسقطها على الأرض، فتذكرت ذلك الأمر التفصيلي من جديد، لأنَّ تلك الفكرة نفسها قد برقت في ذهني مرةً أخرى: وهي أنَّك تريد أن تمنَّ على صوفيا سيميونوفنا دون أن أعلم أنا ذلك، لهذا أخذت أراقبك وأرصدث حركاتك، فرأيت أنَّك أفلحت في أن تدسَّ تلك الورقة في جيبها. رأيت ذلك! رأيت! وإنني مستعدٌّ لأن أحلف يميناً!

كان ليبزياتنيك كمن يختنق، وأخذت الصيحات تنهمر من كلِّ صوب، وكان أكثرها يدلُّ على الدَّهشة والاستغراب، غير أن بينها صيحاتٌ فيها شيءٌ من التَّهديدِ أيضاً، واقترب الجميع من بيوتر بتروفتش، واندفعت كاترينا إيفانوفنا نحو ليبزياتنيك.

ـ أندريه سيميونوفتش! لقد أخطأتُ الظنَّ فيك! دافعتَ عنها! أنت الوحيد الذي

يــدافع عنهــا! هــي يتيمــة! إن اللّه هــو الــذي أرســلك لتســاعدنا! أندريــه سيميونوفتش، يا عزيزي الطَّيب الشَّهم اندريه سيميونوفتش!

قالت كاترينا إيفانوفنا ذلك، وارتمت تركعُ أمامه، وهي لا تكاد تدرك ماذا تصنع!

زأر لوجين وقد بلغ ذروة الغضب.

ـ سخافات! هذا كلُّ ما تستطيع أن تمضغه من كلام: "نسيت، تذكرت، تذكرت، نسيت!" ما معنى هذا؟ في زعمك إذاً أنني دسست لها الورقة عمداً.... ولكن لماذا؟ ما عسى يكون هدفي من ذلك؟ أيُّ شيءٍ يجمع بيني وبين هذا الـ....

لماذا؟ هذا بعينه هو ما لا أفهمه أنا نفسي، ولكن هذا لا ينفي أنني أقول الحقيقة! إنني لم أخطئ في شيءٍ أيُّها الحقيرُ النَّذل، إنني أتذكَّر أن فكرةً قد راودتني في تلك المناسبة، حين كنت أشكرك مصافحاً، لقد قلت لنفسي عندئذٍ: "لماذا دسَّ لها هذه الورقة خلسةً؟ أيمكن أن لا يكون غرضهُ ذلك إلا أن يخفي عني عمله، لعلمه أن مبادئي تتعارض مع فكرة الإحسان الفردي، الإحسان الذي لن يخفف إطلاقاً عن أحدٍ تخفيفاً جذرياً في أحد الأيام؟" ثم خطر ببالي أنَّكَ ربَّما كنت تشعرُ بحرجٍ من إهداء مثل هذا المبلغ بحضوري، ثُمَّ اعتقدت أنَّك إنَّما أردت أن تدهشها حين ستعثرُ في جيبها على ورقةٍ ماليةٍ بمائة روبل (أنا أعلم أن بعض المحسنين يحبون أن يتصرفوا على هذا النحو المعسول). ولكني قلت لنفسي بعد ذلك أيضاً أنَّك تودُّ أن تختبرها وأن تمتحنها، أي أن تعلم هل تجيء إليكَ شاكرةً بعد أن تجد الورقة؟ وبعد ذلك أيضاً تخيلتُ أنَّكَ إنَّما أردت أن تتجانب كل تعبيرٍ عن الشُّكرِ والامتنان، عملاً بالمبدأ القائل أن اليد اليمنى يجب أن تجهل....[1] الخ ما أكثر الأخبار التي راودت ذهني

1 - ما فعلت اليسرى

حينذاك!.... وقد قررت أن أفكِّر في هذه المسألة على مهل، ورأيت أن من غير اللائق أن اظهِرَ لكَ منذ ذلك الحين أنني عارفٌ سرَّك، وقد راودتني عندئذٍ فكرةٌ أخرى. تساءلت: "ماذا لو أضاعت صوفيا سيميونوفنا هذا المال قبل أن تلاحظ وجودهُ؟"

وهذا هو السبب الذي دفعني أن أجيء إلى هنا فأُذكِّرها أو أُعلِمها أنَّكَ وضعت مائة روبل في جيبها، ولكني، في أثناء الطريق، دخلت على السيدتين كوبلياتنيكوف، لأعطيهما كتاب "العرض العام للمنهج الوضعي"[1]،ولأوصيهما خاصة بقراءة مقالة بيدريت (ومقالة فاجز أيضاً)، ثُمَّ جئت إلى هنا، فانظر في أيِّ وسطٍ، أيةُ قصةٍ وقعت! هل كان يمكن أن تخطر ببالي تلك الأفكار كُلُّها، وهل كان يمكن أن أُجري تلك الاستدلالات جميعها، لولا أنني رأيتُكَ تدسُّ المائة روبل في جيب صوفيا سيميونوفنا فعلاً؟

حين أنَّهى اندريه سيميونوفتش أقوالهُ المفحمة، وختمها بهذهِ النتيجة المنطقية شعر بتعبٍ رهيبٍ، فكان العرق يقطر من جبينهِ، إنَّه لا يجيد التعبير باللغة الروسية وا أسفاه (وإن كان لا يعرف أيَّةَ لغةٍ أخرى). لذلك بدا عليهِ بعد مغامرتهِ الخطابيَّةِ إرهاقاً شديداً، حتى لكأنَّهُ أصيب بتحولٍ وهزالٍ، لكنَّ حديثه أثَّرَ تأثيراً خارقاً.

لقد تكلَّمَ من دون تصنعٍ أو افتعالٍ، وكان كلامه مقنعاً مفحماً، فصدَّقهُ الجَّميع. وشعر بيوتر بتروفتش أن الأمور لا تجري على ما يجب، فهتف:

ـ أنا لا تهمني المسائل السَّخيفة التي خطرت ببالك في قليل أو كثير! ليس هذا برهاناً، من الجَّائز جداً أن تكون قد رأيت ذلك كلَّهُ في حلم، وأنا أقول لك

1 - "العرض العام للمنهج الوضعي": كتاب ظهر ببطرسبورغ سنة 1866م يضع ترجمات مقالات علمية مادية التوجه لعدد من المؤلفين: فيرسوف، كلودبرنار، موليثوث، تيودور بيدريت ("الدماغ و الفكر")، أدولف فاغنر("ما يدل عليه الإحصاء من الأفعال التي تبدو حرة في الظاهر إنما هي حتمية في الواقع").

إنَّكَ تكذب يا سيِّد! أنت تكذب، وأنت تفتري عليَّ، يدفعك إلى ذلك حقدٌ شخصيٌّ، فأنت تضمر لي الضغينة لأنني لا أشاركك آراءك الاشتراكية الملحدة، ولكن هذه المراوغة لم تعد على بيوتربتروفتش بأيِّ نفعٍ، بالعكس: ارتفعت الدمدمات من كلِّ جهةٍ، وصرخ ليبزياتنيكوف:

ـ آ.... هذا ما تريد أن تصل إليه! أنت تكذب! استدع الشُّرطة، وسأحلف اليمين، ليس هناك إلا شيءٌ واحدٌ لا أستطيع أن أفهمه: ما الذي دفعه إلى أن يتصرف هذا التصرف الدنيء؟ يا للحقير! يا للنذل!

ـ أنا أستطيع أن أشرح السبب الذي دفعه إلى التورط في مثل هذا الفعل، وأنا مستعدٌّ أن أحلف اليمين أنا أيضاً إذا لزم الأمر. ـ قال راسكولنيكوف بصوتٍ قاسٍ وهو يتقدَّم إلى أمِّها، كان يبدو حاسماً، وأدرك الجَّميع من نظرةٍ واحدةٍ ألقوها عليه أنَّه يعرف القضيَّة كلَّها فعلاً، وأن الخاتمة قد اقتربت.

وقال راسكولنيكوف متجهاً بالكلام إلى ليبزيا تنيكوف مباشرةً:

ـ الآن فهمت كلَّ شيء! لقد أحسست منذ بداية هذه الحكاية أن في الأمر مكيدةٌ ما، مكيدةٌ قذرة، أحسست بذلك لظروفٍ خاصةٍ لا يعرفها أحدٌ غيري وسأكشف عنها لكم الآن، لأنَّها أصلُ كلِّ شيءٍ، وأنت الذي أضأت لي الحقيقة نهائياً، بشهادتك الثَّمينة يا أندريه سيميونوفتش.

أرجوكم جميعاً، جميعاً، أن تصغوا إليَّ، إنَّ هذا السَّيِّد (قال راسكولنيكوف ذلك مشيراً إلى لوجين) قد خطب في الآونةِ الأخيرةِ فتاةً...فتاةً.... هي أختي "أفدوتيا روما نوفنا راسكولنيكوف"، لكنَّهُ منذ وصوله إلى بطرسبورغ أمس الأول قد حدث بيني وبينه شجارٌ في أثناء أوَّل لقاءٍ بيننا فطردته من مسكني، وذلك بحضور شاهدين اثنين، إن هذا الرَّجل مغتاظٌ جداً.... لم أكن أعرف أمس الأول أنَّه يسكن في غرفةٍ مفروشةٍ عندك يا أندريه سيميونوفتش، ولم أكن أعرف إذاً أنَّه في يوم الشِّجارِ نفسهُ، أي أمس الأول بعينه، قد رأى أنني بصفتي صديقاً للمرحوم السَّيد ماركيلادوف

قد أعطيت زوجته كاترينا إيفانوفنا مالاً تنفقه على الاحتفال بالتشييع، ولكنَّه رأى ذلك، فسرعان ما كتب إلى أمي رسالةً يبلغها فيها أنني قد وهبت كل ما أملك من مال، لا لكاترينا إيفانوفنا بل لصوفيا سيميونوفنا، واصفاً هذه الفتاة بأحطِّ النعوت.... أقصد.... واصفاً طبيعة علاقاتي بها بأحطِّ النعوت، كان يهدف طبعاً إلى أن يحدث شقاقاً بيني وبين أهلي، عن طريق إقناعها أنني أُتلِفُ في مناحي غيرَ لائقةٍ آخر مالٍ يحرمان نفسهما منهُ في سبيل سدِّ حاجاتي، وفي مساء أمس، في خلال مقابلة تمَّت بيني وبين أهلي، وقد حضر هذه المقابلة، أظهرت الحقيقة مبرهناً على أنني إنَّما أعطيت المال لكاترينا إيفانوفنا، لإنفاقه على الاحتفال بالجنازة، ولم أعطه لصوفيا سيميونوفنا، التي كنت منذ ثلاثة أيام لا أعرفها على كلِّ حالٍ.... ولكني أضفت إلى ذلك أنَّه. هو بيوتر بتروفتش، بكل مناقبه، لا يساوي خنصر صوفيا سيميونوفنا التي يقول التي يقول في حقها ذلك الكلام الدنيء! ثُمَّ سألني هل أنا مستعدٌّ أن أقعد صوفيا سيميونوفنا إلى جانب أختي، فأجبته أنني قد فعلت هذا في ذلك اليوم نفسه، وأغضبه أشدَّ الغضب أن يلاحظ أن أمي وأختي لا تريدا أن تشاجراني تصديقاً لنمائمه وافتراءاته، فراح في الحال يتفوَّهُ بوقاحاتٍ لا تغتفر، ونشأت على ذلك قطيعةٌ حاسمةٌ بينه وبين أختي، وطُرِدَ شرَّ طردةٍ. حدث كُلَّ هذا بالأمس، والآن انتبهوا: لو أفلحَ في أن يبرهن اليوم على أن صوفيا سيميونوفنا سارقة، لاستطاع أن يظهر لأمي وأختي أولاً أنَّه كان على حقٍّ حين اشتبه في أمرها، وثانياً أنَّه كان على حقٍّ حين غضب إذ علم أنني ساويت بينها وبين أختي، وأنَّه إذ هجم عليَّ دافع بذلك عن شرف أختي - خطيبته وحافظ عليه.

جملة القول أنَّه بفضل ذلك كان يستطيع أن يظلَّ يأمل في أن يحدث شقاقاً بيني وبين أهلي، وفي أن يستردَّ خطوتهُ إليهم، ناهيك عن أنَّه بذلك ينتقم مني شخصياً، لأن من حقِّهِ أن يفترض أن شرف وسعادة صوفيا سيميونوفنا يهمَّانني

كثيراً، ذلكم هو حسابه كلّهُ! هكذا أفهم أنا القضية! هذا هو دافعه ولا دافع له سواه!

بهذه الكلمات، أو بهذهِ الكلمات تقريباً، ختم راسكولنيكوف كلامه الذي كثيراً ما كانت تقطعهُ صيحات التعجُّبِ من المستمعين، الذين تابعوا كلامه بكثيرٍ من الانتباه، ولكن راسكولنيكوف، رغم المقاطعات، تكلَّمَ بلهجةٍ جازمةٍ هادئةٍ ثابتة، وبوضوحٍ كاملٍ، ودقَّةٍ لا يشوبها شيء، وكان لصوته المختلج، ونبرته المقنعة، وهيئته القاسية، أثرٌ شديدٌ لدى جميع النَّاس.

قال ليبزيا تنيكوف مؤيداً بحماسةٍ:

- هذا هو الأمر! هذا هو الأمر! هذا هو الأمر يقيناً، لأنَّهُ سألني، مُذ دَخَلَت صوفيا سيميونوفنا الغرفة، هل "أنت موجود، وهل رأيتك في عداد الذين دعتهم كاترينا إيفانوفنا؟". لقد جذبني إلى شقِّ النافذةِ ليلقي عليَّ هذا السؤال همساً. معنى ذلك أنَّه كان يحرصُ حرصاً مطلقاً على أن تكون موجوداً! هذا هو الأمرُ تماماً!

كان لوجين صامتاً، يبتسمُ باحتقار، لكنَّهُ كان شديد الشُّحوبِ، كأنَّه يفكِّرُ في الوسيلة التي يخرج بها من المأزق، لعلَّهُ كان يتمنى لو يدعَ كلَّ شيءٍ ويخرج، لكن ذلك لم يكن الأمر الممكن في تلك اللحظة: فلو خرج لكان معنى خروجهِ صراحةً أنَّه يعترف بصحة الاتهامات الموجَّهَةِ إليهِ، وأنَّه قد افترى على صوفيا سيميونوفنا فعلاً، ثُمَّ عن الحضورِ، قد سكروا، أخذوا يضطربون اضطراباً شديداً. وهذا موظَّفُ التموين يصرخ صراخاً أعلى من صراخ سائر النَّاسِ، رغم أنَّه لم يفهم شيء، مقترحاً اتخاذ إجراءاتٍ تسيءُ إلى لوجين كثيراً، هذا إلى أنَّ هناك أشخاصاً لم يكونوا سكارى: لقد هرع أناسٌ من جميع الغرف، البولنديون الحقراء الثلاثة اهتاجوا اهتياجاً رهيباً فهم لا ينفكون يصرخون قائلين بالبولندية: "سيِّدٌ حقير"، ويجمجمون مرددين تهديدات بلغتهم أيضاً.

كانت سونيا تصغي في جهدٍ، ولكن كان لا يبدو عليها أنَّها تفهم كلَّ شيءٍ هي الأخرى. لكأنَّها خارجةٌ من غيبوبة، كانت لا تحوِّلُ عينيها عن راسكولنيكوف، شاعرةً أنَّهُ سندها الوحيد، وكانت كاترينا إيفانوفنا تتنفَّسُ بمشقَّةٍ، وكانت حنجرتها تصدرُ أصواتاً جشَّاءً، وكانت تبدو مرهقةً إلى أبعد حدود الإرهاق، إلا أنَّ وضع أماليا إيفانوفنا كان أغبى الأوضاع، فهي فاغرةُ الفم يبدو عليها أنَّها لا تفهم شيئاً البتة، كلُّ ما هنالك أنَّها كانت تحسُّ أن بيوتر بتروفتش في مأزقٍ، وأراد راسكولنيكوف مرَّةً أخرى أن يتكلم، ولكنَّهم لم يدعوا لهُ أن يفعل، فالحضور جميعاً يصرخون في آن واحدٍ ويحتشدون حول لوجين، وإذ رأى أن حملته على صوفيا سيميونوفنا خاسرةً، لجأ إلى القحَّةِ عامداً، قال وهو يشقُّ لنفسهِ طريقاً بين النَّاس:

- اسمحوا لي أيُّها السَّادة، اسمحوا لي! أرجوكم أن لا تهددوني! أؤكد لكم أن هذا لا يجدي، وأنَّكم لن تبلغوا بهذه الطريقة شيئاً! لست الصَّبي الغر.... بالعكس: أنتم الذين ستحاسبون أمام العدالة على أنَّكم استعملتم العنف لتغطية جريمة، لقد انفضحت السَّارقة، وسأشكوها إلى القضاء، والقضاة ليسوا عمياناً، ولا سكارى!.... القضاة لن يثقوا بأقوال ملحدين زنادقة يعاديان النظام ولا يؤمنان بالدِّين، ويتهمانني حقداً وانتقاماً، وذلك ما اعترفا به بلسانهما لغبائهما! نعم، اسمحوا لي!

قال اندريه سيميونوفتش:

- ألا فليختفِ كلُّ أثرٍ لوجودك عندي على الفور! هيا غادر غرفتي حالاً، ولينتَهي كلُّ شيءٍ بيننا....آه.... حين أتذكر كم أرهقت نفسي في أن أشرح له.... طوال خمسة عشر يوماً!

ولكني قلت لك أنا نفسي منذُ قليل، بينما كنت تلحُّ أنت على بقائي عندك، إنني مبارحٌ غرفتك حتماً، هناك شيءٌ واحدٌ أضيفهُ الآن: هو أنَّكَ غبيٌّ أبله! أتمنى لك أن يشفى عقلك، وأن يتحسَّنَ بصركَ الحسير، اسمحوا لي يا سادة!

واستطاع أن يشقَّ لنفسهِ طريقاً، لكنَّ موظَّفَ التَّموين لم يكن يسمعه في هذهِ الأثناء، ولم يشأ أن يخلي سبيلهُ بهذهِ السُّهولة، فتناول كأساً عن المائدة، فلوح بها ثُمَّ قذفها إلى جهة بيوتر بتروفتش بكل ما أوتى من قوة، غير أن الكأس طارت نحو أماليا إيفانوفنا رأساً، فأطلقت هذه صرخاتٍ حادةً، بينما أخذ موظف التموين يتدحرج بخرافةٍ تحت المائدة بعد أن أفقدته هذه الحركة توازنه.

انسحب بيوتر بتروفتش إلى غرفته، وما انقضى على ذلك نصف ساعةٍ حتى كان قد غادر المنزل.

كانت سونيا الوجلة بطبيعتها، لا تجهل أن من السَّهلِ على أيِّ إنسانٍ أن يُسبِّبَ ضياعها وهلاكها هيَ، أكثر من أيِّ شخصٍ كان، وكانت تعرف كذلك أن أيَّ إنسانٍ يستطيع أن يهنها، وأن يؤذيها، دون أن تصيبهُ من ذلك أيَّةُ إساءةٍ تقريباً، ولكنَّها ما تزال تعتقدُ حتى ذلك الحين أن في وسعها، بطريقةٍ أو بأخرى، أن تتجانب نمائمَ كبيرةً، وافتراءاتٍ ضخمةً إذا هي عاملت جميع النَّاس، وكلُّ إنسانٍ بالتأني والحذر، والتواضع والتذلل، والرِّقَّةِ واللُّطف، فخاب الآن ظنُّها، وكانت خيبةَ الظنِّ شديدةَ الوقع عليها، صحيحٌ أنَّها كانت تستطيع، مذعنةً مستسلمةً، ودون دمدمةٍ تقريباً أن تحتمل كلَّ شيءٍ، وأن تحتمل حتى هذا. غير أن هذا قد بلغَ من شدَّةِ الوطأةِ على نفسها، للوهلةِ الأولى، درجةً لا تطاق، فهي، رغم انتصارها وتبرُّئِتها، ما أن زال رعبها الأول وما أن أفاقت من ذهولها وأصبحت قادرةً على أن تدرك الأمور إدراكاً صحيحاً، حتى كان شعورها بأنَّها مهجورةٌ، وإحساسها بالإهانة التي ألحقت بها يقبضان صدرها قبضاً أليماً، فإذا هي تصاب بنوبةٍ هستيريَّة، ثُمَّ إذا هي تفقد صبرها فتولِّيَ هاربةً من الغرفة، راكضةً إلى مسكنها، حدث هذا فور انصراف لوجين تقريباً.

وأماليا إيفانوفنا التي أصابتها الكأس لم تحتمل كذلك ضحكات الحضور،

فاستعر غضبها، وأخذت تطلق صراخاً مجنوناً، ثُمَّ اتجهت نحو كاترينا إيفانوفنا تحمِّلُها تبعةَ كلِّ شيءٍ، وتقول لها:

- ارحلي من بيتي! اخرجي حالاً! هيا، اغربي عن وجهي!

كانت أماليا إيفانوفنا تقول ذلك وهي تقبض على كلِّ ما يقعُ بين يديها من أمتعة كاترينا إيفانوفنا فتلقيهِ على الأرض.

وكانت كاترينا إيفانوفنا قد تهالكت على السَّرير مهدودةَ القوى، شاحبة الوجه، مهدَّمةً، محطَّمةً، فلمّا رأت صاحبة البيت تفعل ما تفعل بأمتعتها، وثبت من السَّرير وهجمت عليها، ولكن الصِّراع لم يكن فيه أيَّ تكافؤ، فكانت الألمانية تهزُّ كاترينا وتُأرجحها كأنَّها ريشة طائرٍ.

- ماذا؟ ألم يكف هذه المخلوقة أنَّها افترت على سونيا افتراءاتٍ شيطانيَّةٍ، فهي تهجم عليَّ أنا أيضاً؟ كيف؟ هل أرمى إلى الشَّارع في يوم وفاة زوجي؟ أبعد أن تقبل ضيافتي أُلقى إلى الشَّارع مع اليتامى؟ فإلى أين يمكنني أن أذهب؟

بهذا كانت تقول كاترينا إيفانوفنا مختنقةً من خلالِ النَّشيجِ، وصرخت تقول على حين غرَّةٍ، وقد اشتعلت عيناها:

أيمكن ألا يكون حولي عدالةً يا إله السماء؟ عمَّن عساكَ تدافع، ومن عساك تحمي إذا لم تدافع عن أمثالي وأيتامي؟... لسوف نرى! سأتَّجهُ إلى المحاكم، سأجد المحاكم! حالاً! فوراً! انتظري قليلاً أيتها المخلوقة الدنيئة! بوليتشكا، ابقي مع الأولاد! أنا عائدة! انتظري في الشَّارع إذا لزم الأمر! سوف نرى أفي هذا العالم عدالةً وحقيقةً؟!

وألقت كاترينا إيفانوفنا على رأسها ذاك الشَّال المصنوع من الجوخ الخفيف، الذي تحدَّثَ عنه المرملادوف، وشقَّت لنفسها طريقاً بين جمهرة السُّكان السكارى، المبعثرين، الذين كانوا ما زالوا محتشدين في الغرفة، واندفعت في الشَّارع باكيةً ناشجةً، وهي تنوي على نحوٍ غامضٍ أن تمضي باحثةً عن العدالة فوراً، مهما كلَّفَ الأمر، واستولى الرُّعبُ على بوليا، فلطت في ركنٍ قرب

الصندوق مع الصِّغار المرتجفين، وأحاطتهم بذراعيها، بانتظارِ عودة أُمِّها. وكانت أماليا تضطربُ في الغرفة، وتطلق الصُّراخَ على هواها، وترعد، وتلقي على الأرض كلَّ ما تجد، ثُمَّ تدوسهُ، وكان المستأجرون يصرخون كلٌّ من مكانهِ: البعض يعلِّقُ على الأحداث بطريقتهِ، وآخرون يتشاجرون، والبعض الثالثُ يُغنِّي.

وقال راسكولنيكوف لنفسه: "والآن حانَ حيني أنا أيضاً، سوف نرى يا صوفيا سيميونوفنا ما قد تقولينه الآن!".

واتجه نحو مسكن سونيا.

# الفصل الرابع

ودافع راسكولنيكوف عن سونيا دفاعاً متحمِّساً قويَّاً ضد لوجين رغم أن نفسه كانت تفيضُ هولاً شديداً، وعذاباً أليماً، ولكنَّهُ شعر بعد تباريح الصَّباحِ، برِضاً صادقٍ، وارتياحٍ حقيقيٍّ يغيِّرُ أحاسيسهُ التي كان قد أصبح لا يطيقُ احتمالها، بصرفِ النظر عن العاطفة التي دفعتهُ إلى التَّدخل مدافعاً عن سونيا، ثُمَّ أنَّهُ لم ينسَ أنَّه على موعدٍ وشيكٍ مع الفتاة، وهو موعد كانت فكرته تُحدِثُ لهُ أحياناً اشدَّ أنواع القلق.

كان عليه أن يبوح لها باسم قاتل أليزافينا، وكان يحسُّ منذ الآن أنَّها ستشعرُ بعذابٍ شديدٍ، وألمٍ ممضٍ، وكأنَّه بحركةٍ من يده، أبعد هذه الفكرةَ عن ذهنهِ، لذلك فأنَّهُ حين هتف يقول لحظة خروجه من عند كاترينا إيفانوفنا: "سوف نرى يا صوفيا سيميونوفنا ما قد تقولينه الآن" كان ما يزال خاضعاً لحالة الاضطراب الظاهريِّ، والتَّحدي، وللأثر الذي أحدثه فيه انتصاره منذ هنيهة على لوجين، غير أنَّ شيئاً غريباً قد حدث حينذاك، فأنَّهُ حين وصل إلى مسكن كابرناؤموف شعر بقواهُ تغادرهُ فجأةً، وشعر بخوفٍ يستولي عليه، فاحتار واضطرب، ووقف أمام الباب، وألقى على نفسه هذا السؤال العجيب: "هل يجب أن أقول لها من الذي قتل اليزافينا؟" وإنَّما كان هذا السؤالُ عجيباً لأن راسكولنيكوف كان يشعر في الوقت نفسهِ أنَّه عاجزٌ عن كتمان هذا الأمر، بل يشعرُ أيضاً أنَّه يستحيلُ عليه أن يؤخر اعترافهُ هذا أيَّ تأخير، كان لا يعرف بعد، لماذا يستحيل عليه ذلك، وإنَّما هو يحسُّ بتلكَ الاستحالةِ إحساساً فحسب، وكان هذا الإحساس الموجع الأليم بعجزهِ يُثقِلُ على نفسهِ ويرهقهُ من أمرهِ ليسحقهُ سُحقاً، ومن أجل أن يضع حدَّاً لخواطرهِ، وتأملاتهِ، وهمِّهِ وقلقهِ، فتح الباب بغتةً ولاحظ سونيا من مكانهِ في العتبة .

كانت سونيا جالسةً، واضعةً كوعيها على مائدتها الصَّغيرة، دافنةً وجهها في

يـديها. فلمَّـا رأت راسـكولنيكوف، نهضـت متعجِّلـةً، وهبَّـت للقائـهِ كانـت تنتظرهُ.

ـ لولا وجودكَ لما عرفت ما عسى كان يحدثُ لي حينـذاك! ـ قالت بسـرعة وهـي تدنو منه، من البـديهي أن هـذا الكـلام كـان الكـلام الوحيـد الـذي أرادت أن تقولهُ لهُ بأسرعِ وقتٍ ممكن، والذي كانت بسببهِ في انتظاره.

اقـترب راسـكولنيكوف مـن المائـدةِ، وجلـس علـى الكرسـيِّ الـذي تركتـهُ صوفيا، كانت سونيا واقفةً على بُعد خطوتين منهُ كالبارحةِ تماماً.

قال راسكولنيكوف وهو يشعر فجأةً بأنَّ صوتهُ يرتجـف: "وضـعك الاجتمـاعي والعادات التي يخلقها". هل فهمت ؟

ارتسم الألم على وجه سونيا. وقاطعته تقول:

ـ ولكن لا تكلمني كما كلمتني بالأمس، أرجوك، لا تفعل ما فعلت بالأمس. كفى تعذيباً!

وأسرعت تبتسـمُ مخافةَ أن يسـوءهُ هـذا اللَّـوم، وأردفـت: كانـت حماقـةً مـني أن انصرفت، فما الذي يجري الآن هناك؟ لقد أردتُ أن أعود، لكنني كنت أقدِّر طوال الوقت أنَّك، ... قد تجيء.

روى لهـا راسـكولنيكوف أن أماليـا إيفانوفنـا قـد طـردتكم مـن البيـت، وأنَّ كاترينا إيفانوفنا مضت "تبحث عن الحقيقة" في مكان ما.

هتفت سونيا:

ـ آه! ربَّاه! هيا بنا حالاً، فوراً!

وتناولت خمارها.

صاحَ راسكولنيكوف بلهجةٍ حانقةٍ:

ـ ما زالت كما كنت! لا تفكرين إلا بهم! هلَّا بقينا سويةً بعض الوقت هنا.

ـ إنَّما.... وكاترينا إيفانوفنا؟

قال هذا ثُمَّ أضاف بتبرُّمٍ:

ستجيئك بنفسها ما دامت قد خرجت، فإن لم تجدك هنا ، كنت أنت المذنبة.

جلست سونيا وهي فريسةُ ترددٍ أليمٍ، وصمت راسكولنيكوف مطرقاً إلى الأرض يجترُّ فكرةً ثابتةً.

ثُمَّ بدأ يتكلَّم دون أن ينظر إلى سونيا :

لنسلِّمَ أن لوجين لم يشأ أن يتابع الأمر.... ولكن لو شاءَ ذلك، لو كان ذلك داخلاً في حساباتهِ، لاستطاع أن يرسلك إلى السِّجنِ لولا وجودي، ووجود ليبزيا تنيكوف. أليس كذلك؟

أجابت سونيا بصوتٍ ضعيفٍ:

ـ نعم !

ثُمَّ كرَّرت قلقةً، وكأنَّها فقدت وعيها :

ـ نعم!

أردف راسكولنيكوف:

ـ إنَّما كان من الجائزِ جدَّاً أن لا أكون أنا موجوداً هناك، أما ليبزيا تنيكوف فأنَّه لم يكن قد رجع إلا صدفةً.

سكتت سونيا ولم تُجب.

واستأنف راسكولنيكوف الكلام:

ـ فماذا لو أودعت في السِّجنِ؟ ما عسى يحدث حينذاك؟ هل تتذكرين ما قلته لك ؟

ظلَّت سونيا صامتةً، وانتظر راسكولنيكوف لحظةً ثُمَّ قال وهو يحمل نفسه على البسمة:

ـ كنت أتصور أنَّكِ سوف تصرخين قائلةً مرَّةً أخرى:

"آه.... لا تقل هذا الكلام! اسكت !"

ولم تجب سونيا أيضاً، فسألها راسكولنيكوف بعد دقيقةٍ:

ـ هيه! أتعودين إلى الصمت؟ ولكن لا بُدَّ أن نتحدَّثَ عن شيءٍ ما على كلِّ

حالٍ! إنني ليهمني كثيراً أن أعرف كيف تحلُّ مسألةٌ من المسائل.... على حدِّ تعبير ليبزيا تتيكوف (لكأن راسكولنيكوف كان يوشك أن يرتبك) ـ وتابع كلامه: لا، لا، أنا لا أتكلَّمُ جادّاً، تخيَّلي يا سونيا، أنتِ كنت تعلمين سلفاً (يعني لو كنت تعرفين بالضبط) جميع نيات لوجين، وأنَّك كنت تعرفين معرفة اليقين الكاملِ أن كاترينا إيفانوفنا سوف تضيع بسبب هذه النيات ضياعاً تاماً، هي والأولاد أيضاً، وستضعين أنتِ أيضاً زيادةً عليهم (لأنَّكِ لا تعتبرين نفسكِ إنساناً، زيادةً عليهم)، وكذلك بوليا..... من جهةٍ أخرى.... لأنَّ هذا الطريقَ هو طريقها هي أيضاً.... تخيَّلي هذا كلَّهُ، ثُمَّ تخيَّلي أنَّهُ يتوقَّفُ عليكِ أنتِ أن تبقي على قيد الحياة، إما هذا وإما أولئك، أي: إما لوجين مع كل الدناءات التي يرتكبها، وإما كاترينا إيفانوفنا، فماذا تقررين؟ أتختارين موته أم موتها؟ إنني ألقي عليك هذا السؤال.

نظرت سونيا إليه قلقةً، إنَّها تحزر وراء هذهِ الكلمات الملتبسة، فكرةً مخبَّأةً تقربها من شيءٍ ما.

قالت وهي تثبِّتُ عليهِ نظرةً فاحصةً:

ـ كنت أوجِسُ أنَّكَ ستلقي عليَّ سؤالاً من هذا النَّوع.

قال راسكولنيكوف:

ـ طيب ذلك، فماذا تختارين؟

ردَّت سونيا بنفور:

ـ لماذا تسألني عن شيءٍ لا يمكن أن يحدث؟

ـ الأفضل إذاً أن يبقى رجلٌ مثل لوجين حيَّاً، وأن يستمر بارتكاب حقارته! هذا مع ذلك رأيٌ لا تجرئين أيضاً أن ترتئيه؟

ـ ليس يخصني أنا أن أنفُذَ إلى أغراض "العناية الإلهيَّة".... ولماذا تسال عمَّا لا تملك حقَّ السُّؤالِ عنه؟ ما جدوى هذه الأسئلة الباطلة؟

كيف يمكن أن يتوقَّفَ أمرٌ كهذا على قراري أنا؟ من الذي نصَّبني قاضياً!

فأعلم من ذا يجب أن يحيا ، ومن ذا يجبُ أن لا يحيا؟

جمجم راسكولنيكوف بلهجةٍ عابسةٍ:

ـ متى تدخَّلت "العنايةُ الإلهيَّةُ" في الأمر ، لم يبق ما نقولهُ!

فهتفت سونيا في ألم:

ـ الأولى أن تقول لي ما تريد أن تقولهُ ، بغيرِ لفٍّ أو دورانٍ! إنَّكَ ما تزالُ تجترُّ شيئاً ما. أمن الممكن ألا تكون قد جئت إلا لتعذبني؟

ولم تُطِق سونيا صبراً ، فتروح تبكي بكاءً مرَّاً ، فكان ينظر إليها مكفهرَّ الوجهِ حزيناً ، وانقضت على ذلك خمسُ دقائقٍ.

وتكلَّمَ أخيراً بصوتٍ رقيقٍ عذبٍ:

ـ نعم ، أنتِ على صواب.

تبدل راسكولنيكوف فجأةً ، ولهجتهُ التي كان فيها قِحَةً مقصودةً ، وتحدٍّ عاجزٍ قد اختفت ، حتى لقد ضعف صوتهُ ، وتابع كلامه:

ـ قلتُ لك أمس أنني لن أجيئكَ اليوم مستغفراً ، مع ذلك بدأت كلامي بما يشبهُ الاستغفار ، فحين تكلمت عن لوجين ، وعن العناية الإلهيَّةِ كنتُ لا أتكلَّمُ إلا عن نفسي ، وكنت استغفر يا سونيا.

وأراد راسكولنيكوف أن يبتسم ، لكنَّ تعبيراً عن العجز والتَّعب تجلَّى في تلك الابتسامة الضعيفة ، وخفض رأسهُ ، وغطَّى وجههُ بيديه.

وفجأةً ، اجتاح قلبهُ إحساسٌ غريبٌ غيرَ متوقَّع ، إحساسٌ بكرهٍ عنيفٍ نحو سونيا ، فاستغرب راسكولنيكوف هذا الاكتشاف ، بل روَّعهُ ، فرفع رأسهُ بغتةً ، ورمقها بنظرةٍ محدقةٍ. ولكنَّ نظرتهُ لم تلتقِ إلا بنظرة الفتاة التي كانت نظرةً زاخرةً بضراعةٍ أليمةٍ ، لقد كان في تلكَ النَّظرة حبٌّ ، وتبدَّدَ من نفس راسكولنيكوف كل إحساس بكرهٍ ، كما يتبدد الحلم. لا ، لم يكن الأمر كما تصوَّر ، لقد أخطأ في فهم طبيعة العاطفة التي شعر بها ، ذلك يعني أن اللحظة المحتومة قد وافت.

ومرَّةً أخرى دفن وجهه بيديه، وخفض رأسهُ، وشحب وجههُ على حين بغتةٍ، ونهض عن كرسيهِ ونظر إلى سونيا، ثُمَّ مضى يجلسُ على السَّرير بخطى آلية، دون أن يقول كلمةً واحدةً.

كانت هذه الدقيقة، من ناحية الإحساس الذي انتابه، تشبه كثيراً تلك الدقيقة التي كان فيها واقفاً وراء العجوز، بعد أن أخرج الفأس من العلاقة، وأحسَّ أنَّه "لم يبق ثمَّةَ لحظةً يضيعها.

سالت سونيا مروَّعة:

ـ ماذا بك؟

فلم يستطع أن يقول كلمةً واحدة، إنَّه لم يكن يقدِّرُ أنَّه على هذا النحو سينبئها بالأمر، ولم يتمكن راسكولنيكوف من أن يفهم ما يحدث في نفس في تلك اللحظة.

اقتربت سونيا منه برفق، وجلست على السرير بقربه، وانتظرت دون أن تحوِّل عينيها عنه، كان قلبها يخفق باندفاعٍ يدنيهِ من الانفجار.

أصبح الموقف غير محمول، أدار راسكولنيكوف نحوها وجهه المصطَّبغَ بصفرةٍ كصفرة الموت، وتقبضت شفتاهُ، فلم يستطع أن يزفر كلمة.

استولى الرُّعبُ على سونيا فقالت مرددةً وهي تبتعد عنه قليلاً:

ـ ما بك؟

فدمدم كإنسانٍ استولى عليه الهذيان، وأصبح لا يدري ماذا يقول:

ـ لا شيء سونيا. لا تخافي، حقاً، متى فكَّرَ المرءُ في هذه الأمور أدرك أنَّها سفاسفُ، وترهاتٍ، وحماقات!

وأضاف فجأةً وهو يحدِّقُ إليها:

ـ لماذا جئت أعذبك أنت؟ حقَّاً، لماذا؟ أنني لا أنفكُّ ألقي على نفسي هذا السؤال يا سونيا:

لعلَّهُ كان قد ألقى على نفسه هذا السؤال منذُ رُبعِ ساعةٍ، ولكنَّهُ يعبِّرُ عنه

الآن، وهو في حالة ضعفٍ كاملٍ، فما يكادَ يشعرُ بنفسه، وما برح جسمه يرتجف بارتعاشٍ متَّصلٍ.

ردَّت سونيا متأملةً بنظرةٍ إليهِ متفحِّصة:

ـ آه.... ماأشدَّ ما تعذِّبَ نفسك!

ما هذا كلَّهُ إلا سخافات! اسمعي سونيا: (إن فكرةً من الأفكار قد جعلت شفتيهِ تلعب عليهما ابتسامةً ضعيفةً عاجزةً خلال ثانيتين لا أكثر) أتتذكر ما كنت أودُّ أن أقول لك أمس؟

انتظرت سونيا قلقةً.

ـ لقد قلت عند انصرافك عني "ربَّما كنت أودعك إلى الأبد، ولكنني إن جئت فسأقول لك.... من الذي قتل إليزافيتا".

بدأت سونيا ترتعشُ من الرأس إلى القدمين.

ـ فها أنا ذا أجيءُ لأقول لكِ من قتل إليزافيتا.

تمتمت في جهدٍ جهيدٍ:

ـ كنت تتكلَّمُ جادَّاً إذاً حين قلت لي أمس....

لكنَّها سارعت تسألهُ كأنَّها ثابت إلى رشدها فجأةً:

ـ فكيف عرفتِ من الذي قتلها؟

كانت سونيا تتنفَّس بمشقةٍ، وكان وجهها يزدادُ شحوباً، قال راسكولنيكوف:

ـ أنا أعرف.

فلزمت الصبيَّةُ الصَّمت مدَّةَ دقيقةٍ، ثُمَّ سألتهُ خائفةً:

ـ وهل وجدوه؟

ـ لا، لم يجدوه.

ـ إذاً كيف عرفت من هو؟

قالت هذا بصوتٍ مختلجٍ، بعد سكوتٍ جديدٍ.

التفت راسكولنيكوف إليها، وأمعن النظر، ثُمَّ قال وهو يرسم على شفتيهِ تلك البسمة المضغوطة، المفبركة، العاجزة نفسها:

- احزري!

وكأنَّ تشنجاتٍ عنيفةٍ كانت تهزُّ جسم سونيا كلَّهُ. قالت وهي تبتسمُ كطفلةٍ:

- ولكنَّكَ تخد.... تخيفني بهذا الكلام!

تابع راسكولنيكوف كلامهُ وهو ما يزال ينظرُ إليها ويتفرَّسُ فيها كأنَّ عيناهُ مشدودتان عليها لا فكاك منه، وكأنَّه لا يستطيع أن يحوِّل بصرهُ عنها:

- هذا يبرهن على أن بيني وبينهُ صداقةٌ حميمةٌ، وقد كان لا يريد قتل إليزافيتا تلك، وإنَّما هو قتلها.... صدفةً.... وجاء.... فإذا بإليزافيتا.... وعندئذٍ.... قتلها هي أيضاً.

وانقضت دقيقةً أخرى مروَّعة. كان كلٌّ منهما يتملَّى الآخر.

سألها بغتةً وهو يحسُّ أنَّه يهوي من برج ناقوس:

- ألم تحزري إذاً؟

همست سونيا بصوتٍ لا يكاد يدرك:

- ل.... لا....

- تأمليني وفكِّري!

لم يكد راسكولنيكوف يقول هذا حتى جمجم عليه إحساسٌ غيرُ مألوفٍ جمَّدَ قلبهُ، رمقها، فكأنَّما رأى في وجهها ملامحُ وجه إليزافيتا، وتذكَّر بوضوحٍ تعابير وجه إليزافيتا في لحظةِ إشهار فأسه في وجهها، فتراجعت نحو الحائط متمترسةً بيديها، كالأطفال حين يخافون، فيثبتون في من يخيفهم نظرةً وجلةً، جامدةً، قلقةً، ويتراجعون، ويمدُّونَ أيديهم الصَّغيرة، ويوشكون أن يبكوا، كذلك كان شأن سونيا في تلك اللحظة، ولقد تأمَّلتهُ بعض الوقت بتلك الحيرة نفسها، وبذلك العجز نفسه، وبذلك الارتياع ذاته، ثمَّ رفعت يدها

اليسرى فجأةً فلمست صدرهُ بأطراف أصابعها في رفقٍ، ونهضت عن السَّرير ببطءٍ، وابتعدت عنه رويداً رويداً، وهي تحدِّقُ إليه بعمقٍ. وارتسم هذا الرُّعبُ نفسه على وجه راسكولنيكوف بالدِّقَّةِ، وأخذ ينظر إليها هو يبتسم ابتسامة "الأطفال" تلك نفسها تقريباً.

وهمس يسألها أخيراً:

- هل حدست؟

قالت سونيا مرتاعةً، وهي تشهقُ شهقةً رهيبةً:

- يارب!

وخارت قواها، فسقطت على السَّرير دافنةً وجهها في الوسادة، ولكنها نهضت بعد لحظة، واقتربت منه وتناولت يديه، وضغطتهما بأصابع نحيلة ضغط كلَّابةٍ، ثمَّ استأنفت التَّحديقَ إليهِ، كانت تريد بهذه النظرة الأخيرة البائسة أن تلتقط شيئاً من أملٍ ولو كان ضعيفاً. ولكنَّ توقعها كان باطلاً، لم يبقَ أيُّ شكٍّ. نعم، ذلك هو الأمر! وحتى في المستقبل، حين ستستمطر سونيا بخيالها تلك اللحظة، سيبدو لها غريباً عجيباً: لماذا رأت على هذا النحو، دفعةً واحدةً، أنَّه لم يبق مجال لأيِّ شكٍّ؟ ما كان لها أن تجرؤ على الادعاء أنَّها كانت قد أوجست شيئاً من هذا النوع من قبل، ومع ذلك فإنَّها ما أن قال لها هذا حتى بدا لها راسكولنيكوف قد أوجست هذا الأمر نفسه حقاً.

قال راسكولنيكوف متوسلاً في ألمٍ:

- كفى سونيا، كفى إلا تعذبيني! لم يكن قد قدر أنَّه على هذا النحو سوف يعترف لها، ولكن على هذا النحو إنَّما تم الاعتراف.

وكإنَّما خرجت سونيا عن طورها، ووثبت، ولوت يديها، ومضت على وسط الغرفة، ولكنَّها سرعان ما عادت إلى قربه، فجلست بجانبه حتى ليكاد كتفها لصق كتفه، وكأن فكرةً مباغتةً قد ومضت في ذهنها، فإذا هي ترتعش فجأةً وتطلق صرخةً، وترتمي راكعةً أمام قدميه، لا تدري هي لماذا!

قالت بصوتٍ يائسٍ:

ـ ماذا فعلت؟ ماذا فعلت بنفسك؟

وثبت وارتمت على عنقه وضمتهُ إليها ضمَّاً قويَّاً.

بدرت من راسكولنيكوف حركة تقهقرٍ، ونظر إليها وهو يبتسم ابتسامةً حزينةً.

ـ ما أغربَكِ يا سونيا! أتعانقينني بعد أن أطلعتك على ذلك الأمر؟ أنت تعرفين ماذا تفعلين!

صاحت سونيا حتى دون أن تسمع ملاحظته:

ـ لا، لا، ليس في العالم كلِّهُ الآن رجلٌ أشقى منك.

وأجهشت تبكي فجأةً، كإنَّما ألمت بها نوبةٌ عصبيةٌ.

إن عاطفة يجهلها راسكولنيكوف منذ مدَّةٍ طويلةٍ، تغرقهُ الآن كموجةٍ غامرةٍ، وتملأ قلبه رقَّةً وحناناً، لم يحاول راسكولنيكوف أن يقاومَ هذه العاطفة، وانبجست من عينيهِ دمعتان، ظلتا معلقتين بأهدابهِ.

سألها وهو ينظرُ إليها في بصيص أملٍ:

ـ ألن تتركيني إذاً يا سونيا؟

فصاحت تجيب

ـ لا، لن، لن أتركك أينما ذهبت! سأتبعك، سأتبعك إلى أيِّ مكانٍ! آه...يارب!.... آه.... ما أشقاني!.... لماذا، لماذا لم أعرفك قبل الآن؟ لم لم تأت منذ زمن؟ آه.... يارب!....

ـ لكنني أتيت.

ـ الآن أتيت! ولكن ما العمل الآن؟

ثمَّ ردت تقول طائشةَ العقل وهي تعانقهُ من جديد.

ـ معاً، معاً! سوف أذهب معك إلى الأشغال الشَّاقة أصابت هذه الكلمات قلبه، وعادت تظهر على شفتيه تلك الابتسامة نفسها التي تشتملُ على كرهٍ، وتكاد

تشتمل على تعالٍ وكبرياء.

ربَّما كنت يا سونيا لا أحبُّ أن اذهب إلى الأشغالِ الشَّاقةِ، ألقت عليهِ نظرةً سريعةً، وبعد العاطفة الأولى التي غزت نفسها، وهي عاطفةُ شفقةٍ حارَّةٍ ألمَّت نحو الإنسان الشقيِّ المعذَّب، عادت تستولي عليها فكرة القتل الرَّهيبةِ المروِّعة. أن لهجة كلماته الأخيرة، وهي لهجةٌ تبدَّلت على حين فجأةٍ، قد أرتها فيه صورةَ القاتل السَّفاح، ونظرت إليه مدهوشةً، كانت لا تعرف، بعد، شيئاً. كانت لا تعرف لماذا حدث هذا أو كيف حدث، والآن تتبجسُ هذه الأسئلة جميعها في شعورها دفعةً واحدةً، ومرَّةً أخرى عادت تشكُّ: "أيكون هو قاتلاً؟ مستحيل .... مستحيل!" ثمَّ قالت وقد بلغت ذروة الدَّهشة والذُّهول، كأنَّها لم تعد إلى رشدها:

ولكن ما هذا؟ أين أنا؟ كيف، كيف أمكنك وأنت ما أنت .... أن تعزم أمرك على تلك الفعلة؟ لماذا؟

أجاب بلهجةٍ مرهقةٍ، وكأنَّها ملتاعة:

يعني ..... لأسرق. كفى يا سونيا!

ظلت متجمِّدةً لهنيهة، ولكنها هتفت فجأةً:

كنت جائعاً! فعلت ما فعلت لتساعد أمك، أليس كذلك؟

تمتم وهو يشيحُ بوجهه، ويخفض رأسهُ:

لا يا سونيا، لا... لم أكن جائعاً إلى ذلك الحد، الواقع أنني كنت أريد أن أساعد أمي.... ولكن... هذا أيضاً ليس صحيحاً كما يجب.... لا تعذبيني يا سونيا.

ضمت سونيا يديها إلى بعضها. وقالت:

ولكن هل يمكن، هل يمكن أن يكون هذا كلَّهُ صحيحاً؟ ربَّاه! أهذه هي الحقيقة؟ من ذا الذي يمكن أن يصدِّقها؟ وكيف، كيف يعقل أن تقتل لتسرق، أنت الذي تعطي آخر ما يملك؟

ثمَّ ردت فجأةً:

وذلك المال الذي قدَّمتهُ إلى كاترينا إيفانوفنا ..... وذلك المال..... يا رب! هل يمكن أن يكون ذلك المال أيضاً.......

قاطعها راسكولنيكوف مسرعاً:

لا يا سونيا... ذلك المال ليس هذا الفعل مصدرهُ.... اطمئني! ذلك المال إنَّما أرسلته إليَّ أمي بواسطة تاجرٍ، وقد استلمته في أثناء مرضي، في ذلك اليوم نفسه الذي أعطيته لأمك ... رازوميخين يعرف هذا ..... هو الذي قبضه نيابةً عني..... كان ذلك المال مالي أنا، مالي أنا حقاً.

كانت سونيا تصغي إليهِ حائرةً، جاهدةً بكلِّ قواها أن تفهم، وتابع راسكولنيكوف كلامه بصوتٍ خافتٍ، وهيئةٍ حالمةٍ:

أما المال الآخر.... لا علم لي بهِ، لقد انتزعت من عنقها .... محفظة نقودٍ جلديَّةٍ.... ملأى، محشوَّة، لكني لم افتحها..... لعلَّ وقتي لم يتسع لفتحها.... أما الأشياء الأخرى... أزرار الأكمام وسلاسل الذَّهب فقد أخذتها مع محفظة النقود في آن واحد، ومضيت ادفن ذلك كلَّهُ في فناءِ منزلٍ بشارع ف..... ودفنتها تحت صخرةٍ..... في الصَّباحِ التالي وما يزال كلُّ شيءٍ هناك .....

كانت سونيا تصغي بانتباهٍ.

ولكن كيف تقول أنَّك قتلت "لتسرق"، بينما لم تستولِ على شيء؟

طرحت سونيا هذا الكلام بسرعةٍ بالغةٍ، محاولةً أن تتشبَّثَ بهذه القشَّة.

ردَّ راسكولنيكوف شاردَ الذِّهن:

لا ادري..... إنني لم أقرر بعد أاستولي على ذلك المال أم لا.....

ثمَّ أضاف فجأةً وكأنَّه قد عاد إلى وعيه، بينما ظهرت على شفتيهِ ابتسامةٌ سريعةٌ هزيلةٌ:

يا له من سخف، هذا الكلام الذي قلته الآن، هه؟

وومضت في ذهن سونيا فكرةً: "ألا يمكنُ أن يكون مجنوناً"، ولكنَّها

سـارعت تنبـذُ تلـك الفكـرة. لا ، أن في الأمـر شـيئاً آخـر ، لكنَّهـا لا تفهمـهُ ، لا تفهمهُ البتة.

قال راسكولنوف بغتةً بما يشبه الإلهام:

هل تعلمين يا سونيا ماذا سأقول لك الآن؟

وأردف مشدِّداً على كلِّ كلمةٍ من كلامه ، ملقياً نظراتً لغزيَّةً رقم صدقها :

لو أنني لم اقتلها إلا بدافع الجوع ، فلربَّما كنت الآن ....... سعيداً! اعلمي هذا!

وهتف بعد لحظة بشيءٍ من اليأس في صوته:

ولكن فيم يعنيك أن اعترف بأنني أخطأت؟ فيم يفيدك أن تنتصري عليَّ هذا النَّصر الأحمق؟ آه يا سونيا ..... أمن أجل هذا سعيت إليك؟!

أرادت سونيا مرَّةً أخرى أن تقول شيئاً ، ولكنها لزمت الصَّمت.

أردف راسكولنيكوف:

إذا كنت ناديتك أمس فلأنَّه لم يبق لديَّ أحدٌ غيرك.

سألته سونيا : ناديتني إلى أين؟

ما ناديتك لتقتلي أو تسرقي. اطمئني. ما ناديتك من أجل هذا (كذلك كرَّرَ وهو يبتسم ابتسامةً مرَّة) ، فنحن يختلفُ أحدنا عن الآخر اختلافاً عميقاً ، هل تعلمين يا سونيا أنني لم أريدك إلا الآن ، إلى أين ناديتك أمس ، حين ناديتك أمس ، لم أكن اعرف إلى أين ناديتك ، والحقيقة أنني ناديتك لتحقيق هدفٍ واحدٍ ، الحقيقة أنني سعيت إليكِ لغرضٍ واحدٍ : هو ألا تتركيني ، قولي: أترضين ألا تتركيني يا سونيا؟

شدَّت سونيا على يديه.

وهتف راسكولنيكوف بعد دقيقةٍ ، وقد بلغ غاية اليأس:

لماذا ، لماذا ذكرتِ لها الأمر؟ لماذا كشفتِ لها عن الحقيقة؟

قال ذلك ونظر إليها شاعراً بعذابٍ لا نهاية له ، وتابع كلامه:

هاأنتِ ذي تنتظرين هذه الشُّروح والتفسيرات ، إنني أرى ذلك ، ولكن ما

عساني قائلاً لك؟ إنَّكِ لن تفهمي من الأمر شيئاً، ولن تزيدي على أن تتألمي بسببي! وأنت الآن تبكين، وتعانقيني من جديد، لماذا تعانقيني؟ الأنَّني لم أستطع أن أتحمل التَّعب، فجئت أتخفف منهُ بإلقائه على غيري. "تألمي، تألمي أنت أيضاً، فذلك يخفف عني أنا" ذلك هو لسانُ حالي، افتستطيعين أن تحبي وغداً كهذا الوغد؟

هتفت سونيا تسأل:

ولكن ألست تتألم أنت أيضاً؟

ومرَّةً أخرى غمرتهُ تلك العاطفة نفسها، فرقَّ قلبهُ لحظةً، وقال:

سونيا، إنَّ لي قلباً شريداً، انتبهي إلى هذا، فيضيءُ لك أموراً كثيرةً، ولأنني شريرٌ إنَّما جئتك أيضاً، هناك أشخاصٌ كان يمكن ألا يجيئوا أما أنا جبان ... وغرٌّ!.... ولكنَّ .... الأخير!... ليس هذا هو الأمرُ الهامُّ وإنَّما عليَّ الآن أن أتكلم، ولست ادري بمَ أبداً.

- هيه! نحن يختلفُ أحدنا الآخر اختلافاً تاماً! يستحيل أن نتفاهم! لماذا، لماذا جئت؟ لن اغفر هذا لنفسي أبداً!

صاحت سونيا:

بل إنَّكَ أحسنت إذ جئت! الأفضل أن أعرف! ذلك أفضل كثيراً.

نظر إليها راسكولينيكوف بوجعٍ، ثمَّ قال كمن يتابع فكرةً:

نعم، هكذا جرت الأمور، هكذا جرت فعلاً. اسمعي كيف جرت: أردت أن أصبح نابليون، ومن اجل ذلك قتلت، هل فهمت الآن؟ دمدمت سونيا بصوتٍ خجولٍ، وسذاجةٍ نادرةٍ:

لا.....لا.... ولكن تكلَّم، تكلَّم، فسوف أفهم، سوف أفهم كلَّ شيءٍ في أعماقِ نفسي....

بذلك طالبته سونيا ضارعةً متوسلةً.

قال راسكولنيكوف:

سوف تفهمين؟ طيب ..... سنرى.

وصمت، وفكّر ملياً. ثمَّ قال:

إليك الأمر! لقد ألقيت على نفسي في ذات يوم هذا السؤال: ما عسى كان يحدث لو أن نابليون مثلاً قد وُجِدَ في مكاني، ولم يكن أمامهُ في بداية حياة المجد شيءً حققهُ لا طولون، ولا مصر، ولا ممر مونبلان، وإنَّما كان أمامهُ، بدلاً من كلِّ هذهِ الأشياءِ العظيمة الفخمة الضَّخمة عجوزٌ حقيرةٌ شريرةٌ تافهةٌ مرابية، يجب أن يقتلها ليستولي على المال الذي تخبئهُ في صندوقها، في سبيل تحقيق رسالتهِ طبعاً، أتفهمين؟ نعم، أكان يسرج خيوله إذا لم يعرض له أيُّ شيءٍ آخر، أما كان سيشعر بشيءٍ من الحياء والخجل لأن فعلاً كهذا خالهُ حقّاً من الفخامة والضخامة.... تأهيل عن الخطيئة؟ أؤكد لكِ أن هذا "السؤال" قد قضَّ مضجعي مدَّةً مديدةً، إلى أن أدركت أخيراً "بغتةً" وقد أشعرني هذا الإدراك بالخزي، أن نابليون ما كان له أن يحسَّ بأيسر خجلٍ من هذا الفعل، بل وما كان ليخطر ببالهِ في أيَّةِ لحظةٍ أنَّ هذا الفعل قد تعوزهُ العظمة والرِّفعة، بل وما كان له أن يرى ما نوع العار الذي يمكن أن يشتمل عليه هذا الفعل.... ولا شكَّ في أنَّه، إذا لم يعرض له أيُّ حلٍ آخر، كان سيقتل العجوز دون تردُّدٍ ودون تفكيرٍ، هكذا خرجت أنا من التردد بين الإقدام والإحجام، فقتلت... مقتدياً بذلك الرَّجل الذي هو "حجَّة". نعم، على ذلك النحو جرت الأمور، أيبدو لم هذا سخيفاً مضحكاً؟ نعم، سونيا، لعلَّ أسخف ما في هذهِ القضيَّة أن الأمور قد جرت على هذا النحوِ فعلاً! ولكن سونيا لم ترَ في هذا كلَّهُ شيئاً سخيفاً مضحكاً، وها هي ذي تسألهُ بصوتٍ فيه الكثير من الخجل والوجل، بصوتٍ يكادُ لا يسمع:

- بل حدثني.... رأساً.... مباشرةً .... دون أن تضرب أمثلة! فالتفت راسكولنيكوف نحوها، ونظر إليها بحزن، وتناول يديها، ثمَّ قال لها:

أنت مصيبة سونيا، ما ذلك الغباء والثَّرثرة! فاسمعي: أنت تعرفين أنَّ أمي

كانت قد أصبحت بلا موردٍ تقريباً، وأختي التي نالت قسطاً طيِّباً من التَّعليم بالصدفة اضطرت أن تعيش عاملةً كمربية، وكنت أنا أملهم الوحيد، وكنت اتمم دراستي، لكنني وقد أصبحت لا استطيع سدَّ حاجاتي اضطررتُ أن أترك الجَّامعة، وهبيني كنت سأستطيع المتابعة بعد عشر سنينٍ أو اثنتي عشرة سنة (في أحسن الظنون) فكلُّ ما كان يجوز لي أن آملهُ هو أن أصبح أستاذاً أو موظفاً يتقاضى راتباً سنوياً قدرهُ ألف روبل (كان راسكولنكوف كمن يلقي درساً محفوظاً) وفي أثناء ذلك تكون أمي قد إذابتها الهموم والأحزان، ولا أكون قد ظفرت حتى بتأمين الطمأنينة لها، أما أختي فيكون قد جرى لها أسوأ من ذلك أيضاً، ولماذا أُخفِقُ في حياتي هذا الإخفاق، وأمرُّ بكلِّ شيءٍ مروراً عابراً، وأنسى أمي واحتمل الإهانات التي تنزل بأختي؟ لماذا؟ في أيِّ غايةٍ؟ في سبيل أن أبني أسرةً جديدةً بعد أن أدفن أمي وأختي، فتكون لي زوجةً وأولاد، ثمَّ اتركهم هم أيضاً بلا مالٍ، بلا لقمة خبزٍ؟ لذلك قررتُ أن أوقفَ المال الذي سأستولي عليه من العجوز على دراستي، وعلى خطواتي الأولى في الحياة عند التخرُّجِ من الجامعة (فأوفِّر معاناة أمي)، وكنت أريد أن أفعل كلَّ شيءٍ بمقياسٍ ضخمٍ، أن أفعل كلَّ شيءٍ بطريقةٍ جذريةٍ، فأدخل حياةً جديدةً، واضمن لنفسي وضعاً مستقلاً بمعنى الكلمة.... هذا كلُّ شيءٍ!.....

ولقد أسأت صنعاً إذا قتلت العجوزَ طبعاً. ولكن هيا، كفى هذا! أتمَّ راسكولنيكوف شروحهُ بمشقَّةٍ وعناءٍ شديدين، فبدا مرهقاً، خافضاً رأسهُ.

صاحت سونيا بحزن:

لا، ليس هذا هو الأمر، ليس هذا هو الأمر، لا، هل هذا معقول؟.... ليس هذا، ليس هذا...........

أرأيت؟ تقولين بنفسك أن الأمر هو هذا، ومع ذلك فقد قلت لك كلَّ شيءٍ، وحدَّثتك صادقاً مخلصاً، تلك هي الحقيقة!

ولكن أيَّةُ حقيقةٍ هنا؟ ربَّاه!.....

أنني لم أقتل إلا قملةً يا سونيا، قملةً قذرةً، لا فائدة وراءها، ضارَّةً، سيئةً ومسيئةً!

أتقول قملةً وهي مخلوقةٌ إنسانيَّةٌ؟

أجاب راسكولنيكوف وهو يلقي على سونيا نظرةً غريبةً:

ولكني اعرف أنَّها ليست قملة!

ثمَّ أضاف:

ثمَّ أنني أكذب يا سونيا، أنني أكذب مذ ما بدأنا الحديث، أيضاً ليس هذا هو الأمر! أنت على حقٍّ لقد كان لفعلتي بواعثُ غير هذه البواعث، سواها بوضوح، أنني لم اكلِّم أحداً منذ فترةٍ غير قصيرةٍ، يا سونيا..... أنا اشعرُ الآن بصداعٍ شديدٍ.

كانت عينا راسكولنيكوف تحترقان بحرارةٍ محمومةٍ، كان كمن يهذي، وكانت تطوف بشفتيه ابتسامةٌ قلقةٌ، ومن خلال اهتياجهِ، كان يتبدى إعياءٌ رهيبٌ. أدركت سونيا مدى ما كان يقاسي من عذاب، واخذ الدُّوار يستولي عليها أيضاً، ثمَّ أنَّه كان يتكلَّم بطريقةٍ غريبةٍ جداًّ: صحيحٌ أن المرء يستطيعُ أن يستخرج من كلامه بعض الأشياء المفهومة، ولكن: "كيف؟ كيف؟ يا رب!" ولوت سونيا يديها حزناً ويأساً.

واستأنف راسكولنيكوف كلامهُ، وهو يرفع رأسهُ فجأةً كأن أفكاره قد جرت في مجرى آخر على حين بغتةٍ، فصدمته وأيقظت نشاطهُ، فقال:

- لا يا سونيا، ليس هذا هو الأمر، ليس هو هذا ..... وإنَّما عليكِ أن تفترضي (نعم افترضي هذا، فهو صحيح) إنني إنسانٌ غيور، حسودٌ، منحطٌ، شريرٌ، حقودٌ، يحبُّ الانتقام، مهيأٌ.... للجنون (أقول كل هذا دفعةً واحدةً ما دمت بدأت، وفيما يتعلَّق بالجنون فقد سبق أنا قالوا هذا وأنا لاحظت ....) لقد ذكرت لك منذ هنيهةٍ أن مواردي كانت لا تتيح لي البقاء في الجامعة، ولكن هل تعلمين أنني ربَّما كان يمكنني مع ذلك أن أتابع دراستي؟ كان يمكن أن

ترسل لي أمي ما احتاج، كان يمكنني أيضاً أن أجني بالعمل ما يكفيني طعاماً وكسوةً وحذاءً، لا شكَّ في أنني كنت استطيع هذا، كان يمكنني أن أعطي دروساً، فأنقض خمسين كوبيكاً أجراً عن كلِّ درس، وهذا رازوميخين! لقد كان يجني من العمل رزقاً طيباً! ولكني شعرت بسخطٍ ورفضت أن اعمل، نعم شعرتُ بسخطٍ (هذه هي الكلمة الصحيحة) فلبدت في ركني كما يلبد عنكبوت، لقد جئتُ إلى مسكني الحقير فرأيته، ولكن هل تعلمين يا سونيا أن السقوف الواطئة والغرف المتلاصقة تخنق النفس والفكر؟ آه ..... لشُدَّ ما كنت اكرهُ ذلك المسكن الحقير! ومع ذلك كنت لا أريد أن أتركه، عن عمدٍ، إنَّما كنت لا أريد أن أتركه، كنت أقضي فيه أياماً كاملةً، لا أريد أن أعمل، بل وحتى لا أريد أن آكل، كنت أظلُّ راقداً طوال الوقت، فإن جاءتني ناستاسيا بطعامٍ أكلته، وإن لم تجيء بشيءٍ أبقى على لحم بطني لا أطالب بطعامٍ، غضباً وحنقاً، حتى إذا وافانا الليل بقيت في ظلامٍ دامسٍ لأنني لا أملك ما استضيء به، كنت أوثِرُ أن أبقى في تلك الظلمة على أن أعمل لأكسبَ ثمن شمعةٍ، وبعت كتبي بدلاً من أن أدرس، ودفاتري على المائدة غطتها طبقةٌ من الغبار بسماكةِ إصبع، وما يزال هذا الغبار رابضاً إلى الآن، كنت أفضِّلُ أن أبقى راقداً أفكِّرُ وأتأمَّلُ، كنت لا أزيد على أن أفكِّرَ وأن استرسل في الأحلام، لا داعي إلى القول أن تلك الأحلام كانت غريبةً عجيبةً، وكانت متبدِّلةً! ولكن بدأ يبدو لي عندئذٍ أن.... لا، لا، ليس هذا هو الأمر! إنني لا أحكي الأشياء كما حدثت، الواقع أنني كنت لا أنفكُّ أتساءل حينذاك، لعلمي أنَّ النَّاس أغبياءٌ، لماذا أنا غبيٌّ مثلهم لا أحاول أن أكون أذكى منهم، فلا بدَّ من إضافة وقتٍ طويلٍ، ثمَّ رأيت أن هذا لن يكون أبداً، فالنَّاس لن يتغيروا في يومٍ، وما من أحدٍ يجوز أن يغيرهم، فلا داعي لإضاعة الوقت في هذا الهدف. نعم، تلك هي حالهم، وذلك هو قانونهم..... نعم.... القانون يا سونيا، القانون.... وأنني لأعلم الآن يا سونيا أن من كان قويَّ

الشكيمة والعقل، فذلك هو سيِّدَهُم، ذلك هو مولاهم! من كان يملك جرأةً واسعةً، فذلك هو الذي له الغلبة عليهم! من كان يبصقُ أكثر على الأشياء أكثر من غيره، فذلك هو المشرِّع! من كان يتمتَّعُ بأكبر جسارةٍ، فذلك هو الذي يهبونه كلَّ الحقوق! هذا ما كان من قديم الزَّمان، وهذا سيبقى إلى أخر الدَّهر! الأعمى وحدهُ لا يبصر هذه الحقيقة! لم يهتم راسكولنيكوف بأن يعرف أكانت سونيا تفهمه، أم لا، رغم أنَّه كان لا ينفكُّ ينظر إليها ما دام يتكلَّم، لقد تلبَّسته الحمى، ونوعٌ من اهتياجٍ قاتمٍ (حقاً، أنَّه لم يتحدث إلى أي إنسانٍ منذ أمدٍ بعيدٍ) وأدركت سونيا أن هذه التعاليم الكالحة أصبحت إيمانهُ وقانونهُ.

وتابع راسكولنيكوف بحماسٍ:

- لقد أحسست يا سونيا أن السُّلطة لا توهَبُ إلا لمن يجرؤ على أن يطأطئ ليتناولها. تكفي الجرأة: الجرأة كل شيء! ووافتني عندئذ، لأول مرة في حياتي، فكرة لا شكَّ أنَّها لم تخطر ببال أحدٍ حتى الآن، لقد بدا لي واضحاً وضوح النهار، بغتةً، أن ما من أحدٍ قد تجرأ ولم يتجرأ، حين رأى "بطل العالم"، أن يمسك الشيطان من ذيله ببساطة، ويرشقهُ إلى جهنم! أما أنا، أما أنا..... فقد أردت أن أجرؤ فقتلت! أنني حين قتلت، لم أرد يا سونيا إلا أن أجرؤ! ذلك هو السَّبب الذي جعلني أقتل!

صاحت سونيا متوسلةً وتضمُّ يديها:

- أُسكت، أُسكت! لقد ابتعدتُ عن الله، فضربك الله وسلَّمك لإبليس .....

قولي لي يا سونيا: حين كنت أبقى راقداً في ظلام غرفتي، أجترُّ أنواع الخواطر والأفكار، فهل كان إبليس هو الذي يغويني حينذاك! قولي!

- أُسكت! لا تضحك أيُّها المجدف! إنَّكَ لا تفهم شيئاً! ربَّاه! أنَّهُ لا يفهم شيئاً!

- أُسكتي سونيا، أنا لا أضحك البتة، أنا نفسي أعلم أنَّ إبليس هو الذي كان يجرُّني ...

قال راسكولنيكوف هذا ثمَّ عاد يردِّدُ بإلحاحٍ عابسٍ حزينٍ:

- أُسكتي يا سونيا ، أُسكتي! أنا اعلم كلَّ شيءٍ! لقد قبلت الأمر بعقلي مراراً ، وهمست لنفسي بهذا كلِّهُ في أثناء اضطجاعي في الظلام .... لقد ناقشت هذا كلَّهُ في قرارةِ نفسي قبل الآن بأدقِّ التفاصيل! أنا اعلم كلَّ شيءٍ، كلَّ شيءٍ! وهذه الثَّرثرة قد بلغت من إتراعِ نفسي بالسأمِ والضَّجر أنني أردت أن أنسى، وأن استأنف حياةً جديدةً يا سونيا ، وأن أكفَّ عن الثَّرثرة ، هل تظنين حقاً أنني قد اندفعت إلى ذلك الأمر ، منكس الرأس كإنسانٍ أبله؟ إنَّ العقل هو الذي كان يقودني، وذلك بعينه هو ما ضيَّعُني! أيمكن حقاً أن تظنيني أنني كنت أجهل مثلاً أنَّ مجرد إلقائي هذا السؤال: "هل لي حقٌّ في السُّلطةِ أم لا؟" كان يبرهن على أنني لا أملك ذلك الحق؟ أوهل تظنين أنني كنت أجهل أنَّ إلقائي هذا السؤال: "هل الإنسان قملة؟" إنَّما يعني في الواقع أن الإنسان ليس قملةً في نظري أنا ، وأنَّه ليس قملةً إلا في نظر من لم يخطر بباله يوماً أن يلقي على نفسه ذلك السؤال، وإنما هو يمضي إلى هدفهِ قدماً لا يلوي على شيءٍ؟ لئن ظللت أعذِّبُ نفسي طوالَ تلك الأيام كلِّها بالتساؤل عن نابليون: أكان يقتل العجوز أم لا ، فإنَّ معنى ذلك أنني كنت أشعُرُ بوضوحٍ أنني لست نابليون، ذلك هو العذاب الذي عانيتهُ يا سونيا ، والذي أردت أن أتخلَّصُ منه وحدهُ، لقد أردت يا سونيا أن أقتل من دون مناقشةٍ منطقيَّةٍ سفسطائيَّةٍ، أردت أن أقتل لنفسي، لنفسي أنا وحدي! أنني حين فعلت ما فعلت لم أشأ حتى أن أكذب على نفسي: أنني لم أقتل لكي أساعد أمي! لا !لا! لا ولا في سبيل أن أصبح محسناً إلى الإنسانيَّة بعد أن أملك وسائل الإحسان إليها. لا ، وإنَّما أنا قتلت لنفسي، لنفسي وحدي! وفي تلك اللحظة لم يكن يعنيني كثيراً أن أعرف هل سأصبح واحداً من المحسنين للإنسانيَّة ، أم أنني سوف أقضي حياتي كالعنكبوت، أصطاد غيري في نسيجِ خيوطي وامتصُّ قواهُ الحيَّة! لا ولا كان المال هو ما أحتاج إليه حاجةً ماسةً ... وإنَّما كان احتياجي إلى شيءٍ آخر.... أنا

أعرف هذا الآن! إفهمي يا سونيا: لو كان عليَّ أن أعيد السَّيرَ في هذا الطريق نفسه، فقد لا أقتل، غير أن هناك شيئاً كان يغريني بمعرفته، كان هناك شيءٌ يرفع ذراعي، كان عليَّ أن أعرف عندئذٍ، بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ، أأنا قملةٌ كسائرِ النَّاس، أم أنا إنسان، أأنا أستطيع أن أتخطى الحاجز، أم أنا لن استطيع ذلك، أأنا أجرؤ أن أطأطئ فأتناول هذه القدرة، أم أنا لن أجرؤ، أأنا مخلوقٌ مرتعشٌ أم أنا أملك الحق .....

الحقَّ في القتل؟ تملك الحقَّ في الحق؟

كذلك قالت سونيا وهي تضمُّ يديها أحداهما إلى الأخرى.

صاح راسكولنيكوف مهتاجاً يريد الاعتراض عليها:

هيه! سونيا.....

ولكنَّه عدل عن ذلك، ولزم صمتاً فيه احتقار. ثمَّ أردف:

لا تقاطعيني يا سونيا! لقد أردت أن أبرهن لك على شيءٍ واحدٍ: هو أن إبليس قد جرَّني في أوَّلِ الأمر، ثمَّ لم يفهمني إلى بعد ذلك أنني لم يكن من حقي أن اقترف الفعل الذي اقترفته، لأنني أنا نفسي قملةٌ كسائر النَّاس.

لقد سخر مني وهزأ بي، ولهذا السبب إنَّما جئتُ إليكِ الآن، فأحسني وفادة ضيفك يا سونيا! أكنت أجيئك لولا أنني قملة؟ اسمع: أنني حين ذهبت إلى العجوز لم أكن أريد إلا أن أحاول تجربةً..... فاعلمي هذا!

وقتلت! قتلتها! ......

إنما كيف قتلت؟ أهكذا يتدبر المرء الأمور من أجل أن يقتل؟ سأروي لك في ذات يوم كيف ذهبت إلى هناك.... هل العجوز قتلت؟ لا بل أنا قتلت نفسي! لقد أجهزت على نفسي، دفعةً واحدةً، والى الأبد! أما العجوز فإن إبليس هو الذي قتلها لا أنا!

كذلك ردَّ راسكولنيكوف ثمَّ صاح فجأةً وقد أصبح فريسة قلقٍ لا يغالب:

كفى كفى يا سونيا، دعيني! دعيني!

وضع كوعيه على ركبتيه، وشدَّ رأسه بين يديه ككمَّاشة، بلغت سونيا قمَّة الاضطراب والألم، فأفلت من لسانها قولها:

ما أشدَّ وجعك وعذابك!

فسألها وهو يرفع رأسه منقلب الهيئة من شدَّةِ الكَّرب واليأس:

وما العمل الآن؟ قولي.....

صاحت وهي تندفع من مكانها وقد سطعت عيناها فجأةً بعد أن كانتا حتى ذلك الحين ممتلئين بالدموع:

ما العمل؟

ثمَّ أضافت وهي تمسكهُ من كتفه، فينهض هو من مكانه ويرمقها بما يشبه الذُّهول والدَّهشة:

إذهب فوراً، في هذه اللحظة، إلى مفرق طرق، فاسجد على الأرض أولاً، وقبلها هي التي دنستها، واتجه إلى أربع زوايا الكون، ثمَّ ارفع صوتك عالياً قوياً أمام جميع الناس: "لقد قتلت أنا!" عندئذٍ سيردُّ إليك الإله الحياة، أتذهب؟ أتذهب؟

كذلك سألته مرتعشةً من رأسها إلى قدميها، كأنَّ نوبةً عصبيةً قد ألَّمت بها وأمسكت يديه، فضغطتهما بيديها ضغطاً قوياً، وتأملته بنظرةٍ حارةٍ.

ذهل راسكولنيكوف ذهولاً شديداً حتى كاد يصعق من هذه الحماسة المفاجئة، وسألها مكمد الوجه:

أتريدين إذاً أن أذهب إلى الأشغال الشَّاقة يا سونيا؟ يجب أن أشي بنفسي، أليس كذلك؟

الشيء الذي يجب أن تفعله هو أن تقبل الألم، فتُكفِّرَ عن جريرتك، وتفدي نفسك. ذلك ما يجب!

لا لن أذهب إليها يا سونيا!

صاحت:

فكيف يكون بوسعك أن تحيا إذاً؟ كيف يكون في وسعك أن تحيا؟ أما يزال هذا ممكناً؟ عجيب! كيف يكون في إمكانك أن تظلَّ تكلِّم أُمَّك؟ آه.... (ما عسى تصيران إليه كلتاهما؟) ولكن ماذا أقول؟

لقد تركت أُمَّك وأختك وانتهى الأمر! لقد تركتهما، تركتمها! آهٍ.... يا رب! إذاً أنت تدرك هذا بنفسك! نعم، كيف يمكن أن تعيش بعيداً عن البشر؟ ما عسى تصير إليه الآن؟

ردَّ راسكولنيكوف بهدوءٍ ورفقٍ:

- أخرجي من طفولتك سونيا! ما ذنبي في حقهم؟ لماذا أشي بنفسي إليهم؟ ماذا عساني قائلاً لهم؟ ليس هذا كلَّهُ إلا سراباً.... هم أنفسهم يقتلون ملايين الناس، ثمَّ يستمدون من ذلك مجداً! هم أوغادٌ جبناءٌ يا سونيا! لا، لن اذهب! ثمَّ ماذا أقول لهم؟ أأقول لهم أنني قتلت لكني لم أجرؤ أن خذ المال وإنَّما خبأته تحت صخرة؟ (كذلك أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامةً ساخرةً). ولكنَّهم سيضحكون عندئذٍ عليَّ، وسيعتبرونني رجلاً أبلهاً وجباناً! لن يفهموا شيئاً يا سونيا، لن يفهموا شيئاً، أنَّهم غير جديرين بأن يفهموا شيئاً.... فلماذا أذهب إليهم فأسلمهم نفسي؟ لا، لن اذهب! لا تكوني طفلةً يا سونيا!

قالت سونيا مردِّدةً، متوسلةً، مادةً نحوهُ يديها:

لن تكون حياتك بعد الآن إلا عذاباً متصلاً طويلاً، عذاباً متصلاً طويلاً! قال راسكولنيكوف مكفهرَّ الوجه، شارد الذِّهن:

لعلِّي ظلمت نفسي، لعلِّي مازلت إنساناً لا قملةً، لعلِّي تسرَّعتُ في اتهام نفسي.... سوف أكافحُ وأُجالدُ أيضاً.

وظهرت على شفتيه ابتسامة فيها تعالٍ وكبرياء.

قالت سونيا:

- أتحمِلُ ثقلاً كهذا؟ طوال حياتك ما حييت؟

أجاب راسكولنيكوف كالح الهيئة، شارد اللبِّ:

سوف اعتاد هذا!

ثمَّ أضاف بعد دقيقةٍ:

- اسمعي! كفى بكاءً! آن لي أن أصل من هذا كلَّهُ إلى أن أذكر لك الواقع كلَّهُ، لقد جئت لأقول لكِ أنني ملاحق، أنني مطارد!....

صرخت مروَّعة:

آهٍ.....

فردَّ عليها:

لماذا تصرخين؟ ألم تريدي أنت نفسك أن أذهب إلى الأشغال الشَّاقة؟ فما بالك تخافين الآن؟ على أنني لن استسلم لهم، لن أدع لهم أن يقبضوا عليَّ! سأظلُّ أقارعهم، ولن يستطيعوا أن يفعلوا بي شيئاً! إنَّهم لا يملكون قرائن واقعيةً، لقد تعرضت أمس لخطرٍ كبيرٍ، فحسبت أنني هلكت، ولكن يبدو أن الأمور قد سويت اليوم، إنَّ كلَّ دليلٍ من أدلتهم، أعني أن في وسعي أن أقلب كل تلك القرائن فأجعلهُ لي ليس عليَّ، أتفهمين؟ وسأفعل ذلك .... لأنني أصبحت الآن خبيراً بمهنتهم! لكنهم سيسجنوني حتماً! ولولا أن حادثاً قد وقع صدفة فلربَّما أودعوني السِّجنَ منذُ اليوم، وما يزال من الجائرِ جدَّاً أن أُسجنَ اليوم، ولكن لا خير يا سونيا! سأقضي في السجن بعض الوقت ثمَّ يطلق سراحي....

لأنَّهم لا يملكون، ولن يملكوا سنداً حقيقياً واحداً، أؤكِّدُ لك هذا! أن الأدلَّةَ التي بأيديهم لا تكفي لأن "تلطِّخَ" إنسان! ولكن كفى كلاماً الآن! أنا إنَّما قلت لك هذا كلَّهُ لا لشيءٍ إلا أن تعلمي..... أما أُمي وأختي، فسأحاول بطريقةٍ أو بأخرى أن أهدئَ روعيهما وأن أطمئنها، إنَّ أختي تبدو الآن في منجى من الفاقة، وكذلك أمي إذاً .... هذا كلُّ ما كنت أريد أن أقوله لك، ثمَّ عليكِ بالحذر! هل تزوريني حين أودع السِّجن؟

سوف أزورك، سأزورك!

كانا جالسين أحدهما إلى جانب الآخر، حزينين مهدمين كغريبين وجد كلٌّ

منهما الآخر على شاطئٍ مقفرٍ بعد عاصفةٍ.

كان راسكولنيكوف ينظر إلى سونيا وهو يشعر شعوراً واضحاً بالحبِّ الذي تغمره به، ومن الغريب أنَّه شَقَ على نفسه بل آلم نفسه فجأةً أن يحسَّ بأنَّه محبوبٌ إلى هذا الحد. آه! كم كان هذا الشعورُ غامضاً ورهيباً!

حين ذهب إلى سونيا كان قد شعر بأنَّها أملهُ الوحيد، وبأنَّها ملاذه الوحيد، وكان يأمل أن يتخلَّصَ عندها من جزءٍ من حمله على الأقل، ولكن ها هو ذا الآن يحسُّ ويدركُ فجأةً، في حين مال قلبها كلُّهُ إليه، أنَّه أشقى مما كان من قبل. قال:

سونيا، الأفضل ألا تجيئي إلى السجن.

لم تُجب، كانت تبكي، انقضت عدَّةُ دقائقٍ، فإذا بها تسأله على غير توقُعٍ، كأنَّها تذكرت شيئاً ما بغتةً:

هل معك صليب؟

لم يفهم السؤال لأول لحظةٍ.

قالت:

لا، ليس معك صليب، أليس كذلك؟ خذ، إليك هذا الصليب، إنَّه من خشب السرو. معي صليب آخر، صليب من نحاسي، بقي لي من اليوافيتا، لقد قمنا بمبادلة، أنا وإليزافيتا: أعطتني صليبها، وأعطيتها أنا أيقونتي الصغيرة. سأحمل الآن صليب إليزافيتا، وستحمل أنت هذا الصليب. خذه.... أنَّه صليبي أنا! صليبي أنا! سنتألَّمُ معاً، فلنحمل إذاً صليبنا معاً!

قال راسكولنيكوف:

هاتي! —لم يشأ أن يسيء إليها.

ولكنَّه لم يلبث أن سحب يده.

ثم أضاف ليهدئها:

لا الآن يا سونيا! فيما بعد! ذلك أفضل!

فردَّدت بحماسٍ:

نعم، نعم، ذلك أفضل، أفضل! سوف تضع الصَّليب في عنقك حين تسافر للتكفير، تجيء إليَّ، فأضعهُ في عنقك، ونصلي معاً، ونسافر معاً....

في تلك اللحظة نُقِرَ البابُ ثلاث نقرات، ونادى صوتٌ مهذبٌ مألوفٌ يسأل:

- هل استطيع ان أدخل يا صوفيا سيميونوفنا؟

فاندفعت سونيا نحو الباب مذعورةً، وظهر في فرجة الباب رأس ليبزياتينكوف الأشقر.

# الفصل الخامس

كان ليبزياتنيكوف مضطرب الهيئة، منقلب السحنة.

قال يكلِّم سونيا:

جئت لأراك يا سونيا سيميونوفنا.

ثمَّ هتف يخاطب راسكولنيكوف فجأةً:

معذرةً، كنت أتوقَّع أن أجدك هنا، أقصد لم يخطر ببالي شيء..... مما قد تظن، وإنَّما أنا قدرت أن.....

وعاد يكلم سونيا ناسياً وجود راسكولنيكوف فقال دفعةً واحدةً:

جُنَّت كاترينا إيفانوفنا!

أطلقت سونيا صرخةً، وتابع ليبزياتنيكوف كلامه:

أودُّ على الأقل ذلك ما يبدو، أصبحنا هناك لا ندري ماذا يجب أن نعمل، أغلب الظنِّ أنَّهم طردوها من المكان الذي ذهبت إليه، ولعلَّهم ضربوها أيضاً... أو على الأقل ذلك ما يبدو، لقد ركضت تسعى إلى رئيس سيميون زاخارتش، لم تجده في بيته: كان يتغذى... تصوروا.... ذهبت إلى بيت ذلك الجنرال الآخر.... هل تصدِّقون هذا؟ واستطاعت أن تستدعي رئيس سيميون زاخارتش. نعم، اضطرتهُ أن ينهض عن المائدة، أو على الأقل ذلك ما يبدو، وفي وسعكم أن تتخيلوا التتمة! لقد طردت طبعاً، لكنَّها تروي أنها شتمته وأنَّها رشقته بشيءٍ على رأسه. ذلك جائزٌ جداً.

حتى أنني استغرب أنَّهم لم يعتقلوها، وهي الآن تروي هذه القصَّة لكن من يريدون أن يسمعوها، ومنهم أماليا إيفانوفنا، غير أنَّ من الصَّعب أن يفهمها المرء، من فرط صراخها وتخبطها! .... آه.... نعم... هي تقول.... هي تصيح قائلةً أنَّها ما دامت قد هجرها جميع النَّاس، فستأخذ أولادها، وستمضي في الشارع تعزف على أرغن يدوي، وأن أولادها سيغنُّونَ ويرقصون، وأنَّها ستغني وترقص

هي أيضاً ، وسيطلبون الصدقات من المارَّة. وأنَّها ستقود الأولاد كلَّ يومٍ إلى منزل الجنرال، فتقفُ بهم تحت نوافذ غرفته، وهكذا "سيعرف الجنرال، على حدِّ تعبيرها ، أن أولاداً نبلاءً، أبوهم موظَّفٌ محترمٌ يستجدُّونَ أكفَّ النَّاس في الشوارع" ، وهي تضرب جميع أولادها ، والأولاد يبكون، إنَّها تعلِّم لينيا أغنية "القرية الصغيرة" وتعلِّمُ الصبيُّ الصَّغير الرَّقص، وكذلك تعلِّم الرَّقص بولينا ميخائيلوفنا ، ولقد مزَّقت جميع ملابسهم، وأخذت تخيِّط لهم طاقيات كطاقيات، أنَّها تريد أن تحمل "حشتا" تنقر عليهِ كما تنقر على آلة موسيقية. وهي ترفض أن تسمع شيئاً..... تصوروا! أيمكن أن تتركها تفعل هذا!

كان يمكن أن يستمر ليبزياتنيكوف في الكلام، ولكنَّ سونيا التي أصغت إليه وهي تتنفَّسُ بمشقَّةٍ كبرى قد تناولت خمارها وقبعتها فجأةً، واندفعت خارج الغرفة تنهي ارتداء ثيابها في الطريق، وخرج راسكولنيكوف وراءها ، وخرج ليبزياتينكوف وراء راسكولنيكوف.

قال ليبزياتيموف لراسكولنيكوف منذُ أصبحا في الشارع:

لا شكَّ في أنَّها فقدت عقلها ، لم أشأ أن أروع صوفيا سيميونوفنا ، لذلك قلت :"ذلك ما يبدو" ، ولكنَّ الواقع أنَّهُ لا يمكن أن يساورنا أيُّ شكٍّ في أنَّها فقدت عقلها. يقال أنَّ هناك درنات تنشأ في أدمغة المصابين بذات الرئة ، فورثهم الجنون، خسارة أنني لا أعرف الطِّب، على أنني حاولت إقناعها ، لكنَّها لا تريد أن تسمع شيئاً!

كلمتها عن الدَّرنات؟

لا عن الدَّرنات تماماً ، خصوصاً وأنَّها ما كان لها أن تفهم شيئاً عن الدَّرنات لو كلَّمتها عنها ، لكني أقول إننا إذا استطعنا بواسطة المنطق أن نقنع شخصاً بأنَّه لا داعي إلى البكاء، سيكفُّ فوراً عن البكاء، هذا واضح، ماذا؟ أليس من رأيك أنَّه سيكفُّ عن البكاء؟

أجاب راسكولنيكوف:

ما أسهل الحياة، إذا صدق قولك؟

اسمح لي، اسمح لي! صحيح أن كاترينا إيفانوفنا يصعب عليها أن تفهم هذا. ولكن هل تعلم أن هناك تجارب جديدة قد أجريت في باريس عن إمكان شفاء المجانين بواسطة الإقناع المنطقي وحده؟ إنَّ أستاذاً من الأساتذة هناك، وقد مات منذ مدَّةٍ قصيرةٍ، وهو عالم من أكبر العلماء، قد رأى أن في الإمكان شفاء المجانين بهذه الطريقة، والفكرة الأساسيَّة التي جاء بها هي أن المجانين ليس فيهم أيَّة آفةٍ عضويةٍ، فإنَّما الجنون ضلالٌ منطقيٌّ أن صحَّ التعبير، أي خطأ في الحكم أو فسادٍ في الرأي، لذلك أخذ العالم يدحض أقوال المريض بالتدريج، فإذا هو ينجح في شفائهِ شيئاً فشيئاً، ولكن لا بدَّ لنا أن نعترف بأنَّ نتائج المعالجة يمكن أن تكون موضع أخذٍ وردٍّ، مادام الطبيب قد استعمل في الوقت نفسه حمامات، أو ذلك ما يبدو على الأقل....

كان راسكولنيكوف قد انقطع عن الإصغاء، من أمدٍ، فلمَّا وصل أمام المنزل الذي فيه بيته، ودَّعَ ليبزياتنيكوف بإشارةٍ من رأسه، وانعطف يدخل بوابة المنزل، فتحيَّر ليبزياتنيكوف، ونظر حواليه، ثمَّ تابع طريقه.

دخل راسكولنيكوف مسكنه الحقير، وهناك وقف يتساءل:

"لماذا جئت؟" وألقى نظرة على الورق الأصفر الباهت الذي يغطي الجدران، وعلى وسط الغبار الذي يغشى كلَّ مكان، وعلى سريره، وكان يصل من فناء المنزل صوتٌ جافٌّ متَّصلٌ، كأنَّهُ يغرس مسامير.

مضى راسكولنيكوف إلى النافذة، وارتفع على رؤوس أصابع قدميه، وظلَّ يفتش فناء المنزل بانتباهٍ شديدٍ مدَّةً طويلةً، ولكنَّ الفناء كان خالياً مقفراً، ولا يرى أحداً يغرس مسامير، وعلى اليسار في جناحٍ آخر، كان ثمَّةَ نوافذ مفتوحة، ترى أفاريزها أصص أزهار، ويرى من خلالها غسيلٌ منشورٌ في الدَّاخل على حبال..... لقد كان راسكولنيكوف يعرف هذا كلَّهُ عن ظهر قلبٍ، فأشاح عنه، وعاد يجلس على سريره.

لم يشعر في يومٍ من الأيام، في يومٍ من الأيام، أنه وحيدٌ إلى هذه الدَّرجة، لقد أحسَّ من جديدٍ أنَّه قد يعود إلى كراهية سونيا، لا لشيءٍ إلا لأنَّه قد أشقاها الآن كثيراً. تساءل: "لماذا ذهبت استجديها صدقةً من دموعها؟ ما كانت حاجتي إلى تسميم حياتها؟ يالدناءة! يالدناءة!"

وقال فجأةً بلهجةٍ: سأبقى وحيداً، ولن تأتي لتراني في السِّجن، وبعد خمس دقائقٍ عاد يرفع رأسه، وابتسم ابتسامةً غريبةً، لقد وافته فكرةٌ لم تكن في الحسبان، قال يسأل نفسه: "أليس من الجَّائزِ أن تكون حالي في الأشغال الشَّاقة أفضل حقاً؟"

لم يستطع راسكولنيكوف في يوم من الأيام أن يعرف المدَّةَ التي قضاها في مسكنهِ يدير في رأسه هذا الطوفان من الأفكار المبهمة، والخواطر الغامضة، ولكنَّه يعرف أن الباب فتح فجأةً، فدخلت افدوتيا زومنوفنا، توقفت في بداية الأمر، وتأملته واقفةً في العتبة، كما تأمل هو سونيا منذ قليل، ثمَّ تقدمت وجلست على كرسيٍّ أمامه في مكان الأمس نفسه، ورمقها صامتاً بنظرةٍ ليست فيها أيَّةُ فكرةٍ.

قالت دونيا:

لا تزعل يا أخي، أنا ما جئت إلا لدقيقةٍ! كان في وجهها وقارٌ ورصانةٌ، ولكن بغيرِ تجهمٍ أو قسوةٍ، وكانت نظرتها رائعةً صافيةً، وادعةً هادئةً، فأدرك راسكولنيكوف أنَّها قد جاءت إليه هي أيضاً بحبٍّ وتابعت الأخت كلامها فقالت:

- روديا، أنا اعلم الآن كلَّ شيءٍ، كلَّ شيء!

لقد روى لي دمتري بروكوفتش كلَّ شيءٍ، وشرح لي كلَّ شيء! إنَّهم يضطهدونك بسبب شبهةٍ غبيةٍ كريهة، قال لي أنَّك غير معرَّضٍ لأيِّ خطرٍ، وقال أنَّكَ تخطئ إذ تضخِّمَ الأمور، وتأخذها مأخذ الفاجعة، ولست أشاطره رأيه، فأنا أفهم حقَّ الفهم أن ينير هذا تمردك، وأن يخلِّفَ هذا التَّمرد آثاراً في

حياتها كلِّها، وذلك ما أخشاه حقاً، ولست أحكم، فأرجوك أن تغفر لي ما وجهته إليك من لوم، أنا اشعر بأنني لو أصابني حزنٌ كحزنك لابتعدت عن جميع النَّاس كما تبتعد عنهم أنت، لن أقصَّ هذا الأمر على أُمنا، لكني لن أنفكُّ أحدثها عنك، وسأقول لها على لسانك أنَّكَ لن تتأخر عن العودة إلينا، لا تقلق عليها، سوف أقوم أنا بتهدئتها وطمأنتها، ولكن عليك من جهتك أن لا تعذبها: زرها ولو مرَّةً واحدةً، تذكَّر أنَّها أمك، ولقد جئت أنا الآن لأقول لك (هنا نهضت دونيا) إذا احتجت إليَّ في أيِّ أمرٍ من الأمور، أو إذا احتجت..... كلُّها.... ناديني فأجيءُ إليك! استودعك الله!

قال هذا، وابتعد عنها، ومضى إلى النافذة، فانتظرت لحظة، وتأملته بقلقٍ، ثمَّ خرجت وقد استولى عليها همٌّ وخوف.

لا، إنَّهُ لم يشعر نحوها ببرودةٍ في العاطفة، حتى أنَّه في لحظةٍ من اللحظات (هي اللحظة الأخيرة) قد استبدَّت به رغبةٌ عنيدةٌ في أن يحتضنها بذراعيه وأن يقول لها كلَّ شيءٍ، مودِّعاً إياها، لكنَّهُ لم يستطع أن يعزم أمره على أن يمد يده إليها، وأضاف يحدِّثُ نفسه: "في المستقبل، قد ترتعش حين تتذكر أنني احتضنتُها بذراعي، وقد تقول لنفسها أنني سرقت منها قلادتها" وأضاف يتساءل بعد بضع لحظات: "ثمَّ هل يمكنها أن تحتمل مثل هذا الاعتراف؟ لا، لن تستطيع. هي من أولئك اللواتي لا يمكنهنَّ أن يحتملن كهذه الأشياء".

وفكَّرَ في سونيا.

وكان في الجو هواءٌ طريٌّ يهبط من النافذة، وفي الخارج كان الضياء قد جنا. فتناول قبعته بغتةً وخرج.

كان لا يستطيع أن يعبأ بحالته الصِّحيَّة، لا ولا يريدُ أن يهتمَّ بها، ولكنَّ جميع تلك الإنذارات المتصلة وجميع تلك الأهوال النفسيَّة، لابدَّ أن يكون لها أثار، ولئنَّ لم تصرعه الحمَّى حتى الآن، فلعلَّ مردَّ ذلك أنَّ القلق المستمر كان يجعلهُ في حالةِ تنبهٍ وتيقظٍ، ولو على نحوٍ مصطنعٍ مؤقتٍ جدًّاً.

ظلَّ يضرب في الأرض على غير هدى، أخذت الشَّمسُ تغربُ، إنَّهُ يحسُّ منذُ بضع الوقت بحزنٍ خاصٍ جداً، لم يكن في ذلك الحزن شيءٌ من حدَّةٍ، وإنَّما كان فيه نوعٌ من ثباتٍ وبقاءٍ أبدي، نوع من تنبؤٍ بجميع السنين التي سوف يقضيها في غمٍّ باردٍ كالصقيع، غمٌّ قاتلٌ هو شيءٌ كالأبديَّةِ على مساحةٍ من الأرض ليست أكبر من "موطئ قدم".

كان راسكولنيكوف يشعر بهذا الإحساس أقوى ما يكون عند هبوط الليل خاصة.

فدمدم متذمراً: "هيا امتنع عن ارتكاب حماقةٍ إن استطعت وأنت تعاني هذهِ الاضطرابات الجسمية السَّخيفة المرتبطة بغروب الشَّمس إن كان في الإمكان أن تقودكَ هذه الحالة لا إلى الاعتراف لسونيا فقط، بل الإعتراف لدونيا أيضاً!"

وسمع أحداً يناديه، فالتفت، فإذا ليبزياتنيكوف يهرع إليه.

قال ليبزياتنيكوف:

إنني آتٍ من عندك! لقد كنت أبحث عنك! تخيَّل أنَّها وضعت مشروعها موضع التنفيذ مقتادةً أولادها! ولقد لقينا أنا وصوفيا سيميونوفنا كثيراً من العناء والمشقَّةِ حتى وجدناهم! أنَّها تنقر على مغلاة، وتُجبِرُ الأولاد أن يغنوا ويرقصوا. والأولاد يبكون، إنَّهم يتوقفون عند مفارق الطُرق، وأمام الدكاكين، ووراءهم يجري جمهورٌ كبيرٌ غبيٌّ. تعال!

سأله راسكولنيكوف قلقاً وهو يجري وراءه:

وسونيا؟

فقدت عقلها، لا أقصد أن صوفيا سيمونوفنا هي التي فقدت عقلها، بل كاترينا إيفانوفنا، وصوفيا سيميونوفنا أيضاً على كلِّ حالٍ. ولكن كاترينا إيفانوفنا فقدت عقلها تماماً، نعم، لقد جُنَّت بالتأكيد، وستقاد مع الأولاد للشرطة، ها أنت ذا ترى الأثر الذي سوف يحدثهُ هذا، هم الآن على رصيف النَّهر، قرب جسرس......، غير بعيدٍ عن مسكن صوفيا سيمونوفنا، على

مسافة خطوتين من هنا.

على الرَّصيف، غير بعيدٍ عن الجِّسر، قبل منزل سونيا بعمارتين، كانت تحتشدُ جمهرةٌ من النَّاسِ فعلاً، يرى المرء بينها على وجهِ الخصوص صبياناً وبناتٍ يقفزون ويثبتون.....

كان صوت كاترينا إيفانوفنا الأبح يُسمعُ حتى من الجسر، مشهدٌ غريبٌ فعلاً، لابدَّ أن يشُدَّ الفضوليين المتسكعين الذي يحبون أن يروا كلَّ شيءٍ، وأن يسمعوا كلَّ شيءٍ!.

وكانت كاترينا إيفانوفنا ترتدي ثوبها المتهرئ، وشالها المصنوع من الجوخ الخفيف، وتضع على رأسها قبعةً من قشٍّ تسطحت وتشوهت، وكانت في حالة جنونٍ مطلقٍ حقاً، وكانت تلهثُ منهوكةٌ مهدودةُ القوى، وكان وجهها، الشاحبُ الهزيل من مرض السِّل، يعبِّرُ عن ألمٍ أقوى من الألم الذي يعبِّرُ عنه هذا الوجه عادةً (إن المصدورين يبدون في ضوء الشَّارعِ أشدُّ مرضاً مما يبدون مرضى في منازلهم)، وكان اهتياجها لا يهدأ، بل يقوى ويستعر كلَّ لحظةٍ. كانت تندفع إلى أولادها، تصرخ فيهم وتقرِّعهم وتعلمهم على مرأى من النَّاس كلِّ النَّاس كيف ينبغي لهم أن يرفضوا، وأن يغنوا وتشرحُ لهم ضرورة ذلك، حتى إذا لاحظت أنَّهم لا يفهمون راحت تضربهم، ثمَّ هي تهرع إلى الجمهور لتكلمه قبل أن تفرغ مما تكون قد شرعت فيه، فإذا لمحت بين أفراد الجمهور شخصاً يرتدي ثياباً لائقةً بعض الشيء، أسرعت تشرح له الحال التي آل إليها "أولاد أسرةٍ نبيلةٍ، بل أسرةٍ أرستقراطيةٍ".

وما أن تسمع انطلاق ضحكةٍ، أو مجرَّدُ كلمةٍ ساخرةٍ هجمت على الوقحين بشكلٍ عشوائي، وراحت تشاجرهم، وكان بعض النَّاس يضحكون وكان آخرون يهزون رؤوسهم، ولكن الكل كانوا يتملُّونَ بكثيرٍ من الإندهاش بالمرأةِ المجنونة وأولادها المروعين، والمقلاة التي تكلَّمَ عنها ليبزياتنيكوف لم تكن موجودة، أو أنَّ راسكولنيكوف لم يرها على الأقل، لكن كاترينا

إيفانوفنا كانت ترفق الغناء والرَّقص بضبط الوزن صفقاً بيديها اليابستين، مجبرةً كوليا ولينيا على الرَّقص بينما تغني بوليا، وكانت تحاول في الوقت نفسه أن تغني هي أيضاً، ولكن نوبة رهيبةً من السُّعال ما تلبث أن تقطع غناءها في بدايته، فتخزن عندئذٍ حزناً شديداً، وتبدأ تشتم المرض وتلعنه، حتى لتبكي حسرةً ولوعةً، والشيء الذي كان يثير حنقها خاصةً إنَّما هو بكاء كوليا ولينيا وذعرهما، وكانت هذه الأُمُّ المنكوبة قد حاولت حقَّاً أن تلبس أولادها على طريقة مغني الشَّوارع، فأمَّا الصَّبيُّ الصَّغير فقد وضعت على رأسه لفةً بيضاء، مخيطة إلى قطعة من قماشٍ أحمرٍ كأنَّها طربوشٌ وعمامةٌ مما يضعه الاتراك على رؤوسهم.

وأما لينيا فإن كاترينا إيفانوفنا لأنَّها لم تجد لها قماشاً تصنع به ثوباً من ثياب مغني الشوارع، قد اقتصرت أن صنعت لرأسها قلنسوةً منسوجةً بالإبرة من صوفٍ أحمرٍ (بل قل طاقيَّةَ المرحوم سيمون زخارتش نفسها) وغرست في القلنسوة بقيَّةَ ريشةٍ من ريش النعام الأبيض كانت تملكها في الماضي جدَّةُ كاترينا إيفانوفنا، وكانت كاترينا ايفانوفونا قد حفظتها حتى ذلك الحين في صندوق آثرٍ من تراث الأُسرة، وأما بوليا فهي ترتدي ثوبها الذي كانت ترتديه كلَّ يومٍ، وتدرك أنَّ أُمها قد جُنَّت فتتأملها بخوفٍ وخجلٍ وحزن، ولا تتركها شبراً واحداً، مخبئةً دموعها، ملقيةً على ما حولها نظراتً قلقةً، كان الشَّارع والجمهور يبثان فيها رعباً هائلاً.

كانت سونيا تسير وراء كاترنا إيفانوفنا باكيةً، وما تنفكُّ تضرع اليها في كلِّ دقيقةٍ أن ترجع إلى البيت، ولكن كاترينا لا تنثني عن عزمها، ولا تلين قناتها، فهي تقول لسونيا صارخةً بصوتٍ متعجِّلٍ وهي تسعل وتلهث:

- اتركيني يا سونيا، اتركيني! أنت نفسك لا تدرين ماذا تطلبين مني! أنت طفلةً، قلت لك أنني لن أرجع إلى تلك الألمانيَّةِ السِّكيرة! ألا فليعلم جميع النَّاس وبطرسبورغ كلها كيف صار إلى استجداءُ أولاد أبٍ نبيلٍ ظلَّ طوال حياته

يخدم الدَّولةَ باستقامةٍ وشرفٍ، حتى ليمكن أن يقال أنَّه مات في أثناء واجب وظيفته (لقد أفلحت كاترينا إيفانوفنا في أن تحلَّ لنفسها هذا الوهم وأن تؤمن به إيماناً أعمى)! ألا فليرى ذلك الجنرال التافه كلَّ هذا، ألا فليرى! أنت حمقاء يا سونيا! ما عسانا نفعل الآن لكي نؤمِّن غذاءً لنا؟ لقد استغليناك واستثمرناك بما فيه الكفاية! لا أريدُ هذا بعد الآن!.... رودين رومانوفتش؟ أهذا أنت؟ كذلك هتفت وقد لمحت راسكولنيكوف، فهرعت إليه، أرجوك أن تفهم هذه الحمقاء الصغيرة أننا لم يبق لنا أن نفعل شيئاً غير هذا! إن العازفين على أرغن يدوي يتوصَّلونَ إلى جنيِّ رزقهم، ونحن سوف يتعرفنا جميع النَّاس، وسوف يرون أننا أسرةٌ نبيلةٌ مهجورةٌ بائسةٌ، وسوف يفقد ذلك الجنرال التافه منصبه، لترين هذا! سنذهب كلَّ يومٍ إلى تحت نوافذه، حتى إذا مرَّ القيصر عند قدميه، ودفعت هؤلاء إلى أمامه ليراهم، وهتفت أقول له : "احمهم يا أبانا! "إنَّه أبو اليتامى، إنَّه رحيم.... سوف يحميهم، لترين أنَّه سيحميهم! أما ذلك الجنرال التَّافه فسوف..... لينيا! Tenez-vousdroite [1]، وأنت يا كوليا! أُرقص من جديد! مالك تبكي! إنَّه ما يزال يبكي! عجيب! مم أنت خائفٌ أيُّها الأحمق الصَّغير؟ ماذا يجب أن أصنع بهم ياروديون رومانوفتش؟ ليتك تعلم مدى غباوتهم وبلاهتهم، ما عساي صانعةٌ بأولادٍ كهؤلاء الأولاد؟

قال كاترينا إيفانوفنا هذا الكلام لراسكولنيكوف وأوشكت أن تبكي هي نفسها (دون أن يوقف هذا سيل كلامها المتدفِّق الذي لا ينضب) وهي ربَّةُ الأولاد الذين كانوا يبكون.

حاول راسكولنيكوف أن يقنعها بأنَّ عليها أن ترجع إلى البيت، وقدَّرَ أنَّه يستطيع بكلامه أن يوقظ حبَّها لذاتها، وشعورها بكرامتها، فقال لها أنَّها لا يليق بها أن تتجول في الشُّوارع تجوُّلَ العازفين على أرغن يدويٍّ على حين هي

---

1 - قفي جيدا، بالفرنسية بالأصل.

تتوق إلى إنشاء مدرسةٍ داخليةٍ للفتيات النبلاء!

فصاحت كاترينا إيفانوفنا تقول ضاحكةً مقهقهةً:

مدرسةً داخليةً! هأ هأ هأ ..... اسمعوا هذا الكلام.

وأعقبت ضحكتها نوبةُ السُّعال، ثمَّ تابعت كلامها:

لا ياروديون رومانوفتش! هذا الحلم قد تبدَّدَ.! لقد هجرنا جميع النَّاس! وهذا الجنرال التَّافه..... هل تعلم يا روديون رومانوفتش أنني رميته بمحبرةٍ على وجهه، هي المحبرة التي كانت في حجرةِ المدخل على المنضدةِ قرب الورقة التي يسجِّلُ فيها أسماءهم؟ لقد سجلت إسمي أنا أيضاً، ثمَّ رميته بالمبحرة ووليت هاربة! آه! ياللجبناء! ياللحقراء! ولكني أصبحت الآن لا أهتم.... فسوف أجني لهم رزقهم بنفسي، سوف أجني للأولاد رزقهم بنفسي، لن أطأطئ رأسي لأحد! لقد عذبناها بما فيه الكفاية (كانت كاترينا إيفانوفنا تقصد سونيا) يا بوليتشكا، كم جمعنا حتى الآن؟ أريني! كيف؟ ألم نجمع إلا كوبين فقط؟ آه.... يالأوغاد! أنَّهم لا يعطونا شيئاً، أنَّهم لا يزيدون على أن يركضوا وراءنا مادين لنا أسنتهم استهزاءً! انظر إلى هذا المعتوه مثلاً: مم تراه يضحك وأومأت إلى واحد من الجمهور) ذلك كلَّهُ سببه كوليا! فلأن كوليا غبيٌّ هذا الغباء كلَّهُ إنَّما يسخر منَّا النَّاس جميعاً! مالك يا برليتشكا؟ كلميني بالفرنسية parlez-mois francais[1] ! عجيب! ألم أعلمك الفرنسية؟... إنَّكِ تعرفين عدةً عدةً ... آن لهم أن يعرفوا أنكم تنتمون إلى أسرةٍ نبيلةٍ ونشئتم تنشئةً طيبةً فلستم من أمثال العازفين على الأرغن اليدوي، أنى لهم أن يعرفوا ذلك إذا لم تكلميني بالفرنسية يا بوليتشكا؟ نحن لا نمثل "بتروشكا" المبتذل بل نحن نغني أغنياتٍ راقيةً! ها.... نعم... ماذا سنغني الآن؟ أنت ليس لك سوى أن تقاطعنا، ونحن.... إسمع يا روديون رومانوفتش، لقد توقفنا هنا قليلاً لنقرر ماذا

1 - بالفرنسية، بالفرنسية بالأصل.

سنغني: يجب أن نغني شيئاً يقدر كوليا أن يرافقه برقصه، ذلك أننا، كما نستطيع أن تقدر، قد أخذنا على غير تهيؤٍ أو استعدادٍ، ولا بدَّ لنا من توزيع أعمالنا والتوفيق بين أعبائنا حتى نرتب الأمور، وبعد ذلك سوف نذهب إلى شارع نيفسكي، حيث يكثر النَّاس الذين ينتمون إلى المجتمع الراقي فسرعان ما يلاحظوننا، إن لينيا لا تعرف إلا أغنية "القرية الصغيرة" لا تعرف إلا "القرية الصغيرة" وحدها! وجميع الناس يغنون هذه الأغنية حتى أصبحت كالمنشار! يجب عليَّنا أن نختار شيئاً أرقى، فماذا يا بوليا؟ أعندك فكرة؟ ليتك تستطيعين، أنت على الأقل، أن تساعدي أمك! آه من الذاكرة!

الذاكرة هي من يخونني ، ولولا ذلك لجرت الأمور من تلقاء ذاتها، لولا ذلك لتذكرت! لن نغني مع ذلك أغنية "الفارس المتكي على سيفه"! إنَّما الأولا أن نغني بالفرنسية أغنية "cinqsous"[1] لقد علمتكم إياها! ثمَّ إن النَّاس سرعان ما يدركون، لأننا سوف نغني بالفرنسية، أنتم أولاد أسرةٍ نبيلةٍ، فيؤثر ذلك في نفوسهم تأثيراً أكبر! لا بل في وسعنا أن نغني أغنية "Malborough s'en va-t-en enguerre"[2] لا سيما أنَّها أغنيةٌ صغيرةٌ للأطفال وحدهم، نعم للأطفال وحدهم، تستعمل في جميع البيوت الأرستقراطية لهدهدة الأطفال.

قالت كاترينا إيفانوفنا هذا وشرعت تغني:

[3]"Malborougl s'en va ten guerre, Ne sait quand revienolra"

ثمَّ استدركت تقول: بل الأفضل أن نغني "seiq sous" يا لوليا، ضع يديك على خصريك! أسرع! وأنت يالينيا، استديري إلى الإتجاه المعاكس! وسوف أرافقكما أنا وبوليا بصفق الأيدي:

Cinq sous,cinq sous---
Pour monter notre ménage

1 - "خمسة فلوس" بالفرنسية بالأصل.
2 - مالبووغ مسافر إلى الحرب، بالأصل بالفرنسية
3 - مسافر إلى الحرب، لا يعفر متى يعود، بالفرنسية بالأصل.

واجتاحتها نوبة سعالٍ شرعت تهزُّها بعنفٍ: كح كح كح!..
وهبَّت تخاطب بوليا من خلال السُّعال:
اعدلي ثوبك يا بوليتشكا! أنَّه ينزلق عن كتفيك!
عليَّنا الآن أن نحافظ على أحسن مظهر، حتى يرى جميع النَّاس أنكم أسرةٌ نبيلةٌ! آه... ما أكثر ما قلت أن صدر هذا الثوب ينبغي أن يكون أطول... لكن نصائحك أنت يا سونيا هي التي أفسدت كل شيء (قصروا! قصروا!"فانظروا الآن ماذا كانت النتيجة: لقد تشوهت هذه الطفلة، ماذا كانت النتيجة: لقد تشوهت هذه الطفلة! ماذا؟ هاأنتم أولاد تستأنفون البكاء؟ ما بالكم تعودون إلى البكاء أيُّها الأغبياء؟ هيا يا كوليا! عن ! بسرعة أكبر أوه! يا لك من ولد لا يطاق.
Cinq sous,cinq sous
ماذا؟ الجندي أيضاً؟ ماذا تريد أيها الجندي؟
كان شرطي من شرطة المدينة يشقُّ لنفسه طريقاً بين الجمهور بالفعل! ولكن سيداً يرتدي بزَّةً رسميةً ومعطف موظفٍ كبيرٍ في نحو الخمسين من عمره، وقور المظهر، مهيب الطلعة، يحمل عدا ذلك وساماً في عنقه (وهذا الأمر التفصيلي الأخير قد أبهج كاترينا إيفانوفنا كثيراً وأحدث في شرطي المدينة تأثيرا كبيراً)، وقد ظهر في تلك اللحظة نفسها فاقترب من كاترينا إيفانوفنا مادا إليها ورقةً نقديةً قيمتها ثلاثة روبلات، وكان وجههُ يعبِّرُ عن شفقةٍ صادقةٍ، فتناولت كاترينا إيفانوفنا الورقة، وانحنت أمام الرَّجل بشيءٍ من الأدب، بل وبشيءٍ من الاحتفاء، وبدأت تتكلم متعاليةً:
- أشكرك يا سيدي، إن الأسباب التي أهابت بنا إلى... خذي المال يا بوليتشكا. هاأنت ترين أنَّ هناك أناساً كراماً عظاماً مستعدين لمساعدة سيدةٍ نبيلةٍ بائسةٍ أناخ عليها الدَّهرُ كلاكلهُ... إنَّ أمامك يا سيدي يتامى نبلاء، بل يتامى يمكن أن تقول أنَّ لهم قربى بأعلى الأسر الأرستقراطية، ولكن ذلك

الجنـرال التافـه الـذي كـان بسـبيل التهـام دار ريـح ...آه..... لقـد ضـرب الأرض بقدمه لأنني أزعجته! قلت له: "يا صاحب السـعادة ، كـن حاميـاً لأيتـام المرحـوم سـيمون زخـارتش، أنـت يـا مـن عرفتـه حتـى معرفتـه، فـإن إنسـاناً حقـيراً بـين الحقراء قد افترى على بنته في يوم وفاته نفسه" أما يزال هذا الجنديُّ هنا؟ كن حامياً لنا يا سيدي (صاحت كاترينا إيفانوفنا مخاطبةً الموظف الذي أعطاها الروبلات الثلاثة) لماذا يلاحقني هذا الجندي؟ ما باله يطاردني دائماً؟ لقد سبق أن هربنا من جندي غيره في شارع ميشانسكايا..... ماذا تريد أيُّها الغبي؟

لا يجـوز لكـم أن تفعلـوا هـذا في الشـوارع! يجـب علـيكم أن تلتزمـوا حـدود اللياقة!

أنت الذي لا تلتزم حدود اللياقة! أنا أفعل ما يفعله العازفون على الأرغن اليدوي! فما شأنك أنت؟

من أجل العزف على الأرغن، لابدَّ مـن تـرخيص... أمـا أنـت فـدون الحصـول علـى ترخيص... فأنت تزعجين النَّاس! أين تسكنين؟

أعولت كاترينا إيفانوفنا وردَّت:

مـاذا؟ تـرخيص؟ لقـد دفنـت زوجـي في هـذا اليـوم! أيُّ تـرخيصٍ تريـد؟ تـدخل الموظف:

سيدتي، سيدتي، هدِّئي نفسك. تعالي. سأوصلك إلى بيتك!

ليس لائقاً ما تفعلين هنا، أمام النَّاس! أنت مريضة!

فصاحت المريضة الحزينة:

يـا سـيد، يـا سـيد، أنـت لا تعـرف شـيئاً! سـوف نـذهب إلى شـارع نيفسـكي! سونيا، يـا سـونيا! ولكـن أيـن ذهبـت سـونيا؟ أنَّهـا تبكـي هـي الأخـرى! ولكـن ماذا دهاكم جميعاً.

وصرخت فجأةً:

كوليا، لينيا، إلى أين تذهبان؟ إلى أين أنتما تذهبان؟

كـان كوليـا ولينيـا، وقـد رأيـا الجنـدي الـذي يريـد أن يقـبض عليهمـا وأن يقتادهمـا إلى مكـان مـا، وروعتهمـا هـذه الجمهـرة المحتشـدة، وهـذه الحـالات الجنونية في أمهما، كانا قد تماسكت يداهما وأخذا يركضان كأنَّما على سابق اتفاقٍ وتفاهمٍ، فلمَّا رأتهما المسكينة كاترينا إيفانوفنا على هذه الحال أخذت تئنُّ وتتشنج، واندفعت تطاردهما، إنَّه منظرٌ عجيبٌ محزنٌ أن يرها المرء تركض غارقةً بدموعها، منقطعة الأنفاس، وأسرعت سونيا وبوليا تركضان وراءهما.

أرجعيهما يا سونيا، أرجعيهما! آه!.... يا للأولاد الأغبياء! يا للأولاد العاقين! يا بوليا! اردكيهما! اقبضي عليهما! من أجلكم إنما أنا.....

وترنَّحت كاترينا إيفانوفنا في ركضها وسقطت.

صاحت سونيا وهي تميل عليها:

أنَّها مغطاة بالدم! ربَّاه!...

هـرع الجميـع، وتحلَّقـوا حـول كاترينـا إيفانوفنـا، وكـان راسـكولنيكوف وليبزياتنيكوف أول المسرعين وقد أسرع الموظف أيضاً، ووراءه وصل شرطيٌّ المدينة قائلاً في تمرٍّ: "أقصةٌ جديدةٌ؟" ثمَّ حرك يده بإشارة انزعاج، شاعراً أن هذه القضية ستحدثُ كثيراً من المتاعب.

قال الشرطي وهو يصرف المستطلعين الذين تجمعوا ينظرون:

انصرفوا! انصرفوا!

قال أحدهم:

أنَّها تموت

وقال آخر:

لقد فقدت عقلها.

وقالت امرأة وهي ترسم على نفسها شارة الصَّليب:

رأف الله بها. هل أعيد الأولاد على الأقل؟ ها هم أولاد يرجعون! الكبرى

أدركنهم. يا لهم من عفاريت.

ولكن حين أمعن النظر في كاترينا إيفانوفنا ، عرف أنَّها لم تُجرح لاصطدامها بحجرٍ كما قدَّرت سونيا ، فالدم الذي صبغ بالحمرة أرض الشارع إنما تدفق من حلقها.

دمدم الموظَّفُ يقول لراسكولنيكوف وليبزياتنيكوف:

أنا أعرف، أنا أعرف، هذا مرض السِّل! هكذا ينبجس الدَّمُ من فم المريض، ثمَّ يخنقه، شهدت هذه الحادثة نفسها منذ مدَّةٍ غير بعيدةٍ: إحدى قريباتي سكبت من صدرها على هذا النحو كأساً أو أكثر من دمٍ على حين غرَّة. ما العمل؟ سوف تموت......

تضرَّعت سونيا :

هنا! هنا! إلى بيتي ! أنا أسكن هنا ، هنا ، في هذا المنزل، العمارة الثانية..... فلتنقل إلى بيتي، بسرعة ، بسرعة! استقدموا طبيباً...... آه..... يا رب!......

هذا ما قالته سونيا موجهةً كلامها إلى الحضور وحداً بعد واحد.

ودبِّرت الأمور بفضل جهود الموظف، حتى لقد ساعد الشُّرطيُّ نفسه في نقل كاترينا إيفانوفنا.

صعدوا بها إلى مسكن سونيا وهي شبه ميتة، وأضجعوها على السرير ، كان الدَّمُ ما يزال ينزف، ولكن كان يبدو على المريضة أنَّها تثوب إلى وعيها شيئاً فشيئاً ، ولقد دخل إلى الغرفة ، عدا راسكولنيكوف وليبزياتنيكوف، دخل الموظف والشرطيُّ، وكان الشرطيُّ قد صرف الجمهور، فلم يفلت منه إلا بضعةُ فضوليين صاحبوا كاترينا إيفانوفنا وموكبها ودخلوا الغرفة هم أيضاً. ووصلت بوليا وبيديها كوليا ولينيا اللذين كانا يرتجفان ويبكيان، وهرع من بيت كابرناؤموف أيضاً عدَّةُ أشخاص: كابرناؤموف نفسه، وهو رجلٌ أعرجٌ أعور يضفي عليه شعر رأسهِ وفوديه المجعد كما شعر الخنزيرِ مظهراً غريباً جدَّاً ، وامرأته التي يعبِّرُ وجهها عن ذعرٍ مستمرٍ متصلٍ، وعددٍ من أولادهما

فغرت أفواههم وجمَّدتهم الدَّهشة، وظهر بين المشاهدين أخيراً سفدريجايلوف، فتأمله راسكولنيكوف في أول الأمر مذهولاً لا يفهم من أين عساه ظهر، فهولا يتذكَّر أنَّه رآه بين الجمهور المحتشد في الشَّارع.

وتكلَّمَ الحضور عن استقدام طبيبٍ وكاهنٍ، وهذا هو الموظَّفُ يصدر أمرهُ باستقدام طبيبٍ، رغم أنَّه قد همس يقول لراسكولنيكوف أن مساعدات الطبيب أصبحت غير مجدية، وتعهد كابرناؤموف أن يسعى إلى الطَّبيب لإحضاره.

وتحسنت حالة كاترينا إيفانوفنا قليلاً في تلك الأثناء، انقطع النزيف مؤقتاً، وألقت نظرةً موجعةً، وإن تكن ثابتة، على سونيا التي كانت تجفف قطرات العرق عن جبينها، شاحبة الوجه مرتعشة اليدين، وطلبت كاترينا إيفانوفنا أخيراً إنهاضها، فأُجلست على السَّريرِ مسنودةً من الجهتين.

دمدمت بصوتٍ ضعيفٍ:

أين الأولاد؟ هل أعدتهم يا سونيا؟ آه....... يا لهم من بلهاء! لماذا هربتم؟ آه..

وغطى الدَّمُ شفتيها المصوحتين من جديد، فأجالت عينيها على ما حولها. وقالت:

آه ...... تعيشين هنا إذا يا سونيا! لم أحب أن آتي إليك قبل الآن مرة واحدة.

وتملتها بألم.

قد امتصصنا قواك يا سونيا.... بوليا، كوليا ولينيا.... تعالوا إليَّ .......... هام هم جمعيهم أمامك، يا سونيا.... أمامك، يا سونيا...... أما أنا فيكفي..... انتهى الأمر! ضعوني على الوسادة واتركوني أموت هادئةً.....

وضعوها على الوسادة ثانيةً.

ماذا؟ كاهن؟ لا أريد! ... هل معكم روبل تضيعونه؟ أنا لا ذنوب لي إلا بعد أن يغفر الله لي، إنَّ الله يعلم كم تألمت! فإذا لم يغفر لي، فلا يغفر!

واستولى عليها هذيانٌ أخذَ يزدادُ عنفاً، كانت في بعض اللحظات ترتعش،

وتتأملُ حولها ، فتتعرف جميع الأشخاص الذين يحيطون بها ، خلال دقيقةٍ واحدةٍ، ثمَّ ما تلبث أن تفقد صحوتها وترتدُّ إلى هذيانها من جديد ، وكان تنفسها أبحُّ، أجشُّ، وكان صعباً موجعاً.

وكان يسمع نوع من القرقرةِ يخرج من حلقها.

وهتفت وهي تكاد تختنقُ لدى كلِّ كلمةٍ نطقتها :

قالت له: "يا صاحب السَّعادة ......" آه.... سحقاً لاماليا لودفيجوفنا هذه! لينيا ، كوليا ، ضعا يديكما على الخصرين، واجعلا رقصكما أسرع، أسرع.... انزلقا!...... عليكما بخطوةِ "البسك".... اقرع كعبيك! كن راقصاً رشيقاً!

Du hast Diamanten und perlen…..(1)

ماذا بعد؟ ها.... نعم..... يجب الغناء كما يلي:

Du hast die schonsten Augen, Madchen Was Willst du mer? (2)

نعم، Was Willst du mer ، ياللغبي ما أسخف قولك! ها....... نعم .... وهذا شعر آخر:

آه تحت أشعَّةِ الشَّمس الحادَّة ، بوادي داغستان...... لشدَّةُ ما أحببت هذه الأغنية! أحببتها حتى العبادة ، هذه الأغنية! هل تعلمين بوليتشكا؟ كان أبول يغنيها أيام كنا خطيبين! ...... ذلك ما يجب أن نغنيه إذا أردنا الغناء! ولكن ماذا جرى؟ ماذا جرى؟ لقد نسيت! هلا ذكرتموني! ذكروني!

كانت كاترينا إيفانوفنا في حالة اضطرابٍ شديدٍ ، وكانت تحاول أن تنهض. وأخذت أخيراً تغني بصوتٍ رهيبٍ، أبحٍّ، مكسَّر، صارخةً مختنقةً عند كلِّ كلمةٍ تنطق بها ، وكان وجهها يعبِّر عن رعبٍ ما ينفكُّ يزداد :

تحت أشعة الشَّمس الحارَّة! بوادي داغستان!.....

وفي صدري رصاصة!........

---

1 - لك ماس ولآلئ..... بالألمانية بالأصل....

2 - لك أجمل عينين، فماذا تريدين أكثر من هذايا فتاة!... بالألمانية بالأصل.

و أعولت فجأةً بصياحٍ ممزقٍ، وبكاءٍ مرٍّ:

- يا صاحب السَّعادة، كن حامياً لليتامى.... تكريماً لذكرى الاستقبال الذي استقبلك به سيميون زاخارتش.....

والذي هو أقرب إلى الأرستقراطية.....

وانتفضت كاترينا إيفانوفنا فجأةً، وقد ثاب إليها شعورها، وأخذت تتفرَّسُ في الحضور مذعورةً، لكنَّها لم تلبث أن تعرفت سونيا، فنطقت في رقةٍ وحنانٍ وكأنَّها تستغرب، أتراها أمامها!!:

- سونيا! سونيا! أنت أيضاً هنا يا عزيزتي؟

أُنهِضت كاترينا إيفانوفنا من جديد.

وصرخت بيأسٍ ومقتٍ:

كفى! آن الأوان وداعاً! لقد أجهزوا على الحصان القديم! أنَّه يغطس!

وتركت رأسها يتهاوى على الوسادة.

واستولى عليها الهذيان ثانيةً، لكنَّ ذلك لم يدم سوى ثواني.

انقلب وجهها الشَّاحبُ إلى وراء، وانفتح فمها، وامتدت ساقاها في تشنُّجٍ، وزفرت زفرةً عميقةً وماتت.

أسرعت سونيا إلى الجثمان، طوقتها بذراعين متألمين، شدَّت رأسها إلى صدرها الناحل، وجثت بوليا عند قدمي أمها فقبلتهما باكيةً ناحبةً، ولم يدرك كوليا ولينيا إدراكاً واضحاً ماذا حدث، لكنهما أوجسا أن ثمَّةَ شيئاً رهيباً قد وقع، فارتمى كلٌّ منهما بين ذراعي الآخر، وفغرا فيهُما وراحا يصرخان، كانا ما يزالان يرتديان ثياب المهرجين، كان على رأس احدهما عمامةٌ، وعلى رأس الأخرى طاقيةٌ تزينها ريشةُ نعامة.

لا ندري كيف وجدت "شهادة التقدير" على الوسادة قرب كاترينا إيفانوفنا، غير أن راسكولنيكوف قد رآها على كلِّ حالٍ.

ابتعد راسكولنيكوف نحو النافذة، وأسرع ليبزياتنيكوف يلحق به. وقال:

- ماتت!

قال سفدر يجايلوف وهو يتقدم نحو راسكولنيكوف:

- رودين رومانوفتش، عندي كلمةً أودُّ أن أقولها لك، أمرٌ مستعجل!

فسرعان ما تنحى له ليبزياتتكوف عن مكانه وأمحى متخفياً، غير أن سفدر ـ يجايلوف ابتعد براسكولنيكوف كثيراً بغية الاختلاءِ به والكلام على انفراد، كان راسكولنيكوف محتاراً، قال سفدريجايلوف:

ـ سوف أتولى جميع هذه الأمور، أقصد نفقات الدَّفن وكلُّ ما يتصل به، هذا يقتضي مالاً جاهزاً.... هذان العصفوران الصغيران، وهذه البنت بوليتشكا سوف أدخلهم مأوى الأيتام، فتكون العنايةُ بهم أحسن ما تكون العناية، وسأودع باسم كلِّ منهم مبلغ ألف وخمسمائة روبل، إلى أن يبلغوا سنَّ الرُّشد، وذلك حتى يطمئن بال صوفيا إيفانوفنا كلَّ الاطمئنان، وسوف أخرجها هي أيضاً من الحمأة التي تعيشها، لأنَّها فتاةٌ طيِّبةٌ، أليس كذلك؟ فتستطيع أن تقول لافدونيا رومانوفنا في أيِّ وجهٍ من الوجوه استعملت العشرة الآلاف روبل.

سأله راسكولنيكوف:

- ما هدف إظهار كلُّ هذا الكرم؟

أجابه سفدريجالوف ضاحكاً ضحكةً صغيرةً:

- هيه! هيه! يا لك من رجلٍ قليل الثِّقة، سيءُ الظنِّ! لقد قلت لك أنني لست بحاجةٍ لهذا المال! لماذا ترفض أن تصدِّقَ أنني لا أتصرَّفُ إلا بدافع الأنانيَّة؟ وكيف دار الأمر، فإنَّ هذه (قال ذلك وهو يشير بإصبعه إلى الرُّكن الذي ترقد فيه المتوفاة) لم تكن قملةً، لم تكن عجوزاً مرابيةً ما..... هيَّا قُل لي: "هل الأفضل أن يبقى رجل مثل لوجين حيَّاً يرتكب دناءته وحقاراتهُ، أم الأفضل أن تموت هي؟" .... ومن دون مساعدتي، فإنَّ بوليتشكا مثلاً "ستكون مضطرةً أن تسير في هذه الدَّربِ نفسها.

قال تلك الكلمات بلهجةٍ فيها شيءٌ من المكر المرح، دون أن يحوِّلَ بصرهُ عن

راسكولنيكوف.

اصفر راسكولنيكوف، وتجمَّدَ رعباً حين سمع تلك العبارات نفسها التي قالها هو نفسهُ في حديثه مع سونيا، وتقهقر فجأةً وألقى على سفدر يجايلوف نظرةً ضاريةً.

ودمدم يسأل بصوتٍ مختنقٍ:

- كيف ..... عرفت ..... هذا؟

ـ أنا أقطن هنا، في الجهة الأخرى من هذا الحاجز، عند السَّيدة ريسلينخ. هنا شقة كابرناؤموف، وهناك شقة السَّيدة ريسيلخ، وهي صديقتي منذ أمدٍ بعيدٍ، من أخلص الصديقات، أنا جارٌ من الجيران، هذا هو الأمر

- أنت؟!

فضحك سفدريجايلوف واهتزَّ بدنه كلَّهُ من ضحكته الطويلة، وتابع كلامه:

- أنا، وأستطيع أن أؤكِّدَ لك صادقاً يا روديون رومانوفتش العزيز أن أمراً شاقني كثيراً ،ألم أقل لك أننا سنكون متفاهمين! لقد تنبأتُ بهذا! نعم، لقد تفاهمنا! لسوف ترى أنني رجلٌ موادع، مجارٌ، مريح! لسوف ترى أنني امرؤٌ ما تزال الحياة معي ممكنة.

# الجزء السادس

## الفصل الأول

هلَّ حينئذٍ عهدٌ جديدٌ غريبٌ في حياة راسكولنيكوف، لكأنَّ ضباباً قد سقط أمامه بغتةً، فحبسه في عزلةٍ، ثقيلةٍ، كثيفة، حين تذكَّرَ راسكولنيكوف هذه الحقبة، بعد زمنٍ، بل وبعد زمنٍ طويلٍ، قدَّرَ أن صحو ذهنه كان يغور في العتمة أحياناً، وأنَّه استمر على هذه الحال إلى أن نزلت النازلة النهائية، إلا في لحظات قليلة.

وقد اقتنع اقتناعاً تاماً بأنَّه قد تاه حينذاك في أمور كثيرة، ولاسيَّما في مواقيت بعض الأحداث وفي مدتها، على أنَّه حين استحضر هذه الذكريات، وحاول أن يجمع شتاتها وأن يوضحها، استعان بشهادة أشخاصٍ آخرين، فعلم بذلك أموراً كثيرةً عن نفسه، علم مثلاً أنَّه كان يخلط بين حادثٍ وآخر، أو كان يظنُّ هذا الحادث نتيجةً لحادثٍ ثالثٍ لا وجود له في الواقع، وإنَّما أنشأهُ له خياله، وكان ينتابه في بعض الأحيان قلقٌ أو خوفٌ سرعان ما يتحوَّلُ إلى رعبٍ هائلٍ، ولكنَّه تذكَّرَ أيضاً أنَّه كانت تمرُّ به دقائق بل ساعات، وربَّما أيام يعيش خلالها حالاتٍ نفسيةً تناقض مخاوفهُ السابقة، فهو غارقٌ في حذرٍ يشبه عدم الاكتراث الذي يعانيه بعض المحتضرين، وربَّما قَلَّ على وجه العموم أن يكون في مثل تلك الأيام كمن يحاول أن يتماشى هو نفسه، وأن يشعر بوضعه، وأن يدرك موقفه، وأن يعي حالته، وهناك وقائعٌ أساسيةٌ معينة.

كانت تثقل على نفسه خاصةُ مع أنَّها تتطلب توضيحاً مباشراً، ولكن ما كان أعظم سعادته بأن ينسى بعض الظروف، رغم أن هذا النسيان قد استطاع أن يؤدي في حالته إلى نازلةٍ رهيبةٍ لم يتيسَّر تحاشيها.

وكان يقلقه سفدريجايلوف خاصة، حتى ليمكن القول إن انتباهه كلَّهُ قد تركَّزَ على سفدريجايلوف، فمنذ أن نطق سفدريجايلوف بتلك الكلمات الصَّريحةِ الرَّهيبةِ التي لا بدَّ أن تُرعب راسكولنيكوف، وذلك في غرفة سونيا، في لحظة وفاة كاترينا إيفانوفنا، منذ ذلك الحدث انقطع الجَّريان الطبيعي لأفكار راسكولنيكوف، ولكنَّ هذا لم يعاجل إلى إجلاء الأمور لنفسه، رغم القلق الشَّديد الذي أخذ يعانيه.

كان يتفق له في بعض الأحيان، إذ يجد نفسه فجأةً في حيٍّ ناءٍ، مقفرٍ من أحياء المدينة، جالساً وحده إلى مائدةٍ منعزلةٍ في ركنٍ قطبيٍّ من حانةٍ حقيرةٍ، غارقاً في أفكاره، لا يكاد يتذكَّرُ ما الذي قادهُ إلى هذا المكان، وكان يتَّفقُ له على حين غرَّةٍ أن يخطر ببالهِ سفدريجايلوف، فإذا هو تتجلى لهُ حقيقةٌ واضحةٌ صارخةٌ ، هي أن عليه إن يجري حديثاً مع هذا الرَّجُلِ بأقصى سرعة، وأن يفرغ من هذا الأمر، بقدر الإمكان، مرَّةً واحدةً، حتى لقد خُيِّلَ له ذات يومٍ، في مكانٍ وراء أسوارِ المدينة، أنَّه ينتظر سفدريجايلوف، وأنَّه قد ضرب له موعداً للِّقاءِ في هذا المكان، وفي يومٍ آخرٍ استيقظ عند الفجر فرأى نفسه راقداً، فراشهُ الأرضُ العارية لا يدري أين، فما يفهم ما الذي جاء به إلى هنا، ولايعرف كيف وصل إلى هذا الحيِّزِ، ثمَّ هو خلال اليومين أو الثلاثة التي أعقبت وفاة كاترينا إيفانوفنا قد اتفق له أن يلقى سفدريجايلوف مرتين، وذلك كالعادة في غرفة سونيا التي ذهب إليها لا الهدفٍ إلا لكي يراها لحظةً، وقد تبادل الرجلان بضع كلماتٍ مقتضبةٍ جدَّاً، ولكن تجانبا أن يمسا النقطة الأساسية، فكأنَّ بينهما اتفاقاً مضمراً على أن يلزما الصمت في هذا الموضوع إلى حين كان تابوت كاترينا إيفانوفنا عندئذٍ ما يزال في غرفة سونيا، وكان سفدريجايلوف ينشط في سبيل إتمام الدَّفن، وكانت سونيا مشغولةٌ هي أيضاً، وفي اللقاء الأخير الذي تم بين الرجلين، شرح سفدريجايلوف لراسكولنيكوف أنَّ المساعي التي شرع بها من أجل أولاد المتوفاة قد أثمرت، فبفضل بعض

علاقاته، استطاع أن يدخل الأيتام الثلاثة في مؤسساتٍ مناسبةٍ، وكان للمال الذي أودعه لهم فضلٌ كبيرٌ في ذلك، لأنَّ الأولاد الذين يملكون مالاً يسهل قبولهم في هذه المؤسسات أكثر مما يصادف الأولاد الذين لا يملكون شيئاً، وتكلم سفدريجايلوف قليلاً عن سونيا كذلك، ووعد بأن يزور راسكولنيكوف في بيته قريباً، واسمعه يتمنَّى لو يطلُبَ منه النُّصحَ "فهو في حاجةٍ ملحَّةٍ إلى أن يلكمه في بعض الأمور....." وقد جرى هذا الحديث بين الرجلين في حجرة المدخل، فكان سفدريجايلوف يحدِّقُ إلى راسكولنيكوف بنظرةٍ ثابتةٍ، ثمَّ خفض صوتهُ فجأةً بعد فترةٍ من صمتٍ، قال يسأل:

ولكن مالك ياروديون رومانوفتش؟ يبدو لي أنَّكَ لست في حالٍ سويٍّ، صحيح أنَّكَ تصغي وتنظر، إنَّما لا يلوح عليك أنَّكَ تفهم! هيا، ينبغي أن نتحدث معاً بعض الشيء! يؤسفني أنني مشغولٌ بشؤون غيري وشؤوني إلى هذا الحد!

ثمَّ أضاف فجأةً:

هيه! جميع البشر يحتاجون إلى هواء، إلى هواء، إلى هواء قبل كلِّ شيءٍ!

وتنحى بغتةً ليفسح مجال المرور للكاهن والقندلفت اللذين كانا يصعدان السُّلم، هما آتيان لإقامة صلاة الميت.

وقد اتخذ سفدريخايلوف الترتيبات اللازمة لرفع صلاة الميت، هذه مرتين في اليوم بغير توقف.

وتردد راسكولنيكوف لحظةً، ثمَّ تبع الكاهن إلى عند سونيا، وكان سفدريخايلوف قد ذهب في سبيله.

وقف راسكولنيكوف في العتبة، وابتدأ القدَّاس هادئاً مهيباً حزيناً، منذ نعومة أظفاره كان شعوره بالموت، وإحساسه بحضوره يصطبغ عنده دوماً بنوع من رعب صوفي.

كما أنَّه منذ مدَّةٍ مديدةٍ لم يشهد قدَّاس جنازةٍ، والى هذا كلَّهُ يضاف الآن إحساسٌ بالاضطراب والرُّعب أشدُّ إيلاماً.

تأمَّـلَ الأولاد، كـانوا جميعـاً راكعـين قـرب التـابوت، وكانـت بوليتشـكا تبكـي، ووراءهـم كانت سـونيا تصلـي وتبكـي "برفقٍ" قـال راسـكولنيكوف يحـدِّثُ نفسـه: "أنَّهـا لم تنظـر إلـيَّ مـرةً واحـدةً في هـذه الأيـام الأخـيرة، إنَّهـا لم تخـاطبني بكلمـةٍ واحـدةٍ". كانـت الشَّـمسُ تغمـر الغرفـة بضيـاءٍ قـويٍّ، ودخـانِ البخور يتصـاعد إلى السـقف، والكـاهن يرتِّلُ أدعيتـه، بقـي راسـكولنيكوف إلى آخر القدَّاس فلما بارك الكاهن وودَّعَ منصرفاً، وألقى على ما حوله نظـرةً غريبةً، ودنا راسـكولنيكوف مـن سـونيا بعـد انتهـاء القـدَّاس، فـإذا بهـا تتنـاول يديـه فجـأةً وتميـل برأسـها إلى كتفـه، دهـش راسـكولنيكوف مـن بـادرة الصداقة والمودة هذه، بدت له هذه البـادرة غريبـةً، تسـاءل: كيـف لم تنفـر منـه سونيا أقلُّ نفورٍ، كيـف هـي لم تشـمئزَّ منـه أبـداً؟ وكيـف لا تـرتعش يدهـا أقـل ارتعاشٍ! ياللتضحية! هكـذا فهـم راسـكولنيكوف الأمـر علـى الأقـل، لم تقـل سونيا كلمةً واحدةً، صافحها راسـكولنيكوف وخـرج، وكـان يشـعر بإرهـاقٍ فظيعٍ يجتاحه، فلو كـان يستطيع في تلك اللحظة أن يذهب إلى مكـان، إلى أيِّ مكـانٍ يشعر فيه بوحدةٍ مطلقةٍ، بعزلةٍ مطلقةٍ، ولو دامت مدى الحيـاة، إذاً لعـدَّ نفسـه سـعيداً، ولكـن راسـكولنيكوف كـان في هـذه الآونـة الأخـيرة، رغـم بقائه وحيداً في جميع الأحيان تقريباً، لا يفلح في الوصول إلى الشُّـعور بالوحـدة. كـان يتفـق لـه أن يخـرج مـن المدينـة، وأن يسـير في الطريق الكـبير، حتـى لقـد توغَّـل ذات مـرَّةٍ في غابـة، ولكـن كلَّمـا كانـت الأمـاكن أشـدُّ عزلـةً، وأكـثر خلوَّاً، شعر راسـكولنيكوف بحضورٍ عميقٍ، مستسرٍ، مقلقٍ، لا يرعبه، وإنَّمـا يضـايقهُ ويزعجـه جـدَّاً، فكـان يسـرع عندئـذٍ عائـداً إلى المدينـة، فيخـتلط بالجمهور، ويذهب إلى "سـوق المـواد المسـتعملة" و "سـوق العلـف"، فيشـعر هنالـك بشـيءٍ من الارتياح والخلوة.

وكـانت ذات مسـاءٍ في مطعـمٍ حقـيرٍ فيـه غنـاء، فبقـي يصـغي إلى الغنـاء سـاعةً كاملةً، وقال لنفسه أنَّه مبتهجٌ به، ولكـنَّ قلقـهُ عـاد يجتاحـهُ آخـر الأمـر، فـإنَّ

شيئاً يشبه عذاب الضَّمير قد أخذ ينهش قلبه، وقال لنفسه فجأةً: "ها أنا ذا جالسٌ استمع الغناء، فهل هذا هو ما يليق بي أن أفعلهُ؟" على أنَّه لم يلبث أن وعى أن مدار قلقه ليس هنا، وأنَّ ثمَّة مسألةٌ يجبُ حلَّها بغير إبطاءٍ، لكنَّهُ عجز عن التعبير عنها بالكلام، أو أن يترجمها إلى أقوال، كان كلُّ شيءٍ تتشابكُ خيوطهُ ككبَّةِ غزلٍ: "لا.... الصِّرعُ أولى! بورفيري... أو سفدريجالوف.... لأن أقوم بتحدٍّ آخرٍ، وهجومٍ جديدٍ، فذلك خيرٌ من هذا..... نعم، نعم!" قال راسكولنيكوف هذا لنفسه، ثمَّ غادر المطعم وهو يكادُ يتحرَّكُ ركضاً. وخطرت بباله دونيا وأمِّهِ، فإذا به يشعرُ برعبٍ قاتلٍ، لا يدري مصدره، وفي تلك الليلةِ بالذات استيقظ قبل الفجر في غابةٍ بجزيرةِ "كريستوفسكي" مرتعداً من الحمى، فعاد إلى بيته قبل طلوع الشَّمس، ولازمتهُ الحمَّى بعد نومِ بضع ساعات، ولكنَّهُ استيقظ متأخراً، كانت السَّاعة حين استيقظ هي الثانية والنصف بعد الظهر.

فتذكَّرَ عندئذٍ أنَّ دفن كاترينا إيفانوفنا يتم اليوم، فسرَّهُ أنَّه لم يشهد الدَّفن، وجاءته ناستاسيا بغدائهِ، فأكل وشرب بشهيةٍ توشك أن تكون شراهة، وكان ذهنه أصفى، وكان يحسُّ أنَّه أهدأ مما كان في الأيام الفائتة، وأدهشه أنَّه عانى ما عانى من رعبٍ شديدٍ مستمرٍّ.

وفتح الباب في تلك اللحظة، ودخل رازوميخين.

قال ازوميخين وهو يتناول كرسياً ويجلس عليه أمام راسكولنيكوف:

هه! إنَّه يأكل. هو ليس مريضاً.

كان رازوميخين في حالة هياجٍ يغلي لا يحاول إخفاؤه، كان يتكلَّمُ بلهجةٍ مغتاظةٍ، إنما بتؤدةٍ وبطءٍ، لكأنَّه يبيِّتُ نيةً لها صفةً استثنائيةً جدَّاً. قال:

اسمع! لقد أسأمتموني، فاذهبوا جميعاً إلى إبليس! ذلك أنني أرى الآن رؤيةً واضحةً وضوح النَّهار إنني لا أفهم من الأمر شيئاً البتة! ولا يأخذكَ الخيال إلى أنني سأحاصرك بالأسئلة، فقد أصبحت لا أعبأ بهذه الأمور كلِّها!.... ولست

أريد قط أن.... قد تكشف لي بنفسك عن جميع أسرارك، فإذا أنا لا أصغي إليها. نعم، لسوف أبصق استخفافاً، ثمَّ أمضي لشأني! وإنَّما جئت الآن لهدفٍ واحدٍ، هو أن أعرف أنا بنفسي، معرفةً حاسمةً، أأنت مجنون أم لا. ذلك أن هنالك أناساً - ليس أمراً هاماً أن نسميهم - مقتنعون بأنَّكَ مجنونٌ أو على الأقل بأنَّكَ مؤهلاً لأن تصبح مجنوناً.

وإنني لاعترف لك أنني كنت أنا نفسي مستعداً أتم الاستعداد لئلا أرى هذا الرأي، أو لا بجريرة أفعالك السَّخيفة بل الخسيسة (لا سيما أنَّها في غير تعليل، وثانياً بسبب سلوكك الأخير مع أمِّك وأختك، فهو سلوكٌ لا يمكن أن يسلكه إلا إنسانٌ شاذٌّ أو دنيءٌ، أو مجنون، فأنت إذاً مجنون.

هل رأيتهما منذ مدَّةٍ مديدةٍ؟

منذ لحظةٍ، وأنت؟ لم ترهما مرَّةً أخرى منذ ذلك اليوم، أليس كذلك؟ فأين كنت تتسكع طوال هذا الوقت؟ هلاّ قلت لي، أرجوك! لقد جئت إلى بيتك ثلاث مرات، وأمك مريضةٌ منذ الأمس مرضاً شديداً، قررت أن تجيء إليك، فحاولت افدويتا رومانوفنا أن تمنعها من ذلك، لكنَّها لم تفلح. قالت: "إذا كان مريضاً، إذا كان عقله أصيب بخلل، فمن ينجده أن لم تنجده أمَّه؟" عندئذٍ جئنا إليك، لأننا لم، لم نشأ أن نتركها وحدها، وفي الطريق، فعلنا كلَّ شيءٍ في سبيل أن نهدئها، ولكننا دخلنا فلم نجدك! جلست هناك، ولبثت جالسةً عشرُ دقائقٍ، وكنَّا نحن في أثناء ذلك الوقت نقف إلى جانبها لا ننطق بكلمةٍ واحدة، بعدئذٍ نهضت وقالت: "ما دام يخرج فمعنى ذلك أن صحته حسنةٌ، وأنَّه نسي أمه، يترتَّبُ على هذا أنَّه لا يليق بأُمِّه بل عارٌ عليها أن تقف في عتبة بابه تستجدي ملاطفاته استجداءَ الصداقات"، وعادت إلى بيتها، ثمَّ لم تلبث أن اضطرت إلى ملازمة الفراش، وهي الآن تعاني من الحمَّى، وتقول: "فهمت! إن وقته لا يتسع لغير حبيبته...." إنَّها تعتقد أن صوفيا سيميونوفنا حبيبتك أو خطيبتك أو خليلتك، لا أدري! فسرعان ما ذهبتُ إلى بيت صوفيا

سيميونوفنا، لأنني كنت أريدُ أن أقف على حقيقة الحال يا صديقي.
دخلت على صوفيا، فماذا رأيت؟ تابوتاً وأولاد يبكون، وصوفيا تجرِّب على الأولاد ملابس الحداد، أما أنت فلا وجود لك! عندئذٍ نظرت، واعتذرت، وخرجت، ومضيت إلى افدوتيا رومانوفنا أروي لها ما شاهدت! القصةُ إذاً باطلة: لا حبيبة ولا شيء من هذا، ولعلَّ كلَّ ما في الأمر أنَّكَ مجنون! ولكن هأنا ذا أراك تلتهم لحم بقرٍ مسلوقاً، فكأنَّكَ لم تذق طعاماً منذ يومين! صحيح أن المجانين يأكلون هم أيضاً..... ولكن لا.... لست مجنوناً........ رغم أنَّك لم تقل لي كلمةً واحدةً! لست مجنوناً البتة! إني لمستعدٌّ أن أُقسم لك على ذلك! إذاً.... شيطانٌ يأخذكم جميعاً..... فلا بدَّ أنَّ في الامر سراً، لابدَّ أنَّ في الأمر سراً... وأنا لا أريدُ أن أُصدِّع رأسي بأسراركم! إنني لم آت إلا لأُزعجك تخفيفاً على نفسي، وأنا أعلم ما بقي عليَّ أن أفعل!.
بهذا ختم رازوميخين كلامه وهو ينهض.
سأله راسكولنيكوف:
ماذا تنوي أن تفعل؟
هل أصبح يهمك الآن أن تعرف ما سأفعل؟
حذار! أنَّك تريد أن تقبل على شرب الخمر!
كيف..... كيف حزرت؟
لا يحتاج الأمر إلى نبوغ.
بقي رازوميخين صامتاً بعض الوقت، ثمَّ قال بغتةً بحماسةٍ:
لقد كنت فتى ذكياً راجح العقل على الدوام، لم تكن مجنوناً أبداً! نعم، كلامك صحيح، سأُقبل على شرب الخمر! استودعك الله!
قال رازوميخين ذلك واتجه نحو الباب، فقال له راسكولنيكوف:
كلَّمتَ أختي يارازوميخين، أمس الأول، فيما ذكرت، فتوقفت رازوميخين فجأةً، حتى لقد اصفرَّ وجهه قليلاً وهو يسأله:

عني أنا؟ ..... ولكن أين عساك رأيتها، أمس الأول؟ يستطيع المرء أن يعي أن قلبه قد أخذ يخفق خفقاناً قوياً.

قال راسكولنيكوف:

جاءت إلى هنا! وجلست في هذا المكان! وتكلمنا!

هي؟!

نعم، هي!

ماذا قلت لها؟ أقصد.... ماذا قلت لها عني؟

قلت لها، أنَّكَ شابٌّ ممتازٌ، شريفٌ، مقدامٌ، لم أذكر لها أنَّكَ تحبها، فذلك أمرٌ تعرفهُ هي.

تعرفه...... هي؟

طبعاً، وعليك أن تكون لهما سنداً وحامياً ونصيراً أينما حطت رحالي، وكيفما كان حالي! أقول لك هذا لأنني أعرف مدى ما تحمله لها من حُبٍّ، ولأنني مقتنعٌ بطهارةِ عواطفك ونقاء مشاعرك، وإنني لأعلم أيضاً أنَّها، من جهتها، يمكن أن تحبك، هذا إذا لم تكن قد أحبتك وانتهى الأمر! والآن قرر: هل عليك أن تُقبل على شرب الخمر!

روديا..... اسمع..... طيب..... آه........ وأنت، إلى أين تريد أن تذهب؟ إذا كان ذلك سراً، فاكتمه إن شئت، ولكني سأطلع على السِّرِ آخر الأمر! آ ..... إنني على يقين من أن المسألة لا تعدو أن تكون سخافةً من السخافات، لا تصدق! وإنَّكَ قد اخترت هذا كلَّهُ! مهما يكن من أمر، فأنت شابٌّ رائعٌ، أنت أروع الشباب!

قال راسكولنيكوف:

ولقد أردت أن أقول لك أيضاً ـ لولا أنَّكَ قاطعتني ـ أنَّكَ كنت مصيباً فعلاً حين ذهبت إلى أنَّه لا داعي إلى أن تحاول اكتشاف تلك الأسرار، دع هذا الأمر الآن ولا تقلق، سوف تعرف كلَّ شيءٍ في أوانه، أنني عند الضرورة، بالأمس قال لي أحدهم: إن المرء في حاجةٍ إلى هواء، إلى هواء! وأريدُ الآن الذَّهاب إلى ذلك

الرَّجل لأعرف ما الذي كان يعنيه بذلك الكلام!
كان رازوميخين واقفاً يفكّر، وقد عاد يستولي عليهِ القلق، ثمَّ قال يحدِّثُ نفسه فجأةً: "هو متآمرٌ سياسي، لا شكَّ في ذلك، وهو يوشك أن يقوم بعملٍ حاسمٍ، نعم، هذا هو الأمر، لا يمكن أن يكون الأمر غير هذا، ودوينا تعلم ذلك"
وأردف وهو يقطع كلماته:
إذاً تجيء إليك افدويتا رومانوفنا، وأنت تريد أن ترى ذلك الرجل الذي قال لك أن المرء بحاجةٍ إلى هواء، ما دام حيَّاً..... والرسالة.... معنى ذلك لتلك الرِّسالة علاقةٌ بهذا الأمر.....
بهذه الجملة الأخيرة ختم رازوميخين كلامهُ وكأنَّه يكلِّمُ نفسه.
سألهُ راسكولينكوف:
أيَّةُ رسالة؟
لقد تلقت اليوم رسالة أقلقتها كثيراً، كثيراً جدَّاً، أخذت أتكلَّمُ عنها، فرجتني أن أسكت. ثمَّ.... ثمَّ قالت أن من المرجَّحِ أن نفترق قريباً جداً.... ثمَّ شكرتني بكثيرٍ من الحرارة على أنني.... لا أدري ماذا، وأخيراً مضت إلى غرفتها فحبست نفسها فيها.

سأله راسكولنيكوف شاردَ الذِّهن:
أتلقت رسالة؟
نعم، رسالة. ألم تكن تعرف هذا؟
وصمت الشَّابان
استودعك اللّه روديون، أنا يا صاحبي.... في وقت من الأوقات......ثمَّ.......
استودعك اللّه! نعم، في وقت من الأوقات عنا من هنا.... استودعك اللّه! آن لي أنا أيضاً أن .... لن أشرب. ما الداعي الآن؟

كان مستعجلاً، لكنَّهُ ما كاد يترك الغرفة ويغلق وراءه الباب حتى فتحه فجأةً من جديدٍ، وقال وهو يلقي نظرةً متهربة إلى جانب:

بالمناسبة.... فيما يتعلق بتلك الجريمة.... أنت تعلم حكاية بورفيري..... ومقتل المرأة العجوز.... ألا تتذكر؟ ..... لقد اكتشفوا القاتل.... اعترف القاتل وقدم كل الأدلَّة، تصوَّر أنَّه واحدٌ من أولئك الدَّهانين الذين انبريتُ أنا من تلقاء نفسي للدفاع عنهم... أتتذكر؟ وهناك شيءٌ تفصيليٌّ آخر: إن مشهد المشاجرة مع الرَّفيق، والقهقهات على السُّلَّم بينما كان الآخرون يصعدون، إن ذلك كلَّهُ ابتكره القاتل ليدفع عنه الشُّبهة! ياللمكر! ياللبديهة الجَّاهزة! لا يكاد المرء يصدِّقَ، ولكن الرَّجُل أوضح هو نفسه كلَّ شيءٍ! لقد خدعني في بداية الأمر أنا نفسي! إنَّهُ يملك عبقريةَ المكر والحيلة، عبقريةَ التمويه القضائي، على كلِّ حالٍ، هذه أشياءٌ موجودةٌ، لا داعي للإسراف بالدَّهشة! أيستحيلُ وجود أفرادٍ من هذا النوع؟

وأومأ أنَّه لم يعد يطق صبراً فاعترف بعد مجالدةٍ، فذلك أمرٌ أصدِّقهُ ببساطةٍ. لقد خدعني على كلِّ حالٍ! تصوَّر كم تحمستُ لهم، ودافعت عنهم! سأله راسكولنيكوف وقد ظهر عليه اضطرابٌ واضح:

كيف اطلعت على ما قلت؟ هو يهمك إلى هذا الحد؟

لماذا يهمني الأمر؟ يا له من سؤال!..........

إن بورفيري هو الذي أمدَّني بهذه المعلومات! ثمَّ وهو من أطلعني على كلِّ شيءٍ تقريباً.

بورفيري؟

سأله راسكولنيكوف مرتاعاً.

ماذا؟ ماذا قال لك؟

شرح لي الأمر شرحاً خلاباً، شرحاً "سيكولوجياً"، على نهجه في الشَّرح.

هو نفسه..... شرح لك؟

نعم.... هو نفسه. استودعك الله! سأقصُّ عليك شيئاً فيما بعد، أما الآن فثمَّة عملٌ يجب أن أقوم به، هناك. جاء وقت تصورت فيه أن.... ولكن ما الداعي إلى هذا الكلام؟ سأقول لك فيما بعد!..... ما حاجتي إلى السُّكر الآن؟ لقد أسكرتني أنت بغير خمرٍ! نعم، أنا سكران يا روديا، سكران من غير أن أشرب خمراً. هيا، استودعك الله. سأعود إليك بعد مدَّةٍ قصيرةٍ.

قال رازوميخين ذلك وخرج، وفيما كان يهبط السُّلَّم بخطى بطيئةٍ كان يحدِّثُ نفسه: "هو متآمرٌ سياسيٌّ، حتماً، حتماً، ولقد أقحم أُخته في الأمر، ذلك جائزٌ، بل جائزٌ جدَّاً، إذا نحن نظرنا بعين الاعتبار إلى طبع افدوتيا رومانوفنا. هما الآن يلتقيان في مواعيد بضرباتهما! ألم تفهمني هي نفسها شيئاً من ذلك تلميحاً بكثيرٍ من الكلام الغامض، والإشارات والملاحظات.

نعم هذا كلَّهُ يدلُّ على أن تقديري صحيح، وإلا فكيف تعلِّلُ هذا التعقيد كلَّهُ؟ هه.... وأنا ظننت أن .... آه.... يا رب! ما أكثر ما تخيلت عنه! نعم، كان ذلك ضلالاً، ولقد أثمت بحقه! غير أن ذلك خطأه هو أيضاً، لماذا شوَّشَ فكري، في ذلك المساء، في الدِّهليز، تحت المصباح؟ ها.... يا لها من فكرةٍ دنيئةٍ، خسيسةٍ، تلك الفكرة التي راودتني، وما أعظم شهامة ذاك الفتى نيقولاي حين اعترف بكلِّ شيءٍ! هكذا يتضح الماضي كلَّهُ دفعةً واحدةً: مرض روديا، و أطواره الغريبة، وحتى ما سبق هذه الفترة، حين كان روديا ما يزال في الجامعة فكان مظلم النَّفس، مكتئب المزاج، ولكن ماذا تعني الآن هذه الرسالة؟ لابدَّ أن وراءها شيئاً! من هو مرسلها؟ أظن أنَّها.... هم ..... سأخرج هذا كلَّهُ إلى النور!"

ثمَّ تذكَّر ما يتعلق بدونيا، فرجف قلبهُ حين تذكَّر ذلك، وتخلَّصَ من جمودهِ، وراح يمشي سريعاً يوشك أن يكون هرولة.

ما أن خرج رازوميخين حتى نهض راسكولنيكوف، فاقترب من النافذة، ومشى في الغرفة متنقلاً من ركنٍ إلى آخر، كمن نسي أبعادها..... ثمَّ عاد

يجلس على السَّرير. لكأنَّه تبدَّل تماماً: عاد الصِّراع..... ما يزال هناك إذاً مخرجٌ "نعم، هذا مخرجٌ يظهر أحيانا!" حقاً كان راسكولنيكوف حتى ذلك الحين محصوراً، مخنوقاً، كأنَّ قدراً جثمَ عليه منذ المشهد الأخير مع نيقولاي بورفيري، بل إن مشهداً آخر قد وقع غداة ذلك المشهد الأول ذاته، ووقع عند سونيا ولم ينته، لم ينهيه البتة، كما لعلَّهُ تخيلهُ، ولقد ظهر ضعف راسكولنيكوف فإنهار انهياراً تامَّاً، دفعةً واحدةً، ألم يعترف عندئذٍ، مع سونيا، من أعماق قلبهِ، أنَّه أصبح لا يستطيع أن يحيا حاملاً وحده عبئاً كهذا العبء؟ وسفدريجايلوف؟ إن سفدريجايلوف لغز، إن سفدريجايلوف يقلقه أيضاً من وجهة نظرٍ أُخرى تماماً، لعلَّ هناك صراعاً لا بدَّ من خوضه مع سفدريجايلوف يمكن أن يكون مخرجاً كذلك؟ ولكنَّ بورفيري؟ ذلك شيءٌ آخر!.....

"ها.... هكذا إذاً.... بورفيري نفسه هو الذي شرح لرازوميخين إذاً كلَّ شيءٍ! شرح كلَّ شيءٍ! شرح له كلَّ شيءٍ شرحاً سيكولوجياً.

أنَّه لا يتخلى عن هذه السيكولوجية اللعينة التي يتسلح بها!..... ولكن كيف أمكنه، هو بورفيري، أن يصدِّقَ، ولو دقيقةً واحدةً، إن نيقولاي هو الجاني، بعد المشهد الذي قام بيننا قبل وصول نيقولاي هذا نفسه، وهو مشهد لا يمكن أن يكون له إلا تفسيرٌ واحد؟" كانت ذكرى هذا المشهد الذي وقع بينه وبين بورفيري قد عاودته مراراً كثيرةً في هذهِ الأيام الأخيرة، ولكنَّها كانت تعاودهُ نتفاً صغيرةً، فلو رآها في جملتها لما استطاع أن يحتملها.

" إن ما قام بيننا من أحاديث، وما جرى من حركات وإشارات، وما تبادلناه من نظرات، وما قلناه من أشياءٍ بلهجةٍ معينة، إن ذلك كلَّهُ قد تمَّ على نحوٍ لا يمكن معه أن يكون نيقولاي (الذي كشف بورفيري عن حقيقته منذ تصريحاته الأولى على كلِّ حالٍ" هو الذي استطاع أن يرده عن اقتناعه، أضف إلى ذلك أن رازوميخين قد أخذت تراوده الشكوك والشبهات..... معنى ذلك أن

مشهد الدِّهليز تحت المصباح لم يفته تماماً! وها هو ذا يهرع إلى منـزل بـورفيري! ولكن لماذا ضلله بورفيري على ذلك النحو؟ ما غايته من ذلك؟ ما هدفه؟ لا شكَّ في أنَّه كان يطمحُ لتنفيذِ أمرٍ ما، ولكن ما هو هذا الهدف؟ أيَّةُ مصلحةٍ؟ لا شكَّ في أنَّه كانت له مصلحة، ولكن ماذا كانت تلك المصلحة؟ إن زماناً طويلاً قد انقضى بعد ذلك الصباح، زماناً طويلاً مسرفاً بالطول، لم نعرف خلاله أيَّ أنباءٍ عن بورفيري، إنَّ ذلك لا ينبئ بخير......"

تناول راسكولنيكوف قُبَّعته، وخرج من غرفته غارقاً في أفكاره، هذه أول مرَّةٍ يشعر فيها بأنَّه في حالةٍ طبيعية، طوال ذلك الزمان، وقال لنفسه: "يجب الانتهاء من سفدريجايلوف، مهما كلَّفَ الأمر، وبأسرع ما يمكن، أظنُّ أنَّه، هو أيضاً، يتوقَّعُ أن أذهب اليهِ بنفسي". وفي تلك اللحظة انبجس في قلبه المعذب كرهٌ بلغٌ من القوة، إنَّ راسكولنيكوف كان يمكن في تلك اللحظة أن يقتل أحد أثنين: سفدريجايلوف أو بورفيري، ولقد شعر على كلِّ حالٍ بأنَّه قادرٌ على أن يفعل ذلك، إن لم يكن فوراً فبعد حين، فكان يردُّ قائلاً: سوف، سوف نرى".

ولكن ما إن اجتاز الباب المفضي إلى فُسحةِ السُّلَّم حتى اصطدم ببورفيري بالذات، كان هذا الأخير يهمُّ أن يدخل عليهِ، دُهش بشدَّةٍ، ولكن دهشته لم تدم إلا لحظةُ قصيرةً، أمرٌ غريبٌ: أنَّهُ سرعان ما رأى أن مجيء بورفيري إليه أمرٌ طبيعي لا غرابة فيه، فلم تثر فيه رؤيته أيُّ خوفٍ تقريباً، ارتعش في البداية رعشةً خفيفةً، لكنَّهُ لم يلبث أن عاد يسيطر على نفسه، "لعلَّ هذه هي الخاتمة؟ ولكن لماذا كان يسير محاذراً كهرَّة، ولماذا لم أسمع وقع قدميه؟ أيمكن أن يكون قد تنصت من الباب؟"

صاح بورفيري ضاحكاً:

لم تكن تتوقع زيارتي يا روديون رومانوفتش! لقد كنت أنوي أن أجيء إليك منذ مدَّةٍ طويلةٍ، فلمَّا مررت الآن عرضاً قلت لنفسي: لماذا لا أصعد إليه، فأزوره

زيارةً قصيرةً، مدَّةَ خمس دقائقٍ؟ هل كنت خارجاً، لا أفضِّلُ أن أؤخرك عن الخروج، إذا سمحت سأدخن سيجارة واحدة، لا أكثر.

قال راسكولنيكوف وهو يقدِّمُ لزائره كرسياً، ويظهر له من المودَّةِ والبشاشة والارتياح ما لو رآه هو نفسه لاستغربه حقّاً:

تفضل اجلس يا بورفيري بتروفتش!

أوحت مشاعره السَّابقة دون أن تخلف وراءها أيُّ ظلٍّ، أنَّه ليحدث أن يظلَّ أحد النَّاسِ فريسةَ ذُعرٍ رهيبٍ، ورعبٍ قاتلٍ أمام مجرمٍ من المجرمين قطَّاع الطُّرق، خلال نصف ساعة، حتى إذا وضع المجرم مطواته على عنقهِ، تبدا خوفه كلَّهُ دفعةً واحدةً.

جلس راسكولنيكوف قبالة بورفيري تماماً، ونظر إليه محدِّقاً، فطرفت عين بورفيري، وأشعل سيجارة.

ودَّ راسكولنيكوف لو تقفز الكلمات من أعماق قلبه:

"هيا، تكلَّم، تكلَّم، ما بالك لا تتكلَّم؟"

# الفصل الثاني

أخيراً بدء بورفيري كلامه بعد أن أشعل سيجارةً ونفخ من دخانها نفساً، قال: تباً للسجائر، أنَّها سمٌّ، سمٌّ حقيقي، ولكنني لا أستطيع تركها، إنني أسعل، وأشعر بحكاكٍ في حلقي، وألهث، واختنق، وكرمى لجانبي ذهبت منذ أيام واستشرت الطبيب ب....... الذي يظل يفحص المريض مدَّةً طويلةً نصف ساعة في الأقل، فماذا قال الطبيب؟ بدايةً سخر مني، ثمَّ أخذ يمعن فيَّ جسَّاً وإصغاءً واستماعاً، ثمَّ قال:

" أنت يؤذيك التَّدخين، رئتاك متوسعتان". كلامٌ جميل! ولكن كيف يمكنني أن استغني عن التَّدخين؟ وبم استعيض عنه.؟ أنا لا أشرب خمراً، وذلك مصدر البلاء كلَّهُ، إنَّ مصدر البلاء كلَّهُ هو أنني لا أشرب خمراً، كلُّ شيءٍ نسبيٌّ كما ترى يا رودي رومانوفتش، كلُّ شيءٍ نسبي.

قال راسكولنيكوف يحدِّثُ نفسهُ مشمئزاً: " أتراه يريدُ أن يستأنف شطارته؟" وعادت إلى خياله ذكرى لقائهما الأخيرِ بغتةً، فإذا حمَّت في قلبه العواطف التي كان شعر بها في أثناء ذاك اللقاء.

وتابع بورفيري بترفتش حديثه وهو ما يزال يفتِّش بنظراته الغرفة:

ثمَّ أنني قد سبق وجئتك مساء أمس الأول، كيف؟ أكنت لا تعرف ذلك؟ نعم، جئت إلى غرفتك، إلى هنا، فكما حدث لي اليوم، كنت ماراً أمام المنزل، فقلت لنفسي: "ماذا لو زرتهُ زيارةً قصيرةً؟" ثمَّ صعدت، رأيت الباب مفتوحاً على مصراعيه. ونظرت، وانتظرت برهةً، ثمَّ انصرفت دون أن أترك للخادمة اسمي. ألا تغلق بابكَ بالمزلاج أبداً؟

ربَّاه اكفهرَّ وجهُ راسكولنيكوف، وبدا على بورفيري أنَّه حزر ما يجول في فكره، وتابع كلامه:

أنا إنَّما جئت لأبرِّرَ لك سلوكي! نعم، ينبغي لي أن أبرِّرَ لك سلوكي وأن أعتذر

عنه!

واستمر يقول، وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

ذلك واجبٌ يقع على عاتقي، ولا بُدَّ لي من الوفاء له.

قال ذلك وهو يربت على ركبة راسكولنيكوف بيده ربتة مداعبةٍ تعبِّر عن الألفة والود، ولكنَّهُ اتخذ هيئة الجدِّ والهم في نفس تلك اللحظةِ تقريباً، وخالط نظراته شيء من الحزن، وهذا أمرٌ استغربه راسكولنيكوف جداً، إذ لم يسبق له يوماً أنَّه لاحظ أو تصوَّر أن يكون لبورفيري بتروفتش وجهٌ كهذا الوجه.

و أردف بورفيري:

لقد وقع بيننا في المرَّةِ الأخيرة مشهدٌ غريبٌ يارروديون رومانوفاش! صحيح أن مشهداً غريباً قد وقع بيننا في المرَّةِ الأولى أيضاً، إنَّما في ذلك الوقت.... على كلِّ حالٍ، لا ضير! ..... المهم أنَّك تعدُّني في أرجح الظنِّ آثماً جانياً في حقك، هل تتذكر كيف افترقنا؟ كانت أعصابك ثائرةً جدَّاً وكانت ساقاك تصطكان..... وأنا أيضاً كانت أعصابي ثائرةً جدَّاً وكانت ساقاي تصطكان، الخلاصة جرت الأمور بيننا على نحوٍ يكاد يوصف بقلَّةِ الأدب، وكانت تعوزه اللباقة والكياسة على الأقل، ونحن مع ذلك من النَّاس المهذبين (الجنتلمان)، حتى ليكمن أن أقول أننا من هؤلاء النَّاس قبل كلِّ شيءٍ، وذلك أمرٌ ما ينبغي أن ننساه! نذكر المدى الذي بلغتهُ الأمور..... لقد كان أمراً غيرُ لائقٍ البتة..... يجب أن نعترف بهذه الحقيقة.

تساءلَ راسكولنيكوف مدهوشاً، وهو يرفع رأسهُ، وينظر إلى بورفيري محملقاً: "ماذا يريد مني ؟ ماذا يظنني ؟"

وتابع بورفيري كلامه فقال وهو يحوِّلُ رأسهُ، ويغضُّ بصرهُ، كأنَّه لا يريد أن يدخل الاضطراب إلى نفس ضحيته القديمة، وكأنَّه يكره أن يستغلَّ أساليبه العتيقة، وشباكه الأليفة:

أرى أن الأصلح لنا بعد الآن أن نعمد إلى الصراحة، نعم، إن أمثال تلك الشُّبهات وتلك المشاهد لا يمكن أن تتكرر، لقد جاء نيقولاي منذ أيامٍ، فاتضح كلَّ شيءٍ ولولا ذلك لمضت الأمور في حدودٍ لا أدري مداها! وما قولك في ذلك البائع الحقير اللعين الذي قبع وراء الحاجز ينصت؟ هل تتصور ذلك؟ لا شكَّ أنَّكَ تعرف هذا الأمر التفصيلي، فأنا أعلم أنَّ الرَّجل قد جاء بعدئذٍ إليك أيضاً، غير أن الشبهات والشكوك التي قامت في نفسك كانت خطأ في الواقع، فأنا لم أستدعي أحداً، ولا اتخذتُ أيَّ إجراءٍ بعد، تسألني لماذا لم أتخذ أيَّ إجراءٍ؟ فماذا أقول لك؟ إن الأمر كلَّهُ كان قد شوشني بعمقٍ، كلُّ ما فعلتهُ هو أنني استدعيت البوابين (لا شكَّ أنَّهم رأوك عابراً). إن فكرةً سريعةً كالبرق كانت قد وضحت في ذهني، ذلك أن اقتناعي ياروديون رومانوفتش كان قد تم. وكنت أقول لنفسي: "إذا فاتني أمرٌ فمن الممكن في مقابل ذلك أن أقبض على أمرٍ آخرٍ قبضاً كاملاً ولن تفلت منِّي استنتاجاتي، استنتاجاتي أنا، على كلِّ حالٍ!" أنت يا روديون رومانوفتش شديدُ الاهتياج، بل مفرطٌ في شدَّةِ الاهتياج تلك سمةٌ من سمات خلقك وقلبك، أعتزُّ بأنني (حسب تصوري أعرفها المعرفة على الأقل، ولقد كنت أدرك طبعاً، حتى في ذلك الوقت، إن المرء لا يرى في كل يومٍ شخصاً يأتي فيفضي إليه بما في نفسه دفعةً واحدةً.

صحيح أن هذا يحدث، ولكن نادراً. لا لم تفتني هذه الحقيقة، لكني كنت أقول لنفسي: "لسوف يكفيني مع ذلك أن أعرف واقعةً صغيرةً، صغيرةً إلى بعد الحدود، صغيرةً كلَّ الصِّغر، على شرط أن تكون واقعةً محسوسةً ملموسةً تختلف عن تلك الاستنتاجات السيكولوجية! ذلك أنَّه إذا كان هذا الرَّجل جانياً فلا شكَّ أن بإمكاننا أن ننتظر منه شيئاً محسوساً ملموساً. فمن حقنا إذاً أن نأمل في الحصول على نتائج هي أبعد ما تكون عن التنبؤ!" كنت أعوِّل على طبعك يا روديا رومانوفتش، على طبعك خاصة، وكنت أعقد عليك آمالاً عراضاً!

تمتم راسكولنيكوف أخيراً يسأله حتى دون أن يدرك أنَّه يلقي سؤالاً:

فماذا..... لماذا تقول لي هذا الكلام الآن؟

ثمَّ تسأل تائها في ظنونٍ وتخمينات: "عمَّ يتكلَّم؟ أيمكن أن يقع في اعتقاده حقاً أنني بريء؟"

ردَّ بورفيري على سؤاله:

لماذا أقول لك هذا الكلام؟ أنا إنَّما جئت لأبرر لك سلوكي، لأقوم بواجبٍ مقدَّسٍ، سوف أبسط لك جميع تفاصيل ما حدث، إنَّ كلَّ قصَّةِ الخلاف بيننا جملةً، أنَّكَ قاسيت بسببي أشياءً كثيرةً يا روديون رومانوفتش، ولكني لست شيطاناً رجيماً، وإنني لأدرك حقَّ الإدراك مدى الألم الذي لابُدَّ أن يكون قد أحدث هذا كلَّهُ في نفس إنسانٍ مثلك، إنسانٌ ترهقهُ الحياة، ولكنَّهُ شديد الكبرياء، محبٌّ للسيطرة، نافذُ الصَّبرِ.... نعم...... لا سيما نافذُ الصَّبرِ! مهما يكن من أمرٍ، فأنا أَعدُّكَ أعظم إنسانٍ شرفاً، رغم أنني أشاطرك جميع آرائك، وهذا ما أحرِصُ على أن أقولهُ لك بصراحةٍ تامَّة، دون لفٍّ أو دورانٍ، لأنني يهمني كثيراً أن لا أخدعك ،وأن لا أغشُّكَ، إنني ما أن عرفتك حتى شغفتُ بك، لعلَّكَ ستضحك مما أقوله لك، ومن حقِّكَ أن تضحك، أنا أعلم أنَّك كرهتني منذ أول نظرةٍ ألقيتها عليَّ، فلماذا يجب عليك أن تحبني؟ مهما يكن من أمرٍ، فإنني أريدُ الآن بجميع الوسائل أن أمحو الأثر الأول الذي تركته في نفسك، وأن أُبرِّهِ، على أنني أنا أيضاً، إنسانٌ يفيض وجداًنا وعاطفةً.

أقول لك هذا بصراحةٍ تامةٍ.

توقف بورفيري عن الكلام برهةً في وقارٍ، وشعر راسكولنيكوف بموجةٍ جديدةٍ من الخوف تجتاحه، فهو حين يتصور أن بورفيري يظنُّهُ الآن بريئاً، يحسُّ فجأةً برعبٍ.

واستمر بورفيري يقول:

ربَّما لم يكن ثمَّةَ داعٍ إلى أن أحكي لك كيف بدا كلُّ ما جرى، بالترتيب، حتى أنني أعتقد أن هذا غيرُ مفيدٍ، وأنا أعتقد على الأقل أنني لم أُفلح بذلك. فكيف أشرحُ لك الأمور شرحاً يبرز ظروف المسألة؟ في الأصل سرت شائعات. من أين جاءت تلك الشائعات؟ ماذا كانت تلك الشائعات؟ من أيِّ ناحيةٍ كانت تعنيك؟ إنني أعتقد أن لا داعي أيضاً إلى أن أذكر لك ذلك. أما أنا شخصياً فإن صدفةً هي التي نبهتني، صدفةً طارئةً عارضةً كان يمكن أن لا تحدث. ما هي تلك الصدفة؟ أظنُّ أن الأفضل، هنا أيضاً، أن ألزم الصمت، إن ذلك كلَّهُ (اعني تلك الشائعات، وتلك المصادفات) قد ساهمت في تكوين فكرةً في رأسي. أعترف لك صراحةً - وعلى الإنسان أن يكون صريحاً كلَّ الصراحة متى بدأ يعترف، أليس كذلك؟ - أعترف لك صراحةً أنني كنت أول من وضعك موضع الاتهام، إن كتابات العجوز على الأشياء المرهونة وسائر تلك الأمور التي من هذا النوع، لا قيمة لها البتة وليست تدلُّ على شيءٍ! بإمكاني إيجاد الكثير من مثل هذه الأمور، فهي لا تعدُّ ولا تحصى.

وقد أتيح لي أيضاً أن أسمع تفاصيل المشهد الذي وقع في قسم الشُّرطة، وكان هذا بفضل مصادفةٍ من المصادفات، والشَّخص الذي روى لي ذلك المشهد لم يكن شخصاً عادياً، إنَّما كان شاهداً رئيسياً وعى المشهد كلَّهُ وعياً ممتازاً، فهو لم يدرك هذا إدراكاً تاماً. وكان ذلك كلَّهُ يشبه بعضه بعضاً ويعضد بعضه بعضاً يا عزيزي روديون رومانوفتش، فكيف لا تقوم في ذهني فكرةً ما، وكيف لا أسير في اتجاهٍ ما؟ يقول مثلٌ انكليزي: مائة أرنبٍ لا تصنع حصاناً، ومائة شبهةٍ لا تكون برهاناً. هذه هي الحكمة بعينها طبعاً، ولكن أنَّى للمرء أن يقاوم الأهواء! ذلك أنَّ قاضي التحقيق ليس إلا أنساناً!..... وقد تذكرت أيضاً مقالتك الصَّغيرة تلك التي كنت نشرتها في مجلة، والتي حدثتني عنها بالتفصيل حين زرتني أول مرة، لقد سخرتُ منك عندئذٍ، لكني فعلت ذلك لأحثُّكَ على الإدلاء بمزيدٍ من الاعترافات، أعود فأقول أنَّكَ قليل

الصَّبر ومريضٌ جداً، يا رودين رومانوفتش، وأنت عدا ذلك كبير الجرأة، جامح الاندفاع، كثير الجدِّ، لقد شعرت أنت بأشياءٍ كثيرةٍ، نعم شعرت بأشياءٍ كثيرةٍ... وكنت أنا أُقدِّرُ ذلك منذُ مدَّةٍ طويلةٍ، إنني أعرف جيداً أمثال هذه الإحساسات، فحين قرأ مقالتك خُيِّلَ إليَّ أنني سبق لي أن قرأتها، لاشكَّ عندي في أنَّك في ليالي أرقٍ وحمَّى كان ينبغي لك مع ذلك أن تلجمها، إنَّما تصورت تلك المقالة، أليس كذلك؟ ولكن من الصَّعب على المرء أن يلجم حماسةَ الشَّباب الأبيَّةِ في نفسه.... ولئن سخرت من مقالتك عندئذٍ، فأنني استطيع أن أقول لك الآن أنني أحببت كثيراً، أحبُّ هوايةً والحقُّ يُقال، تلك المقالة الأولى، والنضرة المتأججة التي جرى بها قلمٌ شابٌّ، صحيحٌ أنَّها كانت ملأى بدخانٍ، بضبابٍ، غير أنَّ وتراً كان يهتزُّ في ذلك الضباب وفي ذلك الدخان، وصحيحٌ أن مقالتك كانت ملأى بنزوات خيالٍ وتناقضات منطقٍ، ولكنَّ المرء يحسُّ فيها نبرةَ الصِّدقِ! صحيحٌ أنَّ فيها شيئاً من كبرياءِ شابٍّ نزيهٍ ونوعاً من صلفٍ لا مسوغٍ لهُ، ومن تهور يائسٍ مستميتٍ، وصحيحٌ وصحيحٌ أنَّها قاتمةٌ، قاتمةٌ جداً، ولكن ذلك كلَّهُ حسنٌ..... كنت قد قرأت إذاً مقالتك، ثمَّ وضعتها جانباً، لكني حين وضعتها جانباً قلت لنفسي: "إنَّ رجلاً كهذا الرَّجل لن يكتفي بهذا". فقل لي من فضلك: كيف كان يمكنني بعد تلك المقدمات ألا أندفع إلى تلك النتائج؟ أتُراني في هذه اللحظة أقول شيئاً يمكن أن.....؟ أتُراني أؤكِّدُ شيئاً؟.... إنني لم أزد حينذاك على أن سجلت ملاحظاتٍ، ماذا يضمُّ ذلك كلَّهُ؟ لا شيء، لا شيء البتة، ربَّما لا شيء قطعاً! معنى هذا أنني لا أستطيع، وأنا قاضي التحقيق، أن أتباهى باندفاعاتي وحماساتي تلك! وهذا نيقولاي على ذراعيَّ، وهذه وقائع ملموسةٌ تتناولهُ...... إنَّها وقائعٌ رغم كُلِّ شيءٍ، هي وقائعٌ شئتُ أم أبيت! وله هو أيضاً سيكولوجيا خاصةٌ به، ذلك أنني لابدَّ لي من الاهتمام به، لأنَّ القضيَّةَ كما يرى قضية حياةٍ أو موتٍ، أليس كذلك؟ ربَّما سألتني لماذا أشرح لك هذا كُلَّهُ؟ فاعلم إذاً

أنني إنَّما أشرحه لك لكي تعرف حقيقة الأمر، وتبرئني في قرارة نفسك وضميرك فما تحكم عليَّ أو تدينني إذ تتذكر ما بدر مني في ذلك اليوم من خُبثٍ وشرٍ. هذا عدا أن ما بدر مني لم يكن خبثا وشراً، أؤكدُ لك ذلك. هيء هيء هيء! وأنت تقول لنفسك: "لماذا لم يجيء إلى مسكني يفتشه حينذاك؟" فاعلم أنني جئت! هيء هيء!... بينما كنت أنت مريضاً مدنفاً، ولم آت بصفةٍ رسميةٍ، ولكني جئت، وفتشتُ بيتك تفتيشاً دقيقاً لم تنبح منه أخفى زواياه وأركانه. حدث هذا منذ أولى الشُّبهات..... ولكن دون جدوى، عندئذٍ قلت لنفسي:" الآن، سيجيء هذا الرَّجل، سيجيء من تلقاء نفسه، وسيجيء في وقتٍ قريبٍ جداً، إذا كان هو الجاني فلا بدَّ أن يجيء، لو كان الجاني شخصاً آخر غيره، ربَّما لن يأتي، أما هو فلا مهرب من مجيئه إذا كان جانياً". هل تتذكر كيف أخذ السَّيد رازوميخين يطلعك على الأمر؟ نحن الذين دبرنا هذا لنبث في نفسك الاضطراب، ونحن الذين رتبنا الأمور ترتيباً يَجعل رازوميخين عاجزاً عن كظمِ غضبه وكبت استيائهِ، ذلك أن السَّيد رازوميخين واحد من أولئك النَّاس الذين لا يستطيعون أن يكتموا غيظهم، أما زاميوتوف فإنَّ الشيء الذي أدهشه فجأةً إنَّما هو غضبك وتهورك الصَّريح، عجيبٌ أمرك: كيف يستطيع إنسانٌ أن يعوِّلَ قائلاً في حانةٍ على حين فجأةٍ: "لقد قتلت أنا!"؟ حقاً في هذا الإسراف، هذا تهورٌ رهيبٌ!... وعندئذٍ قلت لنفسي: "إذا كان مثل هذا الرَّجل جانياً فلا بدَّ أن يكون خصماً صعب المراس على كلِّ حالٍ" نعم، ذلك ما قلته لنفسي حينذاك، وانتظرت، انتظرتك بكلِّ ما أملك من قوى، بينما أنت قد جندلت ذلك المسكين زامبوتوف....

والمصيبة كلَّها إنَّما هي السيكولوجيا اللعينة ذات الحدين.

كنت إذاً انتظرتك، فأرسلك الله لي في ذات يومٍ! لقد جئت! لشدَّةِ ما أخفق قلبي في ذلك اليوم! ما كانت حاجتك إلى المجيء؟ وذلك الضحك، ضحكك المجلجل الذي كنت تطلقهُ حين دخلت، هل تتذكره؟

ذلك كلَّهُ كان في نظري واضحاً وضوح الماء النابع من الصَّخر، لقد قدَّرت كلَّ شيءٍ! ولكن لولا أنني انتظرتك وأنا في حالةٍ نفسيةٍ خاصَّةٍ، لما كان لضحكك في نظري عندئذٍ أيُّ دلالةٍ، فانظر إلى قيمة أن يتوقع المرءُ شيئاً! والسيد رازوميخين، في ذلك اليوم..... آ.... والصَّخرةُ التي خبئت تحتها الأشياء! يُخيَّلُ إليَّ أنني أرى تلك الصخرة، أراها في مكان ما، في بستانٍ من البساتين..... أليس عن بستانٍ إنَّما حدثت زاميوتوف أولاً، وعن ماذا بعد ذلك؟ وحين أخذنا نحلل مقالتك، حين قمت أنت بعرض ما تضمنتهُ تلك المقالة من آراء، فإنَّ كلَّ قولٍ من أقوالك كان ذا معنى مزدوج: فوراء كلِّ قولٍ من تلك الأقوال كان يختبئ في نظري معنى مضمر. نعم، يا روديون رومانوفتش، بهذه الطريقة إنَّما وصلت إلى تلك النقطة القصوى، ولكني حين وصلت إلى تلك النقطة القصوى فاصطدم بها رأسي، كان لابدَّ أن أثوب إلى رُشدي، قلت لنفسي: "إلى أين أنا ذاهب؟" ذلك أننا نستطيع، إذا نحن شئنا، أن نفسِّر جميع تلك الأشياء تفسيراً مخالفاً لهذا التفسير الجديد أن يكون أقرب إلى الاحتمال. نعم، قد يكون أقرب إلى الاحتمال، إنني أعترف بذلك، لشدَّةِ ما تعذبت! قلت لنفسي: "لا، لا، أن أرى واقعةً تفصيليةً صغيرةً تنفعني أكثر مما تنفعني هذه الاستنتاجات كُلُّها!" لذلك حين سمعت تلك القصة، قصة جرس الباب، رأيتني أوشك أن أسقط، وسَرَت في جسمي رعشةٌ، وأقول في سريرةِ نفسي: "آ... ها أنا ذا أقع أخيراً على الواقعة التفصيلية المنشودة! هي بذاتها! ولم أحاول عندئذٍ أن أُعمل عقلي وأن أفكر، كنت لا أرغبُ في ذلك أيَّةَ رغبةٍ، وكنت مستعداً لأن أدفع في تلك اللحظة ألف روبلٍ في سبيل أن أراك بعيني تسير مائة خطوة، جانباً إلى جانب، ؟؟لقب القاتل؟؟، فلم تجرؤ طوال تلك الخطوات المائة أن تسأله عن أيِّ شيءٍ! وتلك الرعدات التي كانت تسري في ظهرك، وذلك الجرس الذي كنت تتكلم عنه في أثناء هذيانك؟ فلماذا تستغرب هذا، يا روديون رومانوفتش، أنني لجأتُ إلى تلك الطريقة التي تعرفها؟ ثمَّ لماذا جئتني في ذلك

الأوان؟ يميناً هناك شيءٌ كان يدفعك إلى هذا المجيء دفعاً.... ولولا نيقولاي قد تدخَّل في أمرنا..... فـ ....... هل تتذكر وصول نيقولاي؟ هل تتذكرهُ جيداً؟ آه.... كان ذلك أشبهُ برعدٍ مفاجئٍ! نعم، كأن الصاعقة نزلت عند قدمي، ولكن كيف استقبلت أنا ذلك؟ لم يهزني الرَّعد.... لم تهزني الصَّاعقة.... ولم أصدق قوله، ولا كلمةً واحدةً! لابدَّ أنَّك لاحظت ذلك، وبعد انصرافك، حين أخذ يجيب عن أسئلتي حول عددٍ من النقاط إجاباتٍ مُحكمةٍ متوافقةٍ تبلغ من الأحكام والتوافق أنَّها أدهشتني حقاً، لم أشأ أن أصدق أقواله حينذاك، أنظر إلى مدى تأثير الفكرة التي تقوم في الذِّهن وتستقر فيه راسخةً! قلت إلى نفسي: "لا، لا، فورغن فري[1] أن نيقولاي لا شأنَ له في هذا الأمر كلَّهُ!"

قال راسكولنيكوف:

قال لي رازوميخين منذ قليلٍ أن اتهامك ينصبُّ الآن على نيقولاي، وأنَّك أقنعت رازوميخين بأن....

ولكن راسكولنيكوف لم يستطع أن يتم كلامه، فقد اختفت أنفاسه، كان يشعرُ بانفعالٍ شديدٍ واضطرابٍ لا يغالب، في أثناء إصغائه إلى حديث هذا الرَّجل الذي ينفذ إلى سريرته نفوذاً عميقاً، وفي نفس الوقت يرفض استنتاجاته رفضاً قاطعاً وكان يخاف أن يصدِّق ما كان يقوله هذا الرجل، بل كان يرفض أن يصدقهُ، ويحاول بإلحاحِ الشَّديدِ أن يدرك في كلماته معاني محددةً دقيقةً.

وكإنَّما فرح بورفيري أن يرى راسكولنيكوف يلقي عليه سؤالاً بعد أن ظلَّ صامتاً طوال الوقت، فصاح يقول:

السَّيد رازوميخين! هيء هيء!.... ذلك أن المسألة كانت هي التخلص من رازوميخين: حيثما يتسع المكان لإثنين، يكن الثالث زائداً! رازوميخين شيءٌ

1- "إلى صباح الغد": بالألمانية بالأصل، تعبير ألماني معناه: "على من هذا الكلام! لا أصدقك!"

آخر، هو غريبٌ عن هذا كلِّهُ! ثمَّ أنَّه قد جاء شاحب الوجه، أكمده.... ولكن دع السيد رازوميخين جانباً الآن، وليكن الله معه! أما عن نيقولاي فهل يهمُّكَ أن تعرف أيَّ نوعٍ من النَّاس هو، أو كيف أتصورهُ أنا على الأقل؟ هو قبل كلِّ شيءٍ طفل، إنَّه لما يبلغ سنَّ الرُّشد، ولست أدَّعي أنَّه جبانٌ رعديدٌ بمعنى الكلمة، ولكن في وسعي أن أشبِّههُ بفنانٍ! نعم! ولكن لا تسخر مني ومن تصوراتي هذه! هو ساذجٌ يتأثَّرُ بأتفهِ شيءٍ، ذو قلبٍ رقيق، وخيالٍ.

تعلم في المدرسة، وأحسنَ الغناءَ والرَّقص، ويظهر أنَّه يجيد رواية الحكايات الشَّعبية يسعى النَّاسُ إليه من بعيدٍ ليسمعوهُ وهو يضحك من صميم قلبه في كثيرٍ من المناسبات، ويظلُّ يشربُ حتى يسقط كالميت من فرطِ السُّكرِ. ولكنَّه لا يشرب لأنَّه يهوى السُّكر، وإنَّما ليفعل ما يفعل الآخرون إذ به يغررون كما يغررون بطفلٍ، فهم لا ينفكون يصبون له خمراً! لقد سرق منذ مدَّةٍ، ولكنَّهُ لم يدرك أنَّه سرق، قال يفسر فعلته: "تناولت ما كان ملقى في الأرض، فأنا لم أسرق". هل تعرف أنَّه من شريحة "راسكولينكي"[1]، بل ومن الطائفتين؟ ـ (من طاف، جال) وهو نفسه خضع لسلطان أحد مشايخ النساك في الأقاليم مدَّةَ سنتين، ذلك كلَّهُ قد عرفته من نيقولاي نفسه، ومن أهل بلدته "زارايسك"، فضلاً عن ذلك كان يريد أن يغادرَ إلى الصَّحراءِ مُصرَّاً إصراراً شديداً، كان متحمساً للتقوى حماسةً لا تصدق، فكان يقضي لياليه مصلياً متهجِّداً، يقرأ الكتب المقدَّسة، ويعيد قراءتها..... الكتب العتيقة.... الكتب "الحقيقية!"....... ثمَّ أحدثت فيه بطرسبورغ تأثيراً رهيباً، أصبح يحبُّ الجنس الضعيف، بل وصار يحبُّ الخمرة بعض الحبِّ أيضاً، ولما كان شديدَ التأثر بالبيئة التي تحيط به، سرعان ما نسي شيخه، وأنا أعلم أن فناناً رساماً شرع

1- انتسب عدد من أسرته إلى ملة "الجوالين" (أصحاب العقيدة القديمة) شاركوا في حركة مناهضة الكنيسة الرسمية في روسيا، ظهرت في القرن بسب إدخال تعديلات على الطقوس على يد رأس الكنيسة نيكون راسكولينك المنشق.

يهتم بـه، وكـان يـزوره مـن حـين إلى آخـر، ولكـن في تلـك الآونـة، وقـع ذلـك الحدث المؤسف، استولى الخوف على الفتى بدايةً، فـأراد أن يشـنقَ نفسـه أو أن يهـرب، مـا حيلتنـا إذا كـان الشَّـعبُ قـد كـوَّنَ لنفسـه مثـل هـذه الأفكـار في قضائنا؟ إن كلمة "المحكمة" وحدها ترهب وتلقي الذُّعر في النفوس، ذنب مـن هـذا؟ مـن يـدري إن كانـت المحـاكم الجديـدة تسـتطيع ردَّ الأمـور إلى نصـابها؟ نعم، أسـأل اللّه إن...... على كلِّ حالٍ، فقد وضع نيقـولاي في الحـبس، ولا شـكَّ أن ذكـرى شيخه المحترم المقـدَّس رجـع يفعل فعلهُ في نفسـه! أتعـرف يـا روديـون رومانوفتش مدى لفكرةِ "الألم" من تأثير في بعض النَّـاس؟ إن ثمَّـةَ أناسـاً يحبـون أن يتألموا لا في سبيل شخصٍ ما فحسب، بل هـم يحبـون أن يتـألموا وكفـى، لأن علـى المـرء أن يتـألم، وأن يقبـل الألـم ويرتضـيه، لا سـيَّما حـين تفـرض هـذا السلطات، لقد عرفت في الماضي سجيناً موادعاً مسالماً إلى أبعـد الحـدود، لبـث في السِّجن سنةً كاملة يتربَّعُ فوق المدفأةِ ليقرأ الكتاب المقدَّس في كلِّ ليلةٍ من الليالي، حتى بلغ من ذلك أنَّه في ذات يومٍ مـن الأيـامِ خلـع آخـره علـى حـين فجـأةٍ بغيرِ سببٍ، فرمى بها مديرُ السِّجن دون أن يكون هذا الأخير قد اسـتفزه أتفـه استفزازٍ، ولكـن كيف رمى السَّجين آجرته؟ لقد رماهـا عمـداً بحيـث تسـقط بعيدةً عن هدفها مسافة مترٍ على الأقل، فـلا تـتمكن أن تجـرح المقصـود الـذي كان يجب أن تتجه إليهِ وأنت تتخيَّلُ ماذا كان يحدثُ لسجينٍ يستعملُ العنف مع مـدير السِّجن! لقـد ارتضـى الرجـل أن "يتحمـل الألم"! لـذلك أرانـي أميـل إلى الاعتقـاد أن نيقولاي يستهدف شـيئاً مـن هـذا النـوع! بل أنـني مـؤمنٌ مقتنـعٌ بهـذا. يكفي أن ندقق بالوقائع! ولكن نيقولاي لا يعرف أنني أعرف، مـاذا؟ أتـراك لا تصـدِّق أن مـن الممكـن أن يخـرج مـن شـعبٍ كشـعبنا أفـرادٌ خـارقون إلى هـذه الدرجة! أؤكـد لكَ مع ذلك أن أمثال هؤلاء الأفراد كثيرون، إنَّ تأثير الشَّيخ في نيقولاي قد عاد يظهر الآن من جديد، لا سـيَّما في اللحظـات الـتي يتـذكَّرُ فيهـا أنَّه أراد أن يشنق نفسهُ، على كلِّ حالٍ، سيجيءُ فيقصُّ عليَّ كلَّ شيءٍ بعظمةِ

لسانه! هل تظنَّ أنَّه سيصرُّ على أقواله؟ لترين أنَّهُ متراجعٌ عنها! أنني أنتظر، من لحظةٍ إلى أُخرى، أن يتراجع عن اعترافاته الأولى، لقد أخذتني بنيقولاي هذا عاطفةٌ، فعكفت أتعمَّقُ دراستهُ. هل تتصور، لقد استطاع في بعض النقاط أن يضفي على أقواله مظهر المعقوليَّة! واضحٌ أنَّه كان قد فكَّر في الأمر وحصل، كما يبدو على المعلومات اللازمة، ولكنَّهُ في نقاطٍ أخرى كان يتناقض، إنَّه لا يعرفُ شيئاً البتة، بل ولا يدرك أنَّه لا يعرف!..... لا ياروديون رومانوفتش، ليس نيقولاي هو الجاني! نحن إزاء قضيةٍ غامضةٍ عجيبةٍ كالخيال، إن هذهِ الجريمة تحمل طابعَ الزَّمانِ الذي نعيشه، أنَّها تحمل طابع عصر اضطرابٍ فيه القلب الإنساني، عصرٌ يقول فيه بعضهم، مستشهداً بأقوال كُتَّابٍ ومفكرين، إنَّ الدَّمَ "يطهر"، لا شأن فيه ولا وزن لغير البحث عن الدِّعَةِ والسعي إلى الرَّخاء، نحن إزاء حُلُمٍ يطوف برأس شابٍّ أسكرتهُ الأوهام والأخيلة الكتابية، وسممت قلبه الآراء والنظريات! إنَّ الجاني قد استجمع للقيام بتجربته قدراً كبيراً من الجُرأة، ولكن جرأته هذه ذات طابعٍ خاصٍّ، حتى لكأنَّه جاء يرتكب الجريمة لا سيراً على قدميه، لقد نسي أن يغلق الباب وراءه، ولكنه قتل، قتل شخصين، انقياداً لنظريته.

وقد قتل، لكنَّهُ لم يعرف كيف يستولي على المال، وما استطاع أن يحمله معه، إنَّما مضى بعد ذلك يدفنه تحت صخرةٍ، ولم يكتف بأنواع القلق والخوف التي كان قد عاناها في حجرة المدخل بينما كان يسمع قرعاً قوياً على الباب، وبينما كان الجَّرسُ يرنُّ تذكَّرَ ذلك الجَّرسَ بعد ذلك وهو في حالةٍ تشبهُ الهذيان، فرجع إلى البيت الخالي ليشعر مرَّةً أخرى بتلك الرَّعدة الباردةِ نفسها التي سُرَّت بين كتفيه أول مرَّةٍ.... لنسلِّمَ بأنَّ ذلك نتيجةً من نتائج المرض، غير أن هناك شيئاً آخر: لقد قتل، ولكنَّهُ يعتقد أنَّه إنسانٌ شريفٌ، وهو يحتقر النَّاس، ويصطنع دور ملاك! لا ياروديون رومانوفتش، ليس نيقولاي هو الجاني، لا يا عزيزتي، ليس هو نيقولاي أبداً! تمتم راسكولنيكوف يسأل

بصوتٍ مختنقٍ وقد نفذت قدرته على الاحتمال:

من ...... الذي...... قتل.... إذاً؟...

فارتدَّ بتروفتش إلى وراء، مستنداً على ظهر كرسيه كأنَّ هذا السؤال قد أذهلَّهُ، وقال متظاهراً بأنَّه لا يريدُ إيذائَهُ:

من قتل؟ سؤالٌ عجيب..... الذي قتل هو أنت يا روديون رومانوفتش.... ثمَّ كرر يقول بما يشبهُ الهمس، ولكنَّ لهجتهُ كانت لهجةَ المقتنع كلَّ القناعة:

أنت الذي قتلت!

نهض راسكولنيكوف عن الديون وثباً، ولبث واقفاً بضع ثوانٍ، ثمَّ عاد يقعد دون أن يقول كلمةً واحدةً.

وطافت بوجهه حركات تشنجية.

دمدم بورفيري بتروفتش يقول بنوعٍ من العطف:

ها هي ذي شفتاك ترتجف كما ارتجفت في المرَّةِ السَّابقةَّ ثمَّ أضاف بعد صمتٍ طويلٍ:

أحسبُ أنَّكَ لم تفهمني جيداً يا روديون رومانوفتش، وهذا هو السَّببُ في أنَّكَ مندهشٌ إلى هذهِ الدَّرجةِ من الدَّهشة، أنا إنَّما جئتك لأقول لك كلَّ شيءٍ، ولأوضِّحَ لك الأمور إيضاحاً كاملاً، تأتأ راسكولنيكوف كطفلٍ ضُبِطَ بالجرمِ المشهود:

ما أنا الذي قتلت!

أجابه بورفيري بهمسٍ وبلهجةٍ رصينةٍ فيها قناعة:

بل أنت الذي قتل ولا أحد سواك!

وسكت الاثنان، وأعقب ذلك صمت، صمتٌ غريبٌ طويلٌ، دام عشرُ دقائق. كان راسكولنيكوف قد وضع كوعيه على المائدة، وراح ينعث شعره بأصابعه، وقد ظلَّ بروفيري بتوفتش جالساً هادئاً، ينتظر، وفجأةً نظر إليه راسكولنيكوف باحتقارٍ:

تستأنف أساليبك يا بورفيري؟ أتظلُّ تستعمل أساليبك الأبديَّةَ هذهِ؟ ألا تشعر بملل وسأمٍ من هذا آخر الأمر؟

ردَّ بورفيري:

أوه! لا داعي الآن للأساليب! لو كان هنا شهودٌ، لاختلف الأمر طبعاً، ولكنا نتحدث على انفرادٍ وفي خلوةٍ! أنت نفسك ترى أنني لم أَشُكَّ لأنصُبَ لك شركاً وأصطادك كأرنب! أنَّه ليستوي عندي الآن أن تعترف وألا تعترف! فقناعتي قائمةٌ على كلِّ حالٍ!

سأله راسكولنيكوف غاضباً:

لماذا جئت إذا كان الأمر كذلك؟ إنني أطرح عليك هذا السؤال من جديد: إذا كنت ترى أنني أنا الجاني، لماذا لا تسجنني؟

هذا سؤالٌ معقولٌ فعلاً، وسوف أجيبُ عليه نقطةً نقطةً، فأقول أولاً: ليس من مصلحتي أن أعتقلك منذ الآن.....

كيف لا يكون من مصلحتك؟ إذا كنت قانعاً فيجب عليك أن....

ما قيمة هذا؟ ذلك لا يقوم حتى الآن إلا على افتراضاتي، ثمَّ فيم أضعك هناك فترتاح؟ لو سجنتك لأرحتك، إنَّكَ تعرف الجواب ما دمت ألقيت السؤال، ولنفرض مثلاً أنني واجهتك بالبائع الحقير فقلت له: "أتراك ما تزال سكران؟ من الذي رآني معك؟ أنا لم أزد على أن أعددتُكَ سكيراً لأنَّكَ كنت سكران!" فبماذا يمكنني عندئذٍ أن أعترض؟ لاسيَّما وأنَّ روايتك ستكون أقربُ إلى العقل من روايتيه هو، لأنَّ أقواله لن تكون قائمةً إلا على السيكولوجيا وستكون أنت قد ضربت على وترٍ حساسٍ لأنَّ هذا الأبله سكيرٌ مدمنٌ حقّاً، كلُّهم يعرفون هذا، ومن جهةٍ أُخرى، ألم أعترف لك أنا نفسي، مراراً، بأنَّ هذه السيكولوجيا ذات حدَّين، والحدُّ الثاني أهمُّ من الأول شأناً وأبلغ خطراً. هذا عدا أنني لا أملك حتى الآن أيُ دليلٍ وضعيٍّ عليك طبعاً، سآمر باعتقالك، ورغم أنني، على خلاف السنن والأصول، جئتك لأعلن كذلك، فإنني على

خلاف السنن والأصول أيضاً، أصرِّح لك أن اعتقالك ليس في مصلحتي، ذلك أولاً، وأما ثانياً، فإنني جئت لكي.....

لكي ؟

كان راسكولنيكوف يلهثُ، فأجابه بورفيري:

سبق أن قلت لك! لقد جئتك لكي أبرر سلوكي واعتذرُ عنه! ذلك حقٌّ لك عليَّ، لا أريد أن تحسبني شيطاناً رجيماً، لاسيَّما وأنني أضمرُ عاطفةً طيبة، صدَّقتَ أم لا! ينتج من هذا ـ وهذه هي النقطة الثالثة ـ أنني جئتك لاقترح عليك اقتراحاً صريحاً دون أيَّةِ فكرةٍ مبينة: أنني أشجعك على فقء هذه الدُّمَّلِ، فتمضي تعترف بأنَّكَ أنت الجاني. ذلك خير لك، وأَجدى عليك، وهو أنفع لي أنا أيضاً، لأنَّه يخلِّصُني من هذا العبء! ما قولك؟ أليس هذا الاقتراح صراحةً مني؟

فكَّرَ راسكولنيكوف دقيقةً، ورد:

اسمع بورفيري بتروفتش، قلت أنت نفسك إن كلُّ ما تملكهُ من قرائن ضدي لا يعدو أن يكون استنتاجاً سيكولوجياً، وأنت تتوق إلى دليلٍ رياضيٍّ. فما الذي يضمن لك أنَّكَ لست على خطأ؟

لا، ياروديون رومانوفتش، لست على خطأ، أنا أملك الآن دليلاً، دليلاً اهتديت إليه منذُ مدَّةٍ، إن اللّه هو الذي أرسل لي هذا الدَّليل.

أيُّ دليلٍ؟

لن أقول لك يا روديون رومانوفتش، ثمَّ أنني أصبحت لا أملك حقَّ التأجيل، فسوف أعتقلك، إنَّما أحكم على الأمر بنفسك: أنا الآن لا يهمني القرار الذي قد تتخذه، ومعنى هذا أنني إنَّما أكلمك خدمةً لمصلحتك وحدها، شهد اللّه ياروديون رومانوفتش أن ذهابك إليَّ للاعتراف بفعلتك خير لك.

ضحك راسكولنيكوف ساخراً، ثمَّ قال:

ليس كلامك مضحكاً فحسب، بل هو قبحٌ أيضاً. هبني الجاني (وذلك ما لا أعلنه قطعاً) ففيما أمضي أسلم بنفسي لكم، وقد قلت لي أنت نفسك أنَّك

ستجني حتماً "للراحة"؟

ياروديون رومانوفتش، لا تسرف في فهم ما أقول لكَ فهماً حرفياً، من الجائزِ جداً ألا تكون هي "الرَّاحةُ" تماماً! وما هذا إلا نظريةٌ خاصةٌ بي، وهل أنا في نظرك حجَّةٌ؟..... ولعليَّ أنا نفسي أخفي عنك في هذه اللحظة شيئاً ما، إنَّكَ لا تستطيع أن يطمع في أن تتلقى مني جميع مساراتي وأن تستعملك على هواك!

أما النقطة الثانية، أعني الفوائد التي ستجنيها من الاعتراف، فهي واضحةٌ تماماً فيما أظنُّ، فكِّر في تخفيف العقوبة وحدها! في لحظةٍ قد نسب فيها شخصٌ آخر إلى نفسه جريمة قتلٍ، وبلبل القضية كلَّها..... على كلِّ حالٍ، فإن لك عليَّ عهداً أمام الله أنني سوف أعرف كيف ألفُّ وأدورُ واختالُ على الأمر بحيث تخرج منه على خير وجهٍ، حتى يكون مجيئك كأنَّه مفاجئٌ مفاجأةً تامَّةً، سوف نخرِّبُ كلَّ ذلك الصَّرح السيكولوجي، سوف أبدد جميع الشبهات التي قامت ضدَّكَ بحيث تبدو جريرتك نوعاً من الانقياد والهواية والغواية، وهي في الحقِّ كذلك، أنا رجلٌ شريفٌ يا روديون رومانوفتش، وسأحقق وعدي، وإنني بوعدي.

خفض راسكولنيكوف رأسهُ، وبعد صمتٍ مديدٍ، بسم من جديد، ولكن ابتسامةً كانت في هذه المرَّة رقيقةً إنسانيَّةً.

قال كمن أصبح لا يحاول أن يخفي شيئاً أمام بورفيري:

لست بحاجةٍ لتسامحكم!

فهتف بورفيري مندفعاً كإنَّما على غير علم منه:

ذلك بعينه ما كنت أخشاه! نعم، أنا كنت أخشى ألا تكون في حاجةٍ إلى تسامحنا!

فألقى عليه راسكولنيكوف نظرةً حزينةً نافذةً مؤثرة، وتابع بورفيري كلامه:

لا تحتقر الحياة بهذا القدر! إن الحياة ما تزال طويلةً أمامك، كيف لا تحتاج

إلى تسامح؟ كيف؟ (لا إنَّك لصعبُ المراس حقاً).

ما عسى يكون أمامي بعد الآن؟

أمامك الحياة! أأنت نبيٌّ؟ ما أدراك؟ أطلب تجد! لعلَّ اللّه يجربك.... ولن تكون القيود آبدة.

أردف راسكولنيكوف بابتسامةٍ ساخرةٍ:

سوف يخففون عقوبتي!

لعلَّ خجلاً برجوازياً هو الذي يمنعك، علم غير علم منك، من أن تعترف بأنَّك أنت الفاعل، لأنَّكَ شابٌّ، غير! ولكن عليك أن ترتفع فوق هذا.

دمدم الفتى يقول بلهجة احتقارٍ وشيءٍ من الاشمئزاز أيضاً، كأنَّه لا يريد أن يتكلَّم:

لست مبالياً بهذا كلَّهُ!

ثمَّ بدا عليه أنَّه يهمُّ أن ينهض ليخرج إلى مكان ما، ولكنَّهُ عاد يقعد، وهو ينوء تحت عبءٍ يأسٍ كبيرٍ لا يستطيع إخفاءهُ! قال بورفيري:

لست تبالي؟ أنت إنسانٌ واسعُ الرَّيبةِ، إذ تظنُّ أنني أحاولُ أن أتملَّقكَ بشكلٍ فظٍّ؟ ولكن أخبرتُكَ الحياة عمقاً وتشوفاً؟

أأنت تفهم كلَّ هذا القدر من شؤون الحياة؟ لقد تخيَّل نظريةً وهو يستحي أن يراها تخفق، أو أن يلاحظ على الأقل أن ما خرج منها وترتَّبَ عليها ليس فيه كثيرٌ من الجدَّةِ والأصالة؟ إلا أن خرج من نظريتك لهوٌ أقرب إلى السوء فعلاً! ولكنك لست امرءاً سافلاً ضاع إلى الأبد! أنت لست ذاك السَّافلُ، لا! ولكنك على كلِّ حالٍ، لم تمعن التفكير في الأمر، بل تطرفت فمضيت إلى الحدِّ الأقصى على كلِّ حالٍ! هل تعرف أين أصنِّفُك؟ واحداً من أولئك النَّاسِ الذين كانوا على الخازوق ينظروا إلى جلاديهم مبتسمين إذا كانوا قد اهتدوا إلى إيمانٍ أو الهٍ! فاهتدِ إلى إيمانٍ أو الهِ فتحيا! أنت أولاً بحاجةٍ إلى تبديل الهواء منذُ أمدٍ مديدٍ، إنَّ الألم شيءٌ حسنٌ هو أيضاً، فعليك بالألم! تألَّم.

من يرينا أن نيقولاي ليس محقّاً إن هو نشدَ الألم، وبحث عنهُ، وسعى إليه؟ لعلَّك لا تصدقني ـ أنا أعرف ذلك ـ ولكن لا تحاول أن تسرف بالتحليل، بل استسلم إلى تيار الحياة دونما تفكير، ودع القلق، فإذا بتيارِ الحياةِ يضعك على الشط، فتقف على قدميك. لا، أنا أدري الشاطئ الذي يقودك التيار إليه، ولكني مقتنعٌ بأنَّ أمامك حياةٌ طويلةٌ ستحياها، أنا أعرف أنَّكَ تعدُّ أقوالي هذه خطبةً محفوظةً عل ظهرِ قلبٍ، ولكن لعلَّ هذه الأقوال ستنفعك حين ستتذكرها في المستقبل، وذلك أيضاً سببٌ من الأسباب التي تحضُّني على مخاطبتك، من حسن الحظِّ على كلِّ حالٍ أنَّكَ لم تقتل إلا عجوزاً شمطاء شريرةً، فلو وضعت نظريةً أخرى لأمكن أن ترتكب عملاً أسوأ من هذا مائة مليون مرَّة، لذلك ربَّما كان عليك أن تحمد الله وأن تشكرهُ! ربَّما كان الله، على كلِّ حالٍ، يدَّخرك لشيءٍ ما، من يدري! فارتفع بقلبك، وارتق بعواطفك، ولا تكن صغيراً جباناً! هل العمل العظيم الذي يجب القيام به هو الذي يخيفك حقاً؟! لا، لا! عارٌ أن تخاف من هذا! لقد خطوت، فحذارِ أن تتراجع! لا تعدو المسألة هنا أن تكون مسألة عدلٍ، فافعل ما يوجبه العدل، أنا أعلم أنَّكَ لا تصدقني، ولكن شهد الله أن الحياة هي التي ستنتصر، وأنَّك سوف تعود تحبُّ الحياة أنت نفسك بعد ذلك، أما الآن فأنت لست محتاجاً إلا إلى هواء، إلا إلى هواء!.....

سرت في بدن راسكولنيكوف رعدةً. وهتف:

ولكن من أنت، من أنت حتى تتخذ هذهِ الأوضاع التي هي أوضاع بنيٍّ، من علياءِ أيِّ ذروةٍ هادئةٍ تلقى إليَّ بهذه المواعظ والحكم المزعومة؟

من أنا؟ أنا إنسانٌ محدودٌ، لا أكثر من ذلك، إنسانٌ لعلَّهُ حسَّاسٌ ولعلَّهُ قادرٌ على أن يتعاطف مع الآخرين، ولعلَّهُ يعرف بعض الأشياء، ولكن هذا كلَّهُ لا يمنع أنَّه محدودٌ، أما أنت فشأنك شأنٌ آخر: إن الله قد هيأك لحياةٍ حقَّةٍ (ولكن من يدري؟ لعلَّ ذلك ليس إلا نادراً، كنارِ الهشيم ما تلبث أن تنطفئ)

فما خوفك من التغير الذي سيطرأ على حياتك؟ هل يأسف على حياة الدِّعة والرَّخاء إنسانٌ له قلبٌ كقلبك ؟ هل يضجرك كثيراً أن تظلَّ مدَّةً طويلةً لا يراك أحد؟ إن الأمر ليس مرهوناً بالزمان، بل هو مرهونٌ بك، كن شمساً فيراك جميع النَّاس، ليس للشمس إلا أن توجد، أن تكون عين ذاتها، لِمَ تبتسم؟ هل من يحملك على هذا أنَّكَ تجدني "شيللر"؟ يميناً أنَّكَ لتظنُّ أنني أمكُرُ وأراوغُ، وأنني أريد أن أتملقك! وربَّما كنت على حقٍّ وكنت أنا أتملق، هيء هيء هيء! أنا لا أسألك أن تصدِّقَ كلامي يا روديون رومانوفتش! ولعلَّكَ تحسن صنعاً إذا أنت لم تصدق كلامي تصديقاً تاماً في أيِّ يومٍ إن من عادتي ألا أكون صادقاً صدقاً كاملاً، أعترف بهذا! ومع ذلك، إليك ما أريدُ أن أضيفه، سوف تريك الأحداث صحة من أنا: شريرٌ أم مستقيمٌ شريفٌ.

متى قررت أن تعتقلني ؟

أستطيع أن أدعك طليقاً مدَّةَ يومٍ آخر، أو يومين آخرين. ففكر يا صديقي، وادع الله، هذا في مصلحتك، أقسم لك على أنَّه من مصلحتك.....

سأله راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامةً غريبةً:

فماذا لو هربت ؟

لن تهرب! قد يهرب فلاح، وقد يهرب واحدٌ من أشياع النظريات الرَّائجةِ في هذا الزَّمان، لأنَّه من الممكن أن يغرسوا فيه عقيدتهم إلى الأبد، أما أنت فلا، لأنَّكَ أصبحت لا تؤمن بنظريتك، فعلاً! عساك تهرب؟ ما هي الفائدة التي يمكن أن تجنيها من الهرب؟ ما أفظع وما آلم الحياة التي يحياها هاربٌ! فالمرءُ إذا أراد أن يحيا، لابدَّ له من وضعٍ مستقرٍ، ومركَّزٍ محددٍ، ولابدَّ له من هواءٍ يستنشقه! وهل الهواء هناك هواؤكَ أنت؟ لتعودنَّ ثانيةً إذا أنت هربت! أنَّكَ لا تستطيع أن تستغني عنا، إذا أودعتك السِّجنُ مدَّةَ شهرٍ، أو شهرين، أو ثلاثة شهور مثلاً، فلسوف تجيء في ذات يومٍ فجأةً فتعترف، لسوف تندفع إلى هذا على علمٍ منك تقريباً، تذكَّر هذا الكلام الذي أقوله لك. حتى بساعةٍ كاملةٍ

قبل مجيئك سوف لن تعلم به وباعترافاتك. بل أنني لعلّي يقينٌ من أنَّك سوف تعزمُ أمركَ على التفكير.

أنت لا تصدقني الآن، ولكنك سوف تجيء، لأنَّ الألم شيءٌ عظيمٌ يا روديون رومانوفتش. لا يدهشنَّك أن تسمعني أتكلم هذه اللغة أنا الرَّجُلُ الذي أسمنته دعة العيش، إنني أقول الحق فلا تسخر! في الألم فكرةٌ عظيمةٌ! إن نيقولاي على حقٍّ. لا، لن تهرب ياروديوون رومانوفتش.

نهض راسكولنيكوف وتناول قبعته، وفعل بورفيري بتروفتش مثله.

أتريد أن تقوم بجولة؟ إن المساء يبشِّرَ بليلةٍ حلوة... على كلِّ حالٍ ربَّما كان هذا أفضل، فالهواء يزداد هكذا طراوة.....

أردف راسكولنيكوف بلهجةِ إلحاحٍ حازمٍ:

لا يذهبنَّ بك الظنُّ إلى أنني أدليت لك اليوم باعترافات، أنت إنسانٌ غريب، وأنا لم أصغ إليك إلا من باب الفضول، لكني لم أعترف لك بشيء..... تذكر هذا! طيب طيب.... دعك من هذا الكلام..... هذه أمور معروفة....... لا، لن أنسى! انظروا كم يرتعش! لا تقلق يا عزيزي. سنلتزم رغبتك. تنزَّه قليلاً، ولكن دون أن تتخطى بعض الحدود.

قال بوفيري ذلك ثمَّ أضاف خافضاً صوتهُ:

بالمناسبة: هناك رجاءٌ أخيرٌ أودُّ أن أتوجه به إليك، هو رجاءٌ حرجٌ بعض الشيء، ولكن لا بأس: وهذا احتمالٌ ضعيف، لأنني لا أصدِّقُ أنَّك تعمد إلى ذلك المخرج، أقول إذا اتفق في غضون السَّاعات الثماني والأربعين أو الخمسين أن تختم الأمر على نحو آخر، أقصد على نحو خارق، أقصد أن تحاول الانتحار لا تؤاخذني على هذا الافتراض السَّخيف.

فأرجوك أن تترك لنا كلمةً موجزةً، لكنَّها واضحة: سطرين، لا أكثر من سطرين، لا أكثر، لا تنس الصخرة. ذلك أنبل... هيا.... إلى اللقاء..... أسأل الله أن يلهمك الصواب!

قال بورفيري ذلك وانسحب حانياً رأسه، متحاشياً أن ينظر إلى الفتى، فاقترب راسكولنيكوف من النافذة وانتظر، بصبرٍ نافذٍ، اللحظة التي يقدِّرُ أن قاضي التحقيق يكون قد ابتعد فيها عن المنزل كفاية، ثمَّ غادرَ الغرفة مسرعاً.

# الفصل الثالث

ذهب إلى سفدريخايلوف متعجلاً، إنَّه يجهل هو نفسه ماذا كان ينتظر من هذا الرَّجل، غير أنَّ هذا الأخير كان له عليه نوعٌ من سلطان، ومنذ ما أدرك راسكولنيكوف ذلك أصبح لا يجد إلى الهدوء سبيلاً، وقد آن أن يخرج كلَّ شيءٍ إلى الضوء!

وفيما كان يسير، كان يعذِّبهُ خاصةً هذا السؤال: هل ذهب سفدريخايلوف إلى بورفيري؟ ولكن راسكولنيكوف كان يجيب عن هذا السؤال بقوله: إذا صدق ظني، فإنَّ سفدريخايلوف لم يذهب إلى بورفيري، بل أنني لمستعدٌّ أن أقطع إذا كان سفدريخايلوف قد ذهب إلى بورفيري، وفكَّرَ راسكولنيكوف مزيداً من التفكير، واستعرض بخياله زيارة بورفيري من جديد، فانتهى إلى هذه النتيجة:لا، لم يذهب إليه، لم يذهب إليه قطعاً!

ولكن إذا كان سفدريخايلوف لم يذهب إلى بورفيري حتى الآن، فهل سيذهب إليه، أم هو لن يذهب؟

وبدا لراسكولنيكوف أن سفدريخايلوف لن يقوم بهذه الزِّيارة، في هذه الفترة على الأقل. لماذا؟ ما كان لراسكولنيكوف أن يستطيع معرفة الأسباب التي تحملُهُ على هذا الظنِّ، وهبه استطاع معرفتها، هبهُ قادراً على تفسير هذهِ الأشياء، فما كان له أن يصدِّعَ رأسهُ منقِّباً عنها، صحيحٌ أن هذا كان يعذِّبَهُ، ولكن ذلك كان في الوقت نفسه أيسر همومه، شيءٌ غريب، يكاد لا يصدَّق: إن مصيرهُ الرَّاهن، المباشر، كان لا يهمه إلا قليلاً، وكان هو لا يفكِّرَ فيه إلا ذاهلاً، أما ما كان يعذِّبَهُ حقاً فهو شيءٌ آخر، شيءٌ أخطرُ شأناً، شيءٌ خارقٌ، يخصُّهُ هو ولا يخصُّ أحداً سواهُ، لكنَّهُ شيءٌ آخر ومهمٌّ جدَّاً، وكان في ذلك يحسُّ بتعبٍ روحيٍّ لا نهاية لهُ، رغم أن دماغهُ كان في ذلك الصباح يعمل خيراً مما كان يعمل في الأيام السابقة.

ثمَّ هل يستحق الأمر، بعد كُلِّ ما حدث، عناء السَّعي إلى التغلب على المتاعب السخيفة التي لن تلبث أن تظهر في طريقه من جديد؟ أمن اللازم مثلاً أن يحتال في سبيل ألا يذهب سفدريخايلوف إلى بورفيري؟ أمن الضروري أخيراً أن يضيِّع وقته في دراسة رجلٍ أسمه سفديخايلوف والمداورة والمخاتلة معه؟

آه..... ما كان أشدَّ سأمه وضجرهُ وملاله من هذا كلّهُ!.......

ومع ذلك كان يحثُّ الخطى سعياً من سفدريخايلوف، أليس معنى هذا أنَّه كان ينتظر منه توجيهاتٍ، أو مخرجاً؟ إنَّ الغريق يتشبث أحياناً بقشَّة! ألم يكن القدر هو الذي يجمع أحدهما من الآخرة؟ أم أن الأمر كله لا يعدو أن يكون إعياءً وسأماً ويأساً؟ أم لعلَّهُ كان في حاجةٍ إلى شخصٍ غير سفدريخايلوف؟ أما هذا الأخير فقد عثر عليه راسكولنيكوف بمحض الصدفة؟ أو إلى سونيا؟ ولكن لماذا عساهُ يذهب في هذه اللحظة إلى سونيا؟ ليستدرَّ دموعها؟ ثمَّ إنَّ سونيا ترعبه: أنَّها تمثل الحكم المبرم الذي لا ردَّ لهُ، والقرار الحاسم الذي لا يقبل نقضاً، لقد كان على راسكولنيكوف أن يختار: فإما أن يتبع طريقه هو، أو الطريق الذي حددته سونيا. لا، لا، لا، إنَّه في هذه اللحظة خاصةً لا يحسُّ أنَّه قادرٌ على أن يرى سونيا، أفليس الأفضل أن يجرب حظه مع سفدريخايلوف؟ ولم لا؟ ثمَّ أنَّه لا يستطيع أن يمتنع عن الاعتراف، في قرارة نفسه، إن سفدريخاليوف قد أصبح، منذ أمدٍ مديدٍ، ضرورة لهُ، لمعنى من المعاني. ولكنَّ الأمرُ غريبٌ حقّاً: ماذا يجمع بين الرَّجُلين؟ ماذا يجمع بين الرَّجُلين؟ ماذا فيهما من شُبَهٍ؟ حتى دناءتهما ليست من طبيعةٍ واحدةٍ، ثمَّ إن في ذلك الرجل شيئاً كريهاً منفِّراً إلى أبعد الحدود: لاشكَّ أبداً في أنَّه فاجرٌ عاهرٌ فاسقٌ، ولاشكَّ أبداً في أنَّه مراوغٌ مخاتلٌ ماكرٌ، بل ربَّما كان كذلك شريراً إلى أبعد حدود الشَّر، صحيح أنَّه يعتني الآن عنايةً حارةً دافئةً بأولاد كاترينا إيفانوفنا، ولكن من هذا الذي يعرف الأغراض التي يهدف إليها من وراء ذلك؟ إن لهذا الرَّجُل دائماً نياتٌ خفيةٌ.

هنـاك فكـرةٌ أخـرى كانـت مـا تنفـك تعـذب راسـكولنيكوف وتحاصـرهُ منـذ بضعة أيام، رغم أنَّه حاول أن يطردها من شدَّةِ ما كانت تؤلمهُ.

كـان يقـول لنفسـه: "إن سـفدريجايلوف لا يـبرح يـدور حـولي، وهـو يـدور حـولي حتـى في هـذه اللحظـة، لقـد اكتشـف سـفدريجايلوف سـري، وإنَّـه يبيـتُ نيـاتٌ لدونيا، ألا يزال يبيت لها هذه النيات؟ إن المرء ليكـادُ يجيب عـن هـذا السـؤال بكلمـة "نعـم" علـى وجـه اليقين، فمـاذا لـو أراد سـفدريجايلوف، بعـد أن عـرف سري وأصبح له سلطاناً عليَّ، ماذا لو أراد أن يستعمل هذا سلاحاً ضدَّ دونيا؟

كانت هذه الفكـرة تعذّبهُ حتـى في نومـه. ولكنَّهـا لم تعـرض لـه بهـذا الوضـوح الصَّـارخِ في يـومٍ مـن الأيـام مثلمـا تعـرض لـه الآن في أثنـاء ذهابـهِ إلى سفدريجايلوف، فتثير فيه غضباً شديداً قائماً، هي أولاً تغيِّرُ كلَّ شـيءٍ، حتـى وضعه هو: إن عليه الآن أن يكشف عن سره لدونيا، وربَّما توجَّبَ عليه أن يبادر إلى تسليم نفسه ليمنع دونيا من القيام بأيِّ خطـوةٍ ليس فيها تعقُّل! الرِّسـالة! إن دونيا قد تلقت رسالة في هذا الصباح، فمن ذا الذي يمكـن أن يكتب إليها مـن بطرسـبورغ؟ (أهـو لـوجين حقـاً؟) صـحيح أنَّ رازومـيخين يحرسـها، ولكـن رازوميخين لا يعرف الأمر من الأمر شيئاً، فهل يجبُ عليـه أن يفضـي بالحقيقـة إلى رازوميخين أيضاً؟ ربَّما كان يجب عليه أن يفعل! وشعر راسـكولنيكوف باشمئزازٍ حين خطرت بباله هذه الفكـرة.

وقال يحدِّث نفسهُ جازماً: "على كلِّ حالٍ، يجب أن أرى سفدريجايلوف بأقصى سرعةٍ ممكنة، الحمد لله على أن التفاصيل هنا أقلُّ شـأناً، وأهـون خطـراً مـن جوهر القضية، ولكن ماذا لو كان في وسع سفدريجايلوف أن يفعل شيئاً، أن يتآمر على دونيا؟ في هذه الحالة....."

كـان راسـكولنيكوف قـد بلـغ مـن التعـب في أعقـاب ذلـك الشَّـهر الطويـل مـن المعارك والانفعالات، أنَّه أصبح لا يشعرُ بالقدرة على حلِّ مثل هيه المشـكلات، والإجابـة عـن مثـل هـذه الأسـئلة، اللـهُمَّ إلا بكلمـاتٍ يائسـةٍ كهـذه: "في هـذه

الحالة، سأقتله!" إن شعوراً ثقيلاً كان يجثمُ على صدره، ويرهقه من أمره. وقف في وسط الشارع، وأجال بصرهُ فيما حوله، أيُّ طريقٍ سلك؟ أين هو الآن؟ كان في شارع س...... على مسافة ثلاثين أو أربعين خطوة من "سوق العلف" التي تجاوزها منذ قليل، إن الطابق الأول من مبنى يقع على يساره، هو حانة، جميع النوافذ مفتوحة على مصاريعها. ومن كثرة الوجوه التي تُرى عند النوافذ، يُقدِّرُ المرءِ أن الحانة غاصةٌ بالناس، وهذه أصواتُ أغانٍ تصل من القادر، وأصوات زمَّارةٍ وكمانٍ وطبلٍ، وصرخاتٌ حادةٌ تنطلق من حناجرِ نساء.

همَّ راسكولنيكوف أن يعود أدراجه وهو يتساءل ما الذي جاءَ به إلى هذا المكان، ما الذي أوصله إلى الشارع س.....! ولكنه ما أن هم أن يقفل راجعاً حتى لمح سفدريجايلوف عند إحدى نوافذ الحانة، جالساً إلى مائدةٍ صغيرةٍ وغليونه بين أسنانه، إن الدَّهشةَ التي أحسَّها راسكولنيكوف عندئذٍ لا تخلو من نوعٍ من الرُّعبِ، كان سفدريجايلوف يراقبهُ ويتفحصه صامتاً، وكان يبدو عليه أنَّه يريد أن ينهض، كأنَّه يحاول أن يتوارى قبل أن يرى، وذلك أمرَ فجأةً راسكولنيكوف أيضاً، وسرعان ما تظاهر راسكولنيكوف بأنَّه لا يراه، وأخذ ينظر إلى الجهة الأخرى واجماً مفكِّراً، مع استمراره في النظر إليه، بطرف عينيه طبعاً. واضح أن سفدريجايلوف لا يريدُ أن يرى، لقد نزع غليونه من فمه، وحاول أن يختبئ، ولكنَّهُ حين أبعد كرسيه لينهض قد أدرك "ولاشك" أن راسكولنيكوف رآه، وأنَّه يرقبه ويرصده، عندئذٍ جرى بين الرجلين مشهدٌ يشبه كثيراً ذلك المشهد الذي جرى بينهما عند أوَّلِ لقاءٍ لهما في بيت راسكولنيكوف، حتى تظاهر هذا الأخير بأنَّه نائم، هذه ابتسامةٌ ماكرةٌ تظهر على شفتي سفدريجايلوف وما تنفكُّ تتضح.

إن كُلَّاً منهما يعرف أن الآخر يتجسس عليهِ، وانطلق سفدريجايلوف يضحك ضحكةً صاخبةً آخر الأمر، ثمَّ يقول له من فوق نافذته:

هيا ادخل، ادخل إذا شئت! أنا هنا!

صعد راسكولنيكوف إلى الحانة، فوجد سفدريجايلوف في حجرةٍ ضيقةٍ جداً، ذات نافذةٍ واحدةٍ، قرب قاعةٍ كبرى يتحلّقُ فيها حول ما يقرب من عشرين مائدةٍ صغيرةٍ باعةٌ وموظفون وأناسٌ من كلِّ نوعٍ يحتسون الشاي وسط صخبٍ رهيبٍ يحدثه المغنون الزاعقون بصوتٍ واحدٍ، وعلى مائدة سفدريجايلوف كانت توجد زجاجة شمبانيا مفتوحة، وكأسٌ نصف مترعة، وكان في هذه الحجرة الصَّغيرة صبيٌّ يحمل آلةً موسيقيةً هي آرغنٍ يدويٍّ، فتاةٌ سمينةٌ في حوالي الثامنة عشرة من عمرها، منتفخة الخدين، رَبلِةُ الوجنتين ترتدي تنورةً مخططة مشمورة، وتضع على رأسها قُبَّعة تيرولية (نسبة إلى جبال التيرول) مزدانة بأشرطة، ويصدَحَ صوتها الأبح بأغنيةٍ عاميَّةٍ مبتذلةٍ، رغم صخبِ غناء الجوقة، في القاعة المجاورة، وكان الصبيُّ يرافق غناءها بالعزف على آرغنٍ يدوي......

قال سفدريجايلوف يقاطع العزف والغناء منذ دخل راسكولنيكوف:

هيا ..... كفى!....

فتوقفت الفتاة عن الغناء فوراً، واتخذت وضع الاحترام، وكان وجهها، منذ قليل، حين كانت تغني سخافاتها المسجوعة، يعبِّر عن هذا الاحترام نفسه على كلِّ حالٍ.

نادى سفدريجايلوف:

هيه! فيليب! هات كأساً!

ردَّ راسكولنيكوف:

لن أشرب خمراً.

كما تشاء، ولست أنادي فيليب من أجلك أنت.

اشربي يا كاتيا، لم أعد بحاجة لك اليوم. لك أن تنصرفي.

قال هذا وصبَّ لها كأساً من الخمرِ ووضع على المائدة ورقةً نقديةً بروبلٍ. أفرغت كاتيا الكأس بعشرين جرعةٍ صغيرةٍ متتاليةٍ دون أن ترفع شفتيها عن

الكأس، كما تشرب النساء، ثمَّ تناولت الورقة النقدية، وقبلت يد سفدريجايلوف الذي منحها قبلة يده بكلِّ جدِّيَّةٍ، وخرجت يتبعها الصبيُّ جارّاً أرغنهُ، كان الصبيُّ والفتاة قد جيء بهما كليهما من الشارع، إنَّ سفدريجايلوف ما كان يقضي في بطرسبورغ هذه الأيام الثمانية حتى كان قد أحاط نفسه بهذا الجوِّ من الصِّحةِ، والألفة، والسَّيطرة.

إن فيليب خادم القاعة هو أيضاً "صديق" حميم، يظهر لصاحبهِ أكبر الطَّاعة وأعظم المذلَّةِ والخنوع، وباب الحجرة يقفل بالمفتاح، فإذا كان سفدريجايلوف فيها، فكأنَّه في بيته، ولعلَّهُ كان يفشي هنا أياماً تامةً، أما الحانة القذِرَة الرَّثَّة، فلا يمكن أن توصف حتى بأنَّها حانةٌ من الدرجة الثانية.

بدأ راسكولنيكوف الكلام:

كنت ذاهباً إليك، كنت أبحث عنك، إنَّما لا أدري ما جعلني أدور في شارع س.... قادماً من "سوق العلف" أنا لا أمرُّ أبداً من هنا، بل انعطف دوماً إلى يمين "السوق" فما أن درت إلى هذه الجهة حتى لمحتك! شيءٌ غريبٌ!

لماذا لا تقول أنَّها معجزة؟

لأنَّه يجوز ألا تكون سوى صدفة.

أردف سفدريجايلوف وهو يفجِّرُ ضحكةً مجلجلةً.

غريبٌ تفكير هؤلاء النَّاس! مهما يكونوا قانعين بوجود المعجزات لا يعترفون بذلك! أنت نفسك تقول أن "من الجائز" ألا تكون سوى مصادفة! آ .... ما أجبنهم جميعاً إزاء اعتقاداتهم ذاتها! لا تستطيع أن تتخيل يا روديون رومانوفتش.... لست أقصدك أنت... فأنت لك آراؤك الشَّخصية، وأنت لا ترغب أن تكون ذا آراءٍ شخصية، بل أنت بهذا أثرت اهتمامي وأيقظت فضولي.

بهذا وحده؟

هو كافٍ جداً!

كان واضحاً أن سفدريجايلوف مهتاجاً تقريباً، أي ليس شديداً جداً: هو لم

يشرب إلا نصف كأسٍ خمرٍ.
أردف راسكولنيكوف:
يخيَّلُ لي أنَّكَ جئت تزورني حتى قبل أن تعرف أيمكن أن يكون لي ما تسميه رأياً شخصياً.
آ..... نعم...... حينذاك كان الأمر غير هذا تماماً! لكلِّ امرئٍ طريقته في التصرف، أما عن المعجزة فأقول لك: لا بدَّ أنَّكَ كنت نائماً هذين اليومين أو الأيام الثلاثة! لقد حددتُ لك أنا نفسي هذه الحانة، فإذا جئت إليها الآن رأساً فليس في الأمر إذاً أيَّةُ معجزةٍ، لقد وضعت لك الطريق الذي يجب أن تسلكه، وذكرت لك الساعات التي تستطيع أن تجدني فيها.
ألا تتذكر؟
ردَّ راسكولنيكوف مدهوشاً:
نسيت!
أصدقك. ولكني ذكرت لك ذلك مرتين، فلا بدَّ أن العنوان قد انطبع في ذاكرتك بشكلٍ آليٍّ، فإذا أنت تدور سالكاً هذا الطريق على نحو آلي، ولكن حسب العنوان المذكور، دون علمٍ منك. مهما يكن من أمرٍ، فأنا حين كنت أكلمك في هذا اليوم، لم أعتقد أبداً أنَّكَ كنت تفهمني، إنَّكَ لا تراقب نفسك مراقبةً كافيةً ياروديون رومانوفتش، على أنني أعرف أن كثيراً من النَّاسِ في بطرسبرغ يكلِّمون أنفسهم بصوتٍ عالٍ في أثناء سيرهم، هذه مدينة سكانها أنصاف مجانين، لو كان عندنا معارفٌ علميةٌ لاستطاع الأطباء ورجال القضاءِ، والفلاسفة أن يجمعوا عن بطرسبرغ ملاحظات سفينة، كلٌّ في ميدان اختصاصه، يصعب أن يجد المرء مدينةً تضاهيها فيما يلاحظ فيها من تأثر النَّفسِ البشريَّةِ بمؤثراتٍ غامضة مظلمةٍ حادَّةٍ غريبةٍ إلى هذا الحد.
أيكون مردُّ هذا إلى مناخها؟ ولكنها لمَّا كانت المركز الإداري لروسيا كُلِّها فلابدَّ أن ينعكس طابعها على مجمل البلاد، على أنَّ هذا ليس ما يهمني الآن.

وإنما أردت أن أقول لك أنني قد سبق أن راقبتك أكثر من مرَّةٍ، فأنت حين تخرج من بيتك تخرج على الرَّأس، فما أن تسر عشرين خطوةً حتى تخفض رأسك وتعقد ذراعيك وراء ظهرك، وأنت حينئذٍ تنظر، لكنك لا ترى ما أمامك ولا ما حولك، ثمَّ تأخذ تحرك شفتيك وتكلِّمُ نفسك، بل يتفق لكَ أحياناً أن تحرِّكَ يديك بإشاراتٍ شتى في أثناء حديثك مع نفسك، ثمَّ إذا أنت تقف فجأةً في وسط الشارع ترفع إحدى يديك وتتكلم بصوتٍ عالٍ، ثمَّ تلبث وسط الطريق مدَّةً طويلةً، هذا أمرٌ غير مستحسنٍ أبداً. فربَّما تسيءُ إلى نفسك وتتعرض للخطر أقول لك بصراحةٍ، صحيحٌ أنَّ الأمر لا يهمني، وأنا لست من سيشفيك، ولكن علك تفهم عني.....

سأله راسكولنيكوف وهو ينظر إليه مستطلعاً:

أتعرف أنَّهم يلاحقوني؟

هتف سفدريجايلوف مدهوشاً:

لا، لم أكن أعرف ذلك!

جمجم راسكولنيكوف مقطباً حاجبيه:

فلا تتحدثن بعد الآن عني!

طيب! لا نتحدث بعد الآن عنك!

قل لي: إذا كنت تجيء إلى هنا لتشرب، وإذا كنت قد حددت لي هذا المكان مرتين لأوافيك فيه، فلماذا اختبأت عني منذُ قليل حين نظرت إليك من الشارع حتى لقد أردت أن تنصرف؟ لقد لاحظت أنا ذلك واضحاً كلَّ الوضوح.

هيء هيء! بل قل لي أنت: لماذا في ذلك اليوم، بينما كنت أنا واقفاً على عتبة الباب، ظللت أنت راقداً في سريرك، مغمضاً عينياك، متظاهراً بالنوم، مع أنَّك لم تكن نائماً البتة؟ لقد لاحظت أنا ذلك واضحاً كل الوضوح.

لعلَّ هناك أسباباً.... تدعوني إلى ذلك، وأنت نفسك تعرف هذا.

ولعلَّ هناك أسباباً تدعوني أنا أيضاً رغم أنَّك لن تعرف ما هي تلك الأسباب.

وضع راسكولنيكوف كوعه الأيمن على المنضدة، واسند ذقنه إلى يده اليمنى، وحدَّق إلى سفدريجايلوف، وظلَّ دقيقةً طويلةً يتأمل هذا الوجه الذي ما انفكَّ يحيرهُ، إنَّهُ وجهٌ غريبٌ يشبه أن يكون قناعاً: هو وجهٌ أبيضٌ، أحمرُ الخدين، له شفتان قرمزيتان، ولحيةٍ شقراء، وشعراً أشقر غزير: والعينان زرقاوان جداً، والنظرة ثقيلةٌ مسرفةٌ في الثقل، ثابتةٌ مسرفةٌ بالثبات، إنَّ في هذا الوجه الوسيم الذي ظلَّ شابَّاً نضارةً رغم السنين، شيئاً منفراً إلى أبعد الحدود.
وكان سفدريجايلوف يرتدي بدلةً صيفيةً أنيقةً من نسيجٍ خفيف، يتلألأ خاصة بقميصه النَّاصعِ البياض، وكانت إحدى أصابعه يتلألأ فيها خاتمٌ كبيرٌ مرصَّعٌ بحجرٍ ثمينٍ.
قال راسكولنيكوف فجأةً يمضي إلى هدفه رأساً وقد نفد صبرهُ:
هل عليَّ حقَّاً أن أتحملك أنت أيضاً؟ لعلَّكَ أنت أخطرُ البشر حين تقرر أن تُلحق بأحدٍ ضرراً أو أذى، ولكنني مع ذلك لا أريد أن أحاول إكراهَ نفسي، سوف أُظهر لك على الفور أنني لا أقيم وزناً لشخصي إلى حدٍّ ما تتصور، أعلم أولاً أنني إنَّما جئتُ لأقول لك بوضوحٍ كاملٍ، وصراحةٍ قاطعةٍ أنَّكَ إذا كنت ما تزال تضمرُ لأختي تلك النيَّات نفسها، وكنت تعوِّلُ في سبيلها على استخدام السرِّ الذي اكتشفتهُ مؤخراً، فسوف أقتلك قبل أن يتسع وقتك، لأنَّك تدعوني إلى السِّجن، إنني إذا قلت فعلت هذا وإذا كان هنالك شيءٌ تريد أن تفضي به لي "إنني لأُحِسُّ منذُ مُدَّةٍ أنَّك تريد أن تقول لي شيئاً ما" فأسرع إذ قد يفوت الأوان قريباً!
فردَّ راسكولنيكوف نافذَ الصَّبرِ، مكمد الوجه:
- لكلِّ امرئٍ طريقتهُ
أردف سفدريجايلوف مبتسماً:
أنت نفسك تدعوني إلى الصَّراحة، ثمَّ إذا بك ترفض أن تجيبني منذُ أول سؤال ألقيه عليك، إنَّك ما تزال تتصور أنني أبيِّتُ مشاريع، واضمِرُ نيات، وهذا هو

السَّببُ في انَّك تنظر إليَّ نظرة ريبةٍ واشتباهٍ، على أن هذا أمرٌ يفهمه المرء فهماً تاماً إن كانت حالته كحالتك، ولكن مهما تكن رغبتي في أن أحيا على تفاهم ووفاق معك، فإنني لن أكلفك نفسي عناء إزالة الغشاوة عن بصرك وتبديد أوهامك، ذلك أن هذهِ اللعبة لا تستحق هذا العناء إذا أردتَّ الحق، ثمَّ أنني لا أنوي البتة أن أتحدث معك في أمورٍ خاصةٍ جدَّاً.

فلماذا تحتاج إليَّ هذا الاحتياج كلَّهُ إذا كان الأمر كما تقول؟ ذلك أنَّكَ ما تنفك تدور حولي.....

لا لشيء إلا لأنَّك امرؤٌ تشوق ملاحظته، وتحلو مراقبته، لقد فتنتني بوضعك الغريب وحالتك الشاذَّةِ، وأمرك العجيب، هذا كلُّ شيءٍ! ثمَّ أنَّك أخو إنسانةٍ شاقتني كثيراً، وطالما حدثتني عنك تلك الإنسانة بل مراراً وتكراراً. فاستنتجت من ذلك أن لك عليها نفوذاً كبيراً، وسلطاناً عظيماً، فهل هذا قليلٌ؟ هيء هيء هيء! على أنني أعترف لك بأنَّ سؤالك يبدو لي معقداً بشدَّةٍ، فيصعب على أن أجيبَ عنه، إليك هذا المثال: ألم تأت أنت إلى هنا لكي تعلم شيئاً جديداً لا لكي تتكلَّمَ عن أعمال؟ أليس هذا صحيحاً؟ أليس هذا صحيحاً؟ هكذا ألحَّ سفدريجايلوف وهو يبتسم ابتسامةً ماكرةً خبيثةً.

ثمَّ تابع كلامه:

ألا فاعلم إذاً أنني أنا أيضاً، منذ كنت في القطار الذي أقلَّني إلى بطرسبورغ، كنت أعوِّلُ عليك أنت نفسك، وآمل أن تقول لي شيئاً جديداً..... الخلاصة: كنت آمل أن أقترض منك شيئاً. نعم! أنظر إلى أيِّ حدٍّ نحنُ أثرياء!

أن تقترض مني ماذا؟

ماذا أقول لك؟ أأنا أعلم؟ أنَّكَ لترى في أيِّ حانةٍ حقيرةٍ أقضي وقتي، إنني أجدُ في هذا لذَّةً. لذَّةً. لا..... هذه مبالغة. ولكن لابدَّ للمرءِ من أن يقضي وقته في مكانٍ ما.... حتى تلك المسكينة كاتيا.... هل رأيتها؟ وياليتني كنت على الأقل رجلاً شديد النهم والشَّراهةِ أو رجلاً محبَّاً لاطايب الطعام! ولكن انظر

قليلاً... هذا كل ما أستطيع أن التهمه....
قال ما قال وهو يشير باصبعه إلى ركنِ المنضدة التي تستلقي عليها، في طبقٍ من معدنٍ، بقايا شريحةٍ كريهةٍ من لحم البقر مع البطاطس. وتابع:
بالمناسبة، هل تغدَّيت؟ أما أنا فإنني ما كدتُّ أزدردُ قطعةً حتى اكتفيت، وأنا لا أشربُ الخمر أيضاً، لست أشرب إلا شمبانيا، ولست أشرب من الشمبانيا إلا كأساً واحدةً تكفيني السَّهرةَ كلَّها، عدا أن هذه الكأس تُصدِّعُ رأسي. ولئن طلبت اليوم شمبانيا، فلكي انتعش قليلاً، لأنَّ عليَّ أن أذهب إلى مكانٍ ما بعد برهةٍ، وهذا هو السبب في أنَّكَ تجدني على حالةٍ نفسيةٍ خاصةٍ جدَّاً، منذ لحظةٍ، اختبأتُ كتلميذٍ صغيرٍ، لأنني تخيَّلت أنَّكَ سوف تزعجني، ولكن أعتقد أنَّ في وسعي (هنا أخرج ساعته) أن أبقى معك قرابة ساعة، السَّاعة الآن هي الرابعة والنصف، هل يمكنك أن تصدق؟ يا ليتني كنت شيئاً ما على الأقل.... ليتني كنت مالك أرض مثلاً أو رب أسرة أو حتى جندياً، أو مصوراً، أو صحفياً، ولكن لا..... لست شيئاً..... لست شيئاً البتة.....
ليس لي أيُّ اختصاص! حتى أنني أضجر بعض الأحيان.
حقاً لقد كنت أتصور أنَّكَ ستقول لي شيئاً جديداً.
ولكن من أنت، ولماذا جئت إلى هنا؟
من أنا؟ إنَّكَ تعلم من أنا: أنا نبيل، قضيت سنتين في سلاح الفرسان، ثمَّ تسكعت هنا ببطرسبورغ، ثمَّ تزوجت مارفا بتروفنا وعشت في الريف، تلك سيرة حياتي!
أنت، فيما أظنُّ، مقامرٌ. أليس كذلك؟
مقامر؟ لا......... أنا غشاشٌ لا مقامر.
كيف؟ هل غششت؟
نعم، فعلت هذا أيضاً.
فلا بدَّ أنَّهم ضربوك عندئذٍ ضرباً مبرحاً، أليس كذلك؟

حدث هذا. وبعد؟

كان في إمكانك على الأقل أن تُقتَلَ في مبارزةٍ.... ذلك أمرٌ يفور له الدَّمُ.

لن أعارضك، لاسيما وأن الفلسفة ليست ما أتميز به، وأجلي فيه.

أعترف لك أنني إنما جئت إلى هنا من أجل النساء خاصةً.

أبعد دفن مارفا بتروفنا فوراً؟

نعم، نعم ماذا؟ أيُّ خيرٍ في أن تتكلم عن النساء هكذا؟

هكذا ردَّ سفدريجايلوف وهو يبتسم ابتسامةَ صراحةٍ مفحمةٍ.

فأردف راسكولنيكوف:

تسألني أيُّ خيرٍ أرى في أن يعيش المرء حياته دعارةً؟

حياة دعارة! آ.... ذلك هو ما يحنقك، ولكن فلنمض في مناقشة الأمر على نهجٍ سليمٍ: سأجيبك أولاً عن موضوع النساء عامةً، إنني أميل اليوم إلى الثرثرة كما ترى. قل لي: لماذا يجب عليَّ أن ألجم اندفاعاتي، وأكبت رغباتي؟ لم أعدل عن النساء وأنا أهواهن؟ أنَّهنَّ شاغلٌ على الأقل......

فليست آمالك كلَّها إذاً إلا آمالاً قائمةً على الدَّعارة والفسق؟

لنسلِّمُ أنَّها الدَّعارة أو الفسق، ما دمت حريصاً على ذلك. أنني أحبُّ الأسئلة المباشرة على كلِّ حالٍ، إن للفسق شيئاً ثابتاً يقوم على الطبيعة الإنسانية ولا يخضع لنزات الخيال، شيئاً باقياً مستمرَّاً في الدَّمِ، كجذوةٍ متوهجةٍ، مستعدةٍ في كلِّ لحظةٍ لأن تلتهب، لا تنطفئ في وقتٍ مبكِّرٍ، بل لا تقضي عليها السنون، ثمَّ إن عليَّك أن تعترف أن الفسق شاغلٌ من الشواغل..........

ليس في هذا ما يستحق أن تغبط نفسك عليه أو أن تهنئ نفسكَ به، هذا مرضٌ، بل هو مرضٌ خطر.

آ...... هذا ما تريد أن تنتهي إليه! إنني أوافقك على أنَّه مرض، كسائر الأشياء التي تتجاوز حدود الاعتدال، وحدود الاعتدال يتجاوزها الناس، فبعضهم يتجاوزها بطريقةٍ، ويتجاوزها آخرون بطريقةٍ أخرى، وينبغي للمرءِ طبعاً أن

يعتدل، رغم أن هذا حسابٌ دنيءٌ، ولكن ما العمل؟ ما الحيلة؟ ذلك إن الإنسان إذا لم يتهيأ له هذا الشَّاغل، فقد يكون عليه أن ينتحر، إنني أعرف أن الرَّجُل الشريف لابدَّ أن يشعر بالسأم والضَّجر حتماً، هذا عدا أن......

أأنت قادر على أن تنتحر؟

يا له من سؤال! أجاب سفدريجايلوف متأففاً.

ثمَّ أضاف متعجلاً، دون أن يصطنع مظهر التفاخر والادِّعاء ذاك الذي كان قد اصطنعه إلى ذلك الحين، حتى أنَّ وجههُ قد تغيَّر:

أرجوك لا تكلمني في هذا الموضوع...... إنني أعترف بأنَّ هذا ضعفٌ لا يُغتفر، ولكن ما حيلتي؟ إنني أخاف من الموت، ولا أحب أن يتكلم عن الموت أحد، هل تعلم أنني أومن قليلاً بالغيبيات؟

آه.... هو شبح مارفا بتروفنا! أما يزال إذاً؟

هتف سفدريجايلوف:

لندع هذا الأمر! في بطرسبورغ، لم يحدث هذا حتى الآن!

على كلِّ حالٍ، شيطانٌ يأخذه...... لا، لا، فلندع هذا الأمر، ولنتكلم في .....

هم........ نعم.... لم يبق لي إلا قليلاً من الوقت.... لا أستطيع أن أمكث معك مدَّةً أطول من ذلك كثيراً، خسارة! ذلك أن هناك أموراً كثيرةً كان يمكنني أن أنقلها إليك.

أهي أمور تتعلق بامرأةٍ أيضاً؟

نعم، بامرأةٍ! ..... حالةٌ طارئةٌ...... لا أكثر...... حالة ليست ما تظن.......

أأنت لا تشعر إذاً بدناءة هذا الجو الذي تعيش فيه؟ أليس يؤثر فيك؟ هل فقدتُ الطاقة على ..... على التوقف؟

ما هذا؟ أأنت تكلمني عن الطاقة؟ هه.... إنَّك تذهلني دهشةً الآن يا روديون رومانوفتش، رغم أنني كنت أعرف سلفاً أن الأمر سيكون هكذا! أأنت من يكلمني عن الفسق وعن جمال الفضيلة؟ إنَّك إنسانٌ من نوع شيللر، إنسان

مثاليٌّ! صحيح أن هذا كلَّهُ طبيعي، حتى أن نقيضه هو ما يمكن أن يثير الدَّهشة...... ولكنَّه مع ذلك يبعث على الاستغراب...... آه ..... خسارة أنني لا أملك إلا وقتاً قصيراً! ذلك أنَّك من أكثر الناس إيقاظاً للاهتمام، وإثارةً لحبِّ الاطلاع.

بالمناسبة: أنت تحب شيللر، أليس كذلك؟ أما أنا فأحبه حباً عظيماً.

ردَّ راسكولنيكوف بشيءٍ من الاشمئزاز:

يا لك من مدَّعٍ متفاخر!

فأجاب سفدريجايلوف وهو يضحك مقهقهاً:

لا، أقسم لك!..... على أنني لا أنفي أقوالك. صحيحٌ.....أنا مدَّعٍ متفاخر! ...... لماذا لا أدعي وأتفاخر ما دام هذا لا يؤذي أحداً؟ لقد قضيت سبع سنين في الريف، عند مارفا بتروفنا، لذلك فأنني ما أن ألتقي برجلٍ ذكيٍّ مثلك حتى أرتمي عليه. نعم..... برجلٍ ذكيٍّ، بل برجلٍ يثير الاهتمام كثيراً كذلك. نعم، إنني أسعد كثيراً بالتحدث إليك قليلاً، ناهيك عن أنَّ نصف الكأس الذي شربته من الخمرة قد صعد إلى رأسي بعض الشيء، غير أن هناك أمراً كان له كثير من..... ولكني أوثر أن أسكت عن ذلك الأمر، فلا أتحدَّثُ عنه.

إلى أين أنت ذاهب؟

كذلك قال سفدريجايلوف يسأل راسكولنيكوف على حين فجأةٍ مروعاً.

كان راسكولنيكوف قد نهض، لقد أزعجه أنَّه جاء إلى هذا المكان، وأحسَّ باختناقٍ في صدره، إنَّه مقتنعٌ الآن قناعةً عميقةً بأنَّه أمام أحقر وأدنى وغدٍ، وقد عملته الأرض على ظهرها في يوم من الأيام.

أردف سفدريجايلوف ملحَّاً:

إبق قليلاً! لا تتصرف هكذا! انتظر! أُطلب لنفسك ولو فنجان شاي! هيا اجلس! أعدك بألا أكلمك في ترهاتٍ، أقصد في ترهاتٍ عني أنا! إسمع، هل تريد أن أروي لك كيف "أنقذتني" امرأةٌ، كما تقولون أنتم بلغتكم؟ وسوف

يكون جواباً لسؤالك الأول، ذلك لأنَّ تلك المرأة هي أختك، هل أستطيع أن أروي لك..... ثمَّ إن هذا سيتيح لنا أن نزجي الوقت......

قل ما تشاء، ولكن آمل أن ......

لا تقلق ..... اطمئن..... ثمَّ إن أفدوتيا رومانوفنا لا يمكن أن توحي إلا بأعمق الاحترام حتى لرجلٍ يبلغ ما أبلغه أنا من الحِطَّة، والدَّناءةِ، والتَّفاهة!

بدأ سفدريجايلوف كلامه:

# الفصل الرابع

لعلَّكَ تعلم (ولقد ذكرت لك ذلك أنا نفسي على كلِّ حالٍ) أنني قد أودعت السِّجن لديونٍ كانت عليَّ، وكان المبلغُ ضخماً لم يكن في وسعي أن أحاول سداده إطلاقا، لا داعي إلى الإفاضة الآن في الكلام على الطريقة التي اشترت بها مارفا بتروفنا حريتي، أتعرف مدى الجنون الذي يمكن أن تستسلمُ له امرأةً تحب؟ ..... كانت مارفا بتروفنا امرأةً شريفةً مستقيمةً، ولم تكن غبيةً حمقاء رغم حرمانها من أي ثقافةٍ، فتصور أن هذه المرأة الشريفة الغيور، قد ارتضت أخيراً، بعد مشاجرات ومنازعات كثيرةٍ كريهةٍ، أن تعقد معي نوعاً من ميثاق ظلت متقيدةً به طوال مدة حياتنا المشتركة، يحسُّ أن أذكر أنَّها كانت أكبر سناً مني بكثير وبالإضافة إلى ذلك كانت تفوح منها رائحة القرنفل، وقد بلغت أنا من الخسة ومن الصدق في الوقت نفسه أنني أعلنت لا بوضوح قاطع أنَّه يستحيل عليَّ أن أظل وفياً لها وفاء مطلقاً. فأغضبها هذا الاعتراف وأخرجها عن طورها، رغم أن صراحتي قد أزعجتها بمعنى من المعاني فيما أعتقد. لقد قالت لنفسها:

"معنى هذا أنَّه لا ينوي أن يخونني ما دام ينذرني سلفاً"، وذلك هو الأمر الأساسي في نظر المرأة الغيور. وبعد دموع ودموع قام بيننا ما يشبه التعاقد الشفهي. أولاً على أنني لن أتركها قط، بل أظل زوجها، وثانياً على أنني أتغيب أبداً إلا بإذنها، وثالثا على أنني لن أتخذ خليلة ثانية لها صفة الخليلة، ورابعاً على أن تسمح مارفا بتروفنا، مكافأة على ذلك، أن أغازل الخادماًت، لكن بشرط الحصول على موافقتها المضمرة، وخامساً أن أتحاشى، بمعونة الله أن أتعلق بحب امرأة من مستوانا، وسادساً أن أكاشف مارفا بتروفنا بالحقيقة إذا حدث، لا سمح الله، أن أستولي عليَّ حبٌّ صادقٌ وقوي، على أن مارفا بتروفنا سرعان ما اطمأنت فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة، إنَّها امرأةً ذكيَّة، فلم

تستطع أن ترى فيَّ إلا رجلاً فاسقاً ماجناً، عاجزاً عن أيِّ حبٍّ صادقٍ وهوىً قوي.

لكن الذكاء والغيرة شيئان اثنان لا يتعارضان، ومن هنا يأتي البلاء، ثمَّ أنَّكَ من أجل أن تحكم على أحد النَّاسِ حكماً حيادياً، يحسن بك أن تتخلص من بعض الآراء السابقة والعادات اليومية إزاء البشر والأشياء التي تحيط بك، إنني أعتمد على حسِّكِ السَّليم أكثر مما أعتمدُ على أيَّة مُلكةٍ أخرى، لعلَّكَ سمعت عن مارفا بتروفنا سخافات كثيرة، والحقُّ أنَّها كانت تتصفُ بكثيرٍ من العيوب الصغيرة المضحكة جدَّاً، ومع ذلك لا أهاب أن أعترف لك بأنني آسفٌ أسفاً صادقاً على الأحزان الكثيرة التي سببتها لها، ولكن يكفي هذا، فيما أعتقد، funebre Oraison [1] تأنيباً للزوجةِ الرَّقيقةِ جداً من زوجٍ هو أرقُّ الأزواج طراً.

لقد كنت في أثناء مشاجراتنا أصمت في أغلب الأحيان وأكظم كل غضب، وكان هذا الوضع المهذب يبلغ هدفه ويحقق الغاية على مارفا بتروفنا، بل لقد كان يحظى برضاها وإعجابها، حتى أنَّها شعرت أحياناً باعتزازٍ بي، لكنَّها لم تستطع مع ذلك أن تحتمل تلك القصة التي جرت لي مع أختك، والله وحده يعلم كيف رضيت أن تجازف فتدخل إلى منزلها فتاةٌ جميلةٌ هذا الجمال الرائع لتكون معلِّمة؟ إنني لا أفسِّرُ هذا لنفسي إلا بأنَّ مارفا بتروفنا كانت امرأةً سريعة التأثُّرِ والانفعال، وأنَّها افتتنت بأختك. نعم، لقد افتتنت بها حقاً، ولقد أدركت أنا منذ النظرة الأولى أن الأمور ستجري مجرى سيئاً بالنسبة إليَّ، حتى أنني قررت - هل تصدق ذلك؟ - ألا أرفع عيني نحو أُختك، ولكن أختك، أفدوتيا رومانوفنا، قامت هي نفسها بالخطوة الأول، أتصدق هذا؟ وهل تصدقني أيضاً إذا قلت لك إن مارفا بتروفنا قد مضت إلى حد الغضب حين

1 - تأنيباً- بالفرنسية الأصل.

لاحظت أنني لا أكلمها عن أختك أبداً، وأنني أستقبل بغير اكتراث أو الاهتمام الأحاديث المشبوهة التي كانت تسوقها لي عنها بغير انقطاع، لم أستطيع أن أفهم حتى الآن ما الذي كانت تريد أن تصل إليه، وقد قصَّت على أختك، طبعاً، كلُّ ما أمكنها أن تعرفه عني، لقد كانت لها هذه العادة السيئة، وهي أن تروي أسرارنا العائلية لجميع النَّاس وأن تشكو للملأ كافة، فكيف يمكن ألا تفعل ذلك مع صديقةٍ جديدةٍ فتانةٍ كأختك؟ أغلب ظني أنَّهما كانت لا تتحدثان إلا عني، ولا شكَّ في أنَّ أفدويتا رومانوفنا على اطلعت على جميع الحكايات القذرة السريَّة التي كان النَّاس يتناقلونها عني..... بل أنني لأراهن على أنَّ شيئاً من هذا قد بلغ مسامعك أنت!

فعلاً حتى لوجين أتهمك بأنَّكَ كنت السبب في موت طفل، هل هذا صحيح؟

أجاب سفدريجايلوف على عجل ممتعضاً:

لا تحرك هذا الوحل كلَّهُ، أرجوك! إذا كنتَ حريصاً حرصاً كافياً على أن تعرف كلَّ هذه الحقارات، فأقصُّ عليكَ خيرها في الوقت الملائم، أما الآن ....

وقد حدثت أيضاً عن خادمٍ أدري ما هو، كان عندك في الريف، وقالوا أنَّك كنت أنت السبب أيضاً....

قاطعه سفدريجايلوف وقد فقد صبرهُ بوضوح

أرجوك! كفى!

وتابع راسكولنيكوف بحنقٍ عارمٍ:

أتراهُ هو بعينه ذلك الخادم الذي كان بعد موته يعود يملأ غليونه؟ هذا ما حدثتني به أنت بالذات.......

تأمَّلهُ سفدريجايلوف بانتباه، وخيِّلَ إلى راسكولنيكوف أنَّه يرى ابتسامةً خبيثةً تلمُّ بتلك النظرةُ السريعةُ كالبرق. ولكن سفريجايلوف سيطر على نفسه وأجاب بلهجةٍ مترعةٍ بالتهذيب:

نعم، بعينه، أرى أنَّكَ أيضاً تهتمُّ كثيراً بكلِّ هذا، فلك عليَّ، عند أول

فرصةٍ، أن أرضي فضولك، وأشبع جشعك للاطلاع على كلِّ النقاط. شيطانٌ يأخذني! أرى أنني سأنتهي إلى أن يعدُّني جميع النَّاس شخصاً رومانسياً خيالياً، فاحكم بعد هذا، مدى ما أدين به لمارفا بتروفنا من شُكرٍ ومنَّة لأنَّها قَصَّت على أختك جميع هذه الأشياء السِّريَّةِ الممتعة! لا أستطيع أن أتوقعُ قطعاً الأثر الذي شعرتُ بهِ أفدويتا رومانوفنا نحوي، وكلُّ ما أعلمهُ هو أنني سأفيد..... فرغم الكره الذي أحسَّت به أفدويتا رومانوفنا إزائي وهو وقتٌ طبيعيٌّ جداًّ على كُلِّ حالٍ، ورغم هيئتي الكدرة بل المتجهمة عامة، فقد أشفقت عليَّ أخيراً كما تشفق المرأة على إنسانٍ ضائع! وحين يمتلئُ قلب فتاة بالشفقة، إنَّما تتعرضُ لخطرٍ كبيرٍ، فهي تريدُ حتماً أن "تنقذ"، أن تُردَّ إلى الصَّواب، أن تدعو إلى الأغراض السَّامية، أن تحيا، أن تبعث من أجل الحيوية الملتهبة... أن تفعل كلَّ ما يمكن تخيلهُ على هذا النمط من المعني، وسرعان ما أدركتُ أنا أنَّ الطائر الصغير قد يطير إلى الشَّبكة من تلقاءِ نفسه، وسرعان ما بادرت من جهتي إلى اتخاذ احتياطاتي، يخيَّلَ إليَّ أنَّكَ تقطب حاجبيك يا روديون رومانوفتش، أنت مخطئ، إنَّ القصَّة كما تعلم، قد اقتصرت على سفاسف (أوه! أنني أسرف في احتساء الخمرة!) هل تعلم؟ لقد أسفتُ مراراً على أن الأقدار لم تجعل ميلاد أختك في القرن الثاني أو الثالث، في مكانٍ تكون فيه ابنة أميرٍ أو حاكمٍ أو والٍ في آسيا الصغرى إذاً لكانت إحدى أولاد النسوة شهيدات التعذيب ويبتسمنَ حين كانت أسياخ الحديدِ المحمَّى بالنار تمزِّقُ أثداءهن، ولكانت مضت تواجه هذا التنكيل من تلقاء نفسها، ولو قد ولدت في القرن الرابع أو في القرن الخامس لاعتزلت النَّاس، ومضت إلى صحراء مصر ثلاثين عاماً لا تقتات إلا بجذورِ النبات والرؤى ونشوة الوجد، إنَّها لا تنتظر إلا اللحظة التي تمكِّنها أخيراً من التضحية بنفسها في سبيل شخصٍ ما،

بل أنَّها لقادرةٌ على أن تلقي بنفسها من النافذة إذا منعت من تلك التضحية بنفسها، لقد سمعتُ عن شخصٍ اسمه رازوميخين[1]، أنَّه فيما يبدو، وكما يدلُّ على ذلك اسمه ـ العقل ـ فتى ذكيٌّ عاقلٌ لعلَّهُ طالبٌ بمعهدٍ ديني، فليسهر على أختك برعايته! الخلاصة: أحسب أنني فهمت أفدوتيا رومانوفنا، وأنني بذلك لفخورٌ ولكنَّ المرء، عند تعرُّفِهِ إلى شخصٍ من الأشخاص، يكون طائشاً بعض الشيء، غبياً بعض الغباء، كما تعلم..... فهو يرى الأشياء في ضوء.... شخصيٍّ، ولا يراها كما هي، ولكن لم وهبتَ كُلَّ هذا الجمال؟ ليس الذَّنبُ في هذا ذنبي! الخلاصة..... إنني سرعان ما افتتنت بها افتتاناً شهوانياً لم يكن لي حيلةً في دفعه، إنَّ أفدوتيا رومانوفنا ذات خفرٍ رهيبٍ، خفرٌ لا عهد لأحدٍ بمثله، خفرٌ لا يكادُ يصدقهُ العقل، (لأني كنتُ أقول لك هذا عن أختك فلأنَّه "واقع"، نعم، إنَّها رغم ذكائها، ورغم فكرها المنفتح جدَّاً، فتاةٌ ذاتُ خفرٍ شديدٍ..... وهذا أمرٌ قد يسيءُ إليها ويؤذيها)، كان عندنا حينذاك خادمةُ فتاةٍ اسمها باراشا، هي باراشا السَّمراء ذات العينين السوداوين الجميلتين التي جيءُ بها من قريةٍ أخرى منذُ بُرهةٍ قصيرةٍ، والتي لم يسبق لي أن رأيتها في يومٍ من الأيام قبل ذلك، كانت حلوةً جذابةً حقاً، ولكنَّها كانت على جانبٍ من الغباءِ لا يصدَّق، فما أقبلتُ عليها حتى أجهشت بالبكاء، وملأت فناءَ المنزلِ بصرخاتٍ حادَّةٍ، فسرعان ما كان ذلك فضيحةً وجرصة، وفي ذات مساءٍ، بعد العشاء، دبرت أفدودتيا رومانوفنا الأمور بحيث تلقاني وحيدةً في ممرٍ بين الأشجارِ بالحديقة، فإذا بها تطالبني جازمةً، وعيناها تسطعان غضباً بأن أدعَ الفتاة المسكينة مرتاحةً وألا أضايقها، ولعلَّ ذلك كان أول حديثٍ يجري بيني وبينها في خلوةٍ، وقد أسرعت أقطع على نفسي عهد الشَّرفِ بأن أُلبِّي رغبتها وأنفِّذُ إرادتها، وحاولت أن أظهر بمظهرِ المضطربِ،

1 - العاقل.

المسحتي، الخجل، أي عرفت كيف أمثِّلُ الدور فأُحسن التمثيل، ومنذُ تلك اللحظة، تمَّت بيننا لقاءاتٌ كثيرةٌ بالسِّر، وحدثت مشاهد متكررة كانت في أثنائها تمطرني بالمواعظ والنصائح والملامات، وتضرع إليَّ أن أغيِّرَ حياتي، باكيةً، نعم باكية.... تصوَّر! أتصدِّق؟! انظر إلى أيِّ مدى يمكنُ أن يمضي حيِّزُ الوعظ والنُصحِ عند بعض الفتيات! وطبيعي أنني حمَّلتُ القَدَرَ تَبِعتَ كُلَّ أخطائي، وصورت نفسي في صورة ظامئٍ إلى الضياء، ثُمَّ لجأتُ أخيراً إلى الوسيلة القصوى التي لا تخطئ هدفها من قلب المرأة قط، ولا تُخيِّب الظنَّ فيها أبداً، بل تحقق غايتها، وتؤثِّرُ في جميع النِّساءِ دون استثناء، أعني التملُّقَ بالمديح، لئن لم يكن في العالم شيءٌ أصعبُ من الصَّراحةِ، فلا شيءٌ في العالم أسهلُ من التملُّق، فالصدقُ إذا اندسَّ فيه عشرُ معشارٍ من كذب، سرعان ما يخالطه نشازٌ، فتقع فضيحة.

أما التملُّق فإنَّهُ إذا كان كذباً من أوله إلى آخره، يظلُّ ساراًّ وممتعاً، فالشخص يضفي إليه شاعراً بلذةٍ إن لم تكن لذةً سامية، فهي لذةً على كلِّ حالٍ، ومهما يكن التملُّق مفضوحاً فإنَّ نصف المديح على الأقل ينطلي على الممدوح، يطبَّق هذا على جميع طبقات النَّاس في المجتمع، وجميع المستويات العقلية.

إنَّ في وسعك أن تغوي بالمديح أطهر فتاةٍ، فما بالك بغيرها من النَّاس البسطاء! لا أستطيع أن أتذكَّر - إلا ويغلبني الضَّحك - كيف أغويتُ في ذات يومٍ امرأةً مخلصةً كلَّ الإخلاصِ لزوجها وأولادها وفضائلها.... لَكم كان ذلك مسليَّاً، ولَكم كان سهلاً، ومع ذلك كانت المرأة من أكثر النساء تمسُّكاً بالفضيلة على طريقتها، وكان كلُّ الأسلوب الذي اتبعته معها هو أنني أظهرت لها دائماً انبهاري بفضائلها وعبادتي لعفتها! كنت أتملقها بالمديح دون تحفُّظ، وكنتُ إذا اتفق لي أن أحصل منها على مصافحة باليد أو نظرة بالعين، ألوم نفسي أمامها على أنني انتزعت ذلك منها انتزاعاً بالقوة، حتى

لأتظاهر أنني أعتقد أنَّها عارضت في ذلك، وأنني ما كنت لأحصل منها على شيء مطلقاً لولا أنني فاسق، ولولا أنَّها في براءتها وعفتها لم تستطع أن تكتشف انحطاطي فانقادت ببساطةٍ وسذاجةٍ دون أن تشتبه أو ترتاب، الخ الخ. الخلاصة أنني حققت غاياتي ونفذت مآربي، وظلَّت السَّيدة مقتنعة أنَّها عفيفةً طاهرةً، وأنَّها تقوم بجميع واجباتها والتزاماتها، وأنَّها لم تخطئ إلا عرضاً: لذلك غضبت غضباً شديداً حين أعلنت لها بعد ذلك ـ وكنت قانعاً بما أقول ـ أنَّها كانت تنشد اللذَّةَ مثلما كنت أنشدها سواءً بسواء، ولقد كانت المسكينة مارفا بتروفنا شديدةَ التأثُّرِ بالمديح، عاجزةً عن مقاومةِ سلطانهِ عليها، ولو شئتُ لجعلتها تورثني جميع أموالها وأملاكها على حياتها (أنني أشرب كما تشرب بالواعة، وآتية في ثرثرات). آمل ألا تؤاخذني أو أن تحقد عليَّ إذا قلت لك الآن، أنَّ تلك الآثار نفسها قد بدأت تظهر على أفدوتيا رومانوفنا، ولكنني أفسدت الأمر كلَّهُ بحماقتي وقلةِ صبري.

لقد اتفق عدَّةَ مراتٍ، في أثناء أحاديثي مع أفدوتيا رومانوفنا (واتفق هذا في إحدى المرَّاتِ خاصةً) أن نفرت نفوراً رهيباً من تعبير عيني، واشمأزَّت اشمئزازاً شديداً، هل تصدق هذا؟ الخلاصة أنَّ لهيب الشَّهوةِ الذي كان يتوقَّدُ في عيني بمزيدٍ من القوةِ يوماً بعد يوم، وفريدٍ من القحة في ذات الوقت، قد أرعبها وأصبح كريهاً في نفسها آخر الأمر، لا داعي لأقصَّ عليك الأمر تفصيلاً فالمهم أننا كففنا عن اللقاء، وارتكبت عندئذٍ غلطةً جديدةً، فقد طفقت أسخر بأغلظ ألفاظ السخرية من جميع تصرفاتها ومواعظها، وعادت باراشا تنال الحظوة، ولم تكن الأخيرة في هذه المرَّةِ وحيدة.

الخلاصة: أن المنزل أصبح أشبه بمدينةِ سدوم. آ... لو أنَّكَ رأيت، مرةً واحدةً، ياروديون رومانوفتش، كيف كانت تسطع عينا أختك حينذاك لعرفت مدى قدرتهما على الاشتعال والالتهاب! صحيحٌ أنني الآن سكران، وأنني قد أفرغت منذُ لحظةٍ كأساً أخرى من الخمر، ولكن ما أقوله لك إنَّما هو الحقيقة.

أؤكـد لـك أن تلـك النظريـات كانـت تلاحقـني في نـومي، وأخـيراً أصـبحت لا أطيقُ حتـى سمـاع حفيـف ثوبهـا، وصـرت أتوقَّـعُ حقّـاً أن تـوافيني نوبـةُ صـرعٍ مـن لحظةٍ إلى أخرى، ما كان لي أن أصدِّقَ في يومٍ من الأيام، نعم مـا كـان لـي أن أصـدق في يـومٍ الأيـام قـط، أنَّ مـن الممكـن أن أصـير إلى مثـل تلـك الحالـة مـن الخروج عن طوري، وأصبحت المصالحة أمراً لا بُدَّ منهُ غير أن هذا الأمر لم يعد ممكناً، فهل تتصور مـاذا فعلـت حينـذاك؟ هـل تتخيَّـلَ مـدى السُّـخف الـذي قـد يقـود إلى الحمـق! إيـاك أن تتسـرع في عمـل شـيءٍ حـين تكـونُ حانقـاً يـا روديـون رومـانوفتش! إنـني وقـد لاحظـت أنَّ أفـدوتيا رومانوفنـا فتـاةً فقـيرةً مُعدمـةً (لا تؤاخذني إذا أنا استعملت هذا التعبير..... أيُّ فـرقٍ بـين التعـابير إذا كـان معناهـا واحداً؟)، قصارى القول، أنَّها تعيشُ من عرق جبينها وكدِّ يمينهـا، وأنَّهـا تقـوم بإعالةِ أُمها، وإعالتك أنت (مالكَ تقطبُ حاجبيك مـن جديـد؟)، قـررتُ أن أقـدِّمَ إليهـا كـلَّ مـا أملـكُ مـن مـال، وكـان في وسـعي عندئـذٍ أن أجمـع ثلاثـين ألـفَ روبـلٍ، علـى شـرط أن تقبـل الهـرب معـي، ولـو إلى هنـا، إلى بطرسـبورغ، فلـو رَضِيت أن تهـرب لعاهـدتها علـى أن أحبهـا مـا حييـت، متـى وصـلنا، ولوعـدتُّها بالسعادة والهناء وهلمَّ جرا... أبدَ الدَّهرِ، فلقـد بلغـت مـن التَّحمُّسِ ـ صـدقني إن شئت! ـ إنني لو أمرتني أن أذبح أو أسمم مارفا بتروفنا من أجل أن أُصبح زوجهـا هـي، لفعلـتُ ذلـك علـى الفـور، ولكـنَّ الأمـرَ كلُّـهُ قـد انتهـى بالكـارثة الـتي تعـرف، ففـي وسـعك أن تفهـم الغضـب الشـديد الـذي شـعرتُ بـه حـين علمـت أن مارفا بتروفنا قد جـاءت بـذلك الـدَّاعي الحقـير "لـوجين" تريـد أن تزوِّجـهُ أختـك، وذلك مشـروعٌ لا يختلـف كـثيراً عـن مشـروعي أنـا البتـة، ألـيس كـذلك؟ ألـيس كذلك؟ أنت توافقني على هـذا الـرأي؟ ألـيس كـذلك؟ إنـني أُلاحظ علـى كـلِّ حـالٍ أنَّـكَ أصـبحت تصـغي إلـيَّ بانتبـاهٍ شـديدٍ.... أيُّهـا الشَّـابُّ الظريـف.... قـال سـفدريجايلوف هـذا ثُـمَّ ضـرب المنضـدة بقبضـة يـدهِ وقـد نفـذ صـبره، فـأدرك راسـكولنيكوف أن كـأس الشـامبانيا (أو الكـأس ونصـف الكـأس) الـتي

شـربها جرعـات صـغيرة قـد أحـدثت فيـه أثـراً سـيئاً، لـذلك قـرر أن ينتهـز هـذه الفرصة وأن يفيد من هذا الظرف، لقد كان شديدَ الرَّيـبِ في سـفدريجايلوف، كثير الحذر منه.

أردف فجأةً ليحكم خنقه بل تنكيده:

فأستطيع أن أستنتج مما أفضيت إلى أنَّـكَ بمجيئـك إلى بطرسـبورغ إنَّمـا كنـت تطمح في أختي وتبيِّتُ لها شيئاً.

أجابه سفدريجايلوف وكمن يتذكر شيئاً ما:

دعنا من هذا، أرجوك.... قلتُ لـك.... ثُمَّ أنَّ أختـك لا تسـتطيع أن تطيقني، فهـي تكرهني كرهاً مقيتاً.

أما أنَّها تكرهك فأنا واثقٌ بهذا، وإنَّما من الممكن ألا تكون هذه هي المسألة.

أنت واثقٌ بهذا؟

هتـف سـفدريجايلوف ذلـك وهـو يغمـز بعينـه ويبتسـم ابتسـامة سـخريةٍ، ثُمَّ تـابع كلامه:

إنَّـكَ محق، إنَّهـا لا تحبني، ولكنَّـك لا تسـتطيع أن تضـمن مـا يجـري بـين رجـلٍ وامرأةٍ، أو بين خليلٍ وخليلتهِ، هنـاك دائمـاً ركـنٌ صـغيرٌ يغيـبُ عـن جميـع النَّـاس ولا يعرفـهُ أحـدٌ سـوى الشَّخصـين المعنـيين، أفي وسـعك أن تُقسـم أن أفـدوتيا رومانوفنا كانت تنظر إليَّ باشمئزاز؟

أقرأُ في بعض كلماتك وتلميحاتك أنَّـكَ مازلـت تُضـمِرُ، إزاء دونيـا، نيِّـاتٍ ملحَّـةٍ وأهدافاً لست أصفُها إلا بأنَّها دنيئة!

كيف؟ أأنا أُفلِتت مني كلماتٌ وتلميحاتٌ من هذا النوع؟

سأل سفدريجايلوف وقد ارتاع بشكلٍ ساذجٍ جدَّاً، ولكـن دون أن يهتمَّ اهتماماً يكادُ لا يذكر بالنعت الذي وصف به راسكولنيكوف أهدافه.

أردف راسكولنيكوف:

بل أنَّها ما تزال تفلت منـك! فلمـاذا ارتعـت هكـذا مـثلاً؟ نعـم، مـا الـذي يخيفـك

هذا الخوف؟

أنا ارتعت ؟ أنا خفت؟ خائفٌ منك أنت؟ أرى أنَّ الأولى بِكَ أن تخاف أنت مني cherami[1]؟ ما هذا الكلام الصبياني؟ على أنني سكران، أُسرف بالكلام كثيراً حتى أكاد .... لعن الله الخمرة! هيه أعطني ماء!

هذا ما قال سفدريجايلوف، وتناول عبوة الخمر فرماها من النافذة بغير تحرك، وجاءهُ فيليب بإبريق ماءٍ، ثمَّ استأنف سفدريجايلوف كلامهُ فقال وهو يَبِلُّ منشفةً ويضعها على رأسهِ:

وهذه سخافات على كلِّ حال.... إنني أستطيع أن أُسقط شكوكَكَ كُلَّها بكلمةٍ واحدةٍ، هل تعلم مثلاً أنني سأتزوج؟

-سبق أن قُلتَ لي هذا

سبق أن قلتُ لك هذا؟ حقاً؟ لست أتذكر، على كلِّ حالٍ، لا شكَّ أنني لم أقلهُ جازماً، لأنني لم أكن قد رأيت خطيبتي، وما كان الأمر حتى ذلك الوقت سوى فكرةً أو مشروع فكرة، أما الآن فإنَّ لي خطيبة، وقد أصبح الأمر واقعاً، ولولا شؤونٌ مستعجلة لدعوتك أن تصحبني إليها، لأنني أريدُ أن أطلب منك بعض النصائح. آ.... لم يبق لي إلا عشر دقائق! خذ..... أنظر في ساعتي، ولكن يجب أن أحكي لك... ذلك أنَّ زواجي حادثةً شائعةً فريدةً في نوعها. إلى أين تمضي؟ أما تزال تريد الانصراف؟

لا.... الآن باقٍ هنا.

لن تنصرف؟ سوف نرى! سأصطحبك إلى هناك لأعرِّفكَ إلى خطيبتي، ولكن ليس الآن، الآن لابدَّ أن نفترق، تمضي أنت يمنه، وامضي أنا إلى اليسار.

إن تلك المرأة التي تسمَّى "ريسليخ"، والتي أقيم عندها في هذه الفترة، لاشكَّ أنَّك سمعت عنها، أليس كذلك؟ عجيب.... ألم تسمع عنها؟ تلك المرأة التي

1 - صديقي العزيز- بالفرنسية بالأصل.

يقال أنَّها هي السبب في أن فتاة صغيرةٍ انتحرت غرقاً في وسط الشتاء. آ..... إنَّ تلك المرأة هي التي دبرت الأمر كلَّهُ. قال لي : "لا شكَّ أنَّك تضجر وتسأم وأنت وحيدٌ على هذه الحال، فيجب أن تُسري عن نفسك قليلاً". والحقُّ أنني امرؤ قاتم المزاج، مكتئب الطبع، حزين النفس، أتظنني مرحاً؟ أبداً.... سوداويٌّ.

لا أوذي أحداً، وأظلُّ قابعاً في ركني، ولكن يتفق لي أن أبقى ثلاثة أيام صامتاً لا أفتح فمي بكلمة، ولقد كانت تلك القوَّادة ريسليخ تخفي خطة وتبيت فكرة:

كانت تخاطب نفسها إن امرأتي القادمة سوف تضجرني آخر الأمر، وأنا سوف أهجرها، فتقع عندئذٍ بين يديها هي ريسليخ، "فتدخلها في التداول" في بيئتنا أو في بيئة أرفع، قالت لي إنَّ للفتاة أباً عجوزاً خرفاً هو موظفٌ محالٌ على المعاش أصبح لا يبارح مقعدهُ منذ ثلاث سنينٍ لأنَّه لا عاجزٌ عن تحريك ساقيه، وأضافت إلى ذلك أنَّ أمَّها امرأة راجحةُ العقل متسامحة، وأنَّ أخُ الفتاة يشغل إحدى الوظائف في الأقاليم، ولكنَّهُ لا يساعد ذويَّهُ، وأنَّ له أُختاً متزوجة لا توافيهم بشيءٍ من حياتها، وكأنَّ الأسرة ليس عندها عددٌ كافٍ من الأفواه تطعمه، فكفلت طفلين صغيرين من أقربائها، وعلى أثر ذلك أخرجت ابنتها الصغرى من الكلية قبل أن تتم دراستها، وستبلغ ربيعها السَّادس عشر بعد شهر، فيمكن عندئذٍ تزويجها، أي يمكن أن أتزوجها أنا، وقد ذهبنا أنا وريسليخ إلى أهل الفتاة. مشهد مضحك. عرفتهم بنفسي: ملاك، أرملةً، أسرة نبيلة، علاقات عالية، ثروةٌ طائلة، فما قيمة أن يكون عمري خمسين عاماً، وأن يكون عمر الفتاة ست عشرة سنة؟ من ذا الذي يمكن أن يتوقف عند أمرٍ تفصيليٍّ هو هذا الفرق بالسن؟ أليس هذا أمراً مغرياً، أليس ظريفاً جذاباً؟ هأ هأ هأ!..... ليتكَ رأَيتني وأنا أتحدث مع أبيها وأُمِّها! إن المرء ليدفع مالاً كثيراً ثمن رؤيته لهذا المشهد! وظهرت الطفلة فجأةً، فانحنت تحيي الضيوف كما يفعل الأطفال.... تصور أنَّها لا تزال تلبس الثوب القصير! إنَّها برعم وردٍ حقاً،

يصطبغ حذاءها بحمرة قانيةٍ كلون الشّفقِ عند الفجر( كانت قد اطلعت علّة الأمر طبعاً). لا أدري ما رأيك بالفتيات الصغيرات، أما أنا فرأيي أن هذه السنين الست عشرة، وتلك العيون الصغيرة التي ما تزال عيون أطفال، وذلك الخجل، وهذه الدُّموعُ التي تنسكب حياءً وخفراً، إنَّ هذا كلَّهُ آيةً من آيات الجمال. ناهيك عن أنَّ الفتاةَ كانت جميلةً كجمال صورة.

شعرٌ أشقرٌ خفيفٌ متموِّج، شفتان مكتنزتان قرمزيتان، قدمان صغيران. عجيبة من العجائب!... ولقد تعارفنا، ثمَّ أعلنت أنني في عجلةٍ من أمري، لأسباب عائلية، لذلك تمت الخطبة في غداة ذلك اليوم، أي أمس الأول، ومنذئذٍ أصبحت أجلسها على ركبتي متى وصلت إليهم، ثمَّ لا أتركها... فيحمر خداها من جديدٍ لتصبح بلون الشفق عند الفجر، وأروح ألتهمها بالقبل التهاماً! وأُمُّها تقنعها طبعاً بأنَّ الأمور يجب أن تجري على هذا النحو، لأنني سأصبح زوجها. الخلاصة: لذَّةٌ ما بعدها لذّة! ربَّما كانت حالة الخطيب هذه أحلى وأمتع من الحالة التي ستتلوها، أعني حالة الخطيب هذه أحلى وأمتع من الحالة التي ستتلوها، أعني حالة الزوج، فها هنا نجد la nature et la verite [1] كما يقال! هأ هأ! ..... لقد تحدثت معها مرة أو مرتين، إن الصَّبية ليست غبيةً أبداً، وإنَّها في بعض المحل، لتنظر إليَّ نظرةً تُشعِلُ حريقاً في كياني كلَّهُ. هل تعلم؟ إنَّ لها وجهاً من نوع وجه "المادونا" التي صوَّرها رافاييل. إن "مادونا سكستين" لها وجهٌ عجيبٌ تماماً، وجهٌ يعبِّرُ عن حزنٍ يلمُّ به جنونٌ غيبيٌّ، ألم يخطِفَ هذا بصرك؟ فاعلم إذاً أن وجه خطيبتي فيه شيءٌ من هذا النوع، وما أن تمت خطبتنا حتى حملت إليها هدايا بألفٍ وخمسمائةِ روبلٍ: حليةً من المال، وحليةً أخرى من لؤلؤ، وعلبةً فضيَّةً لأدوات الزينة، كبيرة بهذا الحجم، مع جميع لوازمها...... فإذا بوجه "المادونا" الصغير يشرف ويزدهر، ثمَّ

1 - الطبيعة والحقيقة- بالفرنسية بالأصل.

أجلستها بالأمس على ركبتي، ولعلّي بلغت من ذلك قلّةَ التَّحرُّجِ أنَّها أحمرت بشدَّةٍ وطفرت الدُّموعُ في عينيها، ولكنَّها لم تشأ أن تفضح نفسها رغم أن نفسها كانت تتقد حمماً، وخرج الجميع للحظة، فأصبحا وحيدين، أنا وهي، فإذا بها تبادر بغتة فتحيط عنقي بذراعيها الصغيرين وتقبلني (من تلقاء نفسها هذه المرَّة) وتحلف لتكونن لي زوجةً مطيعةً، وطيبةً وفيَّة، ولتسعدني ولتقفن على هذا حياتها كلّها، كلُّ لحظةٍ من حياتها، ولتضحي بكلِّ شيءٍ، بكلِّ شيء، ولن تطالبني مقابل ذلك إلا بشيءٍ واحدٍ: هو أن أحترمها، أن أحترمها فقط، فهي لا تريد إلا هذا، ولا تريد هدايا!" لا شكَّ في أنَّك توافقني على أن سماع اعتراف كهذا، في خلوةٍ، من ملاكٍ صغيرةٍ في السَّادسةِ عشر ربيعاً، وقد احمرت وجنتاها من حياء العذارى وخفرهن، وانسابت دموع الحرارة تتلألأ في عينيها، أقول لا شكَّ في أنَّكَ توافقني على أنَّ ذلك كلَّهُ جذَّابٌ مُغرٍ! جذَّابٌ مغرٍ، هذا هو الوصف الصحيح، أليس كذلك، شيءٌ يستحقُّ أن يدفع المرء ثمنه، هه؟ ...... اسمع.... ستذهب إلى خطيبتي.... ولكن ليس الآن!

الخلاصة أن هذا الفرق الرَّهيب في السنِّ وفي الثقافةِ يثير رغبتك الشهوانية كلَّ الإثارة! أمن الممكن أن تفكِّرَ فعلاً في الإقدام على زواجٍ كهذا؟

لم لا؟ طبعاً أفكِّرُ وأصدِّق! لكلِّ امرءٍ أن يفكِّرَ لنفسهِ، وأقدرُ النَّاس على خداع نفسهِ أنجحهم في قضاء أيامٍ طيبة! هأ هأ! ولكن ما بالك وقد أصبحت رجلاً فاضلاً حميداً على حين فجأة؟ رأفة بي يا عزيزي، كوني إمرءاً خاطئاً مذنباً! هيء هيء هيء!.....

ولكنَّك عنيت بأولاد كاترينا إيفانوفنا على كلِّ حالٍ..... كانت هناك بواعث تدفعك إلى ذلك...... الآن فهمتُ كلَّ شيء! قال سفدريجايلوف وهو ينفجر ضاحكاً:

أنا أحبُّ الأطفال كثيراً، أحبهم كثيراً جدَّاً، ويمكنني بالمناسبة أن أروي لك حادثةً غريبةً ما تزال تجري حتى هذه السَّاعة، لقد طفت بمختلف الملاهي

الموبوءة في العاصمة منذ وصولي أوَّل يومٍ..... أسرعت أتسكَّعُ بها بعد فراقِ سبع سنين.
لعلَّكَ لاحظت قلَّةَ حرصي على إعادة الصِّلة بيني وبين أصحابي وأصدقائي القدماء، حتى ليمكنني أن أقول أنني أفرُّ منهم فراري من الطاعون.
يجب أن أقول، لكني حين كنت أعيش في الرِّيف عند مارفا بتروفنا كان ينتابني ضيقٌ شديدٌ كلَّما تذكرت هذه الأماكن السِّريَّة التي يستطيع الإنسان الخير أن يجد فيها أشياءً كثيرة! الشعب هنا يسترسل بالسكَّر، والشبيبة المثقفة تذوب وتضيع في أحلامٍ خياليةٍ، ونظرياتٍ عجيبةٍ بسبب عدم النشاط، واليهود يهرعون من كلِّ مكانٍ ينهبون كلَّ ما تطاله أيديهم، من مالٍ، وسائر النَّاسِ يستسلمون في أثناء ذلكَ للفسق والمجون.
إذاً لقد أرسلت إليَّ هذه المدينة منذ الساعات الأولى رائحةً أليفةً جداًّ، وسرعان ما وقعت فيما يسمى سهرةً راقصةً: هو ملهى موبوءٌ فظيعٌ (ولكني أحبُّ هذه الأماكن حينما تكونُ باعثة على الاشمئزاز) كان الراقصون مندفعين في رقصة "الكانكان"، اندفاعاً محموماً مسعوراً قلَّما يرى المرءُ مثله في هذه الأيام، ولم نكن نرى مثله في أيامنا أبداً، لقد حقَّقَ تقدُّم في هذا المجال أيضاً. وفجأةً لمحتُ صبيةً لعلَّها في الثالثة عشرة ربيعاً، ترتدي ثياباً لطيفةً وتُراقص سيداً جميلاً، وكانت أمَّها جالسةً قرب الحائط تتأملها، هل تتخيَّل كيف كان الرَّقص؟ لقد كانت الفتاة تشعرُ بخجلٍ شديدٍ، وها هي ذي تحمرُّ، ثمَّ يزداد حرجها وانزعاجها أخيراً فتشرعُ تبكي، فيمسكها الرَّاقصُ الجميل، ويروح يدور بها، ويبدي ألف حركة وحركة بذيئة، والنَّاسُ من حوله تضجُّ بضحكٍ صاخبٍ، إنني في مثل هذه اللحظات إنَّما أحبُّ جمهورنا خاصةً، حتى جمهور هذا النوع من علب الليل، كان الحضور يضحكون ويصيحون قائلين: "مرحى! مرحى! لم يكن عليها إلا أن ترفض المجيء إلى هنا! ليس هذا مكاناً للأطفال!" أما أنا فلم أكترث طبعاً، وسرعان ما حددتُ المكان الذي

يناسبني، ومضيت أقعد قرب الأم، ورحت أكلمها: أنني أنا أيضاً ماراً ببطرسبرغ مروراً، وأضفت إلى ذلك إن هؤلاء النَّاس جفاةٌ غلاظٌ ليس لهم فراسة تعرفهم بمن يستحقُّون الرِّعاية والمداراة، وبعد أن أسمعتها أنني أملك مالاً كثيراً عرضت عليها أن أوصلها وابنتها بعربة، فقبلت وأوصلتهما، رأيت مسكنها (هو غرفة مؤثثة حقيرة كانتا قد نزلتاها منذُ وقتٍ قصيرٍ وفدتا من الأقاليم). وقالتا أنَّهما تعدَّانِ زيارتي لهما شرفاً عظيماً، وعلمت بعد ذلك أنَّهما لا تملكان قرشاً مثقوباً، وهما جاءتا بطرسبورغ للقيام بمساعٍ لدى إدارة من الإدارات، فعرضت عليهما خدماتي، وقدَّمتُ لهما مالاً، وعلمت عدا ذلك أنَّهما بالمصادفة إنَّما وقعتا في ذلك الملهى في تلك الليلة، فقد ظنتا أنَّه مكان لتعليم الرَّقص، وعرضت أن أتم ثقافة الفتاة بتعليمها اللغة الفرنسية، وبتعليمها الرَّقصَ خاصةً، سرعان ما قبل العرض بفرحٍ غامرٍ، وقيل لي على عجلٍ إنَّ هذا شرفٌ عريضٌ وعتيدٌ..... وما تزال علاقتنا قائمة، وما تزال زياراتي متتالية..... سنذهبُ إليها معاً لتراها إن شئت ..... ولكن ليس الآن!

كفاك! كفاك حكاياتٌ حقيرةٌ فاسقةٌ تبعث على الغثيان، أيُّها الإمَّعة الرَّث، المنحل، المنحط!

يا لك من شاعرٍ! يا لك من شيللر! Ou va –t- elle la vertu enricher [1]

هل تعلم أن صرخاتك هذه تغريني بأن أقصَّ عليك عرمةً من أمثال هذه الحكايات لأسمعك تطلقُ عبوةً من الزَّعيق؟ هذه لذَّةٌ حقيقية!

دمدم راسكولنيكوف مبغضاً حاقداً:

نعم، لاشكَّ أنني أبدو سخيفاً مضحكاً، فأنا كذلك في نظر نفسي.

ضحك سفدريجايلوف ملء حلقه، ثمَّ نادى فيليب، فدفع الحساب، ونهض لينصرف وهو يقول:

---

1 - تأملوا أين تعشش الفصيلة- بالفرنسية بالأصل.

نعم.... أنا سكران، ابتلعت جاماً من الخمر..... كفى حديثاً! .... أنَّها لذَّةٌ حقيقة.

صاح راسكولنيكوف وهو ينهض أيضاً:

كيف لا تشعر بلذَّةٍ .... كيف لا تكون لذَّةً لرجلٍ فاسقٍ داعرٍ من طينتك أن يقص مغامراتٍ كهذه المغامرات وهو يحلمُ بمشاريعٍ شيطانيَّة أخرى من هذا النوع، وأن يقصَّ ذلك على إنسانٍ مثلي وفي مثل هذه الظروف؟ ...... هذا يؤجج رغبتك، ويهيِّجُ نفسك، أليس كذلك؟

قال سفدريجايلوف بشيءٍ من الدَّهشة وهو يتفرَّسُ في راسكولنيكوف:

إذا كنت ترى هذا الرأي، فانَّك إذاً لمستهترٌ عظيم ... أو أنَّ فيك استعداداً لهذا. إنَّك تستطيع أن تدرك كثيراً من الأشياء ..... وأن تصنع بها كذلك كثيراً من ..... ولكن كفى! يؤسفني حقاً أن حديثنا كان قصيراً بهذا القدر، ولكنك تفلت مني هكذا .... اصبر قليلاً....

خرج سفدريجايلوف من الحانة، وتبعه راسكولنيكوف.

الحقُّ أن سفدريجايلوف لم ينل منه السُّكرُ كثيراً، إن الشَّراب لم يصعد إلى رأسه إلا لحظةً قصيرةً، وكان ثملهُ يتبدد شيئاً فشيئاً بقوةٍ، كان هناك أمرٌ هامٌ جدَّاً يشغل بالهُ كثيراً، فكان يقطب حاجبيه، وكأنَّ انتظار شيءٍ ما يقلقهُ بوضوحٍ، ويثير أعصابهُ، ولم يفت راسكولنيكوف أن يلاحظ أن سفدريجايلوف قد غيَّر لهجتهُ في مخاطبته منذ لحظاتٍ، وأنَّه أصبحَ يكلمهُ بفظاظةٍ وسخريةٍ أوسع وأشق، وكان هذا الأمر يقلق راسكولنيكوف أيضاً. واشتبه راسكولنيكوف في أمرِ سفدريجايلوف، فقرر أن يتبعه، وصلا إلى الرَّصيف.

أنت تذهب يمنة وأنا أذهب يسرى، اللهم إلا أن يكون العكس! المهم أن نفترق adieu mon plaisir يسرني أن أراك مرَّةً أخرى.

قال سفدريجايلوف هذا وسار يمنة في اتجاه سوق العلف.

# الفصل الخامس

سار راسكولنيكوف وراءه، فصاح سفدريجايلوف ملتفتاً إليه:

ما معنى هذا؟ أظنُّ أنني قلت لك ....

معنى هذا أنني لن أتركك قيد إصبع .....

ماذا؟ ماذا؟

وقال راسكولنيكوف بلهجةٍ قاطعةٍ:

بعد جميع الحكايات التي رويتها لي وأنت في شبه سكرٍ، يحقُّ لي أن أتصور تصوراً تاماً أنَّكَ لم تهجر مشاريعك الدنيئة فيما يتعلَّقُ بأُختي، وهذه المشاريع تشغلك الآن أكثر مما كانت تشغلك في أيِّ وقتٍ مضى، أنا أعلم أنَّ أُختي تلقَّت في هذا الصَّباح رسالةً، ولقد كنت أنت قلقاً لا تستقرُّ على حالٍ، ومن الجائزِ جدَّاً أن تكون قد عثرت على خطيبةٍ جديدةٍ، ولكن هذا لا يبرهن على شيء، فأنا أريد أن أتحقق من الأمر بنفسي.

لو سئله راسكولنيكوف، ما الأمر الذي يريد أن يتحقق منه بنفسك لارتبك بشكلٍ شديد.

قال سفدريجايلوف:

ها ..... هكذا؟ أتريد أن تنادي الشُّرطة؟

نادها!

وسكتا من جديد، ومن جديد أخذ كلٌّ منهما يتفرس في الآخر، وأخيراً تغيَّرَ تعبير وجه سفدريجايلوف، فأنَّه حين رأى أنَّ راسكولنيكوف لم يخف من تهديده، أسرع يصطنع لهجةً تنمُّ عن مرحٍ ومودةٍ وصداقةٍ، وقال:

ما أغرب أمرك! لقد تعمدتُ ألا أكلمك في قضيتك، رغم أنَّ الفضول ينهش قلبهُ نهشاً...... إنَّها لقضيةٌ خياليةٌ! لقد أثرت أن أرجئ الكلام فيها إلى مرَّةً أخرى..... ولكنَّكَ قادرٌ على أن تجعل الميت نفسه يفقد صبرهُ وتثور أعصابه.

تعال معي إن شئت، ولكنني أنبهك: إنَّ عليَّ أن أرجع إلى البيت لحظةً لآخذ شيئاً من المال، ثمَّ أُغلق الباب بالمزلاج، وأقفز راكباً عربةً من العربات لأمضي إلى قضاء السَّهرة في الجزر، فكيف تستطيع أن تتبعني في هذه الحالة؟

إنَّ عليَّ أن اذهب إلى عمارتك أنا أيضاً، لا إلى بيتك أنت، بل إلى بيت صوفيا سيمونوفنا لاعتذرٍ لها عن تخلفي عن حضور الجنازة.

لك ما تشاء، ولكنَّ صوفيا سيميونوفنا ليست في بيتها، فقد ذهبت بالأولاد إلى بيت سيدةٍ عجوزٍ محترمة هي صديقةٌ قديمة لي تدير ملجأً للأيتام.

لقد فتنت تلك السيدة بأنني خصصت أبناء صوفيا سيمونوفنا الثلاثة ببعض المال، كما وهبت مبلغاً آخر للملجأ الذي تديرهُ، وقد قصصت عليها كذلك قصَّة صوفيا سيمونوفنا بنصها الكامل دون ان أخفي شيئاً، فكان الذي أحدثته عندها هذه القصة أثراً عميقاً لا يوصف، وذلك هو السَّبب في أنَّ صوفيا سيميونوفنا قد دعيت إلى أن تذهب في هذا اليوم نفسهُ إلى الفندق الذي نزلته تلك السَّيدة موقتاً حين عادت من بيتها الريفي منذ برهة.

سأذهب مع ذلك إلى صوفيا سيميونوفنا.

إفعل ما تشاء، لكنني لن أصحبك، ما ذهابي إلى هناك؟ ثمَّ ها نحن قد أوشكنا أن نصل، قل لي: يخيَّل إليَّ أنَّك إنَّما تنظر إليَّ نظرةَ الرَّيبة هذه لأنني كنت مؤدباً مهذباً فلم أزعجك بأسئلة كان يمكن أن ..... أنت تفهمني! لقد بدا لك هذا أمراً خارقاً، أليس كذلك؟ فهلّا أظهرت أنت أيضاً شيئاً من الأدب والتهذيب؟!

وهل كان أدباً وتهذيباً أن تتنصت على الأبواب؟

قال سفدريجايلوف وهو يضحك:

ها .... إذاً ما زلت تتذكر هذا وتفكر فيه! على كلِّ حالٍ، كان سيدهشني ألا تثير هذا الموضوع حتى الآن! هأ هأ هأ! ولكنَّ الواقع أنني لم أسمع إلا بضع شزرات من جميع تلك المهازل التي كنت تجمجم بها لصوفيا سيميونوفنا ....

وقد فاتتني خاتمة ذلك كلّهُ، قد أكون شخصاً متخلف الذكاء محدود العقل عاجزاً عن فهم أيِّ شيء، ولهذا نفسه إنَّما أناشدك الله يا صديقي أن تجلو لي... أرجوك أن تنير عقلي على ضوء مبادئ العصر إذا كنت قد سمعت شيئاً!

أنت تكذب! لا يمكن أن تكون

عجيب! أنا لا أتكلم عن هذا (رغم أنني سمعت بعض الأشياء). لا، إن كلَّ ما أريد أن أقوله هو أنَّك لا تنفك تئنُّ وتتوجع، إن "شيللر" الذي يثوي في أعماقك يسبب لك اضطراباً في كلِّ لحظةٍ، ثمَّ أنت تريد الآن ألا يتنصت أحدٌ على الأبواب! فإذا كنت قاسياً إلى هذا الحد، فهلمَّ اعترف للسلطات، وقل لها: "لقد ألمت بي مصيبة، إذ وقع خطأٌ صغيرٌ في نظرياتي الفلسفية". أما إذا كنت مقتنعاً بعدم تمكين المرء أن يتنصت على الأبواب، وأنَّه يجوز له أن يهشِّمَ رؤوس العجائز التافهات اللواتي تقع عليهنَّ يده، فما عليك في هذه الحالة إلا أن تبادر، فتهاجر إلى مكانٍ ما، إلى أمريكا مثلاً.... لا أدري.... وإنَّما يجب أن تفعل هذا بالسرعة القصوى، أهرب أيها الفتى! لعلَّهُ لم يفت الأوان بعد، إنني أكلمك صادقاً وأخلصُ لك النصح، ماذا؟ هل يعوزك المال اللازم للسفر؟ سأعطيك ما أنت بحاجةٍ إليه.

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً باشمئزاز:

لا يخطر هذا ببالي على الإطلاق.

أفهم ذلك. (بالمناسبة، لا تكلِّف نفسك عناء الكلام، فآن لكَ إلا تقول شيئاً البتة كما تشاء....) إنني أفهم المسائل التي تدور في رأسك .... هي مسائل.... من نوعٍ أخلاقي، أليس كذلك؟ أنت تتساءل هل تصرفت التَّصرف الذي يليق بإنسانٍ، بمواطنٍ؟ ولكن دع هذه المسائل، انبذها! فيم يمكن أن تفيدك الآن؟ هيء هيء هيء لأنَّكَ تبقى إنساناً ومواطناً بعد ذلك كلّهُ؟ .... وإلا، ما كان عليك أن تزج نفسك في هذا الأمر، وأن تشرع في عملٍ لستَ قادراً على المضيِّ فيه إلى النهاية، هيا هشِّم دماغك! ألا تحبُّ ذلك؟

لكأنَّكَ تحاول تكديري عامداً لأنصرف!!
غريبٌ أمرك! لقد وصلنا ، فما عليك إلا أن تُكلِّف نفسك عناء صعود السُّلَّم! ها هو ذا بابُ صوفيا سيميونوفنا. أنظر. ليس في بيتها أحد ، ألا تصدقني؟ سل إذاً آل كابرناؤموف.
إنَّها تترك لهم المفتاح دائماً ، وهذه هي madame كابرناوموفا بنفسها على كلِّ حالٍ، ماذا؟ (أنَّها تكاد لا تسمع)، هل خرجت صوفيا سيميونوفنا؟ إلى أين ذهبت؟ ها قد سمعت أنَّها ليست في بيتها وأنَّها لن ترجع إلَّا في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، تعال إذاً معي، إلى بيتي، كنت تريد أن تأتيني فعلاً ، أليس كذلك، فها نحن في بيتي! ليست السَّيدة ريسليخ هنا ، إنَّها لا تنقطع عن الحركة ، لكنَّها امرأةٌ طيبة ، أؤكد لك، في وسعها أن تنفعك كثيراً إذا أظهرت شيئاً من التَّعقُل، انظر هاأنا ذا آخذ من مكتبتي سنداً ماليَّاً (وأنت ترى أنني أملك سنداتً كثيرةً أُخرى)، غير أن السَّند سيبدل منذ هذا المساء نقوداً رنانة ، هل رأيت؟ لم يبق لي وقتٌ أهدره ، ها أنا ذا أغلق مكتبي، وأغلق باب الشُّقة ، وها نحن نهبط السلَّم. هل تريد أن تركب عربة؟ إنني ذاهبٌ إلى الجزر، كما تعلم، هل يسرُّكَ أن تقوم بجولةٍ صغيرةٍ بالعربة؟ انظر: ها أنا ذا آخذ هذه العربة ، وأطلب من الحوذيِّ أن يقودني إلى جزيرةِ ايلاجين، ماذا؟ أترفض؟ أنت منهوك القوى؟ هيا.... لنقم معاً بجولةٍ استجماميةٍ! أحسب أن المطر سيهطل، ولكن لا ضير، سنرفع غطاء العربة.
كان سفدريجايلوف قد استقرَّ على مقدمةٍ في العربة ، واعتقد راسكولنيكوف، في تلك اللحظة على الأقل، أن شبهاته ليس لها ما يسوِّغها. فاستدار دون أن يجيبَ بشيءٍ، وسار في اتجاه سوق العلف، ولو قد التفت إلى الوراء لرأى سفدريجايلوف ينقدُ الحوذيَّ أجرهُ بعد مائةِ خطوةٍ، ويعود يمشي على الرَّصيف، ولكن راسكولنيكوف لم يكن قادراً على أن يرى شيئاً ، وكان قد انعطف يقطعُ ناصية الشَّارعِ. إن اشمئزازاً قويَّاً كان يدفعه بعيداً عن

سفدريجايلوف.

هتف يسأل رغم إرادته: "كيف أمكنني، ولو خلال لحظةٍ قصيرةٍ، أن أنتظر شيئاً من هذا الإنسان الدنيء الحقير! من هذا الوغد السَّافل المنحط!" ولكن الحقيقة هي أنَّ أحكم راسكولنيكوف على سفدريجايلوف كان فيه شيءٌ من تسرعٍ وعجلةٍ، ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ الجوَّ الذي خلقه سفدريجايلوف كان يضفي على هذا الأخير شيئاً من شذوذٍ، بل ويحيط بشيءٍ من السرِّ، أما أخته فظلَّ راسكولنيكوف مقتنعاً بأن هذا الأخير لن يدعها بسلامٍ، ولكنَّ التفكير وإعادة التفكير في هذا الأمر كان قد أصبحا يشقان كثيراً على نفس راسكولينكوف.

فلمَّا أصبح وحيداً لم يلبث بعد عشرين خطوةٍ أن أسترسلَ في أحلامٍ عميقةٍ على عادته، حتى إذا وصل إلى الجسر توقَّفَ قرب الإفريز وأخذ يتأمَّلُ الماء، بينما كانت أفدوتيا رومانوفنا تتأملهُ هو، كان قد قاطعها عند أول الجسر تماماً، ولكن دون أن يلاحظها، وهذه أول مرَّةٍ تلتقي فيها دونيا بأخيها في الشَّارع على هذا النحو، وقد انقبض صدرها رعباً وذعراً حتى رأته، وتوقفت لا تدري أتناديه أم لا، ثمَّ لم تلبث أن لمحت سفدريجايلوف على حين بغتةٍ، متجهاً نحو سوق العلف بخطى سريعة، وكأنَّه يسير محاذراً متخفياً، ولم يدخل الجسر، بل توقَّفَ على الرَّصيف، متنحياً بعض الشيء، كي لا يراه راسكولنيكوف. كان قد لاحظ دونيا منذ برهةٍ طويلةٍ، وهو يحرك لها يديه بإشاراتٍ، فهمتها دونيا حضاً على ألا تنادي أخاها، وأن تتركهُ وشأنَّهُ، وأن يلحق به هو.

وهذا ما فعلته دونيا: فها هي ذي تتجاوز أخاها، دون أن تقول كلمةً، وها هي ذي تقترب من سفدريجايلوف.

دمدم هذا منادياً:

تعالي بسرعة! لا أريد أن أعلم روديون رومانوفتش بموعدنا، اعلمي أنني خارج من حانةٍ قريبةٍ وافاني فيها ثمَّ لم أعرف كيف أتخلَّصُ منه إلا بكثيرٍ من

المشقَّةِ والعناء! لا أدري كيف سمع بأمر الرِّسالة التي بعثتها إليك، وهو الآن يشتبه في أنَّ ثمَّة شيئاً ما، أرجو ألا تكوني أنت التي بحثتِ له ببعض الأسرار. ولكن إذا لم تكوني أنت، فمن عسى يكون؟ .....

قاطعتهُ دونيا:

لقد انعطفنا وقطعنا ناصية الشَّارع، فأصبح أخي لا يستطيع أن يرانا، لن أبتعك إلى أبعد من هذا المكان، فقل لي كلَّ شيءٍ هنا، إننا نستطيع أن نتكلم في الشَّارع.

أولاً: لا يمكن أن يُقال هذا في عرض الشَّارع. ثانياً: ينبغي أن تسمعي أيضاً صوفيا سيميونوفنا. ثالثاً: هناك وثائق يجب أن أطلعك عليها، أخيراً: إذا كنت ترفضين أن تجيئي إلى بيتي، فسوف امتنع عن كلِّ شرحٍ، وسوف أنصرف فوراً، هذا وأرجوك ألا تنسي أن سرَّاً شائعاً جدَّاً، متعلقاً بأخيكَ الحبيب، بين يدي.

توقفت دونيا مترددة، ورشقت سفدريجايلوف بنظرةٍ نافذةٍ، فسألها سفدريجايلوف هادئاً:

لما تخافين؟ ليست المدينة كالريف، ثمَّ أنَّكِ في الرِّيف قد أسأت إليَّ أكثر مما أسأتُ إليك، لذلك....

هل أطلعت صوفيا سيميونوفنا؟

لا، لم أقل لها كلمةً واحدةً، بل لستُ واثقاً بأنَّها الآن في بيتها، ولكن أغلب الظنِّ أنَّها هنا، لقد دفنت اليوم قريبتها، فما هذا يومُ زياراتٍ تقوم بها، على كلِّ حالٍ، لن أحدِّثَ أحداً في هذا الأمر الآن، حتى ليؤسفني أنني أطلعتك عليه، فأقلُّ طيشٍ يساوي هنا وشاية، انظري: هذا هو المنزل الذي أقطنه، أمامنا، والبوَّاب يعرفني جيداً، ها هو يحيِّني كما ترين، إنَّهُ يلاحظ أنَّ معي امرأةً، وطبيعي أن صورة وجهك قد نفشت الآن في حافظته، ولهذا ينبغي أن يطمئنك أن كنت تخافيني وتشكِّينَ بي، اغفري لي فظاظتي هذهِ في

مخاطبتك، أنا هنا مستأجرٌ عند مستأجرين، وليس يفصلني عن صوفيا سيميونوفنا إلا حائط، فهي أيضاً مستأجرة لدى مستأجرين، الطابق كلَّهُ مسكون فممَ تخافين؟ إلا أنَّ هذا الخوف لخوف طفلةٍ صغيرةٍ!

هل أنا مخيفٌ إلى هذه الدَّرجة؟

قال سفدريجايلوف هذه وهو يصطنع ابتسامةً أراد لها أن تعبِّرَ عن الطيبة والسَّماحة، ولكنَّهُ كان قد بلغ من الاضطراب حدَّاً لا يستطيع معه أن يحسن التمثيل، كان قلبه يخفق خفقاناً قويَّاً، وكانت أنفاسهُ مختنقة، وكان يتعمد أن يتكلَّمَ بصوتٍ جهوري ليخفي اضطرابه المتمادي، ولكنَّ دونيا لم تلاحظ هذا الاضطراب، فقد ساءها كثيراً ما قاله عن خوفها الذي يشبه خوف الأطفال، وعن هيئته المخيفة في نظرها.

أردفت بلهجةٍ ظاهرها هادئ، وكان وجهها شاحباً شديدَ الشُّحوب:

رغم أنني أعدُّكَ رجُلاً لا شرف له .... فإنني لا أخافك البتة، تقدمني! توقف سفدريجايلوف أمام باب سونيا.

اسمحي لي أن أسأل إن كانت في بيتها. لا، ليست هنا، يا لسوء الحظ! لكني أعلم أنَّها قد تعود بين لحظةٍ وأخرى، لئن تغيبت، فما ذلك إلا لأنَّها ذهبت تزور سيدة لتبحث معها أمر الأيتام الذين ماتت أمهم، وكنت أنا أساعدهم أيضاً، فإذا لم ترجع خلال عشر دقائقٍ، فسوف أرسلها إليك في هذا اليوم إن رغبت في ذلك، هذا مسكني، وهاتان هما الحجرتان اللتان أحتلهما، وراء هذا الحاجز تسكن صاحبة البيت السيدة ريسليخ، والآن انظري هنا، سوف أريك وثائقي الأساسية، من غرفة نومي يفضي هذا الباب الذي ترين إلى حجرتين خاليتين، معدتين للتأجير. انظري.... يجب أن تنتبهي إليهما جيداً.

كان سفدريجايلوف يشغل غرفتين مؤثثتين واسعتين، أجالت دونيا بصرها حولها مرتابة، لكنَّها لم تلاحظ شيئاً خاصاً يلفت النظر، لا من حيث الأثاث ولا من حيث الترتيب، رغم أنَّها كان يمكن أن تنتبه إلى أن شقة

سفدريجايلوف تقع بين بيتين غير مسكونين تقريباً، يصل المرء إليهما لا من الممرِّ رأساً، بل باجتياز غرفتين خاليتين تقريباً لصاحبة البيت، وفتح سفدريجايلوف باباً مزلَّجاً، يقع عند طرف غرفة نومهِ، فدل دونيا إلى المسكن الخالي المعد للتأجير.

وقفت دونيا في العتبة لا تدري لماذا يدعوها سفدريجايلوف إلى أن تنظر، ولكن هذا الأخير أخذَ يمدَّها بالشروح فقال:

انظري هنا، إلى هذه الغرفة الكبيرة الثانية لاحظي هذا الباب، إنَّهُ مغلقٌ بالمفتاح، وقرب هذا الباب يوجدُ كرسي، إنَّهُ الكرسيُّ الوحيد الذي يمكن العثور عليه في هاتين الغرفتين، أنا الذي جئت بهِ إلى هنا لأُحسن التنصت بغير عناءٍ وتعب، ووراء هذا الباب مباشرةً وضعت مائدة صوفيا سيميونوفنا، لقد كانت قاعدةً إلى هذه المائدة تتحدث مع روديون رومانوفتش، فمن موضع جلوسي على هذا الكرسي، في هذا المكان نفسه، ظللت أنا أتنصت إلى حديثهما مسائين متتاليين، خلال ساعتين، في كلِّ مرةٍ، فعرفت بعض الأمور طبعاً. ما رأيك؟

تنصت على الباب؟

نعم، تنصت على الباب. والآن لنذهب إلى غرفتي هنا لا نستطيع الجلوس.

قال سفدريجالوف هذا وقاد أفدوتيا رومانوفنا إلى الغرفة الأولى التي يتخذها حجرة استقبال، ودعاها إلى الجلوس، وجلس هو إلى الطرف الأخر من المائدة، ولكن عينيه كانت تسطعان بذلك اللهيب نفسه الذي كان قد روَّعَ دونيا ترويعاً شديداً في أحد الأيام، ارتعشت دونيا، ومرَّةً أخرى نظرت فيما حولها مرتابةً، كانت لا تريد أن تُظهر ريبيتها، غير أن حالة العزلة في شقة سفدريجايلوف أثارت دهشتها وقلقها أخيراً، فأرادت أن تسأله هل صاحبة الدار موجودة في الدَّار على الأقل، ولكن كبرياءها صدَّها عن هذا السؤال، وكان قلبها على كلِّ حالٍ يعاني ألماً أشدُّ كثيراً من أي ألمٍ يمكن أن تعانيه

في سبيل نفسها، وكان هذا الألم يعذِّبُها عذاباً شديداً.

بدأت تتكلم وهي تضع رسالته على المائدة:

هذه رسالتك. هل جاء فيها ممكن؟ انك تلمح إلى جريمة ارتكبها أخي. لا تحاول أن تتهرب وأن تتملص الآن. تلميحك أقوى من أن ينكر. واعلم أنني حتى قبل أن أتلقى رسالتك كنت سمعت عن هذه الحكاية الدنيئة التي لا أصدق منها حرفاً وأحداً. إن افتراضاً كهذا الافتراض منحط وسخيف في آن. أنني أعلم كيف ولماذا لفقت هذه الترهة. لا تستطيع أن تقدم أي برهان على ..... لقد وعدتني بأن تبرهن: فتكلم إذاً! ولكن عليَّك أن تعلم سلفاً أنني لن أصدقك. لا، لن أصدقك!

قالت دونيا هذه الكلمات متدفقة، واحمر وجهها احمراراً شديداً من فرط الانفعال وسرعته.

أردف سفدريجايلوف:

ولكن إذا كنت لا تصدقني فلماذا جئت إلى بيتي وحيدة؟ نعم، لماذا قدمت إلي، أبدافع الفضول وحده؟

لا تعذبني! تكلم! تكلم!

لا شكَّ في أنَّكِ فتاةً شجاعةً.

لقد ظننت أنَّكِ ستطلبين من السَّيد رازوميخين أن يصحبك إلى هنا، لكنَّه لم يظهر لا معك، ولا حولك.

لقد نظرتُ مليَّاً فلم أره، هذه شجاعة منك، أنت تريدين إذاً أن تنقذي أخاكِ روديون رومانوفتش! على كلِّ حالٍ، فإنَّ كلَّ ما فيكِ عظيم، رائعٌ!..... أما أخوك، فماذا أقول لك عنه؟ لقد رأيته بنفسك، فما رأيك في حالته؟

أرجوكِ ألا تكون حالته هذه هي الأساس الذي فرضت عليك اتهامك إيَّاه!

لا، لا، لم أبني اتهامهُ على حالته فحسب، بل على أقواله أيضاً، على كلِّ حالٍ، لقد أتى إلى صوفيا سيميونوفنا مساءين متتاليين، فجلسا في المكان

الذي أرتيك إياه، وهناك اعترف لها بكلِّ شيءٍ، اعترافاً تاماً. أنَّه قاتل، قتل العجوز المرابية التي كان قد رهن عندها أشياءً، وقتل أختها التاجرة التي تسمى ألزافيتا، والتي دخلت صدفةً بينما كان يقتل العجوز.

قتل الإثنتين بفأسٍ جاء بها لارتكابِ جريمتهِ، قتلهما ليسرق، وقد سرق، أخذ مالاً، وأخذ أشياء! ..... أنا إنَّما أروي لك ما رواه هو بالذات، كلمة كلمة، لصوفيا سيميونوفنا التي تعرف وحدها السِّر، والتي لم تشارك في جريمة القتل مطلقاً، لا بالقول ولا بالفعل، حتى لقد روَّعتها هذه القصَّة كما تروعكِ أنتِ الآن، لا تخافي! لن تشي به! تمتمت دونيا وقد ابيضت شفتاها، واختنق صدرها:

هذا مستحيل! مستحيل! ليس هناك أيُّ سببٍ يدفعه إلى ذلك! ليس هناك أيُّ باعثٍ يحضَّهُ على ذلك!..... هذا كذب! هذا كذبٌ فظيع! .....

لقد سرق، هذا هو الدَّافع الوحيد، أخذ مالاً وأشياء، صحيحٌ أنَّه كما قال، لم ينتفع بذلك المال ولا بتلك الأشياء، بل مضى يخبئ كلَّ شيءٍ تحت صخرةٍ ما تزال تدفن تحتها المال والأشياء جميعاً، ولكنَّ السَّبب في ذلك هو أنَّه لم يجرؤ.....

صاحت دونيا تقول وهي تنهض من مكانها واثبةً:

ولكن هل يعقل أن يكون قد سرق؟ هل يمكن أن قد راودته هذه الفكرة حقاً؟ إنَّكَ تعرفهُ، إنَّك رأيته، فهل يمكن أن يكون لصَّاً سارقاً؟

لكنَّها كانت تتضرعُ إلى سفدريجايلوف، كان يبدو أنَّها نسيت خوفها وذُعرها.

هناك يا أفدوتيا رومانوفنا ألوف وملايين من أصناف السَّارقين: رُبَّ رجلٍ يسرق وهو يدرك في قرارة نفسه أنَّه يرتكب عملاً سيئاً، وقد سمعت مرَّةً عن رجلٍ نبيل المحتد، كريم النَّفس، أنَّهُ سرق عربة بريد، فمن يدري؟ لعلَّهُ حين فعل ذلك كان يظنُّ أنَّه يقوم بعمل محمود؟ لو كنت في مكانك لدهشتُ دَهشتَكِ

هـذه نفسـها، ولـو روى لـي هـذه القصَّـة شـخصٌ آخـرٌ لمـا صـدَّقتهُ، ولكـني لا أسـتطيع أن أكـذِّبَ أُذنـاي، إن أخـاكِ قـد بسَّـط لصـوفيا سـيميونوفنا كافـة الـدَّوافع الـذي حضـته علـى ارتكـاب فعلتـه، فأبـت هـي نفسـها أول الأمـر أن تصـدِّق، ولكنهـا لم تملـك أخـيراً إلا أن تصـدِّق، حـين رأت هيئتـه..... فهنـاك الآذان، وهناك العيون أيضاً، روى هو لها هذه القصَّة، هو نفسه.

وما هي تلك الدوافع؟

تلك حكايـةٌ طويلـةٌ جدَّاً يـا أفـدوتيا رومانوفنـا، كيـف أشـرح لـك؟ لقـد اعتمـد على نظريتهِ المعروفة تلك، كما أعتمدتُ عليها أنـا أيضـاً، الـتي تجيـزُ الجريمـة على شرط أن تكون تلك الجريمـة ذات هـدفٍ عـادلٍ نبيـلٍ، فعلـةُ شـرٍّ واحـدةٍ في مقابل مائة فعلٍ من فِعَلِ الخير! فعلةُ شـرٍّ وحيـدةٍ واحـدةٍ..... وبعـدها مئـةُ فعـلٍ مـن أفعال الخير! ثمَّ.... أليس يشـق علـى نفس فتـى موهـوبٍ جدَّاً، زاخـرٍ بكبريـاءٍ لا حدود لها، أن يحسَّ أنَّه لو ملك ثلاثة آلاف روبلٍ فقط لتغيَّر مستقبلهُ كلَّهُ، وألَّا يستطيع الحصول على ذلك المبلغ؟ أضيفي إلى ذلك حالة الحنق المرضـي الناشـئ عـن جوعـه المـزمن، وعـن سـكناه في حجـرةٍ ضـيقةٍ جـدَّاً، وعـن ارتدائـه أسمـالاً باليـةً، وخرقـاً ممزقـةً، وعـن شـعورهِ بكـلِّ مـا في وضـعه الاجتمـاعي مـن بـؤسٍ وشـقاءٍ، فضـلاً عـن وضـع أُمِّـهِ وأُختـه، وهنـاك، فـوق ذلـك كلَّـهُ، الطمـوح، والأنفـة، والغـرور، ولكـن ربَّمـا كانـت لـه عواطـفٌ طيبـةٌ أيضـاً...... اللّه أعلـم! صـدقي أنـني لا أتهمـهُ، ثـم إن اتهامـه لـيس شـأني أنـا، وهنـاك أيضـاً نظريتـه الصغيرة تلك ـ هي نظريةٌ كأيَّةِ نظريةٍ أُخرى ـ تلك التي تذهب إلى أن الإنسـانية تنقسم إلى شـريحتين، شـريحة الأفـراد المواد، وفئـة الأفـراد الأفـذاذ الخـارقين، أي الأفراد الذين يجيز لهم مستواهم العقلي ألا يصدقهم أيُّ قانونٍ من القوانين، فهـم الـذين يفرضـون القـوانين علـى غيرهـم، أي علـى أولئـك الـذين تتـألف مـنهم شـريحة الأفـراد المـواد، الـذين يتـألف مـنهم القطيـع، الـذين هـم الغبـار! نظريـةٌ

لطيفـةٌ (1) une theorie comme autre[1] ألـيس كـذلك؟ لقـد فتنـه نـابليون كثيراً ، أو قولي أنَّه انقاد لإغراء ذلك الرأي الذي يرى أنَّ العبـاقرة لا يكترثـون لحالات الظُّلم الفرديَّـة ، بل يتخطونهـا فـلا يرتكبـون بـأمورٍ هينـةٍ يسـيرةٍ ، ولقـد تخيَّل ، فيما يبدو ، أنَّه هو نفسه عبقري ، أو قـولي علـى الأقل أنَّـه كـان مقتنعـاً بهذا خلال مـدَّةٍ مـن الـزَّمن ، وقـد تعـذَّب كـثيراً ، ومـا يـزال يتعـذب ، فهـو يـدرك الآن أنَّه إن استطاع أن يعـدَّ نظريـة ، فقـد عجـز عـن التخطـي ، عـن المضـيِّ قُـدماً ومن دون تردد ، أي لقد أدرك أنَّه ليس عبقرياً.

وهذا الإدراكَ أمرٌ يشعرُ بهِ الفتى ، إذا كانت نفسهُ زاخرةٌ بالكبرياء ، يشعر به بمذلةٍ كبيرةٍ واهانةٍ عميقةٍ ، لاسيَّما في عصرنا هذا.....

وعـذاب الضـمير؟ أأنـت تنكـر عليـه إذاً أيُّ حـسٍّ أخلاقـي؟ أهـو حقّـاً....... كمـا تصف؟

آه يـا أفـدوتيا رومانوفنـا ! إن كـلَّ شـيءٍ قـد اضـطرب الآن واختـل.... نـاهيـك أن النظام الكامل لم يوجد في هـذا العـالم يومـاً ، ثـمَّ إن الـروس علـى وجـه العمـوم أصـحاب نفـوسٍ واسـعةٍ رحبـةٍ كـأراضـيهم ، وهـم ميـالون كـثيراً إلى الخيـال والفوضـى ، ولكـنَّ الـنفس الواسـعةَ الرَّحبـة خطـرةً إذا لم توهـب شـيءً مـن العبقرية ، تذكَّري مناقشاتنا القديمة في هذا الموضوع ، بعـد العشـاء هنـاك ، في الشرفة المطلة على الحديقة.... لقد كنت تعيبين عليَّ سعة النظر هـذه منـذ ذلـك الحين ، من يدري مع هذا؟ لعلَّهُ ، حينما كنَّـا نحـن نـتكلم ، كـان هـو مسـتلقياً علـى فراشـهِ يجـترُّ مشـروعهُ ، إن مجتمعنـا المثقَّـف لا يلمـع بتقاليـدهِ يـا أفـدوتيا رومانوفنا ، بعض النَّاس يصنعون لأنفسهم تقليداً من التقاليد كيفما اتفق ، مـن كتـب قرءوهـا ، وبعضـهم يسـتمدون أصباغ تقليـدٍ مـن بعـض حكـايات الماضـي ولكنَّ هذا إنَّما يصدق على العلماء ، وأكثرهم يبلـغ مـن الحماقـةِ أنَّ رجـلاً مـن

---

1 - كأية نظرية أخرى – بالفرنسية في الأصل.

رجال المجتمع الرَّاقي يخجل من اقتناء أثرهم واتخاذهم قدوةً لهُ، على أنَّكِ تعرفين آرائي: أنا لا ألوم أحداً، كلُّ ما هنالك أنني أتحاشى أن أقحم نفسي في شيء، لقد سبق أن تحدثنا في هذا مراراً، حتى أن آرائي قد شرفتها أن حظيت باهتمامك..... إنَّكِ شاحبةٌ جدَّاً يا أفدوتيا رومانوفنا.

أنا أعرف نظرية أخي هذه، قرأت في مجلةٍ من المجلات مقالته عن الرَّجال الذين يباحُ لهم كلَّ شيء، إن رازوميخين هو الذي جاءني بتلك المجلَّة.

السَّيد رازوميخين؟ مقالة أخيك؟ ولكني كنت أجهل وجود مقالة كهذه المقالة، لابدَّ أنَّها شائعةٌ جداً!... إلى أين أنت ذاهبٌ يا أفدوتيا رومانوفنا؟

أريد أن أرى صوفيا سيميونوفنا، من أين يجب المرور للذهاب إليها؟ لعلَّها عادت! أريد أن أراها على الفور حتماً، يجب أن ..... لم تستطع أفدوتيا رومانوفنا أن تتم كلامها، فقد انقطع تنفسها فعلاً.

لن تعود صوفيا سيميونوفنا قبل هبوط الليل، هذا ما افترضه على الأقل، كان يجب أن تعود في وقتٍ مبكِّرٍ جدَّاً، وإذا لم تعد، فستأتي في وقتٍ متأخرٍ جدَّاً....

آ..... الآن أرى أنَّكَ تكذب! أنت لم تزد على أنَّكَ كذبت! إنني لا أصدق كلمةً واحدةً، كلمةً واحدةً مما ذكرت .... لا أصدِّق، لا أصدِّق!

بهذا صاحت دونيا، وقد خرجت عن طورها وفقدت وعيها، ثمَّ تهالكت على كرسي أسرع يقدمه إليها سفدريجايلوف، وقد أوشكت أن تسقط مغشياً عليها.

ماذا بكِ يا أفدوتيا رومانوفنا؟ عودي إلى نفسك! إليك ماء! اشربي جرعةً!

قال سفدريجايلوف هذا، ورشَّ وجهها بالماء، فارتعشت وأفاقت.

فدمدم يقول لنفسه مقطب الوجه:

ما أبلغ تأثير هذا الأمر في نفسها.

ثمَّ قال لها:

هدئي روعك يا أفدوتيا رومانوفنا! أعلم أنَّ له أصدقاء، سوف ننقذه، سوف نخرجه من المأزق! هل تريدين أن أساعدهُ على اجتياز الحدود؟ إنني مليءٌ مالياً، وبعد ثلاثة أيام سأكون قد استخرجت له جواز سفر، لقد قتل، نعم، ولكن هدئي روعك، ما يزال في وقتهِ متَّسعٌ لأن يقوم بأعمالٍ خيرةٍ كثيرةٍ، ما يزال يستطيع أن يصير رجلاً عظيماً، ما بك؟ ألا تشعرين الآن بتحسن؟

رجلٌ شريرٌ.... ما يزال يستطيع أن يسخر ويهزأ! دعني ....

إلى أين أنتِ ذاهبة؟ إلى أين؟

إليه! أين هو؟ هل تعلم أين هو؟ لماذا هذا الباب مغلق؟ من هذا الباب دخلنا، فما لي أراه الآن مقفلاً بالمفتاح؟ متى أتيح لك أن تقفله؟

ليكن في الإمكان أن نسمع جميع الغرف ما قلناه هنا! وأنا لا أسخر ولا أهزأ البتة، غير أنني سئمت من الحديث بمثل هذه اللهجة، غريب! إلى أين تريدينَ أن تذهبي وأنت بهذا الهياج والتشوش؟ أتراك تريدين أن تزجِّيه في السِّجن؟ لو ذهبت إليه لاشتعل غضباً وكدراً، ولمضى يشي بنفسه! اعلمي أنَّه مراقبٌ منذ الآن، وأنَّهم يتتبعونه، لسوف تكشفين أمره، انتظري.... لقد رأيته منذ قليل وكلمته. ما يزال بالإمكان إنقاذه. انتظري. اجلسي. سنفكرُ معاً، لهذا دعوتك، لنتحدث في خلوةٍ، وأن نتعمق درس المشكلة، ولكن هلَّا جلستِ!

بأيَّةِ طريقةٍ نستطيع أن ننقذه؟ وهل يتمكن إنقاذه؟

قالت دونيا هذا وجلست، فجلس سفدريجايلوف إلى جانبها، وبدأ يتكلَّم وقد اشتعلت عيناه، قال بما يشبه الدمدمة وهو لا يكاد يستطيع أن ينطق بسبب الانفعال:

كل شيءٍ متوقفٌ عليك..... عليك وحدك .....

فتراجعت دونيا عدَّةَ خطواتٍ، مذعورةً مرتعشةً، وكان سفدريجايلوف يرتجف هو الآخر أيضاً من قمَّةِ الرأس إلى أخمص القدمين.

أنت.... كلمة منك أنت وينقذ! أنا.... أنا سوف أنقذهُ! خزينتي عامرةً، ولي

أصدقاء! سأرحله على الفور، وسأحصل أنا على جواز سفر لي..... سأحصل على جوازيّ سفر، واحدٌ له وواحدٌ لي، لي أصدقاء.... رجال قانون..... هل تريدين؟ وسأحصل أيضاً على جواز سفر لك أنت، ولأمّكِ.... ما حاجتك إلى رازوميخين؟ إنني أُحبك مثلما يحبك، أحبك حبَّاً لا نهاية لهُ، دعيني أُقبِّل هدب ثوبك! دعيني أفعل هذا، دعيني! .... أصبحت لا أطيق سمع حفيف ثوبك! مريني بما يجب أن أفعل فأفعل، سأفعل كلَّ شيءٍ، سأفعل المستحيل! سوف أؤمِنُ بكل ما تؤمنين به أنت! أفعل كلَّ شيءٍ، كلَّ شيءٍ! لا تنظري إليَّ هكذا، لا تنظري إليَّ هكذا! هل تعلمين أنَّكِ تقتليني.....

أخذ سفدريجايلوف يهذي، إنَّ شيئاً ما قدسه فجأةً، كأنَّه تلقى ضربةً على رأسه، ونهضت دونيا بوثبة، واندفعت نحو الباب، وصاحت تقول وهي تهزُّ الباب بكلتا يديها:

افتحوا! افتحوا! هلَّا فتحتم الباب؟ هل يمكن ألا يكون ثمَّةَ أحد؟ كان سفدريجايلوف قد جلس، وها هو ذا يثوب إلى رشدهِ، وقد ألمت ابتسامةً خبيثةً ساخرةً بشفتيه اللتين كانت ما تزالان ترتعشان.

قال بصوتٍ خافتٍ متقطعٍ:

ليس ثمَّةَ أحد، صاحبة الدَّار خرجت، تضيِّعينَ وقتك بهذا الصراخ سدى، تثيرينَ أعصابك في غيرِ طائلٍ.

أين المفتاح؟ افتح الباب! افتح الباب على الفور! على الفور، يا لك من نذلٍ حقير! أضعتُ المفتاح، ولا أعثرُ عليه!

صاحت دونيا وقد اصفر وجهها لكأنَّها ميتة:

آ..... هذا اغتصابٌ إذاً!

وهرعت إلى ركنٍ من الحجرة، وعجلت تتحصن فيه وراء منضدةٍ صغيرةٍ كانت في متناولها.

سكتت عن الصُّراخ، لكنَّها كانت مثبتةً بصرها في عدوِّها ترصُدُ بنظرةٍ

يقظـةٍ أيسـرُ حركـةٍ يأتيهـا، وقـد صـار سـفدريجايلوف لا يتحـرك هـو الآخـر، ولبث واقفاً أمامها في الطرف الأخر من الغرفة، كان قد استطاع أن يهيمن على نفسه، في الظَّاهر على الأقل، لكن وجهه ظلَّ أصفر كما كان قبل الآن، وما تزال ابتسامته السَّاخرة مرتسمةً على شفتيه. وأخيراً، قال:

لقد نطقت أنت بكلمة "الاغتصاب"، يا أفدوتيا رومانوفنا، ولكن إذا كان في نيتي أن أغتصبك، فلا بدَّ أنني اتخذت احتياطاتي كما تقدِّرين، إن صوفيا سيميونوفنا ليست في بيتها، ولكي تصلي إلى أسرة كابرناؤموف، عليكِ أن تجتازي خمس غرف، هي الآن جميعاً مقفلة بالمفتاح، ثمَّ أنني أقوى منك مرتين على الأقل، هذا عدا أنني لست أخشى على شيءٍ البتَّة، فلن يكون في وسعك أن تذهبي لتشكيني، لن تريدي بل لن تسعي إلى فضح أخيك، أليس كذلك؟ ثمَّ إنَّ واحداً لا يصدقك عل كلِّ حالٍ، فلماذا تذهب فتاة منفردة إلى بيت رجلٍ وحيدٍ؟ فحتى لو ارتضيت أن تضحي بأخيك، فلن تستطيعين أن تبرهني على شيء. نعم، أنَّه لمن الصَّعب جداًّ أن تثبتي أن "اغتصاباً" قد حدث يا افدوتيا رومانوفنا".

دمدمت دونيا تقول بحنقٍ:

وغد!

أُهرِقْ ما يحلو لك، ولكن لاحظي أنني لم أقدِّم إلا افتراضات، وأنا شخصياً أوافقك الرَّأي تماماً: إن الاغتصاب دناءةً وحطة، لكني أردت أن أفهمك أن ضميرك لن يعذبك البتة.... إذا أنت ارتضيتِ، بمحضِ إرادتك، أن تنفِّذي، كما اقترح عليك، فإنَّما أنت تخضعين عندئذٍ للظروف، أو للقوةِ إذا لم يكن ثَّمة بدٌّ من استعمال هذه الكلمة، فكري: إن مصير أخيك وأمك بين يديك، أما أنا فسأظلُّ عبدك المطيع..... ما حييت .... وسأظلُّ انتظرك هنا .

قعد سفدريجايلوف على الدِّيوان، على مسافةِ ثماني خطواتٍ من دونيا، لكنَّ دونيا لا يساورها أيُّ شكٍّ في أنَّ ما عقد العزم عليه ثابتٌ لا يريم، إنَّها تعرفهُ

حقَّ المعرفة، فها هي ذي تسل من جيبها مسدَّساً على حين فجأة، فتشدُّ الزِّناد بسرعةٍ، وتضع يدها على المنضدة دون أن ترخي المسدس، فينتفضُ سفدريجايلوف وينهض عن مجلسه ويصيح مدهوشاً، وهو يضحك مع ذلك ضحكاً ساخراً شريراً:

آ .... هكذا إذاً! لا، لا، إن هذا يغيِّرُ الموقف تماماً، ويقلبهُ رأساً على عقب، فأنت بهذا تيسِّرين عليَّ الأمور كثيراً يا أفدوتيا رومانوفنا! ولكن أين وجدت هذا السلاح؟

هل السَّيد رازوميخين هو الذي ...... ولكن.... عجيب ..... هذا مسدسي أنا! لطالما بحثت عنه! إنَّ دروس الرِّماية التي تشرفت بإعطائك إياها في الرِّيف لم تذهب إذاً سدى!

ليس هذا مسدسك أيُّها الوغد، بل مسدس مارفا بتروفنا التي قتلتها! لاشيء في منزلها كان ملكك أنت! لقد أخذت المسدس حين بدأت أشتبه بنواياك، وأدرك سفالتك، يميناً لو تجرأتَ فتقدمتَ خطوةً واحدةً لقتلتك فوراً!

كانت دونيا خارجة عن طورها، فاقدةً صوابها، وهي ممسكةً بالمسدس متأهبةً لإطلاق الرَّصاص.

هتف سفدريجايلوف وهو ما يزال في مكانهِ:

وأخوك؟ إنني ألقي عليكِ هذا السؤال من باب الفضول. لا أكثر!

أخي؟ أبلغ السلطات عنه إن شئت! لا تتحرك، وإلا أطلقتُ الرَّصاص، لقد دسست لزوجتك السُّمَّ في الطعام، أنا أعرف هذا، أنت نفسك قاتل!

هل أنتِ على يقين أنني دسست السُّمَّ لمارفا بتروفنا؟

نعم، أنت! حتى ألمعت إلى هذا السُّمِ أمامي، وإنني أعلم أنَّك إنَّما سافرت لتجلبه.... هيأت كلَّ شيءٍ...... أنت القاتل! ..... لا يمكن أن يكون القاتل أحداً سواك أيُّها الشَّقي!

حتى إذا صحَّ هذا، فإنَّكِ تكونين أنتِ السَّبب.

كاذب! أنا أبغضك منذ عرفتك وأبداً!
مهلاً مهلاً يا أفدوتيا رومانوفنا .... أرى أنَّكِ نسيتِ كيف كنتُ، في أثناء تمثيلك دور الواعظ، تملين عليَّ متلهفةً النظرات، لقد رأيتُ شيئاً في عينيك.... أنسيت؟ ...... ذلك المساء .... والقمر.... وأغنية العندليب؟ ......
كاذب! كاذب! مفترٍ، نمَّام!
كان المضض يتكهرب في عيني دونيا.
قال سفدريجايلوف:
كاذب .... لنسلِّم أنني كاذب! على كلِّ حالٍ، ما ينبغي للمرء أن يذكِّرَ النساء بمثل هذه التفاصيل الصغيرة......
وابتسم، ثمَّ أردف:
أنا أعلم أنَّكِ ستطلقين النَّارَ أيتها المتوحشة الصَّغيرة ...... فماذا تنتظرين؟ أطلقي!
شهرت دونيا مسدساً باتجاه سفدريجايلوف فاصفرَّ وجهها، وصار كوجه ميتٍ، وابيضت شفتها السفلى، وأخذت تختلجُ اختلاجاً قوياً، كانت تنظر إليه بعينها السوداوين الواسعتين اللتين ترميان شرراً، وقد عزمت أمرها فهي ترصدُ أيسر حركات الرَّجُل.
لم يرها يوماً بهذا الجمال الطاغي. فاللهب الذي كان ينبجسُ من عيني الفتاة حين شهرت عليه السِّلاح قد احرقهُ حتى العمق، وتشنَّجَ قلبه ألماً.
وتقدم الشَّقيُّ خطوة، فانطلقت الرَّصاصةُ، فلامست شعرهُ، ومضت تضرب الحائط وراءه، فتوقف وأنشأ يضحك في رفقٍ وهدوءٍ.
وخزتني النحلة! أنَّها تسدد إلى الرَّأس .... ما هذا؟ دم؟! وأخرجَ منديلهُ ليسمح خيطاً من دمٍ كان ينساب على صدغه الأيسر: لعلَّ الرَّصاصة قد خدشت جلد رأسه.
خفضت دونيا المسدس ونظرت إلى سفدريجايلوف، لم تعبِّر نظرتها عن الذُّعر

بقدرِ ما عبَّرت عن الاندهاش. لكأنَّها لم تدرك ماذا ، ولا لماذا حدث!

ردَّ سفدريجايلوف بصوتٍ خافتٍ، مع ابتسامةٍ عابسةٍ:

طاشت الضربة ، هلَّا أطلقتِ مرَّةً أُخرى! إنني أنتظر! وإلا كان في وقتي متسعٌ لأن أقبضَ عليكِ قبل أن تشدي الزِّناد مرَّةً أُخرى.

ارتعشت دونيا وأسرعت تحشو سلاحها برصاصة ثانية ، وشهرته على سفدريجايلوف من جديد ، وقالت بيأسٍ:

دعني! يميناً لأطلقنَّ مرَّةً أُخرى إذا لم تتركني! قسماً.... لأقتلنَّك....

وبعدئذٍ؟ صحيحٌ أنَّه يستحيل أن تطيش الضربة على بعد ثلاث خطواتٍ.... ولكن ماذا لو أخطأتِ الهدف ثانيةً ، ما عساكِ فاعلةً حينذاك؟ ....

قال هذا وسطعت عيناه، وتقدَّمَ خطوتين أخريين، ضغطت دونيا على الزناد ، ولكن الطلقة لم تخرج.

لم تحسني حشو المسدس! لا بأس! ما يزال عندك طلقةً واحدةً، احكمي وضعها! سوف أتريث.

كان واقفاً أمامها على خطوتين ينتظر ، وينظر إليها بعينين تطفحان بألقٍ ثقيلٍ شهوانيٍّ، وعزيمةٍ وحشيةٍ، وتصميمٍ أهوج.

أدركت دونيا أنَّه يؤثر أن يموت على أن يدعها تنصرف. "طيب، طيب، في هذه المرَّة، وهو منها على بعد خطوتين فقط، ستقتله فعلاً". بهذا حدَّثت دونيا نفسها ، ولكن ها هي ذي ترمي المسدس فجأةً.

قال سفدريجايلوف مدهوشاً وقد استرد أنفاسه:

رميته؟

وأحس كأن قلبه قد تخلص فجأةً من حملٍ كبيرٍ وثقيل، حملٍ ليس مردَّهُ إلى ما عاناه من قلقِ الشُّعورِ بخطر الموت فحسب، فضلاً عن أن ذلك الشعور كان قد زايلهُ منذُ برهةٍ ، وإنَّما هو أحسَّ أنَّه تخلَّصَ من شيءٍ آخر ، من شعورٍ أشدُّ إيلاماً ، وأحلكُ ظلاماً ، شعورٌ لا يستطيع هو نفسه أن يحدده.

واقترب من دونيا، وضمَّ إليهِ قامتها برفقٍ وتؤده، فلم تقاوم، ولكنَّها نظرت إليه بعينين ضارعتين، وهي ترتعشُ كورقةٍ في مهبِّ الرِّيح، ودَّ لو يقولُ شيئاً ولكن شفتيه تقلصتا، فلم يستطيع أن ينطق بكلمةٍ واحدةٍ.

قالت متوسلةً بصيغةِ المخاطبِ المفرد:

اتركني!

فاختلج سفدريجايلوف، إن استعمالها لصيغة المخاطب المفرد تختلف لهجتها الآن عن لهجة استعمالها لهذه الصيغة منذُ قليل.

سألها بصوتٍ منخفضٍ:

ألا تحبيني أنت إذاً؟

حركت دونيا رأسها بإشارةِ النفي، فهمس يسألها يائساً:

ولن ....... تستطيعي..... أن تحبيني في يومٍ ما؟

أجابت همساً:

لا، لن أستطيع ذلك ما عشت!

نشبت في نفس سفدريجايلوف، خلال لحظةٍ من الزَّمن، معركةً خرساءَ رهيبة. كان يتأمل دونيا بنظرةٍ لا سبيل إلى وصفها، وفجأةً سحب يدهُ، واستدار، وأسرع يبتعد نحو النافذة، ولبث حيث هو جامداً مبهوتاً.

انصرمت برهةُ أخرى.

وها هو يخرج مفتاح الباب من جيب معطفهِ الأيسر، فيضعهُ على المنضدةِ وراءهُ دون أن يلتفت نحو دونيا، بل ومن دون أن يلقي عليها نظرةً واحدةً، قائلاً لها:

إليك المفتاح! خذيه وانصرفي بسرعة!

كان يحدق إلى النافذة بعناءٍ، لا يحوِّلُ بصرهُ عنها يمنةً ولا يسرى، اقتربت دونيا من المنضدة لتأخذ المفتاح، فقال سفدريجايلوف مكرراً، دون أن يتحرك أو أن يلتفت:

بسرعة! بسرعة!

ولكن كلمة "بسرعة" هذه كان لها جرسٌ رهيبٌ!

لاحظت دونيا ذلك، وتناولت المفتاح، واندفعت نحو الباب ففتحته وهرعت تخرج من الغرفة، فما هي إلا دقيقةً واحدةً حتى كانت تجري كالمجنونة على طول القناة في اتجاه جسر س...... لبث سفدريجايلوف أمام النافذة حوالي ثلاث دقائق، ثمَّ التفت ببطءٍ، نظر حواليه، ومرَّ بيده على جبينه في رفقٍ، إن ابتسامةً غريبةً تعقفُ الآن شفتيه، ابتسامةً أسيانةً حزينةً ضعيفةً، ابتسامةً هي ابتسامة ألمٍ كبيرٍ، ويأسٍ شديدٍ، كان الدَّمُ قد جفَّ على يدِهِ، فتأملهُ بنظرةٍ تفيض بغضاً، ثمَّ بللَ خرقةً بالماء، فمسح بها صدغهُ، ووقع بصرهُ على المسدس الذي كانت قد رمته دونيا فتدحرج على الأرض، هو مسدسٌ صغيرٌ للجيب، من طراز قديم ذي ثلاث طلقاتٍ، بقيَ فيهِ طلقتان وكبسولة، ما يزال يمكن استعماله مرَّةً، فكَّرَ سفدريجايلوف لحظةً، ودسَّ المسدسَ في جيبه، ثمَّ تناول قبعتهِ وخرج.

# الفصل السادس

قضى السَّهرة حتى السَّاعة العاشرة في الحانات والمحلات المشبوهة متنقِّلاً من علبةٍ إلى أخرى، وعثرَ في مكان ما على كاتيا، كانت ما تزال تغني أغنيتها المألوفة التي تتحدث عن "الطاغية الحقير" الذي أخذ يقبل كاتيا، فسقاها سفدريجايلوف وسقى صاحبها الصَّغير، العازف على الأرغن اليدوي، وسقى الخدم والمغنين، واثنين من صغار الموظفين جذبه إليهما أن أنفيهما معوجِّين، فأحد الرَّجلين كان أنفه منحرفاً إلى اليمين، وثانيهما كان أنفهُ منحرفاً إلى اليسار، فلفت هذا الأمر انتباه سفدريجايلوف وخطف بصرهُ، وقاده الموظفان أخيراً إلى صديقه "ملاه"، فدفع عنها رسم الدُّخولِ وثمن الشَّراب.

كان في الحديقةِ شجرةٌ نحيلةٌ من أشجار الصَّنوبر عمرها ثلاثة أعوام، وثلاث شجيرات صغيرة، وكان في الحديقة كذلك مبنى أطلق عليه أسم "فوكسهول" من باب التفخيم، وما هي في حقيقته إلا خمَّارةٌ صغيرةٌ يشرب فيها الشَّايَ أيضاً، إنَّ في الخمارة عدَّةَ مقاعد صغيرة، وكراسي خضراء، وفيها جوقةٌ من المغنين، وألمانيٌّ بلغ السُّكر منه (هو نوع من ممثلٍ أو مهرجٍ أحمر الأنف، لكن وجههُ يظل كالحاً إلى أقصى حد، لا يدري المرء كثيراً لماذا)، وكانت مهمة الجوقة والألماني تسلية الزَّبون، تنازع الموظفان الصغيران مع موظفين آخرين كانوا هناك، حتى أوشك الشِّجار أن يصير إلى تماسك بالأيدي، واحتكم المتنازعون إلى سفدريجايلوف، فلبث يحكم بينهم مدَّةَ ربع ساعةٍ محاولاً أن يفهم موضوع النزاع، ولكنَّهُ لم يفلح في ذلك من شدَّةِ صراخ هؤلاء وأولئك، أغلب الظنِّ فيما أشارت إليه الدَّلائل أن واحداً منهم كان قد سرق شيئاً من الأشياء، واستطاع أن يجد يهودياً اشتراه منه فوراً، ولكنَّ السَّارق بعد أن باع الشيء المسروق رفض أن يقاسم رفيقه ثمنه، واتضح أخيراً أن الشيء المسروق كان ملعقة شاي من محل "فوكسهول"، وقد تم تعرفها،

وبدأت القضية تتخذ أبعاداً مقلقة، فما كان من سفدريجايلوف إلا أن دفع ثمن الملعقة ونهض، وغادر حديقة الملاهي.

كانت السَّاعة تقترب من العاشرة، لم يشرب سفدريجايلوف خمراً طوال تلك السَّهرة، بل كان يكتفي بطلب كأس من الشَّاي، وحتى هذا إنَّما كان يفعله من باب التقيد بالشكل، وكان الجو في أثناء ذلك ثقيلاً وكانت السماء مكفهرَّة، وفي نحو السَّاعة العاشرة تقدَّمت غيومٌ كبيرةٌ من جميع أطراف الأفق، وأعد الفضاء، وراح المطرُ يهطل كما السُّيول، كان الماء لا يتساقط قطرات، وإنَّما هو شلالات تجلد الأرض، وكان وميضُ البرق يتعاقب سريعاً، فلا يكاد يستطيع المرء أن يعدَّ أكثر من خمسة بين كل ومضةٍ وأخرى، وابتلَّ سفدريجايلوف حتى العظم، ووصل أخيراً إلى بيته، فأغلق على نفسه الباب، ثمَّ فتح درج مكتبه، فأخرج منه أمواله وسنداته، ومزَّقَ بعض الأوراق، حتى إذا فرغ من دسِّ أمواله كلَّها في جيبهِ، بدا لهُ أن يبدِّل ملابسه، لكنَّهُ بعد أن ألقى نظره إلى النافذة، وأصاخ بسمعه إلى هزيم الرَّعد وتساقط المطر، حرَّكَ يدهُ بإشارةٍ تنم عن عدم الاكتراث، وتناول قبعته، وخرج دون أن يغلق الباب وراءه، ومضى إلى سونيا رأساً، فوجدها في غرفتها.

لم تكن وحدها، إنَّما كان يحيط بها أولاد كابرناؤموف الأربعة كانت صوفيا سيميونوفنا تسقيهم شاياً، واستقبلت الضَّيف بصمتٍ واحترامٍ، ونظرة مدهوشةً إلى ثيابه المبتلَّة، لكنَّها لم تعقب أبداً، أما الأولاد سرعان ما هربوا وقد استولى عليهم ذعرٌ شديدٌ.

جلس سفدريجايلوف وراء المائدة، ورجا سونيا أن تجلس قربه ففعلت، وتهيأت لأن تصغي إليه خجلةً وجلةً.

بادر سفدريجايلوف:

صوفيا سيميونوفنا، ربَّما سافرت إلى أمريكا، وربَّما كان هذا آخر لقاءٍ بيننا، لذلك أتيت أتخذ بعض الإجراءات، لقد رأيت اليوم ذلك السَّيد، أليس

كذلك؟ أنا أعرف ما قال لكِ، فلا حاجة لأن ترويه لي ( هنا حركت سونيا يدها بإشارةٍ واحمرَّ وجهها)، إنَّ لهؤلاء النَّاسِ تفكيراً خاصَّاً معروفاً على كلِّ حالٍ، فيما يتعلق بأختيك الصغيرتين وأخيك الصغير، أمنت أنا مستقبلهم، لقد توليت بنفسي دفع المال الذي يجب أن يؤول لهم، وحررت بذلك سندات. خذي، هي بين يديك، هكذا سويت المسألة، واليك ثلاثة سندات قيمتها ثلاثة آلاف روبل، هذه لك أنت، أرجو أن يبقى هذا الأمر سراً بيننا لا يعلمه أحد، مهما سمعت من كلام، سوف تحتاجين مالاً يا صوفيا سيميونوفنا، فإنَّ الحياة التي عشتها حتى الآن سيئة، فلن تضطري إليها بعد اليوم.

تمتمت سونيا:

غمرتني بنعمٍ واسعةٍ.... أنا .... والأيتام.... والمرحومة أيضاً..... وإذا لم أشكر لك جميلك شكراناً كافياً حتى الآن، فلا يذهبنَّ بكّ الظنُّ خاصةً إلى أنَّ....

رحماك! رحماك!

وتابعت سونيا:

أما هذا المال يا أركادي ايفانوفتش، فإنني أشكره لك أجزل الشُّكر .... لكني لست في حاجةٍ إليه، إنني وقد أصبحت وحدي أستطيع أن أجني رزقي. لا تحسبنَّ هذا عقوقاً، ومادمت أنساناً مُحسناً إلى هذا الحد، فإنَّ هذا المال يمكن أبداً أن...

بل هو لكِ أنتِ يا صوفيا سيميونوفنا، وكفى كلاماً، أرجوكِ! وقتي ضيق، لك أنت، سيكون هذا المال مفيداً، ليس لرويديون رومانوفتش إلا أن يختار أحد الأمرين: فإما رصاصةً في رأسه، وإما طريق فلاديمير[1]

تأملته سونيا مروعة، وأخذت ترتجف، وتابع هو كلامه:

لا تقلقي! لئن كنت أعرف كلَّ شيء، فلأنَّه هو الذي روى لي كلَّ شيء!....

---

1 - المعتقل

وإذ كنتُ امرءاً قليل الثرثرة، فلن أذكر لأحدٍ شيئاً، أنتِ أسديتِ له في ذلك اليوم نصيحةً طيبةً جدًّاً، هي أن يسلم بنفسه، ويعترف بجريمته، وذلك هو خير ما يمكن أن يفعله، وإذا كان مصيرهُ هو الرَّحيلُ إلى سيبيريا، فسيرحل إليها، وستتبعينه أنت، أليس كذلك؟ فأنتِ إذاً في حاجةٍ إلى مالٍ، سوف تحتاجين هذا المالُ من أجله هو، أتفهمين؟ وأنا حين أعطيك هذا المال فكأني أعطيه له، ثمَّ أنَّكِ قد تعهدت لآماليا إيفانوفنا بأن تدفعي الدُّيون التي لها على أسرتك، هذا سمِعتهُ أُذناي، إذاً ولكن لماذا يا صوفيا سيميونوفنا تقطعين على نفسك مثل هذه العهود بمثل هذا التسرُّع والطيش دون تأنٍّ أو تروٍّ؟ إنَّ كاترينا إيفانوفنا هي المدينة للألمانية، لا أنت، فكان ينبغي لكِ ألا تحفلي بهذهِ الألمانية وأن لا تكترثي لها، ما هذا أسلوبٌ سليمٌ في الحياة! على كلِّ حالٍ، إذا استجوبوك عني، أقصد عن أمري (وسيستجوبونك عن أمري حتماً)، فإياكِ أن تذكري شيئاً عن زيارتي هذهِ خاصةً، وإياكِ أن تتيحي أن يفترض أنني أعطيتك مالاً، والآن، إلى اللقاء!

قال سفدريجايلوف هذا ونهض وهو يتابع كلامه:

تحياتي لروديون رومانوفتش..... بالمناسبة: خزِّني المال عند السَّيد رازوميخين إلى حين الحاجة إليه، تعرفين السَّيد رازوميخين، أليس كذلك؟ تعرفينه حتماً! إنَّه فتى طيبٌ شهم! فاحملي إليه المال غداً، أو ..... حين يأزف الوقت! وإلى أن يأزف الوقت، خبئيه عن الأنظار، كانت سونيا قد نهضت هي أيضاً، وشخصت ببصرها إليه مذعورة، ودَّت لو تقولُ شيئاً ما، ودَّت لو تطرح سؤالاً، لكنَّها لم تجرؤ في البداية، وكانت عدا ذلك لا تعرف كيف تتدبر أمرٌ إلقاء السؤال. وقالت أخيراً:

لكن..... لكن..... هكذا ....... هكذا...... تخرج ....... تحت هذا المطر؟

هه! هل يخشى المرء المطر إذا كان يتهيأ للسَّفر إلى أمريكا؟ أستودعك يا صوفيا سيميونوفنا العزيزة، أتمنى لك أن تعيشي طويلاً، فلسوف تكونين

مفيدةً نافعةً للآخرين، بالمناسبة: أبلغي السَّيد رازوميخين تقديري، قولي له بالنص: إنَّ أركادي ايفانوفتش سفدريجايلوف يبلغك تقديرهُ. لا تنسى.

قال وخرج تاركاً سونيا في جمودٍ وذعرٍ، وقد استولى عليها شعورٌ غامضٌ ثقيلٌ بأنَّ شيئاً سيحدث.

وقد عرف فيما بعد أن سفدريجايلوف، في ذلك المساء نفسه، بعد السَّاعة الحادية عشرة، قد قام بزيارةٍ أخرى، زيارةٌ بعيدةٌ جدًّاً، غير متوقعةٍ أبداً، كان المطر ما يزال يهطلُ مدراراً، وها هو ذا، في السَّاعة الحادية عشرة والدَّقيقة العشرين، يدخل البيت الصَّغير الذي يسكنهُ أهل خطيبته في الخط الثَّالث من فاسيليفسكي أوستروف في شارع ماليي، كان مبتلاً بالماء حتى العظم، طرق الباب غير مرَّةٍ، فتحوا له بعد لأيٍ، أحدث ظهورهُ في البداية اضطراباً كبيراً، لكن أركادي ايفانوفتش قد أوتي موهبة حسنُ الحيلة ولباقةُ السُّلوك وجمال التصرف متى شاء، لذلك فإنَّ الظنَّ الأول الذي قام في وهمِ أهلِ خطيبتهِ (وهو ظنٌّ لطيفٌ، فقد اعتقدوا أنَّه سَكِرَ في مكانٍ ما، فأصبح لا يدري ماذا يفعل)، لم يلبث أن سقط من تلقاء نفسه، وبادرت أمُّ الخطيبة، المرأة الحنون الرؤوف، العاقلة، فجرت مقعد الأب الهرم، الخرف، العاجز، وسرعان ما شرعت تتحدث على عادتها بإلقاءِ أسئلةٍ ملتويةٍ غير مباشرة (إنَّ هذهِ المرأة لا تلقى في يومٍ من الأيام أسئلةً مباشرةً: إنَّها تبدأ بأن تبتسم تفرك يديها، فإذا رغبتَ مثلاً في أن تعرف ما ينويه أركادي ايفانوفتش فيما يتعلق بالتاريخ الذي ينوي تحديده للاحتفال بزواجه، طفقت تسأله بكثيرٍ من الشَّوقِ والشَّراهةِ عن باريس، وعن حياة المجتمع الرَّاقي هناك، ثمَّ لا تصل إلى فاسيليفسكي أوستروف، وإلى ما يجب أن يحدث فيها إلا رويداً رويداً)، ولقد كان يمكن، في ظروفٍ غير هذه الظروف، أن يصغي سفدريجايلوف إلى كلامها باحترامٍ شديدٍ واهتمامٍ عظيمٍ، لكنَّه بدا في هذه المرَّة نافد الصَّبر جداًّ، وأسرع يقاطعها بأن طلب رؤية خطيبتهُ فوراً ( رغم أنَّه كان قد أعلم، مذ أولى

الكلمات التي جرى بها الحديث، أنَّها قد نامت)، فقال لها أركادي ايفانوفتش من دون لفٍّ أو دوران إن عليه، بسبب ظروفٍ طارئةٍ استثنائيةٍ، أن يغادر بطرسبورغ إلى حين، وأنَّهُ إذ يغادر بطرسبورغ قد جاءها بخمسةِ عشر ألف روبل، أوراقاً ماليَّةً وسندات، راجياً أن تقبلها هديَّةً منه إليها، وأنَّه على كلِّ حالٍ كان ينوي منذُ مدَّةٍ طويلةٍ أن يقدِّم إليها هذهِ الهديَّة التافهة قبل الزَّواج.

صحيحٌ أنَّ هذه الشُّروح لم تظهر الصِّلة المنطقية بين الهديَّةِ والسَّفر المباشر، لا ولا أوضحت ضرورة المجيء في منتصف الليل تحت وابل المطر، ومع ذلك لم يعترض أحد أيَّ اعتراض، وحتى الأسئلة وصيحات التعجُّب المعهودة كانت هذه المرأة معتدلةً جداًّ، على خلاف العادة، وتدفق الشُّكر في مقابل ذلك حارّاً عنيفاً، حتى أن الأم العاقلة ذرفت في سبيل الشُّكرِ دموعاً، ونهض أركادي ايفانوفتش، وابتسم وقبَّلَ خطيبتهُ، وربت على خدها في رفقٍ ولين، أكَّدَ مرَّةً أُخرى أن غيابه لن يطول، وإذ لاحظ في عيني الخطيبة الصَّغيرة استطلاعاً صفيَّاً جديَّاً في آنٍ واحدٍ، وتساؤلاً أبكم، فكَّرَ لحظةً، وقبَّلها مرَّةً أُخرى، وشعر في الوقت نفسهُ بحسرةٍ حقيقيةٍ لأنَّه قدَّرَ أنَّ الأمِّ العاقلة ستخبئ الهديَّة في الحال مقفلةً عليها بالمفتاح، وخرج آخر الأمر، تاركاً جميع من في البيت في حالةِ اهتياجٍ شديدٍ خارقٍ، وسرعان ما أخذت الأم العاقلة الواسعة الأفق تقرُّ بوشوشاتٍ صغيرةٍ، وكلماتٍ قليلةٍ سريعةٍ عدداً من الحقائق الخطيرة جداًّ، مؤكدةً على وجهِ التخصيص أن سفدريجايلوف رجلٌ ذو سلطانٍ، رجلٌ لهُ أعمالٌ وصلات، وأنَّه على جانبٍ كبيرٍ من الثراء الطائلِ، واللّه يعلم ما الذي خطر ببالهِ لكنَّه قد عنَّ له أن يسافر فسافر، ثمَّ عنَّ لهُ أن يهِبَ مالاً فوهب، فلا داعي إلى التعجُّبِ والدَّهشة والحالة هذه، صحيح أنَّ وصوله مبتلاً على هذه الحالة أمرٌ غريبٌ، ولكنَّ الإنجليز، مثلاً، أكثر شذوذاً من الآخرين، وأغلب الظنِّ أنَّ هذهِ خصلةً من خصالهم وعادةً من عاداتهم، إنَّهُ الشُّذوذ والتفرد،

أليس كذلك؟ ثمَّ إنَّ أبناء المجتمع الرَّاقي لا يحفلون كثيراً بما قد يقال عنهم، فهم لذلك لا يتحرجون، لا بل من الممكن أن يكون أركادي ايفاونوفتش قد تعمد المجيء تحت وابلِ المطرِ ليظهر أنَّهُ لا يخافُ من أحدٍ ولا يهابُ أحداً. ولكن ينبغي خاصةً ألا تُقال كلمةٌ واحدةٌ لأيِّ إنسانٍ عن هذه "المغامرة"، فاللّه وحدهُ يعلم ما هو المجرى الذي ينقلب إليهِ هذه الأمور كلَّها. ويجب إخفاء المال والإقفال عليه بالمفتاح بأقصى سرعة، والحمد للّه على أن فيدوسيا قد بقيت في المطبخ ولترى وتسمع شيئاً..... نعم، يجب خاصةً ألَّا يُقال لأحدٍ شيءٍ ..... هست.... هست! .... ما من كلمةٍ إذاً، لا لتلك الذُّبابة الحقيرة ريسليخ، ولا للآخرين، وهلمَّ جراً، وهلمَّ جراً.

وظلُّوا يثرثرون ويتهامسون على هذا المنوال حتى الساعة الثانية من الصَّباح. لكن الخطيبة مضت إلى سريرها قبل ذلك بكثيرٍ، وهي تشعرُ بشيءٍ من الدَّهشةِ، وكثيرٍ من الحزن.

وفي أثناء ذلك، عندما دقَّت السَّاعة منتصف الليل، كان سفدريجايلوف يجتاز جسر "......كوف" في اتجاه "حي بطرسبرجسكي" كان المطر قد انقطع عن الهطول، لكن الرِّيح ما تزال تزمجر، أخذ سفدريجايلوف يرتعد من البرد، ونظر خلال دقيقةٍ من الزَّمن، بنوعٍ من الاستطلاع الخاص، بنوعٍ من الاستطلاع السَّائل المتعقب، نظر إلى المياه السوداء، مياه النهر "نيفا الصَّغير". لكنَّهُ سرعان ما وجد أنَّ البرد أشدُّ من أن يستطيع المكث فوق الماء على هذا الشَّكل، فاستدار، واتجه نحو شارع "س....". ظلَّ سفدريجايلوف يسير مدَّةً طويلةً لعلَّها بلغت نصف ساعة، في ذلك الشَّارع الذي لا نهايةَ لهُ، وتعثرت قدماهُ بالرصيفِ الخشبي مراراً في الظَّلام، ولكنَّهُ كان مصرَّاً على أن يبحث عن شيءٍ ما كان يجب أن يوجد في الجِّهةِ اليُمنى من الشَّارع، أنَّه حين مرَّ هنا منذُ مدَّةٍ بالعربة قد لمح في مكانٍ ما، إلى اليمين، فندقاً لابُدَّ أنَّ اسمه "فندق أندرينوبل" إذا صدقت الذاكرة، كان هذا الفندق في هذا الحيِّ التائهِ علامةً

بارزةً يستحيلُ أن يخطئها المرء حتى في الظّلام الدَّامس، هو مبنى طويل، من خشبٍ أسودٍ من كثرة السنين التي تعاقبت عليه، كانت تسطع فيه أضواء رغم تقدُّمِ الليل، وكانت تلاحظ فيه حركةً وجلبةً، دخل سفدريجايلوف الفندق في الدِّهليز بخادمٍ بائسِ المظهر، خلق الثياب، فطلب منه غرفة، فبعد أن ألقى عليهِ الخادم نظرةً، عدَّلَ قامتهُ، وقادهُ فوراً إلى حجرةٍ نائيةٍ لا هواءَ فيها تقع في ركنٍ تحتَ السُّلَّم عند آخر الممر، لم يكن بالفندق غرفة أخرى خالية، فجميع الغرف مشغولة.

نظرَ الخادم إلى سفدريجايلوف بهيئةٍ مستطلعةٍ مستفهمةٍ، فسأل الزائر:

أعندكم شاي؟

عندنا

ماذا عندكم أيضاً

لحم عجل، فودكا، مقبلات.

هات لحم عجل وشاي.

سأل الخادم بشيء من التردد:

ولست في حاجة إلى أيِّ شيء آخر؟

لا، شكراً.

انصرف الخادم وقد خاب فأله.

حدَّثَ سفدريجايلوف نفسه قائلاً: "لابدَّ أنَّه محلٌّ مريبٌ، كيف لم يخطر هذا ببالي؟ آ...... لاشكَّ أن هيئتي أنا أيضاً هيئة رجلٍ عاديٍّ من قصف، وحدَّثتُ لهُ مغامرة في الطريق، ليتني أعرف نوع النَّاس الذين يلبثون عنا لقضاء الليل!"

وأشعل سفدريجايلوف شمعةً وفتَّشَ الغرفة بدقةٍ هي حجرةٌ صغيرةٌ تضيئها نافذة واحدة، وتبلغ من الضيق أنَّ رجلاً له قامةً كقامةِ سفدريجايلوف لا يكاد يستطيع أن يقف فيها، وقد شغل سطحها سريرٌ قذر، ومنضدة مدهونة وكرسيٌّ عتيق، أما الجدران فكأنَّها من ألواحٍ خشبيةٍ انفكت المسامير التي

تـربط بعضـها بـبعض، ومغطـاةً بـورقٍ ملطَّـخٍ متهـرئٍ يملـؤهُ الغبـار فـلا يكـادُ يستطيع البصر إن يميِّزَ فيها أيُّ رسـمٍ، ولا يكـادُ يـرى منـه سـوى لـون أرضيتهِ الصفراء، وكان جزءٌ من الجدار يؤلِّف مع السَّقف زاويةً مقطوعةً، شأنٌ جميع الحجرات الواقعة تحت السُّطوح، غير أنَّ السُّلَّم يمرُّ هنا فوق الزَّاوية المقطوعة، وضـع سـفدريجايلوف الشَّـمعة، وجلـس علـى السَّـرير، وغـرق في أفكـاره وخواطره، غير أن دمدمةً غريبةً متصلةً كانت تعلو في الغرفة المجاورة وتصل إلى حدِّ الصُّراخِ أحياناً، فما لبثت أن استعرت انتباهه، إن هذه الأصوات لم تنقطع بالوقائع منذ دخل، أصاغَ سفدريجايلوف بسمعه: كان هناك شخصٌ يقـرِّعُ شخصـاً آخـر ويصبُّ عليـه أنواعـاً اللَّـوم، ولكنَّـهُ يفعـل هـذا وهـو يكـاد يبكي، ليس يميِّز المرء إلا صوتاً واحداً.

نهض سفدريجايلوف، ووضع يدهُ حاجزاً أمام لهب الشَّمعة، فسرعان ما أضاء شـقَّ صـغيراً في الجـدار، فـاقترب الزَّائـرُ منـهُ، ونظـر الغرفـة أوسـع قلـيلاً مـن غرفته، وفيها رجلان أحدهما أجعد الشَّعر، محمرَّ الوجه، من دون سترة، قد وقف متخذاً وضع الخطيب، مباعداً ساقيه للمحافظة على توازنهُ، وأخذ يلطُمُ صدرهُ لائماً صاحبه بلهجةٍ عاطفيةٍ مؤثرةٍ على أنَّه رجلٍ شقيٍّ تافهٍ ليس له أيَّ رتبةٍ، وليس له أيَّ كرامةٍ اجتماعيةٍ، مذكِّراً إياه بأنَّهُ هو الذي أخرجه من الماء، ففي وسعهِ أن يعود ويغطسهُ في الماء متى شاء، وأنَّ عين اللّه وحدها ترى حقيقة الأمر كلَّهُ، وكان الرَّجل الثاني الذي يصبُّ عليهِ هذا التقريع وهذا التأنيب جالساً على كرسي، وهيئته هيئة رجلٍ يودُّ لو يعطس لكنَّهُ لا يفلح في ذلك على أيِّ نحوٍ من الأنحاء، وهو يلقي على الخطيب من حينٍ إلى حينٍ نظرةً مضطربةً بلهاء، كان واضحاً أنَّهُ لا يُفهم من الأمر شيئاً.

وعلى المائدة، حيث وضعت شمعةً ذائبةً توشك أن تنطفئ، إلى جانبها إبريق فودكا يكاد يكون فارغاً، وأقداحٌ كبيرةٌ وصغيرةٌ، وخبزٌ، وخيارٌ، ومخللٌ، ورغم أن الشَّاي قد استهلك منذ زمنٍ حتماً، فالفناجين والأطباق والملاعق ما

تزال ملقاةً كذلك على المائدة.

تأمل سفدريجايلوف هذه اللوحة بانتباهٍ، ثمَّ ابتعد عن الجدار من دون اكتراث، وعاد يجلس على السَّرير.

وحين عاد الخادم يحمل لحم العجل والشَّاي، لم يستطع أن يمتنع عن سؤال الزبون مرَّةً أخرى إن كان في حاجةٍ إلى شيءٍ آخر، فلمَّا سمع جواب النفي من جديدٍ انصرف أخيراً إلى غير رجعةٍ، وانقضى النزيل على الشَّاي التماساً للدفءِ، فاحتسى منه كوباً، لكنَّهُ لم يستطع أن يذوق اللحم، فقد كان لا يشتهي أن يذوق أيَّ طعامٍ.

واضحٌ أن الحمَّى قد ألمت بهِ، وخلع معطفهُ وسترتهُ، واضطجع على السَّرير، وتدثَّر بالحرام، كان مستاءً ممتعضاً، "إن الأفضل على كلِّ حالٍ أن أكون سليم العافية في هذا الظرف"، قال هذا يحدث نفسهُ، وضحك ساخراً، كان جوُّ الغرفةِ خانقاً، وكانت الشَّمعة ترسل نوراً مضطرباً، وكانت الرِّيحُ في الخارج تزمجر، وكانت فأرةٌ تخدش شيئاً ما في مكانٍ بأحد أركان الغرفة، التي كانت تشيع كلُّها رائحةُ فئرانٍ وجلدٍ، لبث مضطجعاً غارقاً في أحلامه. كانت الخواطر تتعاقب في خياله، يطرد بعضها بعضاً. كان كمن يريد أن يتشبث بشيءٍ ما في الخيال بكلِّ ما أوتي من قوةٍ. قال لنفسه: "لاشكَّ أن تحت النافذة حديقةٌ تهزُّ الرِّيحُ أشجارها فتهمهم! آه ..... لشدَّ ما أكرهُ همهمة الأشجار في أثناء العاصفة الليليَّة! يا لهُ من إحساسٍ كريهٍ!" وبهذه المناسبة تذكَّرَ مروره بحديقة بترفسكي، مشمئزَّاً، وتذكَّرَ عندئذٍ مرورهُ بجسر ".....كوف" على نهرِ "نيفا الصَّغير" أيضاً، فأحسَّ بتلك البرودة نفسها التي أحسها منذ قليل حين توقف فوق النهر. "أنا لم أحب الماء يوماً، ولا في مناظر الطبيعة"، هذا ما قال لنفسه، ثم إذا بفكرة غريبة توفيه فتجعله يضحك ضحكة هزء. قال لنفسه: "يُخيل إلي مع ذلك أن قضايا الجمال والارتياح هذه كان ينبغي ألا تثير اهتمامي اليوم وأن تدعني غير مكترث بها أبداً، فما بالي

أنعي بها أشد عناية؟ إلا أنني لأشبه الحيوان الذي يهمه كثيراً لنفسه مكاناً مناسباً ..... في حالة كهذه! لقد كان الأفضل أن أعود إلى جزيرة بتروفسكي! لكنني وجدت الليل حالك الظلمة والجوُّ شديد البرودة! هيء هيء هيء! إنني لأكادُ أُنشد الأحاسيس اللذيذة والمشاعر الممتعة! بالمناسبة: لماذا لا أطفئ الشمعة؟"

طرح على نفسه هذا السؤال ونفخ على الشَّمعة، فأطفأها، وإذ لم يرى ضوءاً في شقِّ الجدار، تابع حديثه لنفسه، فقال: "نام جيراني! هلمِّي يا مارفا بتروفنا! الآن إنَّما ينبغي لك أن تجيئي، تفضلي، فالظلام حالك، والمكان رَحب، واللحظة فريدةٌ، ومع هذا لا تأتي اليوم!"

وتذكَّر فجأةً، دون سببٍ ظاهرٍ، أنَّه قبل وضع خططه المتعلقة بدونيا موضع التنفيذ، تذكَّر أنَّه قبل ذلك بساعة قد نصح راسكولينكوف أن يجعل دونيا في حماية رازوميخين، قال لنفسه: "حقّاً.... لابدَّ أنني قلت ذلك من باب التبجح، كما أدرك راسكولينكوف ذلك فعلاً! أنَّه لماكر، هذا الفتى رسكولينكوف! لكنَّه لعب لعبة كبيرةً فوق طاقته، ولكي يصبح المرء ماكراً ماهراً لابدَّ له من وقت وسيع، لابدَّ له من أن ينتظر انقضاء عهد السخافات، وهو الآن مسرفٌ في حبِّ الحياة، من هذه الناحية يتصف جميع هؤلاء النَّاس بأنَّهم جبناء، ولكن ما بالي أهتم! إلى جهنم! ألا لفعل ما يشاء، فذلك لا يعنيني!" وبقي سفدريجايلوف عاجزاً عن النوم وشيئاً فشيئاً انبجست أمامهُ صورة دونيا كما رأها منذُ قليل، فسرت في جسمه كلَّهُ رعدةً قويةً على حين فجأةٍ، قال لنفسهِ وقد ثاب إلى صوابه:

"لا، يجب عليَّ الآن أن أتخلَّص من هذا كلَّهُ، يجب أن أفكِّرَ بشيءٍ آخر. مضحكٍ أمري.... مضحك: إنني لم أدركه أحداً يوماً، بل لم تراودني أبداً رغبةٌ قويةٌ في الانتقال قط، هذه علامةٌ سيئةٌ! لا ولا أحببت أن أتشاجر، وأن اندفع وأتحمَّس! هذه أيضاً طويَّةٌ سيئةٌ.... ولكن ما أكثر الوعود التي بذلتها بها منذ

قليل! مع ذلك، كان يمكنها أن تصنع مني رجلاً آخر، من يدري... "
وصمت سفدريجايلوف وكزَّ أسنانه، وعرضت له صورة دونيا من جديد، تماماً كما رآها حين أطلقت أول طلقةٍ، فاستولى عليها رعبٌ رهيبٌ، فأرخت المسدس وهي تنظر إليه بعينها الوسيعتين ...... حتى لكان يمكنه أن يمسكها مرتين لا مرَّةً واحدةً دون أن تستطيع إظهار أيَّةَ مقاومة، لقد عنى هو نفسه بأن يردها إلى إدراك الواقع! وتذكَّر أيضاً أنَّه شعر في تلك اللحظة بنوعٍ من الشَّفقة عليها، والرَّأفةِ بها، وأنَّ قلبه قد انقبض بشدَّةٍ. سحقاً لهذه الخواطر!.... يجب التخلص من هذا كلِّهُ! يجب التخلص!". وأخذ النُّعاسُ يدبُّ إلى جفنيه، وشرعت رعدةُ الحُمَّى تهدأ، وارتادَ لهُ فجأةً أن تحتَ الحِرام شيئاً يركضُ على طول ذارعه وساقه، فارتعش، وقال: "آه.... لكأنَّها فأرة! طبعاً.... لأنني تركت اللحم على المائدة!" كره كرهاً فظيعاً أن يكون عليه أن يكشف الغطاء عن جسمه، وأنَّه ينهض، وأن يتعرَّضَ للبرد، لكن شيئاً لامس قدمه مرَّةً أُخرى ملامسةً كريهةً منفِّرَةً، فرمى عنه البطانية، وأشعل شمعة، ثمَّ مال يتفحص السَّرير وهو يرتجف من الحُمَّى، فلم يجد شيئاً، حتى إذا نفض البطانية قفزت إلى السَّريرِ فأرةً على حين بغتةٍ، فأسرع يريد القبض عليها، ولكنَّ الفأرة أخذت، دون أن تغادر السَّرير، ترسم خطوطاً متعرجة في غير اتِّجاهٍ، وتتملص من بين أصابعه، وتركض على ذراعه، ثمَّ اندست تحت المخدَّة. فرمى بها إلى الأرض، ولكنَّه شعر في تلك اللحظة نفسها بشيءٍ يثبُ عليه، ويتنطط على طول قامته، وينتقل إلى ظهره، تحت القميص، فارتعش المسكين ارتعاشةً عصبيةً، واستيقظ من نومه.
كان الظَّلامُ دامساً، وهو لا يزال راقداً على السَّرير، مكتوماً تحت الغطاء، وكانت الرِّيحُ ما تزال تهمهمُ تحت النافذة.
قال لنفسه غاضباً: "يا له من حلمٍ وسخٍ!"
ونهض فجلس على حافة السَّرير مديراً ظهرهُ إلى النَّافذة. "الأفضل ألا أنام

البتة". على هذا حزم أمره، وكان يهبُّ من النافذة هواءٌ رطبٌ باردٌ، فشدَّ سفدريجايلوف البطانيَّة، وتدثَّرَ بها دون أن يبادر مكانهُ، ولم يشعل الشَّمعة. كان لا يفكِّرُ بشيءٍ، ولا يريد أن يفكِّر على كلِّ حالٍ، لكنَّ الصُّور كانت تلاحق الصُّور في خيالهِ، وكانت شذرات أفكارهِ تتابع في ذهنهِ مشكِّلةً فوضى لا تحكمها رابطة، ولا ينظمها تسلسل، لقد أصبح فيما يشبه النوم، هل يرجع هذا إلى البرد والظَّلام والرُّطوبة والرِّيح التي تزمجر تحت النافذة وتهزُّ الأشجار؟ المهم أن أحلامه بدأت تتخذ أشكالاً غريبةً، وراحت توقظ في نفسهِ رغبة، وكانت أزهارٌ تتراءى له بغير انقطاعٍ، هذا منظرٌ رائعٌ يتفتح أمام بصرهِ، نهارٌ مضيءٌ دافئٌ، يكاد يكون حارًّا، هو يوم عيد العنصرة، منزلٌ ريفيٌّ أنيقٌ ثري، على الطِّراز الانجليزي، ينتصب في وسط مروجٍ مزهرةٍ، وتحيطُ به أحواضاً موقوفةً على زراعة الأزهار، نباتاتٌ متسلقةٌ تعرِّشُ فوق درجات مدخل المنزل، غارقةً تحت الورود، وعلى طول سلَّمٍ كبيرٍ، مضيءٍ نضيرٍ، مغطَّى بسجادةٍ فخمةٍ، تترتَّبُ أواني خزفٍ صينيٍّ تضمُّ أزهاراً نادرةً، ولاحظ سفدريجايلوف بوجهٍ خاصٍّ، على حواف النَّوافذ، في أوانٍ ملأى بالماء، باقات نرجساتٍ بيضٍ نضرةٍ تميلُ على سيقانها الخضر الطويلة القويَّة وتنشرُ عبقاً نافذاً، وكان سفدريجايلوف يودُّ ألا يبتعد عن هذه الأزهار، ولكنَّهُ صعد السُّلَّم ودخل قاعةً كبيرةً عالية السَّقف، هناك أيضاً كانت الأزهار منتشرةً في كلِّ مكانٍ: على النوافذ، قرب الباب الكبير الذي يطلُّ على الشُّرفة، وفي الشُّرفةِ نفسها، أرض القاعة مفروشةٌ بعشبٍ فواحٍ أخضر نضر، مصاريع النوافذ مفتوحة تدخل منها إلى القاعة أنسامٌ لطيفةٌ، العصافير تغرِّدُ تحت النوافذ، ولكن في وسط الغرفة، فوق منضدةٍ فرشت بغطاءٍ من قماش الساتان الأبيض الذي يستعمل للموتى، كان هناك تابوت، إنَّ التابوت منجَّدٌ بنسيجٍ من ساتانٍ نابوليٍّ سميك، ومحفوفٍ بابزيمٍ سميكٍ أبيض اللون أيضاً، إنَّ حبالاً من أزهارٍ تطوِّقُ التابوت من جميع الجهات، وبين الأزرارِ يرقد

جثمـان صـبيَّةٍ ترتـدي ثوبـاً مـن نسيجِ التـول الأبـيض، قـد عقـدت ذراعيهـا علـى صـدرها، وشـدَّت أحـداهما إلى الأُخـرى، حتـى لكـأنَّهمـا منحوتتـان في المرمـر، غير أنَّ شعرها المبعثر، الأشقر، رطبٌ مخضلٌّ، وعلى جبينها إكليلٌ مـن الزَّهـرِ يطوِّقَهُ، إنَّ وجهها الـذي يُظهَر مـن جانبٍ، ويعبِّرُ عـن صـرامةٍ، ويبـدو متجمِّداً منـذ الآن، يُشـبهُ أن يكـون مقـدوداً في مرمـرٍ أيضـاً، ولكـن ابتسـامةَ شـفتيها الشاحبتين مصطبغةً بحزنٍ لا نهايةَ لهُ، حزنٌ ليس من الطفولة، وشـجنٍ كـبيرٍ، إنَّ سفدريجايلوف يعرف هذه البنيـة، لم يكـن إلى جانـب التـابوت لا صـورةٌ مـن صور العذراء، ولا شموعٌ مشتعلة، وليست تتلى عليها صلوات، إنَّ هذه البُنيَّة قـد انتحـرت غرقـاً، عمرهـا لا يتجـاوز أربعـة عشـر ربيعـاً، ولكـنَّ قلبهـا قـد تحطَّم وهـي في تلـك السِّـن: لقـد سـعت إلى المـوت، لأنَّهـا وقعـت ضـحيةَ إهانـةٍ روعـت ضميرها إلى الأبد، وملأت نفسها بعارٍ لا يستحقه وجدان الطفلة، تلك الـنفس الملائكيـة الطَّـاهرة، وانتزعـت منهـا صـرخة يـأسٍ هائلـةٍ، صـرخةً لم تُسـمع، اختنقت بوقاحةٍ في الظلمات، والبرد، والجليد الذائب، وزمجرات الرِّيح......

استيقظ سـفدريجايلوف مـن نومـه، فـترك سـريرهُ واتَّجـهَ نحـو النافـذة، وتلمَّس المـزلاجَ ففتحهـا، فانـدفعت إلى الحجـرة هبَّـةُ ريـحٍ صـفعت خـدَّهُ وصـدرهُ الـذي لا يغطيه إلا القميص، صفقهما بمـا يشـبه رذاذ الـثلج، وكـان تحـت النافـذةِ شـيءً يشـبه أن يكـون حديقـةً، لعـلَّ روَّادَ الفنـدق يقضـون فيهـا أوقـاتَ بهجـةٍ ومسـرَّةٍ أحياناً، فتُغنَّى فيها الأغاني، ويقدَّمُ فيها الشَّاي على مناضـدٍ صـغيرةٍ نهـاراً. أمـا الآن فـإنَّ قطـراتَ المـاء تسـيلُ علـى النافـذة، آتيـةً مـن الشُّـجيرات المحيطـةِ، وإنَّ الظـلام يبلـغ مـن الحلكـةِ أنَّ المـرءَ لا يميِّـزُ إلا بُقعـاً سـوداء غامضـةً تـدلُّ علـى الأشياءِ دلالةً مبهمةً.

لبـث النزيـل خمـس دقـائقٍ، مـائلاً إلى الأمـام، متكئـاً بكوعيـه علـى حافـة النافـذة، محـدِّقاً إلى الظـلام لا يسـتطيع أن يحـوِّلَ عنـهُ بصـرهُ. فجـأةً، في وسـط الظلمة الظلماء، دون طلقة مدفعٍ أولى، فثانية.

خاطب سفدريجايلوف نفسه: "هذا هو الإنذار! المياه تعلو، فما يطلع الصبح حتى تتدفق في الشوارع فيضاناتٌ تغرقُ الأقبية، وترى الفئران على سطح الماء ميتةً، وتحت المطر والرِّيحِ سيأخذ النَّاس ينقلون متاعهم إلى الطوابق الأعلى، وقد تبللت أجسامهم وانهدمت قواهم وبدؤوا يشتمون ويلعنون.... لكن كم السَّاعة الآن؟" وفيما كان سفدريجايلوف يفكِّرُ في هذا، وإذا بساعة جدارٍ في مكان بعيد تدقُّ الثالثة بصوتٍ عميقٍ.

وقال لنفسه: "آ..... بعد ساعةٍ يطلع الصبح، فلماذا انتظر طويلاً؟ سأنصرف في الحال، سأمضي قُدُماً إلى جزيرة بتروفسكي، فأختارُ هناك، في مكانٍ ما دغلاً يبلغ من التبلل بالماء أنَّه يكفيك أن تلمسهُ بكتفك حتى يهطل عليك ملايين القطرات...." وابتعد عن النافذةِ قليلاً، فأغلقها، ثمَّ أشعل شمعةً، فارتدى صدرتهُ ومعطفهُ، ووضع على رأسه قبعتهُ، ومضى إلى الممرِّ حاملاً شمعةً، محاولاً أن يبحث عن الخادم الذي لابدَّ أنَّه نائمٌ في أحد الأركان التي تودع فيها الأشياء المهترئة وبقايا الشموع.

كان صاحبنا يريد أن يدفع الحساب ويغادر الفندق، وقال: هذه خيرُ لحظةٍ، لا يمكن اختيار لحظةٍ أفضل!"

لبث يطوف في الدِّهليز الضيق الطويل مدَّةً مديدةً دون أن يلتقي بأحد، فما همَّ أن ينادي أكتشف على حين فجأةٍ، في ركنٍ مظلمٍ، بين خزانةٍ قديمةٍ وباب، شيئاً غريباً، شيئاً بداله حيَّاً، فمال على الشيء والشَّمعة بيدهِ، فرأى طفلةً عمرها خمس سنينٍ في أكثر تقدير، ترتدي ثوباًخلقاًمبتلاً بالماء كابتلالِ خرقةٍ تغسل بها الأرض، ترتجف من البرد وتبكي، لم يظهر عليها ذعر حين رأت سفيدريجايلوف، ولكنَّها حدَّقت إليه بعينيها السوداوين الكبيرتين مبهوتةً، وكانت تشهقُ من حينٍ إلى حينٍ، كما يشهقُ طفلٌ لبثَ يبكي مدَّةً طويلةً ثمَّ انقطع عن البكاء وهدأ آخر الأمر، لكنَّهُ ما يزالُ يشهقُ بين الفينةِ والأُخرى.

كانت الطفلةُ شاحبة الوجه، مرهقة الهيئة، وكانَ واضحاً أنَّ البردَ قد بلغ منها العظام، "ولكن كيف أمكَنَ أن تقعَ في هذا المكان؟ أغلب الظن أنها اختبأت في ركنٍ من الأركان ولم تنم طوال الليل"!! راحَ شيخنا يستجوبها، فانتعشت الطفلةُ فجأةً، وأسرعت تتدفَّقُ في الكلام، فتروي بلغتها الطفولية قصَّةً فحواها أن أمَّها كانت ستضربها لأنَّها كسرت فنجاناً.

كانت الطفلة تتكلَّم ولا تسكت، وفي وسع المرء أن يحرز محاورته وقصته أنَّها ليست محبوبة، وأن أمَّها (وهي طباخةٌ تظلُّ دائماً سكرى، ولعلَّها طباخة هل المحل) تروعها وتضربها، وأن البنت حين كسرت الفنجان قد بلغ خوفها من الشدَّةِ أنَّها هربت منذ ليلة البارحة، وأنَّها اضطرت أن تختبئ مدَّةً طويلةً في مكانٍ ما من الحوش، تحت المطر، ثمَّ استطاعت أن تتسلل إلى هذا المكان خلسةً، فاختبأت وراء الخزانة، وقضت الليلة هناك ترتعد برداً وظلمةً تبكي خائفة من ضربات أمها، أخذ صاحبنا الطفلة بين ذراعيه، وعاد إلى غرفته فوضعها على سريره وشرع يخلع لها ملابسها، كان حذاءاها مقطعين، مبتلين بالماء ابتلالاً شديداً لكأنَّهما قد وقعا في غدر ليلةٍ كاملةٍ، ولم يكن لها جوربان فلمَّا فرغ سفدريجايلوف من خلع ملابسها عنها، أرقدها ودثرها بالحرام حتى العنق، فما لبثت أن نامت فوراً، وما أن انتهى من هذا حتى عاد يغرق في أحلامه المظلمة وخواطره القاتلة.

قال لنفسه بغضبٍ وحنقٍ: هذا ما كنت في حاجة إليه أيضاً! أن أقحم نفسي في مثل هذه القصَّة! يا للحماقة!" وتناول الشَّمعة مغتاظاً ليمضي باحثاً عن الخادم لكي ينصرف بأقصى سرعة، فلمَّا همَّ أن يفتح الباب أفلتت من لسانه شتيمةً للطفلةِ الصَّغيرة، ومع ذلك عاد يلقي عليها نظرةً ليرى هل نامت، وكيف كان نومها، رفع الغطاء محاذراً، كانت الفتاةُ نائمةٌ بعمقٍ وهدوءٍ وسعادةٍ، لقد دفأتها البطانية، حتى أنَّ خديها قد استردا لونهما منذ الآن، ولكنَّ الشَّيء الغريب أنَّ هذا اللون كان أسطعُ اتقاداً مما يلاحظ في الأطفال الآخرين، فقال

سفدريجايلوف لنفسه: "إنَّ بها حُمَّى". لكأنَّها قد شربت، لكأنَّها سقيت كأساً من الخمر كبيرةً مترعةً، إنَّ شفتيها الحمراوين تبدوان كالمحترقتين. "لكن ماذا؟ ما هذا؟" لقد رأى سفدريجايلوف فجأةً أنَّ أهداب الصَّبية، الطويلة السوداء، تختلجُ وترتعشُ كأنَّها تنفتح، ورأى من تحت الأهداب نظرةً ماكرةً حادةً ليست نظرة أطفال، تتسلل إليه، فكأنَّ الطفلة غير نائمةٍ لكنها تتظاهر بالنوم. نعم، ذلك ما كان.... وانفرجت شفتا الصبية عن ابتسامة، وكانت أطراف الشفتين تختلج كأنَّها تحاول كظم ضحكةٍ، ولكن محاولة الكظم تنتهي، فتنطلق الضحكة، إنَّها ضحكةٌ صريحةٌ، وقحةٌ، فيها تحدٍّ وقرفٍ، تنفجَّرُ في وجهٍ لم يبق فيه الآن شيءٌ من طفولةٍ، هو الآن وجه العهر والانحلال، وجهٌ وقحٌ زايله الحياء، وجهُ امرأةٍ مثل "كاميليا" مثل "غادة كاميليا"، وجه مومسٍ تتعاطى البغاء في سبيل الماء، مومسٍ فرنسيةٍ، وها هي ذي البنت، بعد أن لم يبق لها ما تخفيه، ها هي ذي تفتح عينيها، وتزنره بنظرةٍ عنيفةٍ محرقةٍ، في غير تحفُّظٍ أو احتشامٍ إن عينيها تناديانه، وتضحكان.... وإن هناك شيئاً دنساً مُسيئاً مُهيناً في هذه الضِّحكة، وفي هاتين العينين، وفي كُلِّ هذا الوجه الذي أصبح لا يعبِّرُ إلا عن الرَّجَسِ والعار. "وكيف؟ أفي هذه السِّن؟ أفي الخامسة من العمر؟" بهذا جمجم سفدريجايلوف مذعوراً، ولكنَّها ها هي ذي تديرُ نحوهُ وجهها المتَّقد، وتمدُّ إليه ذراعيها، فيقول مروَّعاً: "آه.... يا للعينة!" ويرفع ذراعه في وجهها.... ولكنَّهُ استيقظ من نومه في تلك اللحظة.

كان لا يزال راقداً على سريره متدثراً بالحرام، ولم تكن الشمعة مشتعلة، غير أن بياض الفجر كان يلوح من وراء النوافذ.

"كوابيسٌ طوال الليل!". هذا ما ردده سفدريجايلوف، ثم نهض منتصباً في غيظ وحنقٍ، كان يحسُّ بأنَّه محطم، أنَّه يشعر بوجعٍ في جميع عظامه، وفي الخارج كان ينتشر ضبابٌ كثيف يحجب الرؤية، لابدَّ أن السَّاعة قريبةٌ من الخامسة. لقد تأخر بالنوم!

وبعـد لأيٍّ، نهـض، ارتـدى سـترته ومعطفـه اللـذين مـا يـزالان مبـتلين، وبعـد أن تلمَّس مسدَّسهُ في جيبه، أخرجه فتثبت من الكبسولة، ثمَّ جلس، وتناول دفتراً صغيراً فكتب على الورقة الأولى منه بضعة أسطر بأحرف كبيرة، حتى إذا أعاد قراءة الأسطر التي كتبها، رجع يسترسل في أحلامه من جديد، متكئاً بكوعيه على المائدة، المسدس والدفتر ما يزالان على المائدة قرب كوعه، وقد استيقظ الذُّباب، فهو يتهافت على قطعة لحم العجل التي لم يمسسها، ظلَّ ينظر إلى الذباب برهةً طويلةً، وحاول أخيراً أن يلتقط ذبابةً من الذبابات اليمنى التي كانت طليقةً، ولكنَّهُ لم يفلح في ذلك رغم الجهود الكثيرة التي بذلها، وفاجأ نفسه آخر الأمر مستغرقاً في هذا العمل الشَّيقِ فتاب إلى رشده، وارتعش، ونهض فخرج من الغرفة بخطى حازمةٍ ثابتةٍ، فما هي إلا لحظةٌ حتى كان في الشَّارع.

إن ضباباً بلونِ اللبن كان يغمر المدينة، وسار سفدريجايلوف على أرض الشَّارع الخشبية الموحلة الزلقة، في اتجاه نهر "نيفا الصغير" كان لا يكفُّ عن تخيل مياه النهر التي ارتفعت في أثناء الليل، وعن تخيُّل جزيرة بتروفسكي، والطرق المنقوعة والعشب الغارق والأشجار والأدغال التي يتقاطر منها الماء، ثمَّ الدَّغل المقصود!... واغتاظ من ذلك فأخذ يتفحص المنازل من حوله ليصرف تفكيره إلى شيء آخر، لم يكن في الشارع أحد من المارَّة، ولم يكن فيه أيَّة عربة. والمنازل الخشبية الصغيرة، الصفراء فاقعة اللون، كانت بنوافذها المغلقة ومصاريعها الموصَّدة، قذرتُ المظهرِ، كالحة الهيئة.

انشأ سفدريجايلوف يرتجف من البرد والرطوبة اللذين نفذا في حناياه، فإذا وقع بصره على لافتة دكان للبضائع والخضراوات بين الحين والحين، راح يقرأ الكلمات مدققاً متفحصاً.

ها قد انتهى الشَّارع المبلَّطة أرضه بالخشب، لقد وصل سفدريجايلوف إلى مبنى كبيرٍ من حجرٍ، وهذا كلبٌ صغيرٌ بشعٌ يمرُّ أمامه قاطعاً الشارع، واضعاً ذيله

بين قائمتيه وهذا رجلٌ سكرانٌ حتى لكأنَّه ميتٌ من فرط السكر، قد رقد على الرَّصيف عرضاً، لابساً معطفاً سميكاً، واضعاً وجهه على الأرض. نظر سفدريجايلوف إليه ثم تابع دربه.

وظهر له برجٌ كبيرٌ على شماله فجأةً، فهتف يقول لنفسه "آ.... وجدت المكان المناسب، علام الذَّهاب إلى جزيرة بتروفسكي؟ في هذا المكان يمكن على الأقل أن يوجد شاهدٌ رسميٌّ" وكاد يبتسم حين خطرت بباله هذه الفكرة، ثمَّ انعطف ليدخل شارع "س..." هناك كان ينتصب المبنى الذي يعلوه برج، وعلى باب الفناء من هذا المبنى كان يستند بظهرِ رجلٍ قصيرِ القامة متدثِّرٌ بمعطفٍ رمادي اللون من معاطف الجنود، وعلى رأسه خوذةٌ من نحاسٍ كخوذ "آخيل". رشق الرَّجلُ سفدريجايلوف بنظرةٍ باردةٍ تعبِّرُ عن النُّعاس، إنَّ في وجهه تلك الكآبة السَّاخطة التي عمرها مئات السنين، تلك الكآبة التي تطبعُ بكثيرٍ من المرارة قَسَماتُ وجوهِ جميع النَّاس الذين ينتمون إلى جنس اليهود دون استثناءٍ وتفحَّصَ كلٌّ من سفدريجايلوف وآخيل صاحبهُ مدَّةً من الوقت في صمتٍ، ورأى آخيل أخيراً أن ليس طبيعياً أن يقف رجلٌ ليس سكران حتماً، أن يقف على بعد ثلاث خطواتٍ منهُ، ويشرَعُ يحدِّقُ إليه ويتفرَّسُ فيه دون أن ينطق بكلمةٍ، فقال يسألهُ، وهو ما يزال جامداً لا يتحرك:

هيه! عم تتحدث؟

فأجابه سفدريجايلوف:

لا أبحث عن شيءٍ أيُّها الأخ. صباح الخير.

إمضِ في طريقك!

هل تعرف أيُّها الأخ؟ أنا مسافرٌ إلى الخارج.

إلى الخارج؟

إلى أمريكا

إلى أمريكا؟

تناول سفدريجايلوف مسدسهُ وحشاهُ، فرفع آخيل حاجبه وصاح يقول:

ما هذا المزاج؟ ليس هذا هو المكان.....

ولماذا لا يكون هو المكان......

لأنَّه ليس هو المكان.

دعك يا صاحبي، لا خير.... هذا المكان مناسبٌ مع ذلك، فإذا سئلت فقل أنني سافرت إلى أمريكا.

قال سفدريجايلوف ذلك، ووضع المسدس على صدغه الأيمن، انبرى آخيل يقول له مندفعاً محملقاً بملء المعنى:

ممنوعٌ هنا، ليس هذا هو المكان!

ممنوعٌ هنا ليس هذا هو المكان!

وضغط سفدريجايلوف على الزِّناد.

# الفصل السابع

في ذلك اليوم نفسه، عند المساء، بين السَّاعة السَّادسة والسَّابعة، كان راسكولنيكوف يقترب من مسكن أمِّهِ وأخته، ذلك المسكن الذي أسكنها فيه رازوميخين في عمارة باكالايف، إنَّ مدخل السُّلَّم يطلُّ على الشَّارع، كان راسكولنيكوف يتقدم متردداً، متباطئ الخطو وكأنَّه يسأل في دخيلةِ نفسه "أأدخل أم لا؟" ولكن ما كان له أن يُقفل راجعاً بحالٍ من الأحوال، فقد اتخذ قراره وعزم أمره، كان يقول لنفسه: "أنَّهما، على كلِّ حالٍ، لا تعرفان شيئاً حتى الآن، وقد أَلِفتا أن تعدَّانني شاذَّاً...."

كانت ثيابه في حالةٍ رهيبةٍ، فأنَّه بعد ليلةٍ كاملةٍ من المطر قد تبللت ملابسه وتلطخت بالوحل، وكان منقلب الوجه من التَّعب والقلق والطَّقسِ الرديء والإجهاد الجسمي، والصراع الروحي الذي ظلَّ ناشباً في نفسه منذ ما يقرب من أربع وعشرين ساعة، كان قد مضى الليل وحيداً، لا يعلم إلا اللّه أين، ولكنَّهُ كان قد عقد العزم على إنفاذ الأمر.

طرق الباب، ففتحت له أُمَّه، كانت دونيا قد خرجت، وحتى الخادمة كانت غائبة في تلك السَّاعة، خرست بولخيريا الكسندروفنا من الدَّهشة والفرح في أول الأمر، ثمَّ أمسكت يدهُ، وقادته إلى الغرفة، وبدأت تتكلَّم متلعثمةً من فرط السَّعادة فقالت:

آ.... ها أنت ذا أخيراً! لا تزعل يا روديا إذا أنا استقبلتك هذا الاستقبال الأبله باكيةً، إنني أضحك، أنني لا أبكي، أتظنُّ أنني أبكي؟ لا، أنا سعيدةٌ. ولكن هذه عادةٌ سخيفةٌ من عاداتي. دموعي تتسكب لغير سبب.....

منذ مات أبوك أصبحت أبكي لأتفه أمر، اجلس يا حبيبي، لابدَّ أنَّكَ متعب، أنا أرى هذا واضحاً! آه.... ثيابك وسخةٌ جدَّاً!....

بدأ راسكولنيكوف الكلام:

كنت أمس خارج البيت تحت المطر يا أُمَّاه!

فاندفعت بولخير الكسندروفنا تقول، فالبكاء والفرح يختلطان في كلامها:

لا، لا، لا يذهبنَّ بك الظنُّ إلى أنني أستجوبك، على عادتي العتيقة البالية، اهدأ بالاً، فإنني أفهم الآن كلَّ شيءٍ، لقد تعلمت عادات النَّاس هنا، وأدركت أنَّها خيرٌ من عاداتنا نحن هناك، وأيقنت أنَّه ليس من حقي أن أحاول معرفة أفكارك، وأن أحاسبك، اللّه يعلم ما هي الخطط والشؤون التي تملأ رأسك، وما هي الخواطر التي ترهقك، فهل يجوز لي أن أشدَّكَ من ذراعك وأسألك: "هيا، هيا قل لي، قل لي فيم تفكر؟" يا ربَّاه! ما حاجتي إلى هذه الثرثرة أخبط فيها خبط عشواء! هل تعلم يا روديا؟ أنا الآن أقرأ، للمرَّةِ الثالثة، المقالة التي نشرتها في..... في تلك المجلة، لقد جاءني بها دمتري بروكوفتش. فما أن رأيتها حتى صحت أقول: آه..... من فرط دهشتي! قلت لنفسي: "ما كان أغباني و أشدُّ حماقتي، هذا هو إذاً ما يشغل باله، هذا يفسِّرُ كلَّ شيءٍ، إنَّه يدير في رأسه أفكاراً يتأملها وينضجها، وأجيء أنا فأزعجهُ وأعذبهُ..." إنني أقرأ مقالتك يا بني، فيها أشياءٌ لا أفهمها طبعاً، ولكن لا غرابة في ذلك، فما أنا إلا امرأةٌ بسيطةٌ.

أريني تلك المقالة يا أمي.

تناول راسكولنيكوف المجلَّة، وألقى على مقالته نظرةً عجلى، فشعر، رغم أن هذه الصفحات متعارضةً أشدَّ التعارض مع وضعهِ القائم، وحالته النفسية الرَّاهنة، شعر بتلك العاطفة الغريبة، بتلك العذوبة الحادَّة، بتلك الحلاوة الكاوية التي يشعر بها الكتاب حين يرون إنتاجهم مطبوعاً لأوَّلِ مرَّةٍ (لاسيَّما حين لا يكون عمرهم قد تجاوز الثالثة والعشرين)، ولكن ذلك لم يدم إلا لحظةً قصيرةً، فبعد أن قرأ الأسطُر الأولى، تقطَّبَ حاجباه، وانقبض صدرَهُ، واختنق قلبه بحزنٍ رهيبٍ. إنَّ جميعَ أنواع الصراع والكفاح التي خاضها في هذه الأشهر الأخيرة قد عادت الآن إلى ذاكرته دفعةً واحدةً، فها هو ذا يرمي المجلة

على المائدة بحركة اشمئزازٍ ولوعةٍ.

مهما أكن غبيةً يا روديا فإنني أستطيع أن أدرك أنَّك ستصبح في المستقبل القريب واحداً من أعظم رجالِ عالمنا المثقَّف، إن لم تصبح أعظمهم جميعاً بغير استثناء! ....... هه!...... ومع ذلك تجاسروا فزعموا أنَّك مجنون! هأ هأ هأ!.... لعلَّكَ لا تعرف هذا، ولكنَّهم زعموه، ودار في خلدهم! ما أحقرهم دوداً من ديدان الأرض! مساكين! أنَّى لهم أن يفهموا ما هو الذَّكاء! ولكن ما بال دونيا، نعم ما بال دونيا قد أوشكت أن تصدِّق ذلك هي أيضاً... أممكن هذا؟ إنَّ المرحوم أباك قد أرسل... إنتاجه مرتين إلى إحدى المجلات، مرَّةً شِعراً (مازلت أحتفظ بالدفتر، وسأريك إياهُ يوماً) ومرَّةً قصة (وقد رجوته أن يسمح لي بنسجها)، وما أكثر ما دعونا الله أن ينشروا لهُ إنتاجه ذاك، ولكنَّهم لم ينشروه! هل تعلم يا روديا؟ إنني منذ ستة أيامٍ أو سبعة قد حزنت حين رأيتك كيف تعيش، وماذا تأكل، وماذا تلبس، وأين تسكن، ولكنني أدرك الآن أنني كنت غبيةً في هذه المرَّةِ أيضاً، فلو شئت لنلت كلَّ شيءٍ دفعةً واحدةً بفضلٍ، كأنك وموهبتك، ولكنَّكَ في أغلب الظنِّ لا تشاءُ ذلك الآن، لأنَّكَ مشغولٌ عنه بأمورٍ أهمُّ شأناً.

أليست دونيا في البيت يا أمي؟

لا ياروديا، إنَّها تخرج في أكثر الأحيان وتدعني وحدي، لقد تلطَّف دمتري بروكوفتش فجاء يزورني ويقضي بعض الوقت بصحبتي، إنَّهُ يكلِّمُني دائماً عنك، أنَّه يحبكَ، ويقدرك حقَّ قدركَ يا بني، أعلم أنَّ أُختك لا تحفل بأمري وأنَّها مقصرةٌ في حقي، لست ألومها، ولكن لها طبعها ولي طبعي، وهي تخفي أسراراً صغيرةً لا حصر لها، تخفيها عني ولا تطلعني عليها، أما أنا فلست أخفي عنكما شيئاً، أنا أعرف طبعاً أن دونيا ذكيةٌ جداًّ، وأنَّها أيضاً تضمر لي ولك كثيراً من العاطفة والحنان، ولكني لا أدري كيف ستكون خاتمة هذه الأمور كلَّها، لقد أسعدتني بمجيئك كثيراً يا روديا، ولكنَّها قد خرجت

قبل وصولك بدقائق! سأقول لها حين تعود: "جاء أخوك في غيابك، فأين كنت خلال ذلك الوقت؟" ولكن لا تذللني كثيراً يا روديا: تعال إليَّ إن استطعت، فإن لم تستطع أن تجيء فلا ضير، سأنتظرك على كلِّ حالٍ، وسأعرف دائماً أنَّك تحبني، وهذا يكفيني، سوف أقرأ مؤلفاتك، وسوف أسمعُ النَّاسَ جميعاً يتحدثون عنك، وسوف تجيء أنت إليَّ من حينٍ إلى حين، ما عساي أتمنى أكثر من ذلك؟ ها أنت ذا قد جئت اليوم لتواسي أمَّكَ، إنني أرى هذا واضحاً، فهل يمكن أن أطلب المزيد.

هنا أخذت بولخير الكسندروفنا تبكي فجأةً.

ذلك ما كنت أقدِّرهُ! ولكن في وسعي أن أسافر معك، إذا كان ذلك ينفعك. ودونيا أيضاً تحبك، تحبك كثيراً، ولتأتِ معنا صوفيا سيميونوفنا أيضاً إذا وجب الأمر! إنني مستعدةٌ لأن أقبلها ابنةً لي، وسيساعدنا دمتري بروكوفتش في الإعداد للسفر، ولكن أين تريد أن تسافر؟

أستودعك الله يا أمي!

هتفت الأم وكأنَّها تفقد ابنها إلى الأبد:

كيف؟ أمي هذا اليوم نفسه؟

لا أستطيع التأخر.... آن الأوان.... يجب حتماً أن....

وأنا؟ لا أستطيع أن.... أذهب معك؟

لا، ولكن اسجدي وصلي للعذراء، لعل الله يستجيب لك! دعني أرسل عليَّك شارة الصليب، خلني أباركك. نعم، لقد كان راسكولنيكوف سعيداً، سعيداً جداً بأن البيت خال ليس فيه أحد، كان سعيداً بأن يخلوا إلى أمه، حتى لكأنَّه بعد جميع العذاباًت الرهيبة التي عاناها قد ذاب قلبه حناناً على حين فجأة دفعة واحدة، فها هو يرتمي على قدمي أمه يقلبهما، وهاهما يبكيان كلاهما ويتعانقا، والأم في هذهِ المرَّة لا تشعر بدهشةٍ ولا تلقي سؤالاً. لقد أدركت أن ابنها يعاني أموراً فظيعةً، وأنَّ لحظةً رهيبةً سوف تأزفُ بعد

قليل، فتحدد مصيره تحديداً حاسماً.

قالت وهي تنشج:

روديا، ابني الحبيب، يا أول ولد لي، ها أنا ذي أراك الآن كما كنت في صغرك تماماً، كنت تأتيني على هذا النحو نفسه، تطوقني، تقبلني، بهذه الطريقة نفسها، وحين كان أبوك ما يزال معنا، وحين كانت حياتنا قاسية جدَّاً، كنت أنت عزاءنا، وبعد أن رحل أبوكِ إلى الأبد، كم وكم مرَّةً بكينا على جدثه، أنا وأنت، متعانقين كعناقنا الآن! لئن كنت أبكي منذُ مدَّةٍ، فلأنَّ قلبي ـ قلب الأم ـ قد أوجس أنَّ شرَّاً سيقع، إنَّ ملمَّةً ستحصل حين رأيتك أول مرَّةٍ في ذلك المساء، أتذكر؟ ـ يوم وصولنا إلى هنا حزرت كلَّ شيءٍ من رؤية نظراتك وحدها، فسرعان ما ارتعش قلبي، واليوم، حين فتحت لك الباب، نظرت إليك فلم ألبث أن قلتُ لنفسي: لاشكَّ أنَّ السَّاعةَ المشئومة قد حانت. روديا، روديا، أأنت مسافر الآن؟

لا.

أستعود؟

نعم.... سأعود.

روديا، لا تزعل، أنا لا أجرؤ أن أسالك، أنا أعرف أنني لن أجرؤ، ولكن قل لي كلمةً واحدةً فقط: ستسافر بعيداً؟

بعيد جدَّاً.

ما الذي يدعوك إلى هناك وظيفة، عمل؟

ما يرسل إليَّ اللّه.... ولكن صلِّي من أجلي!

واتجه راسكولنيكوف نحو الباب، غير أن أمَّه تشبثت به، ونظرت إليه محدِّقةً إلى عينيه، وقد عبَّر وجهها عن يأسٍ شديدٍ، وتبدلت سحنتها خوفاً وذعراً.

قال راسكولنيكوف نادماً أعمق النَّدم لأنَّه جاء:

كفى يا أمَّاه!

لست تسافر إلى الأبد، أليس كذلك؟ لست تسافر إلى الأبد بعد، أليس كذلك؟ وسترجع غداً، ألن ترجع غداً؟

سأعود، سأعود، استودعك الله!

وانتزع نفسه منها بعد لأيٍّ.

كان المساء ناعماً طرياً صافياً، لقد صحا الجو منذ الصَّباح، وعاد راسكولنيكوف إلى بيته، كان مسرعاً، كان يريد أن يفرغ من الأمر قبل غياب الشَّمس، وكان حتى هذه السَّاعة يتمنى ألا يصادف أحداً، فلمَّا كان صاعداً إلى غرفته لاحظ أن ناستاسيا تركت سماورها، وأخذت تحدِّقُ إليه وتتابعه بنظراتها، قال يسأل نفسه: "أيكونُ أحدٌ عندي؟" وتذكَّر بورفيري مشمئزّاً ممتعضاً، لكنَّه حين وصل إلى غرفته وفتح الباب، رأى دونيا. كانت جالسةً بمفردها على الدِّيوان، غارقةً في تأملٍ عميقٍ، وكان واضحاً أنَّها قد انتظرته طويلاً، وقف في العتبة، نهضت خائفةً وانتصبت أمامه، إن نظرتها المحدِّقة إليه، الثابتة عليه، تعبِّر عن ذُعرٍ هائلٍ وأسى لا نهايةَ لهُ، أدرك من هذهِ النظرة وحدها أنَّها تعرف كلَّ شيءٍ.

سألها حائراً:

أأدخل أم أنصرف؟

فقالت:

قضيت النهار كلَّهُ عند صوفيا سيميونوفنا، كنا ننتظرك كلتانا، وكنا نظنُّ أنَّكَ لابُدَّ عائد.

دخل راسكولنيكوف، تهاوى على كرسيٍّ، مهدود القوى، وقال:

أشعر بخورٍ يادونيا إنني مُنهكٌ فعلاً، وأنا في هذه اللحظة خاصَّة إنَّما أحتاج إلى قواي كلِّها.

ونظر إليها نظرةَ ريبة.

أين كنت طيلة الليل؟

لا أتذكر جيداً، لقد أردتِ يا أُختي أن أتخذ قراراً حاسماً، ومضيت عدَّة مرات إلى قرب نهر "نيفا". هذا أذكره. أردت أن أُنهي الأمر هناك....

وأردف راسكولنيكوف وهو يلقي على دونيا تلك النظرة المرتابة نفسها:

ولكني ..... لم أعزم أمري........

الحمد للّه!.... ليتك تعلم كم كنا خائفتين، أنا وصوفيا سيميونوفنا، من أن تفعل ذلك! إذاً مازلت تؤمن بالحياة! الحمد للّه! الحمد للّه!

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامةً مُرَّةً، وقال:

كنت لا أومن بها، ولكني آمنت منذ قليل، حين تعانقنا أنا وأمي، وبكينا. أنا لست مؤمناً، ، ومع ذلك طلبت مني أمي أن تصلي من أجلي وأن تدعو اللّه لي، اللّه يعلم كيف يحدث هذا يادونيتشكا! على كلِّ حالٍ، لستُ أفهم من الأمر شيئاً!....

هتفت دونيا مذعورةً:

كنت عند أمِّنا؟ وقلت لها؟..... هل جرؤت حقاً أن تقول لها.....

لا، لم أقل شيئاً...... لكنَّها فهمت الكثير، لقد سمعتك تهذين في الليل، وإنني لواثقٌ أنَّها تعرف الحقيقة منذ الآن، لا أدري لماذا ذهبت إليها، أنا إنسانٌ سيءٌ دنيءٌ يا دونيا!

أنت إنسانٌ سيءٌ، أنت الذي رضيت أن تعانق الأم؟ ذلك أنت تقبل الألم، أليس كذلك؟

نعم، الآن أقبله، إنني من أجل أن أتحاشى هذا العار، أردت أن أغرق نفسي يا دونيا، ولكني حين مِلت فوق مياه النهر، قلت: مادمت أعدُّ نفسي رجلاً قوياً فما ينبغي أن أتراجع أمام العار، هذه كبرياء يا دونيا، أليس كذلك؟

نعم، هي كبرياء يا روديا!

وكأن شعلةً قد عادت تتقد في عينيه المنطفئتين، كأنَّما ما يزال يسرَّهُ أن

يكون ذا كبرياء!

وسأل أخته وهو يبتسم بخبثٍ ويحدِّقُ إلى عينيها بنظرةٍ مركَّزةٍ:

قولي يا أختي، لماذا لا تظنين أن الخوف من الماء وحده هو الذي صدَّني عن الانتحار غرقاً؟

فهتفت الأخت بحرقةٍ:

كفى يا روديا!

وسادَ الصَّمت دقيقتين.

كان راسكولنيكوف جالساً خافض العينين، وكانت دونيا واقفةً عند الركن الأخر من المائدة، تتأملهُ وقد عبَّر وجهها عن ألمٍ شديدٍ، ونهض الأخ فجأةً، وقال:

تأخرت، حانت الساعة، سأمضي أشي بنفسي، ولكني لا أدري لماذا أشي بنفسي!

فانحدرت على خدي الفتاة دموعٌ حرَّى.

قال:

تبكين يا أختي؟ وإنَّما هل تقبلين أن تمدي إليَّ يدكِ؟

ردت:

هل يساورك شكٌّ في هذا؟

ثمَّ ضمته بين ذراعيها بقوةٍ، وأردفت تقول وهي ما تزال تعانقه وتقبله:

ألست تمحو نصف جريمتك حين تقبل هذا الألم؟

فصاحَ فجأةً يسألها في سورة غضبٍ شديدٍ:

جريمة؟ أيَّةُ جريمة؟ أجريمة مثل قملةٍ قذرةٍ ضارةٍ، قتل مرابيةً عجوز لا يحتاج إليها أحد، مرابيةٌ تمتصُّ دماء الفقراء؟ ألا أن قتلها يمحو أربعين خطيئةً! أنا لا أظنُّ أن هذا الفعل جريمةً، ولا أريدُ أن أتطهَّر منه، وأكفِّرَ عنهُ، ما بالكم جميعاً تكررون على مسامعي: "جريمة، جريمة"؟ نعم، إنني وقد قررت أن

أتحمل هذا العار الذي لا طائل تحتهُ، أدرك الآن مدى ما يشتمل عليه جبني من سخف، إنَّ الدناءةَ وعدم الكفاءة وحدهما هما اللتان تدفعاني إلى أن.... وربَّما أُضيفت إليها المنفعة... كما... كما كان يقترح عليَّ ذلك.... بورفيري!
صاحت دونيا وقد استولى عليها يأسٌ شديدٌ:
أخي، أخي، ما هذا الذي تقوله؟ لقد سفحت دم إنسان!.... استأنف الرَّجل كلامهُ خارجاً عن طورهِ:
دمٌ يسفحه جميع النَّاس، يجري وسيظلُّ يجري على الأرض أنهاراً.... نعم.... يهرقهُ جميع النَّاس كالشمبانيا، ومن أجلهِ يتوج بعضهم في "الكابيتول"[1]، ويسمى بطلاً أحسن إلى الإنسانية! أمعني النظر قليلاً واحكمي في الأمر! أنا قد أردت أن أصنع للبشر خيراً، وكنت مستعداًّ لأن أقوم بمئات الحسنات تعويضاً عن تلك الحماقة.... بل قولي عن تلك الخرافة البسيطة، لأن الفكرة بذاتها لم تكن حمقاء إلى الحدِّ الذي يبدو الآن، بعد أن أخفقت أنعم إنَّ كلَّ من يُخفقُ يبدو غبياً أحمق، الخلاصةَ أنني رجوتُ بهذه الحماقة أن أخلق لنفسي وضعاً مستقلاً، أن أخطو خطوةً أولى، أن أحصل على موارد، فإذا جميع الأمور تتدبَّرُ بعد ذلك على نحوٍ أكثرَ فائدةٍ (بالمقارنة مع القتل)، فائدةً لا تُقاس.... كلُّ ما هنالك أنني منذُ الخطوة الأولى قد ترنَّحتُ لأنني جبان، تلك هي الحقيقة ! غير أنني لن أنظر إلى الأمر بعيونكم أنتم: فلو قد نجحت لوضعوا على رأسي أكاليل الغار، أما الآن فأنَّهم يلقونني إلى الكلاب....
ليس هذا صحيحاً أبداً! ما هذا الذي تقوله يا أخي؟
صحيحٌ أنني لم أراعِ الأشكال، لم أراع الأشكالَ البديعة التي توجبها قواعد الجمال، ولكن هل تعتقدين حقّاً أن قذف القنابل على سكانٍ آمنين،

---

1 - القصد معبد الكابيتول في روما القديمة، حيث كانت تعقد جلسات مجلس الشيوخ. وقد أنعم فيه على القائد العسكري الروماني يوليس قيصر بلقب الكاهن الأكبر والخطيب العسكري اثر عودته إلى روما بعد إن فتك رحمة بقراصنة البحر.

وإنهاكهم بحصارٍ منتظم، أكثر مراعاةً للأشكال البديعة، وأكثر تقيداً بقواعد الجمال؟ ثمَّ إن الاهتمام بقواعد الجمال أول علائم العجز... إنني لم أحسُّ هذه الحقيقةَ في أحد الأيام كما أحسها الآن، ولا عجزت في أحد الأيام عن أن أفهم ما هي جريمتي كما عجزتُ عن هذا الآن! لم أكن يوماً أشدُّ قناعةً، وأرسخ يقيناً مني في هذه اللحظة!....

قال راسكولنيكوف هذا واحمر وجههُ المخرب الشَّاحب احمراراً قانياً على حين فجأة، لكنَّهُ حين نطقَ بهذه الصَّيحة الأخيرة التقت عيناهُ مصادفةً بنظرة دونيا، فقرأ في هذه النظرة ألماً يبلغ من الشدَّة أن راسكولنيكوف لم يلبث أن ثاب إلى رشدهِ فجأةً، وسيطر على اندفاعه رغم إرادته تقريباً، لقد شعر أنَّه على كلِّ حالٍ قد أشقى امرأتين مسكينتين، إنَّه هو السَّبب مهما سبَّبَ من أمر!..... قال:

دونيا العزيزة! إذا كنت مذنباً فاغفري لي (رغم أن الغفران مستحيلٌ إذا كانتُ مذنباً)، أستودعك الله! كفى مناقشة! لقد آن الأوان حتى لقد تأخرت! لا تتبعيني، أرجوك! هناك زيارةً أخرى يجب أن أقوم بها..... وانصرفي حالاً وابقي إلى جانب أُمِّنا، أرجوك، أتضرعُ إليك! هذا آخر وأكبر رجاءٍ أتوجه به إليك، لا تتركيها لحظةً واحدةً. لقد ودعتها وهي على حالٍ من القلق لا تستطيع أن أطيقها.... فإمَّا أن تموت وإمّا أن تجن، فابقي إذاً بقربها! وسيكون روزوميخين إلى جانبكما، لقد كلفته بالأمر... لا تبكي عليَّ.... سأحاول أن أكون طوال حياتي شريفاً وشجاعاً، رغم أنني قاتل، وقد تسمعين باسمي في يومٍ من الأيام، لن ألطخ شرفكم بالعار. سوف ترين. سوف أبرهن....

والآن، إلى اللقاء. لماذا تبكين؟ لا تبكي! لا تبكي! إننا لن نفترق إلى الأبد! ها..... نعم.... انتظري.... نسيت!..... واقترب من المائدة، فتناول منها كتاباً ضخماً غشاهُ الغبار، فتحه، سحب منه صورةً صغيرةً لوجهٍ مرسومٍ بالألوان المائية على عاجٍ، كانت موجودةً بين أوراق الكتاب، إنَّها صورة بنت صاحبة

البيت، الفتاة التي ماتت بالحمَّى وكانت في الماضي خطيبتهُ وكانت تريد أن تدخل الدَّير، تأمَّل راسكولنيكوف هذا الوجه الصَّغير المعبِّر المتألِّم، ثمَّ قبَّلَ الصُّورة، ومدَّها إلى دونيا وهو يدمدم شارد الذِّهن:

كثيراً ما كلمتها هي أيضاً عن ذلك الأمر، لقد بحتُ لقلبها بكثيرٍ مما تحقق بعد ذلك تحققاً جهنمياً!

وخاطب دونيا:

لا تقلقي يا دونيا! كانت لا تؤيد آرائي أو تحبذها مثلما لا تؤيدينها أو تحبذينها أنت! وإنني لأحمد الله على أنَّها بارحت هذا العالم!

ثمَّ هتف يقول فجأةً وقد عاد إليه عذابه:

المهم، المهم أن كلَّ شيءٍ سيتغيَّر، وأنَّ الانفصال عن الماضي سيكون تامَّاً. نعم، كلُّ شيءٍ سيتغيَّر! ولكن هل أعددت نفسي لهذا؟ وهل أنا أريدهُ حقاً؟ يقال أنَّ هذه المحنة لازمةٌ لي، ولكن فيم هذه المحن السَّخيفة كلَّها؟ ما فائدتها؟ ما جدواها؟ هل سأكون أَقدَرُ على الفهم مما أنا عليه الآن، حين أصبح، بعد 20 سنة من الاعتقال، شيخاً مرهقاً أضناهُ الألم، ودمره العذاب وصار أبله معتوهاً؟ وما فائدة أن أبقى على قيد الحياة بعد ذلك؟ لماذا قبلتُ حياةً كالتي أحيى؟ آه... لقد أدركت حقاً أنني جبان رعديد حين ملت على مياه نهر "نيفا" هذا الصباح عند الفجر!

وخرج الاثنان أخيراً، كانت دونيا تتألَّمُ كثيراً، ولكنَّها كانت تحبُّ أخاها. وابتعدت. غير أنَّها ما أن سارت خمسين خطوة حتى التفتت إلى الوراء لتنظر إليه ولو مرَّةً واحدةً، كان راسكولنيكوف ما يزال يرى، وحين وصل إلى ناصية الشارع التفت هو أيضاً، فالتقت نظرتاهما آخر مرَّةٍ، لكنَّه حين لمح أنَّ أخته تنظر إليه حرَّك يده بإشارةٍ تململٍ، بل بإشارةِ غضبٍ، ليومئ لها بأنَّ عليها أن تتابع السَّير في طريقها، وأسرع يغيبُ هو أيضاً عند منعطف الشَّارع.

وحدَّث نفسه آسفاً على حركة التململِ أو الغضب التي بدرت منه: "أنا شرير!

واضحٌ أنني شرير!..... ولكن لماذا يحبونني كلَّ هذا الحب ما دمت لا أستحقه؟ آه.... لو كنت وحيداً، لو لم يكن أحدٌ يحبني، ولو كنت لم أحبَّ أحداً أبداً إذاً لما حدث شيء من ذلك كلّهُ! أودُّ لو أعرف هل سأصبح بعد خمس عشرة سنة أو عشرين سنة من الأشغال الشّاقة، هل سأصبح ذليلاً مذعناً صاغراً إلى الحدِّ الكافي الذي يجعلني أمضي إلى جميع النّاس أذرف أمامهم الدُّموع، وأعلن لهم أنني وغدٌ؟ طبعاً، هذا هو السَّبب الذي يحضهم على إرسالي إلى السِّجن، هذا هو ما يريدون.... آه ...... إنني أراهم جميعاً يأتون الشّوارع، إنَّهم جميعاً جبناء حقيرين أوغاد، والأنكى من ذلك أنَّهم جميعاً بلاء! ومع ذلك يكفي أن أحاول تماشي السِّجن حتى تثور مشاعرهم النبيلة فإذا هم مستاءون ساخطون! آه.... إنني أكرههم! أمقتهم جميعاً!" وغرق راسكولنيكوف في خواطره وتأملاته، كان يتساءل: "كيف سأنتهي شيئاً فشيئاً إلى الشعور بالمذلة أمامهم جميعاً على اقتناع مني بذلك؟ ولكن لم لا؟ لاشكَّ أنَّ الأمر سيجري هذا المجرى ألا تستطيع عشرون سنةٍ من العبودية المتَّصلة إلى بلوغ هذا الهدف؟ الماءُ يأكلُ الصَّخر، ولكن إذا صحَّ هذا، فعلامَ أحيا، علامَ أحيا؟ نعم، علام أذهب إلى هناك مع أنني أعلم منذُ الآن أن كلَّ شيءٍ سيجري على نحو ما أتنبأ، لا على أيِّ نحوٍ آخر؟" لعلَّهُ حين ألقى هذا السؤال على نفسه الآن قد ألقاه للمرةِ المائة منذ البارحة، لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار في السَّير.

# الفصل الثامن

حين دخل راسكولنيكوف على سونيا كانت الظلمة قد بدأت تنتشر، لقد انتظرته سونيا طوال النهار وهي في حالة قلقٍ رهيبٍ، انتظرته مع دونيا، إن دونيا قد جاءت إلى سونيا في الصَّباح إذ تذكرت أن سفدريجايلوف قال لها إنَّ سونيا "تعرف". لن تروي تفاصيل الحديث الذي جرى بين دونيا وسونيا، ولن نتحدث عن الدُّموع التي ذرفناها، وعن التفاهم الذي نشأ بينهما، وحسبنا أن نقول أنَّ دونيا قد خرجت من هذا اللقاء بعزاءٍ كبيرٍ، إنَّ أخاها لن يكون وحيداً، فلها، لسونيا، إنَّما أفضى بسرِّهِ، وكشف عن جريمته قبل أيِّ شخصٍ آخر، وفيها، في سونيا، إنَّما التمس إنساناً يركن إليه حين أحسَّ أنَّه في حاجةٍ إلى إنسانٍ يركن إليه، فهي التي ستتبعه إذاً أينما ترسله الأقدار، لم تلقَ دونيا أيُّ سؤالٍ عن هذا الأمر، ولكنَّها كانت تعلم أن ذلك هو ما سيحدث، حتى لقد كانت تنظر إلى سونيا بنوعٍ من التَّقديس اضطربت له سونيا في أول الأمر، وخجلت منه، وكان يبكيها، من فرطِ قوة اعتقادهِ من أنَّها أقلُّ شأناً، وأحقر قيمةً من أن ترفع عينيها إلى دونيا، إن صورة دونيا الرَّائعة الفاتنة، حين فصَّلها بكثيرٍ من الاهتمام والاحترام يوم لقائهما في بيت راسكولنيكوف، قد انحرفت عن نفسها إلى الأبد، صورةٌ من أجمل وأروع ما رأت عيناهُ في حياتها من صورٍ جميلةٍ رائعةٍ، لا يُرقى إليها.

وتقدَّمَ صبر دونيا أخيراً، فتركت سونيا لتنتظر أخاها في بيته، فقد بدا لها أنَّه سيذهب إلى هناك أولاً، فلمَّا خلت سونيا إلى نفسها عاودها الخوف الرَّهيبُ من أن يكون راسكولنيكوف قد ينتحر، وكانت دونيا، هي أيضاً، تخشى ذلك، ولكن كلّاً منهما كانت قد تقنع الأخرى بأن هذا التَّصور ليس له ما يسوِّغهُ، وأنَّ الأمر يستحيل أن يقع، استناداً إلى جميع الأدلة والحجج التي يمكن تخيلها، لهذا كانتا هادئتين إلى حدٍّ ما طيلة مدَّةِ اجتماعهما، ولكن

ما أن افترقتا حتى أصبحتا كلتاهما لا تفكر إلا بهذا ، تذكرت سونيا أنَّ سفدريجايلوف قال لها أمس أن أمام راسكولنيكوف مخرجين لا ثالث لهما : فإما سيبيريا وإما.... وكانت تعرف من جهةٍ أخرى كبرياء الشباب، واعتزازه بنفسه، وقلة عاطفته الدينية ، فكانت تتساءل يائسةً يأساً شديداً :

" هل يمكن أن يكون التخاذل والخوف من الموت كافيين وحدهما لصدِّهِ عن الانتحار، وجعله يتشبث بالحياة؟"

وكانت الشَّمس تميل إلى الغروب في أثناء ذلك، وكانت سونيا واقفةً قرب النافذة تحدِّقُ إلى الخارج حزينةً ملتاعةً، ولكن جداراً أسود من جدران منزلٍ مجاورٍ كان هو الشيءُ الوحيدُ الذي يمكن أن تراه العين من هناك، وأخيراً ، حين أصبحت على مثل اليقين بأنَّ المسكين مات، ودخل عليها راسكولنيكوف.

فانطلقت من صدر سونيا صرخةَ فرح، ولكنَّها حين تفرَّست في وجههُ ملياً اصفر وجهها فجأةً.

قال راسكولنيكوف وهو يضحكُ ضحكةً ساخرةً:

هيه سونيا! لقد جئت آخذ صليبك! ألم تأمريني أنت نفسك بأن أمضي على رؤوس الإشهاد؟ فما بالك تخافين الآن وقد قررت أن أضع ذلك موضع التنفيذ؟

نظرت سونيا إليه مذهولةً مبهوتةً، لقد بدت لها هذه اللهجة غريبة، وسرت في جسمها رعدةٌ باردةٌ، لكنَّها أدركت بعد دقيقةٍ واحدةٍ أنَّ كلَّ شيءٍ ـ اللهجة والكلمات ـ لم يكن إلا تظاهراً وتصنُّعاً لقد كان يكلمها وهو ينظر إلى ركنٍ، متهرباً من نظراتها. وأردف يقول:

اسمعي يا سونيا ، لقد وجدت مصلحتي في أن أتصرف هكذا ، إن ثمَّة ظرفاً خاصاً يجعلني.... وإنَّما الأمر طويلٌ شرحه.... ثمَّ لا قيمة للأيضاح.... ولكن هل تعلمين ما الذي يغيظني ويحنقني؟ أنني أجنُّ غضباً حين أتصوَّرُ جميع أولئك الجفاة الأغبياء الوحوش يزدحمون حولي، ويحيطون بي، ويحملقون إليَّ، وحين

أتصور جميع الأسئلة البلهاء التي سيلقونها عليَّ، التي سيكون من واجبي أن أجيب عنها ، حين أتصور جميع هؤلاء النَّاس الذين سيشيرون إلي بأصابعهم.... هه!... هل تعلمين؟ لن أذهب إلى بورفيري، لقد نكَّدني كثيراً ، بل سأذهب إلى صديقي "البارود" ، وبذلك أدهشه بعمقٍ، لاشكَّ أنني سأثير في نفسه استغراباً نادراً! ولكن ينبغي أن أكون أكثر هدوءاً ، وقد صرت في الآونة الأخيرة ثائر الأعصاب ! أتصدقين؟ منذُ قليلٍ أوشكت أن ألوِّحَ لأختي بيدي مهدداً متوعداً ، لا لشيءٍ إلا لأنَّها التفتت تلقي عليَّ نظرةً أخيرةً! آه..... أنَّه لعارٌ أن أكون في هذه الحالة العصبية! أتُراني هبطتُ إلى مثل هذا الدَّرك؟ والآن، أين الصليبان؟

لم يكن راسكولنيكوف في حالةٍ سريةٍ، كان لا يستطيع حتى أن يستقرَّ في مكانه دقيقةً ، ولا أن يركِّزَ انتباههُ على أيِّ شيءٍ، كانت أفكارهُ تختلط في أحاديثه وتتشابك وتضطرب، وكانت يداهُ ترتجفان قليلاً.

سلَّت سونيا صليبيها من الدِّرج دون أن تقول شيئاً : الصَّليب المصنوع من خشب السرو، والآخر المصنوع من نحاس، ورسمت على صدرها إشارة الصَّليب ثمَّ على صدر راسكولنيكوف، ثمَّ علقت الخشب في عنقه.

يرمز هذا أجمالاً إلى أنني أحمل صليبي.... هأ هأ هأ!.... كأنني ما تألمت ألماً كافياً حتى الآن! إن الصَّليب الخشبي هو صليبُ أبناء الشَّعب! أما الصليب النحاسي، أي صليب إليزافيتا ، فأنت تحتفظين به لنفسك، أرينيه! إذاً كانت تحمله.... في ذلك الأوان! أنا أيضاً أحمل صليبين من هذا النوع، بل صليباً من فضةٍ وأيقونةٍ صغيرةٍ رميتها في ذلك اليوم على صدر العجوز، فانظري ماذا يجب عليَّ أن أضع في عنقي اليوم! على كلِّ حالٍ.... أنا أقول سخافات، وأنسى الأمر الأساسي... أنني ذاهل .... اسمعي يا سونيا : لقد جئت لأبلغك... نعم، يجب أن تعلمي.... أنا لم أجيءَ إلا لهذا (ولقد كنت مع ذلك أقدِّرُ أن أقول أكثر مما سأقول).... اسمعي: أنت التي حضضتني على أن أفعل ما سأفعل.... سوف أنفِّذُ إرادتك فأدخل السِّجن، ولكن ما بالك تبكين أنت أيضاً؟ كفى كفى!

كفى بكاءً!! آ..... لشُدَّ ما يؤلمني هذا كلَّهُ!

غير أن حناناً ولد في قلبه، وانقبض صدره حين رأى سونيا تبكي. وتساءل: "وهذه، لماذا تتألم هذه؟ ماذا أكون بالنسبة لها؟ ما بالها تبكي؟ ما الذي يجعلها تهتمُّ بي كأنَّها أمي أو أختي؟ ما الذي يحملها على أن تصحبني إلى نهاية الشَّوط؟ آه.... سوف تكون لي بمثابةِ المربية للطفل".

تضرعت لهُ سونيا بصوتٍ خائفٍ مرتعشٍ:

ارسم إشارة الصَّليب! صلي مرَّةً واحدةً على الأقل!

إذا كان ذاك يرضيكِ، فسأفعله ما شئتِ من المرَّات! سأفعلهُ راضياً كلَّ الرِّضا يا سونيا!

والحق أن راسكولنيكوف كان يتمنى لو يقول لي شيئاً خر تماماً، وها هو ذا يرسم إشارة الصَّليب عدَّة مرَّات، وتناولت سونيا شالها، فغطت به رأسها، هو خمارٌ أخضرٌ من جوخ السِّيدات، لعلَّهُ (شال الأسرة) الذي تكلَّم عنه مارميلادوف، ومضت ومضت هذه الفكرة برأس راسكولينيكوف خلسةً، ولكنَّهُ لم يلقِ أيَّ سؤالٍ، لقد بدأ يلاحظ أنَّه أصبح ذاهلاً ذهولاً فظيعاً، وأنَّه أصبح قلقاً قلقاً رهيباً، خاف من شعورهِ هذا، وسرعان ما أدهشهُ أشدُّ الدَّهشة على حين فجأةٍ أن يرى سونيا تتهيأ لمصاحبته، صاح يقول لها غاضباً:

ماذا تفعلين؟ إلى أين أنت ذاهبة؟ ابقي! ابقي! سأذهب وحدي.

واتجه نحو الباب شبه زعلان، وتمتمَ يقول وهو يخرج:

أأنا بحاجةٍ إلى خفير؟

بقيت سونيا في وسط الغرفة، لقد أهمل حتى توديعها. نسيها منذ الآن، لأنَّ الارتياب اللاذع المتمرد غمر قلبهُ، تساءل وهو يهبط السُّلَّم: أهذا ما يجب أن أفعل حقاً؟ أليس ممكناً، أن أتريث، أن أعدل، أن أدبِّرَ الأمور..... ألا أذهب إلى هناك؟" ومع ذلك واصل سيرهُ، لقد شعرَ شعوراً حاسماً بألا جدوى من التساؤل، حتى إذا صار في الشَّارع تذكَّرَ أنَّه لم يودِّع سونيا، وأنَّها بقيت في

وسط الغرفة مع شالها الأخضر لا تجرؤ أن تتحرك مخافةَ ن تغضبهُ، فتوقف لحظةً، ولكن فكرةً واحدةً ومباغتةً وافته في تلك اللحظة نفسها، كأنَّها انتظرت هذه اللحظة نفسها لتقضي عليه. تساءل قائلاً: "لماذا ذهبت إليها؟ لقد قلت لها إنني إنما جئت إليها تنفيذاً لمهمةٍ يجبُ عليَّ أن أقوم بها؟ ما هي تلك المهمة؟ ليس هناك أيَّةُ مهمَّةٍ تدفعني إلى زيارتها! إلَّا إبلاغها أنني ذاهبٌ إلى هناك؟ أكان هذا ضرورياً؟ أتراني أُحبُّها! لا، لا، غير معقول!.... ألم أدفعها عني منذ لحظةٍ كما يدفع كلب؟ هل صليبها إذاً هو ما كنت في حاجةٍ إليه؟ آه ..... إلى أيِّ دركٍ من الدَّناءةِ قد هبطت! لا، لا، وإنَّما أنا كنت في حاجةٍ إلى دموعها، كنت بحاجةٍ أن أرى رعبها وذعرها، كنت بحاجةٍ إلى أن أتشبث بشيءٍ ما، إلى أن أكسبَ وقتاً، إلى أن أتأمَّلَ إنساناً! هذا ما كنت أحتاجُ إليه، ومع ذلك تجرأتُ في يومٍ ما فتخيلت أنَّ مصيراً عظيماً يناديني إليه، واعتمدتُ على نفسي فأقدمت على أمورٍ كتلك الأمور، أنا الذي لست إلا إنساناً حقيراً تافهاً، وغداً، وغداً!" كان يسير على طول رصيف القناة، لم يبق بينه وبين الوصول إلا مسافةً قصيرةً، لكنَّهُ حين وصلَ إلى الجسر توقف للحظةٍ، ثمَّ ما لبث أن مضى يعبر الجسر، فنأى بذلك عن طريقهِ، واتَّجهَ نحو سوق العلف.

كان ينظر يمنه ويسره بشراهةٍ، ويحاول أن يتفحص كلَّ شيءٍ متمنِّعاً، لكنَّ انتباهه لم يستطيع أن يتركز على أيِّ شيءٍ من هذه الأشياء، فكلُّ شيءٍ يتهرَّبُ منه ويغيبُ عنه، وخطرت بباله خاطرة، وحدَّثَ نفسه قائلاً: "بعد شهر، بعد أسبوع، سيعبرون بي هذا الجسر ماضين بي إلى مكانٍ ما على عربةٍ مساجين، فأيَّةُ نظرةٍ أُلقي على هذه القناة يوم ذاك؟ سأتذكر أنني رأيتها على نحو ما أراها الآن؟ وهذه اللافتة؟ كيف سأقرأ عندئذٍ أحرفها؟ هذه كلمة "شراكة، فهل سأتذكر هذه "الشين"، هل سأتذكر حرف "الشين" هذا؟ وإذا تلبثت عيناي بعد شهرٍ على الحرف نفسهُ فهل سأنظر إليهِ كما أنظر إليه الآن؟

نعم ما عسى تكون إحساساً وأفكاري حينذاك، أوه...... ما أتفه وما أسخف هذه.... المشاغل!..... لاشكَّ أنَّ هذا أمرٌ غريبٌ.... (هأ هأ هأ ماذا أيضاً) إنني أرجع إلى الطفولة، فأصطنعُ أوضاعاً انظر إليها وأعتزُّ بها، ولكن لا، لماذا أخجل من نفسي؟ أوه... ما أكثر التَّزاحم والتَّصادم في هذا المكان! هذا هو، الرَّجل اللَّحيم ذاك.... لا شكَّ أنَّه ألماني.... هو الذي صدمني ودفعني، فهل يعلم من هو الذي صدمه؟ وهذه المرأة العجوز التي تجرُّ طفلاً، وتستجديني صدقةً، من المضحك أنَّها تظنني أسعد منها، طيب..... على كلِّ حالٍ... عليَّ أن أنفحها صدقة، هكذا من باب اللعب، على سبيل العبث... هوه! بقي في جيبي خمسة كوبيكات! ترى من أين وكيف؟"

وقال راسكولنيكوف يخاطب المتسولة:

خذي، خذي، أيتها الأم الطيبة!

فقالت المتسولة بصوتٍ ينوح:

الله يحميك!

ودخل راسكولنيكوف سوق العلف، كان يشعرُ من ملامسة كوعيه لذلك العدد الكبير من النَّاس، كان يشعر بإحساسٍ مزعجٍ كريهٍ أليم، ولكن هذا لم يمنعه من الاتجاه إلى حيثُ يحتشدُ أكثفُ احتشاد، كان مستعدَّاً لأن يضحي بكلِّ شيءٍ لكي يخلو إلى نفسه، ولكنَّهُ كان يحسُّ إحساساً واضحاً بأنَّه لن يستطيع احتمال العزلة ولو دقيقةً واحدةً، هذا رجلٌ سكران يصخب ويعربد: إنَّه يحاول أن يرقص، ولكنَّهُ كلَّما جرى حركة سقطٍ منبطحاً على بطنه، واجتمعت حوله جمهرةٌ من النَّاس، شقَّ راسكولنيكوف لنفسه طريقاً بين الحشد، ونظر إلى السَّكران بضعَ لحظاتٍ، فإذا هو ينطلق ضاحكاً ضحكةً قصيرةً متقطعةً، ثمَّ ما إن مضت دقيقةً حتى كان قد نسي الرَّجل، وحتى أصبح لا يراه، رغم أنَّ عينيه كانت ما تزالان مركزتين عليه، وانصرف أخيرا عن المكان الذي كان فيه، حتى دون أن يشعر بأنَّه ينصرف، ولكنَّهُ

حين وصل إلى وسط الميدان حدث في فكرهِ شيء، واستولى عليه إحساسٌ قويٌّ مباغتٌ، فسرى في ذهنه وجسمه، لقد عاودته أقوال سونيا فجأةً: "إذهب إلى أحد الميادين، فسلِّم على الشَّعب، وقبِّل الأرض لأنَّكَ أثِمتَ في حقِّها أيضاً، وقل بصوتٍ جهوري حتى يسمعك كلُّ النَّاس: إنني قاتل"

فما أن دارت في وعيه هذه العبارات حتى راح يرتجف من الرَّأس إلى القدمين، إن الآلام الرَّهيبة والتباريح الفظيعة التي عاناها في الأيام السَّابقة، ولاسيَّما في السَّاعات الأخيرة، قد بلغت من إرهاقه أن استسلم استسلاماً كاملاً لهذا الإحساس الجديد الشَّامل، اعتراه نوعٌ من نوبة عصبية، إنَّ شرارةً قد انبعثت في نفسه، فأشعلتها دفعةً واحدةً، ثمَّ استولى عليه حنانٌ واسعٌ كأنَّ كلَّ كيانَّهُ قد لان في الحال، فسالت دموعه على خديه، وتهالك على الأرض حيث كان.....

ركع في وسط الميدان، ثمَّ سجدَ، فقبَّل الأرض الموحلة منتشياً ثملاً سعيداً، ونهض ثمَّ سجد مرَّةً أُخرى.

قال فتى على مقربة منه:

هيه! كم من سكران!

وضجَّ النَّاسُ من حوله بضحكٍ صاخبٍ، وأضاف بائعٌ صغيرٌ ثملٌ نوعاً ما:

لاشكَّ أنَّهُ مسافرٌ إلى القدس يا أصحابي، فهو يودع أولادهُ، ووطنهُ، ويسلِّم على النَّاس جميعاً، ويهبُ قلبهُ أخيراً للعاصمة الكبرى سان بطرسبورغ، ولأرضها.

وقال ثالث:

ما يزال في مقتبل العمر!

وعقب رابعٌ بصوتٍ حاسمٍ:

وهو ابن أسرةٍ كريمةٍ.

وأضاف خامس:

أصبح المرء لا يميِّزُ بين أبناء الأسر الكريمة، وبين من ليسوا من ليسوا هؤلاء،

هذه التعليقات المتفكِّهة أوقفت على شفتي راسكولنيكوف كلمتي : "أنا قاتل" اللتين لعلَّهما كانتا توشكان أن تخرجا من فمه، ومع ذلك تحمَّل هذا الصَّخبَ كلَّهُ بكثيرٍ من الهدوء، ومضى يسير في شارعٍ صغيرٍ يؤدي إلى قسم الشُّرطة، دون أن يلتفت إلى وراء، وفيما كان يمشي عرضت لعينيه صورة، ولكنَّهُ لم يدهش، فإنَّه كان قد تنبأ بأنَّ هذا ما سيحدث، إنَّهُ حين سجد في سوق العلف ركعة ثانية، قد التفت يسرةً، فلمح سونيا على مسافة خمسين خطوة، كانت لحرصها على ألَّا يراها قد اختبأت وراء كوخٍ خشبيٍّ كان قائماً في الميدان، وإذ قد تبعته إلى "الرَّابية التي يعلوها صاحبه! في تلك اللحظة أحسَّ راسكولنيكوف وأدرك أنَّ سونيا سوف تكون معه إلى الأبد، وأنَّها ستتبعه ولو إلى أماكنٍ تكون خطرة، فاضطرب من ذلك قلبهُ.... ولكن ها هو ذا يصل إلى المكان المحتوم.

ودخل فناء المبنى بخطى جازمةٍ ثابتةٍ، كان عليه أن يصعد إلى الطابق الثاني، قال لنفسه: "من هنا إلى أن أصير فوق...." وبدا له أنَّ هناك زماناً سينقظى قبل أن يصل إلى فوق، وأنَّ أفكاراً كثيرةً ما يزال يمكن أن توافيه، وأنَّ الظلمة الحاسمة ما تزال بعيدة.

السُّلَّم مملوءٌ بالأقذار نفسها والقشور والأبواب مفتوحةٌ على مصارعيها كما كانت في المرَّةِ الماضية، وما تزال المطابخ تفوحُ منها رائحةُ العفونة والدُّخان، إنَّ راسكولنيكوف لم يرجع إلى هذا المكان بعدَ زيارتهُ الأولى لهُ.

كانت ساقاهُ خدرتين، وكانتا تترنحان، ولكنَّهُ ظلَّ يتقدَّمُ، وتوقَّفَ لحظةً ليرتاح، ويستعيد رباطةَ جأشهِ، لكي يظهر كما يحبُّ أيُّ إنسانٍ، إنَّما لم يلبث أن أدرك ما يقوم به من جهدٍ فتساءل: "ولكن لماذا؟ ما مآل هذا ما دام وجب عليَّ أن أشربَ الكأس حتى آخر قطرةٍ، فما قيمة الطريقة؟ بالعكس.... فكلَّما كنت منفِّراً باعثاً على الاشمئزاز كان ذلك أفضل!" وفي تلك اللحظة تراءت لعينيه صورة إيليا بتروفتش، الملازم "بارود". فتساءل: أيجب حقاً أن أذهب

اليـه هـو؟ ألا يمكـن أن أتوجَّـهَ إلى شـخصٍ آخـر؟ ولمَ لا أتَّجـهُ إلى نيكـوديم فوفتش؟ وماذا لـو عـدتُ أدراجـي، فـذهبتُ إلى مفوضـي الشُّـرطة ألقـاه في بيتـه؟ ميِّزةُ هذه الطريقـة، علـى الأقـل، أن الأمـور تجـري عندئـذٍ في جـوٍّ أُسـري!.... لا، لا، بل أتَّجهُ إلى "بارود"، إلى الملازم "بارود"! مادام يجب عليَّ أن أشرب الكأس فلأشربها دفعةً واحدةً!

فتح باب المكتب متجمِّداً لا يكاد يعي ما يفعل، في هذه المرَّة لم يكـن ثمَّةَ إلا قليـلٌ جـدَّاً مـن النَّـاس، لا أحـد إلا بـوَّابٌ ورجـلٌ مـن الشَّـعب ينتظـران، شـرطيٌّ الحراسـة وراء شـباكه لم يحـرك سـاكناً، بـل ولم يرفـع عينيـه، مـرَّ راسكولنيكوف إلى الغرفة المجاورة، وحدَّثَ نفسه: "لعلَّني مازلت أستطيع ألا أقول شيئاً." هـذا كاتب مـن القسـم يرتـدي سترةً رسميـةً قـد مـال علـى مكتبـه يكتب شيئاً ما، وهذا كاتبٌ آخرٌ مستقرٌّ في ركـنٍ، ليس راميوتـوف هنـاك، ولا نيكوديم فومتش طبعاً.

سأل راسكولنيكوف للشخص الماثل على مكتبه:

ألا يوجد أحد؟

من تريد؟

هنا انفجر صوتٌ معروفٌ:

آ....... آ..... آ....... لا حاجـة إلى أُذنـين، ولا إلى عيـنين... عزيزتـي أنبـأتني بوجـود رجلٍ "رآسي" ..... كما تقول الحكاية، تحياتي واحترامي.

أخذ راسكولنيكوف يرتجف، إنَّ الملازم "بارود" الذي انبثق من غرفةٍ مجاورةٍ ثالثة يقف الآن أمامهُ: حدَّثَ راسكولنيكوف ذاته: "هذه هي الأقدار، لماذا هـو هنا؟

وعـاد إيليـا بتروفـتش يصـيح، وكـان واضـحاً أنَّـه مشـرقُ المـزاج، بـل ومهتـاج الأعصاب قليلاً.

أأنت عندنا؟ ما المشكلة؟ إذا كنت آتياً لعملٍ، فالوقتُ مبكِّرٌ جداً. أنـا نفسـي

إنَّما.... بمحض الصدفة!، على كلِّ حالٍ، إذا كنت أستطيع..... أعترفُ بهذا لك.... نعم..... كيف..... كيف أنت..... معذرةً......

أنا راسكولنيكوف

طبعاً، طبعاً راسكولنيكوف! أتخيلتَ ولو للحظةٍ واحدةٍ، أنني نسيت؟!..... أرجوك، لا تصدقني إذا..... يا روديون رو..... رو..... روديونتش، أليس كذلك؟

روديون رومانوفتش.

نعم، نعم، نعم، روديون رومانوفتش! روديون رومانوفتش! ذلك هو الاسم الذي كنت أحاول تذكُّرهُ! لقد سألت عن أخبارك مراراً! لقد أسفت حقاً منذ ذلك الزَّمن -أعترف لك بذلك -للطريقة التي تصرفنا بها معك في ذلك اليوم، وقد ذكروا لي فيما بعد .... لقد علمتُ فيما بعد أنَّكَ شابٌّ أديبٌ، بل وعالم.... وأنَّكَ تخطو خطواتك الأولى إن صحَّ التعبير يا رب!.... أيُّ أديبٍ وأيُّ عالمٍ لا يقوم بأمورٍ فيها شيءٌ من الشُّذوذ والتفرُّد في بداية حياتهِ الأدبيَّة أو العلميَّة؟ إننا، أنا وزوجتي، نعشقُ الأدب، حتى إن امرأتي تبلغ في ذلك حدَّ الوله!..... الأدب والفن! قد يكونُ المرءُ نبيلَ الأرومة، كريمَ المشرَب، ولكنَّ الهامَّ هو ما ينالهُ بالموهبة، بالعلم، بالعقل، بالعبقريَّة! ما قيمة قبعتهِ مثلاً؟ القبعة قرصٌ أستطيع أن أشتريه من محلِّ تسيرمان، أما ما هو تحت القبَّعة، أما ما تغطيهِ القبَّعة، فذلك لا أستطيع أن أشتريه!.... أعترف لك بأنني قد نسيت أن أذهب إليكِ، لاعتذر لك، ولكني قدَّرتُ أنَّكَ قد .... بالمناسبة: أنا لم أسألك ما هو الغرض من زيارتك الآن! وصلت أسرتك، أليس كذلك؟

نعم، أمِي وأختي.

لقد شرَّفت وسعدِّتَ بلقاء أختك، أنَّها فتاةٌ مثقفةٌ رائعةٌ اعترف لك بأنني آسفٌ لاندفاعنا أنا وأنت..... كانت قصةٌ مؤسفةٌ! ولكن لئن نظرت إليكَ نظرةَ اشتباهِ عند إغمائِكَ، فإنَّ أسباب هذا الإغماء قد ظهرت بعد ذلك واضحةً! لقد كان ذلك مني نزقاً وتعصباً لا أكثر، إنني أفهم استياءك وتعصُّبُكَ، وصل أهلك....

لا. أليس كذلك؟ ........

لا..... لا...... وأنا جئتك لأسألك.... لقد كنت أتصور أنني سأجد زاميوتوف.

ها.... نعم...... أصبحتما صديقين.... سمعت عن هذا! ولكن زاميوتوف تركنا، فلن تجدهُ بعد اليوم هنا! نعم، لقد فقدنا.... منذ أمس! قدَّمَ استقالتهُ، حتى أنَّه عند انصرافهِ قد بادلنا جميعاً كلماتً خشنةً، نعم..... مضى في قلَّةِ التَّهذيب إلى ذلك الحد..... إنَّهُ صبيٌّ، إنَّهُ صبيٌّ، إنَّهُ طائشٌ! صحيحٌ أن آمالاً كانت تُعقدُ عليهِ، ولكن كيف السَّبيلُ إلى الاتكال على شبابنا اللامع هذا؟ إنَّهُ يريدُ، فيما يبدو، أن يتقدم إلى امتحان مسبقٍ، ولكنَّهُ لا يحاول أن يزيد على الثرثرة والمفاخرة! ذلك هو امتحان المسابقة الذي يريد أن يدخلهُ! ليس هو مثلك، أو مثل صديقك رازوميخين.... فإنَّكَ أنت قد اعتنقت رسالة العلم، وما من إخفاقٍ يمكن أن يحرفك عنها، جميع مباهجِ الحياةِ هي في نظرك أنت باطل..... nihil [1]، أليس كذلك؟ أنت، أنت رجلٌ زاهدٌ متقشِّفٌ، أنت راهبٌ، أنت ناسكٌ، المهمُّ في نظرك أنت إنَّما هو القلم وراء الأُذن، وإنَّما هو البحث العلمي. نعم، ذلك هو في نظرك الشيء ال...... وأنا أيضاً، إلى حدٍّ ما.... هل قرأت "مذكرات" ليفنجستون؟

لا!

أما أنا فقد قرأتها، ثمَّ إنَّ عدد الذين يعتنقون المذهب العدمي قد ازداد في هذه الأيام كثيراً، وذلك أمرٌ يفهمهُ المرءُ حقّاً، في أيِّ عصرٍ نعيش نحن؟ أنني ألقي عليك ذلك السُّؤال! ولكن ما بالي أحدِّثُكَ أنت..... أنت لست من معتنقي المذهب العدمي، أليس كذلك؟ أجبني بصراحة، بصراحة.

لا، نعم، لا تتحرج، كلمني كما لو كنت تكلِّمُ نفسك. العمل شيء والـ .... كنت تظنُّ أنني سأقول:

---

1 - عدم.– باللاتينية في الاصل.

الصَّداقة، أليس كذلك؟ إذاً لقد أخطأ ظنَّك، ليست الصَّداقة هي ما أردت أن أشـير إليـه، وإنَّمـا أردت أن أشـيرَ إلى عاطفـة الإنسـان والمـواطن، إلى العاطفـة الإنسـانيَّة، وكـذلك إلى الحـبِّ الـذي يحملـهُ المـرء للعلـيِّ القـدير، صـحيحٌ أنـني موظفُ حكومة، صحيح أنني شخصٌ رسميٌّ، ولكن هذا لا يمنعني من أن أشعر دائماً بأنني مواطن، بأنني إنسـان، وأن أحسـب حسـاب ذلـك، إليك هـذا المثال: لقد تكلَّمتَ أنتَ عن زاميوتوف، ولكن هذا الأخير شخصٌ يثيرُ جلبةً وضوضاءً، "على الطريقة الفرنسية"، في أسوأ الأحوال سمعةً، لا لشيءٍ إلا لأنَّه شرب كأس شمبانيا أو حتى كأساً من نبيذ الدَّون.... نعم، ذلك هو صاحبك زاميوتوف! أما أنا فإنني أحترق نشاطاً وحماسةً إن صحَّ التعبير.

العواطف الكبيرة تلهبني، ثمَّ إنني أملك رتبةً، وأشغل منصباً، وأنا متزوجٌ، ولي أولادٌ وأقوم بالواجب الذي يقع على عاتق إنسان ومواطن، أما هو فهلا قلت لي ما الذي يعمله؟ أنني أحدثك حديثك إلى رجل صقلته الثقافة وسمت به. إليك هذا المثال أيضاً: لقد تكاثرت القابلات في أيامنا تكاثراً تجاوز الحدود.

نظـر إليـه راسـكولنيكوف مبهوتـاً. إن جميـع الكلمـات الـتي قالهـا إيليـا بتروفتش - واضحٌ أنَّه كان قد نهض عن المائدة منذ قليل - قد رنت في أُذُنيه رنين كلماتٍ لا معنى لها، ومع ذلك فهم جزءٌ على نحو ما استطاع، وألقى على إيليا بتروفتش نظرةً مستفهمةً، وهو لا يدري كيف سينتهي هذا كلَّهُ، تابع إيليا بتروفتش الذي لا ينضب لكلامه معين، تابع كلامه فقال:

إنني أطلق هذا اللقب ـ القابلات على هاته الفتيات ذوات الشَّعر المقصوص، لأنَّه يبدو لي موافقاً جدَّاً.... هيء هيء! ...... أنَّهن يدخلن كلية الطب، ويتعلمن التشريح، ولكن قل لي: أتُراني إذا مرضت أدعو إحدى هذه الآنسات لمعالجتي؟ هيء هيء!...... انفجر إيليا بتروفتش ضاحكاً، وقد رضي عن أقواله الحسنة وكلماته الجميلة كلَّ الرِّضا!

ثمَّ تابع كلامه:

لنسلِّم بأنَّ الدَّافع إلى ذلك ظمأهُ إلى التعلُّم والثقافة الذي لا يرتوي، ولكن يخيَّلُ إليَّ أنَّ على الإنسان، متى تعلَّم، أن يتوقف، أن يكف.... فلِمَ الإسراف والإفراط؟ لماذا تهان شخصياتٌ نبيلةٌ، كما يفعل ذلك الرَّجل التافه زاميوتوف؟ أشخصٌ مثلهُ يهينني أنا؟... ثمَّ تلك الإنتحارات التي تتكاثر؟ حتى لا تتصور ما أكثر عددها!.... يأكل أحدهم آخر قرشٍ ثمَّ ينتحر! بنات، شباب، شيوخ!... إليك هذا المثال: في هذا الصَّباح نفسهُ، أبلغنا...... أنَّ سيِّداً كان قد وصل إلى هذه المدينة منذُ مدَّةٍ قصيرةٍ..... هيه!.... نيل بافلتش..... يا نيل بافلتش..... ما اسم ذلك السيد الذي أبلغ عنه..... أطلق على رأسه رصاصة عند ضفة النهر.... أقصد عند الضِّفة الأخرى من نهر نيفا؟

أجاب صوتٌ أبح غيرَ مكترثٍ، صوتُ رجلٍ في الغرفة الأخرى،

اسمه سفدريجايلوف.

فارتجف راسكولنيكوف، وصاح يسأل:

سفدريجايلوف؟ سفدريجايلوف أطلق على رأسه رصاصة؟

هل تعرف أنت سفدريجايلوف؟

نعم ...... أ..... أعرفه..... لقد وصل في الآونة الأخيرة فعلاً!

نعم، في الآونة الأخيرة.... كانت زوجته قد ماتت منذ حين ..... ثمَّ إنَّ هذا الرَّجل الذي كان ماجناً فاسقاً قد أطلق على رأسه رصاصةً من مسدسٍ فجأةً وقد فعل ذلك، في ظروف فاضحةٍ يستحي المرء حتى أن... لقد ترك بضع كلماتٍ في دفتره قائلاً أنَّه يموت مالكاً كلَّ عقلهُ فما ينبغي اتهام أحد بقتله، يقال أنَّه كان يملك ثروةً طائلةً، ولكن كيف عرفته؟

تعرفت ..... تعرفت عليه.... لأن أختي كانت تعمل معلمة أولاده في منزلهم.

هه.... هه ..... إذاً تستطيع إمدادنا بمعلوماتٍ عنهُ، ألست تفترض شيئاً ما؟

رأيته أمس.... وكان.... يشرب خمراً..... ولم أطَّلع على شيء ..... كان راسكولنيكوف يحسُّ أنَّ حملاً ثقيلاً جثم على صدره يسحقهُ سحقاً.

لكأنَّ نَفَسَهُ عادَ يصفُرُ من جديد، لا شكَّ أنَّ الجوَّ هنا خانق.....

تمتم راسكولنيكوف:

آن لي أن انصرف، اغفر لي إزعاجك.....

ولكنَّكَ لم تزعجني البتة! أنا في خدمتك! ثمَّ أنَّك قد سررتني، ويسعدني جدَّاً أن أقول لك .....

ومدَّ إيليا بتروفتش إليه يده.

جمجم راسكولنيكوف:

كنت أريد.... فقط.... أن ..... أن..... أرى زاميوتوف......

فهمت، فهمت، ولكنَّكَ مع ذلك قد سررتني بلقائك....

قال راسكولنيكوف محاولاً أن يبتسم:

أنا سعدتٌّ بلقائك.... استودعك الله

وخرج مترنحاً، كان يشعر بدوارٍ فلا يكادُ يدري أهو ما يزال منتصباً على ساقيه، وأخذ يهبط السلَّم، متكئاً بيدهِ اليمنى على الحائط، تراءى له أنَّ بوَّاباً في يده سجلٌّ قد صدمه ليدخل إلى قسم الشُّرطة، وأنَّ كلباً كان ينبح في مكانٍ ما، وأنَّ امرأةً كانت تضربهُ بعصا لتسكتَهُ. فلمَّا بلغ أسفل السُّلَّم دخل الفناء.

كانت سونيا واقفةً في الخارج، غير بعيدٍ عن الباب، صفراء كصفرة الموتى، تنظر إليه مروعةً متقلبةَ السِّحنة، وقف أمامها، فتخشَّبت قسمات وجهها على ألمٍ شديدٍ، وعذابٍ فضيعٍ، وباعدت بين ذراعيها بحركةٍ تعبِّرُ عن يأسٍ وارتسمت على شفتيه ابتسامةُ تيهٍ وشرودٍ بشعةٍ.

توقف راسكولنيكوف لحظة، فابتسم بمرارةٍ، ثمَّ قفل راجعاً إلى المكتب الذي بارحه منذ قليل.

كان إيليا بتروفتش جالساً ينقِّبُ بين أوراقه، وقد وقف أمامه ذلك الشَّخص نفسه الذي صدم راسكولنيكوف منذُ برهةٍ في أثناء صعودهِ السُّلَّم.

فما أن رآه إيليا بتروفتش حتى صاح يسألهُ:

أهذا أنت أيضاً؟ هل نسيت شيئاً ما؟ ولكن ماذا بك؟ ماذا أصابك؟

مضى راسكولنيكوف نحوهُ بطيئاً، أبيض الشّفتين، جامد النظرة، واقترب من المائدة، فأسند إليها إحدى يديه، وأراد أن يقول شيئاً ما، ولكنَّه لم يستطع ذلك، لم تُسمع منه إلا جمجماتٍ لا تبيِّنُ عن شيءٍ.

هتف إيليا بتروفتش:

ماذا بك؟ أتشعر بدوارٍ؟ هاتوا كرسيَّاً، بسرعة! خذ، إجلس، إجلس هنا، هاتوا ماءً!

تهالك راسكولنيكوف على الكرسيِّ الذي قُدِّمَ له، ولكنَّهُ لم يحوِّل بصرهُ عن وجه إيليا بتروفتش الذي دهش من ذلك كثيراً، وظلَّ الاثنان خلال دقيقة ينظر كلٌّ منهما إلى الأخر وينتظر مجيء الماء.

بدأ راسكولنيكوف:

أنا الذي ......

أشربُ جرعة ماء!

أبعد راسكولنيكوف الكأس عنه بإحدى يديه، وقال بصوتٍ خافتٍ لكنَّهُ واضحٌ متميز، مع وقفات بين الكلمات:

أنا الذي قتلت، بضربات فأسٍ، العجوز التي تعترض على رهن، وأختها إليزافيتا، وأنا الذي سرقتهما.

لبث إيليا بتروفتش فاغرَ الفم، وهرع ناسٌ من كلِّ جهةٍ، وأعاد راسكولنيكوف الأداء بإفادته.

# الخـــاتمــــــة

## الفصل الأول

في سيبير..... على الشاطئين المقفرين لنهرٍ عريضٍ، تقوم مدينةٌ هي أحد المراكز الحكومة بروسيا، في هذه المدينة قلعة، في القلعة سجن، وفي هذا السِّجن حبس، منذ تسعة شهور السَّجينُ المدان بالأشغال الشَّاقة من الشَّريحةِ الثانية، روديون راسكولنيكوف، الذي مرَّ حوالي سنة ونصف على ارتكابه جريمة.

سارت أصول المحاكمة من غير مصاعب، كرَّرَ الجاني إفادته بثباتٍ ووضوحٍ ودقةٍ، لم تشوش الظروف أقواله، ولم يسعى إلى تخفيف الشُّروط التي تمَّت فيها الجريمة، ولا هو لَخبَطَ الواقعات، أو استبعد منها شيئاً، حكى بأدقِّ التفصيلات، حكى بالتفصيل نشأةَ وتطور جرمه - وأوضح سرَّ الرَّهن - اللوح الصغير بشريطٍ معدني، الذي كان بيدي العجوز القتيل، وروى بدقَّةٍ تامةٍ كيف أخذ من العجوز مفاتيحها، ووصف هذا المفاتيح، ووصف الصندوق، وأيضاً وأيضاً وعدَّدَ بعض الأشياء التي كان يضمُّها الصِّندوق، وأوضح أيضاً سرَّ مقتل اليزابيتا، وروى كيف جاء كوخ فقرعَ الباب، وكيف جاء بعدهُ الطالب، وذكر الأقوال التي تبادلاها كلاهما، وسرد كيف أنَّه، هو القاتل، قد هرب راكضاً على السلَّم، فسمع هنالك صرخات نيقولاي ودمتري، فاختبأ في الشقة الخالية، ثمَّ عاد إلى بيته، وختم ذلك كلَّهُ بأن عين صخرةٍ موجودةٍ في فناء أحد المنازل بشارع فوزنيسنسكايا، قرب باب الفناء، حيث عُثر على الأشياء والمحفظة المسروقة، الخلاصة أنَّ جميع الأمور قد اتضحت، فلم يبق منها في الظلِّ شيء، وقد دهش المحققون والقضاة دهشةً خاصةً إذ علموا أن

الجاني قد أخفى الأشياء والمحفظة تحت صخرة دون أن يحاول استغلالها أو التصرف بها، وأنَّه لا يتذكر جميع الأشياء التي سرقها تذكُّراً صحيحاً، حتى لقد أخطأ بعددها، أما قوله أنَّه لم يفتح المحفظة إلا مرَّةً واحدةً، بل ويجهل المبلغ الذي تحتويه، فقد بدا لهم أمراً غير معقول ( وقد تبين أنَّ المحفظة كانت تضمُّ ثلاثمائة وسبعة عشر روبلاً وثلاث قطع من فئة العشرين كوبيكاً، كما أنَّ الأوراق الماليَّة التي كانت فوق، وهي أكبرها، قد ساءت حالها لطول بقائها تحت الصَّخرة)، وقد أنفق المحققون والقضاة وقتاً طويلاً كي يعرفوا سبب كذب المتهم في هذه النقطة، مع أنَّه في سائر النقاط قد اعترف بالحقائق بصراحةٍ ومن تلقاء نفسه، ولكنَّ بعضهم (ولاسيَّما علماء النفس) سلَّموا بأنَّ من الممكن ألا يكون قد نظر في المحفظة فعلاً، وأن يكون قد أخفاها تحت الصَّخرة دون أن يعرف ما تحويه، غير أنَّ هؤلاء أسرعوا يستنتجون من ذلك أنَّ الجريمة لا يمكن أن تكون قد ارتكبت إلا في نوبة جنونٍ طارئةٍ، أي في لحظة "مونومانيا" القتل والسَّرقة، دون أهدافٍ بعيدةٍ ودون حساباتٍ منفعةٍ، واستشهدوا على ذلك بالنظرية الرَّائجة عن الجنون المؤقت، وهي النظرية التي يحاول بعضهم في كثير من الأحيان أن يطبقها على بعض الجرائم في هذه الأيام، ثمَّ إنَّ حالة الوسواس المزمن التي كان عليها راسكولنيكوف منذ مدَّةٍ طويلةٍ قد شهد بها عدَّةُ شهودٍ، جازمين قاطعين، فمن هؤلاء: الدِّكتور زوسيموف صديقه القديم، ورفاقه القدامى، وصاحبة البيت الذي كان يقطنه، والخدم. ذلك كلُّهُ ساهم كثيراً في تعزيز الفكرة القائلة بأنَّ راسكولنيكوف ليس بينه وبين مجرمٍ عاديٍّ، قاتلٌ أو سارقٌ، أيُّ شَبَهٍ على الإطلاق، وأنَّ شأنَهُ شأنٌ آخر، يختلف عن شأن المجرمين العاديين كلَّ الاختلاف، ولكنَّ الجاني نفسهُ لم يحاول أن يدافع عن نفسه، وذلك ما أسف له القائلون بتلك النظرية أشدُّ الأسف، حتى إذا ألقي عليهِ السُّؤال الأخير عن السَّبب الذي دفعه إلى القتل والسَّرقة، أعلن بوضوحٍ تامٍّ ودقَّةٍ فظَّةٍ أن فقره

وعجـزه عـن الخـروج منـه، ورغبتـه ـ في تـأمين خطواتـه الأولى ـ في الحيـاة، بمعونـة ثلاثة آلاف روبلٍ كـان يأمل أن يجدها عنـد العجـوز، أمـا القتـل فـأنّـه عـزم عليـه بسـبب طبعـه الطّـائش والضّـعيف والـذي هيجتّـهُ، زيـادةً علـى ذلـك، بلايـاه وإخفاقاتـه، ولمّـا سـئل عـن الـدّافع الـذي حـدا بـه إلى الوشـاية بنفسـهِ والاعـتراف بجريمتهِ من تلقاء نفسه، أجاب قاطعاً بأنَّ ذلك ندمٌ صادقٌ وتوبةٌ مخلصةٌ.

وكـان كلامـه لا يشـتمل علـى كـثيرٍ مـن الرّهافـةِ، بـل كـان فيـه غلظـةً وفظاظةً!....

ومع هذا جاء الحكم أرحم مما كان يمكـن توقعـه ـ في جريمـةٍ كهـذهٍ، وربّمـا كـان مردُّ ذلك إلى أنَّ الجاني لم يحاول أن يسوِّغَ نفسـهُ، حتـى لقـد أظهـر رغبـةً ـ في تأكيـد اتهـام نفسـه، ولقـد نظـر بعـين الاعتبـار إلى جميـع الظـروف العجيبـة الخاصَّة التي لابست القضية، من ذلك أنَّ حالة المرض والعـوزِ الـتي كـان عليهـا المـتهم قبـل تنفيـذ جريمتـهِ لم توضـع موضـع الشّـك، كمـا أنَّ عـدم اسـتفادتِ الجاني من المسروقات، قـد نُسـب إلى النّـدم وعذاب الضّـمير تـارةً، ونُسـب تـارةً أخرى إلى حالة قواه العقليَّة التي لم تكـن سـليمةٌ البتَّـة عنـد ارتكـاب الجريمـة.

وكـان مقتـل اليزابيتـا، دون عمـد، مـثلاً علـى هـذا الافـتراض، ودلـيلاً يدعمـه ويؤيده، نحن ههنا إزاء رجلٍ يرتكب جريمتي قتل، ثـمَّ ينسـى أنَّ البـاب قـد ظـلَّ مفتوحاً! ذلك كلَّهُ بالإضافة إلى أن الجاني قد جاء يعترف بجريمتـهِ مـن تلقـاء نفسـهِ ـ في اللحظـة الـتي اختلطـت فيهـا الأمـور اختلاطـاً شـديداً بسـببِ الإفـادة الكاذبـة الـتي أدلى بهـا شـخصٌ مهـووسٌ خـارت عزيمتـه (نيقـولاي)، بـل وـ في اللَّحظة التي لم يكن فيها أيُّ دليلٍ واضحٍ يُدين القاتل الحقيقـي، بل ولم تبـقَ فيها أيَّةُ شبهةٍ تحومُ حولهُ، (لقد حافظ بورفيري بتروفتش على وعـدهِ وبـرَّ بعهـده تمامـاً). ذلـك كلَّـهُ قـد أسـهم ـ في حمـل المحكمـة علـى أن تسلِّم الجـاني للجـاني بظروفٍ مخففةٍ.

يضاف إلى ذلك أنَّ وقائع ـ في مصلحةِ راسكولنيكوف قد انبجست فجـأةً علـى

نحوٍ لم يكن في الحسبان البتة، فإنَّ الطالب السَّابق رازوميخين قد استطاع أن يعثر - لا يدري أحد من أين - على شهاداتٍ ثبت صدقها، بأنَّ الجاني راسكولنيكوف قد أنفق آخر ما كان يملك من موارد، في أثناء دراسته بالجامعة، على رفيقٍ فقيرٍ مصابٍ بداء السِّل، فقام بعونهِ، وسدَّ حاجتهُ وخفف عنه خلال ستة أشهرٍ كاملةٍ، حتى إذا مات رفيقه ذاك، اهتم راسكولنيكوف بأبيه، وهو شيخٌ عاجزٌ بقي وحيداً في هذه الحياة، أبعد أن كان ابنه منذ السَّنة الثالثة عشرة من عمره سنده الوحيد)، ثمَّ أدخلهُ مأوى للشيوخ، حتى إذا مات الشَّيخ هو أيضاً بعد مدَّةٍ، تكفَّلَ راسكولنيكوف بنفقات دفنه.

هذه المعلومات كلَّها كان لها أثرٌ في مصير راسكولنيكوف، وقد شهدت صاحبة البيت الذي كان يقطنه شابنا هذا الأخير ( وهي أمُّ خطيبتهِ الرَّاحلة)، شهدت من جهتها أنَّ راسكولنيكوف، حين كانوا ما يزالون يسكنون في شارع "الأربعة الأربعة" قد أنقذ، في أثناء حريقٍ، في ذات ليلةٍ، طفلين صغيرين من مسكنٍ شبت فيهِ ألسنة النَّار، حتى إنَّ صاحبنا قد أصيب في أثناء ذلك بعدتِ حروق، وقد جرى تحقيقٌ دقيقٌ في هذه الواقعة، فشهد بصدقها شهودٌ كثيرون، الخلاصة أنَّ كلَّ شيءٍ قد ساهم في حمل المحكمة على أن تصدر حكمها بحبسِ المتهم ثماني سنين مع الأشغال الشَّاقة (من الفئة الثانية) فقط، لأنَّه اعترف بجريمتهِ من تلقاء نفسه، ولأنَّ هناك ظروفاً مخففةً.

وقد مرضت أمُّ راسكولنيكوف منذ بدء النظر بالدعوى، واستطاع رازوميخين ودونيا مع ذلك أن ينقلاها إلى خارج بطرسبورغ طوال مدَّةِ المحاكمة، لقد اختار رازوميخين مدينةً قرب بطرسبورغ يصلها القطار، فكان يستطيع بهذه الطريقة أن يشهد جميع مراحل الدَّعوى وأن يرى أفدوتيا رومانوفنا مع ذلك أحياناً كثيرةً.

وكان مرض بولخير الكسندر روفنا إصابةً عصبيةً غريبةً إلى حدٍّ ما، يرافقها

نوعٌ من الجنون لدرجةٍ ما أن لم يكن كاملاً، إنَّ دونيا، حين عادت إلى البيت بعد لقاء أخيها آخر مرَّةٍ، قد وجدت أمَّها في حالةٍ بالغةٍ وهذيانٍ شديدٍ، فاتفقت مع رازوميخين في ذلك المساء على الأجوبة التي ينبغي أن يجيبَ بها بوليخيريا الكسندروفنا أي سؤال، لا في ذلك الحين ولا بعد، حتى أنَّها، على خلاف ذلك، قد تخيَّلت هي نفسها قصَّةً طويلةً لتعلِّلَ سفر ابنها هذا على حينِ غرَّةٍ، وقد مضت عليهما، وهي تبكي زيارةَ ابنها لها دموعاً، و ألمعت في هذه المناسبة، ببعض الإشارات والتلميحات، إلى أنَّها وحدها على علمٍ بظروفٍ كثيرةٍ خطيرةٍ سريَّةٍ، قائلةً: إنَّ لابنها روديا خصوماً أشداء عُتاة، فهو لذلك قد اضطر أن يغيب عن الأنظار، أما عن مستقبل ابنها فهي لا تشكُّ في أنَّه سيكون مستقبلاً لامعاً متى أمكن التغلب على بعض الظروف المعادية، حتى قد أكدت لرازوميخين أن روديا سيصبح في المستقبل "رجل دولة"، فإنَّ مقالته وموهبته الأدبية دليلٌ كافٍ، وبرهانٌ قويٌّ على ذلك، وكانت الأمُّ تقرأ المقالة وتعيد قراءتها المرَّةَ تلوى المرَّة، بل كانت تقريباً في بعض الأحيان تقرأها بصوتٍ عالٍ، وتوشك أن تنام معها في الليل، ومع ذلك لم تحاول قط أن تعرف أين يوجد روديا في ذلك الأوان، لا ولم تتساءل لماذا يبدو أنَّ من حولها يتحاشون أي حديثٍ عنهُ وكان حريَّاً بهذا أن يثير شبهاتها طبعاً)، وقد أصبح رازوميخين ودونيا يخشيان هذا الصمت الغريب من جانب بولخير الكسندروفنا آخر الأمر وعدم اكتراثها لبعض النقاط. حتى لقد كانت، مثلاً لا تشكو من أنَّها لا تتلقى أية رسالة من ابنها، مع أنَّها كانت قبل ذلك، في مدينتها الصغيرة، لا تحيى إلا على الانتظار والأمل في تلقي الأنباء الحبيب روديا بأسرع وقت ممكن. ولقد قلقت دونيا قلقاً خاصاً من هذا الأمر التفصيلي الأخير، وكان لها بمثابة إنذار، فقد تراءى لها أن أمها كانت توجس منذ الآن البلاء الرهيب الذي حلَّ بابنها، وأنَّها لا تريد أن تسألها، لخشيتها من أن تعرف شيئاً أفظع ومهما يكن من أمر، فقد كانت دونيا ترى رؤية واضحة أن بولخيريا

الكسندرفنا لا تملك قواها العقلية كاملة. وقد حدث للام مع ذلك مرتين أن وجَّهت الحديث توجيهاً ما كان للشابين أن يجيبا معه عن أسئلتها إجابةً تامةً دون أن يشير لها إلى المكان الذي يوجد فيه روديا، حتى إذا جاءت الإجابات متحفظة مشتبهة وقعت الأم في حالة حزنٍ رهيبٍ دامت مدَّةً طويلةً، وأدركت دونيا عندئذٍ صعوبة استمرار الكذب والتلفيق، وانتهت إلى هذه النتيجة، وهي أنَّ التزام الصمت التام في النقاط الحساسة أفضل وأسلم، ولكن أخذ يتضح مزيداً من الإيضاح شيئاً بعد شيء، أنَّ الأم المسكينة تشتبه في شيءٍ ما، في شيءٍ مروعٍ وفظيعٍ، وتذكرت دونيا، فيما تذكرت، بعض أقوال أخيها، ألم يقل لها أن بولخيريا الكسندروفنا سمعتها تهذي، في الليلة التي سبقت اللحظة الحاسمة من لقائهما الأخير، بعيد المشهد الذي حدث مع سفدريجايلوف؟ ألم تسمع بولخيريا الكسندريوفنا عندئذٍ بعد الأشياء، ففهمت بعض الفهم؟ وكثيراً ما أصبح يحدث، بعد بضعة أيام، بل وبضعة أشهر من صمتٍ حزين عابسٍ ودموعٍ خرساء، أن ينتاب المريضة انتعاشاً ونشاطاً هستيري، فتأخذ تتلكم عن ابنها، وعن آمالها، وعن المستقبل، متدفقةً تدفقاً سريعاً، بغير توقفٍ تقريباً!.... وكانت أخيلتها في بعض الأحيان عجيبةٌ حقّاً! فكان الشابان يتظاهران بمشاركتها آراءها مواساةً لها، وتسريةً عنها، (ولعلَّ موافقتهما هذه على آرائها لم تكن تنطلي عليها) ولكن ذلك كان لا يمنعها من متابعة كلامها المنطلق ومواصلة الحديث الثريِّ الذي لا ينضب له معين.....

وقد صدر الحكم بعد خمسة أشهرٍ من اعتراف القاتل بجريمته، وراح رازوميخين يزور راسكولنيكوف في السِّجن كلَّما أمكن ذلك، وكذلك كانت تفعل سونيا، وأزفت أخيراً ساعةُ الفراق فحلفت دونيا لأخيها على أنَّ الفراق لن يكون أبديَّاً، وأقسم رازوميخين أيضاً على ذلك، وقد ترسَّخت في دماغ رازوميخين، في ماغة الفتى الفائر المتحمس المندفع، ترسَّخت ترسخاً قوياً، فكرة المشروع الذي قام في ذهنه، وهو أن يرسي قواعد مصيره المقبل،

خلال السنين الثلاث أو الأربع التالية، فيدَّخر ولو مبلغاً قليلاً من المال ليمضي يقيم في سيبيريا، حيث الأرض الغنيَّة، وحيث الأيدي العاملة، ورؤوس الأموال قليلة، فهناك سيستقرون، بالمدينة نفسها التي سيكون فيها روديا، وهناك.... سيبدؤون جميعاً حياةً جديدةً!

وبكى الجميع في ساعة الفراق، كان راسكولنيكوف، خلال الأيام الأخيرة مقموتاً جدًّاً، فكان يلقي أسئلةً كثيرةً عن أمِّه، ويظهر قلقاً شديداً عليها. وكان يتعذَّبُ عذاباً قويًّاً يخيف دونيا وينذرها بأسوء العواقب، ومنذ عرف راسكولنيكوف حالة بولخيريا الكسندروفنا معرفةً دقيقةً، أصبح قاتم النفس، مظلم المزاج، ولقد كان لسببٍ ما قليل الكلام مع سونيا خاصةً، فهو لا يبوح لها بما في نفسه، وكانت سونيا بفضل المال الذي تركهُ لها سفدريجايلوف، قد تهيأت منذ مدَّةٍ مديدةٍ لأن تتبَّع قافلة السُّجناء التي ستضمُّ راسكولنيكوف، أنَّهما لم يبحثا هذا الأمر في يومٍ ما أبداً، ولكنَّهما يعرفان كلاهما أن الأمر سيكون كذلك، وفي اللحظة الأخيرة، ابتسم راسكولينكوف ابتسامةً غريبةً حين سمع التأكيدات الحارَّة من أخته ومن رازوميخين عن المستقبل الجميل الذي ينتظرهم جميعاً عند خروجه من السِّجن، لقد كان يوجس إنَّ أمَّهُ ستموت قريباً.

وسلك أخيراً طريق المنفى تصحبهُ سونيا.

بعد شهرين تزوجت دونيتشكا رازوميخين، وكان الاحتفال بالعرس متحفظاً، وكان يرين عليه جو الحزن، وكان بين المدعوين بورفيري بتروفتش وزوسيموف، وقد اكتسى رازوميخين في الآونة الأخيرة مظهر رجلٍ قويَّ العزيمة ثابت الرأي، وكانت دونيا تؤمن إيماناً أعمى بأنَّه سيحقق جميع مشاريعه، وكان لا يمكنها، على كلِّ حالٍ، إلا أن تؤمن بذلك، فإرادةً حديديةً كانت تتجلى في هذا الرَّجل، ولقد استأنف، خاصةً، متابعة دروس الجامعة لينهي دراسته، وكانا كلاهما لا ينفكان يبنيان خططاً للمستقبل،

وكانا كلاهما ينتويان حقّاً إن يرحلا إلى سيبيريا بعد خمس سنين، والى أن يحيى هذا، كانا يتّكلان على سونيا.
وقد باركت بولخيريا الكسندروفنا زواج ابنتها وفرحت به، لكنها سرعان ما سقطت في حزنٍ أشد، وأسى أكبر، ومن أجل أن يهيئ لها رازوميخين بضع لحظاتٍ من فرحٍ قصّ عليها قصّة الطالب وأبيه العاجز، وحكى لها حكاية الحريق الذي حدث في السّنة الماضية، والذي برز فيه روديا بطلاً ينتزع الطفلين من بين ألسنةِ اللهب حتى أنّه مرض بسبب ذلك. فكانت القصص تلقي بولخيريا الكسندروفنا التي كان عقلها قد اهتزّ وأصابهُ اختلال، تلقيها في نشوةٍ تشبه أن تكون وجداً، حتى أصبحت لا تتكلّم إلا عن هذا، وحتى مضت في هذا إلى حدِ استيعاب النّاس في الشّارع لتقص عليها هي أيضاً..... (هذا رغم أن دونيا ترافقها حيث تذهب)، أصبحت بولخيريا تتجهُ إلى أوّل إنسانٍ تلقاه، في عربات الخيل، في الدكاكين، في أي مكان آخر، فتأخذ تكلمه عن ابنها وعن مقالته، وتأخذ تشرح له مسهبةً مفيضةً كيف أنَّ ابنها بذل لأحد الطلاب أكبر العون، وكيف اقتحم ألسنة اللهب في أثناء الحريق، وهلمَّ جرا.
وكانت دونيا لا تعرف ماذا يجب عليها أن تعمل لتهدئتها، كان تخشى خطر مثل هذه الحماسة وهذا الاندفاع على صحّة أمها المريضة، وكانت تخشى أيضاً حين يسمع أحدٌ اسم راسكولنيكوف أن يتذكر الدّعوى وأن يتحدث عنها.
وقد اكتشفت بولخيريا الكسندروفنا عنوان أم الطفلين اللذين أنقذهما روديا، وأرادت أن تزورها مهما كلّفَ الأمر، وبلغ قلقها أبعاداً خطيرها في النهاية، فهي تارةً تنفجر باكيةً ناشجةً، وهي تارةً أخرى تتكلُ هاربةً هاذيةً. وفي ذات صباحٍ أعلنت فجأةً أنَّ روديا ـ وفقاً لحساباتها ـ عائد في القريب، فقد وعدها وهو يودعها ـ وهي تتذكر وعده ـ أنّه سيرجع بعد تسعة أشهر، وسرعان ما شرعت ترتّبُ الشّقة استعداداً لعودته، فهيأت له غرفتها، ودلكت

الأثاث، وغسلت، ومسحت، وعلّقت ستائر جديدة، الخ، ولم تقل دونيا شيئاً، رغم جزعها، ساعدتها في هذه الاستعدادات، وبعد أن قضت بولخيريا الكسندروفنا ذلك النهار كلَّهُ في تخيُّل أشياءٍ تبلغ غاية الجنون، وفي البكاء والانقياد للأحلام، مرضت في تلك الليلة ذاتها، فما طلع الصَّباح حتى كانت في هذيان، فقد اعترتها حمى شديدة، ثمَّ ماتت بعد أسبوعين.

وقد أفلتت من لسانها في أثناء الهذيان، أقوال يفهم المرء منها أكثر بكثيرٍ مما كان يفترض صهرها، وتفترض ابنتها.

ظلَّ راسكولنيكوف مدَّةً غير قصيرةٍ يجهل أن أمه ماتت رغم أنَّه استطاع بفضل صوفيا أن يتلقى أنباء من بطرسبورغ منذُ وصوله إلى سيبيريا، كانت سونيا تكتب إلى رازوميخين كلَّ شهرٍ دون تخلف، وكلُّ شهرٍ أيضاً كانت تتلقى رسالة من بطرسبورغ، وفي أول الأمر رأت دونيا ورأى رازوميخين أن رسائل سونيا جافة، وأنَّها لا تبعث على كفاية من الرِّضا، ولكنهما اعترفا كلاهما أخيراً أنَّ سونيا لا تستطيع أن تفعل خيراً من ذلك، وأنَّ من السَّهل عليهما أن يكونا من هذه الرسائل فكرةً دقيقةً واضحةً عن الظروف التي يعيش فيها أخوهما البائس، كانت رسائل سونيا زاخرةً بتفاصيلٍ يوميةٍ، وكانت تشتمل على أوصافٍ واضحةٍ بسيطةٍ عن نوع الحياة التي يحياها راسكولنيكوف في المعتقل، كانت لا تقول شيئاً عن آمالها وعن أحلامها المتصلة بالمستقبل، لا ولا عن عواطفها الشخصية، كانت سونيا في هذه الرسائل، بدلاً من أن تحاول تصوير حالة راسكولنيكوف النفسية وحياته الروحية، تذكر وقائع جرت له، وتنقل أقوالا قالها، وتقدم تفاصيل عن صحته، ولا تفعل مع ذلك عن ذكر الرَّغبات التي عبَّر عنها في أثناء هذا اللقاء أو ذاك، وما كلفها بأن تنقله إليه، الخ، وكانت هذه الأخبار كلها مفصلة، فاستطاعت دونيا أن ترسم صورةً واضحةً عن أخيها، ولم يكن من الممكن أن يحدث أيَّ خطأ، لأنَّ جميع الوقائع كانت صادقة.

غـير أن جميـع هـذه الأنبـاء، لاسـيَّما في البدايـة، لم تحمـل إلى دونيـا وزوجهـاً كـثيراً مـن العـزاء أو الطمأنينـة. كانـت سـونيا تبلغهمـا أنَّ راسـكولنيكوف لا يـبرح قـاتم المـزاج، مظلـم الـرُّوح، صـموتاً قبـل الكـلام، وهـو لا يكـاد يهـتم بالأخبار التي تنقلها إليه كلَّما تلقت رسـالة منهمـا، وهـو يسـأل أحيانـاً عـن أمِّـهِ فلمَّا رأت أنَّه أوجس الحقيقة، فأبلغته النبأ الرَّهيب عن وفاتها، أدهشـها أنَّـه لم يبدو عليه أنَّ ذلك أثَّر في نفسه تأثيراً كبيراً، فيما تدلُّ عليه المظاهر الخارجيـة على الأهل.

وكانت سونيا تقول لهما أيضاً أنَّه رغم انطوائه علـى نفسـه دائمـاً، يبـدو راضـياً بحياته الجديدة بصدقٍ واستقامةٍ وبساطةٍ، وأنَّه يدرك الوضع

الـذي هـو فيـه ، ولا يتوقَّـع أن يتحسـن مصـيره ، في مسـتقبلٍ قريـبٍ ، و أنَّـه لا يـراوده أيُّ أمـلٍ باطـلٍ في غـير محلِّـه (كمـا يحـدث عـادةً للسـجناء ) ، و أنَّـه لا يدهشهُ من شيءٍ تقريباً ، رغم ما هنالك من تعارض وتناقض بين حياته الرَّاهنـة وحياته السَّابقة.

وكانـت تقـول لهمـا إنَّ صـمتهُ حسـنةً، وأنَّـهُ يمضـي إلى الشُّـغل دون تهـرُّبٍ أو تملُّص، ودون نشاطٍ كاذبٍ أو حماسةٍ زائفةٍ، وأنَّه لا يكـاد يهتمُّ بأمر الطَّعـام، ولكـنَّ هـذا الطعـام، في غـير أيـام الآحـاد والأعيـاد، يبلـغ مـن السُّـوء أنَّ راسكولنيكوف أصبح أخيراً يقبل بعض المال من سونيا، ليسـتطيع أن يحصـل لنفسه على شيءٍ من الشَّاي (أما فيما عدا ذلك، فقد رجاهـا ألا تقلـق عليـهِ وألَّـا تهتمَّ بهِ، وقال لها أن عنايتها به تثقل على نفسه وتضايقه).

وكتبـت لهمـا سـونيا كـذلك أنَّـه في السِّـجن يسـكن مـع السُّـجناء الآخـرين في مبنى مشترك، وأنَّها لم تدخله، ولكنَّ ظاهر المباني يدلُّ على أنَّ المكـان ضـيق قذر غير صحي، وأن راسـكولنيـكوف يرقد على لوحٍ من الخشب مغطى بلباد، فهو لا يريد أن يصنع لنفسه سريراً آخر، وإنَّه على كـلِّ حـالٍ، إذا كـان يعـيشُ حياةً خشنةً قاسيةً فقيرةً إلى هذا الحد، لا يفعـل ذلـك التزامـاً بفكـرةٍ سـابقةٍ أو

تقيُّداً بمبدأ معين، بل لأنَّه لا يكترثُ للظروف الماديَّة ولا يحفل بها.
وكتبت سونيا بصراحةٍ أنَّه، في أول الأمر خاصةً، لم يكن يعبأ بزيارتها، حتى لقد كان يظهر لها شيئاً من الاستياء، ولا يفتح فمه بكلمة، ويعاملها معاملةً أميل إلى الفظاظة، غير أنَّ تجاهلها أصبحت عادةً له بعد ذلك، وأوشكت أن تصير حاجة، حتى أنَّ الزَّمن باله طويلاً في أثناء الأيام القليلة التي لم تستطع أن تزورهُ خلالها بسبب مرض ألمَّ بها، إنَّها في أيام الأعياد تراه عند بداية السِّجن، من وراء القضبان الحديدية، أو تراه في غرفة هيئة الحرس التي يؤتى به إليها بضع دقائق، وأما في الأيام الأخرى فإنها تراه في أثناء الشُّغل، في ورشات العمل، أو في مصانع الآجر، أو في المستودعات القائمة على ضفاف نهر ايرطيش، أما عنها هي فلم تزد على إشارةٍ إلى أنَّها استطاعت أن تخلق لنفسها في المدينة علاقات تسندها وتشدَّ أزرها، وأنَّها تعمل في الخياطة، وأنَّها لقلَّةِ الخياطات في المدينة أصبحت بيوتٌ كثيرة لا تستغني عنها، ولكن سونيا أسقطت ذكر إفساح المجال أمام راسكولنيكوف ليحظى بشيءٍ من العطف عليه، فكانت سلطات السِّجن تراعيه بعض المراعاة، وكانت الأشغال التي يعهد بها إليه غير شاقةٍ كثيراً، الخ.....
ثمَّ وصل النبأ الذي يقول (وقد استطاعت دونيا أن تستشعر شيئاً من القلق والعصبية في الرسائل الأخيرة التي بعثتها سونيا) أنَّ راسكولنيكوف يتحاشى جميع السُّجناء الآخرين، وأنَّ هؤلاء لا يحبونه كثيراً، وأنَّه يظلُّ صامتاً ساعاتٍ بكاملها، وأنَّ شحوبهُ يزدادُ شيئاً بعد شيء، وكتبت سونيا أخيراً في ذات يومٍ أنَّ راسكولنيكوف مريضٌ جدّاً، وأنَّه يعالج في مستشفى المعتقل.

# الفصل الثاني

لقد كان مريضاً منذُ مدَّةٍ مديدةٍ، ولكنَّ لا الأهوال التي تشتمل عليها حياة السَّجين، ولا الأشغال الشَّاقة، ولا الطعام الرَّديء، ولا حلق شعر الرَّأس، ولا الملابس المصنوعة من القصاصتين المصنوعتين من لونين متباينين، لا شيء من هذا كلَّهُ هو الذي حطَّمه! لا، لا، إنَّ جميع هذه الأنواع من البؤس والعذاب لا تعنيه في شيء! بالعكس: لقد كان يرضيهِ أن يكون عليه أن يعمل عملاً مضيفاً، إنَّه حين يرهقه العمل الجسمي يستطيع على الأقل أن يتمتع ببضع ساعاتٍ من نومٍ هادئٍ مريح، أما الطَّعام الرَّديء، أما حساء الكرنب ذاك المليء بالصراصير، فأنَّه لايهمَّهُ البتة، ألم يتفق لهُ، حين كان طالباً، في أوَّلِ عهدهِ بالحياة، ألا ينعم حتى بمثل هذا الطعام؟ وأما ملابسهُ فقد كانت تكفل له الدفء، وهي تلائم طراز الحياة الجديدة التي يحياها، فماذا يريد أكثر من ذلك؟ وأما الأغلال الحديدية، فقد كان يكاد لا يحسُّها..... وهل يخجل من أن يكون شعر رأسه محلوقاً أو من ملابس السَّجين؟ يخجل أمام من؟ أمام سونيا؟ إن سونيا تخاف منه وتخشاه، فكيف يمكن أن يشعر أمامها بخجل؟

ومع ذلك كان يشعرُ بخجلٍ حتى أمام سونيا، سونيا التي ينتقم منها، فيعاملها باحتقارٍ وفظاظةٍ، ولكنَّ هذا الخجل أو هذا الشعور بالخزي والعار يرجع لا إلى شعر رأسه المحلوق، ولا إلى أنَّه مكبَّلٌ بالسلاسل! إنَّ ما كان يشعره بالخزي والعار، وما كان يؤلمهُ ايلاماً شديداً حتى جعله مريضاً، إنَّما هو الجراح التي أصيبت بها كبرياؤه! آه.... لقد كان يمكن أن يسعد أشدَّ السَّعادة لو كان في وسعه أن يتهم نفسه، وأن يدين نفسه! لو استطاع هذا إذاً لأمكن أن يحتمل الخزي وأن يحتمل العار! ولكنَّهُ مهما تشتدُّ قسوته في إدانة نفسه، فإنَّ ضميرهُ المتصلب كان لا يجد في ماضيهِ أيَّةُ خطيئةٍ فظيعةٍ، اللهمَّ إلا أن تكون هذه الخطيئة هي أنَّ ضربتهُ قد أخفقت، صحيحٌ أنَّ هذا يمكن

أن يقع لجميع النَّاس، ولكنَّهُ كان يشعر بالخزي من أنَّه ضاع بمثل هذه الحماقة، بمثل هذا الإنهيار، ومن أنَّه خاصةً مضطرٌ، هو راسكولنيكوف، أن ينصاع لحكم هذا القدر الأعمى، وأن يخضع أمام "سخافة" هذا الحكم، إذا هو أراد أن يستردَّ الهدوء والسَّكينة.
إنَّ قلقاً لا موضوع له ولاغاية في الحاضر، وإنَّ تضحيةً متصلةً غير منقطعةٍ في المستقبل لا يستفيد منها شيئاً، ذلك هو كلُّ ما ينتظرهُ هنا على هذه الأرض. فأيَّةُ فائدةٍ إذاً في أن يقول لنفسه أنَّه بعد ثماني سنين لن يكون عمره قد تجاوز اثنتين وثلاثين سنة، وأنَّه ما يزال يستطيع أن يلاحقها؟ ما هو الهدف الذي ما يزال يمكنهُ أن يسعى اليه؟ ماذا يفيده وماذا يجديه أن يستمر في الصِّراع والكفاح؟ أيحيا من أجل أن يوجد؟ إلا أنَّه كان طوال حياته مستعدَّاً لأن يضحي بوجودهِ ألفَّ مرَّةٍ في سبيل فكرة، في سبيل أمل، بل وفي سبيل تحقيق نزوة! إنَّ الوجود في ذاته لم يكن كافياً في يوم، وإنَّما هو يطمع دائماً في أكثر من ذلك! ولعلَّ عنف رغباته كان وحده السَّبب في أنَّهُ ظنَّ نفسه إنساناً يجوز له مالا يجوز لسواه، ولو أنَّهُ قدِّرَ لهُ الندامة، الندامة الكاوية التي تحطم القلب وتطرد الندامة، الندامة التي تجعل صاحبها يفكِّر بالانتحار شنقاً أو غرقاً، إذاً لكان سعيداً كلَّ السَّعادة! إنَّ الآلام والدُّموع هي الحياة أيضاً! ولكنَّ راسكولنيكوف لم يكن نادماً على اقتراف جريمته، ولو كان نادماً لاستطاع أن يغضب من حماقته، كما غضب في الماضي من أفعاله الضالَّة الغبية التي قادته إلى المعتقل، أما وقد أصبح في المعتقل، وأصبح يستطيع أن يفكِّر في تلك الأفكار بحريَّةٍ تامةٍ، فإنَّه لا يراها شاذَّةً ولا سخيفةً إلى الحدِّ الذي تراءة له قبل ذلك في اللحظة المشئومة المحتومة، إنَّه الآن يقول لنفسه: "هل فكرتي أغبى من تلك الأفكار والنظريات التي تجري في هذا العالم وتتصادم منذ أن وجد العالم؟ يكفي أن نواجه الأمور بنظرةٍ موضوعيةٍ واسعةٍ متحررةٍ من الأفكار السَّابقة اليومية حتى ندرك أنَّ فكرتي ليست.... غريبةً إلى ذلك

الحدِّ من الغرابة الذي قد يتوهمه بعضهم... أيها الجاحدون، أيها الفلاسفة التَّافهون، لماذا تتوقفون في منتصف الطريق.

غريب، لماذا تبدو لهم فكرتي شاذَّةً إلى هذا الحد؟ ألأنَّها جريمة؟ ماذا تعني كلمة: جريمة؟ إنَّ ضميري مرتاح، صحيحٌ أنَّ جريمةً وقعت، صحيحٌ أنَّ نَصَّ القانون قد اختُرق وأنَّ دماً قد سفك، فإذا كان الأمر أمرُ تقيُّدٍ بنصِّ القانون، فاقطعوا رأسي.... وكفى! ولكن يجب أن نذكر في هذه الحالة أنَّ كثيراً من العظماء الذين أحسنوا إلى الإنسانية ولم يكونوا قد ورثوا السُّلطة وراثةً، وإنَّما استولوا عليها استيلاء، كان ينبغي أن تقطع رؤوسهم منذ أن خطوا خطواتهم الأولى، إنَّ الفرق الوحيد بين هؤلاء وبيني هو أنَّهم قد احتملوا ثقل أفعالهم، فكان ذلك مبرراً لهم، أما أنا فلم أقدر على الاحتمال، إذاً لكان لا يحقُّ لي أن أجيز لنفسي القيام بتلك الخطوة.

تلك هي الخطيئة الوحيدة التي كان راسكولنيكوف يلوم نفسه عليها: وهي أنَّه لم يستطع أن يحتمل، بل مضى بشيءٍ في نفسهِ ويعترف بجريمته، وكان يتألَّم أيضاً حين يخطر بباله هذا السؤال، لماذا لم ينتحر حينذاك؟ لماذا، حين مالَ على ماء النهر، آثر أن يشي بنفسه؟ هل يمكن أنَّ حبَّ الإباء قويَّاً هذه القوة، يصعب التغلب عليه إلى هذه الدَّرجة من الصُّعوبة؟ إنَّ سفدريجايلوف الذي كان يخشى الموت، قد استطاع مع ذلك أن ينتصر على حبِّ الحياة هذا

كان راسكولنيكوف يعاني من إلقاء هذه الأسئلة على نفسه عذاباً شديداً ولا يستطيع أن يدرك أنَّه حين مال على ماء النهر، فلعلَّه أوجس في نفسه وفي قناعة كذباً، إنَّهُ لم يدرك أنَّ هذا التوجُّس قد يكون علامة انعطاف مقبلٍ في حياته، وبشارةَ انبعاثٍ جديدٍ، واستباقاً لتصوره الحياة في المستقبل تصوراً آخر. وإنَّما كان يتوهم أنَّ هذا من ثقل الغريزة البليد، وأنَّه من عجزهِ وجبنهِ لم يستطع التغلُّب على ذلك الثقل، وكان إذ يلاحظ رفاقه في الأسر يدهشهُ ما يراه من أنَّهم جميعاً يحبون الحياة حباً قويَّاً، ضافياً، ويظلون متعلقين بها أكثر

مما يمكن أن يحبوها وأن يتعلقوا بها لو كانوا طلقاءَ أحراراً، ومع ذلك ما أقسى أنواع العذاب، وما أشدَّ ضروب الآلام التي كان يعالجها بعضهم! المتشردون مثلاً.... هل يمكن حقّاً أن يكون هذا الشّأن الكبير كلّهُ وأن تكون تلك القيمة العظيمة كلّها، في نظرهم، لشاع من شاع، لغابةٍ متوحشةٍ، لنبع ماءٍ باردٍ قرارةَ الأحراج (نبع رآه أحدهم منذ ثلاث سنين، فأصبحت صورتهُ تلازمه حتى لكأنَّها صورة لقاء خليلته في المنام)، لنبتةُ عشبٍ خضراء طالعةً حول ذلك النَّبع، أو لطيرٍ يغرِّدُ في الأدغال؟

وأمعن راسكولنيكوف في الملاحظة بعمقٍ، فكانت تفجأ بصره، وتثير دهشته، أمثلة أعسر فهماً من مثال المتشردين أيضاً، إن في المعتقل أموراً كثيرةً كانت تفوته، وكان هو لا يريدُ أن يراها على كلِّ حالٍ لقد كان يعيش غاضّاً بصرهُ خافضاً عينيه إن صحَّ التعبير، كان النظر ما حولهُ يثيرا اشمئزازاً، غير أنَّ أشياء أخذت تفاجئه آخر الأمر، فإذا، هو على غير علمٍ منه تقريباً، قد بدأ يرى ما لم يكن يدور في آخر خلدهِ أو يخطر قبل ذلك، ولعلَّ ما أدهشهُ أكثر من شيءٍ هو الهوةُ الرَّهيبة، هذه الهوة الرَّهيبة، هذه الهوة لا يمكن اجتيازها، أعني رؤية الهوة التي تفصله عن هؤلاء النَّاس، لكأنَّهم ينتمون إلى أجناسٍ مختلفةٍ، إنَّهم ينظرون بعضهم إلى بعض نظرةَ شكٍّ وعداوةٍ، وكان راسكولنيكوف يعرف ويفهم الأسباب العامة لهذا التنافر، ولكنَّهُ لم يتصور في يومٍ أنَّ هذه الأسباب يمكن أن تبلغ هذا المبلغ من العفَّةِ والقوة، وكان في السِّجن أيضاً سجناء بولنديون نفوا إلى سيبيريا لجرائم سياسية، فكان هؤلاء ينظرون إلى الآخرين نظرتهم إلى رعاعٍ وعبيدٍ، ويعاملونهم باحتقارٍ وازدراءٍ، غير أنَّ راسكولنيكوف كان لا يستطيع أن يشارك في هذا الرأي، ذلك أنَّه كان يدركُ بوضوحٍ أنَّ هؤلاء الرعاع كانوا من نواحٍ كثيرةٍ أذكى من أولئك البولنديين أنفسهم، وكان الروس أيضاً يزدرون رفاقهم ازدراءً مميَّزاً. ولاسيَّما ضابطٌ سابق، ورجلان مثقفان، وقد أدرك

راسكولنيكوف خطأ هؤلاء أيضاً.
ومع ذلك لم يكن يحبُّهُ أحد، وكان الجميع يتحاشونه ويتجنبون صحبتهُ، وانتهى بهم الأمر إلى كرهه، لماذا؟ لا يدري! كان بعضهم، وهم أشدُّ إجراماً منهُ، يحتقرونه ويهزئون منه، ويجعلون جريمتهُ محلَّ سخريةٍ وتفكُّهٍ وهرجٍ!
كان هؤلاء يقولون له:
أنت سيد! فهل شأنك أنت أن تقتل بضربات فأس؟ ليس هذا شأنٌ من شؤون السَّادة!
وفي الأسبوع الثاني من الصَّوم الكبير، جاء دورهُ للاعتراف والتناول مع سائر تصنيفه، فعل كما فعل الآخرون، فذهب إلى الكنيسة وصلَّى ولكنَّ مشاجرةً شبَّت في ذلك اليوم دون أن يعرف السَّبب، لقد هجم عليه الجَّميع باندفاعٍ شديدٍ، وأخذوا يصيحون في وجهه:
أنت ملحدٌ! أنت لا تؤمن بالله! يجبُ قتلك!
أنَّه لم يكلِّمهم في يومٍ عن الله، ولا عن الدِّين، ولكنَّهم يريدون قتلهُ بحجَّةِ ملحدٍ لا يؤمن بالله، لم يعترض، وصمت، ووثب أحد السُّجناء نحوهُ مهتاجاً مسعوراً، فانتظرهُ راسكولنيكوف هادئاً صامتاً، لم يحرِّك ساكناً، لم يتزحزح من مكانه، واستطاع أحد الحرَّاس أن يبادر فيحول بين المهاجم وبين راسكولنيكوف في اللحظة التي همَّ فيها الرَّجل أن يفتك بالضحية، فلو تأخَّرَ الحارسُ لحظةً واحدةً لسال الدَّم.
هناك مسألة أخرى لم يستطع راسكولنيكوف أن يجد لها حلَّاً:
لماذا تعاطفوا جميعاً على سونيا وأحبوها؟ كانت سونيا لا تحظى بمودتهم، وكانوا لا يلقونها إلَّا في مناسباتٍ نادرةٍ، خلال العمل، حين تجيء لتراهُ لحظةً واحدةً، ومع ذلك عرفوها جميعاً، وعرفوا جميعاً أنَّها تبعته هو، وعرفوا جميعاً كيف تعيش وأين تسكن، وهي لا تهبهم مالاً، وتقدِّمُ لهم خدماتٍ خاصةً، مرَّةً واحدةً، في عيد الميلاد، حملت هديَّةً إلى السِّجنِ كلَّهُ: فطائر صغيرة، وخبزاً

أبيض، غير أنَّ علاقاتٍ قويَّةً انعقدت بينهم وبين سونيا شيئاً فشيئاً.

أصبحت تتولى عنهم كتابة الرَّسائل إلى أُسرهم، وتضع الرَّسائل في البريد، وإلى سونيا إنما كان أقرباء السُّجناء من الرِّجال والنساء الآتين من المدينة، يعهدون بالأشياء أو حتى بالأموال التي يريدون إرسالهم إليهم، بإشارةٍ من السُّجناء أنفسهم، كانت نساء السُّجناء، يعرفن سونيا ويسعين إليها في بيتها، وكان السُّجناء، إذا هي ظهرت في ورشات العمل لترى راسكولنيكوف، أو صادفت فريقاً منهم ذاهباً إلى العمل، يرفعون لها طاقياتهم احتراماً ويحيونها جماعةً، كان هؤلاء الجفاة الغلاظ الموسومون يقولون للفتاة الهزيلة النحيلة الضعيفة: "ماتوشكا" صوفيا سيميونوفنا، أنت أمنا الحنون الرؤوم"، وكانت سونيا تردُّ على تحيتهم، وتبتسم لهم، كانوا يحبون حتى طريقة مشيتها، فإذا مرَّت التفتوا يتابعونها بنظراتهم، كانوا لا يعرفون كيف يمدحونها مزيداً من المديح، وإذا مرضوا ذهبوا يلتمسون عندها علاجاً.

قضى راسكولنيكوف في مستشفى السِّجن نهاية الصَّوم الكبير كلَّها، وعيد الفصح كلَّهُ، فلمَّا أصبح في دور النقاهة تذكَّر الأحلام التي رآها حين كان مريضاً يعاني سكرات الحمى والهذيان، لقد حلم، طوال مدَّةِ مرضهِ، بأنَّ العالم كلَّهُ قد كتب عليه أن تلمَّ بهِ مصيبةً رهيبةً لا عهد له بمثلها من قبل، مصيبةً وفدت من آخر آسيا ونزلت بأوروبا، وأنَّ جميع النَّاس سيهلكون إلا شريحةً قليلةً مختارة، إنَّ طفيلياتٍ من نوعٍ جديدٍ قد ظهرت، واختارت أجسام البشر مسكناً لها، غير أنَّ هذه الهوام المكروسكوبية -المجهرية - لا ترى بالعين المجردة ـ كائنات مزوَّدة بعقلٍ وإرادة، والبشر الذين تتغلغل في أحشائهم وكيانهم كلُّهُ يصابون فوراً بالجنون المسعور، ولكنهم يعدُّون أنفسهم على ذكائهم العظيم ما لم يعدَّهُ البشر لذواتهم في يومٍ قط، فهم يعتقدون بأنَّهم معصومون من الزَّلل، مبرأون من الخطأ في أحكامهم، في نتائجهم العلمية، في مبادئهم الأخلاقية والدينية، إنَّ قرى ومدُناً وأُمماً بكاملها

قد سرت إليها هذهِ العدوى، وفقدت العقل، أصبح أفرادها يعيشون في حالةِ جنون، لا يفهم بعضهم عن بعض شيئاً، لا يفهم أحدهم عن غيرهِ شيئاً، كلٌّ منهم يؤمن أنَّه الإنسان الوحيد الذي يمتلك الحقيقة، فإذا نظر إلى الآخرين تألَّمَ، وبكى، ولطمَ صدرهُ، وعقف يديهِ لوعةً وحسرةً، وأصبحوا لا يستطيعون أن يتفاهموا على ما ينبغي أن يُعدَّ شراً وما ينبغي أن يُعدَّ خيراً، أصبحوا لا يستطيعون لا أن يدينوا ولا أن يتبرَّوا. أصبح البشر يقتل بعضهم بعضاً تحت سيطرة بغضٍ لا معنى له وكرهٍ لا يفهم، هم يجتمعوا ليؤلفوا جيوشاً جرَّارة، فما أن يدخلوا معركة حتى يندلع الشّقاقُ في جميع الصفوف فتنحل الجيوش، ويبدأ الجنود يهجم بعضهم على بعض، فيعضٌّ بعضهم بعضاً، ويذبح بعضهم بعضاً، ويلتهم بعضهم بعضاً.

في المدن يدق ناقوس الخطر طوال النهار، ويستنفر الشَّعب، ولكن من الذي يستنفرهُ؟ ولماذا؟ ذلك أمرٌ لا يعرف أحد عنه شيئاً، الرعب يستبد بعموم الشَّعب، المهن العادية هجرها أصحابها، لأن كلَّ واحدٍ يعرض آراءه وإصلاحاته، وما من أحدٍ يستطيع أن يتفق مع أحد، الزِّراعة أُهملت إهمالاً تامَّاً، هنا وهنا يجتمع أناسٌ فيشكِّلون جماعاتٍ ويتفاهمون على القيام بعملٍ مشترك، متعاهدين بالفظ الأيامين على ألا يتفرقوا البتة، ولكنَّهم لا يلبثون أن يشرعوا في شيءٍ لا يمتُ بأيَّةِ صلةٍ إلى ما عقدوا النيَّةَ على القيام به، ثمَّ لم يلبثوا أن يشرعوا بالتراشق بالتهم، ثمَّ أن يقتتلوا فيذبح بعضهم بعضاً، وتشتعل الحرائق، وتظهر المجاعة، كلُّ شيءٍ يصيبهُ الدَّمار، وجميع النَّاس تقريباً يهلكون، البلاء ما ينفكُّ يشتدُّ قوَّةً ويتسع مدى، ولا ينجو من البلاءِ إلا عدداً قليلاً من النَّاس: هم الأتقياء الأطهار، المصطنعون الأخيار، الذين كتب عليهم أن ينشئوا جنساً جديداً، وأن يقيموا حياةً جديدةً، أن يحرثوا الأرض لتتطهر، فتزرع غير أن أحداً لم يرَ أولئك الأفراد في مكان، ولا سمع أقوالهم ولا سمع أصواتهم، إنَّ ما كان يشقُّ على راسكولنيكوف هو أنَّ ذلك الهذيان السَّخيف

يترجَّعُ في ذاكرتهِ ترجُّعاً حزيناً وأليماً، وإنَّ الانطباع الذي خلَّفتهُ تلك الأحلام المؤلمة لا يُمحى إلا ببطء.

وجاء الأسبوع الثَّالث بعد عيد الفصح، وأصبحت الأيام دافئةً مضيئةً، هي أيامُ ربيعٍ، فتحت نوافذ المستشفى لأوَّلِ مرَّةٍ (هي نوافذ ذات قضبانٍ حديديةٍ يحرسها خفير).

طوال مدَّةِ مرض راسكولنيكوف لم يسمح لسونيا أن تزوره سوى مرَّتين، وقد اضطرت في المرتين كلتيهما أن تطلب إذناً بذلك ، فكان يقتضيها هذا أن تقوم بمساعٍ معقدةٍ جدَّاً . لكنَّها كثيراً ما كادت تسهر ، ولا سيَّما عند هبوط الليل لتنظر إلى النوافذ من بعيد ، و لتمكُث في الفناء بضع دقائقٍ أحياناً .

ففي أمسيةٍ من الأمسيات ، وكان راسكولنيكوف قد شفي من مرضه تقريباً و كان نائماً، صحا من نومه و اقترب من النافذة مصادفةً ، فإذا هو يلمح سونيا تحت ، قرب الباب، كانت واقفةً و كأنَّها تنتظر شيئاً، فشعر راسكولنيكوف بما يشبه طعنةً نفذت في قلبه ، فارتعش وأسرع يبتعد عن النافذة ولم تجيء سونيا في غدٍ، ولا جاءت بعد غدٍ، فأدرك راسكولنيكوف عندئذٍ أنَّهُ ينتظرها بفارغ الصَّبر، وخرج أخيراً من المشفى ، فلمَّا عاد إلى السِّجن علم من المساجين أنَّ سونيا سيمينوفنا مريضةً ، و أنَّها ملازمةً غرفتها لا تبرحها، قلق راسكولنيكوف قلقاً جازماً، وأرسل يسأل عنها، فلم يلبث أن عرف إنَّ مرضها ليس خطيراً، وحين علمت سونيا من جهتها أنَّهُ يتألم من غيابها عنهُ، وأنَّهُ قلقٌ عليها، بعثت إليه برسالةٍ كتبتها بقلم رصاصٍ، وفيها تنبئه بأنَّ صحتها تحسنت كثيراً ، و إنَّ مرضها لم يكن إلا برداً بسيطاً، وأنَّها ستمضي تراهُ في أثناء العمل في أقرب وقتٍ، فإنَّ قلب راسكولنيكوف يخفق خفقاناً موجعاً خلال قراءة الرِّسالة.

كان النهار في هذه المرَّةِ كذلك مضيئاً دافئاً، ومضى راسكولنيكوف إلى العمل على ضفاف النهار في ساعةٍ مبكرةٍ من الصَّباح هي السَّاعة السَّادسة،

وذلك تحت سقيفةٍ أعدَّ عندها فرنٌ لحرقِ الرُّخام الشَّفاف وسَحقهِ، لم يرسل إلى هذا المكان إلا ثلاثة عمَّالٍ من السُّجناء، فأما الأول فقد عاد مع المراقب إلى السِّجن ليجيء بالأدوات، وأما الثاني فكان يهيئُ الحطب ويضعهُ في الفرن، وخرج راسكولنيكوف من تحتِ سقيفةٍ، واقترب من الشَّاطئ، وجلس على إحدى عوارض الخشب المصطنعة قرب المبنى، وأخذ يتأمَّل النَّهر العريض المقفر، إن المرء يرى، من على هذه الضِّفة العالية، هضبةً واسعةً، ووصل من الضِّفة الأُخرى غناءٌ لا تكاد تسمعه الآذان، إنَّ هناك في المرج الذي تغمرهُ الشَّمس، والذي يمتد على مدى البصر، خيامُ بدوٍ رُحَّل، يتراءى للناظر إليها نقاطاً صغيرةً سوداء، هناك الحريَّة، هناك يعيش بشرٌ آخرون، يختلفون كلَّ الاختلاف عن البشر الذين يعيشون هنا، هناك يبدو الزَّمان متوقفاً كأنَّ عصر إبراهيم وقطعانه لما ينصرم بعد، كان راسكولنيكوف ينظر إلى ذلك المشهد جالساً في مكانه جامداً على وضعه، لا يستطيع أن يحوِّلَ عنه بصرهُ.

لقد انزلق فكرهُ نحو الاسترسال في الأحلام، والاستغراق في التأمل دون أن يحس، أصبح لا يفكِّرُ في شيءٍ، واجتاح نفسهُ حزنٌ كبير.

وفجأةً وقفت سونيا أمامه، كانت قد دنت منه دون ضجَّةٍ وها هي ذي تجلس إلى جانبه، إن برودة الصَّباح لم تكن قد خفت بعد، وكانت سونيا ترتدي معطفاً مهترئاً فقيراً، وتضع الشَّال الأخضر، وكان وجهها النَّاحل المصغَّر ما يزال يحمل آثار مرضها الأخير، ابتسمت لهُ برقَّةٍ ولطفٍ، مرحةَ الهيئة، وكأنَّها على هيئتها لم تمدد إليه يدها إلا خجلةً وجلةً.

كانت دائماً تمدُّ يدها إليه على خجلٍ ووجلٍ، وكانت في بعض الأحيان لا تمدَّها لهُ البتة، كإنَّما هي تخشى أن يدفعها عنه، كان يبدو عليه دائماً أنَّه يتناول يدها بنفورٍ وامتعاضٍ، وكان يبدو عليه دائماً أنَّه يستقبل الفتاة باستياءٍ ومضضٍ، وفي بعض الأحيان يصرُّ على الصَّمت بعنادٍ طول مدَّةِ الزِّيارة، وكانت سونيا في بعض الأحيان ترتعش أمامه خائفةً، ثمَّ تنصرفُ وفي نفسها

حزنٌ عظيمٌ وأسى رهيب، أما في هذهِ المرَّة فإنَّ يديهما لم تحاولا أن تنفصلا، ألقى راسكولنيكوف عليه نظرةً سريعةً خاطفةً، ولم يقل شيئاً، وخفض عينيهِ، كانا وحيدين، لم يكن أحدٌ يراهما، كان الحارسُ قد ابتعد للحظته، لا يدري راسكولنيكوف نفسهُ كيف حدث ما حدث، ولكنَّهُ يعرف أنَّه شعر فجأةً بشيءٍ يستبدُّ به، ويلقيه على قدمي سونيا، لقد ارتمى راسكولنيكوف على قدمي سونيا، وبكى، وضمَّ ركبتيها إلى صدره، وذعرت في أول الأمر ذعراً شديداً، وغشيت وجهها صفرةٌ كصفرةِ الموت، ثمَّ نهضت فجأةً، ونظرت إليه مرتجفةً مرتعشةً، ولكنَّها سرعان ما أدركت كلَّ شيءٍ بنظرةٍ واحدةٍ، أخذت عيناها تشعَّانِ بسعادةٍ لا حدودَ لها، لقد فهمت - دون أن يخالجها الآن في ذلك أيُّ شكٍّ - فهمت أنَّه يحبها، وأنَّه يحبها حبَّاً ليس له نهاية، وأنَّ تلك الدَّقيقة قد آن أوانها أخيراً.....

أراد أن يتكلَّما، ولكنَّهما لم يستطيعا، امتلأت عيناهما دموعاً، كان كلامهما شاحبي الوجه، هزيلي البدن، ولكن ها هو ذا فجَّرَ مستقبلاً جديد يسطعُ في وجهيهما منذ الآن شوقاً كاملاً إلى حياةٍ جديدةٍ، لقد بعثهما الحبُّ بعثاً جديداً، إن قلب كلٍّ منهما يفجِّرُ في قلب الآخر ينابيع حياةٍ لا تنضب.

قررا أن ينتظرا وأن يذعنا، ما يزال عليهما أن يقضيا سبع سنين أخرى في سيبريا، صحيحٌ أنَّهما سيتحملا في أثناء هذه المدَّةِ آلاماً لا تُطاق، ولكنَّهما سيسعدان أيضاً سعادةً ليس لها حدود! لقد انبعث راسكولنيكوف بعثاً جديداً، هو يعرف ذلك، هو يحسُّ ذلك بكلِّ كيانهِ الجديد، وهي، أليست تحيى بحياتهِ؟! أليست حياتها من حياتهِ؟ في ذلك المساء، في مبنى السِّجن المزلَّج، فكَّرَ راسكولنيكوف في سونيا وهو راقدٌ على مضجعه، وبدا لهُ في ذلك المساء أيضاً أنَّ جميع السُّجناء، وجميع أعدائه القدماء، نظروا إليه نظرةً جديدةً، ورأوهُ بأعينٍ أُخرى، لقد خاطبهم، فأجابوهُ برقَّةٍ ونعومةٍ، هو يتذكَّر ذلك الآن، ولكن أليس هذا ما يجب أن يكون؟! أليس يجب أن يتغيَّر كلَّ

شيءٍ بعد اليوم؟
فكَّرَ في سونيا. فتذكَّرَ أنَّه قد عذَّبها دائماً، وأنَّه كان يمزِّقُ قلبها تمزيقاً، تذكَّرَ وجهها الصَّغير الشَّاحب الذي ضوى ضوءاً شديداً، ولكنَّ هذه الذكريات أصبحت لا تكادُ تعذِّبهُ، فهو يعرف أنَّه سيكفِّرُ الآن عن جميع تلك الآلام بحبٍّ لا نهايةَ لهُ، ثمَّ ما قيمة تلك الآلام كلِّها الآن؟ إنَّ كلَّ شيءٍ، حتى الجريمة التي ارتكبها، وحتى الحكم الذي صدر عليه، والنفي الذي يعاني منه، إنَّ كلَّ هذا هو الآن في أثناء هذه الاندفاعة الأولى، يبدو له نسيجاً من وقائعَ خارجيَّةً عنهُ لا تتعلق بهِ، ولا تتناوله هو، ثمَّ إنَّ راسكولنيكوف، كان في ذلك المساء عاجزاً عن التفكير تفكيراً طويلاً متصلاً، وعن التَّركيز على نقطةٍ بعينها، وعن حلِّ مشكلةٍ من المشكلات على هدى وبصيرة، فأنَّه هو يشعر بإحساساتٍ، ولا شيء سوى الإحساسات، لقد حلَّت الحياة محلَّ الجدل، وفي أعمال نفسه راح ينضج شيءٌ آخر تماماً.
وكان تحت وسادته إنجيلٌ، فتناوله بحركةٍ آليةٍ، كان هذا الكتاب لسونيا، وهو ذات الكتاب الذي قرأت له منه في الماضي قصَّةَ انبعاثٍ لعازر، كان راسكولنيكوف يقدِّرُ في أول عهده بالسجن أنَّ سونيا ستشقفُ رأسهُ بالكلام عن الدِّين، وعن الإنجيل بغير انقطاع، وأنَّها ستحاول أن تفرض عليه كتباً دينيَّة، فما كان أشدَّ دهشتهِ حين لم تطرق هذا الموضوع قطعاً، لا ولا عرضت عليهِ أن تجيئه بالإنجيل قط، بل هو الذي طلب منها ذلك قبل مرضهِ بشيءٍ من الوقت، فحملت إليه الكتاب دون أن تقول كلمةً واحدةً.
وهو لم يفتحه في ذلك الأوان، بل إنَّ فكرةً عبرت رأسه الآن بسرعةٍ وومضةِ برق: "هل يمكن ألا تكون عواطفها وأشواقها هي عواطفي وأشواقي؟..."
وقد اضطربت سونيا اضطراباً شديداً طوال ذلك اليوم هي أيضاً، وألمَّ بها المرض مرَّةً أخرى في تلك الليلة، ولكن سعادتها كانت تبلغ من القوة، وكانت تبلغ من المباغتة، أنَّها تكاد ترعبها! سبع سنين، سبع سنين فقط.

ومرَّت بهما في البداية ساعاتُ نشوةٍ كان فيها كمن يُعدَّ السِّنين السَّبعَ أيَّاماً سبعة، كان راسكولنيكوف ما يزال يجهل أنَّ هذهِ الحياة الجديدة لن توهب له بغيرِ تضحيةٍ، على طبقٍ من محَّاراتٍ بل عليهِ أن يؤدي ثمنها باهظاً، وأن يحصل عليها بجهودٍ مقبلةٍ شاقَّةٍ مضنيَّةٍ إنَّما تبدأ هنا قصَّةً أُخرى، قصَّةَ تَجدُّدِ إنسانٍ شيءً فشيئاً، بل قصَّةُ انبعاثهِ رويداً رويداً، قصَّةُ انتقالهِ من عالمٍ إلى عالمٍ آخر متدرِّجاً، قصَّةُ معرفته بواقعٍ جديدٍ كان يجهلهُ حتى ذلك الحين كلَّ الجَّهلِ، هذا يصلحُ أن يكون موضوعَ قصَّةٍ جديدةٍ، أما قصتنا التي نرويها الآن فهي تنتهي هنا.